اوربا

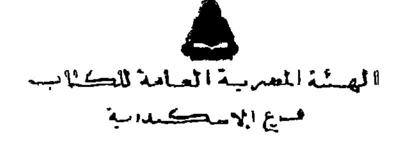
فى العصور الحديثة

★

الفجـــر

دكتور جلال يحيى

١٩٨١



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الإسكندرية

اهداءات ٢٠٠٢

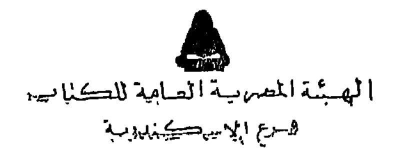
ا.د/ أسمت محمود غنيم

الاسكندرية



دكتور جلال يحيى

١٩٨١



مقدمة

تعود أساتذة التاريخ الحديث أن يبدؤا شرح تاريخ هذه الفترة مع تاريخ القرن السادس عشر ؛ وكانوا قد تعودوا ، قبل ذلك ، أن يقصروا تاريخ عصر النهضة الأوربية على « حركة الإنسانيات » ؛ عازفين عن شرح التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت قد سبقتها ، ومهدت لها ؛ وكانت أساساً طبيعياً ومنطقياً لكل تغيير لاحق .

وإذا ماحاول الباحث أن يستكشف العوامل الاجتماعية والاقتصادية، العميقة ، التي أدت إلى تحول حياة العالم من العصور الوسطى إلى التاريخ الحديث ، فإنه سيجد نفسه بالضرورة يرجع إلى الوراء ، زمنياً ، باحثاً عن الأصول الفعالة ؛ فيعمل في القرن الخامس عشر ، ويصل حتى إلى القرن الرابع عشر ؛ حيث يجد المعطيات الأولى الدالة على التغير ، أو التحول ؛ والتي تصلح أساساً صلباً لشرح تيارات التاريخ الحديث . وكان هذا هو خط السير الذي إنتهجته ، باحثاً عن الأسس الاقتصادية ، وتطور وسائل وعلاقات الإنتاج ، والنقل ، كأساس لتغيير شكل المجتمع ، وعلاقاته الطبقية ، وحتى يمكننا أن نصل بعد ذلك إلى شرح تطور البنيان الفوقي السياسي ، والنشاط الثقافي والفني للانسان هنا وهناك .

ولقد وجدت أن فترة « فجر التاريخ الحديث » تمثل مرحلة هامة من تاريخ البشرية في تطورها من حياة العصور الوسطى ، إلى الحياة في التاريخ الحديث ، وأن أسس هذه الفترة ترجع إلى القرن الرابع عشر ، وحتى إلى السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر ؛ وأنه من الضروري ربط عناصر هذه الفترة ببعضها ، وفي شكل تحليلي وبنياني ، حتى يتمكن الدارس من مواصلة فهم الخطوط الأساسية للتاريخ عبر عصوره المختلفة .

وهذا الجزء من الكتاب ، أو هذا المجلد ، هو المجلد الأول من مجموعة تشتمل على ثلاث مجلدات ، عن « الفجر » ، وعن الفترة التى تصل « حتى الحرب العالمية الأولى » ؛ ثم عن « الفترة المعاصرة » .

ولقد مهدت لهذا الجزء من الكتاب ، والخاص « بالفجر » ، بتمهيد عن مميزات العصور الوسطى ، لاظهار مدى التغيرات التى ستحدث فيما بعد . وقسمت الكتاب إلى أبواب عن تفكك عالم العصور الوسطى فى الغرب وعن التغيرات العميقة التى وقعت فى أوربا ؛ وعن زحف العثمانيين على جنوب شرقى أوربا ، وفتحهم القسطنطينية ؛ وعن ظهور النهضة الأوربية وإزدهارها ، وعن الكشوف الجغرافية ؛ وعن الصراع فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ؛ ثم التوسع العثمانى فى الشرق الأدنى ؛ وأفردت باباً للاصلاح الدينى ، وختمتها بباب عن التغيرات ،رب أوربا ، ووقف النمو الاسبانى . الأمر الذى يوصلنا إلى مطلع القرن السابع عشر .

وأرجو أن يكون هذا الكتاب نافع للدارس والباحث والطالب ، وأن يسد نقصاً فى المكتبة العربية ، وعلى الله قصد السبيل .

الاسكندرية فى ٤ أكتوبر ١٩٨٠

دكتور
جلال يحي

تمهيـــد

مميزات العصور الوسطى

لا شك فى أن التاريخ حركة مستمرة ، وفى أن عصوره لا تبدأ فى سنة معينة ، ولا تنتهى فى سنة محددة . ولا شك كذلك فى أن هذه العصور التاريخية هى تقسيم إعتبارى بحت ، تم الاتفاق عليها لتسهيل دراسة الدارسين لفترة معينة ، لها مميزاتها الرئيسية ، والتى قد تختلف عن مميزات الفترة الأخرى . كما أن الانسان هو أهم عامل فى التاريخ ، وهو لا يتغير فجأة ، إذ أن تغيره مرتبط بالتطور الاجتماعى ، والذى يستند بدوره إلى عوامل مادية ومعنوية ، بطيئة فى حركتها ، وفى تفاعلها ، وفى تأثيرها على المجتمع والانسان ؛ فأسباب الأحداث التاريخية تكون موجودة قبل الأحداث بزمن ، ولا تظهر نتائجها إلا بعد الأحداث بزمن آخر .

وقد إعتقد البعض أن العصور الوسطى تبدأ بجلوس الامبراطور دقلديانوس على عرش الامبراطورية الرومانية سنة ٢٨٤ ؛ وكان ملكا من النوع الشرقى القديم ، مستبداً مطلقاً ، ويضفى على شخصيته مظاهر الألوهية والتقديس ؛ وإضطهد الديانة المسيحية والمسيحيين أكبر إضطهاد ، وهدم الكنائس ، وأحرق الأناجيل ، ونفى المسيحيين ، وعمل على إستئصالهم من الامبراطورية الرومانية . وظهرت هذه النزعة بشكل واضح فى مصر ، حتى إعتبر عهده أكبر عهد للاضطهاد فى التاريخ المصرى ، وأخذ أقباط مصر سنة توليه السلطة بداية للتاريخ القبطى ، أو تاريخ « الشهداء » . وإعتبر بعض المؤرخين هذه السنة بداية للعصور الوسطى .

ونظر آخرون إلى سنة ٣٢٣ على أنها بداية صالحة للعصور الوسطى ، وهى السنة الأولى التى تولى فيها قسطنطين الكبير حكم الدولة الرمانية . ويمثل حكم قسطنطين تطوراً كبيراً فى تاريخ الانسانية . فقد تم الاعتراف فيه بالدين المسيحى ديناً للدولة ، بعد أن كان ديناً للأقلية المضطهدة ؛ ونقل عاصمة الدولة الرومانية من روما إلى القسطنطينية ، التى أنشأها على شاطىء البوسفور فى الشرق ، وكان ذلك تفريقاً بين القسمين الشرقى والغربى فى الإمبراطورية ، وتمهيداً لظهور الدولة البيزنطية فيما بعد . وكان ترك روما يعنى تحولها إلى مرتع خصب لسلطان البابوية ، الذى سينمو فى العصور الوسطى ، وبشكل يمهد لكى تصبح روما قاعدة للكنيسة والبابوية ، وتعمل فيها ، وتتوسع منها . الكنيسة والبابوية ، والسلطة التى مارستها فى حياة الانسان هامة فى تاريخ الانسانية ، وبشكل يسمح للبعض باعتبار سنة ٣٢٣ بداية ممكنة للعصور الوسطى .

وهناك من إعتبر تدعيم الدين المسيحى هو بداية العصور الوسطى ، فاعتبروا سنة إعتلاء يوليان الكافر عرش الامبراطورية (سنة ٣٦٢) بداية للعصور الوسطى ، إذ أنه أنكر المسيحية ، وحاول أن يعيد الديانات الوثنية القديمة . وفشل فى ذلك ، وبشكل يدل على التغير الذى حدث للانسانية ، نتيجة لثبات الأسس التى قامت عليها المسيحية . وإعتبر غيرهم أن سنة ٣٧٦ التى إعتنق فيها القوط الغربيون الدين المسيحى ، حداً فاصلا بين التاريخ القديم والوسيط . ونظر غيرهم إلى سنة ٣٧٩ التى عمد فيها الامبراطور ثيودوسيوس على أنها الحد الفاصل ، خاصة وأنه عمل على تدعيم الدين المسيحى ، وتعميمه بقوة القانون بين الناس .

وهناك من يعتبر أن سنة ٣٩٥ هى بداية العصور الوسطى ، وهى السنة التى قسم فيها الامبراطور ثيودوسيوس الدولة رسمياً إلى شطرين منفصلين : الشرقى وعاصمته القسطنطينية ، والغربى وعاصمته روما ، بين إبنيه . وأخيراً فإن هناك من ينظر إلى سنة ٤١٠ على أنها هى البداية الفاصلة للعصور الوسطى ، وذلك

نتيجة لقيام القوط الغربيين ، بقيادة ملكهم آلاريك ، بدخول إيطاليا ، واحتلال روما نفسها . وإنتهت هيبة روما القديمة ، وإن كانت قد إحتفظت بشبح الإمبراطورية حتى سنة ٤٧٦ ، حين أرسل صولجان الإمبراطورية الغربية منها ، للجالس على عرش الإمبراطورية الشرقية ، وكانت النهاية الرسمية للامبراطورية الغربية .

وهكذا بدأت العصور الوسطى ، بنهاية دولة الرومان فى مدينة روما ، مع تدعيم الدين المسيحى فى أوربا ، ونمو الكنيسة وسلطتها فى روما ومنها ويمكن إعتبار أواخر القرن الخامس الميلادى بداية لها .

هذه هى وجهة نظر المؤرخين بشكل عام ، ولكن علينا ألا ننسى أن منطقة الشرق الأدنى شهدت ظهور الاسلام بعد ذلك ؛ وكان الاسلام ثورة دينية وأخلاقية وسياسية ، وثورة تشريعية واقتصادية فى نفس الوقت ؛ وانتشر فى مدى أربعين عاماً من حدود الصين إلى بحر الظلمات ؛ وأثر فى سكان كل المنطقة ، وأثر فى غرب أوربا نفسها . وكان ظهور الاسلام بداية التاريخ الاسلامى ، أو تاريخ العصور الوسطى الاسلامية . وإذا كانت بعض المناطق ، مثل مصر ، قد حددت تاريخها على أنه مصر الرومانية . أو البيزنطية ، قبل دخولها الاسلام ، فإن مناطق أخرى كثيرة ترجع تاريخها قبل الاسلام ، إلى التاريخ القديم ، وتسلمه إلى الباحثين والدارسين فى هذه العصور .

* * * * *

وكان مؤرخو المدرسة القديمة يعتقدون أن العصور الوسطى كانت فترة من تاريخ الانسانية يحجبها الظلام ، وتنحط فيها المدنية ، وبالتالى يصبح تاريخها لاهو بالقديم ولا هو بالحديث ، تاريخاً غير ذى قيمة ، أو له قيمة محدودة . فى الإتجاهات الحضارية والانسانية ، وفى تطور التقدم العالمى . فالدولة الرومانية إنهارت وإنهار معها ما كانت تحتويه من المدنية والعمران ، وقامت على أنقاضها

دول متبربرة متأخرة ، وظل العالم فى تلك الحال إلى أن بزغت شمس النهضة فى فجر التاريخ الحديث .

ويذكر المؤرخ جيبون عن فترة الانتقال بين العصر القديم والعصر الوسيط إن هذا الجو كان مليئاً بالتدهور والانهيار الذى تغلبت فيه البربرية والدين على النظام والحضارة .

والواقع أن العصور الوسطى لم تكن دامسة فى ظلالها ، ولم تخل من مدنية لها شخصيتها وإتجاهاتها وطبيعتها الخاصة ، وإن كانت لا تعتبر فى مرتبة المدنية الرومانية ، أو مرتبة المدنية فى العصور الحديثة ؛ وذلك لاختلاف الأسس التى قامت عليها ، فمدنية العصور الوسطى كانت نتيجة للظروف والعوامل ، وتطور ظروف الإنسان التى تساير موكب تطور التاريخ البشرى .

ولاشك فى أن القضاء على الدولة الرومانية ، وتأسيس الدول الجديدة ، وما إليها من تاريخ الحضارة كانت دوراً هاماً من أدوار الانتقال والتطور فى تاريخ الانسان. إلا أنه من الواجب ألا نبالغ ، بأى حال من الأحوال ، فى أن تلك الدول التى قامت على أنقاض الدولة القديمة كانت خالية من كل نظام ومن كل مدنية وحضارة، وأن صفة الهمجية غلبت عليها ، وقضت على ما كان قائماً فى الدولة الرومانية ، عندما نزل بها هؤلاء ، من مدنية وحكومة وحضارة .

والواقع أن تلك الدول كانت لها مدنيتها ونظامها ، اللذين قد لا يقارنان بمدنية روما وحضارتها ، ولكنها كانا مدنيتها ونظام حضارى من نوع معين . ولا شك فى أن كثيراً من معالم الحياة فى العالم الوسيط قد إستند إلى ما كان موجوداً لدى القبائل الجرمانية والمتبربرة من نظام ، مع ما كان قائماً فى روما ؛ وتكون مزيج من النظام الرومانى والبربرى وتكيف بالشكل الملائم للعصر ، والملائم لروح الدين ، الذى كان يسود العصور الوسطى ، والذى كان يسيطر على كل ما فى الحياة العامة والخاصة من نشاط .

وكان النشاط الانسانى فى العصور الوسطى يعتمد على فكرتين هما : **العقيدة والحرب** . وظهر أثر ذلك فى كثير من نواحى التفكير والنشاط فى العصور الوسطى حتى أصبح ذلك المزج بين هاتين الفكرتين هما أساس النظام الاجتماعى ، والحركات الكبرى التى ظهرت فى هذه العصور .

فالفروسية كانت مثلا للمزج بين الحرب والدين . والحروب الصليبية كانت تعبر عن إتجاه العصر الوسيط من حيث أنها كانت حرباً . وكانت دفاعاً دينيا عن عقيدة معينة . وظهرت جماعات الرهبان المحاربة مثل الاسبتارية ، وكانوا عبارة عن محاربين ، وممرضين ، ورجال دين ؛ وكذلك الداوية ، وهم جماعات من الرهبان الذين كانت صناعتهم الحرب والدين فى نفس الوقت ، ومنهم رهبان وفرسان يحاربون فى الأراضى المقدسة .

وكذلك إرتبطت أنظمة العصور الوسطى بفكرة أن العالم المسيحى الغربى يكون **وحدة كبرى** : يحكمها الإمبراطور من الناحية الزمنية ، والبابا ويختص بالناحية الروحية . وللعالم الوسيط كنيسة واحدة تشمله ، أو تدخل ضمنها ، وطائفة ، جميع الأمم فى غرب أوربا على إختلاف جنسياتها ؛ ولهم لغة واحدة رسمية ، هى اللغة اللاتينية ، التى تجمع بين هذه الأمم فى صعيد واحد ، ويمكن التفاهم بين الجميع عن طريقها . ونظام هذه الوحدة ، وطبقاتها واحدة ، وتشمل أوربا من أولها إلى آخرها .

* * * * *

(ا) وتميزت العصور الوسطى بوجود **الكنيسة والبابوية** . وبعد أن كان نشر الدين المسيحى يتم سراً ، إعتنق المسيحية الكثيرون من حكام روما ، وإنتشرت المسيحية بسرعة بين الرقيق الذين آملوا فى التحرر من الرق ، وبين كل من كان يأمل فى التخلص من الوثنية القديمة . وعمد بعض الأباطرة ، وكانوا يتمتعون بعبادة الإمبراطور ، إلى محاربة المسيحية التى كانت تدعو إلى عبادة الله . وإلى

هدم الطبقات ، وتحرير العبيد . وإذا كان دقلديانوس قد روى أرض مصر بدما شهداء المسيحية ، فإن نيرون قد أحرق روما ، وغيرها ، للتخلص من المسيحية .

وصمدت المسيحية أمام التعذيب والقتل ، وأسست كنائسها فى دهاليز تحت الأرض أولا ، ثم فوق الأرض بعد ذلك . وأدى إنشاء الكنيسة إلى قيام البابوية من جانب وظهور الرهبنة من جانب آخر . وكان إنشاء الكنيسة من أهم الأحداث التاريخية فى العصور الوسطى ، إذ أنه كان يعمل على توجيه حركات هذا العصر، ويتضمن وجود راع ، يرأس المؤمنين ويرعاهم ، وعلى رأس كل أسقفية ، فى الشرق والغرب .

ولم يكن الراعى الدينى فى روما ، فى باديء الأمر، سوى أسقف من الأساقفة، ... شيء ، ويحضر مجامع الأساقفة بصفته أسقف فحسب ؛ ولم تكن ... روما تمتاز بأى شيء عن الكنائس الأخرى التى تأسست فى بقية الأقطار .

ولكن التقاليد التى إقترنت بإسم روما الخالدة ، منذ التاريخ القديم ، وجهت هؤلاء الأساقفة إلى وضع أنفسهم فى مصاف الرئاسة من الكنائس الأخرى ؛ وإلى وضع الكنيسة الرومانية فى مركز الكنيسة المركزية بالنسبة للكنائس الأخرى . وساعدت عوامل كثيرة على تدعيم مركز كنيسة روما بالنسبة لغيرها من الكنائس فى غرب أوربا . فكان هناك إرتباطها بالعاصمه القديمة لإمبراطورية الرومان ، وبزوال تلك الامبراطورية وشخص الامبراطور منها ، وإنتقال الأباطرة إلى الشرق ، أصبحوا ينظرون إلى أسقف روما كزعيم طبيعى لسكانها ، وكأنه قد حل محل الامبراطور فى هذا النطاق . وكان أسقف روما هو البطريق الأول والأوحد فى غرب أوربا ؛ كما كان هناك بطارقة فى الشرق ، فى القسطنطينية وأنطاكية والاسكندرية ؛ وإنبنى على ذلك أنه أصبح له مايشبه رئاسة الكنيسة الغربية . ولا يمكننا أن ننسى الدور الذى قام به أساقفة روما فى عهدهم الأول ، من رعاية للمسيحية ، وتخفيفهم آلام المسيحيين ،وقت هجوم البرابرة على روما ،

وما صحب ذلك من سلب ونهب ومجاعات . وعمل أساقفة روما فى تلك الفترة على إحلال النظام محل الفوضى فى المدينة ، وكانوا هم الرؤوس المفكرة ، وأيدوا الحكام فى الإشراف على الأمن ؛ فزاد نفوذ الأسقف عمن حوله ، وأصبح ، ولو شكلياً على الأقل ، فى مركز الإمبراطور القديم . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك كتابة الرهبان الرومانيون للكتب والرسائل فى ذلك الوقت وتقديسهم لمقام أسقفية روما ؛ وكان هذا نوعاً من الدعاية للبابوية إزاء الأسقفيات الأخرى . وأخيراً فهناك شخصية بعض البابوات ، مثل ليو الأكبر ، وجريجورى الكبير ، التى ساعدت على أن تصبح البابوية قوة لا يستهان بها فى تاريخ الانسانية . وفى عهد جريجورى الكبير ظهر أسس البابوية ظهوراً واضحاً .

وكان **جريجورى الكبير** (٥٩٠ - ٦٠٤) راهباً وعالماً ، وزع أمواله على الفقراء وعاش حياة التقشف وعمل على شراء أسرى المسيحيين وعتقهم . وكان رجلا سياسياً ماهراً ، ذا إرادة قوية وأطماع واسعة ، وكفاية إدارية وحكومية هائلة . وعمل على التبشير بالمسيحية وبالمذهب الكاثوليكى ، وتم فى عهده تحويل القوط الغربيين إلى الكاثوليكية . وأرسل بعثة ، برئاسة أوغسطين الأول ، إلى الملك الأنجلوسكسونى فاعتنق هو وشعبه المسيحية على المذهب الرومانى سنة ٥٩٧ ووضع جريجورى الكبير نظاماً يمكن أسقف روما من أن يستدعى الأساقفة الآخرين فى غرب أوربا ، وكذلك كهنتهم ، أياً كانت رهبتهم ، أو درجتهم ، لمحاكمتهم ، متى حادوا عن الصواب . وأعطاه هذا الموقف الأولوية على الكهنة . ورفض جريجورى الكبير ، بعد ذلك ، الخضوع لسلطان القسطنطينية الدينى والسياسى ، الذى كان يتركز فى يد الإمبراطور الرمانى ، وفى يد البطريق الموجودان على ضفاف البوسفور . وأخذ يوطد دعائم الكنيسة الرومانية على أساس أستقلالها ؛ فخضع له الغرب كله فى أمور الدين ، كما خضعت له روما نفسها دينياً وسياسياً ؛ فأصبحت روما مقاطعة له ؛ ووضع بذلك الأسس التى

بنى عليها البابوات من بعد إستقلالهم التام فى أمور الدين ، وملكهم فى أمور الدنيا ؛ الأمر الذى ترتب عليه نشأة الصراع بين البابوات والأباطرة ؛ طوال فترة العصور الوسطى .

وتمت عملية **إنفصال كنيسة روما عن كنيسة القسطنطينية** على مراحل متتالية ، بدأت بمعارضة كنيسة روما لنفوذ كنيسة القسطنطينية ؛ ثم فى إنتقاد وجود بعض العقائد الشرقية ، ومطالبة المجامع الكنيسة بابعادها ؛ وبعد ذلك إهمال القرار الخاص بإلغاء إقامة الأيقونات فى الكنائس ، والذى صدر فى عهد الإمبراطور البيزنطى ، ليو الأيسورى سنة ٧٢٦ . وكان إستخدام الأيقونات من التقاليد الثابتة والمعروفة فى الكنيسة الغربية ، فتطور الخلاف إلى شقاق ، ثم إنفصال بين الكنيستين . وإستندت كنيسة روما إلى ولاء الأهالى لها ، وإنتهاز الفرص ، للتدخل السياسى فى مشكلاتهم ، كما حدث وقت إرسال الوزير بيبن القصير بعثته إلى البابا زكريا الثالث سنة ٧٥١ ،لاستفتائه فى أمر التاج الميروفنجى ، وإنتقاله إلى الأسرة الكارولنجية ؛ ورد البابا رداً دبلوماسياً إيجابياً ، بأن من فى يده القوة والحكم ، ينتقل إليه التاج . وساعد ذلك على نشأ أسرة حاكمة جديدة وقوية ، تدين بالولاء لبابوية روما ، وتساندها . فى الوقت الذى ظهر فيه إستقلال البابوية فى روما ، وتدعمت سلطتها فى غرب أوربا .

* * * * *

ولقد إرتبطت بوجود الكنيسة والبابوية ، عامل هام هو ظهور **الرهبنة** ووجودها . ولقد إرتبطت الرهبنة فى أول أمرها بالإضطهاد الذى أصاب المسيحيين الأوائل على أيدى الرومان ، وهروب المسيحيين إلى الصحارى والقفار والمغارات للتعبد ؛ وحدث نفس الشىء فى أوربا أمام غزوات البرابرة ،ونزوح عدد من المسيحيين إلى الجبال والكهوف للتعبد .

وقامت الرهبنة على أساس التوحد ، أي الحياة الفردية فى القفار . وكان من

لزوم ظروف الحياة ومتاعبها ، التفكير فى نظام يجمع شملهم ، ويحافظ على معيشة التبتل والطهارة بين صفوفهم ؛ فبدأت الحركة الديرية ، وبخاصة فى مصر فى القرن الرابع على أيدى آباء الكنيسة المصرية مثل باخوميوس وشنودة وأبو مقار؛ ثم انتقلت إلى بلاد اليونان . أما فى بقية أنحاء أوربا ، فقد ظلت هذه الحركة ضعيفة خلال الخمسة قرون الأولى ؛ وإلى أن وضع بعض رجال الدين كنائسهم تحت تصرف الرهبان ، وربطوا الرهبنة بالكنيسة ؛ فبدأ الرهبان فى الاشتراك فى الصلوات الكنسية الرسمية ، وفى إتخاذ صفة الكهنوت .

كانت الرهبنة تقوم على التبتل والتأمل فى الله ، وتعذيب الجسم ، وتنقيته من الأدران ، والتفانى فى تعذيب النفس ، إستعداداً لما وراء هذه الحياة فى ملكوت السماوات . وكان لكل راهب حياته الخاصة دون علاقة بإخوانه . وفى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس قام القديس بندكت بتأسيس ديره المشهور فى منطقة مونت كاسينو ، ووضع له نظامه الذى يجمع ما بين الناحيتين الدينية والانسانية : فكان يفرض على الراهب التزامات روحية هى التبتل ، والطهارة ، ونكران الذات ، والتخلى على الثروة الدنيوية والمال ، والجنوح إلى معيشة الفقر ؛ هذا علاوة على الطاعة الواجبة لرئيس الدير . ولكن بندكت نظر إلى الرهبان بصفتهم الإنسانية ، لهم حاجاتهم ولبدنهم عليهم حق ؛ فأوصاهم بالاعتدال فى التقشف وبعدم الافراط فى تعذيب النفس كما حتم عليهم الإقلاع عن الحياة الانفرادية ، والتمسك بالجماعة ، فالحياة البندكتية حياة إجتماعية فى المأكل والمشرب والصلوات وكذلك فى العمل اليدوى والعمل الذهنى، فهو يخصص فريقاً من الرهبان لفلاحة الأرض والعمل فى الحقول ، كما يخصص آخرين لرعاية المواشى ، والبعض للقيام بما تتطلبه حياتهم اليومية من ملبس ومأكل ومشرب ؛ كل واحد من بينهم حسب رغباته واستعداده وميله الطبيعى ؛ بحيث يصبح كل كل دير وحدة كاملة جامعة لكل ما يهم الإنسان من شئون الحياة وحاجاتها

الضرورية . ويصبح الدير وحدة مستقلة ، تستطيع الانفراد بذاتها عن بقية العالم الخارجى .

وكان للحياة الفكرية نصيباً فى هذا النظام ؛ فنشأت فى كل دير مكتبة أو نواة لمكتبة ، ومكاناً للرهبان الذين يهتمون بالكتابة والنسخ ، ووضعت فيه الأدوات اللازمة للتحرير ، وقراءة الكتب والأبحاث . وقامت الأديرة البندكتية بتأدية رسالة علمية وحضارية فى العصور الوسطى ، واحتفظت بكثير من أمهات الكتب القديمة ؛ وفى الوقت الذى تعرضت فيه الحياة للتدهور ، والكتب للزوال ، أخذ النساخ والمؤلفون يواصلون فى هذه المكاتب أبحاثهم وتآليفهم ونسخ الكتب اللاهوتية والأدبية والقانونية القديمة ؛ وساعد ذلك على وجود مجموعة من الرهبان تكون هذه صناعتهم ، فى وقت تفشت فيه الأمية ، وضعف فيه الاهتمام بالعلم .

وإنتبه الناس خارج الأديرة إلى ما وصلت إليه تلك المراكز العلمية ؛ فوجهوا أبناءهم إلى الذهاب إلى تلك الأديرة لتعلم القراءة والكتابة والحساب على أيدى الرهبان ؛ فنشأت المدارس ملحقة بهذه الأديرة ، وعملت هذه المدارس على تثقيف الأطفال الذين كانوا يرغبون فى خدمة الكنيسة فى صفوف الكهنوت ، أو فى الأعمال الحربية ، عندما يكبرون . وظهرت للناس مزايا هذا النظام ؛ وإكتظت الأديرة بالرهبان ، وإنتشرت الأديرة فى كل مكان ؛ فقضى على حياة التوحيد ، وحل محلها نظام إنسانى إجتماعى ، ظهر فيه الضعف ، ثم ظهر فيه الفساد .

وكان لإزدياد الثروة فى تلك الأديرة قسط كبير فى الوصول إلى هذه النتيجة ؛ فلم يكن الرهبان يعملون لأنفسهم ، بل كانوا يعملون فى الزراعة ورعى الأغنام ؛ فنجد بعد ذلك تحسن الأرض ، وإزدياد عدد الماشية الموجودة لديهم ، حتى أصبح لكل دير ثروة ضخمة ، وتكاثرت فى خزائنهم الأموال ، وكانت الثروة من مساوىء الحياة ، وتتناقض مع مبدأ الفقر الذى إعتنقه الرهبان الأول ، وأدى إلى حياة ناعمة باذخة يتخللها عنصر الفساد .

وفى أثناء القرن العاشر ، قام دير كلونى بمحاولة لاصلاح النظام الديرى ؛ وذلك بإقامة روابط الاديرة المختلفة ، والإستقلال عن السلطات الدينية والدنيوية المختلفة ، والاتصال المباشر بالبابا . وإهتم رهبان كلونى من جديد بالعلوم والزراعة ، ونشطت الروح المعنوية لديهم ، وأصبحو يكونون نواة الاصلاح الدينى العام فى أوربا . ونتج عن ذلك توسع الدعوة للكنيسة والبابوية ، فى وقت كانت البابوية فيه قد أصابها الضعف ، وأصبحت لعبة فى يد الامبراطور ؛ وأدى ذلك إلى رفع سلطان البابوية بهذه الدعوة التى أخذت شكلا دولياً ، وإنتشرت فى فرنسا وألمانيا وإسبانيا وحتى إنجلترا بعد النورمانديين لها سنة ١٠٦٦ م .

ولقد زاد إقبال الناس على حركة الرهبنة ، ولم تعد الاديرة تكفى لهذه الاعداد الضخمة ، وكانت مسألة زيادة ثروة الاديرة نتيجة لاشتغال الرهبان بالزراعة ورعاية الماشية مثاراً للانتقاد والتنديد ، والمناداة بضرورة الرجوع إلى قواعد الفقر والتخلى عن الثروة بين الرهبان . فأدى ذلك إلى نشأة جماعات جديدة من الرهبان فى خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر . وحرمت إحدى هذه الجماعات من الرهبان على أعضائها ملكية الارض والدواب ، ماعدا النحل ، وعاشوا على التسول ، وتميز الإخوان الكرتوزيون بالنزعة إلى التوحد ، كل منهم يعيش فى صومعته أغلب الوقت ، بالرغم من وجودهم فى دير واحد . وقام الإخوان الستراشيون بتطبيق أنظمة القديس بندكت ، مع الإيغال فى التقشف والزهد ، وإنقطعوا عن العالم ، وعاشوا فى الجهات المقفرة البعيدة ؛ وإختصوا برعاية الاغنام وتعمير البرارى . أما الإخوان الفرنسيسكان فكان هدفهم يتمثل فى عدم الانفراد عن العالم ، بل السعى فى مناكب الارض ؛ داعين مبشرين معلمين . أملا فى تخليص أرواح الناس ، وتنقية نفوسهم من المفاسد ؛ وذلك مع الاكتفاء من الدنيا بقوتهم اليومي ، والتمسك بمبدأ التسول للحصول على زادهم

أو العمل بقدر يكفى لكسب معاشهم اليومى . أما الإخوان الدومينيكان فكانت مهمتهم تشبه مهمة الإخوان الفرنسيسكان إلى حد كبير ؛ إلا أنهم أضافوا إليها ، بالنص ، مهمة كبيرة ؛ هى التفرغ للوعظ والإرشاد ؛ وكان ذلك بسبب إنتشار تيار الهرطقة الجارف ، أثناء القرن الثالث عشر ، حتى أنهم خافوا على المسيحية منه .

وزاد إنتشار حركة الرهبنة مع بداية الحروب الصليبية وإستمرارها ، وتأثير ذلك على الأمم والممالك والأهالى وحياتهم ؛ فتأسست جماعات جديدة من الرهبان للعناية بالجرحى ، وتهتم بالتبشير بين رعايا الإمارات اللاتينية من المسلمين فى الأراضى المقدسة . وإضطر الرهبان فى هذه الجماعات إلى تعلم الدفاع عن النفس وهم يعيشون فى مناطق حرب ؛ فتحولوا إلى جماعات رهبان محاربين ، يجمعون بين حياة التبتل وصناعة الحرب ؛ حتى أصبحت مهمتهم الأساسية القتال فى الأراضى المقدسة . وكان من أهم هذه الفرق الإسبتارية التى تأسست فى القرن الحادى عشر ، وجماعة الفرسان الداوية ، التى نشأت فى القرن التالى . ونجحت هذه التجربه فى الشرق العربى ، وكانت أساساً لنشأة جماعات الرهبان المحاربة ، المعروفة باسم الجماعات التيوتونية ؛ والتى إنضم إليها جماعات السيف ، لنشر المسيحية بين الوثنين فى بروسيا الشرقية وحدود ألمانيا الشرقية .

ومن ذلك نرى أن الرهبنة عملت على تقوية الكنيسة وتدعيمها ، ونشر المسيحية فيما وراء حدود الدول الكاثوليكية ؛ وإحتفظت بنور العلم خلال العصور الوسطى ؛ وقامت بدور هام فى التعليم وفى تنشيط الحركة الفكرية ؛ وكذلك فى تقوية الحروب الصليبية ؛ تحت شعار العقيدة المسيحية .

* * * * *

كذلك تميزت العصور الوسطى بوجود امبراطورية فى غرب أوربا ترعى شئون البشر ، فى الوقت الذى ترعى فيه البابوية نفوسهم .

وكان تاريخ العصور الوسطى مضطرباً مليئاً بالقلاقل والغزوات ، وهجرات

القبائل والشعوب ، مع غزوات البرابرة ، وتدخلهم فى أنحاء الدولة الرومانية ، وتأسيسهم لدويلاتهم المختلفة على أنقاضها ؛ مثل القوط الذين توغلوا وإندمجوا فى الشعوب التى نزلوا بينها ، ثم زالت سلطتهم من الوجود ؛ ومثل اللومبارديين الذين عاشوا حيناً وزالت دولتهم على غرار القوط ؛ وتركوا إسمهم على سهول إيطاليا حتى اليوم . وكان الفرنجة من أبقى الشعوب الجرمانية المتبربرة التى نزلت فى الدولة الرومانية ، والتى إتسعت حدودها حتى شملت دولتهم غالة ، ومساحات كبيرة من ألمانيا ، التى كانت موطنهم الأصلى . ولقد حكمت الأسرة الميروفنجية الفرنجة حيناً من الزمن ، بعد فترة من العمل على نشر الدين المسيحى على المذهب الكاثوليكى ؛ وكذلك العمل على تشجيع المصاهرة بين العناصر الجرمانية وبين العناصر الرومانية اللاتينية: وبعد نشأة هذه الأسرة رسمياً فى عام ٥٠٨ ، نتيجة لإنعام الإمبراطور البيزنطى الذى كان يمثل الإمبراطورية القديمة على كلوفيس بلقب حاكم غالة الرومانية ؛ ورغم وجود تميز بين القسمين الشرقى والغربى فى هذه الدولة ، الشرقى يطغى عليه الطابع الجرمانى ؛ والغربى يطغى عليه الطابع الرومانى ؛ ظلت هذه الدولة موجودة رغم تخصيص إدارة لكل منها . وعلى رأس كل منهما وزير ؛ يلقب برئيس القصر . وكان ذلك تمهيداً لقيام التنافس بين كل من هذين الوزيرين ، فى وقت ضعف الملوك ؛ الأمر الذى سمح لأحدهما ، وهو ببين ، بالاستيلاء على وزارة المنطقتين ، الشرقية والغربية ، وتمكن إبنه ، شارل مارتل ، من أن يبلى بلاء حسناً فى موقعة بواتييه سنة ٧٢٢ ، التى تعتبر من المواقع الفاصلة فى التاريخ ، إذ أنها أوقفت موجة التوسع العربى الاسلامى الذى أتى من شبه جزيرة إيبيريا ، على غرب أوربا ، وكاد أن يصل لمسافة تقل عن ثلاثمائة كيلو متر من باريس . وكان ببين القصير ، من أهم خلفائه ، وهو الذى قرر ، فى أواسط القرن الثامن ، أن يستولى نهائياً على التاج الميروفنجى ؛ وأرسل بعثته المشهورة إلى البابا زكريا ، لكى يستفتيه فيما إذا كان الأصوب أن يظل الفرنجي على

رأس من لاحول له ولا قوة ، أو أن يظل على رأس من بيده الحكم فى الدولة . وكان البابا حكيماً ، ورأى قوة شخصية بين ، الذى يحسن الإنتفاع بنفوذه وقوته ، وعدم جدوى عدم الاعتراف له بالتاج عملياً ، خاصة وأن إتخاذ البابوية لقرار عملى فى غرب أوربا ، كان يدعم نفوذها ، كحكم فى هذه المناطق ؛ وعلى ذلك أجاب البابا بين ، بأن الاعتبار الثانى هو العدل والصواب ، وهو أن لمن بيده القوة الحق فى أن يحصل على التاج ؛ فينقل بين التاج من آخر الملوك الميروفنجين فى سنة ٧٥١ إلى نفسه ، و تأسست دولة بين ، التى دعيت باسم الدولة الكارولنجية ؛ والتى آل تاجها إلى شارلى العظيم أو شارلمان ، أعظم ملوك هذه الأسرة .

وإلى هنا ينتهى العصر الذى يمكن تبرير وصفه فى بعض الكتب التاريخية بأنه العصر المظلم فى العصور الوسطى : ويبدأ الاستقرار فى أوربا ؛ ويبدأ المزج بين التراث الرومانى القديم والتراث الجرمانى الذى صحب القبائل الغازية المتبربرة من أوطانها الأصلية إلى كيان الدولة الرومانية .وتنبعث فى هذا العصر أيضا ، ومن جديد ، فكرة الامبراطورية القديمة ؛ ولكنها إمبراطورية مقدسة ، نظراً لسيادة الروح المسيحية الكاثوليكية ، وإكتمالها بين الشعوب الغربية فى أوربا . وهذه الفكرة تحققت فى عهد شارلمان ، وظلت قائمة خلال العصور الوسطى ، وترتبت عليها نتائج هامة بالنسبة لتاريخ غرب أوربا ؛ إذ تواجدت فى أوربا قوتان متكافئتان ، هما الامبراطورية لحكم الأبدان ، والبابوية لحكم الأرواح . وأصبح بالتالى من لزوميات الأشياء أن يقع بينهما صراع ، حول من يتفوق من بينهما على الآخر ، مما أدى إلى ذلك الصراع الذى إمتد قرونا طويلة بين البابوية والامبراطورية .

وكان شرلمان قوياً شجاعاً ذكياً ، وعمل على بسط نفوذه على غرب أوربا كلها ؛ ونجح فى ذلك بشكل لم يسبقه فيه أحد . وأفاد من فرصة استنجاد البابا

أربان به فى سنة ٧٧٣ ضد ملك اللومبارديين ، الذى كان قد إعتدى على بعض أملاكه ، وزحف بجيوشه على إيطاليا ، وهزم اللومبارديين ، وعزل ملكهم وأرضى البابا . وانتهز البابا فرصة زيارة شرلمان له فى روما ، وأحتمى به ؛ وكانت روما لا تزال خاضعة نظرياً ، مع جنوب إيطاليا ، للدولة البيزنطية ، وأعلن البابا **تحرير روما من سيطرة البيزنطيين** ، وخضوعها لشرلمان ، من الناحية الزمنية . ونتج عن ذلك تحقيق إنفصال الكنيسة الغربية عن الشرقيه بصفة نهائية ، وانحصر حكم الامبراطورية الرومانية الشرقية فى الجزء الجنوبى من إيطاليا وعلى صقلية ؛ وتحررت روما نهائياً من سلطان الامبراطور البيزنطى ، ومن تهديد الكنيسة الشرقية فى القسطنطينية .

وقام شرلمان بحروب عديدة ضد العناصر الجرمانية المتبربرة ، الواقعة خارج حدود مملكته ، إما شرقاً أو جنوبا . وكانت هذه الشعوب لا تزال وثنية فى غالبيتها ، فاتخذت حروب شرلمان ضدها طابعا صليبيا ، يعنى إخضاع هذه الشعوب من الناحية السياسية ، والتبشير بالديانة المسيحية بينها ، والقضاء على عناصر الوثنية من معتقداتها . وتكررت حملات شرلمان على سكسونيا ، التى أجبر أهلها على اعتناق المسيحية ، والأخذ بالثقافة الجرمانية الكارولنجية ؛ ثم على بافاريا ، وكذلك ضد العناصر التى كانت تسكن سهول المجر . واستمرت هذه الحروب حتى السنوات الأخيرة من القرن الثامن (٧٩٦) ، وكان يرمى من ذلك إلى أن يجعل العالم المسيحى فى غرب أوربا وحدة ثابتة الدعائم ، تحت سلطه الامبراطورية ، وأعطى لحروبه ، فى أغلب الأحيان ، شكلا دينيا من حيث التبشير بالمسيحية الرومانية الكاثوليكية بين القبائل المتبربرة .

وفى نهاية سنة ٨٠٠ دعى البابا ليو الثالث شرلمان إلى روما ، لكى يقضى بينه وبين منافسيه فى السلطه الزمنية ، فى العاصمة الدينية . ورحب شرلمان بذلك ، وذهب إلى روما ، ونصر البابا على جميع أعدائه . وجاء عيد الميلاد ، وهو فى

روما . وفى ليلة العيد من سنة ٨٠٠ ، كان شرلمان يصلى فى كنيسة القديس بطرس؛ وأراد البابا ليو الثالث أن يظهر له مدى اعترافه بالجميل ؛ فألبس شرلمان تاج الامبراطورية فى ذلك الحفل العظيم . **وأسست الامبراطورية الرومانية المقدسة فى غرب أوربا** ، وأصبح شرلمان بعد ذلك خليفة القياصرة الأقدمين ؛ وكان تتويجه يمثل عملية الامتزاج الطبيعى ، البطىء والمستمر ، بين العناصر الجرمانية المتبربرة الأصل والعناصر الرومانية القديمة،وكذلك المزج بين الثقافتين الجرمانية واللاتينية . وبين المدنيتين الجرمانية المتواضعة وبين ما تيسر من المدنية الرومانية اللاتينية ؛ وإلباس هذه المدينة الجديدة التى نشأت عن هذا المزج ، ثوب الديانة المسيحية ، على المذهب الكاثوليكى الرومانى .

وتوفى شرلمان فى سنة ٨١٤،وبعد حكم طويل،بعثت فيه فكرة الامبراطورية من جديد ، وعلى أساس دينى مسيحى ؛ وبدأت فيه نواة الدول الحديثة فى الظهور ، ولو إسميا ، داخل نطاق النظام الامبراطورى الشامل ؛ ففى عهده نسمع عن ألمانيا وإيطاليا وبرجنديا واللورين وفرنسا ونافار ، من بين الأقسام الإدارية التى أخذت فى الظهور . أما الكنيسة والبابوية فينتعشان ؛ وتستقل البابوية نهائيا وتنفصل بصفة قاطعة عن الكنيسة الشرقية . وفى عهده نشأت بذور الاقطاع ، وأخذت فى النمو ، وهو ذلك النظام الذى أصبح فيما بعد أساسا للحياة الاجتماعية والسياسية فى أوربا خلال العصور الوسطى . وازداد نفوذ الرهبان من البندكتيين ، الذين شجعهم ونذرهم واعتمد عليهم فى نشر الثقافة المسيحية بين القبائل المتبربرة التى غزا أراضيها . وبدأت حضارة العصور الوسطى المسيحية البحتة فى الوضوح .

وبعد هذه الشخصية القوية **تفككت الامبراطورية** نتيجة لضعف خلفائه ، ونتيجة للتقليد الجرمانى ، بتقسيم الملك بين أولاد الملك بعد وفاته . وقسم إبنه لويس الصالح ملكه ، فى سنة ٨١٧ ، بين أولاده الثلاثة ، وإن كانت زعامة العدل

فى هذه القسمة قد أدت إلى حروب فيما بينهم ، إستمرت حتى معاهدة فردان سنة ٨٤٣ ، وهى التى قسمت امبراطورية شرلمان إلى عدة أقسام : الغربى منها يشمل فرنسا على وجه التقريب ، والشرقى ألمانيا ، والثالث عبارة عن ممر طويل بين ألمانيا وفرنسا ، ويشتمل على لومبارديا فى إيطاليا ؛ فهو ممر يمتد من بحر الشمال إلى البحر المتوسط ، وملك هذا القسم هو الذى يحمل لقب الامبراطور نتيجة لوقوع روما فى حوزته . وبعد اندثار أسرة الامبراطور ، أو ملك هذا القسم الأوسط ، نشبت المنافسة على أملاكه من جانب الأسرتين الأخرتين ، فى ألمانيا وفى فرنسا . وإستمرت هذه الحروب إلى أن قامت أسرة كابيت فى فرنسا (٨٨٧ — ١١٣٧) ، والأسرة السكسونية فى ألمانيا (٩١٩ — ١٠٦٥) ، فانبعثت فكرة الامبراطورية من جديد ، ولكن فى وقت كان قد إشتد فيه ساعد البابوية ؛ بحيث أدى الأمر إلى الإخلال بالتوازن بين هاتين السلطتين العالميتين ، وإلى دخول أوربا فى دور جديد من أدوار تاريخها ، يتمثل فى الصراع بين الامبراطورية والبابوية .

لقد أصبحت كل من البابوية والامبراطورية نظاماً عاماً لكل أوربا .

° ° ° ° °

(٢) ومن مميزات العصور الوسطى بقاء الامبراطورية الرومانية الشرقية ، أو الدولة البيزنطية ، وعاصمتها القسطنطينية ، لمدة عشر قرون ، أى طوال العصور الوسطى ، بعد زوال الدولة الرومانية الغربية من روما . وكانت أسباب هذه الحياة الطويلة ترجع إلى أن القسطنطينية ، مركز هذه الدولة ، كانت حصينة ، وتمكنت من أن تصمد لهجمات المتبربرين المتتالية ؛ كما أن أباطرتها أثبتوا كفاءتهم فى الحكم ، ومقدرتهم على توجيه هؤلاء المتبربرين إلى جانب آخر غير أملاكهم ، حتى ولو كان ذلك نحو الامبراطورية الرومانية الغربية فى إيطاليا . ولم يقصر أباطرة القسطنطينية الخدمة فى جيوشهم على المرتزقة من الجرمان ، كما كان حادثا

إلى حد كبير فى الدولة الغربية ؛ بل عملوا على تنويع تلك الفرق ، من الجرمان وغير الجرمان ، وأدخلوا ضمنها العناصر الآسوية كذلك ؛ وأصبح من العسير على هذه الفرق أن تتحد وتقف فى وجه الأباطرة ؛ بل أصبح من السهل على الأباطرة أن يفرقوا بين هذه الفرق المختلفة . وساعد على الاحتفاظ بقوة امبراطوريتهم عمل الأباطرة والحكومة على تجنب أكثر المساوىء السياسية والملذات التى كان الشعب الرومانى يغرق فيها فى روما ؛ وكذلك العمل على الاحتفاظ بالروح المعنوية،مما كان له أثر بالغ فى تقوية دولتهم. كل هذه الأسباب أدت إلى تدعيم سلطان تلك الامبراطورية ، وبقائها لمدة عشرة قرون .

ولكن علينا أن نلاحظ أن الامبراطورية الرومانية وفكرتها القديمة التى كانت تدور حول جمع المدنية والعالم المتمدين تحت حكم روما فى صعيد واحد ، هذه الفكرة لم تحققها الدولة البيزنطية بمعناها القديم إلا فى عهد الامبراطور جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) ؛ ويمكن القول بأن شبح الامبراطورية الرومانية القديمة إنما بعث فى عهد ذلك الامبراطور ، وظلت الامبراطورية قائمة بعده ، ولكن فى حدود متواضعة عما كانت عليه الامبراطورية القديمة .

ولقد ترك لنا عصر جستنيان آثاراً خالدة تتمثل أولا فى كنيسة أيا صوفيا ، وهى الكنيسة التى قام بتصميمها المهندس أنسيميوس ، وجاءت آية من آيات الفن المعمارى من حيث جمالها وحسن تنسيقها ، وما إحتوته من الفسيفساء الملون ؛ وتتمثل ثانيا فى مجموعة القوانين الرومانية الخالدة والتى عهد بالقيام بها إلى رجال أخصائيين ، وبإشراف الامبراطور شخصيا ، فجمعت الأحكام التى ظهرت منذ عهد الامبراطور أدريان (١١٧ - ١٣٨) ، ولخصت آراء المشرعين والشراح ، من آلاف الكتب والمخطوطات القديمة ؛ وبذلك أصبح القانون الرومانى الذى اشتهر بدقته وعظمته ، فى مأمن من الضياع .

وكان وجود الدولة البيزنطية ، ومركزها القسطنطينية ، كدولة مسيحية ،

مظهر من مظاهر العصور الوسطى .

* * * * *

(ع) وتميزت العصور الوسطى كذلك بنشوب **صراع بين الامبراطورية والبابوية** فى الفترة التى تلت إنقسام إمبراطورية شارل العظيم بين أحفاده، وما ساد الإمبراطورية تارة، والبابوية تارة أخرى، من ضعف، عمل الواحد أو الآخرى منها على توجيه مراكز القوى للسيطرة على أوربا الغربية .

وتبدأ أول عناصر هذا الصراع بوصول الأسرة السكسونية إلى الحكم، وتطلعهم إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وكان أول ملوك هذه الأسرة هو **هنرى الاول**، الصياد، الذى وضع أسس سياسة هذه الأسرة، داخليا وخارجيا، والتى سار عليها خلفائه . ولقد واجه هنرى الأول صعوبات داخلية تتمثل أولا فى أمراء الدوقيات الكبرى، فى بافاريا ولوثرنجيا وفرنكونيا، الذين عملوا لزيادة إستقلالهم الداخلى، ونظرهم إليه على أنهم قد انتخبوه ملكا، وليس من حقه أن يستبد بهم، وهذا مبدأ هام بالنسبة للملكية فى ألمانيا ؛ ولقد عمل على أن يحل مشاكلهم تارة بالحكمة، وتارة بالقوة : وتتمثل ثانيا فى خضوع حدود دولته لهجمات قبائل الوند والدانمركيين والبوهيميين والبولنديين والصقالبة . ولقد عمل هنرى على تقوية جيشه، وأضاف إليه فرقا من الفرسان المدربين، وقام بسلسلة من الهجمات أنزل بها الهزائم على أعدائه ؛ كما أنه أقام مجموعة من المعسكرات والحصون الدائمة، تعرف بأقاليم الحدود أو المارکات، إمتدت من بحر البلطيق شمالا إلى البحر الإدرياتى جنوبا، وأمن بها حدود ممتلكاته . وسمح ذلك لخلفائه بالمعيشة فى ظل أمن مستتب، جنى ثمار ذلك إبنه أوتو الأول، وسمح له ذلك بالبدء فى الخطوة التالية، بعد تأمين الحدود، وهى القضاء على المعارضة الداخلية فى دولته، وذلك عن طريق إخماد أنفاس الدوقيات الكبرى بكل الوسائل الممكنة : إما عن طريق الالغاء بحد السيف، أو

عن طريق انتزاعها من أصحابها ومنحها لحلفائه وذوى قرباه ، أو باحلال الكنيسة محل النبلاء ، كما حدث فى وادى الراين . وسمح له ذلك بامكانية التدخل فى إيطاليا ، لإحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولقد تدخل أولا لنصرة آديليد وارثة عرش برجنديا السفلى وسهول لمبارديا ضد برنجار ، ثم تزوج منها وضم ممتلكاتها الواسعة إلى ملكه . ثم تدخل ثانية نتيجة لاستنجاد البابوية به ضد نفس الأمير ، فلبى الدعوة ودخل روما ظافراً سنة ٩٦٢ ، وتوجه البابا يوحنا الثانى عشر إمبراطوراً على الدولة الرومانية المقدسة ، كما كان قد حدث من قبل مع شارل العظيم .

وكانت **البابوية قد أصابها الضعف** فى أثناء القرن العاشر ، وأوائل القرن الحادى عشر ، فأصبح انتخاب البابا عبارة عن مسألة تعيين لا انتخاب ، تتم بمعرفة الكرادلة وأصبحت مسألة تعيين ، وفى أسرة معينة ؛ كما أصبحت رتب الكهنوت تباع وتشترى من الأمراء الإقطاعيين ، ودون الأخذ بمشورة البابوية فى روما ؛ مما جعل كبار رجال الكنيسة مجرد رجال إقطاعيين . وكذلك انتشرت بين رجال الكنيسه الحركة السيمونية ، نسبة إلى سيمون المجوسى ، الذى أراد أن يشترى رحمه الله بما عنده من ثروة ؛ كما انتشرت حركة الزواج بين الكهنة ، على غير ما هو مألوف فى التقاليد الكاثوليكية ؛ وانحطت حركة الرهبنة ، وعلا ضجيج الأهالى مطالبين بإصلاح حال الكنيسة.وأهتم الإمبراطور **هنرى الثالث**، أو هنرى الأسود ، (١٠٢٩ — ١٠٥٩) بالأمر ، وتدخل فى إنتخابات البابوية، ووقف ضد سلطة الأرستقراطية الرومانية التقليدية ، ورجع إليه الفضل فى إنتخاب **ليو التاسع** لمنصب البابوية سنة ١٠٤٨ . وكان هذا البابا من أكبر آباء الاصلاح الكنسى ، وقضى فترة بابويته فى الانتقال من أبرشية لأخرى ، ومن أسقفية لأسقفية ، ومن مقاطعة لأخرى ؛ وعقد المجالس الدينية ودعا فيها إلى إصلاح الكنيسة واستئصال العيوب ، حتى سمى بالبابا الرحالة ، وجاء بعده إلى

منصب البابوية راهب تسكانى . كان قد عمل سكرتيراً خاصاً له ، وربما كان يؤثر عليه من قبل ، هو **جريجورى السابع** ، الذى تولى البابوية من سنة ١٠٧٣ إلى سنة ١٠٨٨ ؛ وهو الذى تمكن من أن يحقق إستقلال البابوية التام ، ويعيد إليها سلطتها الدينية . وكذلك السياسية . ولكنه **بدأ فى الصراع مع الامبراطورية** .

ولقد قام جريجورى السابع بذلك فى وقت كان الجالس فيه على عرش ألمانيا ، هنرى الرابع ، طفلا صغيراً . وحقق البابا ذلك بمساعدة أتباعه من نبلاء إيطاليا ، مثل ماتيلدا ، أميرة توسكانيا ، وزوجها ، جودفرى الأحدب . ولكن سرعان ما وصل هنرى الرابع إلى سن الرشد ، وأراد أن يستعيد سلطانه فى إيطاليا ، وحتى داخل ممتلكات البابوية . وحدث ذلك بسبب التقليد العلمانى ، أى تقليد رجال الدين مناصبهم وإقطاعاتهم فى النظم الإقطاعى . وكان الملوك ورؤساء الإقطاع قد انتهزوا فرصة ضعف الكنيسة ، وتصرفوا فى المناصب الدينية وإقطاعيات رجال الدين فى مناطقهم دون الرجوع للبابوية ، ووزعوها بين أصدقائهم وأعوانهم . ومع إشتداد قوة البابوية ، قرر البابا جريجورى السابع إعادة الأوضاع إلى نصابها الطبيعى ، فتقوم الكنيسة باختيار من تشاء من رجالها لشغل هذه المناصب ، وما على الحكام إلا أن يسلموهم أقطاعاتهم . وأصدر البابا مرسوماً بابوياً فى سنة ١٠٧٥ يحرم به على السلطات المحلية تماماً أمر التدخل فى تنصيب رجال الدين . ولكن هنرى الرابع لم يعبأ بهذا المرسوم ، وإستمر فى منح الأسقفيات والمناصب الدينية ، بما يتبعها من إقطاعات ، لأعوانه ، دون الاهتمام بالمرسوم البابوى . وكتب إليه البابا يحذره بأنه سيصدر ضده قرار حرمان ، ولكن هنرى الرابع جمع مجلساً دينياً من الأساقفة الألمان واللومبارديين ، وقرر هذا المجلس ، فى سنة ١٠٧٦ ، قراراً خطيراً ، هو خلع جريجورى السابع من كرسى البابوية . وكان رد الفعل الطبيعى على ذلك هو إصدار البابا قراراً بحرمان الملك وجميع من اشتركوا معه فى المجلس من الأساقفة ، ودعوة رعية

هنرى الرابع لإعلان العصيان ضده . وأخذ البابا فى تقوية مركزه، سياسياً وعسكرياً ، فى إيطاليا . ومن ناحية أخرى انصرف كثير من النبلاء والأدواق عن الملك ، وقام السكسون بالثورة ضده ، فضعف شأنه ، واجتمع مجلس جديد من نبلاء وأساقفة ألمانيا ، وقرروا ضرورة حصول هنرى على عفو شامل من البابا فى فترة إثنى عشر شهراً ، وإلا ضاع حقه فى الملك . واضطر هنرى الرابع إلى أن يذهب لمقابلة البابا ، واصطحب معه زوجته ، وإبنه الصغير البالغ من العمر ثلاث سنوات ؛ وبعد مفاوضات ، وبعد أن ظل هنرى الثالث على باب القصر حافى القدمين عارى الرأس وسط ثلوج الشتاء لمدة ثلاثة أيام ، سمح له بالدخول ، والدموع فى عينية ؛ فقبل أقدام البابا وأعلن التوبة وطلب الغفران . وكان هذا هو منتهى الإذلال له ؛ وأكبر انتصار للبابوية على الإمبراطورية ، إذ أصبح من حق البابا عزل الملوك وأمراء الأقطاع والتدخل فى شئون الدول .

وفى عهد هنرى الخامس والبابا كاليكستوس الثانى تمكن الطرفان من عمل إتفاقية Concordat فى سنة ١١٢٢ لحل فى مشكلة التقليد العلمانى، وذلك على أساس تخلى الامبراطور عن التدخل فى الناحية الدينية البحتة من تنصيب الأساقفة وانتخابهم ، نظير عدم تدخل البابا فى إقطاعات الأساقفة . التى هى حق من حقوق الإمبراطور ؛ وعلى ذلك يصبح إنتخاب رجال الدين أمراً طبيعياً فى يد الكنيسة ، ومتى انتخب الرئيس الدينى وأعترفت به الكنيسة يقوم الإمبراطور أو رجال الإقطاع بمنحه ذلك الإقطاع الذى يتعلق بمنصبه .

ولقد زاد وضوح الصراع بين الإمبراطوية والبابوية من جديد حين وصل فردريك الأول إلى لبس تاج الامبراطورية ، وكان عنيفاً شديداً ، وأعتبر أنه من الواجب على من يحكم إيطاليا زمنياً أن يرجع إليه ، كإمبراطور : وقاد حملات عديدة إلى إيطاليا ، وتمكن فى حملته الرابعة من أن يدخل روما نفسها سنة ١١٦٧ ؛ ولكنه انهزم فى الحرب الخامسة سنة ١١٧٦ ، وعقد معاهدة البندقية

فى السنة التالية . ولم يحاول البابا اسكندر الثالث أن يقوم بإذلاله ، كما كان جريجورى السابع قد فعل من قبل ؛ بل استخدم السياسة لكى يقضى على روح الحقد . وتم الاتفاق بين الطرفين على ضرورة تطبيق مبادىء إتفاقية سنة ١١٢٢ فى مسألة التقليد العلمانى ، وعلى إعطاء نوع من الحرية لبعض المدن اللومباردية الشمالية ، الأمر الذى ساعد على شعور هذه المدن بحريتها ، ونشاطها من الناحية التجارية ؛ وكذلك على أعتراف الإمبراطورية بملكية البابوية لبعض أجزاء إيطاليا ، من الناحيتين الدينية والدنيوية .

ووصل هذا الصراع إلى أوجه فى عهد البابا انوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) الذى كان طموحاً قوياً شديد المراس ؛ وكان يرى أن روما هى مقر حكومته ، وعاصمة العالم الحقيقية ، وأن الأباطرة والملوك وأمراء الإقطاع لم يكونوا سوى عمالا له ، يسوسون الدولة محلياً ، ويدينون له بالطاعة . وكان وريث فردريك بربروسا لايزال صبياً ، وهو فردريك ملك صقلية ، والذى سيعرف باسم فردريك الثانى فيما بعد ، وكانت ألمانيا منقسمة على نفسها وفى أسوأ حال . ورغم أن فردريك كان تحت وصاية البابا ، إلا أن إنوسنت وافق على منح تاج الإمبراطورية للأمير أوتو الألمانى ، نظير تخليه له عن إيطاليا تنازلا تاماً فى سنة ١٢٠٩ . ولكن سرعان ما قام أوتو بالمطالبة بأملاك الإمبراطورية فى إيطاليا ، فعزله إنوسنت الثالث ، وعين فردريك الثانى بدلا عنه . وتطور الموقف إلى نشوب حرب عامة فى غرب أوربا ، وإنحاز فيها يوحنا ، ملك إنجلترا ، إلى جانب أوتو ، فى الوقت الذى وقف فيه فيليب أغسطس ، ملك فرنسا ، إلى جانب البابا . وإنتهت هذه الحرب فى موقعة بوفين سنة ١٢١٤ ، التى انهزم فيها أوتو ، وضاعت فيها جيوش إنجلترا ؛ وإضطر يوحنا إلى التسليم لإنوسنت حتى ينجو من انتشار الثورات فى إنجلترا ، وهى التى أدت إلى إصدار « العهد الأعظم » فى سنة ١٢١٥ ؛ وسلم إنجلترا له ، ثم عاد واستلمها منه إقطاعا بابوياً ، يدفع عنه رسوماً للبابا .

وكان هذا هو أكبر انتصار للبابوية فى تاريخها، إذ أن الامبراطورية أصبحت تحت رحمتها ، وأصبحت إنجلترا إقطاعا بابوياً ، وأذعن فيليب أغسطس للبابا فى مسألة شخصية ، وهى إستعادة زوجته المطلقة رغماً عنه ، وشارك ملوك نافار وأراجون يوحنا ملك إنجلترا ، بإعترافهم بتفوق الكنيسة ، وسلموا ممالكهم لإنوسنت الثالث ، ثم عادوا وستلموها منه إقطاعا بابوياً ؛ ووضع ملوك أرمينيا والمجر أنفسهم تحت حماية البابوية بدون قيد ولاشرط . ولكن الكنيسة كانت قد خرجت بذلك عن الحدود الدينية ، وبشكل أثار أذهان الناس ، وأدخل فى نفوسهم الشك نحو قدسية الكنيسة والبابوية ، وأثر ذلك فى موقفهم حيالها ، حين تصطدم من جديد مع الملوك والأمراء الإقطاعيين .

وكان من الخطأ أن تتعسف البابوية مع الإمبراطورية ، وتتدخل فى الشئون الزمنية ، بدلا من إقتصارها على الشئون الروحية . وتطور الأمر فى عهد **فيليب الرابع** ملك فرنسا (١٢٨٥ — ١٣١٤) و**بونيفاس الثامن** إلى أن يوم خليفة فيليب أغسطس بإذلال خليفة انوسنت الثالث ، ويذيقه الهوان ، ولا ينصرف الفرنسيون عن ملكهم ، ولا يتقدم أحد للدفاع عن البابا . وانتهى ذلك بنقل الكرسى البابوى من روما إلى مدينة أفينيون ، داخل الحدود الفرنسية ، وبقى البابوات هناك سبعين عاماً من سنة ١٣٠٩ إلى سنة ١٣٧٨ ، وهى الفترة المعروفة بإسم **الاسر البابلى** . وظهر نتيجة لذلك ضعف البابوية ، وحركة الانقسام الكبرى فى الكنيسة العربية ، مع إنتخاب بابا فى روما أو فى سويسرا أو أسبانيا ، فى الوقت الذى وجد فيه البابوات فى أفينيون ؛ وكذلك قيام حركة المجالس الدينية للاصلاح من شأن الكنيسة والبابوية والعودة بها إلى مجدها القديم . ولقد عادت البابوية إلى روما من جديد ، ولكن كثيراً من الناس انفضوا من حولها ، وقام بعض أحرار المفكرين بمهاجمتها علانية ، مثل ويكليف **Wycliff** الذى تزعم هذه الحركة فى انجلترا فى القرن الرابع عشر ، ويوحنا هيس فى بوهيميا فى القرن

الخامس عشر . واتجهت أذهان الناس نحو الانشقاق على البابوية ، وبشكل أنه حين قامت ثورة لوثر فى ألمانيا ، وثورة كالفن فى سويسرا ، ولم يعدم أحدهما أتباعاً لتعاليمه، فبدأت الحركة البروتستنتية الإنفصالية فى العالم ، وحدث التصدع والانشقاق فى بناء الكنيسة . وهذا فصل جديد يساير تاريخ عصر النهضة ، وفجر التاريخ الحديث .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

(٥) وتميزت العصور الوسطى بنشوب الحروب الصليبية فيها . وهى من الحركات التى تعبر أصدق تعبير عن روح العالم الغربى فى العصور الوسطى ؛ إذا أنها كانت تعبر عن الدين ، الذى كان من أهم مميزات العالم الوسيط ، وكذلك عن الحرب ، التى كانت من مستلزمات النظام الاقطاعى ونظام الفروسية ، كما كانت الحروب الصليبية عالمية ، بمعنى أنها كانت تجمع كل الأمم المسيحية الغربية ضد جامعة الدول الاسلامية الشرقية . ونجد من ناحية ثالثة أنه كان لهذه الحروب هدفاً محدداً يتمثل فى الاستيلاء على بيت المقدس ، وتحرير الأراضى المقدسة وإعادتها إلى المسيحيين ، وتأسيس مملكة لاتينية كبرى فيها . وأخيراً فإنها كانت تمثل فصلا خاصا من فصول الصراع بين الشرق والغرب . والذى ظهر فى التاريخ القديم فى شكل الصراع بين الاغريق والفرس ؛ وإمتد فى العصور الوسطى فى شكل الحروب الصليبية ، ثم أخذ شكل الاستعمار فى العصور الحديثة .

وكانت الحروب الصليبية قد بدأت فى سنة ١٠٦٦ بإعلانها على لسان البابا أربان الثانى ، فى كليرمونت فى جنود فرنسا ، وانتهت بخروج الصليبيين من الأراضى المقدسة نهائياً ومن آخر معاقلهم ، وهى عكا ، هناك . فى سنة ١٢٩٢ . وإن كان بعض المؤرخين يرون أن حروب البيزنطيين ضد السلاجقة قبل سنة ١٠٩٦ كانت حروباً صليبية ، ويرون أن هناك حروبا صليبية أخرى وقعت بعد سنة ١٢٩٢ ، مثل صليبية نيسكوبوليس . وذهب البعض إلى أن استيلاء

العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ هى حرب صليبية ؛ وكذلك معركة ليبانتو سنة ١٥٧١، اعتبرها البنادقة على أنها حرب صليبية . ولكن هذه الحروب لم تكن تجمع كل الدول المسيحية ، ولا موجهة ضد كل الدول الاسلامية ؛ كما أن هدفها لم يكن هو الاستيلاء على بيت المقدس .

وكانت أسباب قيام الحروب الصليبية كثيرة ، ومتعددة ، فكان المسيحيون فى أوربا يشعرون بتجدد الخطر الاسلامى بعد انتصار المسلمين فى موقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦ ، التى إستولوا بعدها على طليطلة فى الأندلس ؛ وحدث ذلك بعد عشر سنوات من انتصار السلاجقة على البيزنطيين فى موقعة منازجرد سنة ١٠٧٦ ، وباحداق خطرهم بالقسطنطينية. فاستنجد الامبراطور البيزنطى اليكسيوس بالبابا أربان الثانى ، وصادف ذلك هوى فى نفس البابا ، وفرصة لمد نفوذه فى الشرق، بعد أن وطد هذا النفوذ فى الغرب ، وفرصة لتزعم كل العالم المسيحى فى حرب صليبية. وكانت الشعوب المسيحية فى غرب أوربا قد تحفزت للقيام بهذه الحروب نتيجة للدعاية التى كانت تصلهم مع الحجاج ؛ وكانوا يقاسون فى ذلك الكثير من المصاعب ، بعد أن خضعت الشام لحكم السلاجقة ، الذين كانوا حديثى العهد بالاسلام ، والذين كانوا أقل تسامحاً ، عمن سبقهم فى حكم هذه الأقاليم ، مع الحجاج المسيحيين . ولاشك فى أن هذه الأخبار كانوا قد بالغوا فيها لحشد النفوس للقيام بهذه الحروب ، وبدعوى تخليص المسيحية والمسيحيين فى الأراضى المقدسة . وكانت هناك أسبابا أخرى ساعدت على إتساع الحركة، وتجنيد الجيوش لها فى أوربا من أقصاها إلى أقصاها ؛ فكان كثير من النبلاء الذين لم يوفقوا إلى ميراث إقطاعى يحلمون بالحروب الصليبية التى قد تسمح لهم بتأسيس إمارات أخرى فى الشرق ؛ ووجد رقيق الأرض فى هذه الحركة منفذاً طبيعيا ، ومعترف به من الكنيسة والحكومات ، لتحرير أنفسهم من العبودية الإقطاعية . ولاننسى أن كثيراً من الناس كان يرغب فى الحصول على غفران ذنوبه ، وعلى الشهادة ؛

وكان غيرهم يحب المغامرة ويحلم بزيارة الأماكن البعيدة . هذا خلاف أسباب أخرى ، ماديه وتجارية ، زاد ظهورها فى الحروب الصليبية فيما بعد .

وقام المئات من الوعاظ بالتبشير بالحروب الصليبية فى قرى أوربا ومدنها ، وتجمع مئات الآلاف من الأهالى ، مستعدين للسفر إلى الشرق .

ويمكننا أن نقسم الحروب الصليبية بعد إعلانها على لسان البابا أربان الثانى ، إلى ثلاثة أطوار : يتمثل الطور الأول منها فى انتصار المسيحيين على المسلمين الذين كانوا منقسمين فيما بينهم بين فاطميين وعباسيين وشيعة ؛ ويتمثل الطور الثانى فى التوازن بين المسلمين والمسيحيين فى الأراضى المقدسة ، بعد أن لم المسلمون شملهم ؛ ويتمثل الطور الثالث فى انتصارات المسلمين الحاسمة على الصليبيين فى الأراضى المقدسة ، وطردهم منها نهائيا .

وفى الطور الأول من أطوار الحروب الصليبية ، تمكنت الحملة الصليبية الأولى ، بعد وصولها إلى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ ، من تعبر البوسفور ، وتتوغل فى الأناضول ؛ واتجت إلى سوريا ، واحتلت مدينة الرها ، ثم أنطاكية سنة ١٠٩٨ ؛ وتوجت انتصاراتها بالإستيلاء على بيت المقدس فى شهر يوليو سنة ١٠٩٩ . وتأسست المملكة الصليبية اللاتينية فى الشرق ، على النظام الاقطاعى الأوربى ؛ وانتخب جودفرى البرجندى ، دوق اللورين السفلى ، ملكا عليها ؛ وقسم هذه الدولة إلى إقطاعات وزعها على أصدقائه الذين كانوا معه فى الحرب . وكان هذا أقصى ما وصل إليه الصليبيون .

أما الطور الثانى فقد شهد استيلاء عماد الدين زنكى على حلب سنة ١١٢٧ ، وتخليص الرها من الصليبيين سنة ١١٤٤ ؛ واستمر نور الدين يواصل سياسة أبيه من بعده فى تضييق الخناق على الصليبين حتى أضطرهم إلى الاستنجاد بأوربا ؛ فحضرت الحملة الصليبية الثانية وكان مصير هذه الحملة هو الفشل والعجز عن إغاثة مملكة أورشليم اللاتينية ، وانتهت برجحان كفة المسلمين ، واستيلائهم على دمشق .

وتميز الطور الثالث بتوحيد كلمة المسلمين ، تحت قيادة صلاح الدين الأيوبى، الذى انتصر على الصليبيين فى موقعة حطين سنة ١١٨٧ ، ثم تخليصه بيت المقدس من أيديهم بعد ذلك بأربعة أشهر . وأرسلت أوربا الحملة الصليبية ، بقيادة الامبراطور فردريك الأول ، ولكنه غرق فى أحد الأنهار فى أرمينيا ، وتشتت شمل جيشه . ثم جاء فيليب أغسطس بحراً إلى الأراضى المقدسة ، ولكنه إضطر، بعد فترة إلى العودة إلى بلاده . وظل ريتشارد قلب الأسد بجوار عكا ، مظهراً الشجاعة والفروسية ، ولكن دون أن يصل إلى نتيجة عملية ، أمام صلاح الدين. وانتهى الأمر بعقد صلح الرملة سنة ١١٩٢، وأعترف فيه الصليبيون بملكية المسلمين لبيت المقدس ، وتعهد فيه المسلمون بمعاملة الحجاج بالتسامح ، مع الموافقة على عقد هدنة لمدة ثلاث سنوات ، وترك الساحل فيما بين يافا وصور فى أيدى الصليبيين .

وهدأت الأحوال لفترة من الزمن ، ثم تجددت الحروب الصليبية فى إتجاه آخر يدل على أن هذه الحروب قد فقدت معناها الدينى ، كما فقدت هدفها المتمثل فى الاستيلاء على بيت المقدس . وقد تمثل ذلك فى الحرب الصليبية الرابعة ، التى عمدت البندقية ، التى كانت تعيش من الحروب الصليبية ، إلى تحويلها عن وجهتها الأصلية ، وإلى توجيهها إلى القسطنطينية ، وإلى الاستيلاء عليها من الأباطرة البيزنطيين ، حتى يسيطروا بذلك على المراكز التجاريه التى كانت فى أيدى جيرانهم المسيحيين الضعفاء ، بعد أن فشلوا فى السيطرة على المراكز التجارية الموجودة فى أيدى المماليك . وتم ذلك رغم احتجاجات البابا ، وتمكنت هذه الحملة من تأسيس إمبراطورية لاتينية ظلت ، منذ سنة ١٢٠٤ ، وحتى سنة ١٢٦١ ، حين إستعادها أباطرتها الأصليون ، تمنح البندقية امتيازات تجارية واسعة النطاق . ودل ذلك على تدخل المصالح فى الحروب الصليبية ، وعلى تلغب ظهورها واضحا عن المظهر الدينى .

وزاد وضوح هذه الظاهرة بعد ، وبخاصه في حملة بطرس لوسيفيان ،

ملك قبرص اللاتيني سنة ١٣٠٥ ، على الاسكندرية ، حيث قام باحتلال المدينة لمدة أسبوع ، نهب ما كان فيها من ثروه ، ثم عاد بجيشه إلى قبرص ؛ وكذلك في حملة يوحنا الطيب ، دوق بربون ، على مدينة المهدية بتونس سنة ١٣٩٠ ، تلك الحملة التي كانت تستعملها جنوا لتحقيق أغراضها التجارية ومصالحها في شمال إفريقية ، كوسيلة للضغط على الأمراء التونسيين لعقد اتفاقات تجارية .

* * * * *

وكما كانت العقيدة أساسا للحياة في العصور الوسطى ، بنى النظام الاقتصادى والاجتماعي والحربي للعصور الوسطى على أساس **الاقطاع** ، الذى ميز حياة العصور الوسطى عن حياه العبودية السابقة ، في العصور القديمة ، وميزها كذلك عن عصر الرأسماليه الذى نما وازدهر ، وميز حياة العالم في التاريخ الحديث .

ونظام الاقطاع يتصل أتصالا مباشراً بالأرض ، فلكل رجل إقطاع ، على قدر نبله ، وانتظمت على هذا الأساس ، حياة الناس وجماعاتها في العصور الوسطى . وأصبح لكل طبقة من طبقات المجتمع ، خواصها ومميزاتها ومكانتها ، فيما يمكن أن نسميه بالسلم الاجتماعي . تبعا لما تتمتع به هذه الطبقة من ميزات في الاقطاع . وكان هناك النبلاء والفرسان والرقيق . وكان هذا النظام وليد ظروف الانتقال من عصر الدولة الرومانية ، إلى عصر الحكومات الملكية ، التي بدأت في الظهور في أواخر العصور الوسطى .

* * * *

ولم تكن العصور الوسطى خالية من التجديد ، ومن التطور ، والتقدم الفكري والاجتماعي . ورغم ذلك فقد نظر إليها بعض الباحثين على أنها عصور ظلام وتأخر ، ولعل ذلك يرجع إلى ذلك التأثير الذى أحدثه عصر الإنبثاق في عقول الناس ، وكان من القوه بدرجة حجبت عن أعينهم ما اشتملت عليه الفترة السابقة . ولاشك في أن جهل الناس بحقيقة العصور الوسطى جعلهم يحكمون

عليها حكم من يجهل الشيء ، عليه . ولاشك فى أنه لا يمكن دراسة التاريخ الحديث دون معرفة التاريخ الوسيط ، إذ أن تاريخ البشرية يمثل سلسلة متتابعة الحلقات ، ليس لحلقة منها قيمة دون الحلقات السابقة ، واللاحقة ، ودون معرفه حقيقية وقيمة كل حلقة فى هذه السلسلة ، الانسانية .

وليس هنا مجال للدفاع عن العصور الوسطى ، التى بدأت مع سقوط امبراطورية روما فى أيدى البرابرة فى منتصف القرن الخامس ، واستمرت حتى منتصف القرن الخامس عشر ، تقريبا ، وماتم عبر هذه القرون من تغير فى حياة المجتمع ، وتطور ، نتيجة للظروف المادية ، والمعنوية . ولاشك فى أنه قد واجهت الأوربيين صعوبات كثيره ، حين بدأوا يعملون على إثر ماخلفه البرابرة، من الفوضى والارتباك فى المجتمع الأوربى . لقد أنهار كل شيء مادى ، ولم يكن لهم سوى سلاح الإيمان والعقيدة ، يتسلحون به ، ويتشبثون به ، لكى ينقذهم ، ويحدد خط مسيرتهم ، بعد أن اعتنقوا المسيحية ؛ إنها نار العقيده ونورها قبل أى شيء إنها الدين ، والخلاص والجنة . إنها شعارات العصور الوسطى فى عالم قد إنهار ، فتمسكوا بدينهم ، وحاربوا من أجله ، فكانت حضارة العصور الوسطى. ولقد تمكن الأوربيون من الخروج من هذه المعركة ، واتجهوا بحياتهم إلى بضع قرون مستقرة ، ونجحوا فى تحقيق فترة لابأس بها من الأمن والسلام ، ومهدوا بتطورهم لظهور العصر الحديث .

وكانت العصور الوسطى تمثل حلقة من حلقات التطور بين العصور القديمة ، والعصور الحديثه ؛ وكانت فى داخلها تشتمل على تطور مستمر ، حتى وإن كان يحدث ببطء .

ويمكننا أن ننظر إلى محاولات جستنيان لتوحيد أوربا ، فى الشرق والغرب ، وإن كان قد فشل فيها ، وكذلك محاولات شارلمان جمع شمل أوربا تحت ؛ حكمه على أنهما الأساس لنشأة الدول الأوربية الحديثة ، فى العصور الحديثة ؛ وأنه

كانت توجد، نخلف هذه الحياة المضطربة ، عملية تكوين أوربا الحديثة تسير فى سيرها الطبيعى ، من وراء الستار ، وإن كانت مقوماتها لم تكن قد اكتملت بعد ، وبالشكل الذى رغبوا فى إعطائه لعمليتهم . وظهرت آثار هذا التطور والتبلور فى أثناء القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وبشكل لم يكن رجال العصور الوسطى قد ألفوه من قبل ؛ ويتمثل ذلك فى نمو النظم الملكية فى انجلترا وفى فرنسا ، الأمر الذى ساعد على إيجاد مجتمع منظم ، يتمتع بحياة مستقرة نسبيا ، وتأخذ قوة الأمراء ، ونبلاء الاقطاع فى الضعف فى هذه الدول ، وتحل محلها سلطة الملوك والأقوياء .

وشهدت العصور الوسطى مولد **الدستور الانجليزى** ، الذى جاء نتيجة للتطور ، ولكفاح طبقات الأمة فى انجلترا ، ضد الملكية هناك ، فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، بصفة خاصة . وعمل ذلك على تقييد سلطة الملك باشراك غيره فى الحكم معه .

كما شهدت العصور الوسطى **نشطا تجاريا كبيرا** ، وجاء نتيجة للحروب الصليبية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط . وكانت من نتائجه نقل السلع والخيرات التى اكسبت مدن جنوب أوربا عامه ، مع المدن والموانى الإيطالية خاصة ، وبالاشتراك مع الموانى العربية فى مصر وسوريا ، الكثير من الثروات . وأصبحت كل من الاسكندرية والبندقية من أهم المراكز التجارية فى العالم ، لوقوعها على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، الأمر الذى أثر على تطور الأحداث بعد ذلك .

وحدث تغيير كبير من الناحية العقائدية فى أثناء القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وبعد أن كان الناس يعتقدون فى العصور الوسطى فى الخرافات ، وكان مثلها الأعلى واحداً ، وكانت الحروب الصليبية تمثل قوة واضحة ضد المسلمين فى الشرق ، تغيرت الأحوال ، وتغيرت نظرة الناس إلى الدين وإلى الكنيسة بالتدرج ، وأصبح الناس أكثر فهما وأكثر حرية مما تعودوا عليه من تقاليد وعادات .

ولم تعد فكرة الرهبنة هى المثل الأعلى ، بل أصبح الناس يجدون اهتماما بنواحى أخرى تثير اهتمامهم ، خارج نطاق الكنيسة ، وفى الحياة العملية ذاتها ، رغم اشتمالها على بعض الآثام ، وبعض الشرور ؛ ومع ذلك فإنها أصبحت تجتذب الناس ، ودون إرغام كبشر .

وظهر فى أثناء القرن الثانى عشر ،كذلك **نشاط فى الحياة العلمية والفكرية** ؛ وشكل يختلف عما ساد فى العصور الوسطى . وبعد أن كان الاهتمام بالعلوم محصوراً بين الكنائس والأديرة ؛ وبعد عمل الكنيسة ، ولقرون ، على الاحتفاظ بالتراث العلمى والفكرى والانسانى ؛ تبدلت الأمور وتطورت ، نتيجة للمزج بين حضارات وثقافات البحر المتوسط، ونتيجة لتأثير الفكر اليونانى فى أوروبا، بفضل مانقله العرب إليهم ؛ فأعطى عصر الترجمة ، ترجمات العرب فى الرياضيات والهندسة والطب ؛ وأخذ الناس يدرسون هذه العلوم كفروع مستقلة للمعرفة . وبعد أن كان من الضرورى لأبناء العصور الوسطى التسلح بالعقيدة من أجل الفهم ، أصبحوا لايعتقدون فى شىء قبل فهمه . وبدأت العقول تتحرر ، وتتجه صوب النقد . وطبقوا ذلك على الدين نفسه ، وهاجموا تصرفات رجال الكنيسة ، وبعض عقائدها ، الأمر الذى سيؤدى إلى ظهور حركة الاصلاح الدينى فيما بعد.

كما تميزت أواخر العصور الوسطى **بظهور الجامعات** ، التى ارتبطت بانتشار العلم ؛ وظهرت منذ القرن الثالث عشر ، مثل الجامعات الإيطالية ، وجامعة باريس وبدأت فكرة الجامعة باجتماع الطلاب حول أساتذتهم ، لتلقى العلم الدينى أو الفلسفى ، وتنقلوا معهم من مكان لآخر . ولم تكن هناك أماكن أو بنايات خاصة بهم ، فكانوا ينتقلون حيث يطيب لهم الاستقرار . ثم وجدت هذه الجماعات من الطلاب والاساتذة أن من مصلحتهم أن يوثقوا الروابط بينهم ، فنشأت الجامعات ، فى مقار خاصة بها ؛ وأخذ الملوك والبابوات يصدرون القرارات بإنشائها ، ويمدونها بالأموال ويقدمون لها التسهيلات . ونشأت بهذه الطريقة

كليات لدراسة العلوم الإلهية ، والفنون ، ولدراسة العلوم القانونية ، وإن كان الطابع الديني هو الطابع المتغلب على هذه الدراسات ، فى أول الأمر .

وأخيراً ، وليس آخراً فلا يمكننا أن ننسى للعصور الوسطى أنها أعطتنا الفن القوطى ، الذى يمثل أحد نتاجات عبقرية هذا العصر ، والتى لا تزال الكثير من أبنيته قائمة ، حتى الآن فى أوربا ، تشهد بالعظمة والفن والدقة .

* * * * *

وكما حاولنا أن نحدد وقت بدء العصور الوسطى . نحاول أن نحدد وقت نهايتها . ومرة أخرى نقرر أنه من الصعب وضع حد فاصل لأى عصر من عصور التاريخ . فالعصور الوسطى متداخلة فى العصر الحديث ، والآراء والفكر متداخلة مع بعضها ، فامتد الكثير من آراء العصور الوسطى وعاش فى العصور الحديثة ، كما أن الكثير من آراء العصور الحديثة كانت سائدة فى العصور الوسطى.

وعلى كل حال فيمكننا أن نعتبر أن التاريخ الحديث قد أخذ شكله الواضح إبتداء من القرن السادس عشر ، وبطريقة تجعلنا ننظر إلى العهد السابق لذلك على أنه فترة انتقال بين العصور الوسطى ، والتاريخ الحديث . ويرجع ذلك إلى حدوث تطورات فى القرن السادس عشر جعلت الفرق فيه واضحا عنه فى العصور الوسطى ، حتى وإن كانت هذه التطورات قد بدأت مع نهاية العصور الوسطى ، واستمرت ونمت حتى وصلت إلى شكلها النهائى فى القرن السادس عشر . وهذا ما يدفعنا إلى أن نربط بين العوامل ، ومن العصور الوسطى ، إلى التاريخ الحديث ، وفى موضوع واحد ومتصل ، إقتصاديا ، وإجتماعيا ، ومعنويا ، وسياسيا ، وفنيا ، فى شكل « فجر التاريخ الحديث » .

* * * * *

ولقد ظهر التاريخ الحديث بمميزات خاصة به ، استمرت ، وتطورت ونمت ، وفى شكل سلسلة متصلة الحلقات منذ العصور الوسطى ، وعبر التاريخ

الحديث ، لكى تصل بتاريخ الانسانية إلى تاريخها المعاصر .

ولقد بدأ ذلك بتفكك عالم العصور الوسطى فى الغرب ، وفى أسس ذلك العالم الذى قام أساساً على نظام الإقطاع. ومع تطور وسائل وعلاقات الإنتاج، ونمو البورجوازية مع النظام الرأسمالى فى المدن ، وما تبع ذلك من تحسن وسائل الانتاج ، وبشكل أثر على شكل المجتمع على طريقة تفكير الأهالى .

وحدث فى نفس الوقت أن قامت العناصر الاسلامية عامة ، والعثمانية منها خاصة بالزحف نحو الغرب ، وتمكنت من العبور إلى البلقان، ثم من الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وبشكل أنهى حياة الدولة البيزنطية، وأثر على العلاقات بين الشرق والغرب .

كما تميزت فترة فجر التاريخ الحديث بظهور بشائر **عصر النهضة الاوربية** فى إيطاليا ، ثم إمتدت منها إلى بقية أنحاء أوربا ، وإن كانت قد أخذت لنفسها طابعاً خاصاً متميزاً فى كل منطقة من المناطق . وظهر رجال جدد ، يمثلون بداية عصر جديد ؛ وظهرت تطورات فى الدين والأدب والسياسة ، وظهر نشاط فى أوربا والأوربيين .

ولا يمكن لأحد أن يتغاضى عن تلك العمليات ، التى أدت إلى **الكشوف الجغرافية** التى قام بها كل من الاسبانيين والبرتغاليين ، والتى أدت إلى أكتشاف أراض جديدة ، والسيطرة على طرق التجارة العالمية ، وأسر هذه التجارة ، وتسييرها فى طرق جديدة ؛ فتغيرت معرفة الناس بالعالم ، ومعلوماتهم عنه . وترتب على ذلك أرتفاع أمم ، وانخفاض أمم أخرى ؛ وأدى كشف طريق رأس الرجاء الصالح إلى تحول التجارة العالمية إلى طريق جنوب إفريقية ، وانخفض شأن كل من الاسكندرية والبندقية ، وأرتفع شأن أسبانيا والبرتغال ؛ وأدى ذلك إلى انقلاب هام فى حياة أقاليم أوربا ، وحياة أهلها ، ومناطق توزيع الثروة فى العالم.

وترتب على ذلك وتلاه عملية التوسع العثمانى فى الشرق الأدنى واستيلائهم

على كل من الشام ومصر ، ثم على العراق واليمن ، وبشكل غير التوازن الموجود في الحوض الشرقي من البحر المتوسط .

كما تدخلت الدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، حيث نشب صراع بين القوة الاسبانية والقوة الاسلامية المتمركزة في الجزائر ، والمتحدة مع الدولة العثمانية ، بشأن موانى وقواعد الجزائر وتونس وليبيا ، إستمر حتى معركة ليبانتو .

وتميز تاريخ أوربا في العصر الحديث بظهور **حركة الاصلاح الديني** البروتستنتي ، والتي كانت ثورة وخروجاً على تقاليد وعقائد الكنيسة الكاثوليكية ، وذلك لإصلاح العيوب التي تفشت ؛ وكانت جرأة غير مألوفة بالنسبة لعقلية رجال العصور الوسطى ، ورغم أن بداية التفكير في نقد الكنيسة كان قد بدأ في نهاية العصور الوسطى ، إلا أنه سيتطور في العصور الحديثة إلى « حركة » لها أثرها في المجتمع ، ومن النواحي الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية . ولقد ترتب على ذلك ظهور حركة الاصلاح الديني الكاثوليكي ، الذي هدف إصلاح عيوب الكنيسة الكاثوليكية نفسها ، وفي نفس الوقت الذي هدف فيه محاولة إرجاع كل من خرج على الكنيسة الكاثوليكية إلى حظيرة الكثلكة والخضوع للبابوية . وترتب على ذلك صراعات ومصادمات وحروب بين المعسكرين الكاثوليكي ، والبروتستنتي ؛ فخاضت أوربا غمار المعارك بسبب حركة الاصلاح الديني ؛ وكانت لها آثار خطيرة على حياة المجتمع الأوربي .

وإذا كانت فكرة الإمبراطورية المقدسة مسيطرة في أثناء العصور الوسطى ، فإن هذه الإمبراطورية العالمية ، والتي كانت الكنيسة الكاثوليكية تشد أزرها ، لم تعد تلائم روح العصر الحديث . وبدلا من هذه الوحدة السياسية ظهرت **دول أوربا الحديثة المستقلة** ، ذات الكيان الوطني الواضح في فرنسا ، وإنجلترا ، واسبانيا ؛ وقويت سلطة الملوك في كل من هذه الدول ، في الوقت الذي قلت فيه

أهمية النبلاء والسادة الاقطاعيين . وعنى هؤلاء الملوك الأقوياء والمستبدين ، بتقوية بلادهم ، وتقوية جيوشهم ، وأساطيلهم ، وإستخدموا البارود لبناء قوات عسكرية لا يقوى عليها أمراء الإقطاع وتعمل فى نفس الوقت على القضاء على حصون أمراء الاقطاع ومعاقلهم . وتمت عملية التطور فى تقارب بين الملوك والبورجوازية ، وعلى حساب النبلاء الذين زادوا ضعفاً .

وأخيراً ، وليس آخراً ، فإن فجر التاريخ الحديث ، الذى شهد الكشوف الجغرافية قد أدى إلى تغيير خريطة العالم المعروف وأدى أكثر من ذلك إلى ظهور **حركة الاستعمار الاوربى للعالم** ، كل العالم ، بما فيه الأمريكتين ، واستراليا ، والشرق الأقصى ، وأفريقية ؛ ولا شك فى أنها كانت مرحلة هامة تمثل سيطرة أوربا على العالم ، وفى صالحها ، وأدى إلى بناء أوربا كتحفة فنية ، فى مدنها ، وكمركز مسيطر ، وعلى حساب الملايين ، وفى جميع أنحاء العالم .

وهذه المميزات للعصور الحديثة هى الفقرات الكبرى فى هذا الكتاب ، وتمثل أبوابه الرئيسية ، الواحد بعد الآخر . ومن عالم منغلق على نفسه إلى انفتاح وسيطرة واستغلال وتحكم وامبريالية . إنها قصة بدأت من فجر التاريخ الحديث ، ولا تزال حلقاتها متسلسلة ، وحتى الآن .

الباب الأول

تفكك عالم العصور الوسطى فى الغرب

الفصل الأول

ضعف النظـــام الاجتماعى

وازدياد قوة الملكية

كان النظام الاقطاعى مظهر هام ، وأحد المميزات الرئيسية للحياة فى العصور الوسطى فى العالم الغربى . وكان قد تغلغل فى المجتمع ، وأثر فى وضعية الأفراد والممتلكات . وقام على أساس السيطرة على الأرض ، وهى وسيلة الانتاج فى مجتمع زراعى ، ومن جانب طبقة من المحاربين ، تميزت ، وكونت لنفسها طبقة خاصة بها ، إرستقراطية ، وضعت لنفسها نظماً تربطها بالأهالى ، وتربط كل منهم بنوعية الأرض الموجود عليها . وأدى ذلك أن يكون تركيب المجتمع ، والسلطة السياسية فيه قد قامت بالفعل على أساس هذا النظام ، ومن عبيد الأرض إلى صغار السادة ، ثم كبارهم ، وحتى تصل إلى السيد الأعلى ، والذى ليس له سيد ، وهو الملك . وكان من الطبيعى أن تظهر الأيام والممارسة نقائص المجتمع الاقطاعى ، وعرقلته للتقدم الاقتصادى والبشرى . فتظهر حياله قوى معارضة تتمثل من ناحية فى القوى الشعبية التى تحاول الحصول منه على تنازلات . ومن ناحية أخرى النظام الملكى ، الذى يحاول أن يرث حقوق الطبقة الارستقراطية ، من ناحية سلطتها السياسية مدعماً لنفسه ، ولنظامه الملكى ، فى جميع أنحاء المملكة. ويؤدى هذا الصراع ، الطويل المدى إلى ضعف النظام الاقطاعى وإضطراره إلى التخلى ، مع الظروف ، ومع الزمن ، عن الكثير من حقوقه ، وفى صالح الملكية ، التى تزداد قوة مع الأيام . وكان هذا التحول الطويل قد بدأ منذ منتصف القرن الثانى عشر . و أساس لتغير إقتصادى وإجتماعى كبير ، فى تكوين وبنيان حياة العصور الوسطى ، فى البادية . والريف ، ونطاق الإنتاج الزراعى ، وحيـــاة

الريف ، التى كانت هى السمة الغالبة على حياة العصور الوسطى . وكان هذا التغير الجذرى يمهد لتغير يحدث فى شكل المجتمع ، وكذلك فى العلاقات الموجودة فى البنيان الفوقى لمجتمع عالم العصور الوسطى فى الغرب .

١ ـ النظام الاقطاعى :

كان الاقطاع يشتمل على مجموع النظم العامة والخاصه التى سادت غرب أوربا أثناء العصور الوسطى ، والتى كان أهم ركن فيها توزيع مناطق النفوذ . ولقد إمتد نظام الاقطاع بشكل عام ، وبغض النظر عن الأزمنة والأمكنة ، على كل النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والتى كانت تضم ؛ ومهما كانت مسمياتها . السمات الأساسية لما ساد أوربا فى هذه العصور . وعلينا ألا ننسى أن هذا النمط من المجتمع ومن الحكومة قد امتد إلى بلاد أخرى ، وفى فترات مختلفة ، وأنه قد اختلف ، فى شكله ، من مكان لآخر ، وإن كانت بعض سماته العامة قد تميزت عن غيره من أنماط التنظيم الاجتماعى والسياسى .

وكان النظام الاقطاعى قد تغلغل فى كل جسم المجتمع ، وأثر على أجهزته الحيوية ، وغير كل ظروف وجودها ، وحدد وضعية الأفراد ، ووضعية الممتلكات ؛ وكذلك السلطات العامة . ويشتمل كل نظام اقطاعى على صفات ثلاث : (١) فهو يعيش فى نطاق نظام زراعى ، وتشتمل الأرض فيه جزئياً على ممتلكات جماعية ، للمنفعة العامة ، وكذلك على الممتلكات الزراعية المحددة لأسر أو لأفراد ؛ والتى يمثل إنتاجها العامل الأساسى فى الثروة العامة ؛ أما التجارة والصناعة فليس لها سوى دور ثانوى ؛ (٢) وهو يمثل مجتمع محارب ، أى أنه بدلا من يستند أمر الحصول على الملكيات إلى ظروف العمل والعدالة ، فإنه يتقرر فى غالب الأحيان ، عن طريق القوى والقهر ، كما أن جزءاً كبيراً من المجتمع يعيش مسلحاً ، وبشكل دائم ، سواء من أجل الدفاع ضد أى هجوم خارجى ، أو من أجل المحافظة ، فى داخل الدولة ، على تلك الوضعيه التى انشئت ، ضد

مقاومة غير الراضين ، أو ضد محاولات الطموحين ؛ (٣) وهو مجتمع أرستقراطى، أى أن أعضاءه موزعين بين طبقات مختلفة ، وغير متساوية ، وللبعض امتيازات، وبينما تثقل الأعباء كواهل الآخرين . وهناك أشكال مختلفة للأرستقراطية : فيمكن لإحدى الطبقات المتميزة أن تستند فى تفوقها إما إلى شعب غاز تنحدر منه ، وإما إلى إحدى المهن الدينية أو المدنية أو العسكرية ، التى كانت تمارسها ، دون أن تشرك فيها أحداً معها ، وغالبا ماتحصل على أصلها وصلابة سلطتها نتيجة لأكثر من عامل من هذه العوامل . وفى المجتمع الاقطاعى لاتتشكل الطبقة الأرستقراطيه بمهنتها المدنية ، ولا بثروتها غير العقارية . وتستند فى تفوقها إلى سببين رئيسيين : فهى الوحيدة التى تسيطر على الأرض ، أى على الثروة العامة ، فى هذا المجتمع الزراعى ، وهى الوحيدة التى تحمل السلاح وتمارس الحرب ، وباختصار فهى مرتبطة بالأرض كما أنها عسكرية . وليس معنى ذلك أنها تتكون من المحاربين فقط ، خاصة وأن الطبقة المميزة فى المجتمع الاقطاعى تشتمل كذلك على رجال الدين ، ونقابات الحرف ، ومجموعات البورجوازيين ، ولكن هؤلاء كانوا مضطرين ، من أجل التمتع بميزات رجال السيف ، إلى أن يمتلكوا أراض ، أو يحصلوا على حقوق عقارية ، وأن يقدموا كذلك عن طريق ممثلين عنهم ، خدمات للحرب ، أما الطبقات الدنيا ، فى مثل هذا المجتمع ، فإنها كانت تتكون من عبيد ، مرتبطين بالأرض ؛ ومزارعين أو صناع يشاركون بدرجات متفاوتة فى ظروف العبودية ، ومن رجال أحرار لهم حقوق مدنيه محدودة للغاية، وعليهم أعباء ثقيلة . وكان هؤلاء هم الذين يزودون المجتمع كله ،وبعملهم، بكل مايحتاجه من الناحية الاقتصادية . ولما كانوا لايمتلكون أرضا خاصة بهم ، ولما كانوا لايمتلكون سلاحا ، وليست لهم تقاليد حربيه ، فكان من الواجب عليهم أن يطلبوا إلى الطبقة الأستقراطية ، وفى نظير الخدمات الشخصية ، أو دفع مبالغ من المال ، التنازل لهم عن أرض صالحة للزراعة، وكذلك أعطائهم الحماية

اللازمة لقيامهم بعملهم ؛ وبهذا أصبحوا يعيشون فى خضوع لها، وتحت رحمتها.

وهذه الصفات الثلاث توجد فى كل المجتمعات الاقطاعية ، وإن كانت لاتكفى للتمييز بينها وبين المجتمعات الارستقراطية ، والتى وجدت فى بلاد اليونان القديمة . وروما مثلا ؛ وإن ما يمثل الاقطاع بنوع خاص هو ذلك الدور المسيطر الذى تلعبه « الأرض » فى العلاقات الاجتماعية ، والذى ينتج عن الأحوال الاقتصادية بصفة خاصة . ففى المجتمعات الحديثة ، يرجع هذا الدور إلى النقود : فالحياه الاجتماعية تتكون من تبادل خدمات لاتنتهى ، بعضها خاص ؛ والبعض له صفة العمومية ؛ وبشكل عام ، لايتم تبادل هذه الخدمات بشكل مباشر نظير خدمات أخرى ، ولكن نظير قيمه يتم الاتفاق عليها ؛ فى شكل عملة أو عملة ورقية، تستخدم كإجراء عام. ويقوم كل شخص بدفع خدماته المنزلية، ومواد استهلاكه أو المنتجات الصناعية التى يحتاجها ، بالنقود ؛ كما أن الدولة تدفع مكافآت، ورواتب وأجور موظفيها ، نتيجة قيامهم على تولى أعباء الإدارة العامة . ولكن الحال فى هذه المجتمعات الاقطاعية ، كان مختلفا ؛ حيث كانت زراعة الأرض هى المورد الوحيد تقريبا للثروة ، وكانت التجارة والصناعة غير نامية ، وكانت الثروة المنقولة (غير العقارية) تحظى بحماية سيئة ، ولايقدرون قيمتها ؛ ولذلك فإن النقود لم تتدخل إلا بشكل تكميلى فى العلاقات الاقتصادية ؛ وكانت الأرض هى التى تقوم فى ذلك العصر بدور النقود ؛ وتعتبر مكافأة وأجراً لمعظم الخدمات الخاصة ، أو حتى العامة . فإذا كان أحد الملاك يرغب فى أن يجبر أحد الرجال من طبقة أدنى على أن يقدم له من وقت لآخر منتجات إحدى المهن ، أو عملا جثمانيا أو ثقافيا معيناً ، فبدلا من النقود ، كان يمنحه حق التمتع بقطعة أرض أثناء كل الوقت الذى سيقدم فيه هذه الخدمات له . وإذا كان يرغب فى أن يحصل من رجل من نفس طبقته عن تعهد بالولاء والمعونة ، والوعد بأن يحارب معه ، ويخضع لعدالته ، ويدفع له نوعا من الجزية ، نوعية

أو نقدية ، فإنه يمنحه ، وبشروط معينة ، الملكية التامة لأرض زراعية لها مساحتها المعينة ، ومع كل الحقوق التي يمارسها هو نفسه على سكان هذه الأرض . وفي الحالة الأولى يكون تبادل الأرض نظير خدمات خاصة ، وفي الحالة الثانية يكون تبادل الأرض نظير خدمات عامة ، تشبه تلك التي لأحد المواطنين تجاه الدولة . وهكذا يظهر أن الأرض كانت حينئذ ، بين أيدي المالكين وأبناء الطبقات المتميزة الذين يمتلكونها ، ليس بمجرد مورد للثروة ، ولكن بصفتها وسيلة للسيطرة : فبواسطة الأرض ، لم يقتصر الأمر على مجرد مواجهة متطلبات الحياة المادية والإجتماعية ، بل كانوا يحصلون على حقوق سيادة على رجال آخرين ؛ ولم يكونوا مجرد ملاك يخدمهم مستئجريهم ، وزراعهم ، وصناعهم ، بل سادة يعاونهم تابعين، أو صغار السادة ، في دولة صغيرة . وفي أثناء العصور الوسطى كانت الأرض التي تمنح بهذه الطريقة نظير خدمات عامة ، والتي كانت تمثل ، بين المتعاقدين ، علاقة السيد بالتابع تحمل ، في كل أنحاء أوروبا إسم منطقة النفوذ الاقطاعي **Feoda** ؛ وكانت تعطى إسمها لكل النظام الذي تمثل المؤسسة الأكثر أصالة فيه . ولكن المسألة الأكثر أهمية ، هي أن العقد الذي يتم به تبادل الأرض نظير خدمات مختلفة ، لم يكن بمجرد تعهد شخصي بسيط ، لا يربط إلا الأطراف المتعاقدة فيما بينها ؛ بل كان يدخل فيه عامل أساسي ، ثابت ودائم ، وهو الأرض نفسها . إذ أن أحد المتعاقدين كان يحصل على خدماته ؛ بصفته مالكاً للارض الممنوحة ، وكان المتعاقد الثاني له حق في المطالبة بهذه الحقوق ، نظير حيازته لأراض خرجت وإقتطعت من أرض أخرى . وهكذا قامت علاقة ، ليس فقط بين الشخصين المتعاقدين ، ولكن بين الأرضين ، وإستمرت حتى بعد إختفاء المتعاقدين الأساسين ، وضد أو في مصلحة المالكين الجدد ، مهما كانوا . وهكذا يمكننا أن نقول أن الخدمات المنصوص عليها قد فرضت على مساحة معينة ، من الأرض ، أكثر من فرضها على شخص معين ، وأنها تمثل إلتزامات معانة تجاه الأرض ، وعبودية

عقارية تستمر مادام عقداً جديدا لم يتم لتغيير العلاقات القائمة . وعلى العكس من ذلك ، كانت هذه الخدمات ترجع ، وعلى الأقل بالنسبة للمالك ، أو للسيد الذى منحها فى أراضيه الملحقه به ، إلى حقوق أساسية ، يمكن تغييرها ، وإعادة منحها ، مع هذه الأرض نفسها .

ويتنج عن طبيعة هذه الأوضاع نتيجتين هامتين ، تمثلان المجتمعات الإقطاعية : أولا أن ظروف الاشخاص تحد بطريقة عامة تقريباً بنظام الارض التى يسكنونها ، أما الدافع الفردى الذى هو على درجة كبيرة من القوة فى المجتمعات الديمقراطية ، والذى يسمح لكل فرد بأن يكون هو الصانع الأساسى لظروفه الاجتماعية ، فلم يكن له سوى تأثير ثانوى . إن مايقيم الرجل ، فى المجتمعات الاقطاعية ومايمكنه أن يقوم به ، يرجع قبل كل شىء إلى الأرض التى يحوزها ، والصفة التى تتم الحيازة طبقا لها ، إن ذلك التنازل أو المنحة التى تكون قد أعطيت لأسلافه ، أو له شخصياً ، هى التى تحدد حقوقه وواجباته ، وكذلك وظيفته الإجتماعية . وإذا كان أحد الرجال هو رئيس رجل آخر ، أو تابع له ، فان ذلك يرجع إلى أن الأرض التى يحوزها الأول لها سيادة ، أو تخضع للارض التى يحوزها الثانى ، وإذا كان من النبلاء ، أو الأحرار أو عبيد الارض ، فإن ذلك يرجع إلى نوعية حيازته ، سواء أكانت نبيلة أو حرة أو خاضعة ، وكانت هناك وسيلة واحدة فقط لتغيير هذه الأحوال ، أو للتخلص من الإلتزامات والاعباء المربوطة على الطبقات الدنيا ، ومن أجل الحصول على إمتيازات الطبقة الارستقراطية ، وهى الحصول على تنازل جديد يغير نوعية الحيازة ولكن كل فرد كان ، بصفة عامة ، يظل مرتبطا بالارض ، أى للقصر الذى هو سيبدله ، أو للحقل الذى يزرعه ، أو للمدينة التى يمارس فيها مهنته . ولم يكن من المهم أن تنتقل الارض من سيد إلى آخر عن طريق الوراثة ، أو التنازل ، بل تظل ظروف أولئك الذين يسكنونها ثابتة ، مادامت علاقتهم مع الأرض التى يحوزونها لم تتغير . ثانيا أن الظروف الاقتصادية التى يعيش فيها المجتمع الاقطاعي تعطى

للملكية العقارية شكلا جديداً ، وفى موقع متوسط بين نظام الملكيات الجماعية ، الذى ساد المجتمعات البدائية ، ونظام الملكية الحرة والمطلقة ، والذى يسود فى المجتمعات الحديثة . وهذا الشكل يتمثل فى الحيازة الدائمة ، أو ذات المدى الطويل ، والذى تمثل منطقة النفوذ الإقطاعى فيه العامل الأكثر وضوحاً . ويتميز بشكل خاص بأن المالك ليس له على الأرض إلا حق مشروط ، ومحدود ، يشبه ذلك الذى للمستأجر أو المشارك فى المزارعة . وتنتج هذه الصفة عن أن العلاقات الاقتصادية والإجتماعية كانت تؤدى ، كما رأينا ، إلى تنازلات عن أرض مكافأة بتقديم خدمات ، وأن الغالبية العظمى من الأرض ، بالتالى ، إذا إستثنينا ذلك العدد الصغير من الإقطاعات المعفاه من كل أعباء نتيجة للظروف الخاصة ، كانت محملة ومكلفة بخدمات وأعباء تضع كل وحدة منها فى وضعية خضوع تجاه أرض أخرى ، ولا تسمح لصاحب الحيازة أبداً بأن يتصرف فيها بحرية ، كما يرغب . وكانت القاعدة الأساسية أنه لا يوجد أى شخص ، سواء من السادة أو الخاضعين ، أو المستأجرين أو عبيد الأرض ، يمكنه أن يمتلك أرضاً إلا طبقاً لمنحه ، ونظير عبء وتكليف بخدمات تجاه من يقدم المنحه . فلم يكن إذن من يمنح أرضاً ، سواء أكان ذلك مجاناً أو فى نظير ، ينفصل عنها أبداً بشكل نهائى : بل يحتفظ لنفسه بجزء من الحقوق التى تتكون منها الملكية التامة ، ولا يتخلى إلا عن الحيازة وحق الانتفاع ؛ وطبقاً للحقوق التى يحتفظ بها ، والمنصوص عليها بالنسبة لأرضه ، فانه يمكنه ، نتيجة لنقص الخدمات الواجبة ، وربما حتى نتيجة لأهوائه ، أن يستعيد الأرض التى كان قد منحها . ولذلك فإن حائزى الأرض لم تكن لهم بهذه الطريقة إلا حقوق بسيطة ، ولا يمكنهم أن يتصرفوا فيها كما يرغبون ، وفى غالب الأحيان لم يكن حقهم سوى من أجل الإنتفاع ، وشخصى ، ويعود بعدهم إلى من سبق أن منحه . وحتى حين يكون حقهم وراثى ، وإذا كانوا يقدرون على توريثه ، فإنهم كانوا لا يقدرون على تحويله إلى آخرين ،

أو بيعه ، دون الحصول على موافقة السيد الذى كانوا قد حصلوا عليه منه . وكان من نتيجة هذه الإمكانيات المحدودة للملكية العقارية أن أصبحت هذه الحقوق غير مؤكدة ، وأن زادت المطالبات ، وبشكل منع تفتيت الأرض ؛ ولكنه أوقف الدافع الفردى الحر ، وبالتالى التقدم الاقتصادى .

٢ ـ التركيب الاجتماعى والتنظيم السياسى :

إن شرح عملية التركيب الاجتماعى والتنظيم السياسى داخل المجتمعات الإقطاعية تسمح لنا بزيادة فهم الدور الرئيسى للملكية العقارية فى هذه المجتمعات ، وخاصة بعد أن عرفنا كيف أن الأرض المقطعة ، أو منطقة النفوذ ، كانت فى نفس الوقت مركز الحياة الإجتماعية ، والحياة السياسية .

لقد كان تجمع الأفراد فى نظام إقطاعى يقوم أساساً على علاقات الخضوع والتكافل التى تنتج عن تلك السلسلة من التنازلات عن الأرض المكلفة بأعباء خدمات ، ليس فقط بين الطبقات الدنيا والطبقات الأرستقراطية ، ولكن كذلك بين الأفراد المختلفين لهذه الطبقة الأخيرة ، ولم يكن كل سيد ، يستند إلى مساحة أرضه ،وإلى عدد رجاله المسلحين ،بل كان لديه زبائن يتمثلون فى الرجال الأحرار والمستأجرين وعبيد الأرض ، الذين يزرعون أراضيه ؛ ويتمثلون كذلك فى سادة آخرين ، فى فقر واضح ، أو على درجة من الضعف ، لا تسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم فى فترات العنف والإضطراب ؛ ويرغبون فى وضع أنفسهم تحت حمايته ؛ فيقدمون له الولاء عن أنفسهم وعن أملاكهم ، ويحصلون منه نظير ذلك على مناطق نفوذ ، تحولهم بالتالى إلى تابعين له . ويصل بنا الحال إلى أن نجد أن كل الإقليم قد أصبح مقسماً بين الأعضاء الرئيسيين فى الطبقة الأرستقراطية ، وأن كل منهم قد أصبح سيداً على منطقة لها درجة إتساع معينة ، ويشكل سكانها مجموعة متميزة تحت سلطته ؛ فيخضعون له ، وإن كان ذلك بدرجات مختلفة . وكان لكل سيد قوى على أراضيه الخاصة عدداً من المستأجرين الذين ينتسبون إلى

طبقات أدنى ، ولبعضهم وضعية الرجل الحر ، وللآخرين وضعية عبيد الأرض؛ وكان له على الأرض التى أقطعها لغيره ، والتى لايزال سيداً عليها ، تابعين ينتسبون مثله إلى الطبقة المتميزة ، وتحت سلطة كل منهم رجال أحرار وعبيد أرض في ذلك الإقطاع الذى أصبح خاصاً بكل منهم . وكان لايطالب المستأجرين إلا بالمدفوعات المالية أو الجسدية ، فى شكل إيجار أو سخرة ؛ أما التابعين ، فكان يطالبهم بالولاء والمعونة الشخصية ، فى شكل خدمات حرب ، وعدالة ، أو نقود ، وكان له ، بالنسبة للأولين ، حقوق المالك على مزارعيه ، أو السيد على خدامه ؛ أما بالنسبة للثانين ،كانت له سلطات رئيس دولة على رعاياه . وهكذا نجد أن هذه المجموعة التى إنتظمت بهذا الشكل لم تكن معزولة عن المجموعات المجاورة ؛ فالسيد ، الذى هو رئيسها ، يمكنه أن يدخل بنفسه ، وبصفته تابع ، فى مجموعة أخرى لها نفس طبيعتها ، والتى يكون السيد رئيسها له من الصفات ما يجعله أكثر قوة منه ؛ ويترتب على ذلك أن تصبح أراضيه تابعة مباشرة لهذا السيد ، وعلى أساس منطقة النفوذ الإقطاعى ؛ وتصبح أراضى تابعية كذلك تابعه بطريق غير مباشر لهذا السيد ، وعلى أساس أنها « إقطاعات بالتبعية » . وبهذا الشكل يمكن لمجموعات عديدة أن تلتحق بمجموعة أعلى ، فى الوقت الذى تخضع هذه الأخيرة إلى غيرها ، أكثر عواً منها . هذه هى الخطوط الرئيسية لهذا التجمع الخاص بالأفراد فى مجتمع إقطاعى ؛ وكان الرباط الذى يربط السيد بتابعيه النبلاء وبأبناء الطبقات الأدنى الخاضعين بطريقة مباشرة له ، لا يشتمل على مجرد تعهد شخصى ، ولكن على عقد فعلى ، وعن طريق الإقطاع الفعلى لأرض مكلفة بخدمات معينة . ولكى يصبح الفرد تابعاً ، لم يكن تقديم الولاء كافيا ؛ ولكى يصبح مستأجراً أو عبد أرض لدى أحد السادة، لم يكن مجرد تقديم تعهد ، من رجل لرجل ، كافياً ؛ بل كان من اللازم ، علاوة على ذلك ، وفى الحالة الاولى ، التنازل عن منطقة نفوذ إقطاعى ؛ وفى الحالة الثانية ، التنازل عن حيازة

مستأجر أو عبد أرض . وإذا كان التابع ، والمستأجر ، مرتبطين تجاه السيد بالتزامات مثل التى سبق ذكرها ، فإن ذلك كان يرجع ، قبل كل شىء ، إلى طبيعة الإقطاع الذى كانوا قد إستلموه ؛ وإذا كانوا يرغبون فى فك إرتباطهم من هذه الالتزامات ؛ فإنه كان من اللازم عليهم أن يتنازلوا عما إستلموه ؛ أما إذا أهملوا فى الوفاء بالتزاماتهم ، فانهم ، كانوا يعاقبون بفقدانهم حيازتهم .

وحينما تصبح الحالة الإجتماعية التى شرحناها عامة ودائمة لدى أحد الشعوب، فانها تنتج بالضرورة شكلا جديداً للحكومة . وإن ما يميزها هو أن السيادة ، بدلا من أن تتمثل فى الأمة كلها ، أو فى شخص ملك واحد ، تكون موزعة بين أيدى عدد لا يحصى من رؤساء المجموعات الإقطاعية ، الذين يقتسمون الأرض ؛ وأن هؤلاء الرؤساء متحدين فيما بينهم ، لا بروابط إتحادية ، ولكن بسلم طبق ، يجعلهم فى ظروف معينة ، خاضعين البعض منهم الآخرين ، وفى ظروف أخرى ، يتركهم يتمتعون بالاستقلال التام . وفى كل المجتمعات المنظمة ، تتمثل حقوق الدولة فى واجبات على الأفراد لتقديم خدمات شخصية ونقدية ، وتكون فى مجموعها القوة الإجتماعية ؛ وتشتمل هذه الواجبات على ضرورة الوصول إلى أن تضمن للأفراد ، وعن طريق هذه القوة الاجتماعية ، الحماية والعدل وحرية العمل اللازمة لهم . وفى دولة مركزية ، يحكمها رئيس منتخب أو وراثى ، يعود إلى هذا الرئيس وموظفيه الذين يمثلونه ، أن يقوم كل شخص بتقديم الخدمات ، وطلب مثل هذه الحماية ؛ أما فى الدولة الإقطاعية فإن ذلك يرجع إلى السيد الذى تعود إليه ، بطريقة مباشر ، الأراضى التى يقيمون عليها ؛ إذ أنهم لا يعرفون سواه ، وليس عليهم واجبات إلا حياله ، وليس لهم أن ينتظروا معونة أو حماية أو حماية إلا منه . وهكذا نجد أن كل مجموعة إقطاعية كانت تشكل ؛ فى هذا المجتمع ، ما يشبه دولة صغيرة ، مزودة بحكومة خاصة بها ، ويمكنها القيام بكل الوظائف الأساسية لدولة كبرى : ونتيجة لخدمات الحرب ، والعدالة والمشورة ، التى يقدمها

التابعون ، يمكن للسيد أن يكون له جيش ، وقصر عدالة ، ولمجلس حكومة ؛ ونتيجة للجزية التى يدفعها التابعون ، وللموارد المالية التى ترد من المستأجرين ، تصبح له خزانة ؛ ونتيجة للخدمات الجسدية أو السخرة التى يقدمها له عبيد أرضه، وغالباً كذلك الرجال الأحرار الذين يقيمون فى أراضيه ، يسيطر على أكبر عدد من السواعد ، سواء للزراع أو الحرفيين . ولكننا رأينا أن المجموعات الإقطاعية ليست منفصلة عن بعضها ؛ بل إنها مرتبطة فيما بينها بروابط تبعية ، ويشكلون سلماً كبيراً يصل من المجموعات الدنيا إلى المجموعات العليا ، والتى يقل عددها بالتدريج ، حتى نصل إلى سيد لا يعترف بسيد أعلى منه ، ولا يحصل على حقوقه من أحد ، بل « من الله وبسيفه » . والحقيقة أن وجود رئيس واحد ، وسيد أعلى ، على رأس السلم الإقطاعى ، لم يكن شيئاً أساسياً بالنسبة لمثل هذا النظام . ويبدو حتى أنه ، فى أحد أشكال الحكومة ، وحيث يقوم كل كبار ملاك المناطق الإقطاعية ، بمنح أنفسهم ، وكل فى منطقة نفوذه ، حق ممارسة السلطات العامة ، فإن التنظيم الملكى ، أى إنشاء سلطة مركزية وعليا ، كانت عاملا غريباً ، وحتى معادياً . ومع ذلك ، ففى الواقع ، وتحت تأثير ظروف مختلفة ، إختلفت حسب الأزمان والمناطق ، وفى كل مكان نشأ فيه النظام الإقطاعى ، كان أحد السادة المسيطرين على الأرض يسيطر على الآخرين ، ويركز فى شخصية كل السلم الإقطاعى. وكان هذا السيد صاحب السيادة يحمل عادة لقب الملك أو الإمبراطور ؛ وكان يسيطر ، وعلى درجات من تحته ، على كل مناطق النفوذ وكل استئجارات وحيازات الأرض فى المملكة ، والتى كانت تحسب بين مخصصاته المباشرة ، أو غير المباشرة . والواقع أن سلطته كانت فى بعض الأحيان حقيقية على تابعيه ، وغالباً ما كانت فعلية ، ففى بعض الأحيان ، وإذا ما كانوا أقل قوة ، أو منقسمين نتيجة لمنافسات شخصية ، فإنه كان يحتفظ بهم بين أيديه ، موزعاً عليهم ، ومستعيداً منهم ، وحسب رغبته ، تلك الإمتيازات التى كان قد منحها لهم ، طبقاً لدرجة الخضوع التى كان كل منهم قد أظهرها له ؛ وفى أحيان أخرى ،

وإذا ما كانوا أقوياء ومتحدين ، فإنه كان يتفاهم معهم ، ويواجه منهم مقاومات مستمرة ، ولا يحصل منهم إلا على رغبتهم فى الاستمرار فى إظهار طاعة قليلة ، وطبقاً لمصالحهم . ولكن علينا أن نلاحظ ، فى كل الحالات ، أنه لم يكن يمارس سلطته ، خارج منطقة نفوذه الخاصة ، إلا على أشخاص التابعين له بطريق مباشر ، ولم يكن من حيث المبدأ ، يمارس أبداً مثل هذه السلطة ، على التابعين بالتبعية ، أو على المستأجرين الذين كانوا يخضعون لتابعية ؛ ولم يكن له من رعايا سوى الأولين ، وكان فى وسعه أن يجبرهم على الحركة من أجل نفسه ، أو تابعيه ، والرجال المسئولين عن إقطاعاتهم ؛ ولكنه كان لا يقدر ، إلا فى حالات إستثنائية ، على أن يحصل مباشرة على أية خدمة من تابعيه ومن هؤلاء الرجال الذين لا يخضعون له . وهكذا كان كل سيد ، وعلى كل مستوى من مستويات السلم الإقطاعى ، سيداً ، وتابعاً فى نفس الوقت : سيداً فى منطقة نفوذه الإقطاعية والتى كانت أراضيها ورجالها لا تخضع إلا له ؛ وتابعاً لسيده المباشر ، والذى كان عليه تجاهه واجبات إقطاعية .

وإذا كانت هذه هى السمات الأساسية لنظام سياسى خاص بالمجتمعات الإقطاعية ، فما هو شكل الحكومات التى يمكنها أن تنتج عن ذلك ؟ علينا أولا أن نستبعد الأشكال الديمقراطية لها ؛ مادام المجتمع الإقطاعى ، بحكم تعريفه ، لا يتمشى مع النظام السياسى الذى يمكن للشعب فى ظله أن يحكم نفسه بنفسه ، أو عن طريق ممثليه . ويمكن للنظام الإقطاعى أن يضع نفسه بين الحكومات الأرستقراطية ، مادامت السلطة موجودة فى أيدى عدد من الرجال من طبقة مميزة ، والذين يمتلكون وحدهم الأراضى الزراعية ، ويحملون السلاح . ولكن يمكن وضعه كذلك بين الحكومات الملكية ، مادام أعضاء الطبقة الحاكمة يكونون نظاماً طبقياً تحت السلطة الفعلية أو الاسمية لرئيس واحد . والملكية الإقطاعية فى بعض الأحيان إنتخابية ، وفى أحيان أخرى وراثية ، ولكنها دائماً مرتبطة بالوطن أى أن

رئيسية يمارس السلطة ، لاعن طريق تفويض من الخاضعين له «الملكية التمثيلية»، أو عن طريق سلطة ماوراء الطبيعة « الملكية الثيوقراطية » ولكن بإسمه الشخصى؛ كما أنه يستخدم ممتلكاته الشخصية ، وأنه فى كل درجات السلم ، لا يمكن لأى حق سياسى أن يظهر إلا فى شكل « وطنى ، كاقطاع أو منطقة سيادة . ومع ذلك فإن الملكية الاقطاعية ليست مستبدة : فإذا كانت سلطة الملك شبه مطلقة على أراضى وأشخاص تابعيه ، فإن هذه السلطة كانت محددة إلى درجة بعيدة لدى السادة خاضعة للارتباط الاقطاعى الذى يوحدها به . وبالإختصار فيمكننا أن نلخص الإقطاع ، وبصفته نظام سياسى فى أنه ربط بين أرستقراطية الأرض والأرستقراطية المحاربة ، وبين الملكية الوطنية . ولكن العنصر الارستقراطى هو الذى يسود فيه ؛ فالامتيازات ليست للطبقات المسيطرة وحدها ،ولكن للطبقات صاحبة السيادة ؛ ليس الملك نفسه إلا أحد السادة ، ولكنه فوق كل الآخرين ، وليس هناك من سيد عليه . وهكذا نستخدم فى بعض الأحيان تعبير « نظام السادة » كمرادف « للنظام الإقطاعى » . ولكن ربما كان التعبير الأول أكثر إتساعاً ، إذ أنه يدل على نظام يكون السادة الفعليون فيه ، من وجهة النظر السياسية والاجتماعية ، هم السادة . ومع ذلك فإن التعبير الثانى هو الذى إنتشر ؛ ولأنه كان يحدد معنى منح الإقطاع ، ويفسر التفوق الاجتماعى والسياسى للسيد .

٣ ـ تطور النظام الاقطاعى :

لاشك فى أن النظام الاقطاعى كان يحقق للطبقات الدنيا نوعاً من الأمن تحصل عليها من حماية المحارب للأرض التى تعيش عليها ، وكان يحقق للطبقات الحاكمة الاستقلال والعزة المعنوية من السيادة التى يمارسها كل فرد منهم على ممتلكاته ؛ وذلك فى ظل نظام تعاقدى . غالباً مايكون باهظ الثمن بالنسبة للضعفاء ، وإن كان أفضل من سيادة العنف ، والتحكم .

ومع ذلك فإنه لايمكن للنظام الاقطاعى أن يستمر إلى مالا نهاية دون أن

تظهر نقائصه ، ودون أن يتضمن الكثير من الإنحرافات ، والظلم ، فتثور ضده الأحقاد ، وتنشب ضدة الثورات ذلك أن حماية السيد تتحول إلى وسيلة كبت: فالسيد يسىء من إستخدام قوته للضغط على أولئك الموجودين تحت إشرافه ، فيستولى بدون حق على أملاكهم ، ويستبعد أشخاصهم ، ويثقل عليهم بالأعباء الباهظة والمذلة ؛ وحتى إذا كان لايكبت مزارعيه ، فإنه يستغلهم ، وتتحول معظم الخدمات التى يطالبهم بها إلى مصلحته الشخصية ، أو لارضاء مطالبه الأسروية ، وطموحه كما أن الروابط الحقيقية التى تربط الإنسان بالأرض ، والأخطار التى يتعرض لها أى شخص من أملاك السيد ، وتقسيم المجتمع إلى طبقات مقفلة ، كانت تمثل عقبات فى مواجهة تنمية التجارة والصناعة ،وأما التقدم الاقتصادى.وكانت عدم كفاية الروابط الاقطاعية لإقامة النظام فى مجتمع لايعترف إلا بالحقوق الفردية ، وكذلك التقاليد العنيفة للارستقراطية، التى لاتعرف سوى مهنة الحرب ، تتسبب فى حروب خاصة ، باستمرار ؛ وتكون من بين نتائجها الاستعباد . وهروب الاهالى من الارض ، وتخريب المدن والأرياف . وأخيراً، فإن الدولة الاقطاعية ، وحيث توزع السيادة بين الكثير من الأيدى ، كان لايمكن أن يكون لها ، من وجهة نظر الادارة الداخلية والعلاقات الدولية ، ذلك الانسجام والقدرة التى تتمتع بها الدولة المركزية . وهذا النقص والاضرار التى تنتج عنه تتسبب ، إن آجلا أو عاجلا ، فى نشأة رد فعل مزدوج ضد النظام الاقطاعى. ويجىء أحدهما من الطبقات الدنيا : ففى كل مكان ، حيث لاتؤدى العزلة والتخلف المعنوى إلى عدم القدرة ، يتحد المكبوتون ، سواء أكانوا من الاحرار أو العبيد ، وينظمون أنفسهم فى مجموعات صغيرة ؛ ونتيجة لتسلحهم بهذا الاتحاد ، يمكنهم أن يحصلوا ، شيئا فشيئاً ، وإما بالموافقة أو بالرغم ، على تنازلات تحدد من تحكم السيد ، وتضمن لهم عدداً معيناً من الحقوق والامتيازات الجماعية ، وفى نفس الوقت تتحسن أحوالهم الاقتصادية ؛ ومادام وا قد أصبحوا

اكثر حريه ، فانهم يثرون من التجارة ، ومن الصناعة ، ومن الفنون ؛ فيشترون الأراضى ، ويحصلون بذلك على القوة الاجتماعية وتتمكن بهذه الطريقه بعض المجموعات من ان تصل إلى أن تنشىء لنفسها مكاناً فى الطبقة المميزة ، ولا تحصل فقط على حقوق فى المدينة ، ولكن كذلك على سيادة سياسية حقيقة ، تسمح لها بالتعامل على مستوى الند للند مع السادة الإقطاعيين . ويجىء رد الفعل الثانى من الرئيس الأعلى ، الذى يحتل قمة السلم الأرستقراطى فى المجتمع الاقطاعى ، سواء كان يلقب الملك ، أو الامبراطور . وكانت أسرة السيد قد إستولت ، بالقوة أو بالخداع ، على هذا المركز ذا السيادة ، ووضعت سياستها على أساس توسيع أراضيها ، وحقوقها وإمتيازاتها على حساب أسر السادة الآخرين ؛ وكانت قد قامت فى أغلب الأحيان بالارتباط ، طبقاً لمصالحها ، مع رئيس الجماعه الدينية ، والطوائف المدنية أو الريفية ، ومع صغار السادة التى تحاول أن تفصلهم عن سيادة كبار السادة لكى تدخلهم فى تبعيتها المباشرة ؛ وكانت قد أخذت صادرت وأعادت شراء الأغلبية العظمى لمنطقة النفوذ ؛ وأكدت لنفسها حق الانفراد بحقوق التمتع التى يمارسها كل سيد فى أراضيه ؛ وكانت عن طريق العودة شيئاً فشيئاً إلى الوحدة السياسية ، والمركزية الادارية ، قد أرضت طموحها الشخصى والمصالح العامة للامة فى نفس الوقت . ولكن تحرر الطبقات الشعبيه ، وتطور الحياة الاقتصادية ، واستعادة السلطة المركزية لكل حقوق السيادة اكانت تمثل ، فى مجموعها ، نتيجة رد الفعل الثانى . ومنذ ذلك الوقت لا تصبح منطقه النفوذ الاقطاعى هى مركز الحياة الاجتماعية ، والحياة السياسيه ؛ ويدخل النظام الاقطاعى ، الذى ضعف وتحطم فى مبادئه نفسها ، فى مرحلة الانهيار . ولكن علينا ألا ننسى أن هذا الصراع طويل المدى ، وأن مقاومة أصحاب الامتيازات تكون عنيدة . ذلك أن النظام الاقطاعى هو الوحيد من بين كل أشكال التنظيم الأرستقراطى الذى تتوغل جذوره إلى أعمق مدى فى المجتمع الذى ينشأ فيه ،

مادام تفوق الطبقة الحاكمة ، وتبعية الطبقات الدنيا تبنى ، كما رأينا ، على وضعية خاصة الملكية العقارية ، لايمكن تغييرها إلا ببطء كبير . ولذلك فإن النظام الاقطاعى يبقى كذلك ، حتى بعد تحطيمه ، لفترة طويلة ، فى شكل حقوق عقارية ، وإمتيازات شخصية ، فى صالح مجموعة نبلاء ، تخضع للملكية ، ومكروهة من الشعب ، التى تثقل على كاهلة ، دون أن تعطى له أى خدمة عامة .

ومن بين القوتين الاجتماعيتين الذى يقضى عملها على النظام الاقطاعى ، وهما الشعب والنظام الملكى ، نجد أن القوة الثانية هى التى كانت فى أغلب الأحيان الأحسن تسليحاً والأكثر قوة ؛ وكان النظام الملكى ، فى غالبية الأحيان ، هو الذى يأتى مباشرة بعد النظام الاقطاعى ، ويرثه . وفى بعض الأحيان يكون النظام الملكى مطلقاً ، أو يكون تمثيلياً .

وفى الحالة الأولى ، التى كانت هى حالة فرنسا ومعظم دول أوربا عند نهاية العصور الوسطى ، نجحت السلطة الملكية ، فى صراعها مع النظام الاقطاعى ، ونتيجة للظروف ولحكمة الملوك السياسية ، من أن تحول لصالحها القوى الحية فى الأمة ، وقامت تحت شعار إعادة الوحدة السياسية ، والتنظيم الادارى ، بتجريد السادة من ميزات سيادتهم ، وكذلك بتحطيم أو مصادرة كل سلطاتهم المستقلة ، وإلغاء كل الاعفاءات المحلية التى كانت الطبقات الشعبية قد حصلت عليها بكل مشقة . وهذا يقلل من قيمة التغيرات الاجتماعية والسياسية التى تمت . حقيقة أن عدم المساواة فى الحقوق وفى الثروة قد أصبح أقل مما كان عليه بين الأرستقراطيه والطبقات الأدنى كما أن كل الطبقات أصبحت تخضع للعبء المشترك الذى يفرضه الملك المطلق السلطة عليها . وبدلا من عدد كبير من دول السادة الصغيرة ، وحكومات الأقليات البلدية ، التى كانت تتمتع ، ومع إحتفاظها بالتزماتها الاقطاعية ، باستقلال شبه تام ، لم يعد هناك سوى دولة واحدة ، أكثر قوة ، ولها إدارة أكثر إنتظاماً ، وأكثر قدرة على القيام بعمل دبلوماسى أو عسكرى . ولكن الوضعية السياسية ، تظل فى

جوهرها ، كما هي ، إذ أن السيادة التي تركزت في أيدي رجل واحد ، تظل مرتبطة بالأرض ، كما كانت حين كانت منقسمة بين رجال كثيرين ؛ ويعطى الملك لنفسه ، وعلى كل الممتلكات والأشخاص في كل مملكته ، نفس الحقوق التي كان كل سيد يمارسها في منطقة نفوذه ؛ وبدلا من أن كانت الدولة تخضع لاستغلال الكثير من أسر السادة ، لاتصبح مستغلة إلا عن طريق رجل واحد ؛ ومن أجل مصالحه الخاصة ، وطموحه الأسروي .

أما في الحالة الثانية فإن الطبقات الشعبية تتمكن ، في نفس الوقت الذي تتخلص فيه من التحكم الاقطاعي ، من أن تتسلح ضد طغيان النظام الملكي ؛ وهذا هو ما حدث في انجلترا بنوع خاص . وكانت سلطة السادة ، بعد الغزو النورمندي ، قد نشأت في كل منطقة نفوذ إقطاعي ، وبشكل قوى مدعم ؛ وعن طريق قيادات مسلسلة بدقة ، ولكن دون أن تحطم أو تبتلع السلطات الأخرى . وهكذا بقيت الملكية ، منذ الأيام الأولى للعصر الاقطاعي ، أكثر قوة عما كانت عليه في أي مكان آخر : فكان الملك يمتلك أغلى وأكبر الاقطاعات ، وكان قد إحتفظ لنفسه بكل حقوق المتعة ، وحافظ على التقسيمات الادارية القديمة . وإحتفظ تحت سيطرته برجال الدين الذين كان يعينهم ويعطيهم المنح ، وكذلك بمعظم السادة العلمانيين الذين كانوا تابعيه المباشرين ، والذين لم يكن يحترم ممتلكاتهم وإمتيازاتهم كل الوقت . أما الطبقات الشعبية ، والتي كان النظام الاقطاعي يثقل على كواهلها ، فإنها كانت تخشى من تحكم الملك ، كما كانت تخشى من كبت الارستقراطية العلمانية والدينية لها : فمن أجل الحصول على إعتراف بحقوقها . والحصول على تحررها ، لم يكن من مصلحتها أن تستند إلى تأييد السلطة الملكية ، ولكنها كانت تطالب بمنحها هذه التنازلات كثمن للمعونة التي كان في وسعها تقديمها للنبلاء ورجال الدين ، نظير ماكانوا يحصلون عليه من الملكية : ولذلك فاننا لانرى في أغلب الأحيان ، في تاريخ إنجلترا . أن صناع المدن ، ومستأجرى الأرياف ، يناضلون ضد الارستقراطية الدينية أو العلمانية ؛ ولكنهم يتحدون معها لكي يتمكنوا ،

وفى عمل مشترك ، من أن يقاوموا إدعاءات الملكية ومشروعاتها . وبعد سلسلة طويلة من المفاسد ، كانت نتيجة هذه السياسة فى أول الأمر هى المحافظة على التوازن بين القوى الإجتماعية المختلفة ، والتقليل من سلطات السادة ، دون أن يؤدى ذلك إلى تدعيم سلطة ملكية مطلقة ؛ وتركوا بهذه الطريقة التحرر الشعبي يستمر ، بين ميزات الأرستقراطية وحقوق الملكية . ثم جاء ذلك دور التغيير العميق فى وضعية السلطات العامة : ذلك أن السلطة بين أيدى السادة، وحتى بين أيدى الملك ، لم تعد حقاً مرتبطاً بالأرض ، يمارسونها حسب رغباتهم ، بل تحولت إلى وديعة مشروطة ، يكونوا مسئولين عنها . وتمكن الأعضاء الرئيسيين للارسقراطية العلمانية ورجال الدين ، متحدين مع ممثلى نقابات وطوائف المدن ، من أن يكونوا ، وتحت إسم مجلس العموم ، مجلساً ممثلا للأمة كلها ، يتدخل فى الأمور العامة للمملكة ، من أجل مراقبة السلطة المركزية ؛ ولم يعد فى وسع الملك أن يفرض ضرائب دون موافقة هذا المجلس ، وأصبح عليه أن يحسب حساباً ، عند ممارسته سلطاته ، لرغبات وإحتياجات كل طبقة فى المجتمع ؛ فأصبح بذلك ، فى إدارته للشئون العامة ، موكلا أعلى عن الأمة كلها . وهكذا نجد أن النظام التعاقدى ، الذى كان أساس الاقطاع نفسه ، قد إمتد وإتسع ، بدلا من أن يختفى؛ ولم يعد يطبق فقط على العلاقات الاقطاعية ، النقابية والبلدية ؛ ولكن على مجموع علاقات الحكام بالمحكومين ؛ أى أن الملكية الاقطاعية قد تغيرت ؛ وباختصار ، إلى نظام ملكى تمثيلى .

٤ ـ ضعف الاقطاع فى فرنسا :

إحتفظ نظام الاقطاع فى فرنسا بقوته حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، ثم بدأ ضعفه فى الظهور بعد ذلك .

وكان النظام الاقطاعى ، قد نشأ فى أول أمره ، كحاجة إجتماعية، وأجاب ، فى أثناء القرنين العاشر والحادى عشر ، للحاجة الحقيقية للأمن والحماية لكل طبقات المجتمع . ولكن سرعان ماظهرت مساوىء هذا النظام ، بعد مرور الأزمة ،

وكذلك العادات الوحشية للرجال الذين كانوا يطبقونه ، وظهر أنه يحمل من المساوىء ومن الفوضى الكثير . أما الخدمات التى كان فى وسع طبقة النبلاء ، وبصفتها «درك دائم» أن تقدمها ، فان المحكومين كانوا يدفعون ثمنها غالياً ، نتيجة للقهر المفروض على من يحتاجون لحماية ونتيجة للتخريب المستمر الناتج عن الحروب الاقطاعية . هذا علاوة على أن هذه الطبقة من المحاربين الملاك ، والمستقلين ، والذين يعيشون فى فراغ ، لم تكن تميل إلا للسلاح ،وكانت تعيش على حساب المزارعين وعبيد الأرض ، ولم تكن فى حقيقة الأمر طبقة حاكمة . ذلك أن ما نسميه بحكومة الاراضى الاقطاعية لم يكن فى حقيقة الأمر سوى نظام الاستغلال . «إستغلال قهرى، لأنه يفرض نفسه على كل الاعمال ، ويظهر فى ألف شكل ؛ ومفروض من جانب واحد ، لأنه من غير الممكن تسوية كل شىء ، كما أن العرف كان لايربط السيد إلا بما يرغب هو نفسه فى أن يرتبط به ، وطغيانى ، لأنه كان يمارس عن طريق مندوبين أصغر ، يصلون إلى قرب الفلاح ، ودون أى رقابة ، أو نظام محدد ، لإعادة النظر فى تصرفاتهم ؛ وكريه ، لأنه كان يأخذ الاكثر أهمية ووضوحاً من الايرادات والحاصلات ولايقدم ، نظير ذلك ، أية «خدمة» . ولم تكن ما نسميها بالحكومة الاقطاعية تستحق لقب حكومة ، إذ أن علاقات الخضوع والتبعية فيها ، وكذلك تسلسلها ، لم تكن كافية فى واقع الأمر لضمان الأمن العام وإحترام الحقوق للافراد . ولذلك فإننا نجد أن غالبية أبناء الامة ، ومنذ نهاية القرن الحادى عشر ، أصبحت لاتشعر بأن نظام حكم السادة الاقطاعيين يمنحها الامن والعدل اللذين تحتاج اليها . والتى كانت قد بحثت عنهما، غريزيا ، إما لدى الاتحادات البلدية ، أو عن طريق الحماية المباشرة لأحد كبار السادة ، مثل ملك فرنسا ، أو أحد كبار البارونات فى المملكة أما الاتحادات البلدية ، فانها كانت قد خضعت لمحاربة السادة فى بعض الحالات ، أو دفعت ثمناً باهظاً للمحافظة على حياتها ؛ وكانت منتصرة على طول الخط منذ نهاية القرن

الثانى عشر، وكان قد ساعد ذلك على تقدم التجارة والصناعة ،التى عملت على زيادة الثروة فى أيدى أبناء المدن ، وكذلك الحملات الصليبية التى كانت قد أرسلت إلى الأراضى المقدسة ، والتى كانت تكاليفها الباهظة تجعل الكثير من صغار السادة يطالبون بالحصول منها على ثمن لحقوقهم . ولقد انتهت هذه الاتحادات البلدية إلى نتيجة مزدوجة : تتمثل فى إحدى الحالات فى منح عهد بالتحرر ، يحدد به السيد أو يلغى جزئياً بعض سلطاته على منطقة نفوذه الإقطاعى ؛ وتتمثل فى حالات أخرى فى إقامة ارستقراطية بلدية ، أو قنصلية ، تكون حقوق سيادتها مساوية ، وفى الغالب منافسة ، لحقوقه هو ؛ كما أن الإلتجاء إلى الحماية المباشرة لصاحب السيادة العليا ، وهو الملك ، ساعد هذا الأخير ، وفى كل مكان تقريباً ، على أن يعيد إدخال تابعيه الثائرين إلى نطاق طاعته ، ويأخذ من التابعين الخاصين به : فنتج عنها بهذه الطريقة ، أن نشأت ، فى مناطق نفوذ كبار السادة فى الأقاليم ، وفى أقاليم التاج ، سلطة مركزية قوية ، وإدارة منتظمة ، أبعدت أهالى هذه المناطق عن كثير من أعمال العنف والطغيان المحلية ، وفى نفس الوقت ، فقدت التقاليد الاقطاعية جزءاً من شدتها الأولى ؛ فأصبحت الخدمات الفردية ، وبخاصة الخدمة العسكرية ، أقل صرامة فى ضرورة تطبيقها ، وتحولت فى أغلب الأحيان إلى تقديم بدل مالى عنها ؛ أما مناطق النفوذ التى كانت وراثية ، فإنه أصبح من الممكن التصرف فيها ، وبالتالى أصبح من الممكن للرجال الأحرار أن يحصلوا عليها ؛ أما الحالة المدنية للطبقات الدنيا ، فانها أصبحت أقل شدة ، ووجد كثير السادة أن من مصلحتهم تحرير عبيد أراضيهم ، وتحويلهم إلى عمال إجراء ، أو على الأقل تقليل شروط العبودية بالتخلى عن حق السخرة . وأخيراً . فإن الحروب الاقطاعية أخذت شكلا أقل بربرية ، تحت تأثير نظام الفروسية ، وأصبحت أكثر ندرة ، نتيجة محاولات السلام المتعدده التى كانت الكنيسة تقوم بها .

وقللت هذه التعديلات المختلفة التى أدخلت على النظام الاقطاعى ، إلى درجة

كبيرة ، بعض مساوئه ، وأعطته منذ منتصف القرن الثانى عشر إلى منتصف القرن الثالث عشر ، قوة وإزدهاراً جديدين . ولكن هذا النظام كان يشتمل على مساوىء فى أصل تكوينه . ولم يكن من السهل إختفائها إلا مع إختفائه . وكان المجتمع الفرنسى ، منذ ثلاث قرون مضت ، وقد ضاعف إمكانياته المادية ، وأصبح أكبر إستنارة ، وعلم بوضوح أكثر بحقوقه ومصالحه ، وبحث عن تنظيم إجتماعى وسياسى جديد يستجيب ، بدرجة أكثر من النظام الإقطاعى ، لاحتياجاته الجديدة . وإعتقد أنه قد وجدها فى ملكية أسرة كابيت . وفى خلال القرن الثانى عشر ، أخذت الملكية فى فرنسا الإقطاعية مركزاً مسيطراً . وكان كل من لوى السادس ، ولوى السابع ، وفيليب أغسطس ، قد تمكن شيئاً فشيئاً ، من الحصول على إعتراف بسلطته ، ليس فقط من جانب صغار السادة فى مناطق النفوذ الخاصة بهم شخصياً ، ولكن كذلك من جانب معظم كبار بارونات المملكة . وتمكنت الملكية ، ونتيجة للتأييد المعنوى ، وللموارد المادية التى وجدتها فى مناطق نفوذ السادة الدينيين فى شمال ووسط فرنسا ، من أن تقضى على حركات المعارضة المحلية ، وتمدد وتوحد أراضيها . وتجمع حولها قوات كافية ، لكى تبرر بها إدعاءاتها للحكومة العامة للمملكة . وظهر الملك ، فى شخص فيليب أغسطس ولوى التاسع ، أمام الطبقات الشعبية ، والكنيسة ، وجزء من النبلاء أنفسهم على أنه الحامى ، المقرر الأعلى للعدالة ، والذى يجب أن يلجأ إليه كل من يقاسى من قهر السادة الاقطاعيين ، وكل من لم يجد ضماناً بالأمن وبالسلم العام إلا فى إعادة سلطة مركزية ، تفرض سلطتها الفعلية على كل مناطق السادة الاقطاعيين فى المملكة . وكان هذا هو السبب الذى جعل كل القوى الايجابية للامة تتحول ، منذ أواسط القرن الثالث عشر ، وبدرجة أكبر من الإقطاع ، صوب ملكية أسرة كابيت ؛ وهى التى لم تهمل ، من جانبها ، أية وسيلة لجذبهم إليها ، ولضمهم .

وهكذا نرى أن العدو الرئيسى للنظام الإقطاعى كان هو السلطة الملكية . ولقد إستمر الصراع الذى نشب واضحاً بين هاتين القوتين ، عند نهاية القرن الثالث عشر ، زمناً طويلا ؛ إذ أن النظام الاقطاعى كان مرتبطاً بجذور عميقة متوغلة فى تعمقها داخل المجتمع . ولكن الملكية كانت تستند إلى مواردها التى تحصل عليها من أراضيها ، وإلى التأييد الذى تحصل عليه ، من خارج أراضيها ، عند البورجوازية ، وعند الموظفين ، وحتى عند جزء من النبلاء التابعين ، فى مناطق النفوذ الكبرى ، وإلى أنها ستعطى للمجتمع الفرنسى شكل حكومة تتناسب بدرجة أحسن مع آماله ، وساعدها كل ذلك على أن تنتصر . مع ذلك ، فعلينا أن نلاحظ أن ماكان الملوك يحاربونه فى نظام الإقطاع ، كان هو مجرد سلطته ونفوذه السياسى ؛ وإن ماإنتزعوه منه كان يتمثل فى ذلك الجزء من السيادة التى كان يحتفظ بها على حساب سلطاتهم، ولكنهم إحترموا ، وزادوا حتى معظم الحقوق الاجتماعية الخاصة به ، وتركوا له معظم الحقوق الادارية التى كان يمارسها فى منطقة نفوذه ؛ أى أنهم بالاختصار قد أنزلوه من منزلة الطبقة الحاكمة ، ولكنهم إحتفظوا له بمستوى الطبقات المتميزة . ذلك أن ملكية أسرة كابيت ، وكانت نتاجاً مثل النظام الاقطاعى ، لمجتمع أرستقراطى ، وافقت على كل التميزات وعدم المساواة . مادامت لا تمثل عقبة أمام سلطتها الطغيانية . ولم يكن الهدف الذى سعى إليه الملوك المتتالين ، من القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر ، هو تحطم النظم الإقطاعية ، ولكنه كان يتمثل فى أخذهم مكانه ، ووضع أنفسهم بدلا من السادة الاقطاعيين فى ممارستهم لحقوق السيادة ، وأن يبتلعوا أنفسهم كل مناطق النفوذ المحلية ، لكى يكونوا منها سلطة موحدة ، وكانت طبيعتها ، فى جوهرها ، هى نفس طبيعة السلطة السابقة . وبعد وصولهم إلى تحقيق هذا الهدف ، لم يفكروا فى إصلاح حالة الملكية العقارية ، ولا عدم المساواة الموجودة بين الطبقات ، والتى كانت تميز النظام الاقطاعى ، والتى إستمر النبلاء فى الافادة منها . ولذلك فإن

النظام الإقطاعي ، رغم تحطيمه كسلطة سياسية ، قد إستمر ، كنظام إجتماعي ، حتى نهاية الملكية القديمة في فرنسا ، ونشوب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ .

٥ إزدياد قوة الملكية :

وكانت الضربة الأولى التي وجهها النظام الملكي للسلطة السياسية للإقطاع في فرنسا ترجع إلى أواسط القرن الثالث عشر . ورغم أن المشغولية الرئيسية للملوك كانت تتمثل في أن يفرضوا سيادتهم الفعلية على كبار التابعين ، إلا أنهم لم يتراجعوا عن الاستناد إلى الامتيازات التي كانت ترجع إليهم ، وبصفتهم ورثة للملكية التقليدية ، ونجد أن تجدد الدراسة في القانون الروماني ، ونشاط المشرعين ، عملا على تدعيم حقوق الملك ، ودفعها في طريق السلطة المطلقة . وكان من حق الملك ، كمشرع ، أن يقلل أو يلغى حقوق السيادة الخاصة بالسادة ، كلما استدعى أمن الأمة ، أو مصلحتها العامة ، ذلك . وعمل ملوك فرنسا على إلغاء أو تحديد **حق الحرب الخاصة** ، في أراضيهم أولا ، ثم في بقية أنحاء المملكة . ولكن مجهوداتهم لم تنجح على طول الطريق بالنسبة لهذه النقطة ، خاصة وأن النبلاء عارضوا في ذلك ، وإضطر الملك إلى التراجع في بعض الحالات .

ولكن الملوك نجحوا بدرجة أكبر في تحديد **السيادة القضائية** لصغار السادة ، وحتى لعدد من كبار البارونات ، وذلك بتقريرهم مبدأ إمكان إستئناف أي حكم يصدرونه أمام محاكم الملك ، إلى أن يصل الأمر إلى البرلمان . وزاد تدخل قضاء الملك في الجنايات التي ترتكب في الأقاليم ؛ كما أن « القضايا الملكية » وهي ما تشتمل على أي شيء يمس بالملك ، كانت وسيلة اخرى لإمتداد سلطة القضاء الملكي في كل الأقاليم .

اما من وجهة نظر **الضرائب** فان ملوك فرنسا ، منذ فيليب الجميل ، قد منعوا السادة من جمع عدد من الضرائب ، دون الحصول على تصريح بذلك من الملك ؛ كما حرموا عليهم صك العملة . ومن ناحية أخرى عملت بعض المدن على أن تحصل

من الملك على وثيقة تؤكد إمتيازاتها وعمل الملك ، وعن طريق المشرعين ، على أن يكون له وحده سلطة إعطاء وثائق إمتياز المدن ، التى خرجت بهذا الشكل عن سلطة السادة الإقطاعيين ، وحظيت بحماية الملك . كما عمل الملك ، بنفس الطريقة ، على إستخلاص الأسقفيات والأبرشيات والأديرة ، من سلطة ونفوذ السادة الإقطاعيين والبارونات ، وإحتفظ بها تحت نفوذه . وأخيراً فإن المشرعين والفقهاء عملوا على نشر النظرية القائلة بأن الملك بمفرده له سلطة التشريع . ولم تكن الملكية قادرة فى أول الأمر على فرض ذلك على الإقطاعيين ، ولكنها كانت توجه إليهم ملاحظات ، ونصائح ، وأوامر ، تهدف إلى تحديد سلطتهم على مر الأيام.

ونلاحظ أن معظم حقوق السيادة لنبلاء الإقطاع قد أصبحت مهددة عند نهاية القرن الثالث عشر بحقوق الملوك ؛ كما أن واجبات تبعيتهم للملك غيرت منهم ، وقربت بينهم وبين بقية الرعايا ، ولم تعد خدمات المجلس والبلاط تطلب منهم ، إلا فى أحوال استثنائية ، وبطريقة شرفية ، مادام الملك أصبح يعتمد فى ذلك على فقهاء القانون والمشرعين . أما الخدمة العسكرية ، والتى كان التابعين يقومون بها عن غير رغبة ، فإنها وتحولت إلى مشاركة مالية ، سمحت للملك بإعادة تنظيم جيشه على أسس جديدة ، وبأن يقلل منه العناصر الإقطاعية ، ويدفع رواتب القوات المرتزقة ، والتى كانت خدمتهم مستمرة ، وطاعتهم أكثر تأكيداً . ومن الجانب الآخر ، نجد أن الخدمات المالية وخاصة المعونة الإقطاعية ، زادت فى حجمها ، وتعددت ، وأخذت شيئاً فشيئاً شكل وطبيعة الضرائب المنتظمة والسنوية . وأخيراً فإن كل من كبار وصغار الطبقة الإقطاعية قد زاد شعوراً ، وهو فى أرضه ، بإزدياد السلطة المركزية حين أخذ المندوبون فى مراقبة أعمالهم ، وإستولوا على حقوقهم ؛ وأخذوا منهم الرجال لكى يضعوهم تحت سلطة الملك ؛ وكان توغلهم بطيئاً فى كل مكان ، ولكنه كان مستمراً ؛ وتوغلت معهم مبادىء وممارسة ووضع أسس ونظام الملكية .

ولم يكن الإقطاع العلمانى هو الذى أصيب وحده فى حقوقه السيادية . ذلك أن الأرستقراطية الكنسية ،والتى كانت دائماً على علاقات وثيقة بالسلطة الملكية، والتى كانت مشروعات السادة العلمانيين وعداوة المدن قد أجبرتها فى غالب الأحيان على طلب تدخل الملك ، شعرت فى أثناء القرن الثالث عشر بأن إشراف الملك عليها يثقل كاهلها ، ويحدد من إستقلالها . وإحتفظ الملك لنفسه بحق الإشراف على انتخابات رئاسات الأسقفيات والأبرشيات ، التى خرجت من سيطرة مناطق نفوذ كبار الإقطاعيين والبارونات،علاوة على ما كان منها تحت إشرافه من قبل؛ كما أنه بدأ فى إخضاع أحكام مجلس الأسقفيات والأبرشيات لسلطة البرلمان ، مع الحق فى الإستئناف كذلك فى باريس ؛ والسماح للقضاة الملكيين بالتدخل لوقف أى إنحراف يقوم به رجال الدين . كما أن الملوك أخضعوا كل الكنائس لضريبة شبه دائمة ، وبدعوى حاجة الدولة إليها ، سواء بموافقة البابا ، أو ضد رغبته . وكان مندوبو الملك يستخدمون العنف أو السياسة لتقليل قوة هؤلاء السادة الكنسيين ، وللاعتداء على حقوقهم القديمة ، ولكى يستخلصوا منهم السيطرة على بعض الأراضى التى كانت تحت إشرافهم .

وكذلك شهد السادة الأرستقراطيون فى المدن ما شاهده غيرهم من الإقطاعيين ، من إزدياد سلطته الملكية . ولم يشجع الملوك ، أو يوافقوا على ، تلك الحركات التى ظهرت فى المدن فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، والنصف الأول من القرن الثالث عشر،إلا حينما رأوا فيها وسيلة لزيادة موارد هم الضرائبية والعسكرية ،ووسيلة لتقليل نفوذ كبار رجال الإقطاع . وعمل الملوك بكل إصرار على أن يحطموا ، وفى جميع أنحاء المملكة ، سلطة السيادة السياسية للمدن ، والبلديات ، باعتبار أنها إحدى العقبات الكأداء التى تقف فى وجهة إمتداد السلطة الملكية . فنزعوا عنها إستقلالها المالى . بحرمانها من جمع الضرائب والتصرف فى أراضيها ، وعقد القروض بدون تصريح ، وفرضوا رقابة على حساباتها . كما

خرموها من الإستقلال العسكرى بإخضاع جندها للضباط الملكيين ؛ ومن الإستقلال القضائى بتحديد إختصاصات قضاتها ، وبالسماح للبرلمان بالنظر فى إستئناف الأحكام الصادرة من قضاء المدن . كما عملوا على خرابها بفرض الضرائب الباهظة والغرامات الكبيرة عليها، وأفادوا من صراعاتها، الناتجة عن أزماتها المالية، بين الأرستقراطية البورجوازية ، وبين أفراد الشعب، للتدخل فى شئونها ، وإلغاء إمتيازاتها وحقوق سيادتها ، وفى صالح النظام الملكى .

ولقد تمت عملية قضاء الملكية على الحقوق السياسية وحقوق السيادة للسادة والبارونات الإقطاعيين عبر سنوات ، طويلة ؛ وحاول فيها السادة أن يقاوموا، ولم يتنازلوا عن أى حق من حقوقهم بسهولة ، بل نتيجة لعجزهم عن الاحتفاظ بها تبعاً للظروف الموجودة. وكم من مرة حاول السادة الإتحاد مع أبناء المدن ضد الملك ، أو الاتحاد إقليميا مع بعضهم ضده ، ولكن بلا جدوى . وشهد أواسط القرن الرابع عشر عمليات المقاومة هذه ، وإن كان خط التطور العام لم يكن فى صالحها .

وهذا تمكن النظام الملكى من أن يزيد من قوته ، وبشكل يساعد على سرعة تدعيمه ، كسلطة مطلقه ، مرتبطة بالأوطان ، فى كل بلد من البلاد الاوربية ؛ وبشكل لم يكن له وجود فى العصور الوسطى ، مع فكرة وحدة الأمبراطورية ؛ وكان هذا هو أحد أسس ظهور الملكيات فى العصر الحديث .

الفصل الثانى

الصراع بين البابوية والامبراطورية

فى الوقت الذى انتصر فيه النظام الملكى على السادة الاقطاعيين فى غرب أوربا ، وأكدوا فيه سيطرتهم الفعلية ، والاقتصادية والعسكرية على أقاليمهم ، حاولت البابوية ، فى شخص بونيفاس الثامن ، أن تستعيد سلطتها «الثيوقراطية» على الملوك ، وكان هذا سبباً أساسياً لوقوع صدام بينها ، كصاحبة الكرسى الرسولى ، ووارثة القديس بولس ، وبين ملوك أوربا . الأمر الذى أدى إلى طرح الخلاف علناً ، للنقاش ؛ ولم يكن ذلك فى صالح « التقليديين » ، بل فى صالح القوى الفعالة النامية.فانهزمت البابوية؛وفى صالح الأسرة المالكة فى فرنسا،وخاصة بعد مشكلة جماعة فرسان المعبد ، وكانت هذه هى فترة الأسر البابلى، الذى أقام فيه البابوات فى أفينيون ، فى فرنسا ، والتى تميزت بضعف البابوية ، وكذلك بضعف الامبراطورية ؛ وهى التى ستمهد بفتح الباب على مصراعيه ، لمناقشة ماهية البابوية ، وسلطاتها ، وتصرفاتها ، وتقاليدها ؛ ذلك الباب الذى سيؤدى بالعالم المسيحى الغربى إلى الوصول إلى الاصلاح الدينى فيما بعد .

١ - الخلاف بين بونيفاس الثامن وفيليب الجميل :

أفادت فرنسا ، منذ السنوات الأولى من عهد فيليب الجميل ، من تقدمها عن الممالك المسيحية الأخرى ، ونظمت سياستها وتشريعاتها ، ووضعت أسس المملكة المستبدة . وفى نفس الوقت ، ظهر أحد البابوات الذى تمكن من أن يعمل من أجل تحقيق إدعاءاته «الثيوقراطية» . فبدأ الصراع بين مملكة فرنسا وبين البابوية التى حاولت فرض سيطرتها العالمية ، وكان هذا الصراع من أهم موضوعات الفترة

التى تمتد منذ نهاية القرن الثالث عشر ؛ والذى كانت أهم شخصياته ، فى هذه المرحلة ، هى فيليب الجميل وبونيفاس الثامن .

وكان عرش فرنسا قد مر ، منذ سنة ١٢٨٥ ، إلى فيليب الرابع ، المعروف باسم الجميل ؛ وكان له سبعة عشر عاما ، ولم يكن أحد فى ذلك الوقت يعلم أو يتنبأ بأنه سيقوم بأعمال هامة ، تثبت له فى التاريخ . ونظر إليه المعاصرون ، فى أول حكمه ، على أنه ملك هادىء وضعيف ، يهتم بالصيد ، ويهمل شئون الحكم ، ويترك شئون الدولة لبعض رجال الحاشية . ولكنه كان أميراً واقعياً ؛ وبدلا من أن يعتمد على الحملات العسكرية ، فضل استخدام السياسة ، مع عمليات الخداع . وكان يحذر كبار السادة الاقطاعيين ، وكذلك فقهاء القانون الذين كانوا يشكلون مجلسه ؛ وفضل عليهم مجموعة من رجال القانون الذين كانوا قد أظهروا ، منذ عهد لوى التاسع ، وبمساعدة القانون الرومانى ، النظرية السياسية للمملكة . وكانوا جميعاً من رجال الطبقة الثانية ، ولكنهم ساعدوه على وضع آماله موضع التنفيذ .

وبدأ فيليب الجميل عهده بتصفية مغامرة أراجونا التى كانوا قد أوقعوا والده فيها . وساعده على ذلك إدوارد الأول ، ملك أنجلترا ، الذى كان قد حافظ على حياده فى هذه الحرب ، وأصبح له بالتالى دور الحكم . وانتهت هذه العملية سنة ١٢٨٧ بأن وعد ملك أراجونا بعدم التدخل فى الشئون الإيطالية ، وذلك فى الوقت الذى احتفظ فيه أخوه بحكم صقلية . ولكن البابا رفض التصديق على هذه الاتفاقية ، فكانت القطيعة بين البابوية وفيليب الجميل . الذى فاوض وضرب عرض الحائط بموافقة خليفة القديس بولس ، وفى سنة ١٢٩١ ، اقترح ملك فرنسا اتفاقية جديدة ، كانت شروطها تتفق مع شروط اتفاقية سنة ١٢٨٧ .

ولقد استند فيليب إلى الهدوء الذى ساد من جانب اسبانيا ، وإلى السلم المؤقت مع انجلترا ، وعمل مع مستشاريه على تنظيم وتدعيم السلطة الملكية . ومع ذلك فعلينا ألا ننظر إليه كمجدد جرىء عمل على تحطيم الإطارات القديمة ، وبناء نظام

جديد : فلقد ظلت الاقطاعية نشطة ، وأكدت حقوقها في ممارسة العدالة ، واحتجت على الانتهاكات التي مارسها الملك وضباطه داخل مناطق نفوذهم الإقطاعية ؛ كما أن رجال الدين حاولوا الاحتفاظ بامتيازاتهم المستقلة ، وبحقهم في جمع الضرائب ، وتمكنوا في سنة ١٢٩٠ من أن يحصلوا على ميثاق يؤكد هذه الامتيازات . ولكن المرسومات الملكية عملت على إلغاء العقود التي قطعت رسمياً ، وجاءت الظروف والضرورات الاقتصادية لكي تؤكد نتائج التغييرات السياسية ، ودفعت المملكة إلى أن تأخذ ، شيئاً فشيئاً ، وضعاً أكثر وضوحاً ، في مواجهة التقاليد الاقطاعية التي كانت لاتزال قوية .

وزادت أهمية القصر الملكي ، الذي صدرت اللوائح العديدة لتنظيمه ، والذي إزداد عدد الموظفين والحجاب والأمناء والكتاب فيه ، والذي أصبح مدرسة يتخرج منها كبار رجال الدولة ، رغم أنهم كانوا متواضعين في أصلهم ؛ وذلك في الوقت الذي تدخل فيه ضباط الملك ومندوبيه في مناطق نفوذ كبار السادة الاقطاعيين ، وأصبحت القضايا تعرض على العدالة الملكية ، بدلا من يحكم فيها السادة الاقطاعيين .

وظهرت إلى جانب القصر الملكي مؤسسة جديدة هي البرلمان ، ولم يعد الملك يرأس هذه المنصة الكبيرة ، التي تأخذ شكل المحكمة ، بل ترك لبعض البارونات والأشخاص العاديين رئاسة هذا الاجتماع ، الذي كان شيئاً يختلف عن بلاط الملك ، وأصبح البرلمان يضم قضاة علمانيين أو كتاب ، يحملون لقب مستشارين ، ويجتمعون فيه بشكل مستمر ، ويحيط بهم الكثيرون من رجال القانون ، ولم تعد هذه المحكمة تتبع الملك في تنقلاته ، بل أصبحت مستقرة في باريس ، في القصر الملكي القديم الموجود في وسط المدينة ، في قصر لوى التاسع ، جد الملك ، وفي الأماكن التي نظمها لها . وكانت تجتمع في دورات نظامية ، دورتان أو ثلاث دورات في العام ، تستمر كل منها لبضعة أشهر ، وأصبح هذا البرلمان ينظر في

استئناف الأحكام التى ترد له من جميع أنحاء المملكة ، وتقدم إليه كل تابع ساءت علاقته بسيده ، ووجد فيه أذانا صاغيه ، من قضاء الملك ، ضد كبار السادة الاقطاعين ، وكان هذا تدعيماً لسلطة الملك ونفوذه قانوناً ، على حساب سلطة كبار السادة الاقطاعيين .

وفى الميدان المالى والاقتصادى ، وجد فيليب أن البابا كان قد فرض العشور على رجال الدين الفرنسيين ، وجمعها فى صالح ملك فرنسا ، أثناء حرب أراجونا ، فصمم الملك بعد نهاية هذه الحرب ، على الاستمرار فى جمع هذه الضرائب ، وحصل من البابا سنة ١٢٨٨ على تصريح بالاستمرار فى جمعها لمدة ثلاث سنوات الأمر الذى دعم خزانة الملك ، فى الوقت الذى زاد فيه ضعف كبار السادة الاقطاعيين هذا من ناحية المملكة .

أما فيما يتعلق بالبابوية ، فإنها كانت قد خرجت مضعضعة القوى من مغامرة صقلية ، ولم يتمكن البابوات الضعاف ، بعد سنة ١٢٨٥ ، من التخلص من هذه الحالة . وفى سنة ١٢٩١ فقد المسيحيون عكا ، فى الأراضى المقدسة ، دون أن تتمكن البابوية من الحيلولة دون ذلك . كما ظهر ضعف البابوية فى إعطاء عرش المجر لمرشحها أمام خصومه . ولم يعد العالم المسيحى يحترم البابوية كما كان من قبل، وتقلص نفوذها فى إيطاليا نفسها ، وأخذت الكنائس الوطنية تتحدث بحرية أكثر. ورفض الفرنسيون الخضوع التام للكرسى البابوى سنة ١٢٨٣ فى باريس ، وطالبوا بإعطاء الاساقفة سلطة الحل والعقد . وحدث كل ذلك فى الوقت الذى تدعمت فيه سلطة فيليب الجميل ، وسلطة عرشه ، بشكل واضح .

ولقد ضعفت سلطة رجال الدين ، وانغمسوا فى المؤامرات ، وتحكم الملوك فى الكنيسة فى كل مكان . وظهر أن سياسة البابوية فى صقلية ، وفى شئون ألمانيا ، وفى المجر ، تهدف إلى السيطرة على العالم ، والسيطرة على الأمراء . وكان الأمر يحتاج إلى شخصية قوية لأحد البابوات ، يمكنها أن تعيد النفوذ البابوى إلى ما كان

عليه . وكانت هذه الشخصية تنمو و ترتفع على سلم رجال الدين ، وهى تتمثل فى بنوا كايتانى الذى عمل مع عدد كبير من البابوات . وكان طموحاً ، ويرغب فى الاحتفاظ بالامتيازات الدينية ، وظهرت كفاءته فى تلك البعثات الدبلوماسية التى كلف بها . وكان هو الشخص الذى أوصى البابا فى سنة ١٢٩١ بقطع المعونة عن ملك فرنسا . وحين إنتخب للبابوية فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٢٩٤ أصبح إسمه بونيفاس الثامن . وبدأ بابويته بإلقاء القبض على البابا السابق ، الذى كان قد عزل ، وإحتفظ به فى السجن حتى وفاته سنة ١٢٩٦ . وكان هذا الأمر ، تجاه من حظى بالقدسية ، يعتبر ظاهرة خطيرة .

وعمل بونيفاس الثامن ، بمجرد وصوله لكرسى البابوية ، على تأكيد تفوق البابوية على أمراء العالم . وأعطى نفسه سلطه التدخل سنة ١٢٩٦ ضد ملكى إنجلترا وفرنسا ، لوقف الحرب القائمة بينهما ، وعلى أساس أن الحرب بين المسيحيين وبعضهم خطيئة ، وفرض عليهما السلم ، الأمر الذى أدى إلى ردود فعل من جانب ملك فرنسا . وكان ملك فرنسا قد حصل على مساعدة من رجال الدين الفرنسيين له فى حربه ضد إنجلترا . تتمثل فى دفع ضريبة العشور له لمدة عامين . وحاول أن يجددها فى سنة ١٢٩٦ ، فاشتكى بعض رجال الدين الفرنسيين الأمر للبابا ، وتدخل بونيفاس الثامن بشكل قاطع، وحرم عليهم دفع أية معونة له دون تصريح من الكرسى البابوى . ولم يكن فى هذا القرار أى جديد ، كما أنه كان قراراً عاماً ، حتى وإن كان يهدف ملكى فرنسا وانجلترا . وكان ردفعل الدولتين عنيفاً . ففى إنجلترا ، رفض رجال الدين دفع المعونة ، فقام إدوارد الأول بالإستيلاء على أملاك الممتنعين ، وأجبر الاساقفة على دفع المعونة المطلوبة . وفى فرنسا قام فيليب الجميل بعملية إنتقام ، ومنع تصدير الفضة والذهب ، وحرم البابوية من الموارد الهامة التى كانت تصلها من رجال الدين الفرنسيين . وظهرت نظرية تناقش العلاقة بين رجل الدين والفارس ، وتهاجم الامتيازات الكنسية ،

وتدلل على تفوق المجتمع العلمانى على جموح رجال الدين ، وتظهر أن الواجب الوطنى عليهم مساعدة الملك وقت الخطر . وأمام هذا الموقف إضطر بونيفاس إلى التراجع ، وإلى الاعتراف للملك بالحق فى أن يقوم ، وقت الحاجة والضرورة، بفرض ضرائب على الكنيسة ، دون إستئذان الكرسى البابوى وأعلن فى نفس الوقت قدسية لوى التاسع ، إسترضاءاً للاسرة الحاكمة فى فرنسا .

وجاء عام ١٣٠٠ الذى حج فيه ما يقرب من مائتى ألف حاج إلى روما ، وجاءوا من جميع أنحاء أوروبا ؛ وشعر البابا ، وسط هذه الاحتفالات، أنه يحكم العالم . وأخذ يتدخل فى شئون الممالك ، سواء فى صقلية،أو ضد الألمان أو المجر، الذين قاموا بانتخاب إمبراطور وملك دون موافقته . وأعلن فى ١٧ أكتوبر سنة ١٣٠١ : « إن الله قد رسم البابا فوق كل الملوك والممالك،لكى ينزع ويحطم ويبنى ويغرس » ؛ وظهرت فى كتاباته إتجاهات لجعل النظام الثيوقراطى يحتوى العقيدة الدينية ، ويصبح أحد أسس العقيدة نفسها . ولم يغفر لحكومة فرنسا إعتداءها على حريات رجال الدين ، وبدت القطيعة مع فرنسا واضحة فى الأفق .

وحدث فى ذلك الوقت أن تم التحقيق فى باريس مع أحد الاساقفة ، بتهمة إهانة ملك فرنسا ، والتفاوض سراً مع إنجلترا . وكان هذا التحقيق أمام الملك ، وثبتت الخيانة على الأسقف ، وعهد به إلى رئيسه ، رئيس الاساقفة . إنتظاراً لإطلاع البابا على ملف التحقيق ؛ فثارت ثائرة بونيفاس الثامن، خاصة وأن هذا الأسقف كان من المقربين إليه ؛ وألغى كل الميزات التى كانت قد منحت لملك فرنسا ؛ وأرسل إليه مرسوماً مليئاً بالاتهامات له ، ولكل ملوك الأسرة . ولم يقتصر الأمر على إحتجاجات البابا على نقض الإمتيازات الممنوحة لرجال الدين، بل فضح الأخطاء التى إرتكبتها الحكومة الزمنية للمملكة ، من قهر الرعايا ، وتغيير قيمة العملة ؛ وذكر أن الله قد وضع البابا فوق كل الأمراء ، وأن عليهم جميعاً أن يطيعوا راعى المسيحية ؛ وأبلغه أن مجلساً سينعقد فى روما فى العام التالى ،

و يمكنه أن يحضره أو يرسل له مندوبين عنه. وأرسل إلى رؤساء الكنيسة الفرنسية للاشتراك فى هذا المجلس ، حتى يتشاوروا مع البابا فى أمر المحافظة على حريات الكنيسة ، واصلاح المملكة ، والملك ، وحكومة فرنسا .

ونشر خطاب البابا فى شكل مشوه ، أثار حنق الفرنسيين . وقام الكتاب بالدفاع عن ملك فرنسا ضد البابا ، وناقشوا حقوق البابوية ، وذهب البعض إلى أن موقف البابا يمثل نوعاً من الهرطقة . وجمع الملك ممثلى الطبقات الثلاث : النبلاء ، ورجال الدين ، والطبقة الثالثة ، فى باريس يوم ١٩ أبريل سنة ١٣٠٢ ؛ ودافع الموجودون عن الملك ، فى جو ساد فيه الحماس . وكتب المدن ، وكذلك النبلاء ، إلى البابا خطابات تميزت بالوقاحة ، وطالبت بالتراجع عما قرره تجاه الملك ؛ واشترك رجال الدين فى ذلك ، دون أن يتخلوا عن إحترامهم لرئيس الكنيسة . ومنع الملك رجال الدين من الاشتراك فى المجلس الذى سيعقد فى روما ؛ ولكن ذلك لم يؤثر فى موقف بونيفاس الثامن ، إلا لكى يزيده صلابة . وكتب مؤيدوه يشرحون سلطته ، ويكتبون عن الحكومة المسيحية ، وعن سلطة الملك وسلطة البابا ؛ وذهب البعض إلى ضرورة عزل الملك فيليب . وأكد الجميع أنه ليس للكنيسة سوى رئيس واحد ، هو السيد المسيح ، خلفه المرسل ؛ وأن هناك صولجانين الأول روحى للبابا ، أما الزمنى فيستخدمه الملوك طبقاً لرغبة البابوات ، وأن السلطة الروحية هى التى تحكم السلطة الزمنية ، ولا يحكمها سوى الله . ورفضوا فكرة إستقلال السلطتين الزمنية والروحية عن بعضهما ، أو إنفصالها ، وأكدوا أن خضوع كل البشر لسلطة البابا هى ضمان السلام . وهكذا تعدى بونيفاس الثامن كل مدى كان قد وصل إليه أى بابا آخر من قبل ، إذ أن أى منهم لم يكن قد وصل به الحد إلى أن يضع سيادة روما كأساس من أسس العقيدة .

ولقد إضطر فيليب إلى إستخدام السياسة ، ولم يمنع رجال الدين من الذهاب إلى مجلس روما ، الذى أصدر إنذاراً للملك ، وفى أسلوب معتدل ؛ وحول الخلاف

إلى تحكيم أمام دوق برجنديا ، وكونت بريتانى .

وأدت هذه الخصومة ، مع الحجج التى ذكرت من هذا الجانب أو ذاك ، إلى إضعاف مركز الكنيسة بشكل واضح .

٣ - هزيمة البابوية ، والتفكك الدينى والسياسى :-

عهد الملك إلى أحد فقهاء القانون فى جامعة تولوز بالدفاع عنه، ولكنه فضل ، على الدفاع ، أن يقوم بمهاجمة البابا نفسه ،وعلى أساس أنه قد إغتصب البابوية ، وإرتكب الكثير من الجرائم . ومهد بذلك للوصول إلى أن السلطة البابوية الحقيقية أصبحت مهددة،وأن على ملك فرنسا أن يدافع عن مصالح الكنيسة،وذلك عن طريق جمع مجلس دينى ، من أجل إعادة السلام إلى العالم المسيحى . ووافق ملك فرنسا على هذه الخطة ، فى ٧ مارس سنة ١٣٠٣ ؛ وفى يوم ١٢ إجتمع فى قصر الوفر كبار رجال الدين والبارونات ، تحت رئاسة فيليب ، وطالبوا بنقل البابا إلى أحد السجون الملكية ، ومحاكمته أمام ممثلى الكنيسة العالمية . وحاول البابا أن يجمع حوله بسرعة عدداً من الأصدقاء ، وصمم فيليب من جانبه على جمع المجلس الدينى ، وذهب المندوبون إلى البلاد لجمع موافقة رجال الدين على ذلك . وفى إيطاليا نفسها ، قامت حركة ضد البابا ، وفى ٧ سبتمبر ، هاجم بعض الرجال المسلحين القصر البابوى ، ونهبوه ، ووصلوا حتى البابا نفسه ، وأهانوه . وأعلن قادتهم له أنهم سيقدمونه أمام المجلس الدينى ؛ وقبضوا عليه ، ووضعوه تحت الحراسة . وكان من الصعب نقل البابا عبر كل إيطاليا والذهاب به حتى ليون . ولكن هذه العملية أثرت فى هذا الشيخ ، الأمر الذى أدى إلى وفاته يوم ١١ أكتوبر . ودلت هذه العملية ، بتهورها ، وعدم إحترامها لكل القيم الموجودة فى ذلك العصر ، على حدث هام فى تاريخ الكنيسة ، وأدت إلى قلة ثقة الناس فيها وساعدت على هزيمتها .

وبدلا من أن يعلن الكرادلة عدم موافقتهم على ما قام به الملك ، إختاروا

أحدهم لشغل منصب البابوية . وأظهر هذا البابا الجديد رغبته فى مصالحة فرنسا ، وألغى كل ما كان البابا السابق قد أصدره ضد ملكها . ولكن هذا البابا الجديد ، وهو بنوا الحادى عشر ، توفى فى ٧ يوليو سنة ١٣٠٤ ، وترك المشكلة قائمة .

وظل الكرسى البابوى خاليا لفترة من الزمن ، تميزت بحدة المشاعر ، وبانقسام الكرادلة على بعضهم خلال مايقرب من عام بين مؤيدين لذكرى بونيفاس ومؤيدين لملك فرنسا . وكانوا لعبة فى أيدى الدبلوماسية الفرنسية ، إلى أن نجحت فى توصيل رئيس أساقفة بوردو إلى الكرسى البابوى ، باسم كليمنت الخامس ، فى شهر يونيو سنة ١٣٠٥ . وكان تابعا لكل من ملك إنجلترا وملك فرنسا ، الأمر الذى كان يمثل انتصارا للدبلوماسية الفرنسية .

وجاءت مسألة محاكمة فرسان المعبد لكى تثبت من جديد هزيمة البابوية أمام ملك فرنسا . وكانت لجماعة فرسان المعبد ذكرى حافلة ، وتاريخ قديم ، وإن كان سبب وجودها قد انعدم بعد فقد المسيحيين للأراضى المقدسة فى نهاية الحروب الصليبية ، وكانوا قد التجأوا إلى أوربا ، ومعهم ثروات ضخمة ، وقاموا بعمليات المصارف التى ساعد عليها انتشارهم فى جميع أنحاء أوربا . وكان لمملكة فرنسا نفسها حسابا جاريا لدى معبد باريس ، كانت تستخدمه من أجل توحيد إيراداتها ، ودفع نفقاتها . ومن الصعب تحديد الأسباب التى دفعت بفيليب الجميل إلى تغيير موقفه من هذه الجماعة فى ١٣ أكتوبر سنة ١٣٠٧ بعد أن كان قد منحهم ثقته .

ومما لاشك فيه أن ثروة هذه الجماعة وقوتهم المالية كانت سبباً فى الحقد عليهم ، فأساء الناس تفسير حفلات التكريس التى كانوا يقيمونها لهم الأعضاء الجدد ، واتهموهم بممارسة مالا يوافق عليه المجتمع . فهل كان فيليب الجميل يرغب ، تحت وطأة الضائقة المالية فى الاستيلاء على ثرواتهم ؟ أو كان يرغب فى كسب الرأى العام على أساس حمايته للعقيدة ؟ وعلى أى حال فإن الاتهامات تزايدت ضد هذه الجماعة ، ونقلت هذه الاتهامات إلى كليمنت الخامس ، الذى لم يعرها الإلتفات

اللازم ، ثم أمر بالتحقيق فيها فى شهر أغسطس سنة ١٣٠٧ . ولكن سرعان ما صدرت الخطابات الملكية فى ١٣ ، ١٤ أكتوبر بالقاء القبض على كل فرسان المعبد ، وبمصادرة ممتلكاتهم . ودلت الاتهامات العنيفة التى وجهت إليهم على أن مملكة فرنسا كانت ترغب فى القضاء على هذه الجماعة تماماً . وتم التحقيق مع الفرسان وكذلك تعذيبهم ، وحصلوا منهم على إعترافات صريحة وربما كانت هذه الاعترافات نتيجة لاعتقادهم فيما ذكره المحققون ، من أن الاعتراف بما ينسب إليهم سيكون أساسا للافراج عنهم .

ووجد البابا نفسه أمام الأمر الواقع ، نتيجة لتصرف ملك فرنسا ، فإحتج، وحاول أن يكسب الوقت ، وأمر بالإستيلاء على ممتلكات الجماعة فى كل العالم المسيحى ، ووضعها فى حماية الكنيسة، حتى يمنع بقية الملوك من التصرف بطريقة ملك فرنسا ، وأمر محاكم التفتيش بالتحقيق مع فرسان المعبد ، الأمر الذى أثبت ممارسة التعذيب ضدهم .

بدأ فيليب الجميل حملة من المقالات هاجم فيها شخص البابا وسياسته ، ثم جمع مجلساً من النبلاء ، وافق على سياسته ؛ وذهب لمقابلة البابا وأظهر علناً عدم موافقته على سياسته تجاه الجرائم التى ارتكبها المتهمون ، وتراجع البابا وأمر بالتحقيق مع الجماعة نفسها . وكان فى وسع الملك وسلطاته المحلية ، أن تؤثر على سير التحقيق . وأصدر أحد المجالس الذى جمعه الملك حكمه بإعدام ٥٤ فارساً حرقاً فى ١٢ مايو سنة ١٣١٠ . ولم يجرؤ أحد بعد ذلك بالدفاع عن الجماعة .

ولكى يمنع الملك أى إمكانية قد تقوم بها البابوية فى هذه المسألة ، ربط بينها وبين قضية بونيفاس . فاضطر البابا إلى التخلى عن جماعة فرسان المعبد لملك فرنسا نظير وقفه لنشاطه فى قضية بونيفاس ؛ وألغى البابا كل المرسومات البابوية التى كانت قد صدرت منذ أول نوفمبر سنة ١٣٠٠ . ونتيجة لإستمرار ضغط فيليب الجميل على البابا تمكن من أن يحصل منه على مرسوم بإلغاء جماعة فرسان المعبد فى

٣ إبريل سنة ١٣١٢ ، ثم أمر بتحويل ممتلكاتهم وأموالهم إلى مجموعه الإسبتالية ، من أجل الإعداد لحلة صليبية جديدة . وإذا كان فيليب الجميل لم يتمكن من الإستيلاء على هذه الممتلكات ، إلا أنه حصل على إيراداتها مدة عدة سنوات ، ولم يرجعها إلا نظير بدل ضخم .

وهكذا كانت تنمو سلطة الأسرة الحاكمة فى فرنسا على حساب ضعف الكرسى البابوى ، وعلى حساب إضعاف الحكم البابوى على العالم المسيحى . وعلينا أن نرى من جانب آخر أن عنف فيليب الجميل ضد البابوية جعله ملكاً غير محبوب فى بلاده . وجاءت وفاته فى نفس العام الذى توفى فيه البابا كليمنت الخامس ، سنة ١٣١٤ لكى ينظر الأهالى إليها على أنها إنتقام إلهى .

ولقد إستمر ضعف البابوية فى الوضوح حتى بعد بابوية كليمنت الخامس ؛ وكان هذا البابا الفرنسى ، الذى أقام فى فرنسا ، قد فتح للكنيسة عهداً حزيناً سمى « بفترة الأسر البابلى » . وفى كل مرة كان يرغب فيها فى الذهاب إلى إيطاليا ، كان ملك فرنسا يطلب إليه ضرورة البقاء . وقد أقام أفينيون ؛ فى إقليم بروفانس ، إنتظاراً لعبور الجبال إلى إيطاليا ؛ ولكنه فشل كما فشل الكثير من خلفائه ، فى تحقيق ذلك . وإمتلأ البلاط البابوى بالفرنسيين ، كما زاد عدد الكرادلة الفرنسيين المحيطين به ، حتى أصبحوا الغالبية العظمى فى الكنيسة ، فأصبحت البابوية فى أيدى ملك فرنسا ، وقلت هيبتها فى أعين العالم المسيحى .

وكان الأكثر خطورة من ذلك هو تفكك الكنيسة نفسها ، وفقدها سلطتها على رجال الدين أنفسهم . فلم تعد أمام الكثيرين من المسيحين تمثل حماية العقيدة ، وظهرت بعض الإتهامات للبابوات بخيانة الإنجيل .

وظل الفرنسيسكان منقسمين على أنفسهم ، وزادت ظهور الحركات الدينية فى جنوب فرنسا . وعجزت السلطات الكنسية فى بعض المناطق عن مواجهة هذه الجماعة التى لم تجرؤ محاكم التفتيش على إتهامها . ولكن بعض جماعات الفرنسيسكان

أصرت على ضرورة إصلاح العالم المسيحى عن طريق ممارسة الزهد ، والإبتعاد عن الثروة . وعملت على تقوية نظام مجموعتها وزيادة سلطة رئيس الجماعة ، الأمر الذى أدى إلى صدام بينها وبين المتعصبين للسلطة البابوية ، وأدى بالتالى إلى إعلان حرمانهم . ولقد قام البعض منهم بالدفاع عن أنفسهم ، بالقوة ، ومعهم بعض الأهالى ، وذهب الأمر بالبعض منهم فى منطقة بروفانس نفسها إلى إعلان عدم إعترافهم بسلطة الكنيسةالفاسدة . ولقد حاول بعض البابوات تفريق شملهم ، ومات البعض منهم حرقاً ، ولكنهم ظلوا ينظرون إلى الكنيسة على أنها قد تحولت إلى ملك زمنى ، وأصبح تخضع له ومن الضرورى عودتها إلىالزهد والفقر والمحبة. ولقد إلتجأ البعض منهم إلى الجبال ، وأرسل البابا كليمنت الخامس ضدهم إحدى الحملات الصليبية ، التى تلتها حملات غيرها ، دون أن تتمكن من القضاء عليهم ، نتيجة لتأييد الكثير من الأهالى لهم . وإنتشرالزهاد فى كثير منالمناطق ، وهاجموا الكنيسة بوضعها الموجود ، وأعلنوا أنها ليست ضرورية نتيجة الأخطاء المرتكبة من القائمين عليها ، كما أعلنوا أنه يمكن للأهالى أن يتعبدوا فى أى مكان . وإنتشر أعوان هذه الحركة فى كل مكان ، فى ألمانيا ، وفرنسا ، وفى أسبانيا ، وبخاصة فى السنوات الأولى من القرن الرابع عشر ، حتى إعتقد دانتى أن بعض رؤسائهم كانوا من « أتباع محمد » أى من المسلمين .

وفى نفس الوقت الذى إزدادت فيه الخصومات مع الفرنسيسكان ، والخصومات بينالبابوات منناحية وملوك فرنسا والأمبراطورمن ناحية أخرى، ظهرت هناك حركات قوية ضد محاكم التفتيش ، وضد سلطتها ، فمنع رجال الدين فى فرنسا من إصدار الأمر بإلقاء القبض على الأهالى ، كما كلفت الدولة إثنين من الأساقفة بمراجعة المحاكماتالموجهة ضد من كانوا يطالبون بالإصلاح الدينى . أى إصلاح الكنيسة . وهكذا شلت حركة محاكم التفتيش فى فرنسا ، وزادت سلطة الدولة على حساب ضعف سلطات الكنيسة .

وإلى جانب هذا التفكك الديني ، كان هذاك التفكك السياسي .

وكان فيليب الجميل قد أضعف البابوية ، ولكن ، من كان فى وسعه أن يمد سلطته الفعلية على الغرب المسيحى ؟ لقد كانت الإمبراطورية ضعيفة وعاجزة عن فرض سيطرتها ، ومشغولة بأمور ألمانيا ؛ وواجهتها مشكلات كثيرة وثورات عديدة ، وفى كل مكان . وظهر عجز الأمبراطورية فى فرنسا ، وفى منطقة الراين، وزادت المنافسات على العروش والتيجان ، وعاش وسط أوربا ، فى ذلك الوقت ، سلسلة معقدة من المحالفات ، وإتجاهات الولاء ، التى تدعمت بالعلاقات الأسروية ، وتناقضت فى نفس الوقت وتعارضت مع بعضها بالخصومات والمنافسات ، وحتى بتغير المواقف وإعلان الثورات والحروب . وتشكلت التكتلات ، من جانب ، ثم ظهرت تكتلات أخرى جانب آخر ، من أجل زواج إحدى الأميرات ، أو من أجل الحصول على إمارة ، أو حتى بعض الإمتيازات .

وفى هذا المناخ ، كان فيليب الجميل يرغب فى الحصول على التاج الإمبراطورى لأخيه الأصغر ، شارل صاحب فاوا . وإستخدم كل الطرق للوصول إلى ذلك ، من محاولة شراء بعض الأمراء ، إلى ممارسة الضغط على البابا . ولكن البابا ، رغم ضعفه ، شعر بخطورة هذا المخطط ، وظهر عليه التردد ، ثم وافق على تعيين أحد الأمراء ، الذى أنتخب ، وهو هنرى كونت لوكسمبورج ، فى منصب الأمبراطورية . وبهذا العمل ، أوصل البابا أحد صغار الأمراء إلى رأس الأمبراطورية ؛ ولم يكن يعلم أن هذا الأمير الذى سيلقب بإسم هنرى السابع ، سيكون إمبراطوراً خطيراً بالنسبة للبابوية .

وكانت الأمبراطورية مجرد شبح فى ذلك الوقت ، ومنذ عهدفردريك الثانى . ولكن سرعان ما ظهرت إتجاهات هنرى السابع ، الذى عمل على زيادة نفوذ الأمبراطورية . وإحياء مطالبتها بالملك العالمى ، والإشراف على الكرسى البابوى، وأعاد السياسة الأمبراطورية السابقة ، وطالب بتوثيق العلاقات بين ألمانيا

وإيطاليا ، بعد أن كانت السلطة فى إيطاليا قد تحولت ، منذ زمن ، من أيدى الأباطرة ، إلى أيدى البابوات . ولذلك فإن البابا شعر ، بخطورة هذا الإتجاه ، وعمل على تأجيل تتويج الامبراطور الجديد حتى بداية سنة ١٣١٢ .

وكان هناك خوف من أن يتسبب مجىء الأمير إلى إيطاليا فى زيادة المشكلات، خاصة وأن إيطاليا كانت منقسمة على نفسها ، بين أنصار سلطة الكنيسة والبابا ، وأنصار سلطة الامبراطورية . واعتقد البعض ، ومنهم دانتى أن مجىء هذا الأمير الألمانى إلى إيطاليا ، سيساعد على القضاء على الخلافات . ولكن مسيرة هنرى السابع فى إيطاليا تحولت إلى حرب بين الجانبين . وبعد تتويجه بأيدى ثلاثة من الكرادلة فى روما سنة ١٣١٢ ، تفاوض مع نابلى ، وحاصر فورنسا ، ثم إضطر إلى الإتجاه إلى بيزا ، مع فلول قواته التى لم تعد تسلح لمعارك أخرى ، وأعلن شمال إيطاليا الثورة ضده ، ولكنه حاول فى نفس الوقت أن يهاجم مملكة نابلى فى سنة ١٣١٣ ، وإن كان الأجل لم يمهله ؛ فمرض ، ثم توفى فى صيف نفس العام .

وكانت محاولة فرض سلطة هنرى السابع ، كامبراطور، على إيطاليا ، وكذلك محاولة السيطرة على نابلى ، وهى فى نطاق نفوذ الكنيسة ، يمثل صداماً كبيراً بين البابوية والامبراطورية . وهكذا طرح فى أول القرن الرابع عشر ، وبعد ثلاث قرون ، أمر العلاقة بين البابوية والامبراطورية ، من جديد . ولقد طرح فى نفس الوقت ذلك المبدأ الذى كان معروفاً ، من أن الامبراطور يستلم التاج من أيدى البابا ، وبشكل يمثل الخضوع للبابا كما أدعى البعض ، أو يمثل خضوع البابا للامبراطور ، إذ أنه كان يقول له نفس الوقت الذى يسلمه فيه التاج : إليك يا سيدى ، كما أدعى الألمان ذلك . وكانت هذه النقطة تمثل ، علاوة على فكرة عالمية الكنيسة ، وعالمية الامبراطورية ، ذلك التنافس على السيادة العليا ، بين السلطتين الدينية والزمنية .

ولقد أفاد كليمنت الخامس من وفاة هنرى السابع من أجل أن يحدد بعض المبادىء العامة فى هذا الموضوع ، ويثبت خضوع الإمبراطورية للبابوية ، ويلغى بعض الحقوق التى كان هنرى السابع قد أعطاها لنفسه ، وخاصة تجاه ملك نابلى . وبهذا الشكل كان عهد كليمنت الخامس يمثل ضعف البابوية أمام الفكرة الملكية ، ويمثل كذلك الضعف النهائى لفكرة الإمبراطورية .

٣ – ضعف البابوية والامبراطورية :

شهدت الأجيال التى عاشت بين موت فيليب الجميل ، وبين الانقسام الكبير ، سرعة ضعف كل من البابوية والأمبراطورية ، واللذان كانا يمثلان أساس نظام العصور الوسطى . وكانت السلطة البابوية تدعى لنفسها حق ممارسة سلطة زمنية على الشعوب والملوك ، ولكنها كانت مهددة برغبة لدى القوى المضادة ، وبقوة مادية وضعت فى خدمة النظرية التى نادت بحرية الدولة العلمانية تجاه الإشراف الدينى . وكانت الإمبراطورية مهددة بالأمراء الألمان ، والأحقاد الإيطالية ، وبعداوة الملوك الذين لم يعودوا يعترفون بتفوقها عليهم ، وعجز البابا والأمبراطور عن الإتفاق ، وضعف كل منهم نتيجة للصراعات المستمرة ، وأصبح الأمبراطور مهدداً بأن يفقد نهائياً سلطته على العالم المسيحى ، دون أن يتمكن من أن ينشىء فى ألمانيا ، دولة قومية ، وعجزت البابوية كذلك ، وأمام الخصومات التى واجهتها ، ورغم مجهوداتها ، من أن تنشىء إدارة تماثل إدارة الامراء ، وتنمى المصالح المادية ؛ وأعطت بتزايد الضرائب المفروضة عن رعاياها ، حججاً جديدة فى أيدى خصومها .

وسرعان ما وجدت الآراء الخاصة بتفوق الكنيسة على الإمبراطورية تطبيقاً لها ، حين وجد الإبن الوحيد لهنرى السابع ، وهو حنا ملك بوهيميا ، أنه ليس له كثير من المؤيدين للوصول إلى تاج الإمبراطورية ؛ وإنقسم الناخبون إلى قسمين . وتم تتويج إمبراطور فى سنة ١٣١٤ : الأول فى بون والثانى فى إكس لاشابيل .

وتدخل البابا حنا الثانى والعشرون فى هذا الخلاف ، وبشكل يدعم من سلطة البابوية تجاه الأمبراطورية فى تلك الأزمة الكبيرة . ومرت بضع سنوات ، من سنة ١٣١٤ إلى سنة ١٣٢٠ ، تمتعت فيها البابوية بإنقسام سلطة الإمبراطورية المنافسة لها ، وذلك على أساس أن محاضر الإنتخابات لم تكن قد وصلت بعد إلى البابا ، الذى إعتبر أن منصب الإمبراطورية لا يزال شاغراً . وفى خلال هذه الفترة ، إستمر الصراع بين الملوك والأمراء فى أوربا ، وإنتشرت الحروب والمؤامرات . ثم تدخل البابا حنا الثانى والعشرون ، وأعلن فى ١١ يوليوسنة ١٣٢٤ عدم صلاحية لويس ملك بافاريا ؛ وحاول أن يقدم توشيح شارل الجميل ، ملك فرنسا ، للعرش الإمبراطورى . ولكن أمراء ألمانيا وقفوا ضد ذلك ، وإتحدوا مع أسرة هابسبورج ، واتجهت أنظارهم صوب إيطاليا . وحاولوا أن يصلوا إلى روما ويتوجون إمبراطورهم فيها . وإستخدم البابا مرسوماته البابوية بالحرمان سلاحا ، ولكنه كان بدون فاعلية . وكانت خصومة كبيرة بين البابوات والأباطرة ، خاصة وأن لوى ملك بافاريا ، أتم تتويجه فى روما وقت وجود البابا فى أفينيون ، وعلى يد أعداء البابا ورسم ضرورة وجود البابوات فى روما نفسها .

ورغم ضعف سلطة البابوية ، كان الملوك الكاثوليك يتراجعون أمام إمكانية حدوث إنقسام . فلم يعترفوا بالإمبراطور الجديد ؛ وكان أهالى إقليم روما يفضلون إختيار إمبراطوراً من بينهم . وأضطر الإمبراطور إلى التراجع ، وعادت سلطة حنا الثانى والعشرون إلى روما . ولقد فرض قادة بافاريا الضرائب الباهظة على الإيطاليين لكى يخففوا بذلك هزيمتهم ، فأدى ذلك إلى وقوف أسرة إست وفيسكونتى مع البابوية وزادت قسوة الألمان تجاه الإيطاليين ، ولكن الأمر إنتهى بهم إلى التراجع ثم الإنسحاب من ممر برنر صوب بلادهم . وإستند ملك بافاريا إلى حنا ملك بوهيميا ، وإلى البابا المزيف الذى أسلمه التاج فى روما ، ولكن البابا حنا الثانى والعشرين لم يتراجع عن موقفه ، وظل فى عدائه الصريح مع لوى

ملك بافاريا ، معتمداً على حنا ملك بوهيميا . وقام تحالف وتكتل بين الحلف فى إيطاليا ، ثم تكتل الحلف والجبليين لأول مرة فى سنة ١٣٣٤، ولكن دون الوصول إلى نتيجة . وبعد عشر سنوات من الصراع، لم تتمكن أى من القوتين من إخضاع الأخرى ، وحطم لوى ملك بافاريا كل إدعاءات من أجل حكم امبراطورية ايطاليا ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه الفرنسيسكان فى بافاريا لا يغتفرون للبابا أمر ترك إيطاليا ، وكانوا يرغبون فى توجيه اتهاماً جديداً للبابا ،ولكنه توفى فى شهر سبتمبر سنة ١٣٣٤ .

ثم جاء إلى كرسى البابوية بنوا الثانى عشر ، وكانت الكنيسة فى حاجة، بعد هذا الاضطراب إلى السلام ، فعقد البابا الجديد الصلح من لوى مع ملك بافاريا . ولكن الأمور لم تستقر نتيجة لتدخلات من جانب نابلى ومن جانب معظم الكرادلة الفرنسيين. وحاول الامبراطور بلا جدوى أن يتراجع فى إتهاماته السابقة لحنا الثانى والعشرين ، ويعلن خضوعة للكنيسة، ولكن بلا جدوى. ونشبت الحرب بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٣٤٢ ، ولم ينجح البابا بمجهوداته السلمية ، فى الوصول إلى نتيجة ايجابية .

وجاء إلى الكرسى البابوى كليمنت السادس ، الذى عاد إلى سياسة التشدد ؛ وزاد الصراع مع الامبراطورية ، وأنذر البابا الملك لوى فى سنة ١٣٤٣ ، بضرورة التنازل عن العرش فى مدة ثلاثة أشهر ، وإلا فيكون خارجاً على الدين . وبعد حرب أضعفت أهالى بافاريا فى مدة عشرين سنة ، إضطروا إلى التراجع . وأرسلت السفارات الى البابا فى أفينيون ، ولكنه أصر على موقفه، ثم أعلن عزل لوى ، وطلب إلى الأمراء انتخاب امبراطور آخر فوراً . ورغم استعداد ملك بافاريا للحرب ، إلا أنه توفى فجأة سنة ١٣٤٧ وفى فرانكفورت تم انتخاب امبراطور جديد أعلن استقلال الامبراطورية تجاه البابوية . ولكن سرعان ما وافته المنية ، ولكى يحصل على تأييد البابوية ، اضطر حفيد هنرى السابع إلى

أن يعلن أنه لن يبقى فى إيطاليا دون موافقة البابا ، وأنه لن يبقى فى روما سوى يوم واحد للتتويج . وأخيراً تقدم فى إيطاليا سنة ١٣٥٤ لكى يعلن خضوع الامبراطورية للبابوية ؛ ولم يكن معه سوى حرس يتكون من ثلاثمائة فارس ودفع فدية تبلغ مائة ألف فوران تكفيراً عما صدر من جده . ووصل أمام روما فى ابريل سنة ١٣٥٥ ، وانتظر بضعة أيام حتى يدخل كنيسة القديس بطرس ويتوجه نائب البابا فى روما امبراطوراً . ثم عاد إلى ألمانيا ، وكانت غالبية المدن تقفل أبوابها فى وجهه .

وهكذا اخرجت الامبراطوريه فى شكل يثبت خضوعها لسلطة البابوية . أما محاولة السيطرة على ايطاليا فإن شارل الرابع قد تركها للبابوية . والواقع أن أكبر سلطة زمنية ظلت ، رغم رفضها لأحكام السيطرة ، هى رأس مجموعة إيطالية تطالب بالتدخل فى شئون شبه الجزيرة الايطالية . وفى نفس الوقت كانت الخريطة السياسية لبلاد ألمانيا قد تطورت ، وكان أباطرة القرن الرابع عشر قد عملوا على مد سيطرتهم على أقاليم واسعة ، وان كانوا قد فقدوا بعض الأراضى فى النمسا والتيرول وسويسرا . وإنخفضت هيبة أسرة هابسبورج ، وارتفعت أسهم أسرة لكسمبورج . ولكن سيطرة حكومة بوهيميا امتدت صوب الشرق ، صوب براند بورج .

ومع ذلك فإن أعمال الامبراطور شارل الرابع ظلت ناقصة ، خاصة وأن سوء الأوضاع المالية كان يحرمه من تحقيق أحلامه . والواقع أن النظام الامبراطورى ، الذى كان قد طوره بنفسه ، كان لا يعطيه سوى لقب براق : فكانت تحيط به مجموعة من الأمراء المنتخبيين ، ودايت بدون قوة ، وسلطة بدون ادارة ؛ وهكذا كانت الامبراطورية . ولذلك فإن كل إقليم ألمانى احتفظ بشخصيته رغم مجهودات شارل الرابع ؛ ولم تر المدن الألمانية فى الغرب والجنوب ، علاجاً للفوضى سوى فى المحالفات ، والجامعات التى توحد مصالح المدن . ونشأت حول نورنبرج جامعة سنة ١٣٥١ تعمل على حماية التجارة ضد أطماع صغار النبلاء وبمرعان

ما أخذت هذه الجامعات أهمية سياسية ، وتدخلت فى حكومة الإمبراطورية . ولم يتمكن شارل الرابع ، الذى دخل فى صراع معها ، من أن يحطمها ، أو يفرض سيطرته عليه .

وعلينا أن نذكر أن الإمبراطورية لم تعد ، فى أواسط القرن الرابع عشر ، سوى مجرد كلمة ؛ وعلى العكس من ذلك نجد أن الكنيسة ، كعامل هام من عوامل المحافظة ، قد تطورت بعمق ، ووائمت بين نفسها وبين المبادىء الجديدة التى حكمت فى ذلك الوقت التنظيم السياسى لمعظم دول أوربا الغربية . وكانت اقامة البابوات فى أفينيون قد أصبحت نهائية ، ولم يتمكن البابوات من تنفيذ خططهم بالعودة إلى إيطاليا . وكانت أفينيون مدينة جميلة ، وباعتها كونتيسة إقليم بروفانس للبابوية سنة ١٣٤٨ . وبعد اقامة البابوات فى أحد الأديرة ، تطور الأمر ، وبنى قصر بابوى ، له أبراج ، وفى شكل قلعة تشرف على المنطقة . وأحسن تجهيزه من الداخل ، وتزيينه ، ووضع التماثيل فيه . وكان من الصعب الإستناد إلى نداءات الإيطاليين بعودة البابوات إلى روما ، ولكن إزدياد خطر الحرب بين انجلترا وفرنسا ، وانتشار العصابات ، كانت عوامل مضادة . وأحاط بالبابا فى أفينيون بلاط ، كما أصبح له جيش من الكتاب والموظفين ، لهم سلوك معين . وكان رجال الدين هم الجهاز الأساسى فى إدارة الكنيسه ، ثم نشأت المستشارية بمكاتبها السبعة وسجلاتها . كما تطورت الادارة القضائية ، وتطلب الأمر وجود المتخصصين ؛ وأصبح على البابا أن يترك القضاء لمجموعات متخصصه . أما مجلس الكرادلة فكان يختص بمناقشة الشئون الهامة ، وأصبحت المحاكم تخضع للكرادلة . كما نشأت إدارة خاصة لبحث أمور الحرمان ، والتوصية بها ، وإذا أضفنا إلى ذلك المجلس الرسولى الخاص بالتبشير ، والذى يشرف على مالية الكنيسة ، لأخذنا فكرة عن نمو الادارة الكنسية أثناء القرن الرابع عشر . وكان الأمراء يعطون المنح للكرادلة ، ورغم مجهودات البابوات وأصرارهم على ضرورة الاقتصاد ، أصبح لكل من

الكرادلة قصر خاص به ؛ وتمكن الكثير منهم من تكوين ثروة طائلة، حتى إضطر البابا ، فى الأوقات العصيبة ،إلى الاستدانه منهم .وكان البابا يجمعهم فى المناسبات الهامة ،ومناسبات الترقية لمناصب الكرادلة ،الأمر الذى كان يدفع بهم إلى محاولة زيادة سلطاتهم على حساب البابوية . ولم يعد فى وسع البابا أن يصدر قرارات ضدهم دون أن يحصل على موافقة ثلثيهم عليها . وهو الأمر الذى حول هذا الملك البابوى إلى حكم أقلية كاردينالية . وفى مواجهة ذلك كانت هناك عزيمة البابوات ، خاصة وأن البابا كان هو رأس الكنيسة ، وكان له أجمل بلاط فى كل أوربا ، وكان يحمل تاجاً يمثل سلطة المسيح ، ويدل على السلطة المطلقة للكرسى البابوى ضد محاولات الكرادلة .وكانت للبابوية سلطة كبيرة فى نطاق النفوذ السياسى ،وكانت فى حاجة ، فى صراعها ضد البلاد الثائرة ، مثل ألمانيا وإيطاليا ، إلى تأييد رجال الدين . كما نشأت وفاقات بين البابا والملوك ، تمهيداً لصدور الكونكوردات خلال القرن التالى ، من أجل تنظيم السلطات المدنية فى كل مكان . وكان توزيع المكاسب بين الكرادلة يمثل جزءاً هاماً فى الاجراءات المالية للبابوية ، أكثر من كونه يهدف الانضباط الدينى ، أو السلطة السياسية . وكان يمثل دخلا كبيراً للبلاط البابوى ؛ ويسير صوب نظام مركزى ، الأمر الذى دفع البابوات إلى وضع نظام ضرائبى محدد .

ولا شك فى أن إزدهار بلاط افينيون قد أسهم فى زيادة نفوذ البابوات . وشعر الأساقفة بقوتهم ، وإن كان مجموع العالم المسيحى قد شعر بقلق نتيجة إزدياد ثقل الضرائب ؛ وزادت المطالب والالتماسات الموجهة إلى البابا لخفض الأعباء الضريبية . وأساء البعض فى عملية جمع الضرائب ، وتكديس المكاسب وبشكل أفقدها فاعليتها .وكان نظام الضرائب للبابوات يمثل الكثير من المساوىء .

وجاءت عملية تسوية مسألة جماعة فرسان المعبد ، ثم الخوف من القطيعة بين فرنسا وانجلترا ، وبعد ذلك مسألة إرسال إحدى الحملات الصليبية ، ثم مسألة

عدم أمن إيطاليا ، عوامل تدفع البابوات إلى إطالة مدة اقامتهم فى أفينيون ؛ ولكن الوضع تغير فى عصر إنوسنت السادس ، فأصبح موقف البلاط البابوى مهدداً فى أفينيون ، ووصلت العصابات إلى أبواب القصر البابوى . وبعد بضع سنوات ، أنفق البابوات أموالا طائلة فى إبعاد العصابات عن المنطقة ، فى نفس الوقت الذى كان يصدر فيه علناً مرسومات حرمانهم . وكان الرأى العام المسيحى يطالب بإصرار بضرورة عودة البابوات إلى إيطاليا .

ولذلك فإن مسألة العودة إلى روما قد طرحت على نطاق السياسة البابوية ، بعد موت إنوسنت السادس سنة ١٢٦٢ . وأعلن البابا أوربان الخامس استعداده للعودة إلى إيطاليا ، ووافق الامبراطور على ذلك فى سنة ١٣٦٥ . ثم جاءت سفاره من شارل الخامس لكى تعارض ذلك ، ولكن أوربان الخامس ترك أفينيون سنة ١٣٦٧ ، ثم وصل إلى روما ودخلها دخول الظافرين . وفى روما حاول البابا إدخال اصلاح على نظام الكنيسة فى إيطاليا ، وعقد بعض المحالفات ، وانتظر وصول الإمبراطور شارل الرابع ، ووضع الامبراطور التاج على رأس زوجته بينما كان يقوم هو بتأدية فروض الصلاة . ثم انسحب بعد ذلك مباشرة . وسرعان ماوصل روما حنا باليولوج الخامس من القسطنطنية ، وكان سفراؤه يعرضون ، منذ خمسة عشرة عاماً ، أمر خضوعه لروما ، نظير حصوله على معونات يواجه بها الأتراك . وأصدر البابا أمره بضرورة إعداد حملة صليبية جديدة .

ولكن الحرب بين فرنسا وإنجلترا نشبت من جديد ، وترك حنا باليولوج روما دون أن يحصل على ما هو أكثر من وعد . وظل أوربان الخامس موزعاً فى إيطاليا بين العودة إلى أفينيون ، وبين نصائح الكرادلة الفرنسيين له بضرورة التوفيق بين انجلترا وشارل الخامس . وحاول فى سنة ١٣٧٠ أن يترك إيطاليا ، ولكن الأهالى طلبوا منه البقاء ، ثم وصل إلى أفينيون ، حيث توفى فى نفس السنة .

وتولى جريجورى الحادى عشر كرسى البابوية ، وحاول أن يجمع الأمراء

المسيحيين ضد الأتراك . وقامت أسرة فيسكونتى سنة ١٣٧٥ بثورة فى ممتلكات الكنيسة ، فقام البابا بحرب مع حلفائه ، وقرر العودة إلى روما . فأقلع من مرسيليا سنة ١٣٧٦ ، ولم يدخل روما إلا فى ١٧ يناير سنة ١٣٧٧ .

وهكذا انتهى الأسر البابلى ، وإن كانت العودة إلى روما غير نهائية . ذلك أن الكرادلة الفرنسيين كانوا لايرغبون فى البقاء فيها وبقى الكثير منهم فى أفينيون ، حيث احتفظوا ببعض الادارات البابوية . وفى روما نفسها كان الأهالى والنبلاء لايطيعون رغبات البابا ، وزادت الدعاية عن مساوئه ، وإستخدامه العنف ضد الأهالى ، وإستخدامه القسوة فى جميع الضرائب . وإجتمع مجلس دينى فى روما سنة ١٣٧٨ للتوفيق بين البابا وخصومة . وفكر البابا فى الهرب من روما ، ولكن المنية عجلت به ، وكان يعلم أن السلطة البابوية مهددة بالأحداث القادمة .

٤ ــ الاستعداد للهجوم على الكنيسة :

كانت سلطة الكرسى البابوى مهددة بتلك المعارضة المتزايدة لأصحاب الرأى القائل بأن روما قد خانت الانجيل . وعملت محاكم التفتيش على تحطيم مراكز وأصحاب هذه الأفكار ، ولكن معظم الدول لم تكن تؤيدها كل التأييد . وإذا كانت فرنسا قد سمحت لمحاكم التفتيش بالعمل فى الجنوب ، فإن حرب المائة عام قد جاءت لتزيد من بطيء اجراءاتها . وكان الصراع بين حنا الثانى والعشرين ولوى ملك بافاريا يشل حركة رجال الدين فى الامبراطورية . ووافق شارل الرابع بعد ذلك فى سنة ١٣٤٨ على ممارسة الكنيسه لسلطة محاكم التفتيش فى ألمانيا ، ولكن الأمراء وحتى الأساقفة أنفسهم لم يؤيدوا هذا القرار إلى حد بعيد وأظهر ملك بوهيميا نشاطاً بسيطاً فى بلاده ضد المراطقة ، كما أن الخصومات بين البابوية وأسرة فيشكونتى فى لومبارديا لم تسمح بإستقرار سلطة محاكم التفتيش فى هذه المنطقة . وكانت البندقية تواصل التحقيق فى عمليات الاحتيال التى قام بها بعض المقربين من النظام البابوى . أما فى نابلى فإن سلطة محاكم التفتيش قد قصرت مهامها

على تتبع اليهود . ولم تترك لها أسرة أراجونا الحاكمة فى صقلية ، إلا وجوداً إسمياً . وهكذا وجد الكرسى البابوى نفسه فى مركز ضعف أمام الفرنسيسكان ، وأمام كل من يهاجم سلطانه ، وكل من يرفض العقيدة الكاثوليكية ونمت الدول فى كل مكان بطريقة متحررة ، دون إلتفات إلى الأسس الأخلاقية الكنيسة ، ودون أن تعمل على حمايتها . وكانت الكنيسة لا تعمل بنشاط من أجل إصلاح نفسها ، وتجميع قواها .

وكان البابا حنا الثانى والعشرون قد دخل فى صراع مع الفرنسيسكان وأقام لهم منذ ربيع سنة ١٢١٧ أكوام الحطب فى مارسيليا وناربون ومونبيلييه وكركاسون وتولوز . ولكن نشاط محاكم التفتيش ضدهم كان أقل من ذلك فى جنوب إيطاليا ، فظلت أعدادهم كبيرة فى مملكتى نابلى وصقلية . وأدت هذه الخصومة إلى تطور المسألة فى شكل مناقسة نظرية ، وإتحدت فيها كل جماعة الفرنسيسكان ضد البابا . وطرحت مسألة الزهد فى الكنيسة ، وضرورة التخلى عن أمتلاك مخازن الحبوب وكهوف الخور ، وليس الملابس الفاخرة . وحكمت بعض محاكم التفتيش على البعض منهم بالهرطقة . ولما كان المسيح يمتلك أى سلطة زمنية ، فلم يكن من حق خليفته ، وهو البابا ، أن تكون له مثل هذه السلطة . وكانت هذه النقطة خطيرة بالنسبة للبابوية ، فناصبهم العداء . وظهر من بين الأساقفة من حاول اثبات أن المسيح قد عاش فقيراً ، ولكنه كان يمارس حق ملكية الأشياء ، وذلك فى الوقت الذى زاد فيه نشاط أنصار الزهد والفقر بين جماهير المسيحيين . وحين أصر البابا على موقفه . استعد أصحاب هذه الحركة للخروج عليه ، وأعلانه خارجاً عن الدين ، وبابا مزيف ، ووجدت هذه الحركة تأييداً لها فى بافاريا وفى المانيا ، واتهمت البابا بتغيير تعاليم الدين . وكانت طريقة حياة البابوات نفسها تعمل فى ضد مصالحهم ومصالح النظام الكنسى ، فزادت عليهم الهجمات . ووصلت الحالة إلى أخذ قرار فى سنة ١٢٣٤ بضرورة محاكمة البابا ، وإن كان

لم ينفذ نتيجة لموته فى نفس السنة ؛ وخفت هذه الحركة بعد سنوات ، نتيجة لعدم اصرار البابوات على عدم معارضتها ، ونتيجة لموت عدد من القائمين بها ؛ ولكنها كانت فرصة لمهاجمة كنيسة روما ، التى فشلت فى الدفاع عن نفسها ، وكان ذلك سبباً من أسباب ضعفها .

وكانت الكنيسة تواصل فى نفس الوقت ، وعن طريق محاكم التفتيش كذلك ، تعقبها للهرطقة وللهراطقة . وإنتشرت هذه الحركات فى جميع أنحاء أوربا ، من أسبانيا إلى إيطاليا وشبه جزيرة البلقان ، وكذلك جنوب فرنسا ، وسويسرا وألمانيا وبوهيميا . وكان تشدد الكنيسة ، بمحاكم التفتيش ، يعنى اصرارها على ثبات العقيدة على ما هى عليه ، واصرارها على التفسير الذى يعطيه البابوات لكل مسألة تطرح . ولا شك أن هذا الموقف كان يعنى عدم المرونة ، وعدم السماح للمسيحيين بالتفكير والنقد والمقارنة . وستزيد خطورة هذا الموقف حين يظهر بعض المفكرين ، وبخاصة فى الجامعات ، بفكر يستند إلى منهج . ولا يستمد ينابيعه إلا من الكتاب المقدس ، والكتاب المقدس وحده ، دون أعتبار لوجهات نظر البابوات . وعندئذ تحرم البابوية من كل أسلحتها ، ولا تقوى على مواصله الحوار ، حتى فى شئون العقيدة . وإذا ما انسحب ذلك على مسألة السلطة الزمنية للبابوات ، فإن الكنيسة الرومانية ستكون بغير سلاح .

وعلينا أن نذكر هنا جان ويكليف ، الانجليزى ، والذى كان من جامعة أكسفورد ، وعلى علم دقيق بحياة القديسين وأطلاع كبير وتفقه فى الكتاب المقدس . وأخذ ويكليف موقفاً واضحاً سنة ١٢٦٦ فى تلك المناقشة التى فتحت بين الرأى العام الانجليزى وبلاط روما . وتحدث عن « تعريف السلطة » التى نماها فيما بعد إلى نظرية . ثم شارك فى سنة ١٣٧٤ فى مؤتمر بروج ، ووافق فى سنة ١٢٧٦ على إحتجاج البرلمان الانجليزى ضد اتفاقية كانت فى صالح البابوية لحد بعيد . ثم أخذ يدرس فى أكسفورد عن السلطة المدنية ، وذكر أن هذه السلطة لا تعود إلا لله ،

وأن الله بدلا من أن يمنحها للبابا ،قد وزعها بين كل أولئك الذين يحكمون الأرض؛ ولذلك فإن السلطة الملكية ليست أقل قدسية من السلطة الدينية ، بل أن الكنيسة ترتكب خطيئة حين تدعى لنفسها الجمع بين سلطتها على الروح والسلطة الزمنية ؛ وعلى الأمراء العلمانيين أن يستعيدوا سلطاتهم التى تسوء الكنيسة استخدامها،وعليهم أن يتهموا ويصححوا البابا .

وكانت جرأة فريدة ، وإجتمع رجال الدين فى إنجلترا سنة ١٣٧٧ وكانت مناقشة حادة ،أثرت فى عاصمة إنجلترا ، ولم يتمكن المجلس الدينى من الحكم عليه. ولم ترفض كليات جامعة أكسفورد نظرياته ، وساعده الحظ إذ أن مجلس العموم أظهر عداء شديداً للبابوية. وهدد بالاستيلاء على كل مبلغ يرسل إليها.وحين سؤل ويكليف عن ذلك ، أجاب بأن هذا الاجراء مشروع .وأصبح ويكليف شخصية محبوبه فى كل انجلتر . ولا شك فى أن هذا كان يمثل ضعفاً للبابوية ، وهجوماً عليها ، من عالم متفقه ومفكر ، وعجزت البابوية عن محاكمته ، نتيجة لعدم وصول سلطات التفتيش إلى بلاده .

ومن جانب آخر نجد أن النظريات الثيوقرطية . أى الخاصة بالحكم الدينى ، وامتداد سلطة الكنيسة زمنياً ، لم تعد تلق قبولا خارج المدارس . وإذا كان البابا قد أكدها أمام أحد الأباطرة الضعفاء ، فإنه كان عاجزاً عن أن يذكرها أمام ملك فرنسا . وكانت سلطة الكرسى البابوى قد خضعت أمام ملوك فرنسا إلى التبعية ، ولم يرفعها من هذا المنستوى إلا نشوب الحرب بين انجلترا وفرنسا.وكان الأمراء عازمين على عدم اطاعة البابا فى الأمور الزمنية بعد ذلك ، بل كانوا أكثر من ذلك ، قد أخذوا فى السيطرة على الكنائس الموجودة فى أقاليمهم . وجاءت زيادة اختصاصات المحاكم المدنية لكى تقلقل من اختصاصات محاكم رجال الدين .

أما فى انجلترا فإن موقف البابوية كان أكثر صعوبه ، فإتهموها وقت الأسر البابلى بأنها منحازة لفرنسا . وأفاد ملك انجلترا من نشوء حركة عدم رضاء فى

بلاده ضد البابوية لكى يزيد من سيطرته على الكنيسة فى انجلترا . وعمل الملك إدوارد الثالث على تخويف البابوية ،وأخذ يدافع ، أمام الرأى العام ،عن حريات الكنيسة ، ضد مساوىء رجال الدين . وحين طالب البابا بلهجة مهددة بالضرائب الكنسية التى كانت انجلترا قد توقفت منذ سنوات عن إرسالها ، لم يكن الملك هو الشخص الوحيد الذى أظهر أسفه ، بل لقد أرتفعت الاحتجاجات من البرلمان ومع جميع أنحاء انجلترا . ووصل الأمر بالحالة سنة ١٣٧٦ إلى أن قام مجلس العموم بإتهام البلاط البابوى ، بتحطيم كنيسة انجلترا ، وبالتلاعب فى الأمور المقدسة .

وأفادت بافاريا من هذه الأوضاع لكى تفرض على كنائس الإمبراطورية رغبتها ومرشحيها . وأخذت سلطة البابوية المعنوية فى التراجع ، ولم تعد الدول تنظر إلى المشروعات البابوية الخاصة بضرورة إرسال حملات صليبية نظرة الجد ؛ حتى فى مواجهة هجمات الأتراك والمغول . وكان تجميع الضرائب والأرباح فى أفينيون ، وعدم مبالاة كبار رجال الكنيسة يتسبب فى نشوب قلق فى بلاد غرب أوربا ، وفى ظهور حركات لفضح هذه الحالة . وكادت البابوية أن تفقد ممتلكاتها فى إيطاليا ، التى ظهر فيها شعور جديد بالحرية ، ولم تتمكن الكنيسة من إعادة فرض نفسها عليها إلا بقوة السلاح . وظهرت كنيسة روما على أنها لم تعد تصلح لرعاية الشعوب . ولم يعد من الممكن الآن اعادة تقسيم السلطتين الدينية والزمنية بين البابوية والإمبراطورية ، وبخاصة بعد ضعف الأمبراطورية . ولم يعد من الممكن الوصول إلى أى حل سوى ترك كل من الشعوب والأمراء يجدون حلا ، وكل فيما يخصه ، بشأن مشكلات الحكم ، وطبقاً لمصالحهم ، وتجاربهم ، وطريقة تفكيرهم .

ولقد أعطت مملكة فرنسا المثل على هذا التحرر الكامل للدولة . ومنذ بداية القرن كان الفقهاء والمشرعون فيها قد أظهروا أنهم لن يسمحوا للبابا أن يسيطر على سياسة الملك بالانجيل . وينطبق ذلك بالتالى على الامبراطور . وكانت هناك

إلى جانب ذلك بعض الإتجاهات لرسم برنامج التوسع الفرنسي ، فكان يأمل في أن تنمو سيطرة الملوك ، أحفاد القديس لويس ، على إيطاليا وألمانيا وممتلكات البابا ، وكذلك على الإمبراطورية الشرقية ، وعلى إسبانيا أو إنجلترا . وربما كان هذا البرنامج خيالياً ، ولكنه كان يدل على تفكير موجود بالفعل ، ويسعى إلى أن يجعل سلطة ملك فرنسا تحل محل الإمبراطورية ، وحتى محل البابوية في ممتلكاتها الزمنية .

وكانت سياسة فرنسا تقوم على أساس التجربة ، والحساب ، وإذا كانت تستند إلى أساس ديني ، فإن فكرة الملكية كانت فكرة عقلانية . وإهتمت بفن الحكم ، على أساس المبادىء ، وأحاطت نفسها بالعلماء والنظريات الواقعية عن العالم الحديث ، وعن التاريخ . وفي الوقت الذي إحتفظت فيه الملكية بالحق الإقطاعي القديم والخاص بمبدأ الخضوع الشخصي لذلك ، إستندت كذلك إلى القانون الروماني لكي تطالب بتضحية الفرد من أجل الدولة ، ممثلة في شخص الأمير . وهكذا ظهرت نظرية الدولة ، التي تحررت من سيطرة روما ، ومن السلطة العليا للإمبراطورية ، ويشكل محدد في الغرب الملكي . وكانت المملكة الأنجليزية ، تحت إشراف برلمانها ، تجهل الإمبراطور ، وتبعد نفوذ البابا . وقام الأمراء والسادة الألمان بإنشاء ممالك حقيقية ، لا تخضع سياستها إلا للأنانية الضيقة . وسادت الأنانية المماثلة في كل مكان كانت البورجوازية فيه تحكم نفسها ، وكانت المشغوليات الخاصة بالمصالح المادية هي التي تجمع بين المدن الألمانية في الجامعة الهندسية ، وبين مدن الفلاندر في الأراضي المنخفضة ، وكانت المصالح المادية للطبقات المختلفة التي تنمي الثروة هي التي تسيطر على السياسة ، وعلى الصراع بين الأحزاب .

وكانت معرفة التاريخ القديم في إيطاليا ، والمناقشة الحرة التي تعودت عليها المجالس البلدية منذ فترة ، وكذلك المحادثات الدبلوماسية ، قد جعلت فن الحكم يخضع لمبادىء علم واقعي ، يعرف مناهجه وأهدافه ، الأمر الذي جعل إيطاليا ، أكثر من غيرها ، تتحرر من كل إعتبار ديني وأخلاقي . وإهتم الطغاة في شمال

إيطاليا بكل ما يزيد قوة دولهم ، وأنشأوا حكومات ملكية مطلقة ولكنها إهتمت بالإدارة التى عملت على أن تعطى الشعوب ، نظير خضوعها ، الرفاهية والثروة ؛ وطبقوا على أقاليمهم نظم الإمبراطورية الرومانية ، نظرياً وعملياً . أما الجمهوريات فإنها تركت مصلحة الدولة تتطابق مع الميزات الإيجابية لتلك الطبقة ، أو ذلك الحزب الذى كان فى الحكم .

وكانت عملية تحرر الدولة تدل بوضوح على ضعف سلطة الكنيسة . وهكذا إنتهى تحطيم الإطار العام لعالم العصور الوسطى . وفى مواجهة هذا الحطام للنظام الكاثوليكى ، وهذا التناسى للإنجيل الذى أصبح قانونه ، بعد أن أهملته الدول ، لا يتمشى إلا مع الأفراد ، إحتج ضمير المسيحية فى كل مكان . وفى الوقت الذى إتهم فيه الهراطقة الكنيسة بخيانة الحقائق التى عهد بها إليها ، كانت أفكار من ظل مخلصاً لعقيدته تأمل فى حدوث إصلاح من الرأس حتى بقية الأعضاء . وكان هناك شبه إتفاق على أن بابوات أفينيون قد أهملوا رسالتهم ، وحتى من قام منهم ببذل مجهود فإنه كان يرى مجهوده يضيع نتيجة للامبالاة من جانب الكرادلة والأساقفة ، والذى نتج سوء إختيارهم على التقاليد البابوية فى مسائل تعيين كبار رجال الكنيسة . وسادة فكرة ضرورة إصلاح الكنيسة فى كل مكان .

الفصل الثالث

حرب المائة عام

مرت الممالك الغربية الكبيرة عبر تجربة صعبة . وحاولت حكومة فيليب الجميل أن تعيد لصالحها إمتيازات الملوك فى العصور الرومانية القديمة ، ولكن بلا جدوى ، فإصطدمت هذه الطرق المطلقة بمقاومة خفية فى أول الأمر ، ثم معلنة من جانب النبلاء ، الذين رفضوا أن يتم القضاء عليهم وبنفس الشكل ، علينا أن نجد فى إنجلترا أولئك البارونات غير الخاضعين ، الذين كانوا مستعدين دائماً لتأكيد إستقلالهم ، عند ظهور أقل دلالة على ضعف السلطة الملكية . وهذا النظام الإقطاعى ، الذى أعتقدنا أنه كان قد أخذ فى الضعف ، كان يقف فجأة ، وبحركة أقوى منها عنها فى أى وقت مضى ، فى العقد الثانى من القرن الرابع عشر ، ويحاول أن يكسب ما كان قد فقده ، سواء فى فرنسا أو فى انجلترا .

ومع ذلك فإن الملكية كانت تسير ، وكان المستقبل مضموناً لها . ولكن الدولتين ، ونتيجة لحدثين تقاربا زمنياً ، وهما عزل أدوارد الثانى فى إنجلترا سنة ١٣٢٧ ، ووصول أمراء فالوا إلى الحكم فى فرنسا سنة ١٣٢٨ تواجهتا فى صراع مرير ، بل كان أشد مرارة وأكثر طولا عما كانت أوربا قد شهدته حتى ذلك الوقت . وسيكون من الخطأ تقليل أهمية حرب المائة عام ، إلى مجرد خصومة بين أسرتين حاكمتين ، أو حتى بين شعبين : ذلك أن خطورة الصدام ، وإتساع نتائجه فى كل الميادين ، السياسية ، والإجتماعية ، والإقتصادية ، والمعنوية ، وزيادة عدد الدول التى مسها . بطريق مباشر أو غير مباشر ، جعل منه أكبر حدث دار حوله تاريخ أوربا لمدة قرن من الزمان ، وهو ذلك القرن الذى شهد تحطيم حضارة أوربا فى العصر الوسيط .

١ — تطور الأوضاع فى كل من فرنسا وأنجلترا :—

كانت المسألة المالية هى أساس الصعوبات التى أصطدم بها النظام الملكى فى فرنسا وفى إنجلترا . وكانت المملكة فى فرنسا ، حتى عصر فيليب الجميل ، قد اتبعت سياسة حكيمة ، وتعيش على مواردها العادية التى تجمعها من أملاكها ، وتضيف إليها بعض المعونات التى كان العرف الإقطاعى المعمول به يسمح لها بالحصول عليها من بعض التابعين . ومع توسيعها لميدان عملها ، ومحاولتها القيام بسياسة ملكية مقررة ، شعرت بالحاجة إلى ضمان موارد ثابتة أكثر إتساعاً . وكان فيليب الجميل فى حاجة دائمة للأموال ، وطرق من أجل الحصول عليها كل الأبواب ؛ فأفاد فى سنة ١٣٠٦ من إرتفاع شعور شعبي معادى لليهود ، وقام بطردهم من مملكته ، وصادر أملاكهم . وقام بعمليات مماثلة ضد رجال المال الإيطاليين الموجودين فى بلاده . وذهب الحد بهذا الملك إلى أن قام بتغيير قيمة العملة . وكان يرفعها أو يخفضها حسب ضرورات الوقت . ولم تعط هذه التغيرات للخزانة الملكية إلا فائدة وهمية ، لأن خزانة الملك كانت لا تمتلىء ، بعد الفترة المفاجئة الأولى ، إلا بالعملة الرديئة التى خلقها ؛ ويؤدى شلل التجارة إلى الفقر العام الذى لا تكون المملكة هى آخر من تتأثر به .

ومع ذلك فإن كل هذه العمليات ، بما فيها هجماته ضد جماعة فرسان المعبد ، لم تكفه لمواجهة نقص الميزانية الملكية . فأضطروا إلى وضع نظام ضرائبي ثابت ؛ يقوم على أساس دخول ضرائب منتظمة . فزادت طلباته إلى رجال الدين ، بموافقة البابا أو بدونها ، لتقديم العشور ، وفرض ضرائب غير مباشرة كبيرة القيمة على كل العمليات التجارية ، وحاول أن يبدل التقليد الإقطاعى الخاص بضرورة تقديم كل تابع خدمه لسيده وقت الضرورة ، بتقديم هذه المعونة نقداً ، بدلا من تقديمها عسكرياً . وكان الملوك قد أستخدموا منذ فترة الجنود ، أو المرتزقة ، بدلا من المجندين الذين يأتى بهم السادة الاقطاعيون ؛ فأراد الملك ،

وبعقلية ضرائبيـة بحته ، إبدال الخدمة الإقطاعية بضريبـة تجمع كل فترة معينة ، وهى التى ستصبح المعونة الملكية فيما بعد . هكذا تتراجع المبادىء الإقطاعية شيئاً فشيئاً أمام المبادىء الملكية . ومع ذلك فإن الملوك لم يصلوا إلى أهدافهم مباشرة ، فكان عليهم أن يكسبوا الأهالى أو يتساوموا معهم : فكانوا يستشيرون المدن والأقاليم عن طريق مجالس الوجهاء ، وكذلك كبار التابعين عن طريق المفاوضات المباشرة ، ويطلبون منهم معاونة الملك ؛ ولم تكن المعونات تقبل بحرية ، إلا على أساس أنها مؤقته . وكان يكفى أن تطول الحرب . وتحدث معها أزمات إقتصادية ، حتى تضطرب الخزانة الملكية ، وتصبح المعونات المؤقتة معونات دائمة .

ولكى يقضى الملوك على المعارضة ، حاولوا أن يكسبوا الرأى العام ، بعرض الأمور الهامة على مجالس الوجهاء ، التى كانت تجتمع من أجل الدعايه . وكان من الممكن أن نرى فى هذه الإجتماعات ، التى كانت تضم النبلاء ورجال الدين ومندوبى المدن ومناطق النفوذ الكبيرة ، أحد أصول تلك الآلة الحكومية ، وهى مجلس طبقات الأمة . وكان الملك قد إعتاد أن يطلب المعونة من مجالس من هذا النوع .

وكان جمع الضرائب الملكية يتسبب فى نشوب حركة عدم رضاء فى البلاد . وكانت هناك بعض الفضائح نتيجة للانحرافات فى جميع الضرائب، كما أن النبلاء قد شعروا بهزيمتهم ، وكانوا مستعدين للانتقام عند أول فرصة يظهر فيها ضعف الملك. وكانوا يطالبون بضرورة الاعتراف لهم بشن الحرب ، وبضرورة احترام القضاء الإقطاعى ، واحتجوا على تدخل الملكية داخل مناطق نفوذهم ، وأجبار تابعيهم على دفع المعونة . وكان برنامجهم برنامج رجعى ؛ يهدفون من ورائه إلى العودة إلى تقاليد عصر القديس لوى ، بإعتبار أنه العصر الذهبى للإقطاع . وكانت حكومة المملكة لاتهمهم ، كما كانوا لا يأبهون بالحريات الأساسية الأصيلة، ولكنهم كانوا منقسمين على انفسهم ولم يكونوا يحظون بتأييد رجال الدين ولا رجال الكنيسة ، ولذلك فإن الحكومة الملكية لم تتراجع ؛ وإن كانت قد قدمت بعض

التنازلات التي بدت على أنها فى صالح الاقطاعيين ، إلا أنها عادت ووضعت عليها الاشتراطات ، الأمر الذى جعلها تأخذ بيد ، ما كانت قد أعطته باليد الأخرى .

ولو حدثت أزمة فى ذلك الوقت للأسرة الحاكمة فى فرنسا ، ذلك أن لوى العاشر ، ابن فيليب الجميل ، توفى فجأة ، سنة ١٣١٦ ، أى بعد والده بسنتين ، ولم يترك سوى بنت ، لاتقدر على أن تحكم بدله ، طبقاً للقانون المعمول به حينئذ . ولكن الملكة كانت حاملا ، الأمر الذى أجل تقرير مسألة الوراثة . واستولى أحد أبناء فيليب الجميل الآخرين على العرش ، وكانت هذه الفرصة لكى يحاول بعض النبلاء القيام بحركة ضد مغتصب العرش ، ويفرضون بذلك كلمتهم على الملكية . ولكنهم فشلوا فى ذلك ، إذ سرعان ما جمع الملك مجلساً من النبلاء ورجال الدين والبورجوازين وأساتذة الجامعات ، فى باريس ، وجعل هذا المجلس يصدق على ترشيحه للعرش ؛ ووضع بذلك تقليداً عن اعتلاء أخو الملك العرش بعد وفاته ، فى حالة عدم وجود وارث ذكر . وهكذا توصل ملوك فرنسا بسهولة إلى التغلب على معارضة النبلاء . ولكى يمنعوا تكامل قوات الاقطاع مع القوى الشعبية ، أفهموا الفلاحين أنهم سيحمونهم ضد السادة ، وعملوا فى نفس الوقت على تخويف السادة من خطر ثورات الفلاحين المزعومة . ونجحوا بذلك فى احتضان كل طبقات الشعب ، وإشراكها اسمياً فى شئون الحكومة . وزادوا من استخدام مجالس طبقات الأمة ، التى كان يشترك فيها ممثلين عن الطبقات الثلاث : النبلاء ورجل الدين ، والعامة . وأصبحت هذه المجالس تجتمع من فترة لأخرى ، سواء أكانت عامة أو محلية . وكان يستشير رعاياه فى الأمور السياسية الهامة ، وينتهز الفرصة ويطلب منهم دفع المعونات اللازمة لسياسته العسكرية . ولم تكن هذه المجالس تشتمل على نظام تمثيلى صحيح، فكان الملوك هم الذين يطلبون عقدها ؛ ولم تكن الأمة تفرض بها رقابتها على الملك، وكان دورها السياسى صغيراً، ولا يقلل من سلطة الملك .

أما فى إنجلترا فإن الموقف كان يختلف عن ذلك كثيراً . ذلك أن الربع الأول من القرن الرابع عشر كان يمثل ضعف السلطة الملكية . ويمكننا أن نرجع ذلك إلى عصر الملك ادوارد الأول ، الذى نجح فى القضاء على ثورة كانت قد نشبت فى بلاد ويلز ، ثم استخدم كل قوته من أجل غزو اسكتلندا، الأمر الذى أنهك قواه، وكانت محدودة. وكانت هناك بعض حقوق سيادة لملك إنجلترا على ملك اسكتلندا، فإستغل الانجليز ذلك إلى أقصى درجة . وأخذوا يوجهون الارشادات إلى الاسكتلنديين ، الذين قاموا بدورهم بالتحالف مع فرنسا ، فأدى ذلك إلى تصميم الانجليز على استخدام القوة لمعاقبتهم . وكانت الحملة سهلة وكأنها نزهة حربية ، وعين الملك أحد الأوصياء على عرش اسكتلندا ، وفرض عليهم ادارة انجليزية . وكان هذا الغزو سهلا ، ولكنه كان ضعيفاً ، وبمجرد عودة الملك إلى انجلترا نشبت الثورة فى اسكتلندا ، وطردوا الانجليز ؛ فاضطر الملك إلى ارسال قوات جديدة . وطوال مدة ستة سنين ، كانت همه الملك ادوارد متجهة صوب الشمال ، وكان يضطر إلى ارسال حملة كل سنة . ولقد كلف ذلك انجلترا الكثير ، من قواتها ، وهيبتها وعمالها . فاضطرت الملكية الانجليزية كذلك إلى أن تطلب معونات مالية تواجه بها حالة الخزانة . ورفض رجال الدين دفع المعونات ثم ثار البارونات ، ورفضوا الخروج للحرب خارج بلادهم مالم يكن الملك مع الحملة، ثم انضم أهالى لندن إلى الحركة ، وأدى ذلك إلى تراجع الملك ، ثلاث مرات ، وإلى أن يؤكد رسمياً شروط العهد الأعظم ، مع اضافته إليه مواد جديدة ، تتعلق بالإشراف على الضرائب . وأصبح برلمان لندن كثير الانعقاد ، وكثر فيه اجتماع العامة ، واستخدامهم البارونات كسلاح يعارضون به الملك .

وجاء ادوارد الثانى إلى الحكم سنة (١٣٠٧ — ١٣١٧) ، وكان ملكاً ضعيفاً الأمر الذى كان يغرى النبلاء على الكسب على حسابه ، وبخاصة بعد أن تخلص من مستشارى والده ، وكانت الخزانة خاوية بعد حروب اسكتلندا . وحصل

البارونات فى أول الأمر على بعض المكاسب . ولكن ادوارد الثانى التجأ إلى الشمال ؛ وساعدته جيوش اسكتلندا على هزيمة قوات الاقطاعيين الانجليز ، ثم انقلب الموقف رأساً على عقب،وضاعت مكاسب ادوارد الأول،وسادت الفوضى البلاد . وعمل النبلاء على التجمع سوياً ، لفرض أنفسهم على الملك ، ونجحوا فى ذلك لبعض الوقت ؛ ولكنهم انقسموا على أنفسهم ، وانتهز الملك ادوارد الثانى ذلك لكى ينضم إلى إحدى المجموعتين ، ضد المجموعة الثانية. واستمر الصراع بين النبلاء وادوارد الثانى من سنة ١٣١١ ، إلى أن قبض عليه وتنازل عن العرش وقتل سنة ١٣٢٧ . وحتى هنا ، لم يكن هذا الحدث فى صالح النبلاء ، وكان على حساب النظام الملكى ؛ ذلك أن البرلمان كان قد ازداد أهمية ، نتيجة لالتجاء كل من الملك والنبلاء إليه؛ وكان ممثلى العامة يحضرون؛ويزداد دورهم السياسى أهمية باستمرار. وكانت انجلترا فى حاجة إلى ملك قوى ، يمكنه أن يروض الأستقراطية،ويدفعها إلى حرب خارجية ؛ ووجد النظام الاقطاعى سيداً له فى شخص الملك ادوارد الثالث .

ولقد سارت كل من فرنسا وانجلترا صوب حرب لم يكن أحد يعرف أنها ستمتد إلى فترة مائة عام . وكانت أصول هذه الحرب ترجع إلى منتصف القرن الثالث عشر ، وإلى العلاقة بين الملك لوى التاسع والملك هنرى الثالث ؛ وكان الملك إنجلترا ، رغم وجوده فى جزيرته ؛ يعتبر تابعاً لملك فرنسا . وكان ملك انجلترا يرغب فى التخلص من هذه التبعية ، ولكن الفقهاء والمشرعيين المحيطين بملك فرنسا أفادوا من عدم الوضوح فى المعاهدة المعقودة ، لكى يمدوا سلطة ملكهم على حساب ملك انجلترا ، وبخاصة فيما يتعلق بممتلكاته على القارة. وفشلت محاولات تطوير المعاهدة . واستولى ملك فرنسا على بعض هذه الممتلكات ، ولم يواجهه الملك ادوارد الأول علناً ، بل حول أنظاره صوب الفلاندر ، كما تدخل البابا فى الموضوع وعقد الصلح ، وتزوج من سيصبح ادوارد الثانى ايزابيلا

أميرة فرنسا . وعادت المسألة فى شكل أزمة بعد قتل أدوارد الثانى سنة ١٣٢٧ ، ومصادرة ملك فرنسا لاقطاعه من جديد .

أما فيما يتعلق بمسألة الفلاندر ، فنعرف أن انجلترا كانت بلاداً تربى الأغنام فى ذلك الوقت ، وكانت تعيش قبل كل شيء على تصدير الصوف ، وكانت تحتاج بالتالى إلى أن تجد سوقاً حراً فى الفلاندر ، بلاد صناعة الأنسجة . ورغم أن الفلاندر كانت منطقة نفوذ اقطاعى لملك فرنسا ، إلا أنها كانت مستقلة تقريباً . ولكن فيليب الجميل عمل على تدعيم سيطرته عليها ، واحتل مدنها ، وتدخل فى شئون الكونت سلدها ، حتى فى مسألة زواج أبنائه. وشعرت إنجلترا أن وجودها الاقتصادى أصبح مهدداً بطريقة مباشره ، فكان من الطبيعى أن تقوم بحركة رد فعل أمام هذا المشروع الفرنسى . كما أن الكونت صاحب الفلاندر رفض طريقة معاملة الفرنسيين له ، فتحالف مع الانجليز . وانتهز ملك فرنسا ذلك ، وإحتل الفلاندر ، وصادر هذه الكونتية . وساءت حالة صناعة الأنسجة فى الفلاندر ، ونشبت الثورة فى بروج ، ثم تبعتها البلدان الأخرى ؛ وتمكن الثوار من انزال بعض الهزائم بالفرسان الفرنسيين . وحاول ملوك فرنسا الاستناد إلى الكونت معه الأرستقراطية ، ولكن البورجوازيين فى المدن كانوا أكثر قوة من رغبة الأمير . وهكذا أصبحت انجلترا مهددة بفقد مناطق إنتاج العنب والنبيذ على القارة ، وكذلك مناطق تصدير الصوف ، فاضطرت إلى أن تقوم بالهجوم. وكان من الممكن أن يقع الصدام قبل ذلك ، إذا لم يكن أدوارد الثالث مشغولا بمشكلات اسكتلندا . ولقد حاول البابوات التوفيق بين ملكى فرنسا وانجلترا بأى ثمن ، حتى يوجهانها إلى القيام بحملة صليبية ضد الامبراطور المنشق ، لوى ملك بافاريا . ومنذ سنه ١٣٣٠ إلى سنة ١٣٣٦ إنشغل ملك فرنسا باعداد هذه الحملة ، ولم يكن يعتقد فى صدق عزيمة الانجليز على مهاجمته .

ونجد من الجانب الآخر أن إدوارد الثالث قد عمل على عزل فرنسا

دبلوماسياً ، وضمن كثيراً من الحلفاء ، وفكر حتى فى أن يستخدم حلفاء فى الهجوم على فرنسا ؛ ثم انضم فى سنة ١٣٣٨ إلى لوى صاحب بافاريا ، وذهب إلى كولونيا ، وحصل من الامبراطور على لقب راعى الامبراطورية . وكان هذا العمل الأخير يدل على طموح ادوارد الثالث ، وأرهب البابوية ، وكان السبب المباشر للحرب .

وكان ضعف ملك فرنسا سبباً كذلك فى نشوب الحرب ، فكان يحب البذخ والمجد ، ويحلم بالحملات البعيدة ، وكان بلاطه مكان التقاء كبار الاقطاعيين الذين يفضلون الحفلات الكبيرة ، وان كان هو نفسه لايتمتع بحمية النبلاء ، وترك الموظفين يحكمون البلاد . ولم تكن ماليته مستقرة ، وكانت إيراداته تكفى بالكاد لمعيشته وقت السلم ؛ فكان مضطراً مع أعلان الحرب إلى استخدام المالية الاستثنائية ، فاستخدم العشور التى كانت البابوية قد سمحت بها من أجل الحملات الصليبية ، وطالب مجالس طبقات الأمة فى الأقاليم بارسال المعونات ، واستدان من النبلاء ، والمدن ، ورجال الدين ، وحتى من ضباطه ؛ وغير من قيمة العملة ؛ ورغم كل ذلك فقد ظل دائماً يحتاج للنقود . وكان عاجزاً عن إنشاء جيش نظامى ، وأكتفى بأن طلب إلى السادة الاقطاعيين المجىء مع رجالهم والخدمة مدة أربعين يوماً ؛ أما بقية جيشه فكان يتكون من الفرسان الذين يتقاضون مخصصات كبيرة ، وكانوا من كل البلاد ، وغير منظمين ، ويفكرون فى الأسلاب ، دون أن يفكروا فى ضرورات الحرب الحديثة .

أما ادوارد الثالث ملك انجلترا ، فإنه كان واقعياً ، ويعرف الهدف الذى كان يرغب فى الوصول اليه ، ولكنه كان يوفق بين هذا الهدف وبين الحقائق السياسية ، وتمكن من يجمع السادة الاقطاعيين حوله . وإذا كان قد فشل فى فرض سيطرته على اسكتلندا ، إلا أنه كان يحكم بلداً يحب النظام ، رغم قلة سكانها . وكانت انجلترا بلاداً زراعية ، وكانت تعتمد من أجل تجارتها وصناعتها على التجار الأجانب ، وعلى الصناع الفلمنكيين ؛ ولذلك فإن ادوارد كان يضمن لها الاستقلال الاقتصادى والسيطرة على البحار . وأعطى دفعة قوية

للتجارة ، كما بدأ فى توطين صناعة المنسوجات فى بريستول سنة ١٣٣٩ ، ووضع نظاماً لمراقبة سواحل إنجلترا بإسطول حربى . وكانت أهم أعمال إدوارد الثالث هو إنشائه جيشاً على أسس جديدة ، وكانت حملات ويلز واسكتلندا قد أعطت الانجليز حب الحرب ؛ وعمل الملك على تنظيمهم فى جيش مهم ، ووضع لهذا الجيش نظام دقيق ، وأجبر الأرستقراطية على تعلم فنون الحرب ، وتعلم اللغة الفرنسية ، كما أجبر الأهالى على التمرن على اطلاق السهام . وجعل الخدمة العسكرية اجبارية من سن السادسة عشر حتى الستين، لكل رعايا الملك ؛ وأصبح مندوبى الملك يختارون الرجال للخدمة العسكرية ، وأصبح على كل رجل يزيد دخله عن عشرين جنيهاً أن يتسلح ، ويتزود بفرس على حسابه ؛ أما الفقراء فكانوا يعملون فى المشاة التى ستصبح القوة الرئيسية للجيش الانجليزى ، وتثبت تفوقها على الفرسان عديمى الخبرة ، وغير المنظمين ، والذى كان ملك فرنسا قد جمعهم . وكان ضاربو السهام يمثلون سلاحاً متفوقاً ، وكانت أسهمهم تصل إلى ٣٥٠ متراً ، وتمنع بالتالى هجمات الفرسان ، وتقتل الخيل وتحمى المشاة . وكانت هناك فرقة حملة الرماح التى كان أفرادها يصيبون الأعداء رغم لبسهم الدروع ؛ وأخيراً فقد استخدم ادوارد الثالث سلاحاً جديداً ، وهو المدفعية ؛ ولاشك فى أن مدافعه كانت تخيف أكثر من أنها كانت تدمر ، وكانت تؤثر على الروح المعنوية للمحاربين .

وهكذا نجد أن مملكة أنجلترا ، رغم كون مواردها محدودة ، قد بدت أكثر استعداداً للحروب من مملكة فرنسا ، التى ستكون ثرواتها ، وسلطاتها القوية بدون نفع كبير لها فى المعركة . وسيكون الانتصار الانجليزى سهلا .

٣ — الهزائم الفرنسية ونتائجها :

كان ادوارد الثالث قد أصبح مستعداً لخوض الحرب عند صيف سنة ١٣٣٩ ، وجمع جيشا فى بروكسل ، ولكن الأموال كانت تنقصه ، وربما كان يرهب الموقف ، فلم يشتبك فى معركة . وكانت أول حملة فى الحرب بدون قيمة كبيرة

لانجلترا ، ولكن ادوارد تمكن فى السنوات التالية ، وقبل أن يوجه ضربته الكبيرة ، من أن يكمل المحاصرة الدبلوماسية لفرنسا ، ويمنع الخصم من القيام بهجوم . وكان يرغب فى الحصول على أصدقاء على سواحل فرنسا ، يسهلون لقواته أمر النزول ؛ ويرغب كذلك فى ضمان السيطرة على البحر . وكانت الأوضاع الموجودة فى الفلاندر وبريتانى ،والهياج الموجود فى نورمانديا يسمح له بالوصول للهدف الأول ، وأكملت المعركة الباقى.ولقد تمكن ادوارد الثالث من أن يستغل الأوضاع الاقتصادية السيئة فى إقيم الفلاندر ، والناتجة عن منع إستيراد الصوف الانجليزى إليها ، ومنع تصدير المنسوجات منها ، وإشتداد أزمة البطالة ، ووقوف الأهالى ضد النبلاء فى ثورة معلنة وبخاصة فى جاندا، ووجود مشروع لإتحاد بين البلديات مع الدول المجاورة ، من أجل الدفاع عن مصالح التجارة. ووعد ادوارد الثالث البرلمان الذى انعقد فى هذه المدينة سنة ١٣٤٠ بالمونة وببعض الامتيازات.

وإستند الانجليز إلى تحالفهم مع الفلمنكيين ، وعملوا على تحطيم الأسطول الفرنسى الذى كان ملوك فرنسا قد أتفقوا سنوات عديدة فى جمعه، وذلك فى نفس السنة ، وفى معركة قاد فيها إدوارد الثالث الأسطول الانجليزى بنفسه وقضى فيها ، فى بضع ساعات ، على الاسطول الفرنسى . ولولا اضطرار الملك إلى العودة سريعاً لمواجهة مشكلات داخلية فى انجلترا لكان لهذه المعركة البحرية أبعاد أكبر.

وكانت هناك حرب أهلية فى بريتانى ، على الدوقية ، وسرعان ماتدخل فيها ادوارد الثالث سنة ١٣٤٢؛ وأخذ جانب ضد جانب ، الأمر الذى أنشأ له ركائز هامة فى شمال فرنسا .

وبدأت الحرب كذلك فى نورمانديا ، نتيجة لقصر نظر ملك فرنسا . سنة ١٣٤٥ . وفى الوقت الذى كان فيه أبن ملك فرنسا مشغولا فى توكيد سلطته على بعض المدن ، بذل الملك ادوارد الثالث مجهوداً عسكرياً ضخماً . ونزل فى البلاد شهر يوليو سنة ١٣٤٦ ، وكانت بدون دفاع ؛ فتقدم الجيش الانجليزى ؛ وأحرق

كل ما واجهه ، حتى اضطر فيليب السادس ، مع جيش من الفرسان ، إلى الخروج شمالا لمقابلته . وتحصن الجيش الانجليزى عند كريزى ، ولحقه الجيش الفرنسى يوم ٢٦ أغسطس ، ودخل إلى المعركة دون أن يستريح . وتحطمت هجمات الفرسان أم السهام الانجليزية ؛ وكانت مجزرة . وهزم رجال الاقطاع الفرنسيين تلك الهزيمة التى أدت تحطيمهم . وفر فيليب السادس ، وترك الجيش الانجليزى يطارده حتى أمام كاليه . وبعد عام ، تمكنت فرنسا من تكوين جيش لانقاذ هذه المدينة ، ولكنه لم يصل إلى نتيجة ؛ ذلك أن كاليه سلمت فى ٤ أغسطس سنة ١٣٤٧ . وظهر انتصار ادوارد الثالث حيث وقع على الهدنة فى شهر سبتمبر ، وكان قد حطم هيبة خصمه ، وجعل كاليه مكاناً إنجليزياً ، ونقطة نزول ، ستظل لفترة ثلاثة قرون تثير قلق باريس ، وقلق الملك ، ولكن علينا أن نذكر أنه كان لايزال هناك أمر غزو فرنسا .

وتوفى فيليب السادس سنة ١٣٥٠ . وكان خليفته سريع التقلب ، وفكر فى أشياء كثيرة قبل أن يفكر فى الخطر الانجليزى . ونتيجه لفشل المفاوضات مع الانجليز فى سنة ١٣٥٥ أصبحت الحرب حتمية .

وهذه المرة وصل الغزاة من الجنوب ؛ فترك ولى عهد انجلترا بوردو ، على رأس جيش قوى ، وإتجه صوب الشمال ، وفكر فى أن يلتقى مع دوق لانكستر الذى كان قد نزل فى نورمانديا وفى شهر سبتمبر سنة ١٣٥٦ وصل الأمير الأسود إلى نهر اللوار . وجمع ملك فرنسا جيشاً ضخماً ، وهجم به بسرعة على الجيش الانجليزى ، وهو متحصن . ومرة جديدة هزم رجال الاقطاع الفرنسيون ، للمرة الثانية . ولكن هذه المرة أخذ الانجليز ملك فرنسا أسيراً ، فجاءت الكارثة السياسية لكى تزيد من ثقل الكارثة العسكرية .

وهكذا وجدت فرنسا نفسها بعد معركة بواتييه بدون ملك ، وبدون جيش ؛ وبدون حكومة . ووقعت مسئولية السلطة على شاب له عشرين عاماً ، وهو الأمير

شارل ، الذى لم يكن قد تدرب بعد على شئون الحكم ، وكان منذ وقت طويل فى دوقيته فى نورمانديا ، وكانت أزمة كبيرة للمملكة الفرنسية . وكانت الخزانة خاوية ، والأمن مضطرباً فى البلاد ، والتجارة مهددة . وكانت قيمة الجنيه قد انخفضت من ١٨ إلى ٤ فرنكات ذهب تقريباً ثم سقطت إلى ١٫٧٣ ٪ من الفرنك الذهب ؛ إنه انهيار اقتصادى، كما انتشر الطاعون فى كل الأقاليم المجاورة لميادين المعارك ، وقل عدد الصناع ، وطالب كل من بقى منهم على الحياة بأجور مرتفعة. وجاءت قلة الإنتاج لكى تزيد من حدة البؤس وعدم الامن وانتشار الجرائم ، وسيادة الفوضى . وكانت مجالس طبقات الأمة قد قررت ، قبل المعركة ، وقف المعونات ، وأخذت تطالب بعدها بضرورة إجراء تطهير داخل الحكومة . وعجز الوصى على العرش عن مواجهة الهياج ؛ وحين خرج الملك من الأسر كانت سلطته غير موجودة : فكان البرجوازيون ورجال الشعب فى باريس فى ثورة معلنة ، وكانوا يطالبون بالإستيلاء على أسلحة وخزائن المملكة . وكان غيرهم قد أخذ فى مهاجمة قصور النبلاء وفى الاستيلاء على مافيها ، وخاصة بعد أن انضم الفلاحين إلى الثورة . وكان الانجليز يدخلون باريس ، لولا أن قامت الجماهير بقتل هذه الحركة ، ودعت الملك لدخولها . وساعد ذلك على نشوء شعور قومى فى باريس إمتد منها صوب الأقاليم المحيطة ، خاصة وأن جماعات الإنجليز كانت تهاجم هذا المكان أو ذاك ، الأمر الذى أدى كذلك إلى قيام الفلاحين بعمليات مقاومة محلية ؛ وساعد كل ذلك على ظهور روح وطنى .

وكان الإنجليز قد طالبوا ملك فرنسا بدفع فدية كبيرة ، مع التنازل عن عدد ضخم من المقاطعات . ولكن هذا الاتفاق لم ينفذ . ثم زادت مطالب الإنجليز بعد ذلك ، فطالبوا بأربعة ملايين من الجنيهات الذهبية ، وبنصف مملكة فرنسا ، ولكن الرأى العام الفرنسى كان يفضل الحرب . وفى أكتوبر سنة ١٣٥٩ حضر إداورد الثالث إلى كاليه ، ووصل فى العام التالى إلى قرب شارتر ، وأنقص من

مطالبه بعض الشيء ؛ فتم الاتفاق على ذلك فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٣٦٠ فى معاهدة كاليه . وحصلت بريطانيا بمقتضى هذه المعاهدة على كل شمال غرب فرنسا ، مع كل المنطقة التى كان الانجليز قد احتلوها ، والتى تمتد من بوردو وجبال البرانس إلى الهضبة الوسطى والمحيط، فى شكل كتلة واحدة ، هذا علاوة على كاليه فى الشمال. كما اتفقوا على دفع ثلاثة ملايين جنيه من الذهب ، وعلى تسليم بعض المواقع الحصينة ، واثنين من أبناء ملك فرنسا ، وأخوه ، وسبعة وثلاثين أميراً أو باروناً أو من ممثلى المدن. وهكذا سوت إنجلترا المشكلة لصالحها ، وكانت معاهدة كاليه عبئاً ثقيلا على كاهل فرنسا . وفرضت ضرائب باهظة لجمع الغرامة والفدية . وحتى سنة ١٣٦٤ كان الملك قد عجز عن دفع أقساط الغرامة ، وكان قد مل الحرب ، فعاد إلى إنجلترا سجيناً حيث مات .

وتولى العرش بعد ذلك الملك شارل الخامس ، الذى تميز بحكمته ، وعمل على تخفيف عبء الاحتلال واتساعه ، وكذلك تخفيف عبء الغرامة العسكرية ، وعلى فك أسر العديد من الأسرى . فهدأت العلاقات الفرنسية الانجليزية إلى حد بعيد . وعمل شارل الخامس على النهوض بفرنسا، وعلى تدعيم سلطنة فى المنطقة الباريسية. وعمل على تخليص البلاد من خطر العصابات التى كانت قد ملأت فرنسا أثناء الحرب. كما عمل على إخراج فرنسا من العزلة السياسية التى كانت قد وصلت إليها .

وأصبح كل شيء معداً للحرب ضد إنجلترا من جديد ، خاصة وأن ولى عهد إنجلترا كان يثير الأهالى نتيجة لما كان يفرضه عليهم من ضرائب ، فالتجأوا إلى ملك فرنسا . وتجمع سادة المدن ، نتيجة لدبلوماسية حكيمة ، وجمعوا حولهم عدداً كبيراً من المحتجين . واستند شارل الخامس إلى أنه لم يتنازل عن حقوق السيادة فى الوقت المنصوص عليه فى معاهدة كاليه ، وبحث الأمر أمام البرلمان فى شهر ديسمبر سنة ١٣٦٨ ، ولم يعد أمام الانجليز إلا الحرب .

وجدد الإنجليز نفس التكتيك الذي كانوا قد استخدموه : النزول المفاجيء

فى فرنسا ، والتقدم وتخريب المناطق السهلة ، وإهمال المناطق الحصينة التى كانت ستعوقهم ؛ وحاولوا مقابلة جيش فرنسى أقل منهم عدداً وعدة ، ولكن هذه المرة وجدوا أنفسهم أمام خصم له تجارب ؛ وترك شارل الخامس الانجليز يتقدمون ، واستدرجهم حتى يستنفذ مواردهم . واستمرت هذه الخطة من سنة ١٣٦٩ حتى سنة ١٣٧٣ ، دون أن يتمكن الانجليز من الحصول على نتائج ثابتة .

وفى أثناء ذلك الوقت أخذت القوات الفرنسية تغزو الممتلكات الإنجليزية ، جزءاً بعد جزء ، وتزيد مكاسبها يوماً بعد يوم ، وبشكل أنقص الممتلكات الانجليزية سنة ١٣٨٠ إلى مجرد مناطق بوردو ، وبايون ، أما فى الشمال فلم يبق لهم سوى كاليه . وتم عقد سلسلة من إتفاقيات الهدنة بين الطرفين ، إبتداء من سنة ١٣٧٥ .

ومن هذا المجهود الطويل خرجت المملكة بهيبة متزايدة ، والدليل على ذلك هو زيارة الإمبراطور شارل الرابع لفرنسا سنة ١٣٧٧ - ١٣٧٨ . وتمكن شارل الخامس إلى حد كبير من إعادة بناء قواته المسلحة،وتحالف مع قشتالة،الأمر الذى ساعده على بناء أسطول قوى ، إنتزع من الانجليز سيادتهم البحرية ، وهدد أمن الجزر البريطانية . ولكن ملك فرنسا ظل فى حاجة إلى الأموال ، فاضطر إلى الاستمرار فى جمع الضرائب ، وإن كان يعرض ذلك على مجالس الأعيان . ولكنه إتهم أحد سادة بريتانى بالتحالف مع الانجليز ، فسمح ذلك للانجليز بالحصول على ميناء برست كقاعدة لهم ، علاوة على كاليه وشربورج وبوردو وبايون .

ومن ناحية أخرى نجد أن إنجلترا نفسها قد أنهكت فى تلك الحرب الطويلة، التى كانت تقوم بها خارج بلادها . وكانت الايرادات قد قلت ، وكذلك قيمة العملة ، وإضطر إدوارد إلى عقد القروض . وبعد الاستيلاء على كاليه بدا أن التجارة ستزهر ، ولكن سرعان ما انتشر الطاعون الذى خفض عدد الأهالى . وتزايدت أسعار المعيشة بشكل واضح ، وهجر الأهالى حقولهم ، واضطرب

الإقتصاد الزراعي، كما إضطربت التجارة . وكانت أهم الموارد للخزانة الملكية هي الضريبة التي وافق عليها البرلمان ، على تصدير الصوف ؛ فأنشأ سوقاً واحداً يخضع للإشراف الضرائبي ، وتجمع فيه الضرائب . وترددوا بين جعل هذا السوق في إنجلترا أو في الخارج ، وبعد محاولة فاشلة في بروج أنشىء هذا السوق في كاليه سنة ١٣٦٣ . وتوفي إدوارد الثالث سنة ١٣٧٧ ، وترك التاج لإبن أمير ويلز ، ريتشارد الثاني ؛ وهو الذي سيحكم وسط تعقيدات سياسية ودينية ؛ وصعوبات مالية ، وصدامات بين أطماع أبناء الملك السابق . وهكذا ستكون إنجلترا ، بصراعاتها الداخلية ، عاجزة عن مواصلة الحرب .

٣ ـ الفوضى في فرنسا ووصول لانكستر إلى الحكم في انجلترا :

عادت الحرب التي كانت قد سببت الكثير من الخسائر بين فرنسا وإنجلترا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر مرة جديدة ، في النصف الأول من القرن الخامس عشر . وفي فرنسا ، حاول الملك شارل الخامس أن يعيد تنظيم شئون المملكة ، وبذل في ذلك مجهودات ، إلا أن موته المفاجىء ، ووصول إبنه شارل السادس الضعيف إلى العرش ، كان يعني بداية عصر من الفوضى ، أكثر طولا ، وأشد خطورة من غيره . وفي ذلك الوقت كانت هناك بالنسبة لإنجلترا أسرة جديدة ، هي أسرة لانكستر ، كانت تستعد للوصول إلى العرش ، وتعيد تنفيذ خطط الغزو الأجنبي الذي كان إدوارد الثالث قد بدأها .

وكان شارل الخامس قد حاول أن يضع نظاماً لولاية العرش ، يتلخص في وضع إبنه تحت وصاية أعمامه ، في نفس الوقت الذي توكل فيه السلطة الفعلية إلى أيدي مجلس يتكون من كبار مستشاري المملكة . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ؛ وبعد فترة قصيرة من الوصاية ، أسرع أعمام الملك شارل السادس بإبعاد وزراء العهد السابق ، ثم إقتسموا السلطة فيما بينهم ، وكل لمصلحته الشخصية . وكان أحدهم يهتم بشئون نابلي ، والثاني يهتم بشئون برجنديا ، والثالث يهتم بشئون

الفلاندر . وفى خلال ذلك الوقت ، أهملت شئون مملكة فرنسا نفسها ، و نشبت فيها سلسلة من الحركات الشعبية ، نتيجة للفقر ، والصعوبات الإقتصادية . وأرتفاع الضرائب . وخرجت فيها جموع الأهالى فى باريس نفسها ، وأستولت على مبنى البلدية ، وطردت جامعى الضرائب ، وموظفى الملك ، وفتحت السجون ، ونهبت دار المحفوظات . وشهدت مدن الشمال ، وبخاصة روان ، حركات مماثلة .

وتظاهرت الحكومة فى أول الأمر بأنها قد نفضت أيديها من مشكلات الفلاندر ، حتى تتمكن بعد ذلك من القسوة على الأهالى . ثم أخذت فى إلقاء القبض على الكثير من البرجوازيين ، رغم أنهم كانوا قد عملوا على تهدئة الحركات الشعبية ؛ ثم قامت بإعدام الكثير من بينهم ، وألغت الكثير من حقوق التجار . وحدث ذلك فى باريس ؛ كما حدث فى روان . واضطرت مدن كثيرة إلى دفع فديات ضخمة لإنقاذ نفسها ؛ فقلت حدة فراغ الخزانة الملكية ، ولكن الضغط الذى بذل لجمع الضرائب دفع بالكثير من البرجوازيين لكى يبدأوا فى كراهية النظام الملكى ، بعد أن كانوا من دعائمه الرئيسية .

وبعد أن بلغ شارل السادس سن الرشد ، سنة ١٣٨٨ ، عمل على التخلص من سيطرة أعمامه ، وأعاد مستشارى والده إلى السلطة . وصدرت مراسيم ملكية جديدة فى السنة التالية لتنظيم إدارات الحكومة ، والبرلمان ، وإدارات الضرائب ؛ وكذلك النظام الإدارى العام، ولكن الملك إصطدم بعقبات كثيرة ، وكان ضعيفاً ، وترك المحيطين به يسيرونه ، وأنفق أموالا كثيرة على الإحتفالات . وزاد نفوذ أخيه ، الأصغر عليه ، وكان فى حاجة دائمة إلى المال ، وله مشروعات للتوسع فى إيطاليا سنة ١٣٩١ . وهكذا كانت الحكومة غير مستقرة ، ومضطرة إلى زيادة الضرائب ، ولتغيير قيمة العملة ، فأثارت ضدها الأمراء والعامة .

وساءت مهمة شارل السادس ، وأصابته أزمة جنون أثرت على سلوكه تأثيراً واضحاً ، وجعلته عاجزاً لفترات طويلة عن ممارسة الحكم . ومنذ سنة ١٣٩٢ عاد

أعمامه إلى ممارسة الوصاية عليه ، وتخلصوا من المستشارين الملكيين وعادت إتجاهاتهم الخارجية إلى الظهور من جديد ، وعملوا على تنفيذها على حساب فرنسا . وأدت هذه المشروعات الخارجية إلى منافسات حادة فيما بينهم ، كما حدث بين دوق برجنديا ودوق أورليان بشأن السيطرة على جنوة التى ضموها لهم من سنة ١٣٩٦ إلى سنة ١٤٠٩ . وستزيد خطورة هذه المنافسة فى السنوات التالية ، نتيجة لرغبة كل من الأميرين ، رغم ثرواتهم الطائلة ، وفى الإستيلاء على موارد الخزانة الملكية . وكان هذا الأمر يؤدى بالتالى إلى صراع من أجل السلطة ، ظهر واضحاً فى إتجاه كل مجموعة ، ومحاولتها تسيير المملكة على خط معين ، يتجاوب أو يتعارض مع مصلحة البابوية ، أو مصالح الملوك والأمراء الآخرين . وتمكن دوق برجنديا من قتل دوق أورليان سنة ١٤٠٧ ، ولكن ذلك لم يقضى على العداوات الموجودة بين حزبيهما ، بل أدى على العكس من ذلك إلى نشوب حرب بينهما ، للثأر والإنتقام ، مارسوا فيها الكثير من القسوة والتخريب . وعجز الملك عن التوفيق بينهما ، واستعان كل منهما بالانجليز ، فظهرت المملكة منقسمة على نفسها .

وزاد حنق الطبقات الشعبية ، وبدأ صغار التجار ، ومنهم الجزارين فى باريس ، فى تنظيم أنفسهم . وظهر عدم الرضا عند كبار البورجوازيين ، واجتمعوا فى مجلس طبقات الأمة فى باريس سنة ١٤١٣ ، وطالبوا بإدخال الإصلاحات على الإدارات الملكية . وهبت جماهير باريس من جديد وأحتلت دار البلدية ، وأساءت معاملة كبار الضباط غير الشعبيين . وأصبح الأمراء بلا سلطة ، واضطر دوق برجنديا إلى أن يتجاوب مع أمانى الجماهير ، وأصدر الأوامر بمد الحقوق الإنتخابية ، ولكن هذا التساهل أدى إلى زيادة المطالب ، خاصة وان بعضها جاء من جامعة باريس نفسها . وظل الموقف سيئاً حتى سنة ١٤١٣ ، حيث قام الإنجليز بغزوة جديدة ضد فرنسا .

أما بالنسبة لإنجلترا ، فإنها قد إجتازت ، هي الأخرى ، فترة أزمات داخلية ، إضطرتها إلى التراجع عن أن تتمكن من القيام بهجوم جديد على القارة ، وعند موت الملك إدوارد الثالث سنة ١٣٧٧ إنتقل التاج إلى طفل له من العمر إثنى عشرة سنة ، هو ريتشارد الثانى . وكما حدث فى فرنسا ، قام أعمام الملك ، وعلى رأسهم دوق لانكستر ، بالإستيلاء على السلطة . وكانت ذكرى السنوات الأخيرة قد جعلت لانكستر غير محبوب ، كما أن المجهودات العسكرية الأخيرة كان قد ثبت عدم جدواها . وكان الأسطول قد تحطم ، وأصبحت البلاد بدون وسائل دفاع . كما أصبحت الحالة المالية خطيرة ، الأمر الذى تطلب فرض ضرائب جديدة وقع عبؤها على طبقة الفلاحين ، وكان هذا نذيراً بعاصفة مقبلة .

وكانت حالة الفلاحين فى إنجلترا قد إزدادت سوءاً منذ أواسط القرن الرابع عشر ، نتيجة لإرتفاع أسعار المعيشة ، وتحديد الأجور ، والتشدد فى تطبيق قوانين العمل . مما أدى إلى زيادة الحقد ضد كبار الملاك ، ومنهم رجال الدين ، وكذلك ضد موظفى الحكومة والقضاة ، الذين كانوا يؤيدون دائماً مصالح الطبقات المالكة ، وكذلك ضد التجار الأجانب الذين أزدهرت تجارتهم ، وبالطبع ضد الحكومة التى عجزت عن إنقاذ الضعفاء . وأدى ذلك إلى قيام حركات مفاجئة ، من الفلاحين ، هاجموا فيها المدن ، وقتلوا عدداً من التجار الأجانب ، كما هاجموا بعض قصور الأمراء ، وقصور بعض الوزراء . وأخذ الملك موقفاً متشدداً ضد الثوار ، ثم قام النبلاء بتعقبهم ، بمنتهى الشدة . وكانت ثورة سنة ١٣٨١ أشد عنفاً من أى ثورة وقعت فى فرنسا وفى الفلاندر فى ذلك الوقت .

وأظهر دوق لانكستر عزوفاً عن السياسة الداخلية ، وفى ذلك الوقت الذى أظهر فيه الملك ريتشارد الثانى إستقلالا ، وجمع حوله الكثير من المستشارين الذين سيطروا عليه بدورهم . وتجمع الأمراء والنبلاء حول أحد أعمام الملك ، وهو دوق جلوسيستر وسيطروا على البرلمان منذ سنة ١٣٨٥ . وظهر أن ريتشارد

الثانى يرغب فى الاستمرار فى مقاومة البرلمان ، فاتخذ قرارات هامة ضد أعوانه ومستشاريه سنة ١٣٨٨؛ منها أحكام بالإعدام والأخرى بالنفى، وأظهر ريتشارد الثانى رغبته فى أن يحكم بنفسه ، ويتخلص من المحيطين به ،ولكنه عمل سراً على إعادة تجميعهم حوله من جديد. ولكى يسيطر الملك على الداخل ، حاول أن يحصل على السلم فى الخارج ، وخاصة مع فرنسا ؛ واستعان فى ذلك بدوق لانكستر . وفى شهر أكتوبر سنة ١٣٩٦ ذهب ريتشارد الثانى إلى فرنسا وتزوج إبنة شارل السادس ، وعقد معه هدنة لمدة ثلاثين عاماً . وكان ريتشارد قد حصل على إعلان رؤساء الثورة الايرلنديين الخضوع له ، فرفع النقاب عن مخططاته . وإدعى وجود مؤامرة ، وقدم بعض الأمراء للمحاكمة أمام البرلمان ، وحرمهم من حق إستئناف الحكم . ووزع الألقاب ومناطق النفوذ على أعضاء حاشيته ، ولكنه كان فى حاجة إلى الضرائب التى تجمع من المدن وسرعان ماتجمع الأمراء غير الراضين عنه ضده ؛ وحيث وجد إبن دوق لانكستر أنه مهدد فى شخصه وفى أملاكه ، فر إلى شمال فرنسا ، وانتهز فرصة وجود ريتشارد الثانى فى أيرلندا ، وعاد إلى انجلترا على رأس قوة صغيرة ، تمكن بها من هزيمة أعوان ريتشارد ؛ ثم أسره حين عاد بسرعة من أيرلندا ، وأجبره فى شهر سبتمبر سنة ١٣٩٩ على التنازل عن الملك ؛ وفى انتظار التخلص منه قتلا بعد بضعة أشهر ، توج نفسه ملكا على إنجلترا ، باسم هنرى الرابع ، وحصل من البرلمان على اعتراف بذلك .

كان هنرى الرابع عملياً وحكيما ، وعمل ببطء ، خاصة وأنه كان يرغب فى تغيير سياسة سلفه . وأظهر أنه فى صف رجال الدين وأنه يعمل ضد السياسة الموالية لفرنسا ، والتى كان ريتشارد قد سار عليها ، ومع ذلك فقد احتفظ بالهدنة مع فرنسا ، إذ كان عليه أن يقوم بالكثير فى انجلترا نفسها ، من أجل تدعيم سلطته قبل أن يواجه فرنسا من جديد .

ولقد حاول بعض أنصار ريتشارد الثانى القيام بثورة ضده ، ولكنه قضى

عليهم بكل عنف . وكانت الحرب قد نشبت من جديد مع إسكتلندا ، ولكن حظ هنرى الرابع خدمة حين تمكن من أسر ملكها الشاب جاك الثالث ، وإحتفظ به رهينة . وشغلت هذه المشكلات العشر سنوات الأولى من القرن الخامس عشر . وفى خلال هذه المدة تأكدت شخصية ولى العهد . الذى سيضطر أمام مرض والده سنة ١٤١١ ، إلى أن يطلب إليه أن يتنازل له عن العرش . وسيعطى دفعة قوية للسياسة الخارجية ، ويستعد للقيام بحملة عسكرية جديدة . وحين يموت هنرى الرابع ١٤٠٣ ، سيكون من الواضح أن ابنه سيقوم بسياسة غزو على القارة .

٤ - الغزو الانجليزى ورد الفعل الفرنسى :

وبمجرد إعتلاء هنرى الخامس عرش إنجلترا ، عمل على القضاء على الثورات المحلية ، واستعان بأخويه دوق بدفورد ، ودوق جلوسيستر ، فى تيسير أمور المملكة ؛ وإستعد للقيام بهجوم على فرنسا .

وكانت أحوال فرنسا فى غاية السوء ، وواصل هنرى الخامس حملة دبلوماسية قوية ضد حكومة باريس ، وأرسل سفارة تطالب شارل السادس بالتنازل عن عرش فرنسا ، كما طالب بالتزوج بابنة ملك فرنسا ، حتى يحصل على بائنة تتمثل فى عدد من المقاطعات الفرنسية . وكان هذا يدل على سعيه إلى قطيعة مع فرنسا . وحصل على الميزانية اللازمة من البرلمان فى خريف سنة ١٤١٤ ، وأخذ فى إعداد حملة ضد فرنسا فى الصيف التالى . وأسند إلى أخويه أمر نيابته فى غيابه ، وأعد أسطولا حربياً قوياً ، كما أعد أدوات الحصار والتموين ، وجمع القوات فى الموانى الجنوبية لإنجلترا . ورغم أن ملك فرنسا إقترح تقديم بعض التنازلات ، إلا أن هنرى الخامس رفضها . وفى يوم ١٣ أغسطس نزل مايزيد على ١٢٫٠٠٠ جندى عند مصب نهر السين ، وواصلوا عملياتهم بطريقة تشبه عمليات جيش إدوارد الثالث سنة ١٣٤٦ . وحاول جيش الإقطاعيين الفرنسيين أن يتجمع ويفيد من الدروس السابقة مع الانجليز . ولكن ٥٠٫٠٠٠ جندى فرنسى ،

يحملون الأسلحة الثقيلة ، تجمعوا على إحدى الهضاب ، دون أن تساعدهم طبيعة الأرض على الحركة ، فقضى عليهم بأسهم الانجليز ، فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٤١٥ . وكان هناك من بين السبعة آلاف قتيل الكثير من الأمراء والنبلاء . وبعد هذا الانتصار عاد هنرى إلى كاليه ومنها إلى إنجلترا .

وعاش شارل السادس فى عزلة ، وسط الحزن الذى ساد المملكة ، وإضطر فى العام التالى إلى أن يتفق علانية مع هنرى ، الذى اعترف به ملكاً على فرنسا .

ولكن هنرى الخامس عاد من جديد إلى شمال فرنسا فى شهر أغسطس سنة ١٤١٤ وبدأ فى القيام بعملية غزو منظمة فى أقاليم نورماندیا ، واستولى على روان بعد حصار طويل ومقاومة شديدة ، وأجبرها على دفع فدية ضخمة . وحلت الادارة الانجليزية هناك محل الادارة الفرنسية ، الأمر الذى ساعد بعض الأمراء المجاورين فى بريتانى ، على عقد الصلح مع الإنجليز .

وفى نفس الوقت الذى قام الانجليز فيه بالهجوم واجهت مملكة فرنسا هجوماً آخر من دوق برجنديا ، وبعد قتل دوق برجنديا عمل ابنه على الانتقام ، واتصل بالانجليز . ووافق هنرى الخامس على أن يقوم دوق برجنديا الجديد بحكم بعض أقاليم فرنسا . وفى ٢١ مايو سنة ١٤٢٠ تم التوقيع على معاهدة تروا ، بين شارل السادس ، وهنرى الخامس ، وكانت المعاهدة قاسية ، وأظهرت ضعف المملكة الفرنسية . وأعطى يد ابنته زوجة لملك إنجلترا ، وحرم ابنه من حق وراثة العرش فى صالح هنرى الذى سيدير بالفعل ، وباشتراك مع دوق برجنديا ، حكومة مملكة فرنسا ، ويحمل لقب وريث ملك فرنسا . وكان هذا يعنى إتحاد انجلترا وفرنسا تحت صولجان أسرة لانكستر ، بعد موت ملك فرنسا ، أى يعنى نهاية حكم الأسرة المالكة الفرنسية ، ويعنى بالتالى نهاية الاستقلال .

وسرعان ماسار هنرى فى شوارع باريس ، وحصل على إعتراف بوضعيته من مجلس طبقات الأمة ، ثم أخذ فى الاستعداد لغزو مملكته المقبلة ولكنه سرعان

ما مرض وتوفى فى ٣١ أغسطس سنة ١٤٢٤ ، وذلك قبل بضعة أسابيع من وفاة شارل السادس ملك فرنسا فى ٢١ أكتوبر .

وكان من الطبيعى أن يعود عرش فرنسا ، طبقاً لمعاهدة تروا ، لهنرى السادس ، ملك انجلترا . وكان طفلا صغيراً ؛ وقام عمه بالوصاية عليه ؛ ولم يكن فى وسع الوصى أن يصرف أمور فرنسا كذلك ، خاصة وأن القوات الانجليزية لم تكن قد غزتها كلها .

وكانت الادارة الانجليزية موجودة فى شمال فرنسا ، وتستند هناك إلى حماية منظمة ، وعملت على الاحتفاظ برهائن من الأهالى حتى تضمن خضوع المنطقة . أما بقية المناطق ، فكان الضباط الانجليز يحكمونها ، دون أن يدخلوا فيها نظام الحكم الانجليزى ؛ ويحافظون فيها على نظم الضرائب السابقة . ولكنه كان من الصعب الاستمرار فى هذه الحالة ، خاصة وأن الأهالى كانوا يعيشون فى فقر ، وزادت مصائب الحرب ، ومرور القوات ، وحصار المدن ، وشراهية بعض الانجليز ، من الأحوال سوءاً . وكان الأهالى غير راضين عن الاحتلال الانجليزى ، فلم يكن فى وسع الانجليز جمع مجالس طبقات الأمة ، أو البرلمانات ، لتقرير دفع الضرائب . ولم يكن فى وسع الانجليز أن يحصلوا على إمدادات لهم حتى من انجلترا ، التى كانت أحوالها هى الأخرى سيئة . وأصبح على الوصى الانجليزى أن يواجه موقفاً صعباً .

ولم تكن سلطة دوق برجنديا تمتد إلى الكثير من مناطق فرنسا ، وظلت مقاطعات كثيرة موالية لولى العهد السابق ؛ وامتد تعاطف الأهالى معه حتى إلى داخل المناطق التى كانت خاضعة لحكم الانجليز . وكان أهالى باريس ، رغم ميلهم إلى دوق برجنديا ، قد أخذوا فى التعاطف مع ولى العهد السابق ، نتيجة لزيادة وضوح طغيان الوصى على العرش الانجليزى ؛ كما أن جماهير الشعب ، ورجال الدين ، ضاقوا ذرعاً بنظام جمع الضرائب الذى أثقل المحتل وأعوانه كواهلهم به ،

وأخذ الأهالى يحبون فرنسي نورماندياً الذين كانوا يقاومون الاحتلال الانجليزى . وأصبح لولى العهد (الفرنسى) أعوان فى كل مكان ، فى مناطق الانجليز ، وفى مناطق دوق برجانديا ، كانوا مستعدين للعمل من أجله .

ولكن ولى العهد كان ضعيفاً ، حتى بعد أن توج نفسه ملكاً على فرنسا باسم شارل السابع فى سنة ١٤٢٢ ، وكان ينتقل من مدينة إلى مدينة ، ومن قصر إلى قصر ، وبخاصة فى وادى نهر اللوار ، وكان يمقت الحرب وكانت سياسته قاصرة ، وكان شاباً له من العمر تسعة عشر عاما ، كما أن مجهوداته العسكرية كانت ضعيفة وبدون نتيجة ، وهزمت قواته أكثر من مرة أمام القوات الانجليزية . واستمرت الحرب ، وكانت عملية محاصرة مدينة أورليان لفترة طويلة ، هى التى عملت على تجميع العناصر غير الراضية ، وعلى زيادة الحماس الشعبى ، وقلقلة السيطرة الانجليزية .

وكانت لمدينة أورليان أسوار حصينة ، سمحت لها بمواجهة حصار طويل . وحاصرها الانجليز ، وبنوا حولها القلاع ، وعجزت محاولات الملك لإنقاذها . وفى هذا الوقت ظهرت فتاة من الفلاحين ، كانت نشطة وذكية ، وكرست كل مجهودها من أجل الملك ، وتمكنت من قلب الأوضاع تماماً ، وهى جان دارك . وكانت قد ولدت وعاشت فى منطقة مخلصة للملك ، وبين أحداث الحرب . وذكرت أنها سمعت بعض الأصوات ، ورأت بعض الرؤيا التى ذكرت لها أن الله قد اختارها لإجلاس ولى العهد على عرش أجداده . وتعرف عليها بعض الضباط ، وأرسلوها فى حراسة إلى ولى العهد الذى استجوبها ، ثم جمعت حولها بعض الضباط ، وسارت على رأس هذه القوة الصغيرة صوب أورلياو وهاجمتها ، وأعادت الثقة إلى نفوس الأهالى ، وأجبرت الانجليز على رفع الحصار فى ٨ مايو سنة ١٤٢٩ . وكان التأثير المعنوى لهذا الحدث كبيراً وأثار الحماس الشعبى ، وألقى الرعب فى قلوب الانجليز . وتمكنت جان دارك ، فى عدة معارك ، من تخليص

مدن نهر اللوار ، ومن أسر الكثير من الانجليز . واقنعت ولى العهد بضرورة المجيء معها إلى ريمس ، وسارت على رأس ١٢٠٠٠ مقاتل ، ودخلت هذه المدينة يوم ١٦ يوليو ، وتم تتويجه هناك ملك على فرنسا .

وانضمت كثير من مدن الشمال للملك ؛ ولكنه عاد إلى خموله ، وترك جان دارك تعمل ، دون أن يؤيدها . وحاولت أن تهجم على باريس، ولكنها جرحت، وإضطرت إلى الإنسحاب . وخرجت فى حملة أخرى بعد ذلك ، لكنها وقعت أسيرة سنة ١٤٢٠ فى أيدى الانجليز ، ولم يقم شارل السابع بأى مجهود من أجل تخليصها ، أو من أجل منع الانجليز من أخذها إلى روان ، ومحاكمتها ، أمام أحد الأساقفة من أعوانهم . وكانت مهزلة فى شكلها ، ومأساة فى صميمها . وبعد تعذيب وسجن طويل ، إحتفظت جان دارك بوقارها وثبات إيمانها . وحكموا عليها بالإعدام ، حرقاً ، وعلى أنها من الهراطقة ؟ !

وأعطت جان دارك كشهيدة وطنية ، الكثير لملك فرنسا ، ، حتى أن تتويج هنرى السادس فى باريس سنة ١٤٣١ قد جاء بدون معنى . ولكن شارل السابع كان عاجزاً عن القيام بأى مجهود أصيل ، وإن كانت عصابات كثيرة من الفرنسيين ظلت تحارب الانجليز ، هنا وهناك .

وطلب الانجليز عقد الصلح ، الأمر الذى تم فى سنة ١٤٣٥ بمعاهدة أراس ، التى محت الكثير من شروط معاهدة تروا ، وأصبح فى وسع شارل السابع الآن ، بالإستناد إلى قوة برجنايا ، التقدم لإكمال تحرير بلاده . وأخذ أهالى المدن يطردون الانجليز ، وأعاد الانجليز احتلالها ؛ وتطلب الأمر العودة إلى عقد هدنة جديدة بين الدولتين سنة ١٤٤١ ، إعترفت من جديد بحقوق لها على نورمنديا . ولم يكن ضعف شارل السابع هو المسئول الأول عن طول فترة هذه الحرب ، فى هذا الدور من أدوارها ؛ بل كانت هناك ، قبل كل شيء ، الحالة السيئة التى عاشتها فرنسا ، التى إستهلكتها الحرب . وكان القيام بمجهود عسكرى كبير يعنى الحاجة

إلى إمكانيات مادية ضخمة ، لم يكن فى وسع الأهالى ، الذين كانوا قد خضعوا لضغط كل من الملك والأعداء ، أن يقدموها . وكان الأهالى قد استنفدوا ، فى حالات كثيرة ، إلى مواردهم ، من أجل الدفاع عن أنفسهم . ولم تكن هناك جيوش نظامية ، ولا قادة ؛ بل مرتزقة ، ولا يحصلون على مخصصاتهم بانتظام ؛ فكانوا يعيشون على المناطق التى يعملون فيها ، وتحولوا إلى عصابات ، تعيش من النهب والسلب ، ولعدة سنوات . وكان كل ذلك يؤدى إلى خراب البلاد .

ولقد أثرت حرب المائة عام كذلك على انجلترا ، رغم أن عملياتها العسكرية كانت تقع على القارة . وتم فى سنة ١٤٤٤ عقد هدنة جديدة بين فرنسا وانجلترا وتزوجت الأميرة مرجريت ، ابنه رينيه ملك أنجو ، أخو ملك فرنسا شارل السابع ، ملك انجلترا ؛ الأمر الذى زاد من سلطة ونفوذ ملك فرنسا ، فى بلاط ملك انجلترا ؛ ومهد للتخلص من نفوذ دوق جلوسستر سنة ١٤٤٧ . وعادت الحرب من جديد بين الطرفين ، سنة ١٤٤٩ ، وانتهز ملك فرنسا هذه الفرصة لكى يكمل تحرير نورمانديا من الانجليز ، فى أقل من عام . وكانت الحاميات الانجليزية فى أحوال سيئة ، نتيجة لنقص الإمداد والتموين .

وثم واصل شارل السابع تحرير بلاده فى منطقة بوردو ، وإن كان الأهالى قد تعودوا التعامل مع الانجليز ، وارتبطت مصالحهم بهم ، وبشكل جعلهم ينظرون إلى مجيء ضباط ملك فرنسا ، وحرصهم على جمع الضرائب ، نظرة العداء . وصعب ذلك من أمر سيطرة الملك على منطقة بوردو ، لبعض الوقت ، وحتى سنة ١٤٥٣ . وفى هذه السنة ، كان الانجليز قد جلوا عن كل الأراضى الفرنسية ، ما عدا كالية . وتم فى سنة ١٤٥٦ إعادة إعتبار جان دارك رسمياً ، من كل ما كانت قد إتهمت به ، وبعد خمس وعشرين سنة ، إعترف بها بطلة ، وشهيدة .

ولكن إذا كانت الوحدة الوطنية قد سارت طبقاً لمصلحة أسرة فالوا، فقد كان على هذه الأسرة أن تحسب حساباً للأرستقراطية القوية ، التى ظهر منها بعض أسر

إقطاعية : فكانت هناك أسرة برجنديا ، وأسرة البوربون ، وأسرة رينيه ملك آنجو . وكان كل هؤلاء السادة قد حطمتهم الحرب الطويلة ، وأصبحوا يمثلون مجموعات من العناصر غير الراضية . وكانت أخطر هذه المجموعات هى مجموعة برجنديا .

* * *

وكانت حرب المائة عام قد ساعدت نمو أسرة قوية فى شمال شرق فرنسا ، سيكون لها دور كبير فى تاريخ أوربا ، وهى أسرة برجنديا ، التى أخذت إسمها من الأقليم الذى كان لها فى فرنسا .

وكانت هذه الأسرة تحكم الأراضى المنخفضة ، والتى تمثلها الآن هولندا وبلجيكا ، منذ القرن التاسع الميلادى . وفى خلال القرن الثالث عشر ، ظهرت أهمية المنطقة التى كانت تحكمها هذه الأسرة ، لأسباب إقتصادية ، نتيجة لكثافة سكانها ، ومهارتهم فى الحرف ، ونتيجة كذلك لإمكانية تحالفهم مع انجلترا ، الأمر الذى كان يعرض مصالح فرنسا للخطر . وعملت فرنسا على زيادة نفوذها فى هذه المنطقة ، الأمر الذى كان يدفع دوق برجنديا إلى التحالف مع ملوك انجلترا ، والتقرب إلى ملوك ألمانيا وأمرائها . وفى سنة ١٣٦٩ تمكن ملك فرنسا شارل الخامس من تزويج أخيه فيليب ، من إبنه أمير برجنديا ، وأصبح فيليب بالتالى هو دوق برجنديا . وأضاف أملاكاً ومناطق نفوذ كبيرة إلى سيطرته ، وهو أخ لملك فرنسا ، وخاضع له ؛ كما كان ملك انجلترا نفسه خاضع أو تابع لملك فرنسا .

ولكن ، بدلا من أن يزيد نفوذ شارل الخامس فى الشمال ، عمل أخوه دوق برجنديا على نقل فرع أسرته إلى الشمال وعمل على تثبيت دعائم حكمه هناك ، وعلى حساب فرنسا . وزوج إبنته بأخى الإمبراطور شارل الرابع ، وزاد بذلك من سلطة أسرة لوكسمبورج ؛ ودعم سلطته بسلطة أمراء لوكسمبورج وبافاريا ،

الأمر الذى زاد من نفوذ الألمان فى ممتلكات دوق برجنديا . وفى أثناء القرن الخامس عشر ، دخلت أسرة برجنديا ذلك الصراع الذى عاد إلى الإشغال من جديد بين فرنسا وانجلترا ، بعد أن زادت أملاكها فى كل غرب أوربا .

وكان قتل دوق أورليان ، ثم كان قتل دوق برجنديا . قد دفع بهذه الأسرة الأخيرة إلى اتهام ملك فرنسا ، وإلى التحالف مع الانجليز . وهذا ما يفسر قسوة فيليب الطيب ، وابن فيليب القوى ، دوق برجنديا ، فى محاربته للفرنسيين ، ومع الانجليز ؛ علاوة على وجود الأطماع السياسية ، ووضع قواته تحت تصرف الانجليز .

ولقد توسعت أسرة برجنديا ، وبشكل جعل منها أحد أسس التوازن فى غرب أوربا ، وأنشأت دولة جديدة بين فرنسا وألمانيا ، كان دوقها يمارس عليها سيادة فعلية وإن كانت تخضع قانونا للتاج الفرنسى غرب نهر الاسكوت ، وللتاج الألمانى شرق ذلك النهر . ورغم ذلك فان خضوعها لجيرانها كان خضوعاً إسمياً .

وبعد نهاية حرب المائة عام ، لم يقم ملك فرنسا بمعاملة دوق برجنديا إلا معاملة تابع كبير ، ولكنه لم يذكر حقوقه عليه إلا بنفس الطريقة التى كان يذكر بها حقوقه على ملك انجلترا ، فى الماضى ؛ وكان هذا يعطى لوناً معيناً لسياسة ملك فرنسا حياله . وكانت قوة دوقية برجنديا تمثل خطراً دائماً بالنسبة لفرنسا ، فكانت باريس قريبة من ممتلكاتها . وفى سنة ١٤٥٤ اقترح دوق برجنديا على البابا أن يقوم بقيادة حملة صليبية ضد الاتراك .

واستمر ملوك فرنسا ينظرون إلى أمراء برجنديا على أنهم فرع ثانوى من أسرة فالوا ، وحاولوا التقليل من أهميتهم ، بدلا من الإستناد إليهم . وأدى هذا الأمر إلى نشوب مؤامرات ، وصراع بين الاسرتين . ولم تعد الحقوق الإقطاعية كافية

لاستمرار الصراع بين الأسرتين ، بل كان الأمر يتطلب إستخدام السياسة . ولم يعد فى وسع برلمان باريس توجيه إتهام لدوق برجنديا ، بل أصبح الأمر يعنى دوقا له ممتلكات واسعة ، وأهالى ، ومصالح : إنها الأراضى المخفضة ، بكل ما تمثله ، بالنسبة لأوربا ؛ أما الدوق فإنه أصبح يحمل لقب مؤسس بلجيكا ، التى ستحاول فرنسا إحتلالها ، ولكن التوازن الأوربى سيظل مرتبطاً بها ، عبر قرون .

الباب الثاني

التغـيرات العميقـة

الفصل الرابع

التغيرات الاقتصادية والاجتماعية

لقد تعرضت أحوال أوربا لتغيرات عميقة ، إبتداء من نهاية القرن الثالث عشر ؛ وظهر ذلك بوضوح ، فى الأحوال الإقتصادية الأمر الذى أدى إلى تغيير ؛ بالتالى ، فى حالة المجتمع . ولقد شهدت أوربا المنافسات بين مراكز الإنتاج الصناعى ، كما شهدت حركات اجتماعية فى المدن . أما فى الريف ، فقد تطورت الأحوال إلى أن وصلت إلى حد تفكك اطارات حياة الريف ، ونشوب ثورات الفلاحين . وكانت هذه تغيرات عميقة ، لها نتائجها .

١ - الاوضاع الاقتصادية :

لا يمكننا سوى أن نعطى الخطوط العامة العريضة للأوضاع الاقتصادية فى أوربا الغربية عند نهاية القرن الثالث عشر . ويبدو أن تزايد السكان بطيئاً ؛ ويظهر ذلك من دراسة خطوط آثار المدن . كما أن عملية توسيع رقعة الأراضى الزراعية على حساب قطع أشجار الغابات ، وردم المستنقعات ، قد سار ببطء كذلك ، وتوقفت عملية توسع الألمان على سواحل بحر البلطيق ، وفى مناطق السلاف .

ولا يمكننا أن نحاول تقسيم الأهالى بين الريف والمدن ، وإن كان من المؤكد أن عدد سكان الريف كان يزيد بكثير عن سكان المدن ومهما كانت المدن مزدهرة ، فإن حضارة أوربا فى ذلك الوقت كان يغلب عليها الطابع الزراعى . وحتى فى مناطق الحياة فى البلديات ، فى الأراضى المنخفضة وفى شمال إيطاليا ، فإن التجارة والحرف كانت تشغل عدداً من الأهالى يقل بكثير عن ذلك العدد الذى كان يعمل

فى الزراعة . وتزايدت هذه الظاهرة وضوحاً كلما ابتعدنا عن السواحل ، وعن وديان الأنهار . وكانت هذه الظاهرة مسيطرة فى وسط فرنسا وانجلترا وألمانيا، دون أن نتحدث عن شبه الجزيرة الاسبانية ومناطق سكنى السلاف ، حيث كانت هذه الظاهرة تمثل الأغلبية المطلقة للسكان .وكانت الطبقات ذات النفوذ المسيطر، وهما رجال الدين والنبلاء، تحافظ على نفوذها ،مستندة إلى ملكيتها للارض ،وكان من الواضح أن أساس التنظيم المالى للدول كان يقوم على موارد الملكيات الزراعية.

وإذا كان عدد البورجوازية أقل ، إلا أن عملها كان مؤثراً فى كل النظام الاقتصادى . وكان إنشاء المدن قد غير ظروف حياة الطبقات الفلاحية جذريا . فكان سكان المدن يعتمدون عليها فى الحصول على موادهم الغذائية ، وكانت هذه الطبقات تمثل سوقا دائماً لتوزيع منتجات المدن : وأختفى الانتاج المنزلى ، الذى كان يهدف سد حاجيات السادة وأتباعهم ، وحل محله اقتصاد يقوم على التبادل ، نتيجة لحاجة المدن إلى تزويدها بالمواد الغذائية . وتبدل النظام المحدد القائم منذ قرون على توزيع المحصول وعلى الرق الوراثى فى أشكال المختلفة ، وحل محله فى أثناء القرن الثالث عشر نظاماً أكثر مرونة وأكثر إنتاجية . ومع توسع المدن ، تغيرت أحوال المعيشة فى الريف ، وزاد تأثير حياة المدن على حياة أهل الريف . وظهر ذلك بوضوح فى الأراضى المنخفضة ،كما بدا تحرر الفلاحين فى الفلاندر . وكلما إزداد نمو المدن فى دخل البلاد كلما زاد تحرر الفلاحين ، وزاد إستصلاح الأراضى غير المنتجة . وتنافس كل من رجال الكنيسة ، والسادة من العلمانيين ، فى انشاء مدن حديثة ، وفى استصلاح أراضى المستنقعات . وظهر نظام جديد بين المزارعين يقوم على أساس الحرية الفردية. وقل اعتماد الفلاح على السيد فى المناطق القريبة من المدن .

وكان هذا التحول فى حياة الفلاحين قد تم عند نهاية القرن الثالث عشر أو كان على وشك التمام فى كل أوربا. وانتشر ذلك بسرعة ، حسب أعداد المدن وأهميتها،

ومن الغرب إلى الشرق . ولا شك فى أن بعض صيغ وملامح الماضى ظلت باقية فى مناطق السلاف ؛ ولكن التحول فرض على المجموع . ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن الأقلية البورجوازية قد قررت مصير الأغلبية ، وهى من الفلاحين، وذلك نتيجة لإعتمادها عليهم فى الحصول على المواد الغذائية ، وفى تسويق سلعها لديهم . وبالتالى فإن اقتصاد المدن حطم أساس الانتاج المنزلى ، وفتح أبوابا جديدة للانتاج الزراعى . وغير الظروف الاجتماعية والقانونية للطبقات الفلاحية .

وإذا كانت المدن يستهلك منتجات الريف ، فان الريف كان سوقا فى نفس الوقت لصناعات المدن . ونتج عن ذلك تخصص فى العمل فيما بينهما فى أثناء القرن الثالث عشر . وأصبح الفلاح الذى يزود المدن بالمواد الغذائية ، يحصل منها على الأوانى والملابس ، وأثاثاته التى كان يجرأ على صنعها لنفسه فى الماضى . واختفت المعامل والورش التى كان بعض السادة وكبار الملاك قد أقاموها فى أحواش مساكنهم ، ولم تعد موجودة إلا فى مناطق السلاف ، فى الشرق . وبالاختصار أختفت ظاهرة الانتاج الحرفى الريف . وتركزت هذا الانتاج فى المدن وأصبح حكراً على رجال البورجوازية . وأصبحت هذه البورجوازية ، مع نهاية القرن الثالث عشر ، تمنع ممارسة الصناعة فى الريف إلا إذا كانت تحت إشرافها ، كما حدث فى مصانع غزل الصوف قرب المدن ، والتى عمل فيها الفلاحون ، بمواد أولية يقدمها لهم أصحاب هذه الصناعة فى المدن ، وبأجور يحددونها لهم كذلك .

ووصل اقتصاد المدن ، الذى بدا منذ القرن الحادى عشر ، إلى عصر إزدهاره ، عند نهاية القرن الثالث عشر . ولن تبدل التعديلات التى مر بها خلال الإصطدامات الاجتماعية التى وقعت أثناء القرن الرابع عشر كثيراً من مبادئه الرئيسية . وكانت الروح المحركة له منظمة تماماً ، وتعطيه شكلا يغرى البعض على أن يسميه « باشتراكية البلديات » . وكانت النقابات الحرفية اجبارية ، يدخل فيها كل العاملين . وكانت ممارسة أيه مهنة تتطلب الدخول فى الحرفة التى تحتكرها ، وكان

الدافع الفردى بسيطاً داخل كل حرفة . وكان الهدف الأساسى هو الاحتفاظ بين أعضاء النقابة على مساواة تمنع أحد الأفراد من الإثراء على حساب الآخرين . وكان هذا هو أساس كل القرارات العديدة ، الخاصة بطريقة الصناعة وتحديد ساعات العمل ، والتى كانت تنظم عمليات البيع والشراء ، وتقرر الأسعار ، وتمنع الدعاية وكل أنواع المنافسة . وكانت هذه النظم تهدف كذلك ضمان جودة الصنف ، وفى صالح المستهلكين ؛ الأمر الذى تطلب التفتيش على السلع وعلى المواد الخام . ولكى يحاربوا ارتفاع الأسعار ، حاولوا التخلص من الوسطاء ؛ مسهلين بذلك عملية التبادل المباشر بين المنتج والمستهلك . وكانت هذه النظم تطبق على كل المستويات ، ومن الأسواق الكبيرة حتى أصغر حوانيت الصناع ؛ وطبقت كذلك على تجارة المواد الغذائية . وكان هذا النظام يعنى الحماية ، وعدم السماح بالمنافسين الأجانب ؛ وأصبح الانتساب للبورجوازية هو السبيل الوحيد الوصول إلى حرية النشاط الاقتصادى فى المدينة . وسرى العمل بهذا النظام فى كل مدن أوربا الغربية . وكان يطبق على حرف وتجارة المدن مع ضواحيها .

أما الإنتاج الصناعى الكبير ، والذى كان يهدف التصدير ، فإنه كان لا يخضع لهذا النظام . وبدلا من قيامه على عشرات من الصناع ، كان يعتمد على المئات ، ويتخصص فى صناعات معينة ، ويخضع لتقلبات ولأزمات التجارة ، وبالتالى لرأس المال . وكان معظم عماله من الأجراء ، ويورد لهم الرأسماليون المواد الخام ، ويستلمون منهم السلع المصنعة . وكان العمال ينتظمون كذلك داخل نقابات ، ولكنها كانت أقل حرية وأكثر خضوعاً لرأس المال وللرأسماليين . وكان العامل هنا لا يتصل بالمستهلك ، ولا يمكن عقد مقارنة بينه وبين صاحب رأس المال ؛ وكان هذا القطاع هو الذى شهد البذور الأولى للإضرابات التى بدأت مع منتصف القرن الثالث عشر ، وأدت إلى اضطرابات اجتماعية .

وكانت التجارة الكبيرة التى تزود الصناعة بالمواد الأولية ، وتنقل المنتجات ،

وتهتم بنقل بعض المواد الغذائية والادوات الكمالية ، مزدهرة بشكل خاص فى حوض البحر المتوسط . وكانت تتركز بنوع خاص فى جنوا والبندقية . وكانت المنافسة الشديدة بينها لا تمنعها من تنمية المراكز التجارية التابعة لكل منها فى شرق البحر المتوسط . وكانت الملاحة هى وسيلة الغرب للتزود بسلع ومنتجات الشرق ، التى ازدادت أهميتها باستمرار فى حياة شعوب الغرب . وشاركت كل من برشلونه ومارسيليا إلى جانبها فى هذه التجارة المربحة .

وكانت هناك تجارة رابحة كذلك بين موانى بحر الشمال وموانى بحر البلطيق . ولكن الصلات البحرية كانت ضعيفة بين تجارة البحر المتوسط وتجارة بحر الشمال. ولذلك فإن الأسواق الدولية إنتشرت فى غرب أوربا بين منطقة الفلاندر وبين إيطاليا . كان التجار يتقابلون فى هذه الاسواق ويتبادلون ويشترون ويدفعون . وشهدت هذه الاسواق عمليات الشراء بالأجل ، ومع تحميل الأسعار بعض الأرباح مع التعاقد عليها بصكوك بين البائع والمشترى .

وزادت العمليات التجارية من الاهتمام بالفضة والعملات . وكان اليهود يشاركون فيها . وكانت عملياتهم تغطى فى غالبيتها قروضاً لمواد استهلاكية ؛ فأصبحوا ضروريين ومبغضين فى نفس الوقت ، وهذا ما يفسر لنا طرد كثير من أمراء وملوك أوربا لهم فى بعض الفترات ، وتحملهم ومنحهم الحماية فى فترات أخرى . وكانت السلف التجارية موجودة ، ولكنها ازدهرت منذ القرن الثالث عشر ، ونمت فى إيطاليا ، التى تميزت بوجود رؤوس أموال ضخمة ، ثم انتشر منها نشاط أصحاب رؤوس الأموال الايطاليين ، نتيجة تطور نظامهم وسهولته، إلى معظم أنحاء أوربا الغربية .

٣ ـ حالة المجتمع :

بدأت الشروخ تظهر فى هذا المجتمع الأوربى ، الذى كان قد ظل بلا تغيير لمدة قرون عديدة . ولم يظهر التطور فى كل مكان فى نفس الوقت . فقد كانت

هناك بلاد تأخرت ، مثل ألمانيا التى ظلت الفوضى الإقطاعية ضاربة فيها ، ومثل أسبانيا التى كانت قد أنهت حروبها ضد المسلمين فى الأندلس ، تقريبا ، وإحتفظت بمثل عليا عن حياة الفروسية . ولكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة لبلاد أخرى كانت التنمية الاقتصادية فيها أكثر تقدماً ، مثل إيطاليا ، وكذلك الحال بالنسبة لمملكتى فرنسا وإنجلترا ، حيث كانت التطلعات السياسية الجديدة للمملكة تتعارض تماما مع مبادىء النظام الاقطاعى . ويمكننا أن نرى فى فرنسا بنوع خاص ، ومنذ نهاية القرن الثالث عشر، الإرهاصات الأولى لذلك التحول الذى سينتهى بتحطيم النظام الاقطاعى .

والحقيقة أن نظام الفروسية قد بدأ يتحطم بقوة الأوضاع الطبيعية . فلقد كانت هناك عملية مزدوجة للتجميع ،وللتفتيت فى نفس الوقت . فكان كبار النبلاء يتشبهون بالملك ، ويستخدمون سياسة الزواج والشراء ، من أجل زيادة مساحة مناطق نفوذهم . وحدث ذلك فى فرنسا ، كما حدث فى انجلترا كذلك . ولكننا نلاحظ من ناحية أخرى أن كثيرا من مناطق النفوذ الاقطاعية الصغيرة تفتتت ، وبشكل زاد من صعوبة شكل الخريطة الإقطاعية للبلاد . وكانت عمليات التقسيم والوراثة والبيع تساعد على ذلك . وأصبحنا نجد بعض السادة بدون أرض ، والبعض الآخر لا يحتفظ من أراضيه إلا بما تمثله مزارعه النافعة . وأصبح فى وسع البورجوازيين ، أو من أثرى من الفلاحين ، أن يشترى بعض امتيازات السيد الاقطاعى . وهكذا وجدنا النبلاء ، الذين يعتمدون على مولدهم ، والسادة الذين يعتمدون على ممتلكاتهم العقارية من الأراضى ؛ وأصبحنا نجد نبلاء بدون سيادة ، وإلى جوارهم سادة من الأغنياء الجدد والتجار والسماسرة . وهكذا تطورت العلاقات الشخصية ، والواجبات المتبادلة التى تأسس عليها نظام الاقطاع ، وساعد على هذا جمود الالتزامات الاقطاعية فى مواجهة نظام رأسمالى مرن . وفقدت الايجارات النوعية أو المالية قيمتها الفعلية مع مضى الوقت ، نتيجة

للنمو الإقتصادى الذى ساعد على سرعة دورة رأس المال . وكان إنخفاض قيمة الإيجارات الخاصة بالإقطاعيين يسيئاً . ولكن وقوع إحدي الأزمات ، مثل حرب المائة العام ، كان كافياً لزيادة سرعةالتطور ، والتمهيد لتغير إجتماعى حقيقى .

ولم يكن النبلاء مستعدين لمواجهة مثل هذا الخطر . بل كانوا يحاولون الإحتفاظ بحرياتهم تجاه تدخل السلطة الملكية . فكانت عملية المحافظة على حقوقهم ، وتفتت إقطاعاتهم ، وحروبهم المتعددة ضد بعضهم ، تنهك قواهم ، وتستنفذ دماءهم وإيراداتهم . وكانوا لا يفهمون السياسة ، ولا الإقتصاد . وكانوا مثل بقية رجال العصور الوسطى لا يفهمون معنى التوازن المالى ، وينفقون أكثر مما تسمح لهم به دخولهم . وكانوا يضطرون إلى الإستدانة لكى يحافظوا على مظاهرهم ، أو لزواج أبنائهم ، ويقعون فريسة للمرابين . ويرهنون أراضيهم ، ويتحطمون .

وأخذ النبلاء ، الذين بدأوا فى فقد الصلة بالأرض ، وهى التى كانت لا تزال أساس كل إقتصاد . يكونون طبقة ، لم يعد هناك معنى لبقاء إمتيازاتها . وأخذت هذه الطبقة تنغلق على نفسها كل يوم أكثر ، وتصاب بالضعف ، نتيجة لإنغلاقها وعدم تجددها . وبعد أن كان النبل مرتبطاً بالفروسية ، إنصرف كثير من النبلاء عن الفروسية ، وفضلوا عليها الوظائف والحصول على الإلتزامات . وبعد أن كان الحصول على ألقاب النبل مفتوحاً ، وأمام الأثرياء ، تحول إلى حق لا يمنحه إلا الملك وعدد من كبار أتباعه . وكان البورجوازيون وكبار الفلاحين لا يأبهون كثيراً بالحصول على ألقاب النبل ، التى كانت تمنحهم إمتيازات بسيطة ، وتفرض عليهم أعباء ثقيلة ودخل كثير من النبلاء إلى المدن لكى يحصلوا على إمتيازات البورجوازيين .

أما طبقة رجال الدين ، ومن حيث كونهم طبقة ملاك ، فإنها أخذت تقاسى ، مثل النبلاء من الأحوال الاقتصادية الأقل ميزة بالنسبة للممتلكات العقارية الكبيرة من الأراضى ؛ وأصبحت إيراداتها ، نتيجة لسوء الإدارة ، لا تكفى لسد

إحتياجاتها . ومع ذلك فقد ظلت هذه الطبقة قوية وثرية ؛ وظلت المؤسسات الدينية موجودة ؛ وكان كل مسيحي يرغب أن يترك ، عند موته ، شيئاً للكنيسة ؛ الأمر الذي أدى إلى تجديد ثروة رجال الدين بإستمرار . ولكن مظاهر الضعف بدأت تظهر عليها ، خاصة وأنها أثارت الأحقاد عليها ، نتيجة لجهل بعض رجال الدين ، أو انحرافهم ، أو شراهتهم ، وبشكل لا يؤدي إلى أحترام الناس للميزات كانوا يتمتعون بها . وكان كل من الملوك والسادة يحاولون جاهدين السيطرة على الكنائس ، فكانوا يرشحون من يرغبون فيه لتولي مناصب الكنيسة بدلا من نظام الإنتخاب الموجود ، كما كانوا يرغبون في إجبار رجال الدين على المشاركة في أعباء الضرائب في البلاد ، ويحاربون ضد حرية رجال الدين وإمتيازاتهم .

ومن ناحية أخرى ، كان بلاط روما يتطور ، وكان يطالب كل يوم بممتلكات إقليمية جديدة : فزادت مطالباته بضريبة العشور ، التي كان قد فرضها من أجل تمويل الحروب الصليبية والحملات العسكرية التي كان يشرف عليها ، وبشكل جعل هذه المطالب منتظمة . وأخذت الأحقاد تظهر داخل نطاق طبقة رجال الدين نفسها . وزاد عدد الجماعات الدينية ، التي شجع عليها البابا ، وبشكل يهدد أسس تنظيم الكنيسة نفسها : وأصبح الأساقفة يحقدون على الرهبان ، وحاولت الجامعات أن تنفي عن بعض الرهبان حقهم في المشاركة في التعليم . وكان هذا يدل على ضعف طبقة رجال الدين ، وبشكل يمنعهم من القيام بواجباتهم على أحسن وجه .

وعلى العكس من ذلك نجد أن طبقة الفلاحين تصل إلى درجة من الرخاء المادي في فرنسا ، وبدرجة لن تعرفها بعد ذلك . وشاهد الفلاحون في فرنسا ، والتي كان التطور الإجتماعي فيها أكثر تقدماً ، زيادة حدود الحرية الفردية عما كان عليه الأمر من قبل . وأخذ نظام العبودية ، الذي لم يصل إلى مرحلة الشمول ، في التقهقر الواضح . وأعطى ملوك فرنسا ، بقراراتهم المتحررة ، الحق للفلاحين

فى شراء الأرض أو فى إستئجارها ، وبشكل يسمح لهم بالتحرر من العبودية . وزاد عدد المتحررين فى عهد القديس لوى ، ورأى خلفاءه فى ذلك إجراء ضرائبى فى صالح الخزانة التى كانت خاوية بشكل مستمر تقريباً . وأرسل كل من فيليب الشجاع وفيليب الجميل مندوبيه يجوبون المقاطعات ، ويتعاملون مع الفلاحين . وأخذت ظاهرة الإقطاع كذلك تتطور فى صالح الفلاحين . وأصبح من حق من يدفع جزء من نصيب المالك فى المحصول أن يحتفظ بالأرض من جديد لفلاحتها ، وبالتالى حق الإنتفاع بها ، وإبقائها فى حيازته . وأصبح كثير من السادة يوافقون على تخفيض نصيبهم فى غلة الأرض ، حتى لا يهجرها الفلاح ، وتبقى بدون زراعة . وكان تخفيض قيمة الإيجار تخفف العبء عن الفلاح ، فى الوقت الذى كانت فيه ضد مصلحة النبلاء . وأصبحت حقوق السادة حقوقاً واقعية وفعلية ، مع مرور الزمن ؛ وأصبحت تتعلق بالأراضى بعد أن كانت مرتبطة بالأشخاص . ومع ذلك فلم تكن أوضاع الفلاحين مرضية ، وإذ أنهم كانوا بغير حماية ، أمام الحروب وعمليات النهب . وفى الوقت الذى تنشب فيه الحرب بين فرنسا وانجلترا ، أثناء القرن الرابع عشر ، ستمتد هذه الحرب ، وتؤثر على كل مملكة فرنسا ، وتصبح طبقة الفلاحين هى فريستها الأولى ، ترى أن أزدهارها قد توقف لفترة طويلة .

أما البورجوازيون ، فكانوا مسلحين بدرجة أحسن خلف أسوار المدن التى يسكنونها أمام أخطار المستقبل . وكانوا قد تحرروا ، فى كل مكان ، وفى القرون السابقة ، من الخضوع لنظام الإقطاع ؛ وحصلوا على مواثيق بالتحرر تسمح لهم بتنظيم أنفسهم ، وبتنمية حرفهم وتجاراتهم ، فى نطاق إدارة المدن . ولكن نمو المدن كان قد وصل إلى حده الأقصى : فأصبح من النادر إنشاء مدن جديدة . أما حكومات المدن فكانت حرة من الناحية النظرية فقط ، إذ أن السلطة الملكية كانت تفيد من صعوباتهم المالية من أجل زيادة سلطة النظام الملكى . وكانت

بعض المدن ، فى بعض المناطق الخاصة ، والتى كانت مجهزة بالصناعات الكبيرة ، ومن أجل تجارة التصدير ، هى التى تقدر ، مثل مدن الفلاندر ، وموانى بحر البلطيق ، وبحر الشمال والمدن الإيطالية ، على أن تزيد من عدد سكانها ، والعاملين فيها . ولكنها كانت تتطور بسرعة ، وفى وسط أزمات مستمرة ، وكانت تحاول الوصول إلى توازن . ذلك أنه بعد الصراعات السابقة ، التى كانت موجهة ضد سلطة السادة ، حدثت إضطرابات إجتماعية ، تصادمت فيها الطبقات المختلفة داخل المدينة الواحدة ، وبشكل واضح ، وأصبحت مدن إيطاليا الشمالية ، التى تحررت من السيطرة التى حاول أن يفرضها عليها الأباطرة الجرمان ، تمثل المظهر الأساسى لتلك المجتمعات المتطورة . وأصبحت تلك الهوة التى تفصل بين المفاضلات السياسية ، بين الجلف والجبلين ، آخذة فى الإختفاء ، وإن كانت خطوط المستقبل غير واضحة تماماً بعد . وفى بعض المدن ، مثل البندقية أخذت أوليجاركية بعض كبار التجار تفرض نفسها بشكل واضح ، وتقفل الطريق أمام تقدم الطبقات الشعبية ، بينما نلاحظ فى فلورنسا ، وحيث كان النظام الديمقراطى لايزال سائداً ، دفعة قوية من جانب الطبقات الوسطى : فنشاهد حقد طبقات النبلاء ، فتحاول الطبقات الوسطى أن تفرض نوعاً من أنواع الحكومة المعتدلة ، حيث تشارك نقابات التجار السلطة كذلك . أما فيما عدا ذلك ، وفى سهل لومباردى ، فإن التطور كان أكثر تقدماً ؛ ذلك أن عامة الشعب كانوا قد انتصروا على النبلاء وعلى أوليجاركية التجار . فأخذوا السلطة فى أيديهم ؛ ولما كانوا عاجزين عن التنظيم ، فإنهم تركوا السلطة فى أيدى المغامرين الذين يسيطرون على الموقف . ولذلك فإنه من حقنا أن نتوقع حدوث أكبر الإضطرابات الإجتماعية ، فى مجتمعات المدن .

٣ — المنافسة بين مراكز الانتاج الصناعى :

كان من نتائج تزايد العلاقات التجارية ونمو النظام الرأسمالى تزايد الإنتاج

فى صناعات التصدير ، رغم أن أهمها ، وهى صناعة النسيج ، كانت تواجه صعوبات ضخمة من أجل الحصول على المواد الخام .

وتأثرسوق الصوف خلال القرن الرابع عشر بأزمة خطيرة . وتعرضت صناعة النسيج الفلمنكية لصعوبات كثيرة نتيجة لنقص الصوف الانجليزى . وكانت انجلترا ، فى نفس الوقت الذى كانت تزيد فيه من سيطرتها على القارة ، تحاول التحرر فى نطاق العمليات الاقتصادية . وحاول ادوارد الثالث ، الذى رفض أن يكون إقتصاد بلاده تحت رحمة السيد المسيطرعلى الفلاندر ، أن يتحرر من الصناع الآتين من القارة ؛ وحاول أن يوطن صناعة الأنسجة فى إنجلترا ، وينشىء مهناً للغزالين فى المدن الرئيسية للملكة ، وبخاصة فى بريستول التى ستخرج منها أحسن المنسوجات الأوروبية خلال القرن الخامس عشر . وفى انتظار الوصول إلى ذلك ، إضطرت انجلترا إلى أن تستمر فى الاعتماد على الصناع الفلمنكيين من أجل تجهيز الصوف الخام . ولكن سياسة التصدير التى وضعها ادوارد الثالث كانت خاضعة للتردد والحذر. ولما كان هـذا الملك يحصل على أكبر ايراداته من الضريبة المفروضة على بالات الصوف عند خروجها من المملكة فإنه عمل على فرض رقابة شديدة على نقلها ؛ كما أن تجار لندن ، الذين ساروا على نهج أصحاب البنوك الايطالية ، سيطروا على تجارة التصدير ، وفرضوا على الملك سياسته الفلمنكيه . وأنشأوا سوقاً خاضعاً للمراقبة ، من أجل الاشراف على تصدير الصوف ، وإن كانت المنافسة بين التجار قد تسببت فى تغيير مكان هذا السوق ، سواء فى الموانى الانجليزية أو فى موانى القارة ، مثل بروج وكاليه . وكان هذا التغيير المستمر مع عدم استقرار الظروف العامة للسوق فى غير صالح نمو صناعة المنتجات الصوفية .

وكان من الطبيعى أن يخضع الملك لهذا التأثير ، فى نفس الوقت التى إزدادت فيه العلاقات التجارية . ورغم الصعوبات فإن الانتاج قد ازداد، نتيجة لزيادة الطلب.

وليس هناك مايدفعنا إلى الاعتقاد فى أن زيادة الانتاج كانت تتمشى مع

تحسين السلعة ، بل أن كل الشواهد تدفعنا إلى الاعتقاد فى أن طريقة الإنتاج قد ظلت كما هى . وإن دراسة النظم ، التى ازدادت تفصيلا أثناء القرن الرابع عشر ، والتى فرضت على الغزالين والنساجين والصباغين ، وكل أبناء المهن المتصلين بصناعة المنسوجات ، لاتدل على أقل تجديد . ولقد ادعى البعض أن هذا الاستقرار المزعوم يرجع إلى روح العصور الوسطى المحافظة ؛ ولكن التقدم الذى تم فى التقنية التجارية ، وروح الابداع التى ظهرت بوضوح فى التغيرات التى حدثت فى التسليح العسكرى وفى الانشاءات البحرية تدفعنا إلى الاعتقاد فى غير ذلك ، وإلى القول بأن الاستمرار فى العمل حسب أنماط تقليدية للانتاج كانت ترجع إلى الأساس التنظيمى الذى فرض على الصناعة خلال القرن الثالث عشر ، والذى ازداد قوة فى الفترة التالية . ذلك أن الاتجاه الفردى كان يخضع لرقابة صارمة ، وكان مرفوضاً . وكانت نقابات المهن تحيط بنشاط العامل وتضغط على العمال بدرجة متزايدة . وإذا كان النظام الرأسمالى يسيطر فى نطاق التجارة ، فإننا نجد على العكس من ذلك أن كل الاحتياطات قد إتخذت بشكل يفرض على الصناعة عدم الحرية فى إستيراد أو تصدير المنتجات . وكان هذا يدل دلالة واضحة على استمرار خضوع الصناعات ، وبشدة ، لإقتصاد المدن المغلقة .

ولم يستمر هذا الوضع إلا نتيجة لضغوط قوية . وكانت القوة تتدخل من أجل الاحتفاظ للمدن بحق الاحتكار ، ومن أجل حبسها داخل أسوارها . ومن الطبيعى أن هذه الصناعات كانت ستنتشر فى الأرياف إذا ماتركت أقل حرية لتصرف أبناء المهن . وكانت مصالح الملاك العقاريين والفلاحين تدفعهم إلى المشاركة فى أرباح أعمال الصوف التى تعود إلى البورجوازيين . وأعطتنا الفلاندر وهى أكبر منطقة صناعية فى أوربا فى ذلك الوقت ، دلائل لها قيمتها . فمنذ بداية القرن الرابع عشر حاولت بعض القرى أن تشترك فى صناعة المنسوجات ، وأنشأ الفلاحون فيها مهن للغزل والنسج . ولكن المدن كانت تراقب بحذر هذه

المحاولات ، التى كانت ستعرضها ، فى حالة نجاحها ، لمنافسة قوية . فقاموا يومياً بتنظيم عمليات للإستيلاء فى المناطق المحيطة بالمدن ، يتم فيها الإستيلاء على كل أدوات الصناعة ، وينقلونها أو يحطمونها أو يحرقونها . وكان على الصناعة أن تظل إمتيازاً يحتفظ به للبورجوازيين وحدهم . وكان هذا هو الشرط الأساسى فى تلك التنظيمات التى هدفت الإحتفاظ بالأجور فى أعلى مستوى ممكن .

ومع إزدياد قوة المدن إزدادت معها قوة صناعتها . التى ستعمل على إعطائها شخصيتها المميزة . وبعد منع الفلاحين من إستخدام الصناعات أصبح من الضرورى منع المدن الثانوية من صناعة المنسوجات ، التى لها نفس نوع أو التى لها نفس صفات منسوجات المدن الرئيسية . وإستخدمت كل الحجج للوصول إلى هذه النتيجة ، سواء للإحتفاظ لبعض المدن بصناعة المنسوجات الرقيقة ، التى كانت لوحدها تزود تجارة التصدير ؛ وترك المنسوجات الخشنة للمدن الصغيرة ، خاصة وأن أسعارها كانت منخفضة ، وكانت تستخدم فى الإستهلاك المحلى .

وكان التخصص الصناعى للمدن الكبرى يشرح هذه السياسة بوضوح . فكان هو الذى يدفعهم إلى أن يطالبوا أمام الأمير ، بإستقلال ذاتى ، يسمح لهم بالوصول إلى السيطرة الإقتصادية التى يأملون فيها . وكانوا يدعون أنهم يفرضون عليه خط سير سيخضع عمله تماماً لمصالحهم . وفى بداية حرب المائة عام ، لم يكن لذلك الصدام الذى نشأ بينهم وبين الأمير خلال سنوات ؛ وضمن لأمير غيره حكومة الفلاندر ، سبباً سوى رفض الأمير الأول التحالف مع ملك إنجلترا ، ذلك الرفض الذى دفع ملك إنجلترا إلى منع تصدير الصوف ، الأمر الذى تسبب فى وقف صناعاتهم . ومع ذلك فلم يكن فى وسعهم ، لفترة طويلة ، أن يعملوا حسب إتفاق معين ، إذ أن التمييز الذى كان يضعهم فى مواجهة الأمير كان يضعهم فى مواجهة بعضهم . ونشأت عن ذلك سلسلة من القلاقل المستمرة التى أعطت لتاريخ الفلاندر شكلا يتميز بالإضطراب . فكانت المدن الثلاث ، الموجودة هناك . تتحد

مرة ضد الأمير ، وكانت تنفصل من بينها إثنتين ، مرة أخرى ، وبتأييد من الأمير ، من أجل محاربة المدينة الثالثة .

٤ — الحركات الاجتماعية فى المدن :

إذا كان الإنقسام هو الذى يسود بين المدن وبعضها ، فإنه كان يسود بدرجة أكبر من ذلك بين أهالى كل واحدة من هذه المدن . وكانت هذه المراكز الكبرى للصناعات مسرحاً لصراعات إجتماعية مستمرة ، كانت بذورها قد ظهرت فى القرن السابق ، ثم إستمرت بقوة لها شكل المأساة .

وكان التنظيم النقابى الذى يتناسب مع أحوال الصناع الذين يعيشون من السوق المحلى ، غير قادر تماماً على إرضاء حاجات صناع المنسوجات . الذين كانوا ينتجون إنتاجاً كبيراً من أجل التصدير . ولم يكن فى وسعه أن يحمى ، من نفوذ رأس المال ، أو لئك الغزالين والنساجين المكدسين فى الحارات الصغيرة فى مدن الأراضى الواطئة ، أو فى فلورنسا فى إيطاليا . ورغم كل شىء ، فقد ظلوا يخضعون لكبار التجار ، الذين كانوا يسيطرون على نشاط ورشهم الصغيرة . وكانوا عمالا يعملون فى منازلهم ، ويتقاضون مرتبات فى نفس الوقت . وإذا كان نظام النقابات يحميهم من منافسة العمال غير النقابيين ، ويحافظ بينهم على المساواة فى الظروف ، فإنه لم يصل إلى حد إعطائهم الإستقلال الإقتصادى تجاه أصحاب العمل . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك تلك الإضطرابات الناشئة بسبب الحروب ، أو بسبب منع تصدير الصوف من إنجلترا ، ومن فترة لأخرى ، حدثت أزمات كان من الصعب التنبؤ بها ، ومن الصعب كذلك منعها ؛ وحلت هذه الأزمات بصناعة المنسوجات التى كانت تخضع للخارج ، وأدت بالعمال إلى البطالة . وفى الأوقات العادية كانت هناك حركة عدم رضاء مكتومة بين جماهير العمال ضد أصحاب العمل الذين يستخدمونهم . ولم تكن حركات الإضراب التى إلتجأوا إليها منذ أواسط القرن الثالث عشر سوى الإرهاصات الأولى للثورة .

وهذه الثورة التى كانت إجتماعية فى أصولها ، أخذت طابعاً سياسياً فى شكلها.
ونعرف أن البورجوازية الغنيـة كانت قدأحتفظت منـذ البداية بممارسة السلطة البلدية . وفى كل مكان كان رجال البلديات يختارون بنوع خاص من بين رجال مجموعة هؤلاء التجار ، الذين كان صناع المنسوجات يعملون لديهم . وكانت حكومتهم حكومة طبقية بكل معنى الكلمة . ومع مرور الزمن ، أصبحت علاوة على ذلك حكومة أقلية . وكانت هذه حقيقة واضحة ، تتمثل فى إستيلاء بعض الأسر على إدارة المدن ، وهو الأمر الذى يمكن ملاحظته فى جميع أنحاء غرب أوربا . ولم يكن النظام السائد مهدداً فى تلك الأماكن التى لم يكن للصناع فيها القوة الناتجة عن أعدادهم ، ولا تلك التى ساد فيها الشعور بالظلم . ولكنه كان من الصعب أن تستمر الأحوال على ذلك فى المدن التى تضم الصناعات : ولقد إصطدمت هناك بممارسة آلاف الأجراء ، الذين كانوا يميلون إلى المطالبة بالمشاركة فى السلطة ، التى كان يمارسها بمنأى عن أولئك الذين كانوا يحتفظون بهم تحت سيطرتهم الإقتصادية .

وكانت أخطاء الأرستقراطيين عند نهاية القرن الثالث عشر قوية عليهم . وكان كل من يبعدونه عن حكومة المدينة يطالب بإصلاح ؛ لم يكن الأمير الأقليمى يأمل فيه ؛ وكان هذا الأمير يرغب فى التخلص من العناصر المتحركة ، بينما كان صناع المهن الصغرى يحقدون على سيطرة تلك المجموعة الأرستقراطية الأنانية وصاحبة السلطة التامة . وفى مثل هذه الظروف كان من الطبيعى أن ينتصر جانب عمال هذه الصناعات الكبرى . وفى الفلاندر ، وحيث كان عددهم ، وبالتالى قوتهم ، أكبر منها فى أى مكان آخر قاموا قرب سنة ١٢٨٠ بكفاح ضد الأرستقراطيين . ولكى يحتفظوا بأنفسهم ضد معارضة كانت تقف إلى جانب كونت الفلاندر ، فإنهم طلبوا معونة فيليب الجميل . وأسرع الملك بإرسال المعونة لهم ، ووضع أحد سادة المنطقة تحت حمايته ، الأمر الذى أدى إلى زيادة الحقد

بين الطرفين : مجموعة كونت الفلاندر ، ومجموعة ملك فرنسا . ورغم إنتصار قوات ملك فرنسا سنة ١٣٠٠ إلا أن بعض الأخطاء أدت إلى نشوب الثورة فى بروج سنة ١٣٠٢ ، الأمر الذى أدى إلى نزول الفرسان الفرنسيين إلى المدينة لإعادة سلطة الأرستقراطيين . وقتل الأهالى بعض الفرسان أثناء الليل ، وانتشرت الأخبار فنشبت الثورة فى كل مكان ؛ ثورة الصغار ضد الكبار ، ثورة الفقراء ضد الأغنياء ؛ وبدا أن ثورة إجتماعية كانت على وشك النشوب فى كل مدن الأراضى المنخفضة ، إذ أن الثورة إمتدت من الفلاندر إلى برابانت ثم إلى لييج . وأعاد الأنتصار الذى حصل عليه عمال وصناع بروج ضد الجيش الملكى المرسل ضدهم ، فى ١١ يوليو سنة ١٣٠٢ ، الثقة إلى نفوسهم ، وكان بداية لمشاركتهم فى السلطة كما كانوا يأملون .

ومع ذلك فعلينا أن نعترف بأن آمالهم لم تتحقق كلها . ففى أثناء القرن الرابع عشر كله ، لم تهدأ المدن الصناعية ، واستمرت فيها الإضطرابات ، نتيجة إلى الإفتقار إلى التوازن بين المجموعات المختلفة لذلك المجتمع الموجود فيها ، واستمرت البورجوازية الكبرى فى محاولة إعادة السيطرة التى فقدتها . ووصلت إلى ذلك نتيجة لمساندة الأدواق لها فى مدن برابانت . أما فى لييج فإنها إضطرت إلى التنازل ، فى سنة ١٣٨٤ ، وبعد جولات دموية ، أمام رجال الصناعات . وفى الفلاندر ، وحيث كان صناع النسيج يستندون إلى سيطرة كبيرة على كل الصناع الآخرين ، حاولوا تنظيم نوع من تمثيل المصالح ، عن طريق توزيع السلطة البلدية بين الأرستقراطيين ، ونقابات النسيج ومجموعات المهن الثانوية . ولكن المصالح التى حاولوا التوفيق بينها كانت على درجة من الأختلاف لا تسمح بنشأة وفاق لمدة طويلة .

وكان الإختلاف فى ظروف الحياة بين مهن الصناعة الكبرى ومهن الصناعات الصغرى يمثل نوعاً من الصدام المستمر . وعلاوة على ذلك كانت مسألة الأجور

تتسبب فى نشأة إختلاف من وقت لآخر بين النساجين والغزالين ، خاصة وأن كل من رجال هاتين المجموعتين كان يحاول أن يضمن ميزات على حساب رجال المجموعة الأخرى ، ويحصل لعمله على أجر كان يرفضه لعمل خصمه، بدعوى منع الارتفاع الزائد لأسعار المنسوجات . وكانت الإضطرابات الدموية تدفع بكفة الميزان إلى هذه الناحية مرة ، وإلى تلك مرة أخرى . وزادت الفوضى علاوة على ذلك نتيجة لمشاركة الأرستقراطيين وأصحاب المهن الصغرى فى هذه الخصومة، وتدخل الكونت ، الذى كان يتحالف طبقاً لظروفه إما مع النساجين ، أو مع الغزالين ، وتزايد ظهور وإصدار اللوائح الخاصة بتنظيم العمل ، ولكنها لم تؤد إلى نتيجة .

والواقع أنه لم يكن يكفى أن يستولى الصناع على السلطة حتى يحصلوا على الإستقلال الإقتصادى الذى كانوا يحلمون به . ذلك أن سقوط الأرستقراطيين قد وضع حداً لكثير من المساوىء ، ولكن الظروف العامة التى تحيط بصناعة المنسوجات ظلت موجودة . ولم يكن هناك أى شخص فى السلطة يمكنه أن يوقف الأزمات الناتجة عن الحروب ، أو أن يقرر أسعار الصوف المستورد من إنجلترا ، ولا أسعار المنسوجات الموجودة فى التجارة الدولية . ولم تنتهى الصفة الرأسمالية المنسوجات نتيجة لإنهاء سيطرة الرأسماليين على حكومات المدن . ولاشك أن السيطرة المباشرة لأصحاب الأعمال على العمال قد إنتهت ، أو قلت ، ولم يعد فى وسعهم بعد ذلك تنظيم الأجور أو تنظيم العمل لمصلحتهم وحدهم، ولكن ضرورات التجارة الدولية ظلت تضغط كما كانت على العمال بكل ثقلها . وإذا لم يعودوا ضحايا كبار الصناعة فإنهم ظلوا ضحايا الصناعة الكبرى . وكانوا عاجزين عن فهم ذلك . وحاولوا ، بلاجدوى ، وبكل نشاط ، قتل صناعة النسيج فى الريف والقرى ، ومحاربة منافسة المدن الصغرى ؛ كما حاول النساجون بلاجدوى تقليل أجور الغزالين ، كما حاولت جاند بلاجدوى كذلك فرض سيطرتها على بقية الفلاندر ، ولم يكن كل ذلك إلا أدلة على عدم القدرة من جانب إقتصاد المدن على أن يتخلص

من مطالب الإقتصاد الدولى . وإذا كان بعض الصناع قد وصلوا إلى السلطة وأصبح فى وسعهم تنظيم صناعة المنسوجات ، فإنه لم يكن فى وسعهم إجبار التجار الأجانب على شرائها . وأصبح من الواضح ، ومنذ أواسط القرن الرابع عشر، أن إزدهار صناعة المنسوجات الفلمنكية قد أخذ فى الإنهيار ؛ فقل التصدير ، وقلت الأصواف الإنجليزية ، وإرتفع ثمنها فى بروج ، نتيجة لشراء التجار الإيطاليين لها بشكل متزايد ، وإرسالهم جزء كبير منها إلى فلورنسا ، بينما بدأت الصناعة الوليدة فى انجلترا نفسها فى إستهلاك كميات أكبر منها .

وتسبب عدم الرضا الذى يقاسى منه جماهير الصناع ، دون أن يتمكنوا من معرفة أسبابه ، فى إنتشار موجة من القلق ظهرت لها أشكال لبعض الأمانى الشيوعية. ويمكننا أن نرى مظاهر ذلك أثناء الثورة الكبرى للفلاندر ١٣٢٥ - ١٣٢٨ . كما نتج عنها كذلك ، وفى ظروف أخرى ، بعض الزاهدين ، وحتى مدعى الإلهام . وإستمر عمال نسيج جاند مدة عشر سنوات فى صراع مرير ضد الكونت وكبار البورجوازيين ، وفى شكل صراع إجتماعى واضح . وصموا أمام الأمير ، وأمام كل من كان عليه أن يخسر . وفى كل مكان ، كان أولئك الذين يقاسون من النظام الإجتماعى ويعملون على تغييره يتبعون مايحدث ؛ ومن روان وباريس إرتفعت الصيحات بحياة جاند وبدا أن مصير الكبار والصغار يعتمد على إنتصارهم . ولكن ملك فرنسا أنزل بهم هزيمة شديدة سنة ١٣٨٢ ،فلم يتمكنوا من الحركة بعد ذلك.

وإذا كنا قد أخذنا الفلاندر كمثل لنا ، فان ذلك يعود إلى أن الصناعة قد لعبت فى هذه البلاد دوراً كبيراً ، وبشكل يسمح لنا بتتبع نتائجها على الحالة الإقتصادية ، والحالة الإجتماعية . أما فى إيطاليا و بنوع خاص فى فلورنسا ، فإن عمال النسيج لم يتمكنوا من السيطرة على مجريات الأحداث بنفس الطريقة . ذلك أن صغار الأهالى قد وجدوا فى « الأهالى السمان » مقاومة ضخمة إذ أن قواتهم كانت أكبر . وكانت الأوضاع معقدة فى فلورنسا ، وخاصة مع تعدد الأحزاب

ومع تدخل المدينة فى الصراعات السياسية الدينية التى إنتشرت فى إيطاليا، و بشكل لن يسمح لعمال النسيج بفرض أنفسهم على الموقف . ومع ذلك فقد كانوا هم الذين قد شاركوا فى نشر ثورة الأهالى فى شهر يوليو ١٣٧٨ ، مفيدين فى ذلك من الخصومات المستمرة بين أسر كبار التجار . وقامت الجماهير بالإستيلاء على قصر السيد ، وعينت رئيساً للعدالة ، وحكومة ديمقراطية ، تعمل من أجل الصناع ، وتحارب النبلاء ، واستمرت فى السلطة حتى سنة ١٣٨٢ ، أى نفس السنة التى قضى فيها على ثوار جاند .

وكانت الحركات الاجتماعية التى شهدتها المدن عند نهاية العصور الوسطى كبيرة الإتساع ، وامتدت إلى ما هو أبعد من صناعات التصدير . أما تلك المدن التى كانت تغلب عليها صفة التجارة ، فان حكوماتها كانت فى الغالب من بين التجار . وكانت أكبر مدينة متاجرة فى العالم فى ذلك الوقت هى مدينة البندقية ، التى كانت فى نفس الوقت أكثر المدن أرستقراطية فى نظمها . وفى ألمانيا احتفظت مدن الهانسة برؤسائها . وكانت كولونيا فى المدينة الوحيدة فى ألمانيا والتى أصابها ، عند نهايه القرن الرابع عشر ، إضطرابات تشبه تلك التى حدثت فى الأراضى المنخفضة . وفى فرنسا ، لم يتمكن الصناع فى فرض أنفسهم على سياسة المدن ، وكانت المملكة على درجة كبيرة من القوة ، فلم تتراجع عن مواجهاتهم .

ولقد جرى العرف على أن يسمى وصول رجال المهن إلى السلطة البلدية بإسم الثورة الديمقراطية . ولكن هذا التعبير خاطىء . فاذا كان من المؤكد أن إنتصار صغار الأهالى قد نشر الحقوق السياسية فى بعض المدن ، فانه لم يساعد أبداً على نشرها خارج هذه المدن . بل إننا نجد على العكس من ذلك أن من يسمون أنفسهم بالديمقراطيين قد عاملوا أهالى القرى المجاورة بشدة متزايدة . ولم تطرح مسألة حقوق المدن بدرجة أقوى مما حدث وقت سيطرة الصناع على الحكومة ، وكانوا بلا شك من صغار البورجوازيين ، ولكنهم كانوا بورجوازيين قبل كل شيء .

أما الديمقراطية بمفهومها الحديث ، فإننا لانجد لها أى أثر فى سلوكهم ، مادامت ديمقراطيتهم هى ديمقراطية أصحاب إمتيازات .

وسواء خضعت أو لم تخضع لحكومات شعبية ، فإن البورجوازية كانت تكون طبقة فى كل البلاد ، بدأت فى أثناء القرن الرابع عشر ، فى أن تشترك ، وتحت طبقة رجال الدين وتحت طبقة النبلاء ، فى النشاط السياسى للأمة . وكانت هى الطبقة الثالثة ، والذى كان نفوذها المتزايد لا يعمل إلا فى صالحهم وحدها . ولم تعمد المدن إلى البحث عن هذا النفوذ ، ولم يحصلوا عليه إلا بصفتهم جماعة لها ذاتها . ولقد إضطر الملوك والأمراء ، وهم مرغمون ، على مواجهة المصروفات التى زادت باستمرار عن قدرتهم المالية ، ونتيجة لأن الحرب قد أصبحت تكلف الكثير ، إلى أن يطلبوا إلى المدن تقديم العون الذى لم يعد فى وسعهم إجبارهم عليه دون موافقاتهم . وفى وقت الأزمات ، استدعوا إليهم مندوبيهم ، كما كانوا يستدعون دائما مندوبى رجال الدين ومندوبى النبلاء . وهكذا إمتدت المشاركة فى الحكومة ، والتى كانت قاصرة حتى ذلك الوقت على طبقتين ، إلى الطبقة الثالثة . وكان هذا هو أساس ظهور مجالس طبقات الأمة ، والذى يدل إسمه على أنه مجلس ذوى الامتيازات . وتحول ذلك الإجراء المؤقت ، مع الزمن ، وأصبح عرفاً وتقليداً ، وحاجة لمواجهة الأمور . وعلينا أن نذكر أن عمل المدن كان متزايد باستمرار . فكانت ثروتها تجعل منها القوة التى تزود الخزانة العامة بما يلزمها من الضرائب ، وبشكل يضمن لأبنائها تفوقاً أفادوا منه من أجل تقليل إمتيازات الملك ، وفى صالحهم . وزادت قوة تدخلهم فى كل مكان ، كما حدث فى إنجلترا ، فى البرلمان ، وفى فرنسا أثناء إضطرابات حرب المائة عام ، وكذلك فى الأراضى المنخفضة ، الأمر الذى أعطاهم مكانا أكثر إتساعا من مكانة النبلاء ورجال الدين فى دساتير البلاد . وفى هذا المجال يصح لنا أن نقول أن القرن الرابع عشر كان هو قرن البورجوازية . ولكن هذا القول يعنى مجرد أن الحياة السياسية قد إمتدت إلى

مجموعة جديدة من ذوى الإمتيازات، وهى الطبقة الثالثة ؛ ولا يعنى أنها قد وصلت إلى الجماهير العميقة للأمة .

٦ ـ تفكك اطارات حياة الريف ، وثورات الفلاحين :

كانت الغالبية العظمى للأهالى فى ذلك الوقت هى سكان الأرياف ، وكانت أحوالهم بلا شك أقل مما كانوا قد تمتعوا به من قبل . وكان تحرر الفلاحين ، الذى إنتشر فى القرن الثالث عشر ، قد أنهى العلاقات ذات الطبيعة الأبوية التى كان النبلاء قد احتفظوا بها معهم . ولما كان الإستقرار فى الأرض الزراعية قد تم ، فقد أصبحوا الآن محرومين من وسائل تحسين مصيرهم عن طريق الهجرة أو عن طريق إقامتهم إما فى المدن الجديدة وإما فى الأراضى المستصلحة فى الداخل . ونتج عن ذلك أن أصبحوا معرضين ، وبدون حماية ، لإستغلال أصحاب الأراضى .

ومست الأزمة المالية التى بدأوا بالشعور بها فى ممالك الغرب ، والتى أسرعت حرب المائة عام بتطورها ، الملاك الإقطاعيين ، وبالتالى طبقة الفلاحين التى كانت تعيش معهم . وتسببت الحروب فى تقليل حجم العملة المتداولة ، الأمر الذى نتج عنه إرتفاع متزايد لأسعار المعيشة . وحاول الملوك ، وبشكل خاص فى فرنسا ، العثور على موارد استثنائية عن طريق تغيير قيمة العملة بطريقة مفاجئة ، وباستمرار . ولكن ذلك أدى إلى إضطراب الإقتصاد العام ؛ وبعد بضعة أشهر من الربح الصافى ، ثم فيها دفع ديون الدولة المتعاقد عليها بعملة قوية ، بواسطة عملة ضعيفة ، عادت العملة الجديدة إلى الدخول إلى الخزانات الملكية فى شكل ضرائب ، وفقدت الميزة المؤقتة الناتجة عن خفض قيمة العملة . أما قطع العملة الأجنبية ، مثل الفلورنسى فى ممتلكات البابوية ، والدوق فى البندقية ، والتى كانت قيمتها ثابتة ، فانها إحتفظت بقيمتها فى كل الأسواق . وحاولت المملكة ، بلا جدوى ، أن تحرم إستخدامها ، وتمنع تصدير الفضة ، ولكن ثقة الأهالى فى أنواع العملة الوطنية ، والتى كانت علاقتها فى تغير دائم مع العملة الثابتة ، تقلقلت إلى درجة كبيرة .

أما التجارة الكبيرة ، التي كانت تتعامل بالعملة الثابتة ، فإنها لم تتأثر كثيراً . ولكن إيرادات السادة النبلاء ، وعلى الأقل تلك التي كانت تدفع نقداً ، والتي كان مقدارها لا يتغير، فإنها فقدت الكثير من قيمتها. أما ملاك الأراضي الذين ربطوا بين زيادة أسعار المعيشة وبين قلة إيراداتهم ، فانهم أظهروا كثيراً من التشدد مع فلاحيهم ؛ فأعادوا حقوقاً كانت قد ألغيت ، مثل نصيب عيني من المحصول ، والسخرة ، الأمر الذى أعاد العبودية القديمة فى شكل مقنع . وعجز كثير من صغار السادة عن أن يعيشوا من ممتلكاتهم،فبحثوا عن الثروة فى الحروب،وكونوا العصابات ، وجماعات قطع الطريق.وقاست منهم البلاد السهلة ، والتى كانت بدون دفاع ، كما قاست من الإتاوات التى فرضوها عليها . أما كبار السادة ، الذين حل بهم الفقر كذلك ،والذين كان من الواجب عليهم مواجهة إنفاقات تتزايد باستمرار، حين يتبعوا المثل الذى يعطيه الملك ، والبابا ، منهم أنشأوا نوعاً من الضرائب الجديدة ، فى شكل ضرائب إستثنائية . وهكذا أضيف إلى العشور التى تجمع للبابا ، والضرائب الملكية ، والمعونات التى صوتت عليها البرلمانات ومجالس الطبقات ،معونات تعطى للسادة ،وازداد ثقلها وحجمها باستمرار.وتمكنت المدن المنظمة،من أن تدافع عن نفسها حسب قدرتها،وحصلت على تأجيلات وتخفيضات، ولكن طبقة الفلاحين كانت مجبرة على أن تدفع . ولما كانت المدن تستبعدهم تماماً عن كل مشاركة فى الصناعة ، وكانوا غير منظمين ، فلم يكن لديهم أية وسيلة لتحسين مصيرهم ؛ وإضطروا إلى الإستسلام .

وكانت الكوارث المتتالية ،من حروب وأوبئة ،تزيد حياة الفلاحين ظلاماً. وجاء الطاعون الأسود ، الذى إستشرى فى أوربا فى أواسط القرن الرابع عشر ، لكى يعطى الضربة القوية لإقتصاد السادة . ويمكننا أن ندرس نتائج هذا الوباء بدرجة واضحة فى انجلترا ،وإن كانت هذه النتائج لم تكن بأمل من ذلك على القارة نفسها . وكانت مظاهره العامة هى نقص عدد الفلاحين ، وخراب الأديرة

والمستشفيات ، وتدهور عمليات تنمية الريف . وتسببت قلة الأيدى العاملة فى الزراعة ، نتيجة للأوبئة ، فى إرتفاع مفاجىء فى الأجور . ولم يعد فى وسع الملاك أن يجدوا . العمال وفى إنجلترا حصلو على تأييد الحكومة لهم ، حين أصدرت تشريعاً يهدف فرض معدل أجور يتمشى مع الأجور المنخفضة قبل إنتشار الطاعون ، وطبق هذا القانون بكل شدة ، وعلى العكس من كل التشريعات التى صدرت فى العصور الوسطى . وإنتشرت لجان خاصة فى كل البلاد ، مكلفة بالتأكد من أن العمال الزراعيين لايستلمون أجور تزيد عن الحد المشروع . وهكذا تعاونت الحكومة والنظام الإقطاعى من أجل كبت العمال ، الذين كتب عليهم البؤس وإضطروا إلى الخضوع .

ومع ذلك ، ومن بعيد لبعيد ، وكلما أصبحت المساوىء التى يقاسون منها غير محتملة ، أو كلما دفعتهم الفوضى السياسية نفسها إلى الثورة ، كان الفلاحون ينهضون بحركات مفاجئة ، تشتهر بعنفها وبنشرها الذعر ؛ كما أنها كانت تشتهر بضعفها عن أن تنشىء شيئاً مستمراً . وحدث ذلك فى الفلاندر ، سنة ١٣٢٣ — ١٣٢٨ ، كما حدث فى فرنسا ، وحدث فى إنجلترا سنة ١٣٨١ .

وكانت الأولى من بينها هى الأكثر استمراراً ، ونتجت عن فرض الغرامات على الفلاندر بعد هزيمتها ، وبشكل قاسى . وساند الفلاحون فيها ثورات بروج وغيرها من المدن . ولا شك أن مشاعرهم كانت مشاعر ثورية . ولم يهاجموا النبلاء وحدهم ، بل هاجموا كل النظام الاجتماعى . وتقدم الصفوف العناصر الأكثر عنفاً من بين الأهالى ، ولم يتراجعوا أمام الإجراءات المشددة وهاجموا النبلاء والمعتدلين وكل أولئك الذين يمتنعون عن التصريح بأنهم مع الشعب ، وكان يكفى عدم العيش من العمل اليدوى سبباً للاشتباه فى الشخص . وأجبروا بعض الناس على قتل أقاربهم أمام الجماهير . ولم يكن حظ الكنيسة أحسن من حظ النبلاء . وعارض الفلاحون فى جمع العشور ، وأجبروا الكنائس على توزيع القمح

الموجود فى مخازنها على الفقراء ، وبدت الديانة نفسها وكأنها مهددة ، فإدعى أحد كبار قادة الثورة بأنه لم يدخل الكنيسة أبداً ، وأنه يرغب فى شنق آخر القسس .

وفى مواجهة حقد الشعب ، كان هناك حقد النبلاء . وأخذ الفرسان يهجمون بعنف على الفلاحين الغلاظ ذوى اللحاة الطويلة والملابس الممزقة ، والفخورين بأنفسهم مثل الكونتات ، ويعتقدون أنهم يمتلكون العالم . وبدأت الثورة سنة ١٣٢٣ ، وتخللتها فترات هدوء ، واستمرت حتى سنة ١٣٢٨ . واضطر الكونت ، لكى يقضى على الثورة إلى أن يطلب تدخل ملك فرنسا ضد الثوار الذين كانوا ، حسب قول أحد المعاصرين ، يهددون المجتمع كله وإنتهى الإنتصار الذى حصلت عليه قوات فيليب دى فالوا ، عند مونت كاسيل ، يوم ٢٣ أغسطس ١٣٢٨ ، على عصاباتهم ، بمذبحة تبعتها عملية قمع كانت لاتقل فى قسوتها عن عنف الثورة نفسها . وساد النظام نتيجة للإرهاب . ولم يضطرب بعد ذلك .

أما فى فرنسا ، فان ثورة ١٣٥٨ فى منطقة شامبانيا كانت قصيرة ، ولها مظاهر أقل ثورية . وكانت الحركة تهدف بنوع عام النبلاء ، وكان الفلاحون يقاسون من الضرائب ، ومن عصابات الجنود المرتزقة المسرحين ، فهب الفلاحون ضد السادة ، واتهموهم بكونهم سبب كل ما يحدث لهم من مساوىء . ولم تكن هناك خطة متكاملة فى هذه الثورة ، ولا رؤساء معروفين ، ولا مطالب محدودة . وكانت هذه الحركة تمثل مرحلة من اليأس ، وإنفجار الغضب . وخافت البورجوازية ، وظلت وراء الأسوار ، ترقب الحركة دون أن تشارك فيها ، وربما كانت تفكر فى الإفادة منها فى حالة نجاحها . ولكن كيف كان فى وسع هذه الحركة أن تنجح ؟ لقد تمكن الفرسان ، على خيولهم الثقيلة ، وبعد أن عجزوا أمام الإنجليز ، من أن يواجهوا هؤلاء الفلاحين بسهولة ، ويقتلوا أبنائهم ، ويستبيحوا نسائهم ، ويحرقوا مساكنهم . وبعد أن مرت الفترة الأولى بدأ النبلاء حملتهم ، وبدأت الحملة المنظمة ، وعاد بقايا الفلاحين إلى ملاكهم ، بعد أن تأكدوا

من ضعفهم ، وكان الفزع قصيراً ، وعنيفاً ، ولم يستمر أكثر من شهر . ولقد مر وقت طويل قبل أن تقوم ثورة فلاحين أخرى فى فرنسا .

أما أحداث إنجلترا سنة ١٣٨١ فإنها إنتهت كذلك بنفس الطريقة . وكان الفلاحون قد أثقل كاهلهم بتشريعات قاسية ، فقاموا فى الجنوب وفى الغرب بثورة تدل على اليأس ، حين فرضت الحكومة عليهم ، وبدون حكمة ، ضريبة جديدة ، تضاف إلى الضرائب السابقة . وتميز الفلاحون بالغضب والرغبة فى التدمير الناتج عن شدة البؤس . وقاموا بنهب الكنائس وإحراق قصور السادة ، وقتل كبار الشخصيات التى وقعت فى أيديهم . وفى كل مكان ، كانوا يطالبون بسحب ألقاب السيادة ، ومنحوا أنفسهم صكوك التحرر التى تحررهم من الإلتزامات الثقيلة ؛ ولكن أعمالهم كانت بدون خطة ، وبدون برنامج . وكما حدث فى فرنسا ، لم يتمكن الفلاحون من الصمود أمام قوات النبلاء المسلحة والمدرعة . وكما حدث فى فرنسا إنتهت حركتهم بعد بضعة أيام ، ولم تعد من جديد .

وكانت ثورات الفلاحين هذه تدل على خطورة المساوىء الموجودة فى الريف ، والإضرابات الناتجة عن الحروب التى عاشتها أوربا ، وإنعدام التوازن الذى حدث فى المجتمع نتيجة للتغيرات الإقتصادية التى سبق شرحها .

الفصل الخامس

التجارة والمراكز البحرية

إذا كان نظام الإقطاع قد ضعف ، عند نهاية العصور الوسطى ، وأفادت من ذلك الملكيات الحديثة ، وبخاصة فى غرب أوربا ؛ وإذا كانت التغيرات الإقتصادية ، التى وقعت مع هذا التغير ، فى كل من الريف والمدن ، قد أدت إلى تغيرات إجتماعية ، ونتج عنها تنافس بين مراكز الانتاج الصناعى ، وحركات إجتماعيه فى المدن ، وثورات الفلاحين التى عملت على تفكيك إطارات حياة الريف ؛ وإذا كان ذلك قد حصل فى أهم مواقع الانتاج ، الزراعى والحرفى ؛ فان تغيراً جديداً قد وقع على حدود هذا المجموع الأوربى ، وفى كل من مدن وموانى البحر المتوسط ، وكذلك مدن وموانى الشمال ؛ ونتج عنه نمو وازدهار وسائل العمل الجديدة ، والنظام الرأسمالى ، فى كل من جنوا ، البندقية ، وكذلك فى مدن الجامعة الهنسية . إنه رأس المال ، والتجارة العالمية ، فى مراكز التجارة البحرية .

١ ـ الوسائل الجديدة :

لم تكن أوربا الغربية قد تمكنت من أن تحقق توسعاً إقتصادياً ، فى الفترة الواقعة بين نهاية القرن الثالث عشر ، وبين السنوات الأولى من القرن الخامس عشر . وظل هذا التوسع محصوراً ، كما كان من قبل ، فى حوض البحر المتوسط من ناحية ، وفى بحر الشمال وبحر البلطيق من ناحية أخرى . ولكن هذه الحركة ، رغم أنها كانت محدودة ، ولم تتعد فى الجنوب مضيق جبل طارق ، إلا أنها أصبحت أكثر كثافة .

وزادت أهمية بمجموعات جديدة ، زادت أهميتها بإستمرار ؛ لم تستخدم الدروع والخيل ، بل إستخدمت الصرف والرصيد ، والودائع ، والتأمين وعقود الشركات. إنهم بحارة وليسوا محاربون ، بحارة وليسوا من الفرسان : أما هدفهم فكان الربح أكثر منه الغزو ، والأرباح أكثر من كونها الأراضى ،ولقد إهتموا بإنشاء المراكز التجارية ، والشركات التجارية ؛ إنها الرأسمالية المتاجرة التى بدأت فى العمل ، وفى النمو وإزدياد القوة ، فى الوقت الذى ضعف فيه غيرها .

وفى الوقت الذى كانت فيه الطرق البرية صعبة وغير مأمونة ، أصبح الطريق البحرى مفتوحا لحركة النشاط الجديد . وتعنى بالبحر هنا البحر المتوسط ، وكان الغرب قد أبعد المسلمين عن مالطة وصقلية ، ولم يكن الأتراك قد تمكنوا بعد من السيطرة على المضايق . فظهر أن مستقبل أوربا الغربية ، فى العالم ، قد إرتبط بالماء.

ولقد تحسنت وسائل الملاحة ، ورغم أن السفن الحربية كانت لا تزال تعتمد التجديف ، إلا أن السفن التجارية قد أخذت فى إستخدام الشراع المثلث ، على سارية أو ساريتين ، مما سمح لها بالسير فى إتجاه مخالف للرياح ، أو بزوايا معينة، وسمح لها كذلك بالالتفاف . وأصبحت السفن مزودة بثلاث أجهزة تسمح لها بالإبتعاد عن الساحل ، الأول هو البوصلة أو الأبرة المغناطيسية التى تسمح لها بمعرفة الشمال ، والثانى هو الاسطرلاب الذى يغبن لها خطوط العرض ، والثالث هو الدفة المتحركة والمثبتة فى مؤخرة السفن ، والتى حلت محل الجداف الكبير ، الذى كان البحارة يحاولون إدارته أو تثبيته فى نقطة معينة ، وبمشقة . فأصبح من السهل بعد ذلك بناء سفن كبيرة ، يمكنها أن تسير فى أعالى البحار .

وكان معنى بناء سفن كبيرة وقوية ، إمكان شحنها بكميات أكبر من البضائع ، وتطلب هذا بالتالى وسائل مادية أكبر ، لتنفيذ هذه المشروعات ، ولذلك فإننا نجد أن تقدم الوسائل المالية ، جاء مكملا لتقدم الوسائل الفنية البحرية فى هذا

الميدان ، فظهرت البنوك وإنتشرت. وبدلا من نقل الذهب والفضة ، بدأ الممولون فى إيداعها لدى أحد المختصين ، والذى أصبح بالتالى مسئولا عن خزانة زبائنه . وأصبحت « الطاولة » التى يقع عليها الإيداع أو الدفع تسمى « البنك » بالايطالية وكان من السهل على المودعين أن يدفعوا ما يرغبون فى دفعه بأمر صغير لصاحب البنك . وإذا كانت العملية مصحوبة بتغيير نوع من النقود إلى نوع آخر ، فهناك التحويل ، والصرف ؛ وإذا كانت الودائع مصحوبة بتعهد بإعادتها مع الربح ، فهى سلفة . وبدأت بذلك العمليات المصرفية الرأسمالية ، ومنذ بداية القرن الثالث عشر .

وفى نفس الوقت بدأ الأفراد يجتمعون ويضعون مواردهم سويا فى مشروعات أكبر من أن تتحملها قوى فرد واحد منهم . وبعد عقود التوريد وعقود الشركات ، جاء التأمين البحرى لكى يضمن العمليات ضد أخطار البحر . وسبق الإيطاليون غيرهم فى هذا الميدان ، وأصبحت جنوا مركزاً لبنك سان جورج ، أما حى الريالتو فى البندقية فأصبح من أكبر المراكز المالية ، وتخصصت هذه المدن ، مع غيرها من مدن شبه الجزيرة الإيطالية فى تقديم السلفيات ، وإحتفظت بسجلاتها ومراسلاتها التجارية . وأصبح فى وسع المصدرين والمستوردين أن يجدوا فيهما رؤوس الأموال اللازمة ، والمعلومات الخاصة بالموردين والمستهلكين فى مختلف الأقاليم .

وجاءت النقود المصرفية لكى تزيد وسائل العمل التى كانت تقوم بها القطع المعدنية . وظهرت قطع فضيه كبيرة وأصبحت متداولة فى كل أوربا ، وأخذ الذهب فى الغرب نفس الأهمية التى كانت له فى الشرق مع الدينار والبيزنطى ، وبخاصة فى المدفوعات الدولية . وإزدادت أهمية نوعين من القطع الذهبية التى ظهرت فى العصور الصليبية ، الأولى قامت فلورنسا بصكها وأسمتها فلوران ، وإنتشرت بعد ذلك فى كل إيطاليا وفى فرنسا وإنجلترا والإمبراطورية ، والثانية

قامت البندقية بصكها ، متشبهة فى ذلك بفلورنسا ، وأسمتها الدوق ، وإنتشرت بعد ذلك فى المجر ومع الفرسان التيوتونيين فى بروسيا ، وعرفها المشرق بأسم الصكة . وهكذا تفتحت مناطق النفوذ المالية ، ومناطق التغلغل المصرفية والإقتصادية.

وإنتشرت الأجور ، سواء للعامل ، أو الموظف أو صاحب الحرفة ، مع إنتشار النقود وإتساع إستخدامها . فأثر ذلك بالتالى على الاستعباد ، وإختفى نظام الرق من أوربا . وزاد إستغلال الإنسان لحيوانات الجر ، وذلك بإستخدام حزام الوسط ، وطوق الرقبة ، مما جعل هذه الحيوانات تتمكن من مضاعفة ماتجره، وتوفر مجهود الانسان فى هذه العمليات . وأخيراً فان سفر عدد من السادة فى الحروب الصليبية قد ساعد على تحرر أبناء القرى وأبناء المدن . فاجتمعت بذلك العوامل الأساسية للإزدهار الصناعى .

ولم تكن هذه الصناعة سوى حرف المدن والبادية ، وإن كانت قد أصبحت أكثر تخصصاً وأكثر تنظيما . وكان أهم هذه الحرف هى صناعة المنسوجات التى إستغلت الأصواف ، وإنتشرت فى كل أوربا ، وعاشت منها جيوش من الغزالين والنساجين والصباغين . وأخذت ميلان وفلورنسا وتسكانيا فى التفنن فى صنع هذه الأنسجة ، وأخذ الايطاليون يبيعونها ويوزعونها فى جميع أنحاء العالم ، وساعدت التجارة على إزدهار هذه الصناعة. وجاءت المعارض والأسواق الدولية لكى تسهل تسويق السلع ، وتساعد على التوجيه إلى إنتاج السلع المطلوبة أكثر من غيرها . وكانت هناك سلسلة متتالية من المعارض والأسواق تمر فى فرنسا وتصل شبه الجزيرة الايطالية ببريطانيا وألمانيا . وحينما قامت الحروب بين فرنسا وإنجلترا ، تعطلت هذه الاسواق ، وأصبحت هذه السلع تمر بين شمال أوربا وجنوبها بحرياً ، عبر المحيط الأطلسى والبحر المتوسط . أو مع نهر الراين وعبر جبال الألب .

وكانت هذه هي الوسائل الجديدة من سفن ونقود وأنسجة ، أما الأهداف ، فكانت هي التعامل مع بلاد الشرق ، رغم أنها إسلامية . ولقد حاول البابا أن يعارض أو يعترض على قيام مثل هذه الحركة مع المشرق ، ولكن الايطاليين لم ينصتوا إليه . وأخذ الفاتيكان فى إصدار صكوك الحرمان ، ولكنه إضطر إلى ترك هذه العملية ، وأغمض عينيه عنها . وكانت أوربا تحتاج إلى أن تبيع . سواء بموافقته أو بدونها ، وإحتاجت فى ذلك إلى المراكز البحرية ، وإلى الامتيازات ، والمخازن والقواعد ، التى كانت ، فى حقيقة الأمر الدعائم التى تقوم عليها المستعمرات وبدأ كل من البحارة والتجار فى العمل .

(٢) أهالى جنوا :

حاولت كل موانى الحوض الغربى للبحر المتوسط أن تجرب حظها وتعمل على تصدير الأنسجة على سفنها للمشرق ، وتعود بالسفن محملة بالتوابل . وساهمت كل من برشلونة ومونبلييه ومرسيليا وغيرها فى هذه الحركة ، كما ساهمت فيها جنوا وبيزا والبندقية فى إيطاليا .

ورغم أن الأسبانيين كانوا قد إنشغلوا بمشكلاتهم الخاصة عن الحروب الصليبية ، إلا أنهم حاولوا الاشتراك فى هذه الحركة التجارية الجديدة . وكانت أنسجة الشمال تصل إلى برشلونة عن طريق نهر الرون ، ثم بالطريق الساحلى الموازى لسواحل فرنسا الجنوبية ، أو بالسفن رأسا . وكانت برشلونة توزع هذه السلع فى كل إسبانيا ، وحاولت أن تبيعها كذلك فى صقلية وشمال إفريقيـة وفى مصر . وكانت لها مراكز تجارية فى دمياط والاسكندرية ، وشركات فى اليونان ; وإتحدت أرغونة ونافار تحت حكم أسرة أرغونة التى سيطرت على ليون وقشتالة وإستعدت لتوحيد إسبانيا ، ثم إنتزعت ميورقة من المسلمين ودعمت سلطة برشلونة فى منطقتها . كما أنها حكمت صقلية ، التى تخلصت من الحكم الفرنسى ، وإستعدت بعد ذلك لغزو كورسيكا وسردينيا . وكانت كل هذه المحاولات تدل

على أن أبناء أرغونة كانوا عنيدين ، وأنهم كانوا مصممين ، بعد تخلصهم من تحكم الرومان والقوط والعرب ، على أن ينتفعوا ويتوسعوا فيما حولهم ، ويتحكموا فى غيرهم . إنها روح إستعمارية واضحة كانت آخذة فى النمو والتوسع .

أما أهالى جنوب فرنسا فكانوا يحاولون التجارة مع شمال إفريقية ، ومع شرق البحر المتوسط ، خاصة وأن سفنهم كانت موجودة . وكان لتجار مرسيليا مراكز ومخازن تجارية فى عكا ، وإحتفظوا بفنادقهم فى الاسكندرية ، رغم أن نشاطهم كان أقل من نشاط أهالى جنوا بكثير ، ورغم أن جنوا كانت تنافسهم فى هذا الميدان .

وأما بيزا فقد قامت بنشاط كبير ، وأنشأت المراكز على السواحل السورية فى أثناء الحروب الصليبية ، لكى تمون المسيحيين، وإن كانت قد إستمرت فى تزويد القاهرة بالأسلحة التى إستخدمها المماليك فى حربهم ضد المسيحيين . وحصل أهل بيزا من مصر على تعريفة جمركية مخفضة لوارداتهم إلى الاسكندرية ، وظلوا يتاجرون مع شمال إفريقية بعد هزيمة القديس لوى ، بل وسيطروا على التجارة الخارجية فى موانى تونس ، وسفاقص ، وقابس ، وطرابلس . ولقد تمكنوا من الاستيلاء على سرديفيا عدة مرات ، علاوة على سيطرتهم على كورسيكا نظير إيجار إسمى يبلغ جنيها ذهبيا واحداً يدفعونه للكرسى البابوى : ولكن جنوا تمكنت من هزيمة أسطول بيزا ، وأسرت كثيراً من أهلها ، وإستولت أسرة أراغونة على سرديفيا ، كما إستولت جنوا على كورسيكا ، وقام نزاع بين أبناء الطبقة الارستقراطية فى بيزا ، وإنتهى الأمر بخضوعهم لفلورنسا ، وأصبحت سفن بيزا بعد ذلك تعمل لحساب الفلورنسيين .

وكانت جنوا تقع فى مركز متوسط ، من البحر المتوسط ، وكانت فى نفس الوقت أقرب من غيرها إلى مراكز الانتاج الشمالية وكان أهالى جنوا قد ربحوا كثيراً من الحروب الصليبية ، وبخاصة فى إمارتى طرابلس وأنطاكية . وبعد

إنتهاء هذه الحروب إتجهت أنظار أبناء جنوا إلى الأراضى القريبة من موانئهم ، وخاصة إلى كورسيكا وسردينيا ، وإمتد نشاطهم إلى الساحل الأفريقى، وتوسعوا فى سبتة ، وإستمروا فى الملاحة فى المحيط الأطلسى حتى سلا ، ويظهر أنهم وصلوا إلى جزائر الكناريا. وأقاموا لأنفسهم قواعد فى طرابلس وتونس وبجاية ووهران وتلمسان . وإضطروا إلى محاربة العرب حتى يتمكنوا من فرض أنفسهم ، ولكن سرعان ما أظهروا أنفسهم على حقيقتهم ، كتجار ، وتفاوضوا مع العرب ، وعقدوا إتفاقات سمحت لهم بالسيطرة على تجارة إفريقية الداخلية ، التى كانت تمر عبر هذه الموانى . وكانت سفن جنوا تحمل المصنوعات الزجاجية ، والأسلحة والأوانى إلى العرب ، وتعود محملة بالتبر والصوف والجلود والعبيد .

ولقد حاولت جنوا أن تبعد المنافسين لها عن طريقها ، وتمكنت من القضاء على أهمية أبناء جنوب فرنسا ، ولكنها لم تنجح فى إبعاد خطر محارة شمال إفريقية. وإزدادت قوة أبناء أرغونة مما إضطر جنوا إلى توجيه نشاطها صوب الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

وكانت لجنوا مصالحها فى الاسكندرية منذ وقت طويل ، فعملت على التحالف مع الأباطرة اليونانيين لبيزنطة حينما وجدت أن البندقية قد تحالفت مع أباطرتها اللاتينيين ، فانتصرت جنوا حينما عاد اليونانيون لحكم بيزنطة وحصلت على إمتيازات وتسهيلات كثيرة ، وتمكنت من إنشاء حى بيرا وحى جلطة ، على الجانب الأيسر للقرن الذهبى ، اللذين أصبحا مستعمرة لجنوا ، ومدينة شبه مستقلة ، تمت على ضفاف البوسفور ، وكمركز للأعمال البحرية والتجارة . وحصلت جنوا من البيزنطيين على مراكز أخرى على ساحل آسيا الصغرى وعلى جزر خيوس وليسبوس ، وإستغلتها كمراكز بحرية ، كما إستغلت الامكانيات الاقتصادية الموجودة فيها . وإستقر أبناء جنوا فى قبرص ، وأقاموا مراكزهم التجارية فى فاجوستا ، ثم أرسلوا حملة إحتلت هذه المدينة ، وسيطروا بذلك على

التجارة الخارجية لهذه الجزيرة . كما توغلوا فى البحر الأسود ، وأنشئوا المراكز فى القرم وعند مدخل بحر آزوف ، وإشتروا منها الفراء والشمع والقمح والاسماك المالحة ، وباعوا فيها منتجات بلادهم ، والمنتجات التى كانت تأتى اليهم من مناطق أخرى . ولم تقتصر التجارة فى هذه المراكز الأخيرة على التعامل مع جنوب روسيا ، بل إمتدت إلى السلع الآتيه من آسيا ، والتى كانت تصل بالقوافل من قبل إلى ممالك الفرنجة فى سوريا . كما كان لأبناء جنوا مراكزهم فى اللاذقية ، فاشتروا منها التوابل والاقمشة والاحجار الكريمة ، وباعوا فيها الانسجة الصوفية والانبذة والحبوب .

ولم تصادف جنوا مصاعب كبيرة فى مستعمراتها ومراكزها ، خاصة وأن أهل غالبيتها كانوا من أبناء جنوا نفسها . ولكن بعض هذه المستعمرات ، مثل القرم ، كانت خاضعة لحكم جنوا ، فكونت جنوا فيها مجلساً خاصاً بها لإدارتها ولإرسال تعليماته إلى أحد القناصل الموجودين فى المستعمرة للتنفيذ . أما فاجوستا فإن جنوا قد عينت أعضاء المجلس الخاص بها ، ولكنه كان يجتمع فى هذه المدينة . وأما بيرا وجلطة فكانت إدارتها شبه عسكرية . وأما ليسبوس فكان حكم جنوا فيها إقطاعياً ، إذ أنه كان فى أيدى أسرة أرستقراطية من جنوا . وأما بقية جزر بحر إيجه فإن جنوا قد عهدت بها إلى شركات كان عليها أن تضمن الأمن الداخلى والدفاع الخارجى ، وتنظيم المالية حسبما ترى ؛ ويمثلها أحد أمراء البحر فى الجزيرة لتنفيذ القرارات . وكانت أسهم هذه الشركات تباع فى جنوا ، كما كانت تباع فيها أنصبة من المستعمرات . ونجح هذا النظام ، وإجتذب عدداً من أصحاب رؤوس الأموال فى جنوا . رغم المخاطرة الموجودة فيه ، وإمكانية عدم الربح أو حتى الخسارة والافلاس . واستخدمت جنوا نفس الطريقة فى كورسيكا ، التى إنتشرت فيها الثورات ، رغم وجود حاميات قوية فيها . فكونت جنوا شركة لإدارتها وإبعاد نفوذ أراغونة عنها . وعممت جنوا هذه الطريقة ،

وأنشأت بنك سان جورج لتجميع رؤوس أموال كل ممولى الجمهورية ، ثم عهدت له بكل ممتلكاتها فيما وراء البحار . وأصبح لهذا البنك مجلس إدارة ، هو فى واقع الأمر مجلس شيوخ ، كما أصبحت له قواته ، وباشر « السيادة » على كورسيكا وعلى كل المراكز والمستعمرات الخاصة بجنوا .

وسواء كان الشكل الخارجى لهذا الاستعمار هو عام أو شخصى ، فإن أهدافه لم تكن إلا تجارية . وكان هدف القائمين عليه هو الشراء بأرخص الأثمان ، ثم تيسير النقل ، والبيع مع أكبر ربح . وعمل أبناء جنوا على الموازنة بين تكاليف السفر فى الذهاب وتكاليفه فى العودة ، كما زاروا المعارض والأسواق الدولية ، وعقدوا المعاهدات التجارية مع المدن . وجاء تجار كثيرون من فرنسا والفلاندر وبلاد الراين وإنجلترا إلى جنوا ومعهم سلعهم من الأنسجة الصوفية ، عارضين بيعها . وكانوا يعودون إلى مناطقهم بعد شرائهم للحراير والتوابل من جنوا . وكانوا يجدون فى هذه المدينة كل ما يحتاجون إليه من سلع وسفن ورؤوس أموال وسلفيات ، فكانوا يتعاملون ويستلفون ، ويودعون ويضاربون ، وكانت هذه المدينة تسحرهم بالطابع الشرقى الذى كان يسودها ، ويؤثر حتى فى لغة ولهجة أهلها .

ولكن قوة جنوا ورفاهيتها كانت رقيقة . فكانت تحكمها جماعة تتكون من ثمانية أشخاص ، ثم بدأت الفوضى تدب فى المدينة بعد أن أصبح الحكم فى أيدى قائدين من « قواد الشعب » يعاونهم أحد رجال الكنيسة بأسم « راعى الشعب » ، فتنازعوا على السلطة وتنازعوا الاختصاصات ، ثم بدأت الحروب الاهلية لتأييد هذا العنصر أو ذاك . وساعد على هذه الحروب الانقسام الفكرى ، وتضارب المصالح ، بين السادة الجبليين ، و « الشعب » الذى كان له إتجاه الجلف ، أو بمعنى أدق ، تبلور المصالح وتضاربها بين الارستقراطية والبورجوازية : إذ أن « الشعب » بالمفهوم الحقيقى كان مستغلا فى هذا الصراع . وحاولت جنوا أن

تنفذ الموقف بتسليم السلطة العليا فيها لدوق من الدوقات ، ولكن هذا النظام لم يوقف الصراع الداخلى والذى ترأسته أسر جنوا الكبيرة . وأخذت الأحزاب فى طلب المعونة الأجنبية فدخلت جنوا تحت نفوذ ميلان ثم البابا أو نابلى أو فرنسا . وكان تضارب المصالح مع البندقية سببا أساسيا فى إضعاف جنوا ، خاصه وأن هذا التضارب والتنافس قد أخذ شكل حروب شبه مستمرة ، وفى المشرق وبيزنطة وقبرص . وكانت للبندقية حكومة مدعمة ، فى الوقت الذى تهلهل فيه حكم جنوا . ولقد إنتهز المغاربة فرصة هذا الصراع ، وتمكنوا فى بعض السنوات من إقفال الملاحة فى مضيق جبل طارق ، ومنعوا سفن جنوا فى بعض الحالات من الوصول بالتجارة إلى الفلاندر .

٣ ـ البندقية وإمبراطوريتها :

كانت البندقية تعيش على الماء وكانت تعيش من الماء . وكانت غزوات اللومبارديين قد دفعت أهلها صوب البحيرات ، وإلى الاعتصام بالجزر الموجودة فيها ، وأجبرتهم على المعيشة من صيد الاسماك وإستخراج الملح ، تحت حماية بيزنطه البعيدة .

ونمت البندقية حول كنيسة القديس مرقس ، وكان نظام حكمها فى أول الأمر عبارة عن « ملكية شعبية » إن جاز هذا التعبير ، فعلى رأسها دوق ، أو دوج ، ينتخبه الشعب مدى الحياة ، ولها مجلس مسئول وقوانين ، ثم أصبحت السلطة أرستقراطية ، وتحول مجلس « الشعب » إلى مجلس « السادة » وأصبحت سلطة إنتخاب الدوق فى أيدى أربعين عضوا ، بعد أن إنتزعت من أيدى الشعب . وأصبحت هذه المجموعة تعد القوانين وتعرضها على مجلس «السادة» أو « العقلاء » أو « الشيوخ » ، ونشأ مجلس آخر من عشرة أعضاء لإدارة الأمن والدبلوماسية والمالية ، ثم سيطر على كل السلطة ، وعن طريق عدد من الموظفين الذين كانوا يديرون الحياة السياسية سراً ، وبالتجسس والوشايات .

حقيقة أن الدوقية لم تكن وراثية ؛ مما قد يؤدى إلى الفوضى ، ولكن السلطة الحقيقية كانت مركزة فى المجلس الأعلى ، والذى كان من شروط الأعضاء فيه ، أن يكونوا من أبناء الأعضاء السابقين فيه ، وكان هذا المجلس هو الذى ينتخب أعضاء مجلس العشرة ، مما جعل مصير البندقية محصوراً فى أيدى أبناء عدد محدد من الأسر الغنية فى المدينة . وكانت السياسة الاقتصادية للبندقيه موجهة ، وكان هناك إحتكار لتجارة الملح ، وضرائب معينة على إستيراد الزيت والقمح ، وإشراف تام على الواردات والأسواق . ولكن الميدان كان متسعا للنشاط الحر وللتجارة ولأعمال المصارف ، التى إزدهرت ، وإستمرت فى الإزدهار .

وأخذت البندقية فى إنشاء «فروع» لها ولتجارتها ، كمراكز ومستعمرات ، على الساحل البلقانى المواجهه لها فى زارا . ومنذ هذه اللحظة بدأت فى الشعور بضرورة تأمينها ، والسير بسياستها وسط المسافات «الدولية» والاقتصادية ، فصممت على التخلص من النفوذ البيزنطى ، وعلى إنشاء أسطول قوى لها .

وحصلت البندقية على إمتيازات إقتصادية وتجارية فى مملكة الفرنجة فى بيت المقدس ، وأصبحت تمتلك حيفا وثلث عسقلان وصور . وحصلت البندقية على مكاسب من بيزنطة ، وذلك باستيلائها على كورفو ، التى تشرف على مدخل البحر الادرياتى ، وبإنشائها حياً خاصاً بأبنائها فى القسطنطينية ، يشرف على القرن الذهبى ، وبإعفائها من كل ضرائب الدخول والاستيراد . وكانت البندقيه هى التى حولت الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية ، لتعيين أباطرة لاتينيين على عرشها . وكان هذا إنتصاراً كبيراً للبندقية التى أصبحت نصف القسطنطينية فى أيديها ، مع ماتشتمل عليه من كاتدرائية القديسة صوفيا ، فعينت فيها حكاماً وازنت سلطتهم سلطة الأباطرة الرومانيين . وكانت البندقية تختار نقطا هامة لإنشاء مراكزها ومستعمراتها ، بدلا من أن تعمل على الاستيلاء على أراضى وأقاليم واسعة ؛ فاستولت على دورازو وكريت وغاليبولى وهرقلية على بحر مرمرة ،

متجهة بذلك صوب البحر الأسود ، ولقد أثر إنهيار الامبراطورية اللاتينية وعودة اليونانيين إلى بيزنطة على إمكانيات البندقية ، خاصة وأن جنوا ، منافستها ، هى التى أخذت فى تدعيم ركائزها هناك . وإقتسمت كل من جنوا والبندقية مناطق النفوذ فى الشرق ، وإن لم يمنع ذلك من إستمرار التنافس . وأثر ذلك على الحركة التجارية ، خاصة وأن أعمال القرصنة ، والاستيلاء كل من الطرفين على سفن الآخر ، قد أصبحت من صفات هذا التنافس ، بل هذه الحرب الاقتصادية المستمرة . ودفع ذلك البندقية إلى تدعيم نفوذها ، وتوسيع نطاق الأراضى الخاضعة لها ، فأعادت إحتلال كروفو ، وسيطرت على أثينا وسالونيك ، وأخذت فى مد مراكزها فى البحر الأسود إلى الشمال من مصب الدانوب فى القرم ، وفى بحر آزوف . كما عملت على تنمية فنادقها فى الاسكندرية والقاهرة ، وعقدت إتفاقيات مع السلاطين المماليك . وإستمر البنادقة فى اللاذقية يشترون — إلى جانب أبناء جنوا — المتاجر والسلع الآتية من آسيا بالقوافل . أما قبرص فان آخر ملوك أسرة لوسينيان فيها كان قد عمل على التحالف مع البندقية ، وتزوج من إحدى البندقيات ، مما جعل جمهورية البندقية ترث هذه الجزيرة بعد موته .

وكانت قوة البندقية السياسية تستند إلى عوامل اقتصادية . فقد كان هناك ستة عشر ألفا من العمال يخدمون فى الورش البحرية ، وكان فى استطاعتهم بناء سفينة فى كل يوم . وكانت مدينة الدوق مشهورة بصناعة المنسوجات . إذ كانت تنسج الأقطان المستوردة من سوريا والحرير المستوردة من الصين . وعمل رجال الحرف فيها على صناعة المعادن والعاج والزجاج والبلور المشهور . وكانت التجارة ، بالنسبة للبندقية ، كما كانت بالنسبة لجنوا ، هدف كل صناعة ، وهدف كل سياسة . وكان الدبلوماسيون يعملون من أجلها ، وكذلك المجالس والأنظمة التى أعطت السلطة لأسر التجارة الكبيرة . وكانت البندقية تسيطر على سوق الملح ، كما كانت تسيطر على سوق القمح الذى كانت تستورده من البحر الأسود ورومانيا ،

وتسيطر على أسواق التوابل والمنتجات الشرقية التى تستوردها من الشام . وكانت تستورد الزيت من كورفو والأنبذة من كريت واليونان. وكانت توزع المنتجات بين كل من آسيا وأوربا وإفريقية .

وكانت هناك ثلاثة آلاف سفينة تحمل ستة وثلاثين ألفا من البحارة وتخرج من البندقية متجهة صوب شرق البحر المتوسط أو صوب الفلاندر فى كل عام . وكان مجلس الشيوخ هو الذى ينظم هذه القوافل ، وهو الذى يشرف على إنشاء السفن ويعين لها قوادها ومايلزم لها من بحارة . وكان يترك مابقى بعد ذلك ، من بيع وشراء وعقد صفقات ، للنشاط الفردى . وكانت البندقية هى التى توجه السياسة والادارة الخاصة بالمستعمرات ، فكان نصف أعضاء مجلس العشرة مختصاً بمشكلات ماوراء البحار، والنصف الثانى مختصا بمشكلات الممتلكات الموجودة على القاره الأوربية ، وكان مجلس الشيوخ يشرف على الأسطول الحربى ، ومجلس العشرة يشرف على الدبلوماسية والمالية .

وكانت البندقية تربح من ممتلكاتها الخارجية ، إذ كانت الضرائب التى تجمعها فيها تصل إلى ٦٤٠ كيلو جراما من الذهب فى السنة ، فى أوئل القرن الخامس عشر ؛ ثم زادت إلى ١٨٠٠٠ كيلو جراما فى القرن السادس عشر . أما الأرباح العامة ، والدخل القومى ، الذى يصل إلى جيوب البنادقة فكان أضعاف أضعاف ذلك. وكانت البندقية تعهد بادارة ممتلكاتها إلى موظفين أو قناصل ، وترسل لجانا للتفتيش على إداراتهم وحساباتهم من وقت لآخر ، وكانت لاتشرك الأهالى فى الحكم ، ولكنها كانت لاتستعبدهم ؛ وإن كانت لاترضى عن الفوضى ، وتستخدم الشده فى كبتها حتى لاتعوق التجارة وتعطل الأسواق ، كما حدث بالنسبة لكريت . وكانت تعهد فى بعض الأوقات إلى بعض الكونتات بادارة مستعمراتها أو تعهد بها إلى أسر أرستقراطية ، وبخاصة فى القاره الأوربية . وعملت فى بعض الحالات على إحضار حاميات كبيرة ، وعلى توطين بعض أبنائها فى المستعمرات ، كما حدث

مع كريت ... أى انها إستخدمت استعمار « التوطين » وأفادت من هذه العناصر الواردة إلى الجزيرة لتكوين اطارات أو قيادات لها ، وباشراف موظفى الدولة ، حتى تقضى على الروح الثورية . ونجحت البندقية حيث فشلت جنوا .

٤ ـ الجامعة الهنسية :

نجحت المدن الألمانية مجتمعة فى القيام فى شمال أوربا بنفس العمل الذى قامت به كل من جنوا والبندقية بنفسها ولنفسها فى البحر المتوسط . وكانت عمليتها هى نفس عملية الاستعمار لأغراض تجارية ، ونفس عملية إنشاء المراكز التجارية شبه المستقلة والتى كانت تستخدم كمخازن وأسواق لبيع أنسجة الفلاندر ومنتجات الصناعة الغربية ، ولشراء منتجات الأهالى والمواد الخام الموجودة . ولكن مدن الشمال قد عملت على توحيد عملياتها فى الوقت الذى عملت فيه الفردية على توزيع مجهود اللاتينيين ، وساعد حب النظام أبناء الشمال على الاستمرار فى عمليتهم بهذا الشكل الخاص بهم ، ورغم أنه لم يكن لأى مدينة من مدن شمال أوربا امكانيات جنوا المالية ، ولا إمكانيات البندقية البحرية ، إلا أنها نجحت مجتمعة ، وبوضعها مواردها سوياً ، فى إنشاء امبراطورية تجارية هامة .

ولقد نشأت هذه الاتحادات نتيجة لتطور اتحاد نقابات الحرف ، سواء أكان ذلك لأهداف البر والاحسان ، أو لاقامة الأعياد المهنية والدينية ، فى مدينة من المدن . ثم إتحدت هذه النقابات فى مدن مختلفة ، وكونت لها قوات متحدة ، لحراسة تجارتها ، ومحاربة قطاع الطرق والقراصنة ، أسمتها بالألمانية « هانس » وأخذت بالتالى فى الاشراف على تنظيم القوافل التجارية ، البرية والبحرية ، ثم الاشراف على الأسواق وعلى كل العمليات التجارية .

ونشأت الهانسا الخاصة بلندن بهذه الطريقة ، وأخذت فى حماية المواصلات بين انجلترا والفلاندر ، وكذلك هانسا المدن السبعة عشر فى هولندا ، وهانسا « الماء » فى منطقة السين فى فرنسا . ثم تجمعت هذه الاتحادات سوياً ، وتعاونت

ماليا ، ثم وضعت رؤوس أموالها فى إتحاد عام ، يساعدها على مجابهة الأخطار التى قد تتعرض لها تجارتها . و تحولت أعمال الاتحادات الهنسية من أعمال أمن إلى عمليات تجارية ، مشتركة .

وكانت الجامعة الهنسية الألمانية هى أشهر هذه الاتحادات ، وعملت على حماية أعضائها من الإستبداد الاقطاعى ، مثل حمايتها لتجارتهم من قطاع الطرق . وتجمعت فى هذه الجامعة مدن كولونيا مع مونستر ودور تموند ، وأخذت فى إستغلال مناطق البحر البلطى ، وأنشأت لوبيك وروستوك وأقامت مراكز لها فى نوفجوزورد ، وعملت هذه الجامعة على حماية صيادى الرنجة فى لوبيك وغيرها ، وإضطرتها هذه السياسة إلى فرض نفسها على البلاد الاسكندنافية ، والتوسع فيها من ناحية ، كما اضطرتها ، من ناحية أخرى ، إلى التعامل مع العالم المسيحى ، لكى تبيع أسماكها للكاثوليك ، وخاصة لوجبات يوم الجمعة ، ووجبات الصيام .

وإنتقل مركز هذه الجامعة من كولونيا إلى لوبيك التى عقدت معاهدة صداقة وحرية تجارة مع هامبورج ، ثم إنضمت اليها ستون مدينة من موانى البحر البلطى وبحر الشمال وحوض الراين ، وكانت جميعاً الجامعة الهنسية . التى كانت فى واقع الأمر عبارة عن حلف يهدف العمل ضد أى اعتداء خارجى ، أو تحكم داخلى ، ويهدف ضمان حرية طرق الصيد وتجارة الأسماك ، والتوسع فيها . وانضمت زيوريخ وفرانكفورت ومدن الشمال والشرق ، وبريمن ومجدبورج لهذه الجامعة ، التى نجحت فى توحيد المانيا وعلى أسس اقتصادية ، بعد أن فشلت الامبراطورية الجرمانية فى توحيدها على أسس عسكرية ودينية ؛ ونجحت فيها بوضعها لمواردها سويا وبالاشتراك ، بعد أن كانت تجربة الامبراطورية تقوم على أساس هرمى .

وسيطرت الجامعة الهنسية على مدن كثيرة فى الأراضى الواطئة ، مثل بروج وألفرس وأمستردام . وكانت تدفع رسوم جمركية مخفضة على بضائعها فى بعض

المدن ، وتتمتع بإعفاء كامل من هذه الضرائب والرسوم فى مدن أخرى ، دون أن تصل تجارتها إلى إحتكار السوق إحتكاراً كاملا . وكانت الجامعة تستخلص الملح لحفظ أسماكها — من غرب فرنسا ، كما حصلت فيها على إعفاء تجارتها من الضرائب ، وحصلت على حق البيع والشراء والتملك . وكانت الجامعة الهنسية تشترى الصوف من انجلترا ، وتصدر اليها المنتجات الشرقية والإستوائية والخشب والمعادن . وكان لها مركزاً محصناً فى لندن . يعيش فيه التجار الألمان معيشة تشبه إلى حد كبير معيشة الرهبان فى الأديرة . واضطرت الجامعة الهنسية إلى أن تحارب فى بلاد الشمال الإسكندنافية ، حتى تركز أقدامها فى هذه المناطق ، فأغارت على كوبنهاجن ، وفرضت نفسها على الدانيمركيين والنرويجيين ، وعقدت معاهدة تجارية معهم ، حصلت بها على ثلاث موان ، ومركز ثابت للصيد . وبعد حرب ثانية حصلت الجامعة الهنسية على بعض المراكز التجارية فى الدانيمرك ، وإعفاء من رسوم الملاحة البحرية ، واحتكار دخول البحر البلطى لسفنها . واحتلت الجامعة الهنسية أستكهولم لكى تقضى على العصابات وأوكار القراصنة الموجودة فيها ، والموجودة بالقرب منها . وتمكن رجال الجامعة الهنسية من إنشاء المراكز التجارية ، من البحر البلطى ، فى داخل روسيا نفسها .

وهكذا إمتدت أراضى الجامعة الهنسية من انجلترا إلى روسيا ، مستندة إلى مراكز ونقط ثابتة . وكانت الجامعة الهنسية تشبه دولة منتظمة أكثر من شبهها بشركة تجارية ، فكان لها مجلس أو برلمان ، يجتمع فى لوبيك مرة كل ثلاث سنوات ، وقسمت مناطق عملها إلى أربعة أقسام هى وستفاليا وعاصمتها كولونيا ، وساكس وعاصمتها برنزويك ، والفاند وعاصمتها لوبيك ، وبروسيا وعاصمتها دانتزج . وكانت تعاقب كل مدينة عاصية وتفرض عليها الضرائب أو الغرامة ، أو تصادر سفنها وتجارتها ، أو تطردها من الاتحاد ، مما يؤدى إلى أنهيارها الإقتصادى .

وكانت مراكزها فى الخارج محاطة بأسوار ، وتقفل أبوابها ليلا ، ويحكمها ستة من الشيوخ ، ويعاونهم مجلس من ثمانية عشر عضواً . وكان أبناء الجامعة يعيشون فى هذه المحطات حسب نظام معين ودقيق ، وحرم الاتحاد عليهم تكوين الشركات مع الأهالى ، أو إستخدام أبنائهم ، أو التزاوج معهم . كما حرم عليهم تمثيل هيئات غريبة عن الجامعة الهنسية ، والقيام بعمليات تجارية مستقلة أو لحسابهم الخاص . ولم يكن من حق أى سلطة ، سوى قضاة الجامعة ، أن تتدخل فى خصوماتهم ، وطبقاً لقوانينها . وكانت سلطة الإستئناف مركزة فى محكمة لوبيك .

وكانت للجامعة الهنسية مواردها الثابتة من الضرائب ، كأى دولة من الدول ، وكانت تفرض رسماً معيناً على السفن والبضائع التى تدخل موانيها . كما كان لها جيشها وأسطولها الحربى . وكانت تعلن الحرب ، وتعقد الصلح .

وكانت قوتها ترجع إلى سياسة الإحتكار التى سارت عليها ، إذ أنها كانت الوسيط الوحيد فى كل العمليات التجارية فى شمال أوربا ، وكانت تبيع لهذه المناطق توابل الشرق ، وتمنع سفن غرب أوربا من دخول الموانى الاسكندنافية وموانى البحر البلطى . وكانت هى وحدها التى تبيع الرنجة المجففة والمملحة والمدخنة لكل العالم ، كما كانت تحتكر عنبر بروسيا وحديد السويد وأخشاب النرويج وفراء روسيا ، وكان تجارها يتوغلون فى القارة مع الأنهار ، فكانوا يوصلون الأنسجة الفلامنكية إلى سيليزيا وبوهيميا ، ويعودون منها بالمعادن . وإذا كانت قيمة تجارة الجامعة الهنسية أقل من قيمة تجارة المدن الإيطالية ، إلا أن حجمها كان يماثل حجم تجارة هذه المدن .

وبدأ ضعف الجامعة الهنسية من داخلها . ذلك أن أهالى المدن الألمانية أخذوا فى الثورة على دكتاتورية الأرستقراطية التجارية ، وتمكنت الأحزاب «الشعبية» من الوصول فى بعض الحالات إلى الحكم . كما أن التنافس قد ظهر ، ثم تزايد ، بين مدن البحر البلطى ومدن بحر الشمالى ، وفشلت لوبيك فى فرض نفسها ،

والوحدة الهنسية ، على المتنافسين . ثم جاءت عوامل خارجية ساعدت على إضعاف الجامعة الهنسية ، ذلك أن هذه الجامعة قد إضطرت إلى إعلان الحرب على الدول الإسكندنافية الثلاث التى إتحدت مع بعضها ، حتى تحتفظ بمصالحها هناك ، كما قامت جماعة الإخوان التيوتونيين بتأييد المدن البروسية فى حركة تحررها وخروجها من الجامعة .

ولقد ظل البحر البلطى هو مركز قوة الجامعة الهنسية ، وهدف سياستها . ومن أجل تنفيذ هذه السياسة ، واجهت الجامعة الهنسية عدواً عنيداً ، يتمثل فى شخص فلاديمير الرابع ، ملك السويد النشط ، الذى وجه ضربات قوية للسادة الإقطاعيين فى بلاده ، ودعم سلطته ، وأخذ يحلم بتوحيد الدول الإسكندنافية تحت سيطرته ، وإخضاع مدن الجامعة الهنسية لأهدافه . وأرسل حملة عسكرية ، فى شهر يوليو سنة ١٣٦١ ، إلى جزيرة جوتلاند ، حطمت المركز التجارية الموجودة فيها . وأدى ذلك إلى إتحاد بعض المدن مع الجماعة التيوتونية فى هامبورج وبريمن وكييل ؛ وإستندوا إلى تأييد ملك السويد ، وأعلنوا الحرب على الدانيمرك . ولكن أسطولهم الذى قاده عمدة لوبيك لم يحرز نصراً حاسماً ، وظل ملك الدانيمرك مسيطراً على الموقف ، وتمكن من أن يفرض مع شروط الصلح على الجامعة الهنسية، نوعاً من التحالف يشبه إلى حد كبير الخضوع لسيطرته، وذلك فى شهر نوفمبر سنة ١٣٦٥ .

ولكن الجامعة الهنسية عادت ، بعد عامين من الخضوع ، إلى الكفاح من جديد ضد الدانيمرك ، وعقدت فى سنة ١٢٦٧ رابطة قوية مع كولونيا ، واشترك فيها ما لا يقل عن ٧٧ مدينة . وإستندت كذلك إلى معونة سادة هواشتاين وملك السويد ، وكونت وحدات محاربة ، وأسطول بحرى ، وأعلنت الحرب على الدانيمرك فى العام التالى ، وتمكنت من الإستيلاء على كوبنهاجن ، الأمر الذى أجبر ملك الدانيمرك على طلب الصلح . وتأكدت إمتيازات الجامعة الهنسية من

جديد ، وحصلت على حرية الملاحة . والإعفاء من كل الضرائب الجمركية ، وحق إنشاء مراكز تجارية مستقلة فى الأراضى الدانيمركية ، وإحتلت بعض أقاليم الدانيمرك كغرامة حربية وحصلت على صوت فى إختيار خليفة ملك الدانيمرك الذى كان قد تقدم به السن .

وعلينا أن نلاحظ أن الجامعة الهنسية لم تكن لها أية أطماع إقليمية ، بل كانت ترغب فى مجرد الحصول على السيطرة البحرية ، وتم لها ذلك عن طريق تحطيم قوة الدانيمرك . وحصلت الجامعة الهنسية ، دون إحتلالها للدانيمرك ، على حرية منشآتها التجارية أمام أى تدخل أجنبى ، وعلى فتح المضايق أمام سفنها . وكانت هذه المعاهدة ، التى عقدت سنة ١٣٧٠ ، إنتصاراً واضحاً للجامعة الهنسية . وحين زار الإمبراطور شارل الرابع لوبيك سنة ١٣٧٥ ، تأكد نفوذ هذه المدينة ، عاصمة الجامعة الهنسية ، والتى كانت تسعى إلى الإستقلال ، بخضوعها لسيد خاص من النبلاء ، وفى شكل مشابه لروما والبندقية وبيزا وفلورنسا .

وأصبحت الجامعة الهنسية تجمع ، فى عمل مشترك ، كل المدن المطلة على السواحل الشمالية ، وكذلك مدن سهول ألمانيا الشمالية ، مثل كولونيا ، ودورتموند ، ومونستر، وفرانكفورت . وأصبح لأعضائها مراكز لها إمتيازات تجارية فى روسيا ، والسويد والدانيمرك وإنجلترا والفلاندر، كما أصبح لها مراكز تجارية دائمة، فى لندن ، وفى بروج ، التى كانت تتصل عن طريقها ، وبواسطة الملاحة ، بسواحل المحيط الأطلسى ، وسواحل البحر المتوسط .

٥ - البحارة الإيطاليون :

ومنذ بداية القرن الرابع عشر ، كانت سفن البندقية ، وسفن جنوا ، تلتقى مع سفن الجامعة الهنسية فى بروج ، التى أصبحت منذ ذلك الوقت وحتى النصف الثانى من القرن الخامس عشر حين أخذت أنفرس مكانها ، هى المركز الرئيسى للمعاملات الدولية فى أوربا . ولم يعد مينائها الداخلى مع مينائها الخارجى ، يكفى

لإستقبال كل السفن التي تتجه إليها ؛ فكانت السفن الكبرى تضطر إلى الوقوف قبل الميناء . وكان الأجانب يختلطون في المدينة نفسها ، ويقومون بالمعاملات التجارية ، والمبادلات ، والعمليات المصرفية .

وكان الإيطاليون هم الأغلبية بينهم ، كما كانوا الأكثر نفوذاً ، نتيجة لمعاملاتهم ، وضخامة رؤوس أموالهم . وكان تفوقهم نتيجة طبيعية لسيطرة إيطاليا الإقتصادية ، وإن كان ذلك يتناقض تماماً مع الفوضى السياسية التي كانت تضرب أطنابها في شبه الجزيرة الإيطالية . وكان العالم لا يزال بعيداً في ذلك الوقت عن قيام الدول بالسير في الطريق المركنتيلي . وكانت كل من البندقية وجنوا قد أفادت من موقعها الجغرافي ، ومن تقدمها على الدول القارية في فن التجارة وأعمال المصارف ، وإحتفظتا بسيطرة لم يجرؤ أحد حتى ذلك الوقت على منافستهما فيها .

وكانت كل من البندقية وجنوا قد عملت ، بذكاء أبنائها ونشاطهم ، على إجتذاب كل السلع والمتاجر التي كانت تصل من الصين وفارس والهند وآسيا الوسطى والبلاد العربية إلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط : مثل الحرير والعطور والمنسوجات الثمينة ، وكذلك التوابل المختلفة ، والتي كانت تجارتها تضمن لهم أرباحاً تزيد عن أرباح كل السلع الأخرى ، ولا يمكن عقد مقارنة بينها . وكانت غزوات المغول ، التي غيرت من شكل آسيا ، قد زادت من عزيمتهم ، ووسعت نطاق عملياتهم . وأصبحت المواد الغذائية تصل من الصين ، عن طريق التركستان ، إلى طرابيزون والقرم وفارس ؛ كما أن السلع التي كانت تأخذ طريق البحر كانت تصل في غالبيتها إلى مصر عن طريق عدن والبحر الأحمر ، أو عن طريق هرمز ، على الخليج الفارسي ، ومنها إلى موانى الشام . وكان تجار البندقية وجنوا يذهبون إلى هذه البلاد لشراء هذه السلع ؛ وإحتلوا مواقع في القرم ، وإزدهرت أماكنهم في كل مكان ؛ وأنشأت جنوا إدارة خاصة في القرم ، للإشراف على التجارة في البحر الأسود . وأصبحت السلع الروسية ، مثل الأسماك المملحة والقمح والفراء

والجلود ، أو الصينية ، مثل الحرير والتوابل ، يعاد تصديرها من القرم صوب أوربا . وأفاد تجار جنوا من ضعف نفوذ المغول فى جنوب روسيا ، لكى يوسعوا مناطق نفوذهم فى القرم . وتم نفس هذا التوغل فى فارس ، حيث أقاموا فى تبريز ، وذلك فى الوقت الذى عقد فيه البنادقة معاهدة للتجارة مع خان الفرس ، وعينوا قنصلا لهم فى إيران سنة ١٣٢٠ .

وتمكنت كل من البندقية وجنوا ، نتيجة للأرباح الضخمة التى حققتها ، من أن تصبح لها رؤوس أموال ضخمة ، الأمر الذى يفسر أهمية المكانة التى وصلت إليها فى العالم ، رغم كونها لا تتناسب مع قوتها العسكرية . وأصبحت كل منهما وسيطاً ، لا يمكن الإستغناء عنه ، بين أوربا وآسيا ، وأصبحت ثرواتهما تعوضهما عن الخدمات التى يقومون بها . وتكانشهما على نشاطهما فى ميدان الأعمال . ويعود إليهما ، وإلى أبنائهما ، الفضل فى تحسين وسائل العمل المصرفى : فقاموا بإبتداع أمور الدفع ، وتنمية السلفيات البحرية ، وساعدوا على إزدهار المؤسسات المصرفية ، ولعبت المضاربات دوراً هاماً فى أعمالهم .

ولا شك فى أن البندقية وجنوا ، كمراكز تجارية كبيرة ، كانت لها إشعاعاً فى المناطق الواقعة حولها ، وتسبب ذلك فى أزدهار لا مثيل له فى كل شبه الجزيرة الإيطالية . وأفادت من ذلك مناطق لومبارديا ، وتوسكانا ، وفلورنسا ، التى إعتمدت على صناعة النسيج ؛ وأصبحت أكبر مركز تجارى فى جنوب الألب . وفرض الإيطاليون أنفسهم على بقية بلاد أوربا عن طريق السيطرة على تجارة الفضة ؛ وكانوا قد حلوا ، منذ نهاية القرن الثالث عشر ، محل من يقدمون السلفيات المحلية ، والذين كانوا أقل ثراء منهم ، وأقل حكمة من هؤلاء المنافسين الجدد . وقل أن نجد ، فى أثناء القرن الرابع عشر ، رجال مصارف من غير الإيطاليين ، حتى أصبحت كلمة لومباردى تعنى من يقوم بإقراض النقود . وكان رجال الأموال يتركزون كذلك فى فلورنسا ، وإشتهرت منهم أسر ألبيرتى ،

وباردى ، وميديتشى ، فى أثناء القرن الخامس عشر . وكانوا يتدخلون شخصياً . أو عن طريق مندوبيهم ، فى باريس ولندن وبروج وأفينيون ، وفى جميع أنواع العمليات . وعملوا كرجال مصارف للبابوية ، وقدموا القروض للملوك والأمراء . كما أخذوا حق صك العملة فى إنجلترا وفرنسا ، وحق جمع الضرائب . وربما كان هذا التوسع سابقاً لأوانه ، خاصة وأن بعض هذه الأسر أعلنت إفلاسها فى أواسط القرن الرابع عشر ، ومضى قرن من الزمان قبل أن يظهر تفوق أسرة ميديتشى من جديد .

وتسبب التفوق الواضح للبحرية ولوسائل التجارية الخاصة بالإيطاليين فى تقليل أهمية الأسواق ، إذ أنه لم تعد هناك حاجة لهذا اللقاء الكبير بين تجار الشمال وتجار الجنوب . وكانت الإضطرابات والحروب تقلل من أمن الطرق البرية فيما بين بروج وإيطاليا ، رغم كونها مزودة بسلسلة من أماكن التبادل والأسواق والمخازن والمصارف . وكانت الجماعات المسلحة تنهب المسافرين ، وتوقف التجار ، وتفرض الأتاوات على كل من يقابلها ؛ وشارك فى ذلك بعض مجموعات من المحاربين كذلك . وأدت هذه الفوضى وقلة الأمن إلى التخلى عن طرق التجارة البرية بسرعة ؛ وأصبح البحر ، رغم مخاطرة وبطء حركة الملاحة فيه ، أكثر أمناً . وأصبحت السفن تمر مباشرة من مضيق جبل طارق صوب شمال فرنسا ؛ وبدأ المحيط يلعب دوراً للاتصال بين هاتين المجموعتين البحريتين الأوربيتين : مجموعة البحر المتوسط . ومجموعة بحر البلطيق .

وسرعان ما أدت المنافسة السياسية بين فرنسا وإنجلترا إلى دفعهما صوب التنازع على السيطرة على هذا الطريق التجارى ، الذى تزايدت أهميته . وكان الأمر قد إزداد تعقيداً ، إذ أنه قد نشأ ، إلى جانب تجارة العبور التى يقوم بها الإيطاليون ، حركة تجارة وتبادل محلية ، جاءت لتزيد من أهمية تجارة المحيط . وكان بحارة بوردو ، والبحارة الإنجليز ، قد أخذوا فى منافسة بحارة البرتغال

وخليج بسكاى ، وأخذوا يقومون بالملاحة بين شمال فرنسا ، وسواحل بحر المانش ، ولندن وبروج ، وذهبوا حتى بلاد النرويج لإحضار الأخشاب وأسماك الرنجة المدخنة ، نظير القمح والأصواف التى كانوا يحملونها من إنجلترا . وكان ذلك من بين الأسباب التى دفعت إدوارد الثالث إلى محاولة السيطرة على بوردو ولاروشيل . وإحتلال إقليم بريتانى ، الأمر الذى دفع شارل الخامس إلى أن يرد على ذلك بإقامة تحالف يستند إلى بحرية قشتالة ، وإلى تجار بسكاى ، الذين كانوا ينافسون تجار لندن وبريستول .

ورغم هذه الصراعات ، وربما بسببها ، تمكنت سفن جنوا والبندقية من أن تجد لها إمكانيات جديدة للتوسع فى المحيط الأطلسى . وتمكنت المؤسسات الإيطالية ، نتيجة لتقدم الوسائل التجارية ، من أن تعين لها مندوبين يتصلون بها مباشرة ، من كل مركز من مراكز الأعمال . وحاول الآخرون أن يتشبهوا بما كان يقوم به الإيطاليين ، الأمر الذى جعل التنظيم التجارى لبلاد الشمال يتطور ويتأثر بالإيطاليين .

وبدأت ألمانيا الجنوبية ، نتيجة لقربها من البندقية ، فى أن تشارك بنشاط فى الحركة الإقتصادية التى كانت قد سبقتها إليها الجامعة الهنسية ومنطقة الراين . وأصبحت مدن ألمانيا الجنوبية مراكز متوسطة بين موانى بحر الإدرياتيك والمدن البحرية فى الشمال . وتأثرت كل من بوهيميا وهولندا بالتوغل المتزايد للتجارة فى القارة الأوربية ، الأمر الذى ساعد على نمو مدينة براغ .

وهكذا شعرت أوربا ، بوقوعها بين بحرين داخليين — البحر المتوسط وبحر الشمال — بتزايد ونمو عمل منعش ، كان يتم منذ وقت طويل من حولها . ونشأت حركة عامة للمواصلات ، بين كل أجزائها ، ساعدت على توحيدها فى مجموعة متماسكة ، وزاد تضامن أجزائها مع بعضها . وكان إنتشار مرض الطاعون الأسود من سنة ١٣٤٧ إلى سنة ١٣٥٠ فى كل مناطق أوربا ، دليلا كافياً على وجود هذا العامل ، المميت .

الفصل السادس

الاتجاهات الاقتصادية الجديدة

إن النصف الأول من القرن الخامس عشر الذى يبدو ، إذا مانظرنا إليه من النواحى الدينية والسياسية والثقافية ، كفترة أزمة ، أو كمرحلة تحول عميق، يظهر بشكل مخالف تماما فى الميدان الاقتصادى : فلم يكن هناك بعد مايدل على أن أوروبا كانت فى انتظار إتجاه غير متوقع للحركة التجارية ، وأن إكتشافات العالم الجديد ستعمل على تحويل محور توازنها الاقتصادى ، من بحر البلطيق والبحر المتوسط ، إلى المحيط الأطلسى ، وذلك فى نفس الوقت الذى تتغير فيه ظروف المعيشة اليومية ، وتتسبب فى نمو الرأسمالية ، والصناعة ، ونظام العمل ، والتنظيم المالى ، مما سيكون له أخطر النتائج .

ولاشك فى أن أوروبا قد تغيرت ، حتى منتصف القرن الخامس عشر ؛ ولكن هذا التغيير كان كميا وليس كيفيا ؛ فكانت الحركة مستمرة ، ومتزايدة ، ولكن على نفس الخط ؛ وكان التقدم ، بالتالى ، فى نفس الاتجاه . ولم يكن هناك مايسمح بالتنبؤ بأنها ستأخذ إتجاها مختلفاً تماما ، بعد خمسين سنة أخرى. وكانت الأحداث السياسية الضخمة قد عبرت فوقها ، ودون أن تؤثر فيها . ذلك أن زيادة فقر فرنسا وانجلترا فى حرب المائة عام ، والفوضى المتزايدة فى إيطاليا وألمانيا ، وإنشاء دولة برجنديا ، وتدعيم الممالك الاسبانية لم يكن لها على الاقتصاد العام إلا نتائج مؤقتة ، دون أن تغيير ماهو أساسى وجوهرى فى هذا النظام . وكان فى وسع البعض أن يعتقد أن توسع بولندا ، بعد انتصارها على الفرسان التيوتونيين (١٤١٠) ، ووصولها فى الشمال حتى سواحل بحر البلطيق ، فى نفس

الوقت الذى وصل فيه توسعها جنوباً إلى البحر الأسود ، سيجعل من هذه الدولة وسيطاً بين أوربا وآسيا ؛ ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ؛ وجاء توسع الأتراك فى حوض البحر الأسود لكى يقفل هذا الطريق الجديد أمام العناصر السلافية . وكان البحر المتوسط ، وحتى سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، رغم قربه من الكارثة ، لم يتأثر بعد باقتراب وزحف العناصر المتبربرة . وظلت إيطاليا تحتفظ بذلك التقدم الذى كانت قد حصلت عليه منذ القرن الثالث على أوربا الشمالية ، دون أن يفكر أحد فى أن أنهيارها كان قريبا . وفى البحر الداخلى الثانى ، الذى كانت أوربا تطل عليه ، وهو بحر الشمال ، لم يكن هناك أى دليل على التغيير ؛ وظلت الجامعة الهنسية مسيطرة هناك كما كانت فى الماضى . ولم يكن فى وسع أحد أن يتنبأ بأن كل من انجلترا وهولندا سوف يرثانها هناك .

ولكن الأحوال تغيرت عند أواسط القرن الخامس عشر . ذلك أن إقفال الطرق التى كانت توصل آسيا بشرق البحر المتوسط ، نتيجة لغزوات الأتراك ، أجبرت أوربا على البحث ، فى اتجاهات جديدة ، عن وسائل تضمن لها استمرار توازنها الاقتصادى . ولم يعد البحر المتوسط هو الشريان التجارى الكبير ، كما كان عليه الحال منذ العصور القديمة ؛ وخسرت الشعوب التى عاشت على سواحله ماكانت تجنيه من احتكارها لهذه التجارة . وكان هناك تغيير قادم ، دون أن يتمكن أحد إلا من رؤية بعض مظاهره الأولى .

١ — نمو الرأسمالية :

إن الظاهرة الأولى ، المؤثرة والجديدة ، وسط هذا الاستقرار العام ، وذلك التوازن الاقتصادى فى النصف الأول من الخامس عشر ، تتمثل فى زيادة توزيع التجارة الرأسمالية . وكانت تتوغل أكثر وأكثر ، من مركزيها : البندقية فى الجنوب ، وبروج فى الشمال ، فى جميع أنحاء القارة الأوربية . وأصبحت الوسائل التى ابتدعها الإيطاليون فيما يتعلق بالتسليف ، ومسك الدفاتر ،

والمراسلات ، أمراً عادياً لدى كل رجال الأعمال . وقام الألمان ، الذين تعلموا ذلك فى فندقوم المطل على بحر الإدرياتيك ، بنشر إستخدامها بين بنى جنسهم . وشهد جنوب ألمانيا ، الذى كانت له علاقات وثيقة مع البندقية ، نشاطاً واضحاً منذ منتصف القرن الرابع عشر . وأصبحت للشركة الألمانية الكبرى ، التى أنشأها جوزيف هومفى فى رافنزبرج سنة ١٣٨٠ ، فروعاً فى جميع أنحاء أوربا . وأصبح لديها ، عند نهاية القرن الخامس عشر ، فروعا ومراكز ، فى كل الدول : فى إيطاليا فى جنوة وميلانو ؛ وفى إسبانيا فى سرياقوسه وبرشلونه وبلنسية ؛ وفى فرنسا فى ليون وأفيفيون ومارسيليا ؛ وفى الأراضى المنخفضة فى بروج وأنفرس ؛ وفى سويسرا فى برن وجنيف ؛ وفى ألمانيا فى كولونيا ونورنبرج ؛ وكذلك فى فينا وفى بست . وكان رأسمالها يقدر بما لا يقل عن إثنى عشر مليوناً من عملتنا الحالية ، وكانت كل تجارتها ، البرية والبحرية ، هى تجارة الجملة . ومنذ قرن سابق ، لم يكن فى وسع مثل هذه العملية أن تقوم ، تنظيمياً ، إلا فى إيطاليا . ولكن معرفة التقنية التى تتطلبها ، فى مديريها وموظفيها ، وكذلك طرق المراسلات ، كانت قد إنتشرت فى كل مكان ، الأمر الذى فتح المجال أمام الرغبة فى مزاولة الأعمال . وإذا كانت التجارة المحلية قد ظلت خاضعة للتنظيمات الدقيقه الخاصة بنقابات الحرفيين ، وبإتجاه الحماية الصارم لإقتصاد المدن ، فإن التجارة الكبيرة لم تخضع لها ، ولم تخضع إلا للاتجاه الفردى الرأسمالى ، والذى كان التجار ورجال المصارف الايطاليين قد أعطوا أمثلة كثيرة عليه أثناء القرن الثالث عشر ، وظلوا من كبار سادته ، حتى القرن الخامس عشر : فكانت أسرة البيرتى قد أخذت مكان أسرة بيروزى وأسرة باردى فى فلورنسا حتى سنة ١٤٥٠ ، ثم تركوا مكانهم بعد ذلك لأسرة مديتشى التى كان لها أكبر متجر يعتقد أنه موجود فى العالم فى ذلك الوقت .

ومن جانب آخر نلاحظ أن إزدياد قوة الدول الملكية قد ساعد على نمو

الرأسمالية . وكانت المملكة قد إلتجأت ، فى كل من فرنسا وإنجلترا ، وفى أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وفى إحتياجها للنقود ، إلى رجال المصارف الإيطاليين . ولكن رجال الأموال الوطنيين أخذوا فى الظهور إلى جانب الايطاليين ، ووضعوا أنفسهم فى خدمة الدولة ، وقاموا بأعمالهم وبأعمالها فى نفس الوقت . وكان بيير بلادلين ، أحد مستشارى دوق برجنديا فى الأراضى المنخفضة ، قد أدار خزانة سيده بكل ذكاء ، الأمر الذى جعله يحقق أرباحاً طائلة . ولدينا مثل جاك كير فى فرنسا ، وهو المثل الذى يشرح لنا كيف أن السلطة الملكية قد شاركت فى تكوين ثروة ضخمة. وكان جاك كير قد بدأ صغيراء ولم يكن يتصف إلا بالذكاء والمثابرة ، وشارك مع مجموعه من المتعهدين كان شارل السابع قد أعطاها حق صك العملة؛وكانت الشركة مختلطة ،وجاءت عملية التجاره فى المعادن الثمينة لكى تساعد على الإغراء بالعمل فى المضاربات . وتمكن كير ، فى خلال بضع سنوات ، من يحقق أرباحاً طائلة ، وذلك عن طريق تصدير الفضه للشرق ، وإستيراد الذهب لفرنسا . ثم ضاعف بعد ذلك حجم عملياته ، وأخذ من الملك حق إستغلال مناجم ليون ، وأحضر العمال الألمان للعمل فيها . وأصبح « مورد الفضه » للبلاط ، أى «ممول» البلاط . فأخذ يقرض النقود لهؤلاء العملاء من النبلاء ، وبربح يتراوح بين ١٢ ٪ و ٥٠ ٪ . وأصبح رأسماليا حقيقياً ، إستخدم أرباحه فى تنمية مشروعاته ، أو فى المشاركة فى مشروعات الآخرين . وقيموا ، مع بعض المبالغة ، عدد المصانع التى كان يمتلكها بثلاثمائة مصنع ، موزعة فى كل غرب أوربا وفماجوستا وبروج ولندن . وكان أساس عملياته هو المضاربة ، فإتهموه بأنه يعمل على تحطيم التجارة الأمناء. وكانت ضخامة ثروته كارثة له ، وكانت سبباً فى سقوطه ، فإتهم بأنه غير قيمة العملة ، وزور دمغة الملك لها ، فنفى من المملكة ، وذهب إلى قبرص ، تاركاً وراءه ثروة تقدر بإثنين وعشرين مليون فرنك ذهب ، علاوة على عدد من القصور فى باريس

وتور ومونبلييه ، ومايقرب من ثلاثة أبعادية .

وكان مصير جاك كير ، رغم إنتشار قصته أكثر من غيره ، هو مصير الكثيرين من غيره . ويمتلىء تاريخ القرن الخامس عشر بأسماء رجال جدد ، مثله ، جمعوا ثروات طائلة من المضاربات ، والاحتكارات ، وإستغلال عمليات النقود والتسليف . وجمع الكثيرون من رؤوس الأموال الضخمة هذه بسرعة ، وغالباً ماكان ذلك بوسائل غير أمينة ، ثم إنتهى الأمر بأصحابها إلى إعلان الإفلاس ، أو تقديمهم أمام القضاء . ولكن ذلك يصور ، بطريقة واضحة ، ذلك النمو الذى أصاب الرأسمالية فى شمال جبال الألب . ومن الطبيعى أن من يبحث عن الثروة لايتقيد بالأخلاق التقليدية . فالقطيعة كاملة بين طريقة تعامل رجال الأعمال وبين تعاليم الدين ، مع رفضها أخذ أرباح على السلف ، ونظريتها عن الثمن الحقيقى ، ونظرتها إلى حب الربح على أنه نوع من البخل ؛ كما أنه كان هناك إختلافاً واضحاً بين روحهم ، وبين طريقة تفكير البورجوازية الصغيرة المتجمعه فى نقابات المهن ، والتى كانت متحمسة لمنع التنافس ، والاحتكار ، ورفع الأسعار ، وتخزين المواد الأولية . ولقد حاولوا أن يزيدوا اللوائح التى تنظم الصناعة ، وتحدد البيع ، والشراء ، والإنتاج ، فى مجموعة من التشريعات الدقيقة ، ولكنهم لم يتمكنوا من منع كبار التجار والمصدرين ، ورجال الأعمال والسماسرة ، الذين يتبادلون فيما بينهم المواد الأولية والقمح ، ويقومون بإستغلال المناجم ، ويشرفون على تجارة الأصواف ، ويسيطرون على الملاحة ، من أن يستمروا فى سيطرتهم ، وفى إستغلالهم . وفى مجتمع تزايدت فيه وسائل المواصلات ، وتمت فيه قوة العملة ، لم يعد نرسم إتجاه الحماية الإقتصادية فى المدن إلا أن يمثل خط دفاع رقيق وضعيف ، أمام الضغط الخارجى . وكانت الحرية التى تزدهر فى ميدان كبار الأعمال ، بعيدة عن متناولها ، كما كانت مقاومتها لها محكوماً عليها بالفشل مقدماً . هذا علاوة على أن تزايد التنظيمات الإقتصادية ، الذى تميزت به التشريعات

البلدية أثناء القرن الخامس عشر ، لم يؤد إلا إلى ذلك الاحتكار ، التى كان من المفروض أن تقضى عليه .

٣ ـ الظروف الجديدة للعمل فى الصناعات:

فالواقع أن الصناع لم يجدوا حلا لحماية مركزهم إلا فى زيادة التحفظ . وأخذت كل نقابة فى إحاطة نفسها بحواجز يصعب إختراقها . وإزداد أمر الإنضمام إليها صعوبة فى كل يوم ، وأخضعوا ذلك لرسوم للدخول فيها ، وحسن «تشطيب» الأعمال ، ولشروط الاقامة ، والتدريب والتعلم ، الأمر الذى أدى إلى الاحتفاظ بكل حرفة لعدد صغير من « المعلمين » الذين كانوا ينقلون حرفتهم لأبنائهم . وفى كل مدينة ، أصبحت الصناعات المحلية ميزة محدودة ومحددة على عدد من الرؤساء الوراثيين . ولم يعد من السهل على الرقيب أن يأمل فى أن يصل إلى مستوى « المعلمين » وبدأ فى النزول بنفسه إلى ظروف العمال الكادحين . وإنتهى الأمر بالتنظيم ، الذى كان قد سمح ، فى أثناء القرن الثالث عشر ، بالازدهار المفاجىء لتلك الطبقة من صغار العاملين المستقلين ، المتحدين فى شعورهم بالشرف والإخلاص لمهنتهم ، إلى أن يسلم البورجوازية فى نهاية الأمر إلى إستغلال عدد من الصناع ولمصلحتهم ، دون مصلحة الجماهير . وإرتفعت أصوات الشكاوى ضد هذا الاحتكار ، الذى كان واضحاً ، ولكنه كان مشروعاً ، فى نفس الوقت . وبدأت التفكير فى فرنسا ، منذ نهاية القرن الرابع عشر ، وفى ألمانيا ، بعد ذلك بسنوات قليلة ، فيما إذا لم يكن بقاء الصناعات أكثر ضرراً عن نفعه ، وإذا لم تكن المصلحة العامة تقضى بالغائه ، ولكنه كان من الضرورى الدخول فى صراع مع الحرفيين أصحاب الامتيازت ، من أجل إلغائه ؛ وكانوا يسيطرون على السلطة البلدية ، أو كانت السلطة البلدية تأخذهم تحت حمايتها . ومن ناحية أخرى نجد أنه إذا كان « الرقباء » و « الصبيان » يقاسون من الاحتكار ، إلا أنهم كانوا يعيشون منه ، لم يعد النظام « الأبوى » ، مع ورشه الصغيرة ،

يسمح بالقيام بحركة ثورية ، لا نجد لها ذكر إلا فى النادر القليل .

وإذا كان الصناع الذين يعملون من أجل السوق المحلى يقاسون بهذه الطريقة من تقدم ونمو التجارة الرأسمالية ، فماذا نقول عمن يعملون فى صناعات التصدير ؟ لقد رأيناهم فيما مضى ، ورأينا أن مركزهم الاقتصادى كان يخضع لحركة التجارة الدولية . وكان وجودها يؤثر عليهم . ويمكننا أن نرى ذلك بوضوح إذا ما ألقينا نظرة على أكبر الصناعات التى كانت موجودة ، وهى صناعة المنسوجات فى الأراضى المنخفضة . فكانت قد نجحت ، حتى منتصف القرن الرابع عشر ، فى أن تحافظ على احتكار تقديم المنسوجات الفاخرة لأوربا ، وذلك نتيجة لتفوق تقنيتها ، ولأنها كانت تتمكن من أن تتزود عن طريق ميناء بروج بالأصواف الأنجليزية الرقيقة ، وتجد فى هذا الميناء ، وفى كل فصول السنة ، تجار الجملة المستعدين لشراء منتجاتها . ولكن الواضح أنها بدأت ، مع منتصف القرن الرابع عشر ، تقاسى من مظاهر الضعف . ورجع ذلك أولا إلى أن المدن الانجليزية نفسها بدأت فى تصنيع الصوف ، الأمر الذى أدى إلى قلته فى الأسواق ، وكذلك إلى ارتفاع ثمنه . ونتج عن ذلك ارتفاع أثمان المنسوجات الذى أدى بالتالى إلى زيادة صعوبة تصريفها . وأفادت مدن الفلاندر الصغيرة من ذلك ، وعملت على أن تأخذ مكان المدن الصناعية الكبيرة . فنشأت مجموعة لا تنتهى من الإدعاءات بين أكثرها قوة ، وبين جيرانها ، واتهموها بأنها غير مخلصة فى منافستها لهم ، وبأنها تقلد علاماتهم التجارية ، وإستند الآخرون إلى امتيازاتهم ، فى الوقت الذى أصر فيه الآخرون على حقهم الطبيعى ، والحق العام ، الذى ينص على حق كل فرد فى أن يكسب قوته بعمله . وأظهر هذا الصراع بوضوح وجود مواجهة بين الفكرة الاقتصادية التى تقصر الصناعات الاقتصادية على المدن ، وبين الفكر الجديد الذى كان يتمثل فى الحرية ، والذى كان أساس إلهام التجارة الرأسمالية . وحاولت كل من جاند ، وبروج ، وإيبر أن تعلل ضرورة احتفاظها

باحتكاراتها الصناعية ، ولكنه كان من الواضح أنهم كانوا يحاولون مجرد الاحتفاظ ، وعن طريق حجج وادعاءات قديمة ، بمركز كان سيضيع منهم ؛ وكانوا بالتالى لا يدافعون إلا عن مصالحهم . ولم يكن هناك ما يمنع التجار من شراء المنسوجات من المدن الصغيرة ، مادام ذلك فى مصلحتهم . وكان فى وسع المدن الكبرى ، لكى تخرج من هذا المأزق ، أن تغير تقنيتها ، وتخفض أجور الصناع ، أو تزيد عدد ساعات العمل . ولكنهم لم يفكروا فى أى شىء من ذلك . لأن صناع النسيج فى الفلاندر كانوا ، منذ نهاية النظام الأبوى للحرف ، هم الذين يسيطرون على الحكومات البلدية ، فلم يكن فى وسعهم أن يجردوا أنفسهم من الميزات الاقتصادية التى كانوا قد كافحوا وقتا طويلا من أجل الحصول عليها . وأعتقدوا أنهم يتشبثون بالازدهار الذى سيفلت من أيديهم ، فأقفلوا على أنفسهم الباب ، داخل نظام الحماية والإحتكار ، مستندين إلى حقوقهم الخاصة ، ضد الحقوق العامة ؛ وأخذوا يدعون التفوق على غيرهم .

وكان وفى وسع مثل هذا التفوق أن يفرض نفسه ، على منافسيه ، إذا ما كان فعليا . ولكن كل العالم كان ضد إمتيازات المدن الكبيرة : المدن الصغيرة والتجار الأجانب . وكان من الطبيعى أن تستند التجارة الرأسمالية إلى الخصوم والمنافسين لهؤلاء المميزين الذين كانوا يفرضون عليهم الأسعار وطرق الانتاج التى يقررونها . ولهذا فإن صناعة الأنسجة فى المدن الكبرى فقدت الأسواق التى كانت تسيطر عليها . وبدون منافسة ، منذ فترة طويلة . وكانت مجهوداتها للمحافظة على ثرواتها ، تبعد عنها الأرباح . ونلاحظ أن منتجاتها ، ومنذ نهاية القرن الرابع عشر ، لم تعد تلك المنتجات التى لا توجد بها أية أخطاء ، كما كان عليه الحال فى الماضى . ولم يعد الزبائن يثقون فى علاماتهم التجارية . ولم تعد « الثنية » الخاصة التى تدفع المشترين ، كما هو الحال الآن مع بطاقة العلامة التجارية ، لها قيمة فى الشراء من مصنوعات إيبر وبروج وجاند . وفى حوض البحر المتوسط ، تفوقت منسوجات فلورنسا على منسوجات الفلاندر ؛ بينما أخذت ، فى الشمال ،

فالمنسوجات المدن الصغرى تمون الحركة التجارية ، وفى تزايد ؛ وظهر إلى جوارها منسوجات انجلترا ، كتمهيد للشهرة التى ستكتسبها أثناء القرن الخامس عشر .

وهكذا نرى أن تدهور أحوال صناعة الأنسجة فى المنطقة الفلمنكية ومنطقة برابانت كان نتيجة للتفوق المتزايد للتجارة الرأسمالية . ولم تتمكن من أن تواءم نفسها وهى مقيدة بتنظيمات إقتصاد المدن،مع الأحوال الجديدة التى أصبح السوق العالمى يعيش فيها . وجاء التفوق الذى حصل عليه صناع الصوف فى المدن الكبيرة أثناء القرن الرابع عشر لكى يساعد على سرعة هذا التدهور . ولقد حاولوا ، بلا جدوى ، أن يفرضوا مصالحهم ، كمنتجين على النظام الرأسمالى . ولم يكن من السهل القضاء على حرية التجارة التى كانت شركات التصدير الكبرى تعمل بوحى منها . وفى أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر سينهار التنظيم الصناعى الخاص بالعصور الوسطى فى المدن ، تحت ضغط قوة الرأسمالية ، التى أصبحت عامة وقوية .

ولذلك فإنه سيكون من الخطأ الكامل أن نشرح تدهور أحوال المدن الصناعية الفلمنكية الكبرى ، عند نهاية العصور الوسطى ، بالاضطرابات المدنية التى وقعت هناك . وهذه الاضطرابات كانت نتيجة لها ، أكثر من كونها سبباً لها . كذلك اعتقد البعض فى أن هجرة عدد من النساجين الفلمنكيين قد ساعد على ذلك ، ولكن يبدو أن الهجرة كانت تتجه بدرجة أكبر ، عند نهاية القرن الرابع عشر ، صوب فلورنسا .

ومن ناحية أخرى ، فإن هذه الضربة القاضية لم تصب صناعة النسيج عامة عند مطلع القرن الخامس عشر . بل أصابت صناعة النسيج فى المدن وحدها ، أى صناعة النسيج صاحبة الامتيازات ، إن جاز هذا التعبير . واضطرت فى المدن الكبرى فى أول الأمر ، ثم فى المدن الثانوية بعد ذلك . وتحت ضغط تنظيمها النقابى ، إلى أن تترك مكانها لمنافس نما منذ البداية فى توافق مع التطور الاقتصادى ،

وهو صناعة النسيج فى الريف . وكانت المدن الكبرى قد عملت ،أثناء القرن الرابع عشر ، على إستخدام القوة ، لمنع الفلاحين فى المنطقة المحيطة بها ، من أن يعملوا فى صناعة غزل و نسج الصوف، وتمكنوا من أن يحصلوا من الكونت على إمتيازات تثبت حق إحتكارهم الصناعى إلى مسافة محددة حول أسوار مدنهم . ولكنهم إضطروا ، منذ الربع الأول من القرن الخامس عشر ، إلى أن يتحملوا وجود منافس فى وضع متفوق ، لأنه كان يستجيب فى كل شىء للظروف الجديدة للحركة الإقتصادية . ولم يكن لدى هذا القادم الجديد أى شىء يشبه التنظيمات التى كانت موجودة بالنسبة لصناعة النسيج فى المدن . ونما منذ البداية فى مناخ من الحرية؛ ولم ينتظم الفلاحون المشتركين فى هذه الصناعة فى نقابات ؛ وكانوا يتفاوضون مباشرة مع المتعهدين الرأسماليين ، الذين كانوا يزودونهم بالصوف ،ويصدرون مصنوعاتهم . وبعد أن تخلوا عن الصوف الانجليزى الذى أصبح أكثر ندرة وأكثر إرتفاعاً فى سعره ، عملوا فى الصوف الذى أخذت إسبانيا فى تصديره إلى بروج؛ وصنعوا منه أنسجة رقيقة ، وبسعر منخفض ، الأمر الذى أدى بها سريعاً إلى إحتلال السوق بدلا من الأنسجة التى فقدت رونقها ، مما كانت تنتجه المدن الكبرى . وتحت تأثير الحرية ، والنظام الرأسمالى ، هاجرت إذن الصناعة ، التى كانت مركزة منذ ثلاثة قرون فى المدن ، صوب الريف . وتكون طبقة من الصناع ، مختلفة عن مجموعة الصناع أصحاب الامتيازات فى العصور الوسطى. ولم تكن هذه الظاهرة قاصرة على صناعة المنسوجات وحدها ، بل نلاحظها كذلك ، فى الصناعات الاستخراجية ، والتى كانت بطبيعتها لاتخضع لإشراف المدن عليها ، وهى التى إزدهرت بدرجة أكبر ، مثل مناجم فحم لييج ، ومناجم المعادن فى ألمانيا الجنوبية .

٣ ـ المراكز التجارية الجديدة :

ومن الطبيعى أن يخضع التنظيم التجارى كذلك ، لنتائج النمو الرأسمالى .

وإذا كانت البندقية وجنوا ، فى إيطاليا ، قد تمكنت ، نتيجة لإحتكارها تجارة الشرق ، من أن تستمر فى تنظيم حركة الأجانب داخل أسوارها كما ترغب ، فإن الوضع فى بروج كان مختلفاً عن ذلك ، خاصة وأن إزدهارها كان ناتجاً فى المقام الأول من صفتها كمكان للقاء دولى للتجار ؛ ونلاحظ منذ أواسط القرن الخامس عشر أن هناك تطوراً واضحاً فيها ، ويتم بسرعة . ولا شك فى أن الردم المتزايد للميناء قد أسهم فى حرمانها من زبائنها الأجانب . ولكن السبب الرئيسى لتدهور أحوالها يتمثل فى عدم قدرة المدينة على أن تتلاءم مع الطبيعة الجديدة للأشياء . ومثل مدن صناعة الأنسجة لم ترغب فى التنازل عن إمتيازاتها فى الوقت المناسب ، وإستمرت فى إخضاع حركة الأعمال الموجودة فيها لحقوقها وضرائبها ورسومها القديمة ، والتى كانت فى مصلحة الطبقة البورجوازية فيها . ولم تقدر على أن تفهم أن هذه الإمتيازات قد عفى عليها الزمن ، وأنها أصبحت تمثل معوقات أمام ممارسة التجارة ، وأصرت على ضرورة الإستمرار فى تطبيقها . ولكن ، هل كانت هناك وسيلة لإرغام الأجانب على المجىء إليها ؟ وكانت قد أخذت أهميتها ، وجذبت إليها التجار ، نتيجة لأن المواصلات كانت محدودة فى أوربا ، وكانت القارة فقيرة فى الموانى الصالحة ؛ ووجد التجار فيها ظروفا أكثر صلاحية منها فى أى موقع آخر قريب . أما الآن فلم يعد هناك ما يمنعهم من الهجرة إلى أماكن أكثر ملاءمة ، مع « الحرية الطبيعية » للتجار . فتخلوا عنها مع السنوات الأخيرة من القرن ، وأقاموا « مراكز حرة » لهم فى ميدلبرج ، وفير ، وأوترخت ، وأمستردام ؛ وأخذوا يترددون أكثر وأكثر على معرض أنفرس .

وكانت أنفرس هى التى تجذبهم بنوع خاص ، وليس من أجل أمن مينائها ، بل وأكثر من ذلك بسبب الحرية التى توفرها لهم . ذلك أنها تميزت بالتفكير الجديد ، والضرورى للتقدم التجارى . فلم تكن هناك موانع ، وكان فى وسع

الأجانب أن يتاجروا كما يرغبون . وكان فى وسع أى شخص أن يعمل فى السمسرة وإستبدال العملة ؛ ولم يكن هناك مايمنع تنمية الأعمال . وظهر بين بروج وأنفرس نفس التناقض الموجود بين صناعة الأنسجة فى المدن ، وصناعة الأنسجة فى الريف ؛ وبين الإمتيازات ، والحرية . وأخذ كل من الإيطاليين ، وأبناء الجامعة الهنسية ، والإنجليز والبرتغاليون والأسبان يتركون منازلهم فى المدينة الأولى ، وينتقلون إلى المدينة الثانية ؛ التى كان ذلك بالنسبة إليها فاتحة للإزدهار الذى سيصيبها وبخاصة بعد إكتشاف العالم الجديد .

وكما حدث بالفعل من أن إستيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية لم يقض مباشرة على إزدهار كل من البندقية وجنوا، فإن كشوف البرتغاليين والإسبانيين لم يتسببوا فى إثراء أنفرس . ذلك أن إثراء هذه المدينة كان سابقاً للكشوف الجغرافية ، وكان نتيجة للتنمية الإقتصادية لأوربا . ونتيجة لوجوده ، أصبح ميناء أنفرس ، فى القرن السادس عشر ، أكبر سوق للتوابل ، وملتقى الطرق التجارية ، التى كانت تصل من الهند ومن أمريكا .

وفى نفس الوقت ، بدأت عوامل جديدة فى الظهور ، وأخذت تؤثر على المراكز التجارية الموجودة فى بحر البلطيق وبحر الشمال ، مع الجامعة الهنسية من ناحية ، وتؤثر فى المراكز التجارية الموجودة فى البحر المتوسط ، فى البندقية وجنوا ، من ناحية أخرى . وأثر ذلك بالتالى على طرق التجارة الدولية ، وتوزيعها فى القارة الأوربية ، قبل أن تتم الكشوف الجغرافية ، وتؤثر بطريق فعال فى الشرايين الرئيسية للتجارة العالمية ، بين القارات المختلفة .

ولقد جاءت عوامل كثيرة لكى تساعد على ضعف الجامعة الهنسية ، وكان من أهمها إزدياد قوة بولندا ، وإستيلائها على دانتزيج ، وعملها على الحصول على مركز متفوق فى البحر البلطى ، كما أن الانجليز إدعوا أنهم يفضلون « حرية التجارة » ، وإستندوا إلى ذلك لقطع علاقاتهم مع الجامعة الهنسية ، وللإستيلاء

على تجارتها وسفنها الموجودة فى الموانى البريطانية . وبعد حرب دامت أربع سنوات، عادت إمتيازات الجامعة الهنسية إليها ، للإتجار مع لندن وبعض الموانى البريطانية . ولكن بريطانيا حصلت ، فى نفس الوقت ، على حق الاتجار مع موانى البحر البلطى ، وكانت هذه أول ثغرة فى نظام الإحتكار الذى أقامته الجامعة الهنسية حول هذا البحر . وتمكنت بريطانيا من التحرر ، وجمعت رسوم الجمارك على البضائع الواردة إليها ، ثم ألغت إمتيازات الجامعة الهنسية فيها ، وأردفت ذلك بالإستيلاء على سفنها ، وإقفال موانيها فى وجه تجارتها . ثم تحولت الأراضى المنخفضة إلى دولة بحرية، وأخذت سفنها المحملة بالأنسجة والملح تدخل إلى البحر البلطى ، دون أن تتمكن الجامعة الهنسية من التعرض لها. وقلت الرنجة من البحر البلطى ، وإضطر الصيادون الألمان إلى متابعتها أمام سواحل الأراضى المنخفضة ، فى أوائل القرن السادس عشر ، حيث إصطدموا هناك بالهولنديين والإنجليز والاسكتلنديين . وجاء إنتشار المذهب البروتستانتى ضربة إقتصادية قاسية لأهم موارد الجامعة الهنسية ، وهو الأسماك خاصة وأن مذاهب الإصلاح كانت لا تصر على ضرورة أكلها فى أيام الجمعة وفترات الصيام . وساعد عصر النهضة وزيادة تربية البهائم، مع إنتشار المراعى ، على زيادة إستهلاك اللحوم بدلا من الأسماك : وأخذت بريطانيا فى منع تصدير الصوف إلى الجامعة الهنسية ، وأخذت فى غزل ونسيج الصوف فى بلادها . وأخذت المدن المتحدة فى الجامعة الهنسية فى التفكك والانفصال ، كما حصلت مراكزها على حريتها، وإنخفض عدد المدن الأعضاء من ٩٢ إلى ٦٢ ، ثم أربعة عشر ، فثلاثة : هى لوبيك ، وبريمن ، وهامبورج وأخيراً . إجتمع مجلس الجامعة الهنسية ، أو برلمانها ، ولآخر مرة فى سنة ١٦٦٩ . وكان قراره الوحيد فى هذه الجلسة هو حل الجامعة .

وأما بالنسبة للموانى المطلة على البحر المتوسط ، فلقد جاءت عوامل أخرى أثرت فى مركزها ، وأثرت فى معاملاتها ، وفى أهميتها الاقتصادية .

فقد زاد ظهور ضعف جنوا نتيجة للصراعات الداخلية الموجودة فيها ، وصراعاتها مع البندقية . وإنتهزت أراجونة هذه الفرصة ، وقامت بإنتزاع جزيرة سردينيا من حاكم جنوا ، كما قام العثمانيون بطرد أبناء جنوا من المشرق . ولم يبق لجنوا فى نهاية الأمر من إمبراطوريتها سوى جزيرة كورسيكا ، التى إستمرت فيها الثورات حتى إضطرت جنوا ، فى آخر الأمر ، إلى بيعها لفرنسا ، بعد أن تقلص نفوذها فيها ، وباعتها فى نفس السنة التى ولد فيها نابليون على هذه الجزيرة ، وكانت جنوا قد أصابها سوء الحظ قبل ذلك ودون أن تدرى ؛ وكان أحد أبنائها قد إقترح عليها إعداد حملة للبحث عن طريق جديد للهند ، بالإتجاه صوب الغرب . ولكن جنوا ترددت ، خاصة وأنها كانت مشغولة بمراكزها الجديدة التى احتلتها فى القرم ، فسرفت فى تنفيذ هذا المشروع ، وقلت رغبتها وإمكانياتها فى العمل ، بعد أن تخلت عن كرستوف كولومب ، وفقدت أكبر إمبراطورية كان فى وسعها أن تتصورها .

أما البندقية ، فإن مسئولياتها كانت قد إتسعت ، وخاصة بعد أن إستولى العثمانيون على القسطنطينية ، وبعد أن إستولى الغزاة الجدد على طرق الشرق ، وبعد أن أخذ كل من الفرنسيين والاسبانيين فى التنازع على السيطرة على إيطاليا نفسها . وتمكنت البندقية من الإحتفاظ بقبرص لمدة قرن بعد سقوط بيزنطة ، والاحتفاظ بكريت لمدة قرنين ، وبكورفو حتى آخر وقت الإمبراطورية . وضعفت البندقية كدولة ، ولكنها إحتفظت بعظمتها وبرفاهيتها وثروتها ؛ وظلت مركز سياحة لأوربا ، وموطن لهو ومجون . وظل نظام الدوقية فيها ، حتى دخل بونابرت إلى إيطاليا ، فى نهاية القرن الثامن عشر .

وأخيراً ، فلا يمكننا أن ننسى أن العثمانيين قد أثروا ، بطريق غير مباشر ، فى التجارة الدولية فى هذا العصر . ذلك إنهم قد إستولوا على المراكز التجارية لجنوا والبندقية فى البحرين الأسود والمتوسط ، مما صعب تجارة التوابل ، ورفع

من أثمانها . وكان العثمانيون يسمحون لتجار إيطاليا بشراء التوابل والحرير من موانيهم ، ولكنهم أخضعوا هذه السلع لضرائب مرتفعة . وظهرت حركة للوصول إلى الشرق الأقصى بالسفن ، من المحيط الأطلسى ، إما بالإلتفاف حول إفريقية ، أو بمواصلة السفر صوب الغرب ، حتى يصلوا إلى الصين واليابان وجزر التوابل وما دام الإسلام قد زحف على أوربا من الشرق ، وإستولى على بيزنطة ، لتعمل الدول الأوربية على تطويقه، والحصول على المنتجات الإستوائية والشرقية دون وساطته ، وتنتزع هذه الثورات من بين أيديه . إنها روح الكشوف الجغرافية .

٤ – أولى مراكز الأطلسى والتطلع إلى طرق بحرية جديدة :

لقد إستمر عصر المراكز البحرية ، وساهم فيه أبناء أقاليم غرب أوربا المطلة على المحيط الأطلسى ، وخاصة بعد أن فلت أهمية البحر المتوسط بما فيه من جنوا والبندقية ، وتمكنت دول غرب أوربا من الوصول إلى البحر البلطى ، دون أن تتمكن مدن الشمال من وقفها .

ويمكننا إعتبار الإسكندنافيين الموجودين فى جرينلاند طليعة هذه الحركة ، التى عملت فى المحيط الأطسى . وكانوا قد أقاموا فى هذه الجزيرة منذ قرون ، وإستعمروا سواحلها ، وأتوا بالبهائم والأغنام من إيسلاند إليها . وقد إزدهر هذا الاستعمار وإمتد حتى خط ٧٣° شمالا ، إلى أن تغير المناخ فى أواسط القرن الرابع عشر،وإشتدت درجة البرودة بشكل يؤثر على الفلاحة والمحاصيل ،وبشكل تسببت فى هجرة كثير من عناصر الاسكيمو من الشمال صوب الاسكندنافيين فى الجنوب . وبدأ الصراع بين أعداد الاسكيمو المتزايدة ، وأعداد الاسكندنافيين المتناقصة.ولم يكن هناك شك فى حتمية سيطرة الاسكيمو على الجزيرة ، وإنتزاعها من أيدى العناصر الاسكندنافية . ولقد حاول سكولب الدانيمركى إستخدام جرينلاند قاعدة لحملة تتجه إلى الصين عن طريق الغرب، وقام مع أحد البرتغاليين

بالملاحة بحذاء سواحل نيوفوندلاند ، ولكنه إضطر إلى الرجوع : ومع سيطرة الاسكيمو على جرينلاند ، إنتهى الاستعمار الاسكندنافى فى هذه المنطقة .

أما الإنجليز فكانوا بعيدين عن التفوق فى البحار رغم أن بلادهم جزيرة تحيط بها المياه من كل جانب . وكان الانجليز يربون الأغنام ويحصلون على الصوف ، وتعلموا من الفلمنك عمليات غزله ونسجه . وعمل إدوارد الثالث على حماية هذه الصناعة الناشئة فى بلاده ، وفرض الضرائب العالية على تصدير الصوف حتى يحتفظ بالمواد الأولية لانجلترا . وكانت الصناعة أساساً للتجارة ، واضطر التجار إلى ركوب البحر حتى يصرفوا سلعهم ، وأدى ذلك إلى منافستهم للفلمنك ، وكفاحهم ضد الجامعة الهنسية . وأخذت بريطانيا تصدر منسوجاتها الصوفية إلى أكويتانيا ، وكانت سفنها تعود من بوردو ، عبر المحيط الأطلسى، محملة بالأنبذة. وقرر هنرى السابع عدم السماح لأى سفينة أجنبية بنقل أنبذة بوردو إلى إنجلترا ، كما قرر ضرورة سفر البضائع الانجليزية على سفن تحمل العلم الانجليزى . فساعد ذلك على نمو البحرية فى إنجلترا وعلى ظهور هذه الدولة كقوة بحرية لها أهميتها .

وأما الفرنسيون فكانوا يخاطرون بالسفر فى ذلك الوقت أكثر من الانجليز . وتمكن جان دى بيتنكور Jean de Béthencourt من السفر على سفينة مع ثمانين رجل صوب الجنوب ، بعد أن خرب الانجليز أراضيه، ووصل إلى جزر كناريا وإستولى على « تين الريف » التى كانت تسكنها عناصر من بربر شمال إفريقية ، وإتحد معهم ضد القراصنة الأسبان . وأعلن نفسه ملكا على الجزيرة ، ثم ترك إدارتها لأحد أقربائه . ولكن القراصنة الانجليز هاجموا أسطوله ، فاضطر إلى التنازل عن جزر كناريا إلى قشتالة ، التى طردت الأهالى من أراضيهم ، وقضت عليهم تماماً .

وأما البرتغاليون فإن بلادهم كانت ذات موقع ممتاز ، تطل على المحيط

الأطلسى ، وبشكل يوجه أنظارهم إلى السواحل الإفريقية ؛ ويشعرهم بضرورة إستكشاف ما وراء هذا البحر .

ولم تجاذب الكشوف الجغرافية البرتغالية ، حذاء سواحل إفريقية ، وحتى منتصف القرن الخامس عشر ، إلا الجغرافيين . ونعرف أن هذه الكشوف كانت فى مبدأ الأمر غريبة تماما عن كل فكرة للتوسع الإقتصادى . فلم تكن للبرتغال أية حاجة للبحث عن أسواق خارجية ، كما أن تجارتها كانت بسيطة ، وكانت بحريتها لا تسمح لها بأن تقوم بدور فى المستقبل يشبه ذلك الذى وصلت إليه . وكانت الدوافع الأولى لهذه العملية ، دوافعاً عسكرية وإستراتيجية ؛ ذلك أن البرتغاليين كانوا قد خضعوا لفترة طويلة لحكم المسلمين ، ورغبوا فى القضاء على هذا الخطر قضاء تاماً ، فخلفوا هذه الدوافع ، العسكرية والإستراتيجية ، بغلاف الدين المسيحى والتبشير . ويمكننا أن نعتبر حملة البرتغاليين ضد سبته سنة ١٤١٥ كحروب صليبية وطنية ضد المسلمين ، وكفاتحة معنوية لذلك الجهد الذى سينتهى بعملية تجارية . كما أن روح الفضول هى التى دفعت هنرى الملاح (١٣٩٤ — ١٤٦٠) إلى أن يوجه الحملات صوب إفريقية ، تلك الحملات التى ستصل فى النهاية إلى ساحل ملابار ، وتأسر تجارة التوابل من البحر المتوسط وتوجهها ، عن طريق رأس الرجاء الصالح ، صوب سواحل المحيط الأطلسى .

ويبدو أن بحارة موانى الغرب ، فى البرتغال ، كانوا يفكرون أثناء إبحارهم فى حذاء الساحل الأفريقى ، فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ، فى إكتشاف ذلك الذراع من البحر ، أو ذلك الخليج ، الذى سيسمح لهم بمهاجمة مسلمى شمال إفريقية من الجنوب ؛ وربما يتمكنون كذلك من الوصول إلى المناطق الشرقية الغامضة ، التى كانوا يعتقدون أن الملك « يوحنا الراعى » قد أنشأ فيها مملكة مسيحية . وكانت هناك قصة منتشرة فى أوربا تتحدث عن وجود مملكة مسيحية فى قلب إفريقية ، أو قلب آسيا ، وعن رؤية الرحالة لملكها « يوحنا

الراعى ، الذى تدعى القصة أنه كتب إلى البابا ، وأنه ملك قوى وغنى . وخلط البرتغاليون بين هذا الملك وبين نجاشى الحبشة، وإعتقدوا فى إمكانية الوصول إليه بالملاحة حول السواحل الأفريقية .

وظهر فى نفس الوقت ميل « الدون هنرى » إبن ملك البرتغال ، للبحر وللملاحة . بعد أن نصبه والده حاكما على إحدى مقاطعات البرتغال الجنوبية : فأنشأ مرصداً ومدرسة بحرية، وأخذ فى بناء السفن وإرسال الملاحين لإستكشاف المناطق المجهولة صوب الجنوب ، علهم يصلون إلى طريق التوابل ، أو بلاد يوحنا الراعى ، وينتقمون من الإسلام. وكان التقدم بطيئاً فى أول الأمر ، وكان يعترضه الخوف من ذلك البحر المجهول، ومن المناخ الذى توقعوا صعوبته وقسوته عليهم. وكان إكتشاف جزر ماديرا ، أو الخالدات ، فى سنة ١٤١٨ — ١٤٢٠ ، أمراً عارضاً ، وبدون أية علاقة بالملاحة حول إفريقية، وقام البرتغاليون بإحتلال هذه الجزر ، وأدخلوا زراعة الكروم وقصب السكر فيها . وبدأت هذه الملاحة فى سنة ١٤٣٤،وهى السنة التى جاوز فيها الملاحون البرتغاليون لأول مرة رأس بوجادور؛ ووصلوا فى سنة ١٤٣٧ إلى جزر آزور،التى أنشئوا فيها ، بعد إحدى عشر عاماً ، مركزاً دائماً فى حماية إحدى القلاع . ولقد إستمرت سفنهم فى السير بحذاء الساحل الإفريقى حتى وصلت إلى أسواق التبر الآتى من إفريقية السوداء ؛ إنه نهر الذهب ، أو وادى الذهب Rio de Oro . وعند موت هنرى الملاح سنة ١٤٦٠ كان البرتغاليون قد وصلوا إلى سيراليون ، وإلى جزر الرأس الأخضر ؛ وإنشئوا القلاع على نقط مختلفة من الساحل ، وإستخدموها مراكزاً تجارية وحربية لهم . وإذا كانت سواحل « وادى الذهب » والسنغال قد إستكشفت ، وإذا كان بعض المسافرين قد دخلوا إلى داخل الأرض ، فإن إستكشاف خليج غينيا كان لا يزال فى أوله ، وكان البرتغاليون يعملون هناك بكل حذر .

ولكن عوامل إقتصادية بدأت فى دفعهم للعمل بنشاط أكثر صوب الجنوب، فكانوا قد تعرفوا على بعض البلاد التى إستكشفوا سواحلها ، وعرفوا أن فيها سكاناً . وكانوا قد عادوا منها ، ومعهم بعض العبيد ، والتبر ، والمنتجات ذات القيمة . وكان أهالى بروج قد أظهروا دهشتهم ، منذ سنة ١٤٤١ لرؤيتهم بين حمولة السفن القادمة من لشبونة ، بعض القردة ، والأسود ، والببغاوات ؛ ورؤا بعد بضع سنوات ، أن هذه السفن كانت تحمل ، من مينائهم، سلعاً مرسلة إلى خليج غينيا . ومنذ سنة ١٤٥٤ حرم البابا الملاحة حول سواحل إفريقية منذ رأس بون إلى نهاية ساحل غينيا ، دون الحصول على تصريح بذلك من ملك البرتغال ، وحمى بذلك التوسع البرتغالى من أى منافس له . وفى سنة ١٤٦٩ منح الملك الفونس الخامس تجارة السواحل الغربية لإفريقية ، ولمدة ست سنوات ، إلى فرناندو جوميز ، نظير تعهده بأن يستكشف فى كل عام ثلاثمائة فرسخ من الساحل ، إبتداء من سيراليون . ووافق الكورتيز ، فى سنة ١٤٧٣ على إعتبار أن هذه المناطق كانت تعطى أرباحاً طائلة للتجار .

ولم يعد هناك شك فى أنه كان يكفى الإلتفاف حول القارة الافريقية ، للوصول إلى هذه البلاد الساحرة ، التى كان البنادقة يحصلون منها على التوابل ، بواسطه مصر . وأكدت أبحاث مارتين بيهايم ، عالم الجغرافيا الذى نشأ فى نورنبرج ، والذى جاء وأقام فى لشبونة ، هذا الأمل ، الذى دعمته روايات الرهبان الأحباش والمعلومات التى ذكرها بعض الأهالى . وكانت محاولة ديبجو كام ، الذى كلف فى سنة ١٤٨٢ بالإبحار إلى أبعد نقطة ممكنة فى الجنوب ، قد إنتهت بإكتشاف مصب نهر الكنغو . ولكن بارثلميو دياز تمكن ، سنة ١٤٨٥ ، وعن طريق إستمرار الملاحه جنوباً ، من الإلتفاف حول أقصى رأس فى جنوبى القارة ؛ ورأى إختفاء الساحل عن أعينه فى أثناء إحدى العواصف ، ولم يتمكن من رؤية الساحل الإفريقي إلا بالعودة صوب الشمال . ولم يمكن

هناك من شك فى أن دياز قد إلتف حول أقصى جنوب إفريقية ، ومر من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهندى. حول النقطة التى أسماها رأس العواصف ، والتى سماها ملك البرتغال برأس الرجاء الصالح . وعرفوا فى نفس الوقت ، وعن طريق بيير دى كوفيلام والفونس دى بايفا ، المرسلان إلى القاهرة ، للتعرف على طريق الهند ، وجود ساحل ملابار ، وموقعه الفعلى تجاه شرق إفريقية . وأصبح من المؤكد بعد ذلك أن النجاح لا يتطلب سوى الإستمرار فى الملاحة إلى أبعد من ذلك . وفى هذا الإتجاه الذى لمحه دياز . وكلف الملك إمانويل ، أحد ضباط البحرية من باورانه ، وهو فاسكو دا جاما ، بالقيام بهذه المهمة العليا . ونشرت سفنه الأربع قلاعها يوم ٨ يوليو سنة ١٤٩٧ ؛ ومر عامان وأكثر قبل أن تعود سفنه من جديد إلى مصب نهر التاج ؛ بعد أن كانت قد وصلت إلى قاليقوط وكان الاسبانيون ، ومعهم كريستوف كولومب ، الذين كانوا يأملون فى الوصول إلى الهند عن طريق الملاحة صوب الغرب ، قد وصلوا منذ ست سنوات ، أى فى سنة ١٤٩٢ ، الى كوبا ، وهم يبحثون عن الهند ؛ ووجدوا أمريكا . وإنفتح عالم جديد أمام أوربا .

وكان من حق البرتغاليون أن يستبشروا بالمستقبل ، خاصة وأن البابا قد منحهم السيادة على كل الأراضى التى يستكشفونها ، مع غفران ذنوب كل من يموت فى حملاتها . وكسب البرتغاليون الكثير من تجارة السواحل الافريقية ، وإنفتح الطريق أمامهم ، وحتى الهند .

* * *

وهكذا نجد أن أوربا كانت بدأت فى تغيير وجه تاريخ العالم . وذلك نتيجة للتغيرات العميقة ، الاقتصادية والمالية والاجتماعية ، التى وقعت فيها . فظهرت الضرائب الثابتة ؛ وكان إستخدام الاسلحة النارية والمدفعية يزيد من المصروفات العامة ، وبشكل سريع . وأخذت الفنون الحربية الحديثة فى إتمام القضاء على من

بقى على أرض المعركة من الإقطاعيين ، أو فى أثناء عملية تقهقرهم ، وذلك فى صالح السلطة المركزية ؛ كما أنها أعطت الأوربيين تفوقاً واضحاً فى التسليح ، على بقية العالم . وعمل الأوربيون على إستخدام هذه الأسلحة وبسرعة . ولكن على أساس تمكنهم من إيجاد الموارد اللازمة للإنفاق على المدفعية . وإذا كانت الضرائب الثابتة ، حتى إذا كانوا قد عهدوا بها إلى عدد من الرأسماليين الذين أثروا من ورائها ، قد أصبحت غير كافية ، فإن ذلك قد استدعى الإلتجاء إلى القروض ، وهكذا انتصر النظام المالى الذى ساد فى جنوا والبندقية وفلورنسا ، رغم ضعف إيطاليا نفسها فى ذلك الوقت ، وظهور مدن أخرى نافستها فى الميدان المالى ، مثل ليون ونورنبرج وفرانكفورت وأنفرس . وإزدادت أهمية « الأسواق » المالية فى هذه المدن ، فى التمويل والإقتراض أو التسليف ، وفى بيوت أصحاب البنوك ، مثل بيت فان دير بورص ، الذى أعطى اسمه لأول سوق مالى فى العالم . وأصبحت العمليات تتم على أساس نقدى أو مالى ، أكثر مما تتم على أساس سلع من الصوف والنبيذ والمصنوعات .

وقلت أهمية الملوك انفسهم ، وبصفتهم مسيطرين على السياسة الدولية ، ماداموا فى حاجة إلى القروض . فأصبح الرأسماليون يسيطرون على وزارة المالية فى لندن ، كما أصبح كير يسيطر على مالية فرنسا . ويستغل المناجم ويدير المئات من المصانع فيها ، وفى بلجيكا الحالية ، وحتى فى قبرص . وأصبح هؤلاء الرأسماليون يقرضون الملوك والأباطرة والبابا . وكان هذا تطوراً طبيعياً للمراكز التجارية والبحرية ، والذى استمر ، بعد جنوا والبندقية والجامعة الهنسية ، مع نمو البيوتات المالية ، والمصارف ، والبورصات . أنها الرأسمالية ، وقد تمت رأ.حذت فى العمل .

وكثيراً ما كانت وسائل الدفع تعجز عن اتمام مهمتها فى هذا الجهاز الكبير للأعمال . كما أن الغرب كان قد هضم ما استولى عليه من أسلاب شرقية أثناء

الحروب الصليبية ، وأتى فائض الميزان المالى مع شرق البحر المتوسط ، وأخذ يقاسى من نقص المعادن النفيسة ، وأعوزته المادة التى يمكنه بها رفع قيمة عملياته التى نشأت مع الوسائل الجديدة ، من ورق ومطابع وكتب ، ومدافع وسفن ، ولوحات فنية وقصور . فأخذت أوربا تبحث عن كنوز تنهبها ، ومناجم ذهب تستغلها . ولم يكن فى وسعها أن تجدها إلا فيما وراء البحار .

الباب الثالث

زحف العثمانيين وانتصارهم

الفصل السابع

امبراطورية المغول

كان الشرق فى ذلك الوقت مسرحاً لتغيرات عميقة، وكانت القارة الأسيوية الضخمة ، وراء عالم البحر المتوسط ، تتغير بسرعة . وكان المغول يحكمون هناك منذ أواسط القرن الثالث عشر . وكانوا قد أنشئوا لأنفسهم إمبراطورية تمتد من سهول روسيا إلى بحر الصين . وكانت هذه الامبراطورية قد أخذت ، بعد ذلك ، فى التفكك . ولم يعد فى وسع الخان الأعظم ، وهو فى آخر الصين، أن يمارس إلا سلطة إسمية على إمارات المغول فى فارس ، وعلى خانات التركستان وروسيا الجنوبية . وكان المغول قد إنتشروا فى أقاليم كبيرة الإتساع ، فتركوا بذلك أنفسهم لكى تقوم الشعوب التى غزوها بهضمهم . ولقد قامت هذه الشعوب ، قرب سنة ١٣٥٠ ، برفع رؤوسها فى كل مكان ؛ وبذلت مجهودات أدت إلى انهيار امبراطورية جنكيز خان ، وذلك فى الوقت الذى نهض فيه الاسلام ، بعد فترة ضعف ، والذى بدأ فيه العثمانيون ، فى آسيا الصغرى ، وبعدهم بقليل تركمان تيمور ، عملية غزو العالم المسيحى .

١ ـ الامبراطورية :

كان الشرق الأقصى قد بدأ فى الحركة فى نفس الوقت الذى بدأ فيه الغرب فى الاستيقاظ ؛ وظهرت الحروب الصليبية ومشروعات المراكز البحرية التجارية وكأنها لعب صغيرة إلى جانب هذه الهجرات البشرية التى بدأت من الإستبس . وكان المسيحيون والايطاليون يعملون حول حوض البحر المتوسط ، كما كانت الجامعة الهنسية تعمل فى بحر الشمال والبحر البلطى ؛ ولكن جموع المغول عملت

على الانتشار فى كل المناطق الأخرى ، ولم تحدد نطاق عملياتها ، وتمكنت من تكوين إمبراطوريات كبيرة .

وكان المغول يتنقلون فى المنطقة الواقعة بين غابات سيبيريا فى الشمال، وصحراء جوبى فى الجنوب ؛ وكانوا يعيشون فى الشمال على الصيد ، وفى الجنوب على الرعى أى أنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد ، فى السلم الحضارى ، إلى مرحلة الزراعة والتوطن .

وتمكن رئيسهم تيموجين، أى الحداد ، من تنظيم جيش كبير وقوى، معتمداً فى ذلك على النظام العشرى ، الذى يسهل التعبئة والعمليات : جماعات من عشرة رجال ، وسرايا من مائة ، وكتائب من ألف ، وألايات أو لواءات من عشرة آلاف ، وفيالق من مائة ألف . وكان شديداً وصارماً ، فعاقب السرقة بالقتل ؛ ونظم الأسلاب التى كانت لا تبدأ إلا بأمر، وكان يستولى على عشر هذه الأسلاب لخزانته الخاصة . وتمكن هذا الرئيس من إخضاع القبائل الأخرى ، ثم هزم التتار المجاورين للمغول ، وقتل منهم الكثير ، وأدخل الباقين تحت سيطرته ، وأصبح الخان الأكبر ، جنجيز خان .

وبدأ بالصين ، وأمر بإحراق بكين، ثم هجم على التركستان وإيران وروسيا، وإكتسح كل ما إعترض طريقه . ثم عاد إلى الصين حيث توفى ، بعد أن أنشأ إمبراطورية ، تمتد على طول ثمانية آلاف كيلو متراً . وقام إبنه بمواصلة غزواته . فأتم تطهير شمال الصين ، وإستولى على كوريا ، ثم عاد صوب روسيا ، وعبر بولندا والمجر ووصل إلى بحر الادرياتيك . وقام قوبلاى ، حفيد جنكيز خان ، بالهجوم على آسيا الصغرى وسوريا ، وإحتل جنوب الصين ، ونشر سيادة المغول على أنام وكمبوديا . فأصبح فرسان الإستبس يسيطرون على موسكو وبغداد وكانتون ، ويحكمون أكبر جزء من العالم المعروف فى ذلك الوقت .

وكان المغول ، بعد تخريب وتدمير المناطق التى يحتلونها ، ينشئون إدارة

خاصة فيها . وكانت لإمبراطوريتهم عاصمة ، إنتقلت من وادى النهر الأصفر إلى منغوليا ؛ وكانت مقراً للخان الأعظم ، أو الخاقان . وكانت الامبراطورية تنقسم إلى خانات ، إحداها فى الصين ، والثانية فى منغوليا ، والثانية تركستانية فى روسيا ، والرابعة فى فارس . وكانت هذه الادارة تعتمد على الموظفين المغول أو الصينيين أو الفرس ، وتضعهم على رأس حكومات الأقاليم بدلا من الأهالى . وكانوا يبدأون عملهم بالاستيلاء على الخيول ، وبإحصاء الأهالى ، ثم يأخذون فى جمع الضرائب ، ويعاقبون من يمتنع عن دفعها ، ومن يتلاعب فيها . وكانت دولة المغول تهتم بالأمن ، وتشرف على القوافل ، وتدير البريد ، وتحافظ على النظام فى أنحائها . وكان للمغول قانوناً مدنياً وجنائياً فى نفس الوقت . ولقد ساعدت عملية توحيد جنكيز خان لآسيا على تسهيل التوغل الاقتصادى الغربى فى كل المنطقة ، وأصبحت طرق الشرق الأقصى مفتوحة للتجارة والمبشرين . وإذا كان الرهبان الفرنسيسكان قد حملوا رسائل البابا ولوى التاسع إلى خاقان المغول ، وحاولوا كسبه إلى المسيحية ، فإن بعض تجار البندقية قد ساروا على نفس الطريق ، وزاروا خانات جنوب روسيا والتركستان والصين . وإشتهر منهم ماركو بولو ، الذى كتب مذكرات رحلته فى هذه المناطق ، بعد غيبة إستمرت أربعة وعشرين سنة . ويذكر لنا كتاب « العجائب » الكثير عن ثروة الصين وتجارتها وسفنها ، وعن التوابل والأرز والسكر والحرير والنشاط التجارى والأوراق النقدية ، مما يدل على دقة ملاحظة كاتبه ، ومما عمل على إثارة خيال تجارب الغرب .

ثم بدأت إمبراطورية المغول فى الانقسام بين أحفاد جنكيز خان ، كما إنقسمت إمبراطورية الاسكندر بعد موته بين كبار قواده .

٣ ـ الانفكاك :

ولقد إنقسمت امبراطورية المغول إلى أربع خانات ، أو دول ، إحداها فى الصين ، والثانية فى منغوليا ، والثالثة فى تركستان الروسية ،

والرابعة فى فارس ، كما ذكرنا .

وعند نهاية القرن الثالث عشر ، كان هذا الانقسام قد تم بالفعل . وكانت الصين هى أهم قسم من أقسام الامبراطورية . وكان قوبلاى خان الكبير قد إستقر فيها ، وقضى على آخر حركات المقاومة منذ سنة ١٢٨٠ . وظهر بمظهر الأمير الصينى ؛ وأصبح بالنسبة لرعاياه الجدد ، ابن السماء ؛ وأعطى نفسه إسم تشى تسو ، واتخذ بكين عاصمة له ، وأنهى بذلك حياة التنقل ، وبدأ حياة الاستقرار . وكان قصره محاطاً بأسوار لها ما لا يقل عن أربعة آلاف برج ، ويضم فى داخله عدداً كبيراً من القصور . وأراد أن يخلف أسرة سونج ، دون أن ينسى أصله المغولى . وستكون أسرته هو ، هى أسرة يوان ، وأراد أن يزيد إلى رصيد هذه الأسرة الملكية الجديدة ، قائمة بأعمال مجيدة ، ترقى إلى مستوى تلك الدولة العظمى التى يسيطر عليها .

ولكن مشروعاته الاستعمارية لم تكن موفقة . وبعد أن فشل ، فى سنة ١٢٨١ فى غزو اليابان ، ركز مجهوده على غزو الهند الصينية . وأرسل حملتين عسكريتين ضد مملكة تشامبا ، وحملات أخرى ضد آنام ، وضد بورما ، تمكنت من تخريب البلاد ، ونهب الحواضر ؛ ولكن الجيوش المغولية إضطرت فى كل مرة إلى الانسحاب أمام مجهود مضاد من قوات الأهالى . وإذا كان قد نتج عن إستخدام القوة بهذا الشكل ، أن وافق سادة أنام وتشامبا وبورما وكمبوديا على الخضوع إسمياً لقوبلاى خان ، فان ذلك كان مجرد إرضاء لغرور إمبراطور الصين .

وأخيراً فان المغول أصابتهم صدمة خطيرة فى جزر الهند الشرقية ، حيث قضى تماما ، فى سنة ١٢٩٧ ، على جيشهم الذى كان قد ذهب لغزو جاروا . وهكذا إنتهت ، عند نهاية القرن الثالث عشر ، عملية توسع المغول صوب الشرق .

وإذا كان قوبلاى قد فشل فى مشروعاته ضد اليابان وجاوا ، إلا أنه سيطر على كل أراضى وبلاد الصين نفسها . وكان المغول عدداً بسيطاً بالنسبة لمجموع أهالى الصين ، ولكنهم سيطروا على المراكز ، وكونوا طبقة عليا حاكمة ،

وحرموا على الصينيين حمل الأسلحة ، وحتى تعلم اللغة المغولية ، حتى يبعدوهم عن وظائف الدولة .

وإضطر قوبلاى وخلفاؤه أن يقللوا من نشاطهم ويحصروه داخل نطاق الامبراطورية الصينية . وكان خلفاء قوبلاى أقل بأساً منه وقوة ، وأكثر ضعفاً ، فنشأت الفوضى . هذا علاوة على أنهم قد إضطروا كذلك إلى الدفاع عن أنفسهم ضد تدخلات القبائل المغولية ، التى كانت تقيم فى سهول الاستبس إلى الغرب ، وكانت تنظر بحقد إلى أخوانهم الأكثر سعادة ، والذين يسيطرون على أقاليم غنية . وبهذه الطريقة قام الخان قايدوا ، أمير إيلى ، والذى أصبح سيد تركستان الشرقية ، بإقلاق قوبلاى منذ سنة ١٢٧٥ . ولقد عاود الهجوم فى سنة ١٢٨٧ . وتسبب فى نشوب الثورة فى منشوريا . وإضطر الامبراطور ، وخليفته تيمر (١٢٩٥ - ١٣٠٧) إلى قيادة حملات عديدة للقضاء على هذا الغازى ، الذى هزم وقتل فى قراقو روم سنة ١٣٠١ .

ولقد تمكن أفراد أسرة يوان بسرعة من هضم الحضارة الصينية القديمة ، وإستندوا إلى نشاط المغول ، وأعطوا امبراطوريتهم قرناً بأكمله من الازدهار . ولقد أعادوا للصين وحدتها السياسية ، بانهاء الانقسام بين مقاطعات الشمال مقاطعات الجنوب ، وقاموا بمشروعات عامة نافعة ، مثل إكمال حفر الترعة التى تزود بكين بالماء ، ووضعوا نظاما للبريد ، وراقبوا المحاصيل ، وأنشأوا بعض المشروعات الخيرية . وكانت عودة هذا الازدهار المادى تسمح بازدهار كبير فى كثير من الميادين الفنية والأدبية . ونشأت مدرسة من الرسامين تستند إلى الواقعية ، وتستخدم الألوان ، وتصور مناظر الطبيعة ، والصيد ، والحرب . ونتيجة للتكامل بين إمارات المغول ، ظهرت تأثيرات مختلفة ، وأصبحوا يشكلون البرونز والفخار حسب طرق الفن الفارسية ، وكان الفرس كذلك هم الذين أدخلوا إلى الصين الفن البيزنطى الخاص بالمينا المحددة . وظهر التداخل الكبير بين العناصر

الصينية والمغولية فى كل الميادين الفنية ، وبشكل دل على أن اليوان قد هضموا حضارة أقدم منهم .

وكانت روسيا ، فى الجانب الآخر من الامبراطورية المغولية ، شبه مستقلة تحت سيطرة الغزاة من الجنس الأصفر . وكان أحد أحفاد جنكيز خان قد حكمه على معظم روسيا ، وأتخذ عاصمة لها على نهر الفولجا ، ورفض الاشتراك فى انتخاب الخاقان ، واحتفظ لنفسه بالمناطق الروسية التى أصبحت مغولية ، دون أن تخضع لمنغوليا . وكانت طرق حكمه تشبه حكم المناطق التتارية الأخرى ، إذ كان يستولى على أكبر كمية من الضرائب ، ولكن موظفيه كانوا يحترمون العادات والتقاليد والديانات المحلية ؛ وتركوا الأمراء السابقين لهم يحكمون مناطقهم تحت سيطرتهم . وقاموا ببناء مخازن الحبوب ، وشق الطرق ، وتنظيم البريد . وكان المغول يوجهون كل شيء فى روسيا ، ولهم نظام بوليسى أعطى للروس روحاً سلبية متواكلة أمام وحشية الدولة ورجالها . وكان أكبر أخطائهم هو إبعاد روسيا عن التيارات التى سادت فى الغرب ، وفى الوقت الذى بدأت فيه أوربا فى اليقظة . وكانت صلات جنوا والبندقية من الجنوب مع روسيا ، وصلات الجامعة الهنسية معها من الشمال ، اقتصادية قبل أى شيء آخر . فنزل ستار حديدى بين العالم الأبيض والعالم الاصفر . وأخذت روسيا فى التقهقر فى الوقت الذى استمرت فيه بقية أوربا فى التقدم . وتكونت موسكو ونمت ، كما يقول ماركس ، فى ظل مدرسة التواكل والعبودية المغولية ، ولم تشحذ همتها وتجمع قواها ، إلا لتكرسها للتفنن فى الخضوع للاستبعاد .

أما بقية الممالك المغولية فقد ظهرت شخصياتها المتميزة بسرعة أكثر مما حدث فى الصين وكانت التركستان ، المحصورة بين المغولية وخانات إيران وروسيا ، غير قادرة على التوسع وكانت الأسرة الحاكمة فيها من سلالة جاكتاى ، الابن الثانى لجنكيزخان ، وحاولت أن تتوغل فى الهند ؛ وأرسلت ثلاث حملات

إلى البنجاب ، ووصلت حتى أبواب دلهى ؛ ولكن السلاطين المسلمين قاموا بصد هجمات المغول فى كل مرة . هذا علاوة على أنه فى أراضى جاكتاى نفسها ، لم يتمكن النظام المغولى القائم على أساس المركزية من أن يتغلب على تحركات الشعوب التركمانية التى تسكن البلاد ؛ وسرعان ما جاءت الصرعات الداخلية ، لكى تضعف من سلطة الخانات . ومنذ بداية القرن الرابع عشر ، انفصلت كل من بلاد ماوراء النهر . والتركستان الشرقية ، تحت حكم فرعين متنافسين من فروع هذه الأسرة الحاكمه ؛ كما أن اتصال الحاربين المغول بالقبائل الخاضعة لهم ساعد على سرعة تحولهم إلى الاسلام . وكان الخانات الأول يتميزون بالسماحة الدينية ، ولكن سرعان ماخلفهم أمراء وقعوا تحت سيطرة التركمان أكثر فأكثر . ونجد أن قوة الحماس الدينى الاسلامى كانت واضحة بنوع خاص فى بلاد ماوراء النهر؛ وهى المنطقة التى ستخرج منها عصابات تيمور ، قرب أواسط هذا القرن .

ويتميز تاريخ خانات المغول فى فارس وفى روسيا بتاريخ مشابه من حيث التحول إلى الاسلام،وكذلك الصراعات الداخلية . فلقد تكونت إمارات متنافسة فى كبتشاق (روسيا المغولية) . وكانوا أقل ثروة وأقل قوة من مغول التركستان، وتحولوا نهائيا مثلهم ، ومنذ نهاية القرن الثالث عشر ، إلى الدين الاسلامى ، الذى أصبح دين كل المغول الغربيين. وفى فارس ، واصل ذلك الفرع من أسرة جنكيز خان ، والذى أسسه هولاكو منذ سنة ١٢٥٦ ؛ توسعه بصبر صوب الغرب . ووصلوا إلى بغداد منذ سنة ١٢٥٨ وإنتصروا على السلجوقيين فى آسيا الصغرى ، وأخضعوهم لهم ، وسيطروا على أرمينيا الصغرى ، وعلى شعوب ما وراء جبال القوقاز ؛ وأصبحت دولتهم جارة خطيرة لسلطة المماليك فى مصر . وفى سنة ١٢٨١ قام أباجا خان بغزو سوريا بدعوى الدفاع عن إمارات أرمينيا الصغرى .

والواقع أن مغول فارس ، مثلهم فى ذلك مثل إخوانهم فى الصين وفى

التركستان ، لم يتأخروا كثيراً عن أن يتأثروا بالشعوب التى كانوا قد غزوها .
وتحولت خانات فارس ، شيئاً فشيئاً ، أثناء النصف الأول من القرن الرابع عشر ، إلى الاسلام ، وأخذت أنظار أمرائهم تتجه صوب مكة ؛ وزادت سرعة هذا التطور مع نهاية أسرة جنكيز خان ، والذى كان آخر خاناتها ، هو أبوسعيد ، الذى حكم من سنة ١٣١٦ إلى سنة ١٣٣٤ ، وذلك بتقسيم إيران إلى أربع امارات : هى آذربيجان ، والعراق ، وخراسان ، وفارس . وكانت بعض هذه الأسر المحلية التى حكمت هذه الامارات من اصل غير مغولى ؛ فكانت من الأفغان ، أو الايرانيين ؛ وكانوا مسلمين ، سواء من السنة أو الشيعة ؛ وكانوا قد هضموا غزاتهم . ومع ذلك ، فرغم قصر فترة الحكم المغولى ، والانقسام السياسى الذى نتج عنه ، فإنه ترك آثاره على الحضاره الإيرانية القديمة . وإذا كانت فنون الفرس قد أثرت حتى فى الصين ، فإن فنون الشرق الاقصى ، قد تركت أثرها كذلك فى ايران . وقام خانات المغول فى فارس باستدعاء عدد من صناع الفخار الصينيين إلى منطقة حكمهم . وفى فترة حكم المغول فى فارس ظهرت مدرسة الفنون الدقيقة الفارسية ، التى جمعت بين التقاليد المحلية ، وبين حب الصينيين للطبيعة ، والتى ستكون الأساس لهذه المجموعة من الرسامين ، الذين سيعملون على تنمية فنهم فى عهد التيموريين وحتى أثناء القرن السادس عشر .

٣ - آسيا المغولية :

وإذا كانت امبراطورية المغول قد انقسمت بسرعة ، إلا أن آسيا قد عرفت فى ظلها أكثر من نصف قرن من الإزدهار . ولقد احتفظت هذه الإمبراطورية ، حتى حوالى سنة ١٣٥٠ ، بوحدة نظرية ، كانت تترجم فى ميدان الواقع . وكان الخانات الغربيون قد استمروا فى النظر إلى امبراطور بكين على أنه سيدهم واحتفظوا معه بعلاقات احترام وسلام . وكانت الحدود ، المفتوحة إلى مدى بعيد ، لا تعرقل التبادل ؛ وكانت لا توقف التجار ، ولا المبشرين الغربيين . أما

أوربا ، التى كانت مجبرة فيما مضى على المرور عبر سلطنة مماليك مصر لكى تحصل على سلع آسيا بأغلى الأثمان ، فإنها أصبحت تجد أمامها طرقاً تجارية سريعة وسهلة العبور ، عبر القارة الآسيوية . وفى بعض الإمارات ، والسلطنات أو الخانات الخاضعة لهم ، قام المغول بحماية القوافل ، وأنشئوا الطرق ومراكز الحراسة ، وبعض الاسواق الكبرى الدولية . وأصبحت فارس ، من جديد ، هي ثغر آسيا . ولعبت مدينة تبريز ذلك الدور الذى لعبته بغداد فى عهد العباسيين . وكان يصل اليها طريقان من الشرق ، الأول هو طريق الحرير القديم الذى كان يمر عبر التركستان ؛ والثانى هو الطريق البحرى ، أو طريق التوابل ، الذى يوصل إلى المحيط الهندى ، والخاليج الفارسى ، وحتى ميناء هرمز ، الذى انشىء فى سنة ١٣٣٠ . أما فى الغرب ، فقد كان يخرج من تبريز طريقان آخران ؛ الأول ينتهى عند طرابيزون على البحر الأسود ، والآخر يعبر إمارة ارمينيا الصغرى لكى ينتهى عند خليج الاسكندرونة ، هذا علاوة على وجود طريق آخر كبير ، ويمر إلى الشمال أكثر من ذلك ، ويصل الصين بالقرم ، ماراً عبر التركستان وبحر قزوين ، وجنوب الفولجا ، والكبتشاق .

ولقد أفادت التجارة الأوربية من هذا التغير الكبير . وسهلت هذه الطرق الجديدة وصول السلع والمنتجات الآسيوية من كل نوع ، وبسعر أقل إلى الغرب ، وسمحت بالإتصال بين فنون المناطق المختلفة ، وقربوا فيما بين الحضارات المتباعدة عن بعضها . وأفاد الكثيرون من تلك التسهيلات الجديدة ، التى كانت تتمثل فيما نتج عن توحيد المغول لهذه المناطق المختلفة . وأعطى هذا الوضع الجديد آمالا عريضة أمام جماعات التبشير ، للقيام بمجهود وللوصول إلى الصين ، وإلى الهند . وقاموا ببذل مجهود فى هذا السبيل ، أثبت نجاحاً لبعض الوقت ، خاصة وأن خانات المغول كانوا متسامحين ومن فارس ، وتركستان ، وحتى الصين ، بدت آسيا ، فى أواسط القرن الرابع عشر ، على أنها تنفتح أمام المؤثرات الخارجية

الفعالة . ولكن سرعان ما تغير كل شيء ، وظهرت إتجاهات محلية قوة ، فى الصين ، وتركستان ، وفى فارس ، وإنتهى بها الأمر إلى تحطيم ذلك الصرح الذى كان جنكيز خان قد أقامه ، وأكمله فيما بعد خلفاؤه ؛ وإنتهى الأمر بهذه الحركات إلى إعادة إغراق القارة القديمة فى فوضى ، يفيد منها المنتصرون الجدد ، وهم من المنطقة .

ومع ذلك فعلينا ألا ننسى أن هناك ثلاث مناطق كبيرة فى آسيا لم تصل إليها جيوش المغول ، أو وصلتا وصدت عنها ، وهذه المناطق هى اليابان ، والهند الصينية ، وشبه القارة الهندية .

أما اليابان ، فإنها ، بعد صدها لمحاولة المغول احتلالها سنة ١٢٨١ ، لم يقلقها الغزاة من القارة ، وإنغلقت على نفسها ، داخل جزرها ، وعاشت أزماتها الداخلية . وتولى الحكم فيها فى أول الأمر مجموعة من الدكتاتوريين الذين كانوا قد تميزوا أثناء الحرب ضد المغول ؛ ثم ضعفت السلطة ، وزاد ظهور أهمية رئيس القصر ، أو الوصى ، الأمر الذى أدى إلى ظهور الامبراطورية فى سنة ١٣١٩ ، مستندة إلى رجال الدين البوذيين ؛ وإلى ولاء العديد من السادة الاقطاعيين . وفى نفس الوقت ظلت اليابان خارج تلك التيارات الخاصة بالتبادل ، والتى رأينا نشأتها داخل إمبراطورية المغول .

وكان هذا كذلك هو حال الهند الصينية تقريباً ؛ تلك المنطقة التى ضعفت فيها إمبراطورية الخمير فى أثناء القرن الرابع عشر ، وظهرت على حسابها مملكة قوية فى سيام . وإلى الشرق من ذلك وفى نفس شبه الجزيرة ، وظهرت مملكة آنام ، حول تونكين الحالية ، وأخذت فى مد سلطتها صوب الجنوب ، فى السنوات الأولى من القرن الرابع . ولكن الضعف والفوضى والحروب الداخلية ، سادت المنطقه بعد ذلك .

وأما الهند ، فهى المنطقة الثالثة التى مستها عملية الغزو المغولى بالكاد . ورغم

خضوع المناطق المحيطة بها لغزوات المغول فإنها ظلت، أثناء القرن الرابع عشر، خاضعة لغزاتها الأتراك الأفغان، الذين عملوا على توسيع ملكهم فيها. وكانت كل سهول السند والجانج، مع دلهى كعاصمة لها، تكون إمبراطورية عسكرية، تخضع لحكم جيش من المماليك. ورأى هؤلاء الغزاة أن المغول قد إستولوا على بلادهم الأصلية، وعلى جبال الأفغان، ولكنهم تمكنوا أنفسهم من الاحتفاظ بالأراضى التى كانوا قد فقدوها. وتعاقب على العرش أسر عسكرية، تقوم الواحدة منها بإنتزاع السلطة من السابقة لها. وبعد عدد من السلاطين الأتراك، تولى عدد من السلاطين الأفغان السلطة، إبتداء من سنة ١٢٩٠. وقام السلطان علاء الدين (١٢٩٦ - ١٣١٦) بالعودة إلى محاولة غزو شبه القارة من جديد، بعد أن كانت قد توقفت منذ نصف قرن، فإستولى على الهند الوسطى، وأخضع ماوه، وضم جزء من مملكة المهراتا. وظهرت قواته وسط هضبة الدكن، ثم وصلت إلى أقصى الجنوب. ثم جاءت أسرة تركية جديدة إلى الحكم، واشتهرت بنشر الإسلام بالقوة فى البلاد التى خضعت لها. وسرعان ما ظهرت الثورات داخل السلطنة التركية الأفغانية، التى أخذت فى الإنقسام إلى دويلات إسلامية عديدة. وكان هذا الضعف، فى السنوات الأخيرة من القرن، فى صالح السياسة التى كان يتبعها تيمور.

٤ — بداية حكم تيمور :

شعر المغول عند، أواسط القرن الرابع عشر، وبعد أن عجزوا عن السيطرة على كل آسيا، بأن سيطرتهم قد أصبحت مزعزعة فى البلاد التى لم يتمكنوا من أن يدعموا حكمهم فيها، وكانت الصين من بينها. وكان الأباطرة من أسرة جنكيزخان قد فقدوا شيئاً فشيئاً، ومنذ بدء حكمهم فى بكين، الصلة مع بقية الأسر المغولية وانتهوا، نتيجة لهضمهم الحضارة الصينية، بأن أصبحوا غرباء عن إخوانهم فى الجنس، وبأن يثيروا، بدورهم، غيرة وطمع أولئك الذين ظلوا من بينهم يواصلون حياة التنقل فى إستبس منغوليا. وكان هؤلاء الأخيرين قد عادوا إلى

ممارسة جولاتهم التخريبية فى أراضى الصين ، مجبرين بذلك أسرة يوان ، ورغم أصلها المغولى، على أن تسلك معهم نفس السلوك الذى كان يسلكه الأباطرة الصينيون من قبلها ؛ وأن تقوم باستخدام القوة ضدهم ؛ خاصة وأن جولات النهب والسلب فى القرن الرابع عشر لم تكن أقل خطورة أو عنفاً من تلك التى كانت قد حدثت فى القرن السابق : وكانوا قد وصلوا فى سنة ١٣٦٠ إلى بيتشى لى ، قاتلين وناهبين كل ما يصادفونه فى طريقهم ، كما فعل أجدادهم تماما .

وفى أثناء ذلك الوقت ، رأى سادة بكين أن الصين الجنوبية تعلن الثورة ضدهم . وكان الجنوب قد ظل مخلصاً لمبادىء كنفشيوس ، وكانت ميوله ديمقراطية، ونشاطاته تجارية ، وذوقه أكثر رقة ، الأمر الذى يتعارض مع ما ساد الصين الشمالية ، التى صبغت بالصبغة المغولية ، وسادها نظام اقطاعى ، عسكرى ، وأتوقراطى . وأعلنت كل الصين الجنوبية الثورة فى سنة ١٣٥٠ ، وتمكن قادتها المحليين ، رغم منافساتهم ، من أن يهزموا الحكومة المغولية ؛ وصوب سنة ١٣٦٠ كانت كل المقاطعات الجنوبية ، الواقعة جنوب النهر الأزرق ، قد تمكنت من أن تتخلص من سيطرة حكام بكين . ولم يبق لهم إلا أن يلتفوا حول أحد قادتهم القادرين ، حتى يكملوا ما بدؤه . وكان المغامر تشويوان تشانج ، المعروف باسم هونج وو ، قد أظهر مقدرته ونشاطه ، وأقام فى نانكين التى انتزعها من المغول فى سنة ١٣٥٦ ، وأخذ فى القضاء على منافسيه ، وسيطر على الجنوب ، بما فيه كانتون ، ثم أخذ فى سنة ١٣٦٨ فى الزحف صوب الشمال . وعجز إمبراطور المغول الضعيف ، توغون تيمور ، عن أن يوقفه ، وكانت بضعة أشهر كافية لكى يصل تحت أسوار بكين ، ويستولى عليها . وكانت هزيمة المغول كاملة ، ولم يكتف هونج وو ، مؤسس أسرة مينج الصينية بانتصاراته الأولى ، وأردفها بالهجوم على أمراء أسرة جنكيزخان ، حتى فى بلادهم الأصلية ، وتمكن من أن يصل بانتصاراته حتى إلى قراقورم ، التى احتلها لفتر سنة ١٣٧٢ .

وفى نفس الوقت ، كان هناك تغييراً أكثر خطورة يتم فى التركستان . ولقد ذكرنا أن خانات المغول هناك كانت قد إنقسمت فى أوائل القرن الرابع عشر إلى قسمين : ما وراء النهر إلى الغرب ، وتركستان الشرقية إلى الشرق . ولكن سرعان ما سادت الفوضى بلاد ما وراء النهر ، وتمكن النبلاء الاتراك فى سمرقند بسهولة . وهم من المسلمين المخلصين ، من القضاء على سلطة خان المغول ، الذى كان يحكمهم إسمياً . وأفاد توجلوك تيمور ، خان تركستان الشرقية ، من هذه الظروف ، وقام بغزو بلاد ما وراء النهر ، وأعاد الوحدة بين الاقليمين فى سنة ١٣٦٠ . واضطرت الأسر التركية الرئيسية إلى الالتجاء إلى الواحات الجنوبية المجاورة لإيران ، حيث إنتظروا عودة الغزاة ، لكى يعلنوا الثورة وسيظهر تيمور الكبير من بين أولئك اللاجئين .

وكان هذا الرئيس من سلالة أسرة من نبلاء أتراك ما وراء النهر ، وكان الجرح الذى أصابه فى إحدى المعارك هو سبب وصفه بالأعرج « لنك » ؛ وكانت حركته تمثل ثورة التركستان على المغول . ولا شك فى أنه قد أخذ لنفسه أحلام جنكيزخان من أجل السيطرة على العالم ؛ وحاول بعد نجاحه فى حروبه أن يعلن أنه من سلالة هذا الغازى الشهير ، ويدعى أنه من أسرته ؛ ولكنه سيكون من الخطأ أن ننظر إليه على أنه استمرار للمغول . فلقد كان يمثل رد الفعل الوطنى والدينى للنبلاء الأتراك ضد الخانات الذين لم تكن لهم ديانة ، أو كانوا متسامحين تجاه كل الديانات . ذلك أنه قد حارب من أجل الاسلام ، وسيطر على نصف القارة الآسيوية باسم الجهاد : وكان هذا العامل هو الذى سيزيد من خطورته ، وخطورة حركته ، فى نظر أوربا ، وهى مسيحية ، خاصة وأنه سيصل إلى تخومها .

وكانت السنوات الأولى من حياة تيمور صعبة ، وقليلة النجاح . واضطر ، فى مواجهة توغلوك ، إلى أن يتحالف مع الرؤساء المحليين ، وبخاصة مع الأمير

حسين ، الذى تزوج أخته . . وتمكن فى سنة ١٣٦١ من أن يضع أقدامه فى بلاد ما وراء النهر ، ويطرد المغول إلى بلاد القشغر . ثم قتل الأمير حسين ، فأصبح تيمور هو الرئيس دون شريك ، وأفاد من موت توغلوك ، فى سنة ١٣٦٤ ، لكى يعاود الهجوم ، وإن كانت غزواته لم تبدأ حوالى سنة ١٣٧٠ . ولقد إحتاج إلى عشر سنوات أخرى لكى يقضى على الخان السابق ، وإلى خمس حملات لكى يحطم قوة أمراء أسرة جنكيز خان فى بلاد القشغر . ثم قام بضم خرزم ومنطقة خيوة فى سنة ١٣٧٨ .

وبعد أن ثبت دعائم حكمه فى منطقة التركستان ، بدأ فى تحويل أنظاره صوب الغرب . فإستعدت قرب سنة ١٣٨٠ لغزو فارس ، حيث يمكن التنبؤ بأنه سوف ينجذب بسهولة صوب سوريا ، وصوب بلاد الأناضول .

٥ ـ الفوضى عند المسيحيين فى الشرق :

ولم يعد للمسيحيين ، فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط ، تلك القوة التى تمكنهم من مواجهة العدو الجديد ، وكانوا يفقدون نقط إرتكازهم ، الواحدة بعد الأخرى . وكان ما بقى من الأراضى المقدسة فى أيدى الفرنجة ، عند سنة ١٢٨٠ يتمثل فى شريط ساحلى ضيق من الأرض ، يشتمل على حيفا ، وعكا ، وصيدا ، وبيروت ، وطرابلس ؛ ورأى الفرنجة أن سلطان المماليك فى مصر ، قلاوون ، قد تمكن من دفع غارة المغول بقيادة ما نجوتيمور فى حمص سنة ١٢٨١ . فإضطر الفرنجة إلى منح تاج بيت المقدس لهنرى لوسينيان الثانى ، ملك قبرص فى سنة ١٢٨٦ . ولكن السلطان قلاوون تمكن من إعادة بناء قواته المسلحة ، وإستولى على اللاذقية سنة ١٢٨٧ ، ثم على طرابلس سنة ١٢٨٩ . ووصل فى إبريل سنة ١٢٩١ أمام عكا ، وحاصرها ، وإستولى عليها فى مايو ، وقضى على آخر معاقل الفرنجة فى الشام .

ووجد الفرنجة ، أمام خطر المماليك ، وعدم إستجابة ملوك وأمراء الغرب

لنجدتهم ، أن المخرج الوحيد أمامهم يتمثل فى التحالف مع خان الفرس الغزنوى؛ ولذلك فانهم وعدوه بالتأييد المطلق . فى سنة ١٢٩٩ ، حين علموا بأنه يستعد لغزو الشام ؛ ولقد ساعدوه بقوة فى أن يحصل يوم ٢٣ ديسمبر على انتصار على القوات المملوكية فى حمص ، وفى نفس المكان الذى كانت قوات المغول قد ذاقت فيه مرارة الهزيمة على أيدى المماليك منذ ثمانية عشر عاما ؛ كما ساعدوه بحرياً وبرياً، وذلك حين استعد للاستيلاء على دمشق ، فى يناير سنة ١٣٠٠ ، وكذلك حين استمر بعد ذلك فى حصاره لحلب . ولكن الوقت كان قد تبدل ، وكان الفرنجة قد لعبوا على الفرس الخاسرة ، بتحالفهم مع المغول ضد المماليك . ذلك أن ثورة نشبت فى فارس ؛ واضطر السلطان الغزنوى إلى العودة إلى بلاده ، تاركا سوريا لقوات السلطان المملوكى ، الملك الناصر ، وانتهى حلم المسيحيين فى الشرق بإعادة غزو سوريا ، بمساعدة الغزاة الأجانب .

وبقى للمسيحيين خط تراجعوا إليه ، فى مواجهة الاسلام ، وهو يتمثل فى مملكة أرمينيا الصغرى ؛ والتى كانت تقع محصورة بين سوريا والامارات التركية فى الأناضول ، وكانت قد عاشت لفترة من الوقت نتيجة لتحالفها مع المغول ، وتمكنها من فتح طريق تجارى بين عاصمتها ، وبين إحدى الموانى الصغيرة المطلة على خليج الاسكندرونة ، الأمر الذى ساعد على إزدهارها . وكان وجود هذه المملكة يعمل ضد مصلحة سلطنة المماليك ، فهاجمت القوات المملوكية وميناءها الصغير مرتين ، فى سنة ١٣٢٢ وفى سنة ١٣٣٧ ، وخربته . وفى سنة ١٣٧٥ سقط آخر ملوك هذه الدولة فى أيدى قوات المماليك ، وقضى حياته فى أوربا . لاجئاً ، بعد أن أطلق سلطان مصر المملوكى سراحه .

واحتفظ اللاتين كذلك بمملكة قبرص ، التى كانت تمثل مفتاح الحوض الشرقى للبحر المتوسط ؛ وكانت من أكثر دول أوربا بارتباء . وكانت ميناء فاجوستا تضم الكثير من التجار ، من كل أنحاء أوربا وعاشت فيها . تحت حكم لوسينيان ،

أرستقراطية تشربت بالروح الشرقية ، وجنباً إلى جنب مع الجماعات الدينية القوية ؛ وإنتشرت الكاندرائيات والحصون فى كل مكان . وكانت جماعة فرسان الهسبتالية هى الجماعة المحاربة الوحيدة الموجودة فى الشرق ، بعد سفر الفرسان التيوتون إلى منطقة بحر البلطيق ، وصدور الحكم على جماعة فرسان المعبد . وكانت جماعة فرسان الهسبتالية قد حضرت فى أول الأمر كجماعة لاجئة إلى ليماسول ، فى جنوب قبرص ، بعد سقوط عكا فى أيدى المماليك ؛ ثم استعانت بأهالى قبرص وهاجمت جزيرة رودس فى سنة ١٣١٠ ، وأقامت فيها ، وسيطرت على البحار المحيطة بها ، بمساعدة القبارصة .

وكانت الملاحة مهددة فى بحر إيجة . ذلك أن الأمراء الأتراك فى آسيا الصغرى كانوا قد أفادوا من تفتت الدول المسيحية فى الأرخبيل وفى شبه جزيرة البلقان ، وقاموا بعمليات قرصنة موجهة ضد سفن الغربيين ، نشرت الرعب ، وعرقلت تجارة الايطاليين ، وبخاصة تجارة البنادقة . وقامت أساطيل لوسينيان مع جماعة الفرسان الهسبتالية ، وبعض سفن البندقية والبابوية ، فى سنة ١٣٤٤ ، بحملة بحرية لتطهير بحر إيجه ، وتمكنت فى ٢٨ أكتوبر من الاستيلاء على أزمير من عمور بك . ولكن إستمرار العمل فى هذا القطاع كان صعباً دون الحصول على مشاركة أوربية فعالة فيه .

وكانت بيزنطة ضعيفة ، ولم يعد لها سوى مساحة صغيرة من الأرض على الساحل الآسيوى للبوسفور ولبحر مرمرة ، علاوة على تراقيا والقسطنطينية ، وجنوب مقدونيا مع سالونيك ، وعدد بسيط من الجزر فى بحر إيجه .

وأما البنادقة ، فإنهم كانوا ، علاوة على إحتفاظهم بجزيرة كريت ، وببعض مدن المورة ، قد أقطعوا الجزء الأكبر من جزر الأرخبيل لعدد من أسرهم الأرستقراطية . أما منافسوهم ، أبناء جنوا ، فانهم كانوا يحاولون الإحتفاظ بالإحتكار التجارى لمنطقة البحر الأسود ؛ وكانوا يحتفظون فى القسطنطينية ،

بكل من حى بيرا وحى جلطة ، وكانا قطاعيين لها دخل الأراضى البيزنطية ؛ وقام بعض المغامرين من أبناء جنوا بالسيطرة على ليه بوس وخيوس . وكانت بعض بقايا لإمبراطورية القسطنطينية اللاتينية موجودة فى شبه الجزيرة اليونانية ، وبخاصة فى إمارة المورة ، التى كانت موضوع نزاع بين كثير من الأمراء الأوربيين ، من أسر نابولى ، وأراجون وفالوا وآنجو .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية عاجزة عن الإفادة من هذه الفوضى ، إذ أنها كانت غارقة فى صراعات داخلية مستمرة . وكان الأمراء الصغار فى الأسرة الحاكمة يطالبون بقيادات كبيرة ، فتركوا لهم بعض المقاطعات الباقية ، وإستندوا إلى صفتهم كحكام مطلقين ، وحاولوا الاستقلال بحكمها . وكانت الخزانة خاوية ولم يعد من السهل تجنيد الرجال من الاقاليم ، التى قل عدد سكانها . فإضطروا إلى الالتجاء إلى المرتزقة ، ولكنهم عجزوا عن دفع رواتبهم ، فتحولت هذه العصابات من البلغار والكاتالان أو الأتراك إلى العمل لحسابهم الشخصى ، ونهبوا البلاد التى كان من واجبهم الدفاع عنها . وأخيراً ، ولكى تستمر المهزلة ، تتالت مؤامرات وثورات القصر ، حول عرش مقلقل مهتز . وساد الضعف أسرة باليولوج ، وبدون أمل فى الشفاء . وكانوا يتعاونون على بعضهم ، فى صراعاتهم المستمرة ، بالصرب وبالأتراك العثمانيين وفى حالة ميؤس منها .

وأمام هذه الفوضى ، لم يكن من الواقعية التحدث عن حرب صليبية جديدة . وكان ملك قبرص ، بطرس لوسينيان الأول ، قد تمكن فى سنة ١٣٦١ من الاستيلاء على ميناء أضاليا ، ثم على ميرا ، ولكيا ، وأعتقد أن الساعة قد حانت لترتيب هجوم شامل على المسلمين . وحاول أن يقنع الغرب بوجهة نظره ، فزار معظم ملوك وأمراء أوربا ، ولكنه لم يرجع من جولته إلا بمجموعة من الوعود . ولقد تمكن مع العشرة آلاف رجل ، الذين جمعهم بكل صعوبة من أن يفاجىء الإسكندرية فى شهر أكتوبر سنة ١٣٦٥ ، وينهبها ؛ ثم يقوم بنفس العملية ضد

طرابلس الشام ، وطرطوس ، واللاذقية ويافا فى سنة ١٢٦٧ ، ولكنه تمكن من الاضرار بالتجارة المصرية ، دون أن يتمكن من إحتلال أى موقع والتمركز فيه ، وفى حرب مجهدة ومكلفة ، ومدمرة .

هذا علاوة عن أن هذه الحملات كانت تتعارض مع مصالح كل من جنوا والبندقية ، وكانت تثير حنقها . ولقد عمل الباوات ، بلا جدوى ، على تجديد تحريم الاتجار مع المسلمين ، وبصفتهم أعداء الدين المسيحى ؛ ورغم ذلك ، فإن البندقية عقدت فى سنة ١٣٠٢ معاهدة تجارة مع مصر ، وحصلت بها على شروط مواتية فى نظير إدخال السلع الممنوعة من جانب الكنيسة ، والمواد الحربية ، إلى بلاد المماليك ، كما أن جنوا قامت فى سنة ١٣١٠ بنهب رودس ، وباعوا أسلابهم للأتراك .ولم يعد حصار الإسلام ، كحلم للبابوية ،مجرد استحالة من حيث التحقيق ، بل نجد أن كل من أبناء البندقية وأبناء جنوا يعملون فى صالح المسلمين.

حقيقة أنهم قد تحالفوا ، فى وقت معين ، من أجل تخليص بحر إيجة من القراصنه الاتراك ، الذين كانوا يعرقلون نشاطهم ؛ ولكنهم عادوا بعد ذلك إلى التناحر فيما بينهم . ونشبت الحرب بين الدولتين فى سنة ١٣٥٠ ، وامتلأ البحر الشرقى ، الذى كان قد شهد وجود بعض سفنهم التى عملت ضد الاتراك ، بأساطيلهم . ولذلك فإن كل حملة صليبية جديدة كانت تتعارض مع مخططاتهم . ولقد إحتفظت جنوا بالحياد ، وقت الهجوم على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ ، ورأت أن الصليبيين ينهبون فنادقها ومخازن سلعها . وبعد فترة من الوقت ، اقترحت البندقية ، التى كانت تخشى على تجارتها الشرقية ، وساطتها بين ملك قبرص ، وبين سلطان مصر . وأخيراً ، فإن أبناء جنوا أفادوا من مقتل بطرس الأول ملك قبرص سنة ١٣٦٩ ، فإدعوا حرصهم على إعادة النظام إلى مملكته ، وهاجموا الجزيرة ونهبوها ، وإحتفظوا لنفسهم بميناء فماجوستا سنة ١٣٧٣. ومع قبرص ، سقطت آخر دولة كان فى وسعها أن تقف فى وجه الشرق الاسلامى .

الفصل الثامن

قيام الدولة العثمانية

لقد توالى تقدم الغزاة الآسيويين فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط منذ نهاية القرن الرابع عشر . وفى أوربا كانت هزيمة الصرب فى قوصوه قد سلمت العثمانيين شبه جزيرة البلقان ؛ وفى آسيا كانت قوة بقية الإمارات الناتجة عن تقسيم الدولة السلجوقية متوترة ، وكان السؤال الوحيد الذى يطرح نفسه بالنسبة إليهم هو معرفة ما إذا كانت ستقع فى أيدى العثمانيين ، أو فى أيدى قوات تيمور ، واللذان كانت قوات كل منهما تواصل إنتصاراتها صوب الغرب .

١ ــ نشأة العثمانيين :

بدأ عند نهاية القرن الثالث عشر أن الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين ، اللتين كانتا قد أقلقت المسيحيين فى الماضى ، قد ضعفتا . ففى القاهرة ، كانت الدولة المصرية السورية ، منذ أن خضعت لأرستقراطية المماليك العسكرية ، قد أخذت تصرف قواها فى ثورات القصر ، كما أنها كانت تقلق من ناحية أخرى ، ومن وقت لآخر ، نتيجة لعدم خضوع أمراء سوريا ، الذين أصبحوا مستقلين بالفعل . حقيقة أنها كانت لا تزال قادرة على دفع الغزاة ، فى حالة حضورهم ، ولكنها كانت عاجزة عن القيام بغزوات . أما سلطنة السلاجقة فى بلاد الروم ، أو فى آسيا الصغرى ، فإنها لم تتمكن من النهوض من الضربات التى كان المغول قد وجهوها إليها . وتفككت عند نهاية القرن الثالث عشر ؛ ولم يعد حكام الأقاليم يطيعونها ، وكونوا مجموعة من الإمارات : ففى الداخل كانت هناك إمارة قرميان حول كوتاهية ، وإمارة قرمان حول قونية ، العاصمة السابقة لدولة

السلاجقة ؛ وكانت لكل منهما قوات مدربة على الحرب ؛ وعلى الساحل كانت هناك إمارة صاروخان فى منطقة ليديا ، وإمارة آيدن التى تمكن أميرها فى سنة ١٢٣٠ من إستعادة أزمير من أبناء جنوا ، وأصبح له نفوذ فى بحر إيجة . وتاريخ هذه الإمارات شبه مجهول ، وكانت من التفتت بشكل يمنعها من القيام بعمل جاد . ولكن سرعان ما ظهرت قوة جديدة ، وهى قوة الأتراك العثمانيين ، التى سيعرف المسيحيون خطرها بعد قليل .

والروايات غير واضحة عن أصل العثمانيين ، خاصة وأن كل ما يروى عن هذا الأصل يرجع إلى ما بعد إستيلائهم على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، مما يجعلنا لانستند إليه . فيعتقد أنهم جاءوا من قبيلة تركمانية صغيرة كانت تقيم عند بداية القرن الثالث عشر فى خراسان ، وطردها الغزاة المغول من هناك حول سنة ١٢٢٠ . فترك رئيسهم الأول سليمان خراسان ، وقاد قبيلته عبر بلاد آذربيجان وأرمينيا والفرات الأعلى ؛ وفى عهد أرطغرل دخلت القبيلة العثمانية فى صلات مع دولة السلاجقة ؛ وربما أدخلها سلطان السلاجقة فى خدمته لمحاربة مغول فارس ، وأقطعها أرضاً من بلاده . والثابت فى هذا الشأن هو أن هذه القبيلة المدربة على الحروب كانت تقيم ، عند نهاية القرن الثالث عشر ، حول إسكى شهر ؛ وأصبحوا فى إقليمهم الصغير ، جيران للإمبراطورية البيزنطيــة ، وكانوا يخرجون كل ربيع للهجوم على القلاع اليونانية القريبة من حدود المسلمين . وبدأ ظهورهم مع عثمان ابن أرطغرل .

ومنذ بداية حكم عثمان ، سنة ١٢٩٩ ، تزايدت غزوات العثمانيين : فأقام فى نفس السنة فى بنى شهر ؛ وتمكن فى سنة ١٣٠١ من هزيمة القوات البيزنطية قرب نيقوميديا وخرب الإقليم المحيط بها ؛ ومنذ سنة ١٣٠٨ تمكن عثمان ، وبصبر ، من الإستيلاء على الحصون اليونانية ، الواحد بعد الآخر ، والتى كانت تدافع عن بروسة ونيقوميديا ونيقيا . ثم تمكن شيئاً فشيئاً من محاصرة هــذه

المدن ، وهدد خطوط مواصلاتها . وكان جيران العثمانيين من المسلمين الآخرين ، يهددون قوات العثمانيين البسيطة . ولذلك فإنهم لم يتمكنوا من القيام بعمليات هجوم مباشرة ، ولكنهم تمكنوا قرب نهاية حياة عثمان سنة ١٣٢٦ ، من الإستيلاء على بروسة ، بدون قتال ، وإتخذوا هذه المدينة البيزنطية أول عاصمة لهم .

وكانت الدولة التي تركها عثمان لإبنه أورخان (١٣٢٦ — ١٣٦٠) لا تزال في بدايتها ; فكانت تتكون من قبائل من الغزاة غير منظمة ، وكانت حدودها غير محددة ، ولم يكن لها مخرج على البحر ، ولا قوات نظامية . وواصل أورخان ، خلال النصف الأول من حكمه ، سياسة والده تجاه الممتلكات الآسيوية لبيزنطة . وتمكن في سنة ١٣٢٩ من أن يهزم أحد الجيوش البيزنطية على بعد إثنى عشر كيلو متراً من القسطنطينية ، ومن أن يدخل نيقيا . وإضطرت المدن البيزنطية الباقية في آسيا الصغرى ، إلى أن تسلم له الواحدة بعد الأخرى . وفي سنة ١٣٣٧ فتحت نيقوميديا أبوابها للغزاة الجدد ، ولم يبق لليونانيين حوالى سنة ١٣٤٠ جنوب البوسفور سوى إسكدار والمنطقة المحيطة بها .

ولم يقتصر نشاط أورخان على هذا الميدان ; فهاجم أمراء السلاجقة المجاورين له ، ووسع دولته على حسابهم ; كما أنه عمل على تنظيم دولته ، فأنشأ جيشاً نظامياً من الفرسان والمشاة ، بدلا من ذلك الجيش الذي كان يتكون من الفرسان المتطوعين في عهد والده ; ثم ضم إليهم مجموعات المحاربين غير النظاميين ، من الفرسان والمشاة كذلك ، والذين كانوا خليطاً من أبناء الشعوب المهزومة ، من يونانيين مسلمين ، وسلاف وأتراك . هذا علاوة على وجود سلاح المدفعية .

وحتى ذلك الوقت كان الجزء الأكبر من آسيا الصغرى لا يخضع لحكم العثمانيين ، ولكن أورخان لم يصبر حتى يكمل فتح كل آسيا الصغرى قبل أن ينتقل إلى شبه جزيرة البلقان . وساعده الخلاف الذي حدث بين كنتاكوزين

وباليولوج فى بيزنطة على ذلك فمنذ سنة ١٣٤٥ طلب إليه كنتاكوزين المعونة ، وفتح لقواته طريق تراقيا ؛ فقام فى سنوات ١٣٤٧و١٣٤٩ ثم ١٣٥٢ بوضع قواته التركية فى مواجهة القوات الصربية . ثم قامت القوات العثمانية بعد ذلك بقليل بعبور الدردنيل . أقامت فى شبه جزيرة غاليبولى ، وتقدمت بإستمرار فى جنوب تراقيا .

وبمجرد وصول مراد (١٣٥٩ — ١٣٨٩) إلى الحكم قام بحملة سريعة وخاطفة وسع بها غزوات العثمانيين فى أوربا ، وتمكن فى سنة ١٣٦٠و١٣٦١ من الإستيلاء على أدرنه وعلى فيليبوبولى ، والتى كانت عند سنة ١٢٤٤ فى أيدى البلغار. ومنذ ذلك الوقت أصبحت القسطنطينية محرومة من الإتصال بالسهول الغنية التى كانت تضمن تموينها . وشعر مراد بالثقة فى نفسه ، ونقل عاصمته من بروسة إلى أدرنه سنة ١٣٦٦ .

وثار قلق الغرب ، وأرسل البابا أوربان الخامس فى سنة ١٣٦٢ حملة صليبية من المجر والبوشناق والصرب والأفلاق ضد الأتراك . ولكنها إنهزمت فى ماريتزا فى العام التالى . وحاولت حملة أخرى فى سنة ١٣٦٦ أن تنقذ بيزنطه ، وإستولت على غاليبولى ، ولكنها إضطرت إلى الجلاء عنها ، والإنسحاب . ولقد حاول الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس ، أن يثير حماس أوربا ؛ وكرر وعوده بأنه سيعتنق المذهب الكاثوليكى ، ولكن بلا جدوى ، ولم يتمكن البابوات من إعداد حملة جديدة . فإضطر الإمبراطور البيزنطى ، بعد أن فقد الأمل ، إلى الإعتراف بتبعيته للسلطان مراد ، ووعده بمعونته عسكرياً . وأن يترك أولاده رهينة عنده سنة ١٣٧٤ .

ومع ذلك فإن غزو تراقيا جعل مراد على إتصال مباشر بالصرب والبلغار ، وكان ضعف هاتين الدولتين قد سهل عملية إستيلائه عليهما. وكانت بلغاريا مقسمة منذ سنه ١٣٦٥ إلى قسمين ، فتمكن مراد من الإستيلاء عليهما ، الواحد بعد

الآخر ، فى عامى ١٣٧٠ و ١٣٧١ ؛ ثم دفع الصرب إلى ماريتزا فى شهر سبتمبر سنة ١٣٧١ وإحتل قوله ودراما وسيريس ، لكى يصل بعد ذلك وادى فاردار الأدنى ، والذى كانت قواته تقوم بالعمليات منه حتى بحر الادرياتيك ، وذلك فى الوقت الذى كانت مجموعات أخرى تعمل فيه فى ابيروس وتساليا وأتيكا . وبعد بضع سنوات من توقف العمليات العسكرية ، من أجل تنظيم المناطق المفتوحة ، بدأ الهجوم من جديد . وساعد الإستيلاء على موناستير سنة ١٣٨٠ على فتح الطرق إلى البانيا ؛ كما ساعد الإستيلاء على صوفيا سنة ١٣٨٥ على فتح منطقة الدانوب الأدنى ؛ والاستيلاء على نيش سنة ١٣٨٦ على فتح الصرب ؛ كما أن الاستيلاء على سالونيك سنة ١٣٨٧ ، بعد حصار دام أربع سنوات ضمن السيطرة من البحر حتى بداية وادى فاردار . وحاولت الشعوب البلقانية ، بثورة كبيرة ، أن تتخلص من هذا الغزو،وتم تكوين حلف برئاسة الملك لازار، ملك الصرب ، مشتملا على أمراء البوسنة وألبانيا ؛ وأفادوا من وجود مراد فى آسيا الصغرى ، ووجود معظم قادته فى بلاد المورة ، وقاموا بهجومهم على البوسنة سنة ١٣٨٧ . ولكن مراد أسرع بالعودة ، وهزم أمراء البلغار سنة ١٣٨٨ ؛ ثم إشتبك يوم ١٥ يونيو سنة ١٣٨٩ مع قوات الصرب فى سهل قوصوه ، حيث دارت معركه حامية قتل فيها كل من لازار ملك العرب ، ومراد السلطان العثمانى. ورغم شجاعة الصرب فان هزيمتهم كانت كاملة ؛ وسيطر العثمانيون على بلاد البلقان .

٣ ـ توسع العثمانيين فى عهد بايزيد (١٣٨٩ ـ ١٤٠٣) :ـ

كان من الصعب وقف توسع العثمانيين فى البلقان . ولم يجد بايزيد ، إبن السلطان مراد ، الذى سقط على أرض معركة قوصوه ، أية صعوبة فى الحصول على خضوع رؤساء الصرب ، سواء فى شمال البلاد أو فى جنوبها ؛ وإعترفوا بضرورة دفع جزية له ، وتقديم عدد من المحاربين يساعدون العثمانيين فى

حروبهم . أما البوسنة فإنها كانت قد تحالفت مع دلماشيا وكرواتيا ، ولكن موت ملكها سنة ١٣٩١ ، وضعف خليفته لم تسمح للبوسنة بالوقوف أمام اطماع السلطان العثماني طويلا . وأما بلغاريا فانها خضعت بسرعة ؛ وفى سنة ١٣٩٣ زحف جيش عثمانى على بلغاريا لمعاقبتها على مساعدة قوات المجر على التوغل فى البلقان ، وطرد أمير بلغاريا ، والغى البطريركية البلغارية . ثم قام بايزيد فى سنة ١٣٩٤ بغزو الأفلاق ، التى فر أميرها إلى المجر . وفى نفس الوقت ، إستمر توغل العثمانيين فى بلاد اليونان التى تم غزو إقليم تساليا فيها منذ سنه ١٣٩١ .

بقى بعد ذلك القسطنطينية وضواحيها على ضفتى البوسفور ، والتى إنحصر فيها ملك باليولوج الضعيف . وكان الامبراطور يوحنا الخامس قد قبل الخضوع والتبعية للعثمانيين ، وأعطى إبنه مانيويل الثانى رهينة ، وأرسل قوة عسكرية للعمل فى الجيش العثمانى . ولكنهم أخذوا فى سنه ١٣٩٠ فى ترميم أسوار العاصمة فهدد بايزيد وطالبهم بضرورة وقف الأعمال العسكرية . وبعد موت يوحنا سنة ١٣٩١ ، تولى مانيويل العرش ، وظل محاصراً فى مدينته . وتنازل للعثمانيين عن جزء من حى جلطة ، وزاد الجزية التى يدفعها لهم ، ووفق على وجود قاضى عثمانى فى القسطنطينية .

ولقد عمل بايزيد على توسيع ممتلكاته فى آسيا وتدعيم حكمه وسيطرته على كل الأناضول . وبعد موقعة قوصوه مباشرة أجبره بايزيد أمير آيدن على أن يتنازل له عن ممتلكاته سنة ١٣٩٠ ، ثم غزا إمارة صاروخان ، فأصبح كل الساحل الشرقى لبحر إيجه بين يديه ، الأمر الذى سمح له بانشاء أسطول قوى ، استخدمه فى مهاجمة خيوس وعدد من الممتلكات المسيحية . وإستولى بايزيد فى سنة ١٣٩١ على أضاليا ، وبدأ منها فى تهديد قبرص . ولم يبق له سوى غزو شمال ووسط الأناضول حيث إصطدم بأقوى أمراء السلاجقة ، وهو أمير قرمان وقام بايزيد فى سنة ١٣٩١ بمحاوله أولى للاستيلاء على قونية ، ولكنها فشلت ، وإن كان قد

حصل بها على بعض المناطق فى شمال غرب الإمارة . وفى العام التالى ، اعتقد علاء الدين ، أمير قرمان ، أن الفرصة قد حانت لبدء الهجوم ، خاصة وأن بايزيد كان قد إنتقل إلى أوربا ؛ ولكنه هزم منذ أول اصطدام بالجيش العثمانى الذى أسرع بايزيد بإرساله ضده من أوربا ، وشنق ، وضم العثمانيون أملاكه . ومع ذلك فإن بايزيد لم يرغب فى الوصول إلى آخر مدى فى منطقة الأناضول فى ذلك الوقت ؛ فإحتل قونيه ، مع بعض المدن الرئيسية ، ثم تقدمت قواته سنة ١٣٩٣ إلى الشمال الشرقى وإحتلت قسيارية وسيواس ، وإحتلت كذلك مينائى سمسون وسينوب ، على البحر الأسود ، وأصبحت غالبية آسيا الصغرى خاضعة له . وأخذ فى إعداد جيش آخر . بقيادة أحد أبنائه ، للزحف به على أرمينيا ،ومنطقة الفرات الأعلى ، وهو الجيش الذى سيصطدم بالمغول وفلول تيمور لنك فى هجومهم صوب الغرب ، كما سنرى فيما بعد .

ولقد شعر بايزيد بأن الرياح والعواصف تتجمع من الغرب ، فأسرع بالعودة إلى البلقان . وكان الغرب قد أصم آذانه عن النداءات الخاصة بضرورة المصالحة بين كنيستى روما والقسطنطينية ، كخطوة أولى فى سبيل الوصول إلى تكوين حملة صليبية لانقاذ القسطنطينية من خطر الغزو العثمانى. وشعر سيجسموند ، ملك المجر ، بذلك الخطر الذى كان يهدد بلاده قبل غيرها . وكان قد حاول الهجوم فى سنة ١٣٩٢ صوب نيكوبوليس ، ولكنه اضطر إلى التراجع حين رأى تقدم أحد الجيوش العثمانية . ونجح فى سنة ١٣٩٦ ،ونتيجة لنداء وجهه لملوك وأمراء أوربا ، فى تجميع حملة صليبية غربية جاءت لنجدته ، وكانت الهدنة قد عقدت فى ذلك الوقت بين فرنسا وانجلترا ، وجاء كثير من فرسان هاتين الدولتين ، وبخاصة من فرنسا ، وكانوا من الشبان الأصحاء ، المدربين ، الباحثين عن المغامرة . ولكنهم كانوا غير منظمين ، ورغم نصائح المجربين ، فإنهم صمموا على الهجوم فى التو ، فغزوا الصرب ونهبوها ، وجاؤا لمحاصرة نيكوبوليس ، فأسرع

بايزيد بالزحف لمقابلة قوات المسيحيين ، وواجههم وهزمهم وشرد قواتهم ، فى فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٢٩٦ . وتمكن سيجسموند من الفرار ، تاركاً وراءه أعداداً كبيرة من القتلى ، ومن الأسرى فى أيدى العثمانيين. إنها موقعة نيكوبوليس الشهيرة ، وآخر محاولة صليبية غربية ضد الاسلام فى الشرق .

وفى ذلك الوقت كان موقف مانيويل الثانى صعباً فى القسطنطينية ؛ حقيقة أن نداءاته المتكررة نجحت فى إجتذاب قوة فرنسية صغيرة ، سنة ١٣٩٩ ، إلى القسطنطينية ، وهى القوة التى سمحت له بالتنفس لفترة من الوقت ، ولكنه إحتاج إلى إمدادات جديدة . فسافر سنة ١٤٠٠ لجمع المعونة بنفسه من الغرب ، وزار البندقية ، وباريس ، ولندن ، وحصل على وعود جميلة ، ولكنه لم يحصل على قوات ، ولا على معونات ، وظل تحت رحمة العثمانيين ، ورحمة بايزيد

ولقد ظلت قوات بايزيد منتصرة ، فى البلقان ضد الغرب المسيحى ، وفى الأناضول ضد السلاجقة ، فى الوقت الذى استمر فيه فى مراقبة القسطنطينية ، والاستعداد لمهاجمتها ، وكانت تمثل عمليته المقبلة . وكانت سرعة حركته ، من البلقان إلى الأناضول ومن الأناضول إلى البلقان ، ثم من البلقان إلى الأناضول ، مع انتصاره فى كل معركة يخوضها ، سببا فى تسميته بالصاعقة «يلدرم» . ولكن الحظ لعب دوره ، وبدلا من أن يجد الوقت لمهاجمة القسطنطينية ، أصبح عليه أن يواجه زحف المغول بقيادة تيمور لنك صوب الغرب ، الأمر الذى منح القسطنطينية مهلة نصف قرن جديد لكى تستمر فى البقاء بيزنطية .

٣ – غزوات تيمور لنك آسيا الغربية :

وكان تيمور لنك ، الذى أقام فى بلاد ماوراء النهر ، منذ سنة ١٣٨٠ ، قد قام منذ ذلك الوقت بشن الغارات . ولاشك فى أنه لم يكن قد فكر فى إنشاء إمبراطورية كبيرة ، ولكنه كان يظهر تمسكه بتنفيذ رسالة دينية : فإدعى أنه سيذهب ليحارب ويعاقب أمراء المسلمين الضعفاء الذين كانوا يسيطرون على

مصير إيران والعراق وآسيا الصغرى والهند ، وإدعى أنهم قد ابتعدوا عن روح الإسلام الحقيقية ، ولقد أظهر تحمسه للدين فى كل مكان وصل إليه ، وكان يقدم المنح للمساجد والأضرحة . وكانت تنقصه صفات رجل الدولة ، وكان يتحكم فى الأهالى عن طريق الخوف .

ولقد بدأ جولته فى إيران التى كانت فريسة سهلة نتيجة لانقسامها السياسى ، فقام فيها بعدة حملات ، عاد بعدها إلى سمر قند لكى يكدس فيها غنائمه التى حصل عليها من الأمارات الايرانية التى قضى عليها . ثم توغل فى خراسان ، وإحتل عاصمتها هيرات سنة ١٣٨١ ، ثم أقام بعد عامين على شاطىء بحر قزوين ، وأرسل حمله ثالثة ضد فارس ، مواطن المظفرين . وبإحتلاله لاصفهان وشيراز أكمل تيمور غزو إيران . ولكن هذا الغزو كان غير نهائى ، فلقد إضطر سنة ١٣٨٧ إلى إعادة فتح أصفهان ، ويقال أنه أمر فيها بقتل سبعين ألف من السكان ، حتى يجعلها عبرة لغيرها من المدن ، وأخذت رؤوس القتلى شكل سلسلة من الأهرامات حول أسوار المدينة . كما قضى تيمور على آخر الأمراء المظفرين ، وبدا على أنه سيد إيران المطلق .

ثم قام تيمور بعد ذلك ، فى سنة ١٣٨٧ بالهجوم على العراق ، وإستولى على بغداد ، وإضطر أميرها إلى الالتجاء إلى مماليك القاهرة ، الأمر الذى دفع المغول إلى الانتقام ، وذلك بهجومهم على سوريا . ولكن تيمور كانت له أهداف أخرى : ذلك أنه كان قد تقدم فى سنة ١٣٨٦ صوب آذربيجان وأرمينيا ، وإستولى على تبريز ، ووصل حتى قارص وتفليس ، ونهب إقليم جورجيا ؛ ثم عاد بعد ذلك صوب الغرب ، وإستولى على أرضروم وفان . ولقد عاود هذه الكرة سنة ١٣٩٤ ، وكذلك فى سنة ١٣٩٥ — ١٢٩٦ ، ومد بذلك حدوده حتى القوقاز .

وكانت أمراء الاناضول والشام يتوقعون تيمور بالهجوم عليهم ، ولكنه

إتجه صوب الهند . وكانت سلطة الأمراء الأتراك والأفغان فى شهول شمال الهند قد ضعفت . وإنقسم الإقليم إلى إمارات أصغر ، رفضت الطاعة ، وإستقلت بشئونها ، وتناحرت بينها . فإتجه تيمور صوب هذا الاقليم ، وترك كابول فى ١٥ أغسطس سنة ١٣٩٨ مدعياً العمل على إرساء حكم الإسلام وكان زحفه سريعاً ، فعبر نهر السند ، وقصد المدن الكبرى ، قاتلا ، ناهباً ، حتى وصل إلى دلهى ، التى يقال أنه قتل فيها مائة ألف أسير ، ثم أمر بإحراقها ، فى ١٧ ديسمبر من نفس السنة . وعاد بعد ذلك باسبوعين ، محملا بالغنائم . وحين عاد إلى عبور نهر السند فى عودته فى شهر مارس سنة ١٣٩٩ ، لم يترك وراءه سوى الخراب والدمار .

وفى أثناء ذلك الوقت كان السلطان المملوكى فى القاهرة قد ساعد السلطان أحمد أمير بغداد الذى طرده المغول من بلاده سنة ١٣٨٧ ، وبشكل ساعده على العودة إلى عاصمته السابقة ؛ وقام بعد ذلك بغزو أذربيجان ، فى الوقت الذى كان العثمانيون يقومون فيه بالزحف صوب الشرق ؛ وكان بايزيد ، كما رأينا ، قد قام بالاستيلاء على سيواس سنة ١٣٩٥ ، ولم يتردد فى قتل أميرها برهان الدين ، الذى كان قد خضع منذ بعض الوقت للغازى التركمانى . ولذلك فإن تيمور لم يتأخر فى الرد على هذا التحدى ، وقام فى شهر سبتمبر سنة ١٣٩٩ بالزحف على قوات العثمانيين ؛ وبعد إستعادته لأذربيجان ، وتخريبه لجورجيا من جديد ، تقدم صوب سيواس التى إنتزاعها من العثمانيين ، وأمر فيها بدفن أربعة آلاف أسير وهم أحياء فى شهر أغسطس سنة ١٤٠٠ . وبدلا من أن يستمر فى زحفه فى الاناضول ، إتجه صوب سوريا ، وكأنه يرغب فى القضاء على المماليك . وسقطت حلب وحماة وحمص وبعلبك ودمشق فى يديه ، ونهبها ودمرها . ثم زحف على العراق وإرتكب فيها الفظائع ، وإستعاد بغداد من جديد فى شهر يوليو سنة ١٤٠١ .

وعندئذ توجه صوب بايزيد ، وشعر بقوة العثمانيين ، ويقال أنه جمع للقائهم ثلاثمائه ألف مقاتل ، ووقعت المعركة قرب أنقرة فى ٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢ . وإنهزم العثمانيون وتفرق شملهم وسط مجزرة حامية ؛ ووقع بايزيد فى الأسر ، ثم توفى بعد بضعة أشهر .

أنه الموت والخراب فى كل مكان ، وبإسم الجهاد وتدعيم سلطة الاسلام ! !

ولقد تمكن تيمور بسهوله من غزو بقية الأناضول ، وأعا الأمراء الذين كان بايزيد قد طردهم من أقاليمهم ، الى السلطة فى هذه الأقاليم ؛ وأستولى على بروسه ، وظهر عند بحر مرمرة ، وطالب الامبراطور البيزنطى بدفع الجزية ، ثم حاصر أزمير التى كانت فى قبضة فرسان رودس ، واستولى عليها فى أول ديسمبر سنة ١٤٠٢ . وخضعت كل آسيا الداخلية لسيطرة هذا الغازى .

ولقد رحبت بعض الدول بانتصارات تيمور ، مادامت ضد الأتراك العثمانيين ، وتم تبادل السفارات بين فرنسا وقشتالة ، وبين تيمور . ولكن تيمور كان يفكر بطريقة أخرى ، وفى موضوع يهمه شخصياً ؛ فلقد كان يفكر فى اعداد حملة ضخمة لغزو الصين ؛ وبدأ هذا الاعداد ، ولكنه توفى فجأة فى شهر يناير سنة ١٠٤٥ .

كان ماقام به تيمور هشاً ، وكان قد إستبعد المناطق أكثر من كونه غزاها ، كما أنه لم يقم بتنظيم الأقاليم اواسعة التى كانت قواته قد حولتها إلى ميادين للقتل والفناء . ولقد أفاد اقليم واحد من ذلك ، وهو اقليم ماوراء النهر ، فأثرى وازدهر ، نتيجة لما أحضره اليه من الأسلاب ، وارجت فيه التجارة ووجدت فيه سلع الهند وفارس والصين . ولقد أحضر اليه المهندسين المعماريين والرسامين والفنانين من كل نوع ، بعد أن كان قد نقل اليه التحف والثروات ، من جميع انحاء امبراطوريته ، الأمر الذى بهر كل من زار سمرقند فى هذ العصر .

وكان الجيش هو أهم شيء فى دولة تيمور لنك ، وكان مقسما حسب تنظيم جنجيز خان العشرى . وخشيت أوربا تيمور لنك ، وقامت جنوا والبندقية وبيزنطة والعثمانيين بإنشاء تحالف ضده . ولكن هذا الحلف لم يعيش لمدة طويلة . وإنهار بعد وفاة تيمور لنك ، وإبتعاد الخطر الذى كان يوحد بين هذه القوى الاوربية . ولكن إزدياد قوة تيمور لنك كانت قد أثرت فى روسيا ، وجعلت الاسرة الحاكمة فيها تعهد ببعض السلطة ، وبجمع الضرائب ، إلى الامراء المحليين. فزادت فيها قوة النظام الاقطاعى تدعيما . كما أن هذه الأسر إعتنقت المسيحية على المذهب الأرثوذكسى ، وشجعت على التبشير به حتى توازن خطر التتار ، وتوقف إنتشار الاسلام فى مناطقها . فتحول مغول روسيا ، وأصبحوا روسيين ، ونقلوا عاصمتهم إلى موسكو ، وتركوا لقب « خان » وإختاروا لقب « قيصر » لرأس دولتهم .

أما من الناحية السياسية ، فان إمبراطوريته كانت غير مترابطة إلا بشخصه ، ولم يفعل شيئا من أجل استمرار ترابطها وإتحادها ، وسادها الانقسام والفوضى بعد موته . وحاول كل من أبنائه العديدين أن يحصل لنفسه على منطقة أو اقليم ؛ وكان كل من ميران شاه وشاه روخ هو الذى حصل على اقليم له وزنه : فحصل الأول على غرب فارس وتبريز وبغداد ، ولكنه فقد ملكه بعد بضعة أشهر ، وإقتسمه أولاده ، كما أن الأمير أحمد تمكن من استعادة العراق . أما شاه روخ فكان أسعد حظاً ، فكان قد حصل على خراسان ، ثم أضاف اليها ماوراء النهر ثم قرمان وآذربيجان ، والعراق ، لبضع سنوات . وكان ، كوالده ، من كبار الامراء ، محباً للأدب والفنون ، وتوفى سنة ١٤٤٧ . وإذا كانت سمرقند وهيرات وبخارى قد إحتفظت بإزدهار واضح ، إلا أن سلطنة شاه روخ قد رأت بعد وفاة هذا الأمير ، ما حدث لغيرها من تفكك ، وأنقسام وضعف . وأخيراً فان سلطة أمراء أسرة تيمور فى الهند لم تكن تصل بعيداً عن أسوار المدن المنقسمة

على نفسها ، والتى كانوا يحكمونها .

وإذا كانت سلالة تيمور قد ظلت ، لفترة من الوقت ، تحكم بلاد ما وراء النهر ، وخراسان ، وبعض الأقاليم المجاورة ، وسنجدها بعد ذلك فى الهند ، مع بابر الأكبر ، أثناء القرن السادس عشر ، إلا أن الإمبراطورية نفسها التى قام تيمور بغزوها بسرعة كانت قد إنهارت بسرعة ، ومع شخصه .

٤ ـ أزمة الدولة العثمانية بعد موقعة انقرة :

سمح موت تيمور ، بعد موت بايزيد بقليل ، للعثمانيين باسترجاع أنفاسهم بعد موقعة أنقرة . ولكنهم إحتاجوا إلى بعض الوقت ، خاصة وأن الدولة العثمانية كانت قد بدت ، مع الهزيمة ، على أنها مهددة بالانهيار فى كل مكان . وكان الابن الأكبر لبايزيد ، وهو سليمان ، قد إضطر بعد هزيمة أنقرة ، إلى الالتجاء إلى الأقاليم الأوربية ; ولكنه وجد أن إخوته لايعترفون بسلطته ، فإضطر إلى أن يدخل معهم فى صراع إستمر لمدة عشر سنوات .

وكانت هذه السنوات فترة تقهقر بالنسبة للدولة العثمانية. وكان مانويل الثانى قد عاد من جولة فى أوربا الغربية ،وشمخ برأسه ، وإنقلبت الأوضاع : وطالب السلطان بالطاعة ، وبالتخلى عن سولونيك ، وإعادة جزء من ساحل مرمرة نظير التحالف معه . ولم تكن معونة الإمبراطور البيزنطى كافية لانقاذ سليمان ، الذى هزمه أخوه موسى فى تراقيا ، وإضطر إلى الهرب داخل القسطنطينية ، ثم قبض عليه بعد ذلك وخنق فى شهر فبراير سنة ١٤١١ . أما موسى نفسه ، فانه قد أضاع مجهوداته سدى فى حملات فاشلة ضد الصرب ، ثم هزم فى سنة ١٤١٣ قرب صوفيا ، على يد أخوه الثالث ، محمد الأول ، وقتل فى ميدان المعركة .

ورغم أن السلطان محمد الأول كان يسيطر ، مع وجود معارضة . على تلك الأقاليم الآسيوية التى كان العثمانيون قد تمكنوا من إستعادتها بعد موت تيمور ، إلا أن موقفه فى البلقان كان سيئاً . ويرجع إنتصاره إلى الدعم الذى أعطاه له

الإمبراطور البيزنطى ، كما أنه كان قد عبر إلى البلقان على سفن بيزنطية ولولا قوات مانويل لما تمكن من الانتصار على أخيه ، موسى . ولذلك فانه إضطر إلى أن يؤكد ويزيد حتى من التنازلات التى كان أخوه سليمان قد قدمها من قبل لحلفائه البيزنطيين . كما أنه قدم بعض التنازلات للصرب الذين كانوا قد أفادوا من صراع الأمراء العثمانيين مع بعضهم من أجل إستعادة جزء من أملاكهم المفقودة . وكان عليه بعد ذلك أن يحسب حساباً للبنادقة الذين كانت سفنهم منتشرة فى البحر ، وتمكنوا ، فى شهر مايو سنة ١٤١٦ ، من إنزال هزيمة ساحقة بالأسطول العثمانى أمام غاليبولى ، وإضطر السلطان محمد لمواجهة الثورات المستمرة فى آسيا ، فإضطر إلى إتخاذ موقف الدفاع .

ولكن الوضع إختلف بعد موت السلطان محمد سنة ١٣٢١ . وإعتقد اليونانيون أنهم لا يزالون يعيشون الأيام التالية لموقعة أنقرة ، وأنه يمكنهم أن يضعوا الأمير مصطفى ، آخر أبناء السلطان بايزيد ، فى مواجهة إبن أخيه ، السلطان الجديد ، مراد الثانى ؛ وبدؤا بالهجوم ، وحاصروا غاليبولى ، ولكن هذه الخطة لم تنجح ، ورد عليها مراد الثانى بكل عنف . فتمكن من أسر منافسه فى آسيا الصغرى ، وشنقه ، وإستمر حتى القسطنطينية ، التى فرض عليها الحصار ، فى شهر يونيو سنة ١٤٢٢ . وفشل الهجوم الأول على القسطنطينية ، ولم يكرره مراد ، إذ أن مانويل طلب الصلح . ومرة جديدة إضطر مانويل لدفع الجزية للعثمانيين ، كما إضطر إلى أن يعيد للسلطان العثمانى الجزء الأكبر مما كان قد استرجعه من العثمانيين فى تراقيا .

وهكذا دارت الأوضاع من جديد مع عهد مراد الثانى . وعاود الهجوم العثمانى من جديد ، مع قوة ساحقة . وإكتفى مراد الثانى فى ذلك الوقت بأنه عزل القسطنطينية ، وإهتم بأن يقوم بإعادة غزو كل من البلقان وآسيا الصغرى . أما فى الأناضول فانه عمل على أن يجمع تحت سيطرته معظم الدول التى كان تدخل

تيمور لنك قد تسبب فى إنسلاخها ، وعزل أمرائها غير الخاضعين ، وأجبر الآخرين على الإعتراف بسيادته وعلى تقديم الرهائن له (١٤٢٤ — ١٤٢٧) . وفى نفس الوقت قام بعملياته فى البلقان . ومن عاصمته التى أعادها فى سنة ١٤٢٢ إلى أدرنه ، قام بالتدخل فى كل إتجاه . فى البوسنة ، والافلاق ، والصرب ، وفى البانيا ، وفى إبيروس فى اليونان . وإضطر أمير الصرب الشمالية الجديد منذ سنة ١٤٢٧ إلى دفع الجزية ، وتقديم عدد من المحاربين لجيش السلطان ، وتقديم إحدى بناته زوجة له . وحين تأخر فى تنفيذ الشرط الأخير قام مراد الثانى بغزو بلاده ، والاستيلاء على عاصمته ، وتقديم إبنته ، ثم الإنسحاب إلى ماوراء الدانوب . وفى ابيروس ، سقطت يانينيا فى سنة ١٤٣٠ ؛ وشهد نفس العام سقوط سالونيك فى مقدونيا . ووصلت قوات مراد الثانى إلى المورة من جديد ، وإلى كثير من الجزر اليونانية . ثم إستولى على العاصمة الجديدة لأمير الصرب الشمالية ، الواقعة على نهر الدانوب سنة ١٤٣٨ ؛ كما أصبحت الصرب كلها ، منذ سنة ١٤٣٩ مقاطعة عثمانية ؛ وشهد العام التالى محاولة مراد الثانى الاستيلاء على بلغراد ، كموقع حصين متقدم للمجر .

وأصبحت أيام القسطنطينية معدودة ،ذلك أن مانويل الثانى توفى سنة ١٤٢٥ ، وخلفه يوحنا الثامن ، الذى لم يكن فى وسعه أن يعتقد فى الخلاص بدون مجىء إمداد سريع من الغرب . ولكن ، من كان من حكام الغرب يفكر جدياً فى التدخل ضد العثمانيين؟ وقام يوحنا الثامن ، فى آخر الأمر ، بتجديد نداء ، ووعد بالتوفيق بين الكنيستين ، الشرقية والغربية ، حتى يجذب العالم المسيحى إلى الاهتمام بمصيره ؛ ولكن الاهتمام كان قليلا بهذه النداءات التى تصدر وقت الخطر ، ولاتنفذ بعد ذلك . ولكنه إتصل بعد ذلك سنة ١٤٢١ بالبابا ، ثم إرتبط معه سنة ١٤٣٧ فى مجمع فرارا ، ثم فى مجمع فلورنسا ، حيث دار مناقشات حامية ، حول هذا الموضوع ،الذى إنقسمت بشأنه الآراء .وأخيراً تم الاتفاق سنة ١٤٣٩

على إمكانية الإعلان الرسمى عن توحيد الكنيستين . وإعتقد الإمبراطور البيزنطى أن العالم المسيحى فى الغرب ، سيستمع باكمله لنداء البابا ، ويجىء لنجدة عاصمته .

ولكن تطبيق قرار توحيد الكنيستين لقى معارضة من جانب أغلبية رجال الدين اليونانيين ، وفشل الإمبراطور فى التغلب على هذه المعارضة رغم إستخدامه الشدة ضد رؤساء الأساقفة المعارضين . وإستمالوا أحد أخوة الامبراطور ، وعادوا فى سنة ١٤٤٤ ومعهم قوات عثمانية ، لمحاصرة القسطنطينية ، فى الوقت الذى كان فيه الامبراطور ينتظر مجىء المدد من الغرب . ورغم قرارات البابا ، لم يبادر أى من ملوك أوربا وأمرائها بتقديم العون لامبراطور بيزنطة .

ولكن الخوف ساد فى الدول الدانوبية ، على القسطنطينية ، وكانت هذه الدول مهددة بالغزو العثمانى . وكان هو نيادى الذى نشأ فى بلاد ترانسلفانيا فى المجر ، قد تمكن من جمع الأهالى حوله ، وأنزل إحدى الهزائم بإحدى القوات العثمانية. ثم تحالف مع أمراء الأفلاق ، وأمير الصرب ، وعبر جبال الكربات متعقبا القوة العثمانية حتى نهر الدانوب . وأعطى بذلك الوقت لملك المجر لكى يقوم بإعداد حملة صليبية ، بمساعدة كيزاريني ، المندوب البابوى . وتحرك الجيش المسيحى ١٤٤٣ ودخل أراضى الصرب ، وهزمت قوات مراد ، وخلت قوات هونيادى ، بعد تقدمها ، مدينة صوفيا ، ثم هزم جيش عثمانى آخر ، الأمر الذى أدى إلى إستيلاء المسيحيين على الصرب ، وإعلان إسكندر بك الثورة فى ألبانيا ضد العثمانيين . وإضطر مراد الثانى إلى إعلان هدنة سنة ١٤٤٤ مع المسيحيين لمدة عشر سنوات ، وإلى التخلى عن فتوحاته ، والتنازل عن السلطنة لإبنه محمد الثانى .

ولكن كيزاريني كان يرغب فى إستمرار الزحف ، رغم النصائح بضرورة التمهل ، فنقض الهدنة ، ودفع ملك المجر وهو نيادى إلى الزحف عبر بلغاريا حتى أسوار فارنا . وكان مراد الثانى قد تنازل عن السلطنة لإبنه ، وإنسحب إلى آسيا

الصغرى . ولكنه إضطر أمام هـذا الغدر إلى العودة بسرعة إلى البلقـان ، وإلى مهاجمتهم ؛ وتسبب موت كيزاريني وملك المجر فى تحويل المعركة إلى هزيمة ساحقة للأوربين فى ١٠ نوفمبرسنة ١٤٤٤. وإستعاد مراد الثانى السلطة ،وإستغل نجاحه بسرعة ، وأرسل قوات غازية فى كل إتجاه ؛ فهاجم إقليم أتيكا ، وضربه ، وسيطر على مضيق كورنثا ، وغزا المورة سنة ١٤٤٦ ؛ كما هاجم البقية الباقية من المنشآت اليونانية الموجودة على البحر الأسود. فضعفت مقاومة المسيحيين فى كل مكان . ولم يستمر فى المقاومة سوى اسكندر بك ،وهونيادى . وتمكن الأول من هزيمة أحد الجيوش العثمانية التى كان يقودها مراد الثانى بنفسه فى ألبانيا ، يجبره على الانسحاب سنة ١٤٤٩ ؛ أما هونيادى فانه أصبح وصيا على عرش المجر مع وفاة الملك ، وحاول أن أن يقوم بعملية جديدة فى بلاد الصرب ،ولـكنه هزم فى معركة قوصوه (الثانية) سنة ١٤٤٨ ، وأصبح عليه أن يواجه ثورات كبار الاقطاعيين فى المجر .

وأصبحت القسطنطينية ،وامبراطورها ،ينتظرون مصيرهم.وحاول قسطنطين الحادى عشر ، الذى وصل إلى العرش بعد أخيه يوحنا الثامن ، أن يواجه أشد المخاطر فى سنة ١٤٥٣ ، باصدار قرار بتوحيد الكنيسة الشرقية مع كنيسة روما ، ولكن هذا الأمر زاد من الانقسام الإضطراب بين رعاياه . أما محمد الثانى الذى وصل إلى العرش بعد وفاة أبيه مراد الثانى سنة ١٤٥١ ، فانه لم يتردد فى إتخاذ التدابير من أجل الإستعداد للهجوم النهائى على القسطنطينية .

الفصل التاسع

محمد الثانى وفتح القسطنطينية

لقد شهد عصر محمد الثانى ، أو محمد الفاتح ، عملا من أهم أعمال التاريخ العثمانى ، وهو الاستيلاء على القسطنطينية . وكان فتح الأتراك للقسطنطينية ، فى شهر مايو سنة ١٤٥٣ ، من أهم أحداث تاريخ العالم ، الذى كان له تأثير كبير على مصير أوربا ، وأعطى التفوق للأتراك على الشرق ، ولمدة قرون . وكان فى نفس الوقت كارثة ضخمة لليونانيين ، حتى يقظتهم من جديد فى الربع الأول من القرن التاسع عشر . وكادت هذه الحادثة أن تغير مجرى التاريخ ، وبشكل نهائى . وكان حدثاً فذاً لأسباب عديدة ، كما أنه كان يمثل أول عملية حصار كسبتها المدفعية ، والتى كانت سلاحا حديثاً للغاية فى هذا الوقت ، وبشكل جعل هذا التاريخ نهاية للعصور الوسطى ، وبداية للتاريخ الحديث .

١ ـ الاستعداد :

كان محمد فى آسيا الصغرى ، حين بلغه نبأ وفاة والده مراد ، فأسرع بالسفر إلى أدرنة . وكان يبلغ من العمر إحدى وعشرين عاما ، ويتميز بحدة الذكاء وشدة تمسكه بالدين ، وكان وصول سلطان شاب للسلطنة يجعل أوربا تقلق من طموحه. وأسرع الملوك والأمراء المجاورين التابعين بإرسال السفراء إلى أدرنه لتهنئة السلطان ، ولتأكيد نياتهم السلمية . وقام محمد الثانى بعقد صلح مع هونيادى لمدة ثلاث سنوات ؛ كما عقد وجدد الاتفاقات مع جيرانه ، ومع التابعين له ، من ملوك وأمراء الصرب والأفلاق ، ومع جنوا ، وفرسان رودس ، وحاكم البلبونيز ، وأمير قرمانيا ، وحتى الإمبراطور قسطنطين ، الذى وقع معه سنة ١٤٥١ على إتفاقية بشأن إيراد بعض القرى ، وبشأن دفع معاش لاورخان ، حفيد سليمان ،

الذى كان يقيم فى القسطنطينية . ولكنه لم يكن يفكر فى حقيقة الأمر ، إلا فى غزو هذه المدينة ، التى طالما حاول أجداده الحصول عليها ، بلا جدوى .

ولقد أمر فى ربيع سنة ١٤٥٢ ببناء قلعة جديدة على الشاطىء الأوربى للبوسفور ، سميت قلعة البوغاز أو روميللى حصار ، وذلك فى مواجهة القلعة التى كان بايزيد قد أقامها على الشاطىء الآسيوى ، والتى سميت أناضولو حصار . وإستخدم فى ذلك آلاف من العمال . وكميات ضخمة من المواد ، أتى بها من الأقاليم المحيطة ؛ وكان يشرف بنفسه ، ومعه كبار رجال الدولة على العمل ، حتى إنتهى فى مدة ستة أشهر . وعلاوة على القيمة العسكرية لهذه القلعة ، فانه كان يهدف من ورائها إلى إمكانية حرمان اليونانيين من موارد الجمارك وإيرادات ورسوم السفن التى كانت تأتى من البحر الأسود ، ويحصل عليها لنفسه .

ورأى إمبراطور بيزنطه الخطر المحدق به ، فهاجم العمال والحراس الأتراك ، بدعوى إتلافهم لأراضيه وتعرضهم لممتلكات رعاياه ، فما كان من محمد الثانى إلا أن أعلن الحرب على الامبراطور. وقام الإمبراطور بإغلاق أبواب مدينته ، وأمر بإلقاء القبض على كل الأتراك الموجودين فيها .

وكان الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر ، قد بلغ من العمر خمسة وأربعين عاما وقت إعتلائه العرش ؛ وكانت ممتلكاته تقتصر على مدينة القسطنطينية نفسها ، والمنطقة المحيطة بها ، وعلى إمتداد ما يقرب من مائة ميل ، فى إتجاه الغرب والشمال ، وعلى ما يقرب من نصف مساحة البليبونيز ، والتى كان يحكمها أخواه ، بإسمه . وكان يعرف جيداً أن لا أمل له إلا فى مجىء العون من أوربا ؛ فأخذ قراراً بأن يعلن ، فى كاتدرائية القديسة صوفيا ، الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية . ولكن إذا كان الإمبراطور ، وعدد من كبار الأعيان ، وكبار رجال الدين ، وقد وافقوا على هذا الإتجاه ، فان أغلبية رجال الدين ، وكل الشعب كانوا متعصبين ، ويرفضون الإعتراف بالكاثوليكيين ، حتى على أنهم مسيحيين ؛

فعارضوا القرار ، وأظهروا تفضيلهم الأتراك على اللاتينين . وحتى أولئك الذين أظهروا ، رسمياً ، أنهم من أنصار الوفاق مع روما ، لم يقوموا بذلك نتيجة لإقتناع ، بل لمجرد الأمل فى الحصول على مدد. وهم فى ذلك الوضع الذى كانت إمبراطوريتهم لا تحسد عليه . وهكذا زادت أسباب الشقاق والإنقسام داخل هذه المدينة المهددة ، وقلت بذلك إمكانية الحصول على معونة صادقة وفعالة من الغرب .

والحقيقة أن هذه المعونة كانت محدودة ، رغم الوعود التى أعطاها البابا ، والتى أعطتها البندقية . وإقتصرت فى مجموعها على ما يقرب من مائتى رجل ، كان الكاردينال إزيدور ، مندوب البابا . قد أحضرهم معه ، وعلى عدد من سفن البندقية التى كانت قد حضرت من أجل التجارة إلى القسطنطينية.وظلت فى مينائها، وسفينتين من جنوا ، تحملان خمسمائة رجل بقيادة جوستينيانى ، الذى سيكون الروح المحركة للمقاومة . ولقد أرسلت البندقية معونة أكبر ، ولكنها لم تتمكن من الوصول فى الوقت المناسب .

وكانت القسطنطينية تشتمل ، فى ذلك الوقت ، على ذلك الحى،من إستامبول الحالية ، الذى يقع بين القرن الذهبى وبحر مرمرة ؛ وكانت تحيط بها الأسوار الحصينة من الناحية البرية، وهى موجودة حتى الآن،أما الأسوار المطلة على القرن الذهبى ، وعلى بحر مرمرة فقد تهدمت . أما حى جلطة فكان يقع على الضفة الأخرى للقرن الذهبى ، وكان عبارة عن مستعمرة لأبناء جنوا ، ويشرفون على إدارته ، وكانت تحيط به الأسوار كذلك . ولقد عمل البيزنطيون على ترميم الأسوار ، وإعادة حفر الخندق الذى يسير بمحازاتها . ثم قاموا بمد سلسلة من أقصى المدينة إلى حى جلطة . وبشكل يقفل مدخل القرن الذهبى . وكانت تتكون من كرات خشبية ضخمة مربوطة ببعضها بسلاسل حديدية غليظة . وكان الهدف منها أن تحمى السفن الموجودة خلفها ، وهى عشرة سفن ، من هجمات الأسطول

العثمانى . وكانت القوات التى تدافع عن المدينة تمثل خليطاً ، جمعتهم الصدفة ، من بين اليونانيين ، وأبناء جنوا،والبندقية،والكاتالان،ومن الكاثوليك والأرثوذكس. وكان جوستينيانى ، الجنوى ، وأبناء البندقية،مصممين على الدفاع عن القسطنطينية أكثر من البيزنطيين أنفسهم. وكان عددهم يقرب من ثلاثة آلاف ، بين ما يقرب من تسعة آلاف من المدافعين عن المدينة .

وكان جيش محمد الثانى كذلك خليطاً من جميع أنحاء السلطنة ، ولكنه كان كبير العدد ، وإختلف المؤرخون فى تقديره بين ٨٠٫٠٠٠ و ٤٠٠٫٠٠٠ رجل ، وربما كان الأقرب إلى الصواب أن نرجح أن قوة العثمانيين التى وصلت أمام أسوار القسطنطينية بلغت ١٦٠٫٠٠٠ رجل ، علاوة على العمال والخدم والتجار، الذين كانوا يتبعون الجيوش إلى ميادين الحرب فى هذه العصور. وكان محمد الثانى قد أعطى إهتماماً خاصاً بالمدفعية ، وكان والده من قبل قد إهتم بهذا السلاح الذى لم يكن قد مضى على إستخدامه قرن واحد . وقام العثمانيون بصب المدافع ، ويقال أن قطر فوهة أحداها بلغ ثلاثة أقدام . وكان يقذف أحجاراً تزن ما بين ١٫٢٠٠ و ١٫٥٠٠ رطل إلى مسافة ميل . ولقد تم نقله من أدرنه إلى أمام أسوار القسطنطينيه فى مدة شهرين ، وكان يجره ستون ثوراً . وكانت مدفعية العثمانيين تشتمل على كثير من القطع الكبيرة والبعيدة المدى ، من بين عدد ضخم من المدافع .

وفى أوائل شهر أبريل ، وصلت القوات العثمانية من أدرنة أمام أسوار القسطنطينية ، ووزعت نفسها فى مواجهة كل الأسوار البرية ، من بحر مرمرة إلى أقصى القرن الذهبى . وكان مركز قيادة السلطان فى منتصف الخط تقريباً ، وعلى بعد ٢٫٥ كيلو متر تقريباً من الأسوار . وبدأ بذلك الحصار .

٣ ـ الحصار :

وكان محمد الثانى يعرف إمكانية وصول الإمدادات للبيزنطيين عن طريق البحر .

ولذلك فإنه لم يهمل الأسطول . وتجمع الأسطول العثمانى أمام غاليبولى بقيادة القبودان باشا ، سليمان ريس بلطة أوغلو ؛ وكان يشتمل على عدد كبير من السفن الصغيرة والسريعة ، علاوة على سفن النقل ؛ ثم دخل بحر مرمرة ، حيث إنضمت إليه سفن عثمانية أخرى أتت من البحر الأسود . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يشعر فيها أبناء بيزنطة أنهم يواجهون هجوماً عثمانياً على مدينتهم من ناحية البحر كذلك ، خاصة وأن كل هجمات العثمانيين السابقة على مدينتهم كانت برية فقط .

ولقد لعبت المدفعية العثمانية دوراً هاماً فى عملية الحصار ، وأثر ذلك فى نفسية أهالى بيزنطة ، علاوة على شعورهم بالتفوق العددى للعثمانيين، وتنوع أسلحتهم، وجسارتهم فى الحرب .

ولقد قام العثمانيون بمحاولة للهجوم يوم ١٨ أبريل ، ولكنها لم تعط نتيجة إيجابية ، وحدث نفس الشىء مع محاولة الأسطول العثمانى إقتحام مدخل القرن الذهبى ، وكانت تحرسه السلاسل والسفن الواقعة خلفها .

وفى يوم ٢٠ حضرت أربع سفن كبيرة من بحر مرمرة ، كانت ثلاث منها من سفن جنوا . وكانت تحمل بعض القوات ، ومؤن وذخائر ، وقابلت سفينة نقل كبيرة ، من سفن الامبراطورية عائدة من صقلية محملة بالقمح ، فاقتادوها معها . وأسرعت السفن التركية بمهاجمتها،وذلك فى الوقت الذى كانت تستعد فيه للدخول إلى القرن الذهبى . ولكن سفن جنوا كانت مرتفعة،ولها ساريات عالية، الأمر الذى ميزها على المهاجمين . وإستمرت المعركة ، ولكن غروب الشمس مع هبوب الريح ، سمح لهذه السفن بالهرب من المهاجمين ، خاصة وأن سفن البيزنطيين عبرت السلسلة ، وجاءت لمعونتهم ، وأخذوهم إلى داخل القرن الذهبى.وعادت السفن التركية إلى مواقعها.ولقد ساعد ذلك على رفع الروح المعنوية لأهالى بيزنطة ، وإعتقدا أن هذه السفن تمثل مقدمة المعونة التى ستأتى

لهم من الخارج لإجبار الترك على رفع الحصار عن مدينتهم . وكانوا لا يعرفون أنها كانت كل المعونة التى ستصلهم .

وإستمر الحصار ، وتسببت المدفعية فى تحطيم بعض أجزاء من الأسوار . وبعد بضعة أيام بهت أهالى القسطنطينية حين رأوا جزءاً من الأسطول العثمانى داخل مياه القرن الذهبى ، وخلف سفنهم .

٣ - الهجوم وفتح المدينة :

ووجد محمد الثانى أن الهجمات الموجهة ضد وسائل الدفاع البرى ستكون بدون فائدة ، أو ستعطى تأثيرها بعد وقت طويل ؛ فأراد أن يهاجم الأسوار المطلة على القرن الذهبى ، والتى كانت أضعف من غيرها بكثير. فوضع مشروعه العجيب لنقل السفن من البوسفور إلى داخل القرن الذهبى ، بتمريرهم على تل بيرا . ورغم جرأة هذا المشروع ، فإن محمد الثانى تمكن من تنفيذه . وكانت الأيدى متوفرة لديه سواء فى الجنود أو العمال الذين جمعوا بأعداد ضخمة، وكانت السفن التركية التى قامت بهذه الرحلة صغيرة فى حجمها ، خفيفة فى وزنها ، وتتراوح بين خمسة عشر وإثنين وعشرين مقعد تجديف ، ولا يزيد طولها على عشرين متراً .

وقاموا بإنشاء طريق منتظم من البوسفور حول جلطة حتى القرن الذهبى من الداخل ، وكان طوله يتراوح بين ثلاثة وخمسة كيلو مترات ، ثم غطوه بألواح من الخشب ، ووضعوا السفن على ما يشبه الزحافات ، وجعلوها تسير على إسطوانات مدهونة بالشحم ، بعد أن أخرجوها من الماء ؛ وقام الرجال بجرها ، وبمساعدة الثيران . وبلغ عدد السفن المنقولة ما يتراوح بين ٦٠ و ٧٠ سفينة .

وتم تنفيذ العملية بسرعة فائقة. وكان محمد الثانى قد فكر فيها بعد معركة ٢٠ أبريل ، وتم شق الطريق ، وأتم التجهيزات ، ووصلت السفن التركية داخل مياه القرن الذهبى فى صباح يوم ٢٣ . ولقد تم نقل السفن كلها فى ليلة واحدة .

ونجح العثمانيون إجراءات حراسة مشددة لإخفاء إستعداداتهم عن المحاصرين ، فى الوقت الذي عملوا فيه علي تحويل إنتباههم بقصف قوي بالمدفعية

فى جهات أخرى وكانوا قد وضعوا قطع مدفعية قوية خلف مدينة جلطة،أخذت فى إطلاق قذائف ضخمة داخل القرن الذهبى . وزاد خوف المحاصرين من ظهور هذه السفن التركية ، خاصة وأن الأسوار المطلة على القرن الذهبى كانت ضعيفة وفى حالة سيئة . وفشل بحارة جنوا ، الموجودين على سفنهم فى القرن الذهبى ، فى محاولة حرق سفن العثمانيين ، وقبض الاتراك على المجموعة التى حاولت القيام بهذا العمل ، وأعدموها .

وبعد ذلك بقليل ، أقام العثمانيون قنطرة على القرن الذهبى ، قرب نهايته من الداخل، مدعمة بعوامات من براميل متجمعة بواسطة قطع خشبية كبيرة . وسة سمح هذه القنطرة بعبور القوات التى كان جزءاً منها متجمعاً عند بيرا، كما أنها ستساعد على توصيل الإمداد والذخائر للمدفعية التى نصبوها لضرب التحصينات والأسوار التى كانت تسير بحذاء شاطىء القرن الذهبى .

وفى الوقت الذى زاد فيه ضغط الهاجمين على المدينة . ظهر الخلاف بين أبناء جنوا وأبناء البندقية ، وإتهم كل منهم المجموعة الثانية بأنها تستعد للخروج من القسطنطينية . ومعها أموالها ، وعلى سفنها ، وفى أول فرصة سانحة ، لكى تضمن نجاتها من أرض المعركة . وأخذ الإمبراطور يوفق بينهم ؛ ورفض الإستماع إلى النصيحة الخاصة بخروجه من المدينة لكى يجمع قوات نجدة من اليونان والبلقان ، ويدفع ملوك أوربا لإرسال المدد،كما رفض العرض العثمانى الخاص بإعطائه الأمان للخروج من المدينة ، مع من يرغب ، وتسلمه السلطة فى بلاد اليونان ، كتابع للعثمانيين . وزاد إرهاق الأهالى ، مادياً ومعنوياً ، نتيجة للمشاركة فى الحراسة ، وإستمرار ضغط الاتراك ، وقله النوم ، وقلة الأمل .

وفى يوم ٢٧ مايو ، أعطى السلطان أمره بالهجوم . وفى اليوم التالى زاد ضرب المدفعية ، وبدأ الهجوم فى ليلة ٢٨/٢٩ مايو ، ثلاث ساعات قبل شروق الشمس، وكانت القوات التركية مقسمة إلى ثلاث فيالق ؛ الاول من الجنود غير

غير النظامية ، والثانى من قوات الأناضول ، والثالث من جنود الإنكشارية ، الذين كان عليهم أن يتدخلوا لتقرير الأمر، وبعد أن يكون هجوم الفيلقين الآخرين قد أدى إلى إرهاق المدافعين . ولقد فشل الهجومين الأول ، والثانى ، رغم قلة عدد المدافعين وإرهاقهم ؛ ثم أعطى السلطان أمره الإنكشارية بالهجوم ، وقت الشروق .

وكانت هناك بوابة صغيرة ، فى السور الداخلى ، تسمى باب السيرك ، بالقرب من باب أدرنه ،كانت حراستها ضعيفة ، إذ أن المدافعين إنشغلوا عنها بنقط أخرى من السور ، وكانت الأسوار الخارجية قد أصابها بعض الدمار ، من ضرب المدفعية ، تتمكن الإنكشارية من الدخول إلى الجزء الذى يتوسط السوريين،ومع نور الصباح ، رؤوا هذه البوابة الصغيرة الموجودة فى السور الداخلى ، فدخلوا منها إلى الساحة الداخلية . وتمكنوا بهذه الطريقة من الوصول إلى داخل المدينة ، الأمر الذى نشر الذعر فى كل مكان . وفى نفس الوقت جرح جوستينيانى الذى كان يشرف على الدفاع مع الإمبراطور عند باب القديس الرومانى ، والذى كان مهدداً ؛ وحملوه إلى داخل المدينة لعلاجه . ولا شك فى أن بعض رجاله قد تبعه ، الأمر الذى أثر فى الدفاع ، وفى الروح المعنوية للمدافعين .

ولقد واصل الإمبراطور البيزنطى المقاومة ، ولكن جحافل المهاجمين كانت ضخمة ، وظل فى المواقع العسكرية حتى قتل . ودخل الأتراك المدينة حوالى التاسعة أو العاشرة صباحا،وكانت معركة،بل مجزرة ، إختلط فيها الحابل بالنابل ، وتفنن الكتاب المسيحيين فى وصف أهوالها . لقد قتل الكثيرون ، أما الشباب من الجنسين ، فقد جمعوا لكى يوزعوا على القادة ، ويوزعوا فى الأقاليم . وكان الكثير من النساء والأطفال قد التجئوا إلى كنيسة سان صوفيا أو الحكمة الإلهية،وأقفلوا على أنفسهم أبوابها البرونزية . ولكن الأتراك وصلوا ، وإقتحموا الأبواب ، وأخذوا من فيها ،

وإستمر القتل والنهب والسبي ، ثلاثة أيام بلياليها ، إنها مدينة مستباحة، وقدر المؤرخون عدد الأسرى فيها بما يزيد على ٥٠٫٠٠٠ شخص ، علاوة على فقد ما يقرب من ٤٠٫٠٠٠ قتيل . وكان معظم البحارة الأتراك قد ترك سفنه للمشاركة في الهجوم ، وساعد ذلك على أن تتمكن كثير من سفن البنادقة وأهل جنوا من الخروج إلى البحر ، تحمل من تمكن من الوصول إليها ، من المدافعين، ومن سكان المدينة .

وزار السلطان المدينة ، المفتوحة ، بعد ظهر يوم ٢٩ مايو ، وذهب إلى كنيسة سان صوفيا ، حيث شكر الله على ذلك الفتح العظيم ، الذى من به عليه ، وصلى لله فيها ، وحولها إلى مسجد يحمل نفس الاسم السابق ، آيا صوفيا ، ولقد ترك العثمانيون المبنى كما هو ، وأضافوا إليه مئذنة ، ثم أضافوا إليه ثلاث مئاذن أخرى أثناء القرن السادس عشر (١٥٧٠ — ١٥٨٠) .

ولقد منح محمد الثانى الأمان لأهالى جنوا المقيمين فى حى جلطة ، ثم أكد لهم إستمرار تمتعهم بحقوقهم السابقة . ومنها حصولهم على إدارة خاصة لحى جلطة ، وحرية ممارسة الشعائر الكاثوليكية فى كنائسها ، وحرمهم فقط من دق نواقيس الكنائس .

وفى وقت فتح القسطنطينية ، كان هناك أسطول يتكون من ثلاثين سفينة ، أرسله البابا ، والبندقية ، ويحمل الجنود والمؤن والذخائر ، يسير من أجل إنقاذ المدينة ، ووصل إلى الأرخبيل ، وظل فيها بعض الوقت نتيجة لمعاكسة الريح له . وقبل أن يستمر فى أقلاعه ، كانت السفن التى نجحت فى الفرار من القسطنطينية قد حملت له أنباء فتح العثمانيين لها .

وظلت القسطنطينية التى تحول إسمها إلى إسلامبول ، وإستانبول ، عاصمة للإمبراطورية العثمانية ، على مدى خمسة قرون ، وأصبح لقب السلطان محمد الثانى رسمياً ، هو « أبو الفتح والمغازى » . ولقد إتخذ إجراءات سريعة لإعادة توطين

الأهالى فى أستانبول . وأخذت الإمبراطورية العثمانية بها شكلا جديداً ، فبعد أن كانت آسيوية ، وإسلامية ، سيطرت على عاصمة الشرق المسيحى ، وظهر أن لها كثيرمن الرعايا المسيحيين ، يخضعون لعاصمتها الأوربية ، وجوهرة أوربا ، وأصبح السلطان العثمانى يشعر ، بأنه إستمرار كذلك للإمبراطورية الشرقية .

٤ – بقية أعمال محمد الفاتح :

كان فتح القسطنطينية يكفى كعمل محمد الثانى ، ولكنه قام بالكثير غيره ، وعلى مستوى أقل ، فى أجزاء كثيرة من البلقان ، وكذلك فى آسيا الصغرى .

وكانت أجزاء كثيرة من شبه جزيرة البلقان لا تخضع لسلطة السلطان . فرغم أن ملك الصرب كان تابعاً له ، فإنه كان فى بعض الحالات خاضعاً ومفيداً ، وفى بعض الحالات الأخرى مستعداً للتفاهم مع هونيادى فى المجر ، رغم العداء الذى كان يفصل الأرثوذكس الشرقيين عن الكاثوليك .

وظلت البوسنة مستقلة فعلياً تحت ملكها ، وتمكن إسكندر بك ، فى ألبانيا ، من أن يصد كل الجيوش العثمانية التى حاولت التوغل فى بلاده .

أما أمراء الإفلاق والبغدان ، فرغم أنهم كانوا قد قبلوا الخضوع للسيادة العثمانية ، فإنهم كانوا تابعين غير ثابتين ، وكانوا ينضمون إلى الأعداء بسهولة ، ما داموا يجدون ميزة أو مصلحة فى إتخاذ مثل هذا الموقف .

وكان أخوى الأمبراطور قسطنطين يحكمون المورة ، وبصفتهم تابعين للسلطان . وكانت بعض مناطق شبه الجزيرة هذه خاضعة للبنادقة ، الذين كانوا يمتلكون كذلك معظم جزر بحر إيجه وشرق البحر المتوسط ، وذلك فى الوقت الذى إحتفظت فيه جنوا ببعض الجزر ، والذى إحتفظ فيه فرسان القديس يوحنا بجزيرة رودس ، مقراً لهم .

وفى الأناضول نفسها كان بعض أمراء الأسرة الإمبراطورية البيزنطية السابقة يحتفظون بحكم طرابيزون ، كما كان أمراء قرمانيا مستعدين دائماً لإنتهاز

الفرص التى تضمن إستقلالهم .

ولقد أمضى محمد الثانى فترة حكمه الطويلة ، والتى بلغت ثلاثين عاماً ، منها ثمانية وعشرين بعد فتح القسطنطينية ، فى حروب مع جيرانه ، حتى يضمن إقامة وتوكيد سلطته على الأراضى والأقاليم التى لم تخضع له ، أو التى كانت سلطته عليها غير مباشرة .

ومع ذلك ، فقد أظهر محمد الثانى ، فى الأشهر التالية لفتح القسطنطينية ، رغبته فى السلم والوفاق . ورأينا أنه جدد إمتيازات المدينة الخاصة بأبناء جنوا فى جلطة ، ثم قام بعد ذلك بعقد إتفاقيات تنص على دفع الجزيات السنوية مع الأميرين اليونانيين فى البلبيونيز (١٠٫٠٠٠ دوق) ؛ ومع حاكم الصرب (١٢٫٠٠٠ دوق) ؛ ومع أبناء جنوا فى خيوس ولسبوس (٦٫٠٠٠ و ٣٫٠٠٠ دوقى على التوالى) ؛ ومع الإمبراطور اليونانى فى طرابيزون (٢٫٠٠٠ دوقى) ؛ ومع جمهورية راجوزة (٣٫٠٠٠ دوقى) ؛ وأخيراً فى سنة ١٤٥٤ مع جمهورية البندقية . وضمن حرية التجارة لجمهورية البندقية ، ومنحها حق إرسال قنصل يقيم فى القسطنطينية . ولكن فرصة السلم هذه كانت قصيرة ، وسرعان ما بدأت الحملات البرية والبحرية منذ سنة ١٤٥٤ .

وأراد محمد الثانى أولا أن يسيطر تماماً على إمارة الصرب التى كانت تقع جنوب نهر الدانوب ، وعلى طريق أوربا ، وفى موقع هام ، وكان أميرها قد أظهر أنه تابع مخاص . وأرسل إليها حملة أولى سنة ١٤٥٤ لم تتمكن من الحصول على إنتصار حاسم . وشهد العام التالى هجوم هونيادى ، وإنتصاره على أحد الجيوش التركية . فاضطر السلطان إلى الخروج بنفسه على رأس حملة توجهت إليهم . ووصل الجيش العثمانى أمام بلغراد ، وحاصرها ، وبدأ ضرب أسوارها بالمدفعية . ولكن هونيادى جمع جيشاً كبيراً من المتطوعين من المجر وألمانيا وبوهيميا وإيطاليا ، ووصل بهم فى سفن على نهر الدانوب حتى بلغراد فى منتصف يوليو سنة ١٤٥٦ . وفشلت

ثلاث هجمات للأتراك على بلغراد ، وقتل بعض قادتهم ، ويقال أن محمد الثانى جرح بسهم فى هذه المعركة ، فأضطر الجيش العثمانى إلى رفع الحصار عن بلغراد ، وإن كان قد إحتفظ بملكيته وسيطرته على غالبية إقليم الصرب . ومات هونيادى بعد أسابيع من معركة بلجراد .

وكان أمير الصرب قد إحتفظ بقطعة من ممتلكاته ، ولكن وفاته فى آخر سنة ١٤٥٦ أدت إلى منافسات على الأمارة كانت فرصة لكى يستولى العثمانيون على الأمارة كلها ، وبشكل نهائى . وتقدم أحد الجيوش العثمانية بقيادة الصدر الأعظم محمود باشا ، وتمكن فى سنة ١٤٥٩ من السيطرة على بلاد الصرب ، ما عدا بلجراد التى ستظل فى أيدى المجر مدة ٦٢ عاماً أخرى .

وسرعان ما خضعت البوسنة لنفس مصير الصرب ، وإستولى عليها جيش الصدر الأعظم سنة ١٤٦٣ ، وأخذ ملكها أسيراً فى أستانبول . أما الهرسك فإنها إحتفظت بدوقها فترة من الوقت ، إلى أن ضمت إلى الإمبراطورية العثمانية سنة ١٤٨٠ . وكانت إحدى الحركات الدينية المعادية للأرثوذكسية وللكاثوليكية قد ظهرت فى البوسنة ، وكانت لها نظرية فطرية للدين ، لا تختلف عن الإسلام فى الكثير ، وساعدت هذه الحركة على سهولة إنضمام الإقليم للدولة العثمانية ، وعلى تحول الكثير من أبنائه ودخولهم فى الإسلام فى ظل الحكم العثمانى ; وحتى النبلاء فإنهم دخلوا فى الإسلام ، وأحتفظوا بممتلكاتهم وإمتيازاتهم . ومع ذلك فقد أحتفظ الكثير من أبناء البوسنة فى الشمال ، وقرب حدود كرواتيا والهرسك ، بالديانة الكاثوليكية ، وفى الجنوب وقرب حدود بلغاريا بالديانة الإرثوذكسية ، وظلت البلاد مقسمة بين الديانات الثلاث ، وفى أعداد متقاربة .

وكانت حملات العثمانيين صوب الدانوب ، وحروبهم مع المجر ، تدفعهم إلى الإتصال بالأمارتين الرومانيتين ، الأفلاق والبغدان ، اللتان كانتا قد أضطرتا ، من أجل الإحتفاظ بإستقلالهما الداخلى ، تحت أمراء منهما . إلى الموافقة على دفع

جزية للباب العالى . وكانت تحيط بهما ثلاث دول قوية . هى بولندا والمجر والدولة العثمانية ، وكانت كل من هـذه الدول تدعى سيادتها عليهما ؛ فاضطرتا نتيجـة للظروف ، وحفاظاً على مصالح كل منهما ، إلى طلب حماية الواحدة أو الأخرى من بين هذه الدول القوية . ولكن الحالة الداخلية كانت مضطربة ، نتيجة لوجود النفوذ الأجنبى ، وخاصة وقت خلو عرش الإمارة ، وكان الأمر يصل إلى درجة طلب تدخل الإمارة الأخرى ، أو من إحدى الدول المجاورة القوية .

وقام أمير الإفلاق بقتل إحدى السفارات العثمانية ، فزحف السلطان محمد الثانى على رأس جيشه لمحاربته ، ولكنه لم يتمكن من الحصول على إنتصار حاسم ، فأنسحب ثم دفع ضده أمير البغدان ، الذى هزمه وأجبره على الإلتجاء إلى المجر سنة ١٤٦٢ .

وسرعان ما دب الخلاف بين أمير البغدان وبين العثمانيين ، بشأن الإفلاق ، وزحف جيش الصدر الأعظم سليمان باشا لمحاربته ، ولكنه إنتصر على الجيش العثمانى فى معركة مرتبة فى شهر يناير سنة ١٤٧٥ . وبعد بضع سنوات تخلى عنه المجر ، والبولنديون ، وزحف ضده العثمانيون ، مع جيش من الأفلاق ، وهزموه ، وإن كانوا قد أضطروا للإنسحاب نتيجة لنقص التموين ولإنتشار الطاعون ، وتمكن الأمير من إعادة بناء قواته وجيوشه . وسيزيد مع الزمن نفوذ العثمانيين فى أمارتى الأفلاق والبغدان ، ولكن علينا أن نقرر أن هاتين الإمارتين ، رغم تبعيتهما للدولة العثمانية ، ودفع الجزية السنوية لها ، قد أحتفظتا بحرية أتصالاتهما وحرية عملهما مع الخارج .

ولقد تمكنت الدولة العثمانية من أن تحصل ، فى الشمال ، على نجاح هام سمح لها بعد سيطرتها على كل الساحل الشمالى للبحر الأسود ، وبشكل حول هذا البحر إلى بحيرة عثمانية . فأستولت على كافا وعلى آزوف وعلى عدد من المواقع التى كان أبناء جنوا يمتلكونها فى هذه المنطقة ، ثم أفادت من الصراع الناشب حول عرش خانات القرم ، وبشكل جعل الخان يعترف بالسيادة العثمانية على بلاده سنة ١٤٧٥ .

أما الحروب مع المجر فإنها إستمرت ، وبلا انقطاع ، طوال عهد محمد الثانى . وإذا كان المجر قد تدخلت فى البوسنة ، أو فى بلاد الصرب ، فإن الاتراك قد تدخلوا فى ترانسلفانيا . وكان الأتراك يعبرون الدانوب ويغيرون على بلاد المجر ، ويعودون منها بالأسرى والاسلاب .

أما البانيا فكانت مستقلة ، وقاومت محاولات التدخل العثمانى فيها ، وكانت شخصية اسكندر بك قوية ، عرفت كيف تحافظ على إستقلال بلادها ، ولقد كافحت ، وبنجاح ، لمدة ثلاثين عاماً ضد الأتراك . ولكنه توفى فى سنة ١٤٦٧ ، وكان ذلك هو نهاية إستقلال ألبانيا ، وقبل الألبانيون الإنضمام إلى الدولة العثمانية . وكما حدث فى البوسنة ، نجد أن جزءاً كبيراً من نبلاء ألبانيا وكثير من الألبانيين يعتنقون الدين الاسلامى ، ليحافظ النبلاء على أملاكهم وإمتيازاتهم ، فى الوقت الذى شارك فيه الألبانيون فى بناء الدولة العثمانية نفسها . ومع ذلك فقد ظلت هناك أقلية ألبانية كاثوليكية فى الشمال ، إلى جوار ممتلكات البندقية ، وأقلية أرثوذكسية فى الجنوب ، إلى جوار اليونان . وكان على الإدارة العثمانية أن تحسب حساباً للروح الإستقلالية عند الألبانيين . ولقد أعطى الألبانيون المسلمون للدولة العثمانية عدداً ضخماً من كبار موظفيها وقادتها ووزرائها . وإذا كانوا لا يرغبون فى أداء الخدمة العسكرية ، ولا فى دفع الضرائب ، فإنهم كانوا متطوعين ممتازين ، ومخلصين وشجعان .

ولقد تمكن محمد الثانى من القضاء على الدولتين اللتين كان أخوى إمبراطور بيزنطة يحكمانهما فى بلاد اليونان ؛ ودخلت اليونان كلها ، فى طاعة الدولة العثمانية ، فيما عدا بعض المواقع التى إحتفظ بها البنادقة . كما قامت قوات محمد الثانى بغزو إمبراطورية طرابيزون ، فى آسيا الصغرى ، براً وبحراً ، سنة ١٤٦١ . وتدخلت قوات العثمانيين فى قرمانيا سنة ١٤٦٢ وأنهت استقلالها الذاتى ، وقضت بذلك على البقية الباقية من دولة السلاجقة . وزاد عدد الحملات البحرية فى عهد محمد الثانى ،

وكانت لها نتائج هامة تتمثل فى السيطرة على الكثير من الجزر، وبخاصة تلك التى تقع بالقرب من سواحل آسيا الصغرى . ونشبت الحرب بين العثمانيين وجمهورية البنادقة ، ولكنها إنتهت بالصلح بينهما سنة ١٤٧٩ ، وإحتفظت البندقية بمراكزها فى ألبانيا وفى المورة ، واستمرت إمتيازاتها التجارية وحقها فى تعيين قنصل فى القسطنطينية ، ولكنها وافقت على دفع جزية سنوية تبلغ ١٠٫٠٠٠ دوقى . وفى العام التالى قام الأسطول العثمانى بالإستيلاء على أوترانت ، فى جنوب إيطاليا ، وحاول الاستيلاء على جزيرة رودس ، ولكنه لم يتمكن من ذلك .

وتوفى محمد الفاتح سنة ١٤٨١ ، ويشتمل تاريخه على فتح القسطنطينية ، وتدعيم الحكم العثمانى بشكل نهائى فى أوربا ، وأعطى لممتلكاته حدودها الطبيعية مع الدانوب والساف ، وفيما عدا بعض النقط التى أحتفظت بها البندقية فى ألبانيا وبلاد اليونان ، فإنه أخضع كل الأقاليم الواقعة داخل هذه الحدود لسلطته . وأكد، فيما وراء ذلك ، السيادة العثمانية على إمارات الأفلاق والبغدان ، وفرضها على خانات القرم . وإذا كان بعض خلفائه سيقومون بمد هذه الحدود إلى ما وراء ذلك ، وإلى المجر ، فإن هذه الغزوات ستكون مؤقتة . أما غزوات محمد الفاتح فإنها ستظل حتى بداية القرن التاسع عشر ، وحتى إلى سنة ١٨٧٨ . أما فى آسيا الصغرى فإنه سيضم طرابيزون ويخضع قرمانيا بشكل نهائى .

ومع كل هذه الحروب ، وجد محمد الثانى وقتاً لنظيم وإدارة إمبراطوريته ، وحول السلطنة من مجرد قيادة لجيش آسيوى وغازى إلى رئاسة دولة لها أهميتها .

٥ - بايزيد الثانى :

كان بايزيد الثانى (١٤٨١ — ١٥١٢) ، هو الابن الأكبر لمحمد الفاتح ، وخليفته فى السلطنة ، وكان هادىء الطبع ومتواضع ، وكان شاعراً وكاتباً ومحباً للفنون والعلوم وكان قد وصل إلى السلطنة فى سن نضج ، إذا كان عمره خمسة وثلاثين عاماً ، وكان قد تمرن أثناء سلطنة والده ولفترة سنوات طويلة ، على حكم وإدارة بعض الأقاليم . وكان ذوقه وطبيعته وميوله تبشر بعهد من السلم ، ولكن الظروف أجبرته

على الدخول فى صراعات مختلفة مع جيرانه ، كما أن طموح أخوته وأفراد أسرته أجبره على التدخل ضدهم . وفى الختام ، فإن حكمه الطويل ، والذى بلغ إحدى وثلاثين عاماً ، لم يترك الإمبراطورية العثمانية وقد فقدت . أو زادت ، إقليماً من أقاليمها .

وقد بدأ حكمه بأن حاول أخوه جم الوصول إلى السلطة ، بمساعدة محمد القرمانى ، الصدر الأعظم ، الذى أخفى خبر وفاة السلطان محمد لعدة أيام ، حتى يتمكن الأمير جم ، والذى كان فى ذلك الوقت حاكماً على إقليم قرمانيا ، من الإستيلاء على السلطة ، وذلك فى نفس الوقت الذى حاول فيه منع بايزيد من الوصول إلى أستانبول ولكن الانكشارية أعلنت تمردها ، وقتلت الصدر الأعظم ، وتمكن بايزيد من الوصول إلى استانبول واعتلاء العرش .

ولكن جم لم يتنازل عن إدعاءاته . فجمع القوات وهاجم بها بروسة وإستولى عليها ؛ ولكنه إنهزم بعد ذلك قرب ينى شهر ، وإضطر إلى الفرار إلى سوريا ، التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت لسلطنة المماليك فى مصر ؛ ثم ذهب منها إلى مصر ، حيث أحسن السلطان المملوكى وفادته . وفى العام التالى (١٤٨٢) لبى جم نداء عدد من العناصر المناوئة لأخيه السلطان العثمانى ، وتقدم حتى قونية ؛ ولكنه هزم من جديد ، ورفض عروض الصلح التى عرضها عليه بايزيد ، وفضل العيش فى المنفى ؛ عند السيد الأعظم لجماعة فرسان رودس ، وكان يأمل فى أن يحصل على معونته وتأييده لغزو الأقاليم البلقانية للإمبراطورية العثمانية . وبعد أن أحسنوا إستقباله ، عمل فرسان رودس على التقرب من الدولة العثمانية ، محاولين عقد الصلح معها ، وتعهدوا بالإحتفاظ بالأمير جم ، وبإبعاده عن الدولة العثمانية . ونقل بعد ذلك إلى فرنسا ، حيث ظل أسيراً مدة سبع سنوات ، فى الكنائس الخاصة بجماعة الفرسان ، ثم نقل إلى روما ، وبعد ذلك أخذته قوات شارل الثامن معها إلى نابولى ، حيث توفى سنة ١٤٩٥ .

وعمل بايزيد الثانى ، منذ أول حكمه ، على تجديد المعاهدات مع البندقية وراجوزه . ثم عقد بعد بضع سنوات هدنة مع ملك المجر لمدة خمس سنوات . وسمح ذلك لبايزيد بالهجوم على البغدان . وتمكنت القوات العثمانية من الإستيلاء على كيليا ، الواقعة على مصب الدانوب ، ثم تعاونت مع خان القرم ، وتمكنت من الإستيلاء على آكرمان سنة ١٤٨٤ . ولم تتقدم القوات العثمانية إلى أبعد من ذلك ، بل إحتفظت بهذين الموقعين ، اللذين يضمنان سلامة الإتصال بين تركيا وبلاد التتار ، واللذان سيصبحان نقطة إنطلاق فيما بعد لهجمات عثمانية فى البغدان ، وحتى فى بولندا .

وفى نفس الوقت الذى عملت فيه الدول المسيحية فى إيطاليا على الدخول فى علاقات ودية مع السلطان العثمانى ، وجه مسلمو الأندلس ، وهم تحت ضغط فرديناند الكاثوليكى ، والذى كان قد وحد تاجى قشتالة وأراجونا ، نداء للحصول على معونته للمسلمين ضد المسيحيين . وأمر بايزيد بإعداد أسطول للذهاب ومهاجمة سواحل إسبانيا ، وإن كان هذا الإجراء لم يعط نتيجة فعالة .

وكانت أحداثاً أخرى قد إجتذبت أنظار السلطان العثمانى إلى منطقة أخرى ، وشغلته بها ، بطريق مباشر . ذلك أن السلطان المملوكى فى مصر لم يكن قد إكتفى بإعطاء حق اللجوء للأمير جم ، بل كان قد سمح لقواته بأن تحتل فى منطقة قليقيا ، بعض المدن والأراضى التى كانت خاضعة لإحدى الإمارات التركمانية ، والتى كانت تحت حماية السلطان العثمانى . فأرسل بايزيد حملة صوب فيليقيا وسوريا ، ولكن حملتين متتاليتين فى عامى ١٤٨٩و١٤٩٠ كانتا فى غير صالح العثمانيين . وقرر السلطان بايزيد أن يقوم بنفسه بقيادة حملة جديدة ؛ ولكن أمير تونس تدخل فى الأمر ، وتم عقد الصلح بينه وبين سلطنة المماليك .

وعند موت ملك المجر سنة ١٤٩٢ ، حاول بايزيد أن يفيد من الموقف ، ويحتل بلجراد ، التى كانت فى أيدى المجر . ولكن هذه المحاولة فشلت ، دون أن

تثبط من عزيمة العثمانيين على مواصلة الهجمات شمال نهر الدانوب . وبخاصة فى بلاد السكروات . وكانت هذه الهجمات ، من جانب العثمانيين ، مثلها فى ذلك مثل هجمات المجر المضادة ، تتميز بالقسوة والوحشية ، وسهولة إستخدام القتل ، والبتر ، والحرق حياً . ورغم أن بايزيد كان يرغب فى المعيشة فى سلام مع جيرانه ، فإننا نجد أن كبار قادته ، فى بعض الأحيان ، هم الذين كانوا يعملون على تغيير الموقف؛ فرغم المعاهدة المعقودة مع بولندا ، قام بالى بك ، حاكم سليستريا ، بعبور الدانوب ، وعبر البغدان بالاتفاق مع أميرها ؛ وهاجم الأقاليم البولندية القريبة من الحدود ، وخربها ؛ وإن كان مجىء الشتاء قد أجبره على الإنسحاب .

وكان حظ العثمانيين أحسن من ذلك مع البندقية ، التى إنهزم أسطولها قرب ليبانتو ، فى ٢٨ يوليو سنة ١٤٩٩ ؛ الأمر الذى سمح لهم بإحتلال ليبانتو ، والقيام فى العام التالى باحتلال مودون ونوارين وقورون . كما أن هجمات مجموعات « وعصابات » العثمانيين فى الشمال الغربى للبلقان إستمرت ، وبشكل سمح لها بدخول إيطاليا وعبور تاليامينتو ، والوصول حتى البندقية ، وستظل لهذه الهجمات صفة العصابات لفترة من الوقت ، قبل أن يتقرر قيام قوات عسكرية بها ، فيما بعد ، وللقيام بغزوات فى بلاد المجر ، تصل حتى أسوار فينا .

وكرد فعل على إستيلاء العثمانيين على بعض مواقع البندقية فى المورة ؛ قام البابا إسكندر السادس ، وبطلب من البندقية ، بتكوين حلف ضد الدولة العثمانية ، وضم إليه فى سنة ١٥٠١ ، كل من فرنسا وإسبانيا . وقام الأسطول الأسبانى ، بقيادة القبودان الأعظم جونزالفى القرطبى ، بتخريب سواحل آسيا الصغرى . بينما حاصرت السفن الفرنسية متيلين ، ووصل فيه أسطول البابوية إلى الدردنيل . ولكن هذه العمليات لم ينتج عنها سوى إحتلال عدد من الجزر الصغيرة . وتم عقد الصلح فى العام التالى مع البندقية ، التى أصبح من حقها أرسال قنصل لها إلى إستانبول كما شهد نفس العام (١٥٠٢) عقد الصلح كذلك مع المجر .

وفيما عدا المناطق المجاورة ، عملت الدولة العثمانية على الدخول فى علاقات مع الدول ، الأكثر بعداً ، مثل البابا ، وفلورنسا ، ونابولى ، والإمبراطورية المقدسة ، التى حاولت الوصول إلى صداقتها ، والاستعانة بها فى مشكلاتها . وترى لأول مرة فى التاريخ ، أن العثمانيين يتصلون بالروس فى ذلك الوقت ، عن طريق ، خان القرم ؛ وحضر سفراء روس إلى أستانبول سنة ١٤٩٥ وسنة ١٤٩٩ ، طالبين إعطائهم تسهيلات لتجارتهم .

وكان بايزيد قد رغب ، قبل ذلك ، فى عقد روابط قربى ، مع جارية المسلمين الكبيرين ، فزوج إحدى بناته لوريث عرش فارس ، ووافق على زواج بنت أخيه ، الأمير جم ، بسلطان مصر المملوكى . ولاشك فى أن ذلك كان يمثل حلماً ، بالوصول إلى عقد روابط صداقة وقربى مع جيرانه المسلمين الأقوياء . وكان من السهل علينا أن نتوقع أن السنوات التالية ستكون سنوات سلم ووئام مع جيرانه ، فى أوربا ، وفى المشرق ؛ ولكن حكمه الذى بدأ بالصراع ضد أخوته ، سينتهى بالصراع ضد أبنائه ، الذين سيعلنون الثورة ضده .

وكان بايزيد قد عهد إلى أبنائه بحكم بعض أقاليم الدولة ، فى آسيا ، الأمر الذى سيسهل قيامهم بالمؤامرات ضده . وكان سليم ، أصغر أبنائه . قد عرف كيف يكسب ود الانكشارية . بينما كان كركود ، أخوه الأكبر ، يميل إلى الشعر والفلسفة ، ويحب الفنون أكثر من حبه للحرب ، ورجال الحرب . وعمل بايزيد نفسه على إبعاد كركود عن وراثة السلطنة ، والعهود بها إلى أبنه الثانى ، أحمد ، الذى كان يحظى كذلك بتأييد الصدر الأعظم ، عالى باشا . ولكن الخصومات الناشبة بين كركود وأحمد كانت فى صالح الأبن الثالث ، سليم ، الذى أعلن الثورة ضد والده أكثر من مرة ، وأخذ فى الزحف على أدرنة . وأخيراً قام الانكشارية بالتمرد ؛ فى الوقت الذى شبت فيه الثورة فى إستانبول ، وبشكل أجبر بايزيد ، الذى كان شيخاً ، مسناً ومريضاً ، على التنازل عن السلطنة ، فى

٢٥ أبريل سنة ١٥١٢ ، لإبنه سليم . وسافر السلطان المتنحى إلى مسقط رأسه ، ولكنه توفى فى الطريق ، فى ٢٦ يونيو سنة ١٥١٢ .

وهكذا فشل بايزيد فى تحقيق فترة حكم سلمية ، كان يأمل فيها ؛ كما أن حملاته الحربية لم تقدم للسلطنة غزوات جديدة ، ولا إنتصارات ثابتة . ولكنه نجح مع ذلك فى زيادة حجم علاقات السلطنة مع الدول الأخرى . أما فى الداخل ، فإنه إهتم بالأدباء والشعراء ، وبنى مساجد عديدة ، ومن أهمها مسجده الذى يحمل إسمه ، والذى يقع على أكثر أماكن إستانبول إرتفاعاً ، قرب سيراس قيراط ، بجامعة إستانبول الحالية ؛ كما بنى الكثير من المدارس ، والمبانى ، والقناطر والجسور .

وعلينا أن نذكر أن بايزيد الثانى قد حكم بعد والده ، محمد الفاتح ، الذى إستولى على القسطنطينية ، وكان بذلك من الرجال الذين وضعوا نقطاً مميزة على تاريخ العالم . . ويمكننا أن نعتبر حكمة تدعيما حضارياً ، وسياسياً وإستراتيجياً لما وصل إليه محمد الفاتح . كما أنه حكم قبل سليم الثانى ، إبنه ، فاتح الشام ومصر ، والذى مد أيديه إلى رجال الجهاد على كل السواحل الإسلامية ، وحتى مضيق جبل طارق . فكان عصره فترة لتدعيم إنتصار ساحق ، والاستعداد لتكتل الأقاليم العربية والإسلامية ، فى شكل جديد وفريد ، لم يشهده التاريخ من قبل . وأخيراً فعلينا ألا ننسى أن فترة حكمه هى التى شهدت وصول البرتغاليين إلى مياه الهند ، وعجز سلطنة المماليك ، رغم توافق مصالحها مع مصالح تجار إيطاليا ، فى البندقية وجنوا ، عن الوقوف فى وجهها .

إنها صفحة جديدة من تاريخ العالم ، مع فجر التاريخ الحديث . ولننتقل إلى إيطاليا ، لنرى مظاهر النهضة ، كتمهيد للكشوف الجغرافية فى بداية التاريخ الحديث .

الباب الرابع

النهضـــة الأوروبيـــة

الفصل العاشر

ظهور النهضة فى ايطاليا

تجمعت بعض الأسباب ، الجغرافية ، والإقتصادية ، والسياسية والمعنوية ، لكى تجعل النهضة الأوربية تظهر فى إيطاليا قبل غيرها من الأقاليم الأوربية ؛ وأخذ هذا التحول وقتاً لكى يظهر مثل غيره من التغيرات العالمية ، وبشكل يميزها عما سبقها تاريخياً من المظاهر . وكانت للنهضة الإيطالية خصائصها ، كما كانت لها مظاهرها . وإنعكس كل ذلك فى حركة إحياء الدراسات القديمة ، ووضح فى ظهور اللغات الحديثة ، الأمر الذى إمتد إلى خارج حدود إيطاليا ، وإلى أقاليم أخرى كانت تتمسك حتى ذلك الوقت بإعتبار اللغة اللاتينية هى اللغة الرسمية للعالم الغربى . ولقد إنعكس كل ذلك ، فى روحه والرغبة فى التجديد ، على الفنون الجميلة ، من تصوير ونحت وعمارة . وبدأت حركة النهضة من إيطاليا ، لكى تنتشر فى بقية أنحاء العالم الغربى . وإذا كان منار النهضة قد خبا نوره فى إيطاليا ، وربما قبل غيرها من أقاليم غرب أوربا ، فإن هذه الحركة قد إستمرت ، كحركة تطور إنسانى ، لها جذور إجتماعية وإقتصادية ومعنوية ، فى بقية أنحاء أوربا ، وتكاتفت عواملها مع عوامل جديدة لكى تظهر فى شكل الكشوف الجغرافية ، والاصلاح الدينى ، وتفوق أوربا وسيطرتها على العالم .

١ ـ خصائص النهضة ومظاهرها :

علينا أن نحدد أن النهضة الإيطالية لم تظهر فجأة ، وبشكل واضح فى إيطاليا . إذ إنها ، كحركة من حركات تطور الانسانية ، أخذت فى النمو ، والتبلور ، عبر سنوات طويلة ، وفى تفاعل مع عوامل ومتغيرات عديدة ، قبل أن تظهر ،

كظاهرة عامة لها خصائصها ومميزاتها ، وبشكل واضح ، يدل على حدوث تغير فى حياة البشر ، بشكل متميز عن حياتهم السابقة ، ويبشر بسيرهم فى خط حياة جديد، يختلف عن خط حياتهم السابق .

وهناك من ينظر إلى النهضة على أنها **عصر قائم بذاته** ، وعصر خطير فى التاريخ الأوربى ، وتاريخ العالم ؛ وعلى أنه قد ختم العصور الوسطى ، وقضى على الكثير من القيود التى كانت موجودة من قبل : فهو عصر ظهور الفرد ، وعصر الأدب ، وعصر الفن ؛ وهو عصر التحول ، والهدم والبناء ، وعصر المخاطرة والكشوف الجغرافية والعلمية ، وعصر العلم الجديد ، عصر التهكم والضحك والمرح ، وعصر مخالفة القوانين والتقاليد الاخلاقية ؛ وعصر الغدر والخيانة ، وعصر السياسة الصاخبة ومجد الأمراء والنبلاء والعظماء من الرجال . وبهذا الشكل يكون عصر النهضة هو عصر التغيرات الكبيرة التى أصابت المجتمع الأوربى فى الفترة الواقعة بين العصور الوسطى والعصر الحديث ، أى فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر . وهذه التغيرات تتمثل فى ضعف الامبراطورية الرومانية ، وفى ضعف البابوية وسلطة البابا ؛ وهما السلطتان اللتان سيطرتا على العالم الأوربى أثناء العصور الوسطى ؛ وحل محلها نمو الدول الأوربية الحديثة ، التى أصبح لكل منها كيان سياسى مستقل وواضح ، وقائم على أسس جغرافية وإقتصادية وبشرية. وتتمثل كذلك فى ظهور الكنائس الاقليمية المستقلة عن سلطة البابا ، وظهور مذاهب دينية جديدة ، لا تخضع للبابوية ، ولا للكاثوليكية . كما تتمثل فى نشأة الآداب الوطنية الجديدة فى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا ، مستقلة عن الأدب اللاتينى القديم ، الذى ساد خلال العصور الوسطى . وتتمثل فى ضعف سلطة الأمراء والسادة الاقطاعيين ، وإزدياد نمو أرباب الصناعات ، ونمو رجال الطبقة الوسطى . كما تتمثل فى ظهور وسائل العمل الجديدة ، مثل البوصلة والاسطرلاب ، وإستخدام الدفة المتحركة ، الأمر الذى سهل الملاحة ، وساعد

على كشف الطرق التجارية الجديدة ؛ وكذلك إختراع الطباعة الذى سهل أمر إنتشار العلوم والآداب بين عدد كبير من الناس ؛ وإكتشاف كوبرنيكوس أن الأرض غير ثابتة ، وأنها تتحرك حول نفسها ، وحول الشمس . وبهذا الشكل يكون عصر النهضة هو ثمرة الانسانية كلها . التى أسهمت فيها شعوب قديمة وحديثة ، وهو ذلك العطاء الحضارى الانسانى الذى يعتمد على تحرر النفس البشرية ، وإنطلاقها من القيود ؛ وهو عصر يمكن تشبيهه بالمرجل ، وبالحمى التى أصابت البشرية ، نلاحظ أثارة فى تلك الدماء الحارة التى جرت فى عروق الناس ، وحركتهم ، وجعلتهم يتأثرون بهذه التيارات ، التى تكاملت مع بعضها ، وخرجت منها طريقة الحياة الجديدة ، وفى كل مناحى الحياة. وهذا التفسير والتشبيه المعنوى صادق وأمين فى حد ذاته ، وإن كان يحتاج إلى تعمق فى النظر إلى القوى العميقة ، التى أدت إلى اخراج هذا التغيير فى حياة الناس ، فوق الأرض .

وهناك من ينظر إلى النهضة على أنها حركة ، وهذه نظره أضيق ؛ فيعتبر أنها حركة إحياء الدراسات القديمة ، وظهور الفكر العقلانى ؛ وبهذا المعنى تكون النهضة قد ظهرت فى إيطاليا قبل غيرها ، ثم إنتقلت منها إلى بلاد أخرى فى العالم . وعلينا أن نعترف بأن إحياء التراث القديم ؛ الرومانى واليونانى ، يدل على بعض قطاعات النهضة ، وإن كان لا يشملها جميعاً . وكذلك نجد أن رجال الفن يعتبرون ، من ناحيتهم ، أن النهضة عبارة عن ظهور الفن الجديد ، بعد أن تخلص الفنانون من قيود العصور الوسطى ، وأخذوا يستمدون فنهم من عناصر الحياة الواقعية ، ومن روح الدين المسيحى ، وقصص وأساطير العصور الوسطى ، ومن قصص الرومان واليونان القديمة ، واستوحوا من هذا المزيج وحياً لفنهم وأنتجوا من ذلك فناً رائعاً .

ولا شك فى أن تطور حياة الناس من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة كان يرجع إلى تغيرات عميقة اقتصادية ، واجتماعية ، ومرتبطة بوسائل الانتاج

والتبادل ، وفى علاقه مع نظام الحكم ، كما شرحنا فى الفصول السابقة ، وهو الأمر الذى أدى إلى تغير طريقة حياة الناس ، وطريقة تفكيرهم ، وابداعهم .

وكان أهالى العصور الوسطى ينظرون للحياة نظرة غير عملية ، وأعوزهم فهم الحياة فهماً صحيحاً ، كما أعوزتهم القدرة على التمتع بالحياة ، فكانوا يأخذون الأمور قضايا مسلم بها ، ويخضعون للأساطير والأوهام ، ويعتقدون فيها ؛ ونظروا إلى الحياة الدنيا على أنها فترة مؤقتة زائلة ، وإلى التمتع بالجمال على أنه إثم وخطيئة ، سواء أكان ذلك تمتع بجمال الطبيعة ، أو تقدير لجمال أجزاء الجسم وتفصيلاته ؛ وكانت العلوم دينية ، وتتعلق بالعقيده والحياة الأخرى ، وفى ظل الكنيسة ، الامر الذى دفع الناس إلى الاكتفاء بما يسد الرمق ، دون طلب المزيد .

وسيطرت الكنيسة على حياة البشر ، سيطرة تامة ، حتى أصبح رجال الكنيسة حائلا بين الخالق والمخلوق . وكان لنزول الكنيسة إلى ميدان الحكم الزمنى . ومحاولتها السيطرة على الامبراطورية ، وانشائها لنظام حكم واداة حكم تشبه تلك الموجودة لدى الملوك والأمراء ، وعملها على السيطرة على دول مثل فلورنسا وجنوا ، والتوسع فيها ، ودخول البابوات نطاق الحياة السياسيه ، واستخدامهم جنداً من المرتزقة ، وانشائهم للأساطيل البحرية ، كان لكل ذلك أثر يتمثل ، علاوة على الصراع مع الحكومات الزمنية ، فى ضعف البابوية نفسها ، بعد أن نزلت إلى ميدان ليس ميدانها ؛ وعرقلت بالتالى التطور الطبيعى لعباد الله الصالحين ، ولفترة من الوقت .

وفشلت البابوية فى السيطرة على ايطاليا ، دنيوياً ؛ وضعف نفوذها الدينى ، خاصة وأن بعض البابوات أصبحت حياتهم دنيوية ، وتزوجوا ، وخالفوا قواعد الدين ، وجاهروا بالكثير من شئون هذه الحياة الآثمة ، مع قبولهم للرشاوى وإختلاس الأموال ، والاشتراك فى المؤامرات ، وإرتكاب الاوزار كالقتل وبيع صكوك الغفران ومناصب الكرادلة ، الأمر الذى أدى إلى ضعف البابوية ، وهبوط نفوذها وسيطرتها . ومع زيادة تعنت الكنيسة ، مع ضعفها المتزايد ، ستكون أداة

يمارس فيها أنصار التحرر قوتهم بعد أن إستندوا إلى أسس قوية من المال والاقتصاد ، والانتاج والتجارة الثروة ، والرغبة فى الحياة ، وفى الحرية،التى هى صفة لازمة من صفات الرأسمالية الناشئة والنامية فى ذلك الوقت .

ونتيجة للتحرر الاقتصادى ، وبداية التحرر الاجتماعى ، ستكون الحرية ، بكل صورها ، من خصائص ومظاهر النهضة الأوروبية .

وأخذ تحرر النفوس يظهر فى النطاق الدينى . وبعد أن كان نفوذ الكنيسة قوياً ، ظهرت فى لومباروديا جماعات من الأهالى أخذوا يتهكمون على الديانة المسيحية ، وينادون بشرب الخمر ، ويمجدون باكوس إله الخمر عند اليونانيين . كما ظهرت جماعة Weldani نسبة إلى Weldo ،إنتقلت إلى إيطاليا ونشرت مبادئه، ونادت بالرجوع إلى نص الكتاب المقدس ، والثورة على رجال الدين ، وعلى أساس أنه يجب ألا تكون هناك وساطة بين الفرد والله ، متمثلة فى رجال الدين، وأن فى وسع الفرد أن يتصل بخالقه مباشرة . ولقد إنعكس ذلك ، فى شكل قلق وسخط ، على فن التصوير ، منذ القرن الثالث عشر ، فكانت صور المسيح تظهر وهى تحمل دلائل السخط وعدم الرضاء ، مما يدل على الحالة النفسية للفنانين أنفسهم،

وظهرت شخصيات تنادى بالتحرر ، أولها شخصية أبيلار ، الأستاذ بجامعة باريس ، وهو الذى مجد العقل ودعا إلى إستخدامه ، فلا ينبغى أن يعتقد الفرد فى شىء قبل أن يفهه ،وحتى الدين يجب تطبيق العقل عليه . ونادى بضرورة الحد من سلطة الكنيسة ، وعدم وضع وساطة بين الفرد والخالق . وجاءت من بعده شخصية تلميذه أرنولدو بريشيا Arnoldo Briscia الذى تشبع بالآراء الحرة ، وإنتقل إلى إيطاليا ، وهاجم السلطة الزمنية للكنيسة . ودعا إلى تحطمها ، مع إقتصار الكنيسة على الناحية الدينية . كما نادى بضرورة إعادة الجمهورية الرومانية، وتوحيد إيطاليا تحت سلطة روما ، على نمط الجمهورية القديمة ،وإن كان قد فشل وقتل ، إلا أن أثار هذه الحركة ظلت فى نفوس الأهالى ، تدفعهم للتحرر من سلطة الكنيسة .

وكذلك ظهرت شخصية يواكيم دافلورا ، الذى تأثر بالثقافة التى سادت فى جنوب إيطاليا ، وهى ثقافة متنوعة الاصول ، متأثرة بثقافة اليونان والرومان والبيزنطيين والعرب والنورمنديين ، وهذه الثقافة تخلق عقلية أقل تمسكاً بالدين ، والخضوع لسلطان الكنيسة ، وأقرب منها إلى الحرية ، ومن أهم الافكار التى نادى بها يواكم هى فكرة الحرية ، وفهم الله على أنه الحرية وأن الله يحب الحق ، فلا بد أن يكون الانسان حراً . وفكر يواكيم فى الكنيسة وأحوالها وفسادها ؛ ولكن تشاؤمه كان ممزوجاً بالتفاؤل ، وقال أن العالم ، بعد هذه الويلات ، سيدخل فى طور جديد،ويقوده الرهبان المخلصون،وتتسامى المسيحية والتصوف. ولاقت دعوته نجاحاً وإنتشاراً فى إيطاليا ، وأحس الناس أنه قد أرضى حاجة فى نفوسهم . وكان قد دعا إلى التغيير ، وإن كان هذا التغيير لن يتم بالشكل الذى توقعه ، وبالرهبان ؛ ولن يكون قادة العصر الجديد هم الكهنة كما توقع .

وهناك شخصية القديس فرانشيسكو ، الذى نشأ فى أسرة غنية ، وفشل نتيجة رقة صحته فى أن يكون من رجال السيف ، فأدى به الأمر إلى الزهد فى الدنيا ، وإلى التصوف ؛ ولكنه لم يكن متشائماً ، بل مليئاً بالتفاؤل . ولقد نادى بالتمتع بالحياة ،وتمجيدها،ودعا إلى التمتع بهذا الكون،الوصول من ذلك إلى تمجيد الخالق فى مخلوقاته جميعاً . وكان ذلك تمهيداً للفكرة التى إنتشرت بعد ذلك عن تمجيد الطبيعة فى كل صورها . وكان ينظر إلى البشر جميعاً نظرة واحدة ،إذ إنهم إخوة فى الانسانية ،فليست هناك طبقات إجتماعية وكان يقدر للمجرم واللص تلك الظروف التى أجرم أو سرق فيها . وكان معجباً بالطبيعة ، ويخاطب عناصرها ، متمثلة فى الشمس والنار والهواء ويعتبر أن الخالق موجود فى كل منها . وكان راهباً ، ولكنه تصرف وكأنه يرجع إلى روح الوثنية القديمة،وكان ممهداً لروح الحركة الانسانية.

وهناك كذلك شخصية الامبراطور فردريك الأكبر ، حفيد فردريك بربار وسا ؛ وهو الذى ترك حكم أملاكه فيما وراء الراين فى يد أبنائه ، وإستقر

هو فى جنوب إيطاليا . ولقد عمل على القضاء على نفوذ الأمراء والبارونات ، وعلى تنمية إمكانياته الطبيعية والاقتصادية ، سيطر على النقابات والبلديات ، وعمل على إضعاف سلطة الكنيسة ، فإعتبر نفسه حامى الكنيسة ، متأثراً فى ذلك بدين الاسلام، الذى أعطى للخليفة السلطتين الزمنية والروحية . ولقد قام فردريك بحرب صليبية فى الشرق ، فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وكانت حرباً صليبية سلبية ، وإتفق مع الملك الكامل، سلطان مصر ، على معاهدة صلح وسلام، فى حلف ضد أعدائها ، حتى من مسيحى الشرق . وأخذ فردريك بيت المقدس، وأعجب بعادات وأخلاق الشرق ، وظهر أنه بعيد عن التعصب وتعتبر سنة ١٢٢٩ نقطة تحول جوهرى فى العلاقات بين الشرق والغرب ، أو بين الهلال والصليب ؛ إذ أنها تدل على أن العقل الانسانى قد نفض عن نفسه فكرة العداء التقليدى بين الهلال والصليب ، وأنه من الممكن التفاهم بالطرق الودية ، وطبقاً للمصالح الموجودة . ولقد إحترم فردريك وفود الأديان الأخرى ، وأصبح لكل من الديانات الاسلامية واليهودية والمسيحية مكاناً محترما فى بلاطه ؛ وكان يجتمع كثيراً بمفكرى وعلماء المسلمين ، ويكاتبهم ؛ وإتصل بتلاميذ إبن رشد ، الذين كانوا يرون أن الاسلام يدعو إلى الفكر الحر ، والمناقشة ؛ وعدم أخذ أى شىء إلا بعد ثبوته وأن للعقل المكان الأول فى حياة البشر؛ وأن مايروى عن المعجزات فجدير بالعامة . ولقد إهتم فردريك بالحركة العلمية ، فأنشأ جامعة نابلى ، وكلية للطب فى بالرمو ، وقام بتجارب عملية ، وإشترك فى بعضها ، فى تشريح الجسم الانسانى. وكان بلاطه غاصاً بالمهندسين المعماريين المسلمين ، فأقيمت مبانى وكنائس متأثرة بالطراز العربى ، بها كتابات عربية وكوفية فى بعض الأحيان . وزاد الأمر حتى أنه أعلن أنه لا يعقل أن يكون الله فى نظر المسيحيين هو المتجسد فى جسم معين ، ولا يعقل أن الله قد ولدته إمرأة عذراء ، وأعلن بذلك ثورة خطيرة على المسيحية . ولقد عبر فردريك عن عصره ، أو عن فكر الرجال الأحرار فى

تلك المنطقة فى ذلك العصر . ولذلك فانه يمكن أن نقول بأن فردريك كان أول رجل يمثل العصر الحديث ، ويمثل روح النهضة .

ومن هذا نرى أن حركة النهضة جاءت من خارج الكنيسة ، وكانت علمانية ، وحاربت زيادة سلطة الكنيسة ، وكانت عقلانية ، ورفضت وجود الكنيسة كواسطة بين الفرد والخالق . ولقد عملت هذه الحركة بالتالى على إضعاف الكنيسة ، وساعدت على إستمرار التغير الاجتماعى والفكرى . ولقد إعتمدت حركة النهضة على سكان المدن ، ورجال المهن والتجارة ، والذين تزايدت الثروات فى أيديهم ، والأموال فى أكياسها لديهم أو فى المصارف . وهم رجال الطبقة الوسطى ، أو الطبقة البوراجوازية ، التى ستتزايد أهميتها . وبإستمرار ، فى الوقت الذى تقل فيه أهمية النبلاء والسادة الإقطاعيين . ولذلك فإن هذه المدن هى التى ستكون مراكز الإشعاع الفكرى والعلمى والفنى ، فى كل غرب أوربا . وكما رأس المال ينشد الحرية فى تعامله ، فإن صاحب رأس المال لا يمكنه أن يتعامل إلا طبقاً لصالحه ، وفى حرية ، وليس طبقاً لعقيدة معينة ، خاصة إذا ما شعر أن وضعية الكنيسة تؤثر على مصالحه ، وتفرض عليه التزامات لايقرها العقل . ولذلك فانهم حاربوا من أجل حرية الرأى ، وحرية الشخصية ، وحرية التعامل ، وعملوا بذلك على تحطيم القيود التى كانت سائدة طوال العصور الوسطى . وظهرت هذه الحركة بمظاهرها المختلفة ، وأول ما ظهرت ، فى إيطاليا .

٢ ـ أسباب ظهور النهضة فى إيطاليا :

كان لظهور النهضة فى إيطاليا ، قبل غيرها من الأقاليم الأوربية ، أسباباً عديدة ، ترجع فى أولها إلى أسباب جغرافية ، بحكم الموقع ، تلتها أسباب إقتصادية ، ثم إجتماعية ، وسياسية ومعنوية .

وكان **الموقع الجغرافى لايطاليا** ، فى غاية الأهمية ، نتيجة لوقوعها فى وسط البحر المتوسط ، وهو البحر الذى قامت على ضفافه أقدم الحضارات ، والذى كان

مركز التبادل بين العالم القديم ، قبل إكتشاف العالم الجديد . وكانت المدن الايطالية هى مراكز الإتصال بين بلاد أوربا ، والبلاد المطلة على الحوضين ، الشرقى والغربى لهذا البحر .

ونعرف أن الحضارة الاسلامية كانت مزدهرة أثناء العصور الوسطى ، وأنها أسهمت بنصيب وافر فى ميادين العلوم والفكر والإنشاءات والطب والفلك وعلوم البحر . وكانت مراكز الحضارة الاسلامية موجودة فى كل مكان ، وكان أقربها إلى أوربا يتمثل فى جامعات الأندلس فى الغرب ، وصقلية وتونس ، فى الوسط ، ومصر والشام ، فى شرق البحر المتوسط . وكانت هذه المراكز المتقدمة للحضارة الاسلامية تحيط بإيطاليا من كل إتجاه ، ويمكن لأهالى ثغورها الوصول اليها بالسفن وكانت تعتبر معابراً ونقط إتصال علمى وحضارى ، بين الشرق والغرب ؛ وجاء الكثير من طلبة العلم من الغرب إلى هذه المراكز يدرسون ويتعلمون ويقتبسون ويفكرون ، الأمر الذى ساعد على إزدياد أهمية الموانى ، علاوة على أهميتها العسكرية ، فى الحروب الصليبية ، وأهميتها الاقتصادية فى التعامل فى التجارة بين الشرق والغرب .

وكانت إيطاليا ، بفضل موقعها ، أقرب من غيرها إلى بيزنطة ، تلك العاصمة العالمية القديمة . وكان الكثير من علما بيزنطة يحضرون لإيطاليا كأساتذة ، أو يحضرون اليها كمهاجرين ؛ كما كان بعض أبناء إيطاليا يذهب إلى بيزنطه لطلب العلم . ولا شك فى أن موقع ايطاليا الجغرافى ساعد على هذه الحركة بين العلماء وطلاب العلم ، وأعطى لإيطاليا ميزة منطقة الإلتقاء بين المعارف والعلوم والفكر ، من كل مكان .

أما من **الناحية الاقتصادية** فنجد أن المدن والموانى الايطالية ، مثل جنوا وفلورنسا والبندقية ، قد إشتغلت بالتجارة ، والنقل ، منذ العصور الوسطى ، والحروب الصليبية ، مع موانى شرق وغرب البحر المتوسط ، ووصل نشاطها التجارى إلى البحر الأسود ، وتعاونت مع موانى مصر والشام ، فى نقل التجارة

العالمية التى كانت تصل إليها من الشرق الأقصى ، إلى بقية بلاد أوربا . ولقد ساعد ذلك على زيادة الثروة لدى أبناء المدن الإيطالية ، وبشكل ساعد على إنتشار العملة ، وظهور المصارف ، والشركات ، وعمليات التأمين ، أى ساعد على إزدهار النظام الرأسمالى ، ورغبته فى الحصول على حرية عملة ، وحرية حركته ، حتى فى تعامله مع « الأعداء » ، ورغم مراسيم البابوية ، وتوجيهات أمراء الإقطاع وأوامرهم . وستعمل أرستقراطية المدن فى خط يختلف تماماً عن أمراء الكنيسة والإقطاع . وسيكون هذا التحول الإقتصادى ، الذى يتمثل فى ضعف الكنيسة والإقطاع من ناحية ، وإزدياد أهمية الرأسمالية المتاجرة من ناحية أخرى ، سبباً فى قلب الموازيين السابقة ، وبشكل يعلن ميلاد عهد جديد ، إبتداء من التجارة ، ومن الموانى ، وفى إيطاليا ، لكى يمتد تأثيره بعد ذلك إلى كل أوربا ، من غربها ، إلى شرقها .

وأما من **الناحية الاجتماعية** فلا يمكننا تناسى أهمية طريقة حياة التاجر ؛ ذلك أن الأرباح كانت تتضاعف أمامه مع سرعة دورة رأس المال . وكان يحقق ربحاً كلما عمل على تحويل مادة أولية إلى سلعة ، أو كلما باع سلعته ، مهما كان وقت البيع قصيراً ؛ وذلك بعكس الفلاح الذى كان عليه أن ينتظر نضج المحصول ، وسلامته من الأوبئة والكوارث الطبيعية ، ويصلى لله أن يرزقه حتى يتم نضج المحصول بعد ستة أشهر ، لكى يقتسمه مع السيد الإقطاعى . وكان الفلاح يعمل فى أرضه من شروق الشمس لغروبها ؛ أما التاجر فى المدينة فعمله أقل صعوبة ، ولديه من الوقت ما يسمح له بالتحدث والقراءة وحتى التنزه ؛ فزاد إهتمامه بحياته أكثر من الفلاح ؛ وكانت لديه فى المدينة وسائل الراحة والمتعة والجمال .

وكانت **طبيعة الاهالى** فى إيطاليا ، ومنذ أقدم العصور ، تحب الحياة والجمال والتمتع ؛ وإذا كانت الكنيسة قد فرضت عليهم نوعاً معيناً من السلوك والأخلاق خلال العصور الوسطى ، إلا أنها كانت مستعدة للعودة إلى طبيعتها المنطلقة ، مع

أول تغير للظروف . وكان الإيطاليون لايحبون الحرب ، ويتركون هذه المهنة للمرتزقة ، من الألمان والسويسريين . ولقد ساعدهم الرخاء الاقتصادى، وتشجيع الأمراء ، مع جمال الطبيعة ، وشعورهم بمجد روما القديم وآثارها الحضارية ، على المشاركة فى التذوق ، وفى الخلق والإبداع .

أما من **الناحية السياسية والمعنوية** ، فكانت إيطاليا هى **مهد الحضارة الرومانية** وكانت مليئة بآثار هذه الحضارة وتراثها ؛ وكان الايطاليون يشعرون بأنهم خلفاء الرومان ، الذين سيطروا على العالم ؛ وعادت أنظارهم إلى آثار الرومان ، تستوحى منها ، ثم انتقلت إلى آثار اليونان ، والتى كانت تتمثل فى أقاليم لهم فيها نفوذ إقتصادى وسياسى ؛ ومن الآثار تعمقوا فى التراث والمخطوطات لكل من الرومان واليونان فى العصور القديمة ، وتأثروا بها ، وظهر تأثيرها على أدبهم وفنهم وفكرهم .

وساعد على ذلك **تمتع إيطاليا بالسلام** لفترة طويلة ، الأمر الذى أعطى للايطاليين المناخ الذى يسمح لها بالدراسة والتذوق .

وتميزت **بقيام حكومات مستنيرة فى المدن** ؛ وأخذت هذه المدن فى منافسة بعضها ، تشجيع الآداب والفنون ؛ وحكمتها أسر قوية كانت أشهرها أسرة مديتشى فى فلورنسا ، وأسرة فيسكونتى التى سيطرت على ميلانو ، وأسرة بورجيا التى حكمت أملاك البابوية . ورغم أن حكم هذه الأسر كان إستبداديا ، إلا أنهم عملوا على تشجيع العلماء والأدباء والفنانين ؛ وكان بلاطهم مليئاً بكل من ينتج ويبدع وينبغ .

وكانت هى **مقر البابوية** ، وقبلة العالم المسيحى الغربى ، الأمر الذى كان يثير إعتزاز الايطاليين بها . وكانت الكنيسة من القوى المضادة للتقدم ، وللتطور ؛ ولكن نزولها إلى ميدان السياسة العلمانية ، والتوسع الإقليمى كإمارة ودولة ، وصراعها مع الإمبراطورية ، أدى بالتالى إلى ضعفها ؛ وزاد من هذا الضعف

إنتشار الفساد فيها ، الأمر الذى سهل مهاجمتها . ولقد أثرت الكنيسة من مواردها المالية من كل أوربا ، وأخذ بعض البابوات المستنيرين ينفقون على نشر العلم وإنشاء المكتبات وجمع المخطوطات وإقتناء الكتب وبناء الأكاديميات ، وجمع القطع الفنية ، والعمل على تجميل مدينة روما . وأخذوا ينافسون أمراء إيطاليا فى رعاية العلوم والفنون والآداب، وكان العلماء والفنانون يقصدونهم ؛ وإشتهروا فى التاريخ بإسم بابوات النهضة ؛ ومن أشهرهم نيقولا الخامس الذى وضع أسس مكتبة الفاتيكان ، فى منتصف القرن الخامس عشر ؛ كما أخذ البابا ليون العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) فى البدء فى إنشاء كنيسة القديس بطرس .

٣ — احياء الدراسات القديمة :

كان إحياء الدراسات القديمة ، أو إحياء التراث العالمى القديم ، من أهم مظاهر النهضة الأوربية وخصائصها . ولقد رأى البعض أن إتجاه الإيطاليين إلى منابع الحضارة القديمة ، اللاتينية والاغريقية ، وأخذهم عنها ، هو الذى عمل على تغيير العقلية الإيطالية والأوربية ؛ ولكن الواقع أن هذا التغيير كان قد وقع قبل ذلك ، وهو الذى عمل على توجيههم إلى إحياء الدراسات القديمة . ولقد كان التراث القديم معروفاً أثناء العصور الوسطى ، وحفظته الكنيسة ورجال الدين ، ومع ذلك فلم تشهد أوربا خلال العصور ذلك الأدب أو الفكر الحر، الذى وجد فى مطلع التاريخ الحديث . ولا جدال فى أن العقلية الأوربية قد تغيرت أولا نتيجة لبدء الحركة العلمية ، ونتيجة لتغير طريقة حياة الناس ، التى إستندت بدورها إلى أسباب عميقة تتعلق بالانتاج وتبادل السلع ، وهذا هو الذى أدى بالتالى إلى الإقتناع بضرورة تغيير ما تعودوه ، وإتجاههم إلى التراث القديم .

وكان إحياء الدراسات القديمة يقوم على أساسين : الأول هو الأساس اللاتينى ، والثانى هو الأساس اليونانى أو الاغريقى .

وكان العقل اللاتينى قد تميز بصفات مستمدة من ظروفه الخاصة وكان اللاتين

أو الرومان قد قضوا فترة كبيرة من تاريخهم فى صراعات داخلية ، وصراعات خارجية ، حتى انتصروا ، وتكونت لهم عقلية خاصة ، منعتهم من الاشتغال بالكلام والمناقشة والشك ومحاولة التجديد ؛ وجعلتهم أميل إلى المحافظة على القديم ، وأكسبتهم صفات العزم والقوة وحب النظام الدقيق المحكم ، فكانوا صارمين ومحددين .

أما **العقلية اليونانية القديمة** ، فهى تمثل ذلك الشعب الصغير المبدع ، الفنان والخلاق ؛ وقد تميزت بحب الجمال ، الذى أعتبر على أنه حاسة سادسة لديهم ؛ وحب الحرية ؛ فهم لا يرضون بالاستبداد ، حتى إذا جاء من عند الآلهة ، الأمر الذى دفعهم إلى الاعتقاد فى أكثر من إله ؛ وتميزت بحب الصراحة والصدق ، وأخذ الأمور كما هى ، والنظر إلى الحب . فى صوره المختلفة ، نظرة واقعية ؛ كما تميزت بالنزعة الانسانية ، ونظرتهم إلى الناس نظرة موضوعية ؛ وتميزت بتعدد الجوانب والميول والاهتمامات .

وسارت عملية إحياء التراث القديم على **مرحلتين** : الأولى لاتينية رومانية ؛ والثانية يونانية إغريقية .

أما **المرحلة الاولى** ، اللاتينية الرومانية ، فكان من الطبيعى البدء بها ، وبخاصة فى ايطاليا ، وحيث كانت آثار الرومان ماثلة أمام الأهالى فى كل مكان ، وحيث كانت اللغة المتعارف عليها بينهم هى اللاتينية ، رغم ما أصابها من ضعف فى عصر بداية التاريخ الحديث . وجاء الاسر البابلى ، ووجود البابوات فى أفنيون ، لكى يسمح بظهور حركات سياسية ، تطالب بإعادة إنشاء الجمهورية الرومانية القديمة ، كمثل أعلى تهفو إليه النفوس . وكم من خطبة ألقيت ، أشارت إلى الأمجاد والآثار الخالدة ، والتى تدل على العظمة ، فى كل مكان . وحتى إذا كانت هذه الحركات لم تنجح ، إلا أنها عادت إلى لغة شيشرون وقيصر ، وإلى فلسفة سنيكا . وأدى ذلك إلى أن رجع للغة اللاتينية صفاءها القديم ، وتعصبها

بعض الكتاب ، مثل بترارك ، الذى أعتقد أن أحسن ماكتبه هو القصيدة المسماة « إفريقية » ، والتى كتبها باللاتينيـــة ، رغم أن كتاباته التى ستخلد هى التى كتبها بالإيطالية . وامتنع بترارك عن قراءة الكوميديا الإلهية ، التى كتبها دانتى ، حتى لايتأثر بأسلوبها . ولقد أظهر جميع الأدباء المعاصرين اهتماماً كبيراً باللغة اللاتينية ، وأشاد دانتى بفضلها ومقامها .

وفى هذا النطاق ، أهتمت الكثير من الأسر الايطالية بتتبع أصولها التاريخية ، وافتخر دانتى بأنه من سلالة ترجع إلى عهد أغسطس ، وتسمى الناس بأسماء لاتينية ، وكتب بترارك رسائله باللاتينية إلى شخصيات العالم القديم . كما نشأت مدارس ، فى القرن الرابع عشر ، لتعليم اللغة اللاتينية الصافية ، والخالية من الألفاظ الغريبة . واتجه الايطاليون إلى الآثار الرومانية القديمة ، وأحسوا بأنها رمز العظمة ؛ وعبر بعض الشعراء عن ذلك ، ووجد من البابوات من عنى بالدراسات الرومانية القديمة ، مثل بيو الثانى الذى تخصص فى الآثار القديمة ، وأصبح من كبار المتخصصين الشغوفين بتخصصهم ، وكان ينتقل بينها باحثاً ودارساً ، وأنفق الأغنياء أموالا طائلة على انشاء مبانى على الطراز الرومانى القديم .

أما **المرحلة الثانية** ، فكانت هى اليونانية الاغريقية ؛ وكان من الطبيعى أن يؤدى الإهتمام بالدراسات اللاتينية الرومانيـــة إلى الوصول إلى الاهتمام بالتراث اليونانى الاغريقى ، وهو التراث الأقدم . وإذا كانت دراسة اللغة اليونانية قد اضمحلت فى غرب أوربا ، إلا إنها كانت موجودة فى بلاد اليونان وبيزنطة . وكان من يرغب فى الدراسة يذهب إلى القسطنطينية ويتتلمذ فيها على أساتذة التراث اليونانى القديم ، كما انتقل بعض الأساتذة من بيزنطة إلى ايطاليا ، وكان البعض من بينهم يفضل البقاء فيها ، واستقر بعضهم فى فلورنسا فى أواخر القرن الرابع عشر . وكان بوكاشيو **Bocaccio** يمثل الفريق الاول ، الذى ذهب الى القسطنطينية ؛ وكان كريزولوراس **Chrysoloras** يمثل الفريق الثانى . وكان

إمبراطور بيزنطة قد أرسل كريزولوراس يطلب مساعدة الايطاليين ضد هجمات الأتراك العثمانيين على القسطنطينية . وعرفه علماء فلورنسا . واتصلوا به بعد عودته لبلاده وطلبوا منه العودة وتدريس اللغة اليونانية القديمة فى مدينتهم ، فعاد واستقر بها ، وانشأ فيها مدرسة خاصة لهذه الدراسات ، ووصلت إشعاعاتها إلى غيرها من المدن . وزاد مجىء العلماء والأساتذة من القسطنطينية إلى المدن الايطالية، منذ أوائل القرن الخامس عشر، وجاء سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين لكى يساعد على هجرة العلماء إلى إيطاليا ، الأمر الذى كان موجوداً من قبل ؛ وأدى ذلك إلى ازدهار الدراسات اليونانية القديمة فى ايطاليا فى ذلك الوقت .

ولقد نظر أهل العصر للتراث اليونانى نظرة جديدة ، تخالف نظرة أهل العصور الوسطى ؛ الذين كانوا قد نظروا إلى الفلسفة اليونانية نظرة دينية ؛ ونعرف أن أصحاب المذهب المدرسى Scolastic فى العصور الوسطى نشروا فلسفة اليونان بما يناسب التفكير الدينى ، وجعلوا الحياة على الأرض فترة مؤقتة لا قيمة لها ؛ وعلى العكس من ذلك نظر الناس فى عهد النهضة نظرة جدية للتراث اليونانى القديم ، وتقدم هذه الحركة **الانسانيون** الذين جعلوا الإنسان محور العلم والفن والأدب ؛ وكانوا يشبهون السفسطائيون ، فى التاريخ اليونانى القديم ، وهم أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ؛ وهدموا الموجود ، وتشككوا فيه، وجعلوا الإنسان محور الوجود . وكذلك عمل الإنسانيون ، ونظروا للفلسفة اليونانية نظرة جديدة ، وفسروها على أساس أن الحياة على الأرض لها قيمتها ، بجانب الحياة الروحية . وكان الانسانيون يحاضرون الناس ، ويتنقلون من بلد لآخر ، ونجحوا بثقافتهم فى التأثير فى المستمعين . وكان الإنسانى خطيباً ودارساً ومعلماً ، وكان يخطب فى الجند ، ويقوم بزيارات وسفارات بين الدول ، ويكتب رسائل سياسية ، ويخطب فى الجماهير ، واشتغلوا أساتذة فى الجامعات ، وندماء

للأمراء . وكان الأهالى يتقاطرون عليهم من كل جانب .

ولقد إعتمدت هذه الحركة على دراسة **المخطوطات القديمة** . وكانت الأديرة والكنائس تضم أعداداً من المخطوطات . وزادت الرغبة فى الإطلاع عليها فى إيطاليا ، والبحث عنها فى البلاد المجاورة ، فى سويسرا والامارات الألمانية . وأسهمت الأسر الكبيرة فى المدن الإيطالية فى تمويل البحث عن المخطوطات ، وشرائها وإقتنائها ، أو نسخها أن تعـذر ذلك ؛ وأخذت هـذه العملية شكل منافسة بين هذه الأسر فى هذا الميدان . واتجهت الانظار إلى بيزنطة ، بحثاً عن المخطوطات اليونانية القديمة ، ونشأت تجارة هامة فى هذه المخطوطات ، قبل سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين ، وسارت جنباً إلى جنب مع حركة طلب العلم فى القسطنطينية ، ومجىء عدد من علماء بيزنطة للتدريس أو للإقامة فى مدن ايطاليا ؛ وكانت كل منهما تسهل وتكمل عمل الأخرى ؛ وانتهى الأمر بإنتقال عدد كبير من المخطوطات اليونانية من القسطنطينية إلى المدن الإيطالية . ولقد ترتب على ذلك عملية نسخ المخطوطات والكتب ، وظهر فى ذلك العصر جيش من النساخ ، وخاصة من الألمان ، عكفوا على نسخ الكتب القديمة ؛ وساعد الأغنياء والأمراء والبابوات على نمو هذه الحركة .

ولقد تنافس الأمراء ، والأثرياء ، والمدن فى **إنشاء المكتبات** التى ضمت المخطوطات والكتب وبعض قطع الآثار وروائع الفن ، فزاد عددها فى ايطاليا ، وكان من أشهرها مكتبة البندقية ، ومكتبة فلورنسا ، ومكتبة الفاتيكان التى إهتم بها البابا نيقولا الخامس ، وجمع لها مجموعات ضخمة من المخطوطات والكتب .

وإرتبط بهذه الحركة **نشأة المجامع العلمية** ، والتى أسهمت فى نشر الدراسات اللاتينية واليونانية ، وكانت تشبه حلقات البحث ، التى تجمع الأساتذة بعد المحاضرات مع طلاب العلم ، ويشترك فيها المجموع ، فى نقاش علمى ، سواء أكان ذلك فى الفلسفة أو الأدب أو الفن . وأنتشرت هذه المجامع فى كثير من مدن

ايطاليا ، وازدهرت ، واشتهرت بكثرة المشتركين فيها ، وبخاصة فى فلورنسا ، نتيجة تشجيع أمراء أسرة مديتشى لها ، واستضافتهم لإعضائها فى قصورهم ، وكانت تميل إلى التخصص فى الفلسفة اليونانية . أما أكاديمية روما فكانت أكثر تخصصاً فى التاريخ والآثار ، وكانت أكاديمية نابلى متخصصة فى الآداب ، وأكاديمية البندقية متخصصة فى الدراسات اليونانية .

ولقد ارتبط بذلك أمر البحث عن الاثار ، والاهتمام بها ودراستها ، والكتابة عنها ، وزاد الاهتمام بالفن القديم .

كما زاد الاهتمام بالدراسات التاريخية ، وخاصة مع ازدياد ملكة النقد ، وظهور النقد العلمى التاريخى. ونتيجة لذلك قام لورنزو فالا بإثبات بطلان « هبة قسطنطين » للبابوات ، وكان البابوات قد استندوا إليها فى صراعهم مع الأباطرة ، لإثبات حقهم فى السلطة الزمنية ، إذ أن هذه الهبة كانت تدعى أن قسطنطين منح البابوات الحكم الزمنى فى ايطاليا عندما نقل عاصمته إلى القسطنطينية . وظلت هذه الفكرة مسيطرة طوال العصور الوسطى ، واستخدمها البابوات لإثبات إدعاءات لهم . ولكن لورنزو فالا أبان أن هذه المنحة لم تثبت تاريخيا ، فليست هناك أى عملة بابوية تحمل ذكرى هذا الحادث الهام ، كما أنه لم يتوصل إلى وجود الوثيقة الأصلية الأولى ، التى حدثت بمقتضاها هذا المنحة ، إن كانت قد حدثت ، وكان كل ماوجده هو بعض الكتابات التى تذكر هذه الهبة ، وهى مليئة بالأخطاء . وهكذا أوصلت روح النقد التاريخى لورنزو فالا إلى ثبات بطلان وتزوير هذه الهبة .

ولقد أسهم عدد من البابوات فى حركة احياء الدراسات القديمة ، مثلهم فى ذلك مثل الأمراء والأغنياء . ونذكر منهم نيقولا الخامس الذى عين لورنزوفالا سكرتيراً له ، بعد أن أثبت بطلان « هبة قسطنطين » ؛ وبيوس الثانى الذى عنى بدراسة الآثار ، وبولس الثاني الذي عني بجمع العاديات والتحف ، وليون العاشر ،

وكان من أسرة مديتشى، وهو الذى جعل البابوية أمارة تعيش فى ترف وبذخ وتمتع.

وأخيراً ، فإن هناك الطباعة ، التى كانت خير معين على إنتشار الدراسات الانسانية . وكان حنا جوتنبرج الألمانى قد أدخل تحسينات على الطباعة ، ودخلت الطباعة إلى إيطاليا سنة ١٤٦٥ ، قبل دخولها فرنسا وإنجلترا واسبانيا . وكان أصحاب المطابع رجالا مثقفين ، ومتعمقين فى الدراسات القديمة ، والآداب والنقد . وساعدت المطبعة على زيادة عدد الكتب المتداولة ، وفى إخراج جميل متقن ، الأمر الذى سهل القراءة والإطلاع وتوسيع آفاق الفكر .

ولقد ارتبط كل ذلك بظاهرة إهتمام الناس بالمجد ، وعملهم على تخليد ذكرى الأشخاص ، والاهتمام بكتابة ترجمات للشخصيات وإقتبس الناس من الدراسات القديمة ، وإستمدوا منها عنصر الجمال لتغذية عقولهم ؛ ثم حولوا أن ينافسوا القدماء فى آثارهم ، فأثر ذلك على عنصر الخلق والإبداع لديهم ، سواء أكان ذلك فى نطاق الأدب أو السياسة أو الفن .

وظلت اللغة اللاتينية هى لغة العلم ، ولكنها لم تعد هى لغة العلم الوحيدة ، اذ وجدت إلى جوارها اللغات الأوربية الحديثة ، التى شاركتها فى شتى نواحى التفكير الانسانى ؛ وأصبحت اللغات الأوربية خصبة وغنية ، وكسبت من التراث القديم المرونة والقدرة على التعبير .

٤ - ظهور اللغات الحديثة :-

منذ عهد الدولة الرومانية القديمة ، وفى وقت إزدهار الأدب اللاتينى ، كانت هناك لغة لاتينية عامية إلى جانب الفصحى ؛ ولم تكونا لغتين مستقلتين ، بل كانتا من أصل واحد. ومع مرور الزمن ، حافظ الادباء والكتاب على إختيار ألفاظهم وأساليبهم ، بينما أهمل العامة الاسلوب ، وحتى قواعد النحو ، فزاد ظهور الاختلاف بين اللغتين . وتأثرت لغة العامة بالألفاظ المحلية والاقليمية ، وزاد الاختلاف والفوارق بين اللهجات العامية واللغة الفصحى ، حتى تطورت هذه اللهجات إلى

إلى لغة ثانية ، هى اللغة العامية ، التى أصبحت مستقلة عن اللغة الفصحى .

وعندما إتسعت الدولة الرومانية القديمة ، وشملت مساحات واسعة من أوربا ، توغلت اللاتينية العامية إلى جانب اللغة الفصحى بين الشعوب التى خضعت للحكم الرومانى ؛ وإختلطت اللاتينية العامية باللهجات العامية لدى هذه الشعوب ، كما إختلطت بلهجات البرابرة عندما أغاروا على أملاك الدولة الرومانية . ومن هذا الخليط اشتقت اللغات المختلطة ، والتى تسمى اللغات الرومانسية ، والتى هى اللغات الفرنسية والاسبانية والبرتغالية والرومانية والايطالية . وهى تعتبر على أنها لغات شقيقة .

ونلاحظ أن الأدب الإيطالى قد تأخر فى ظهوره عن باقى الآداب الأوربية ، وحتى عن تلك التى استخدمت لغات شقيقة ، خاصة وأن كل من فرنسا ، وحتى إنجلترا ، كتبت آدباً خاصة بها منذ العصور الوسطى . وكان ذلك يرجع إلى أن إيطاليا كانت هى مهد التراث اللاتينى القديم ، الأمر الذى إحتفظ بها مرتبطة به ، غير قادرة على التخلص منه ، على عكس المناطق الأخرى التى كانت اللغة اللاتينية قد دخلتها مع غزوات الرومان . كما أن أحوال إيطاليا السياسية خلال العصور الوسطى حرمها من الاتجاه إلى الآداب ، وأجبرها على الانصراف إلى الحياة اليومية والعملية ، وفى ظل الكنيسة ، والدراسات التى كانت تشرف عليها ، دون غيرها وأدى كل ذلك إلى تأخر ظهور الأدب ، وتبلور اللغة الايطالية ، عن غيرها من اللغات ، حتى الشقيقة .

ولقد مر تطور الأدب الايطالى فى مراحل مختلفة . ففى أثناء القرن الثالث عشر دون الايطاليون أشعارهم باللغة الفرنسية ، وكذلك باللغة الايطالية العامية ، متأثرين فى ذلك بشعراء إقليم بروفانس ، فى فرنسا . وكان ذلك يلاقى قبولا من الأهالى . وفى وسط ايطاليا ساعدت حركة القديس فرانسيسكو على انتشار أناشيد كتبت باللغة الايطالية العامية . أما فى جنوب إيطاليا فان حكم الامبراطور فردريك ساعد كذلك على نشأة «مدرسة صقلية» . الذى كتب شعرها كذلك باللغة الايطالية

العامية ، وإن كان يصف الشجاعة والفروسية ، ويتميز بالجفاف .

وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر نشأت فى فلورنسا وبولونيا مدرسة تسمى « المدرسة الانتقالية » ، أفادت من شعر صقلية ، ومن البيئة الجديدة ، خاصة وأن لهجة توسكانيا كانت أقرب اللهجات إلى اللغة اللاتينية ؛ وعمل ذلك على تنقية اللغة العامية السائدة فى الجنوب ، من الكثير ، وعلى صقلها . وكانت لمنطقة توسكانيا مكانة متفوقة فى الفن والتجارة والسياسة ، فعالجت لغتها الكثير من عناصر الفلسفة والأخلاق والدين والعلم . وستعبر هذه المدرسة ، منذ القرن الثالث عشر ، عن معانى العاطفة ، مع جويدو جينزيللى ، الذى كتب أشعاره باللغة العامية ، فى منطقة توسكانيا فى وسط إيطاليا .

أما المرحلة الثالثة ، فهى مرحلة مدرسة الشعر العذب الحديث ، التى ظهرت كذلك فى منطقة توسكانيا ، ونشأت فى فلورنسا ، وعبرت عن العواطف ؛ واشتهر من كتابها جويدو كافلكانتى Guido Cavalcanti وتشينو دابستويا Cino Da Pistoia ثم برونتو لاتينى Brunetto Latini والذى يعتبر شعره تمهيداً للكوميديا المقدسة التى كتبها دانتى اليجييرى . والمهم ، هو أن للكتابة فى الأدب والشعر قد اتجهت صوب الكتابة باللغة العامية الايطالية ، متجهة فى ذلك من الشمال إلى الوسط والجنوب ، ثم إلى الوسط ، فى توسكانيا من جديد . وكان ذلك هو خط ميلاد اللغة الايطالية الحديثة ، كلغة قومية فى شبه القارة الايطالية ، التى عملت اللغة والعواطف والمشاعر على توحيد أهلها أكثر من نظم الحكم فى ذلك الوقت . وستخلد اللغة الايطالية بما قدمته للحضارة من تراث ، ومنذ ذلك الوقت .

٥ - الفنون الجميلة :

كما قام الايطاليون بمجهود كبير ، وفعال ، فى ميدان إحياء التراث القديم ، نبغوا كذلك فى ميدان الفنون الجميلة ، وأعطوا للانسانية ثمرات فنية لها قيمتها ووزنها ، بتلك الفنون التى ازدهرت بأيديهم ، فى بلادهم ، وانتشرت منها إلى بقية أنحاء العالم .

ولقد جاء تحرر الفنان وفكره وشعوره ، لكي يحرر الفن من أشكاله التقليدية ؛ وظهر ذلك في فن التصوير والنحت ، في إيطاليا ، ثم فن العمارة كذلك . وتحرر الفن من تقاليد العصور الوسطى ، وإستوحى من الفن الروماني واليوناني في العصور القديمة؛ ورغم بقاء الروح المسيحية ، إلا أنها وامت بين نفسها وبين روح المجتمع الايطالي الجديد . وتأثر الفن كذلك بالحياة العملية ، وسار من الاقتباس صوب الإبداع والإبتكار، كما تأثر بروح العلم، ودراسة جسم الانسان، والتشريح ، ومن دراسة الهندسة اللازمة لفن المعمار . وكانت الظروف مواتية أمام الفنانين ، وسمحت بتفوق الكثيرين من بينهم ؛ فكان هناك ذوق يتجه إلى الجمال ، ويتذوقه ، ويحاول التعبير عنه ؛ وكان هناك جمال الطبيعة وصفاء الجو ؛ وكان هناك التشجيع والتعضيد بالمال من جانب الأغنياء والأمراء للفنانين ، وتنافسهم فيما بينهم لجمع الفنانين حولهم، مثل أسرة مديتشي في فلورنسا ، وأسرة سفورتزا في ميلانو ، والبابوات في روما ، وأسرة أراجون في نابلى . وكان الفنانون يجتمعون حولهم ، ويبنون لهم القصور والقلاع ، وأقاموا الحفلات ، ورسموا الصور المختلفة . وإنتشرت عادة جمع القطع الفنية والتحف بين الناس ، لتزيين منازلهم ، وزاد إعجاب الأهالي بالصور واللوحات التي كانت تزين الكنائس والقصور .

وكان فن التصوير مقيداً طوال العصور الوسطى ، ومقصوراً على موضوعات خاصة ، دينية أو كنسية ؛ وكانت مقيدة في أشكالها ، وأوضاعها وحتى في ألوانها، وبشكل طمس كذلك شخصية الفنان . ولكن الأمر تطور مع النهضة ، وتحرر الفنان وتمكن من رسم الطبيعة ، ومن التعبير عن مشاعره واحساساته تجاهها ، وأفاد من دراسة جسم الانسان والتشريح ، ومن استخدام الألوان الزيتية وتحسينها ، وإستخدام الفريسكو ، الأمر الذى جعل الصور واللوحات تعيش . وأصبح الفنان يعطى إنعكاساً لإحساساته وانطباعاته وحتى لما يدور في عقله وفي

نفسه ، فى الصور التى يرسمها . ولم يهمل الفنان الموضوعات الدينية ، التى سادت فى العصور الوسطى ، ولكنه قرب هذه الموضوعات من الحياة اليومية . وجعل صور العذراء والقديسين تمثل رجالا ونساء عاشوا فى زمن الفنان ، وأصبحت صورهم تعبر عن الواقع وعن الحياة العملية .

ولقد بدأ التصوير فى ايطاليا فى القرن الرابع عشر ، وظهرت بعض مدارس للتصوير فى فلورنسا وسيينا ، وكانت صورها لا تزال تتميز بالجمود فى أول الأمر ، رغم زيادة ظهور جمال الوجه والجسم وبالتدريج إزداد ظهور هذا الاتجاه الجديد ؛ وظهر بعض كبار المصورين ، ومن أشهرهم جيوتو Geotto (١٢٦٦ — ١٣٣٧) الذى كان مصوراً ، ومهندساً معمارياً ، ونحاتا . وكان يمثل بالنسبة للتصوير ، ما كان دانتى يمثله للأدب ؛ وكان صديقاً لدانتى ، الذى أوحى له ببعض صوره . ولقد حسن وسائل التصوير الفنية ، وأدخل إلى الصور عناصر الاحساس والعاطفة وقوة التعبير . ومن أشهر الصور التى رسمها صورة المسيح وقد فارق الحياة ، ومريم العذراء تحمله وهى جاثية ، وحوله بعض القديسات والملائكة ، وقد إرتسمت علامات الحزن والأسى على وجوه الجميع . وهو الذى مهد الطريق لظهور عظماء المصورين مثل ، ليوناردو دافنشى ، وميشيل أنجيلو ، ورفاييلو .

ثم ظهر جيل آخر من المصورين فى القرن الخامس عشر ، وكان منهم ساندرو بوتيتشيللى (١٤٤٤ — ١٥١٠) الذى استطاع أن يوجد التناسق فى الصورة ، واكتمال الجمال فيها ، مع تعبيرها عن الأحاسيس : ورسم العذراء تسير على العشب ممشوقة القوام ، ترتدى ثوباً مزيناً بالورود ، وتحمل طفلا جميلا تبدو عليه الصحة ، وحولها الملائكة ، وكأنهم جميعاً يعيشون العصر الذى رسمت فيه اللوحة .

وظهر كذلك ليوناردو دافنشى Leonardo da vinci (١٤٥٢ — ١٥١٩) ، هو من عظماء رجال الفن فى العالم ؛ وامتاز باتساع الثقافة وتعدد الملكات . وكان مطلعاً على العلم والطبيعة والكيمياء والميكانيكا ؛ كما كان موسيقيا وشاعراً ونحاتا .

ولقد إمتزج كل ذلك فى نفسه ، فمزج العلم بالفن ، وبما أوحت به اليه الطبيعة . ومن أشهر آثاره الفنية صورة « العشاء الربانى » . وهى التى تصور المسيح وحوله الحواريون أمام مائدة عليها الخبز وأقداح الشراب ، وإرتسمت على وجه المسيح تعبيرات الألم والإستنكار للخيانه ، بينما إرتسمت أحاسيس متباينة على وجه كل من الحواريين ، مثل الألم ، والخوف ، والدهشة ، والأستنكار ، والجزع ، والبراءة ، والغضب . ومن أشهر صورة الجيوكوندا ، وهى لسيدة إيطاليا تدعى موناليزا جيرارديني وإستغرق رسم هذه اللوحة أربع سنوات ، وظهرت فيها مفاتن هذه السيدة الوديعة الحسناء ، المحزونة من متعة الحياة ، بعد وفاة زوجها . ولقد خلد ذكرى هذه السيدة برسمه صورتها .

أما ميشيل آنجيلو Michel Ange (١٤٧٥ — ١٥٦٤) ، فقد إشتهر كذلك بتعدد الثقافات ، واتساع الأفق والمعرفة ، وبرع فى التصوير والنحت والهندسة ، ونظم الشعر ، وإشتهر بوفرة إنتاجه ، وتعدد الموضوعات التى عالجها ، والمستوى الرفيع الذى وصل اليه . وسنعود إليه من جديد عند الحديث عن النحت . أما فى التصوير ، فكانت تبدو فى صورة الغموض والخشية من العقاب ، التى وعد بها الآثمون ، وكانت صورة تصدر عن قلبه المتألم كصراخ ، أو أعتراف بما كان يعانى من الألم . وتميزت صوره بوضوح عضلات الجسم البارزة ، وبشكل له دلالة وتعبير .

أما رفائيل أو رفايللو Raphael (١٤٨٣ — ١٥٢٠) ، فيمكن اعتباره أهم الفنانين الذين برعوا فى فن التصوير فى إيطاليا . ورغم أنه قد توفى وهو لايزال شاباً ، إلا أنه أعطى من عبقريته ، وبشكل خلد بها العبقرية الفنية الإيطالية فى فن التصوير ، بما خلفه من آثار فنية رائعة . ولقد إمتاز فنه بالإنسجام والتوازن ، وبقوة الخلق والابتكار ، ولقد اقتبس ، وتأثر ، وخلق ، وأبدع ، وبخاصة فى رسم الطبيعة . ومن أهم صوره عذراء الغراندوق ، نسبة إلى فرديناند الثالث ،

غراندوق توسكانيا ، الذى أغرم بهذه الصورة ، وكان يحملها معه فى تنقلاته . والصورة تمثل السيدة العذراء ، فى شكل إمرأة فلورنسية جميلة ، وديعة هادئة طاهرة النفس ، تحمل طفلا جميلا ، فى صحة جيدة ، هو السيد المسيح . ومن صوره كذلك صورة مدرسة أثينا ، الموجودة فى الفاتيكان . ورغم أن رفاييللو لم يقرأ كتابات أفلاطون وأرسطو ، إلا أنه عاش بين تلاميذه ، وتأثر بهم . والصورة تمثل أفلاطون وأرسطو فى الوسط ؛ وأفلاطون يفكر ، ويرفع إصبعه إلى السماء ، وهو شيخ ، وإلى جواره أرسطو الشاب ينظر إليه ويشير بيده إلى الأمام وإلى الأرض ؛ دلالة على الاتجاه الفلسفى ؛ ويحمل فى يده كتاب الأخلاق . وتشتمل الصورة على بطليموس يحمل الكرة الأرضية ، وفيثاغورث يحمل لوحاً عليه بعض الأرقام . وكان رسم الصورة يستمد من عناصر الحياة الموجودة فى وقت رفاييللو وزمنه . ولا شك فى أن ليونارد دافنشى وميشيل أنجيلو ورفاييللو يشتركون معاً فى إعطاء النهضة فى إيطاليا ، وفى القرن السادس عشر ، أمجاداً ستظل فى طليعة ما قدمه الفنان للانسانية .

أما فن النحت فقد وصل إلى مستوى رفيع فى ذلك العصر ، ولقد تأثر بالفن القديم خاصة وأن كثير من الآثار كانت لا تزال باقية ، وزاد الكشف عن كثير منها . وتأثر الفنانون بهذا التراث ، وأخذوا منه ، ثم أبدعوا بعد ذلك فى تحفهم الفنية .

ومن أشهر رجال النحت دوناتللو Donatello (١٣٨٦ — ١٤٦٦) ، الذى تميز بطبيعته الثائرة ، وبقوة الخلق . ومن آثاره فى النحت تمثال القديس جيوفانى ، الموجود فى فلورنسا ، وهو جالس على مقعد ، وفى ملامح وجهه قوة الشخصية ، وقوة التعبير ، وهو شكل مملوء بالحياة . ومن آثاره كذلك تمثال قائد الجند البندقى جتاميلاتا ، وهو تمثال فارس على صهوة جواده ، والفارس رائع ، والحصان رائع : الفارس تظهر عليه القوة والعزم والسلطة والحياة والنشاط ،

والحصان تظهر عليه القوة والرشاقة . ولا شك فى أن دوناتللو قد مهد الطريق أما ميشيل أنجيلو لكى ينحت بعد ذلك تمثال موسى .

وإشتهر من رجال النحت فى ذلك العصر لوكاديللا دو بيا Luca dèlla Robbia (١٤٠٠ — ١٤٨٢) ومن أهم آثاره نحت تماثيل الأطفال من المرمر، فى برونز، وهم يغنون ويرقصون ويعزفون على الآلات الموسيقية ، وبشكل لم يضارعه فيه أحد إلى مثل هذه الدرجة من الإبداع الفنى .

وأما ميشيل أنجيلو Michel Ange (١٤٧٥ — ١٥٦٤) ، فقد ذكرنا عند حديثنا عن التصوير أنه كان متعدد الثقافات متسع الافق . ولقد إكتشف نبوغة لورنزو العظيم ، فقربه إليه ، وألحقه بمدرسة الفن التى أنشأها بإحدى حدائقه بفلورنسا . ووصل ميشيل أنجيلو إلى مستوى رفيع فى الفن ، وبخاصة فى النحت ، وعبر فى تماثيله عن روح العصر الذى عاش فيه ، وإستمد من المعانى التى أحسها بنفسه عناصر كثيرة ، وعبر عنها أصدق تعبير . فكل الأمانى والأحلام والحزن والمصاعب التى أحاطت بشخصه ووطنه ، ظهرت فى آثاره الفنية ؛ وجعله ذلك فى حالة عصبية ، أعطت آثاره طابعا من الألم والقوة والجمال الرائع . ومن أهم آثاره تمثال الشفقة Pitié ، فى كنيسة القديس بطرس فى روما ، يمثل المسيح فى أمه ، وبين ذراعيها ، بعد صلبه وعلى وجهه تعبيرات الألم ، والحزن واضح على وجه العذراء ، رغم نضارتها وشبابها ، وكانت تتألم بدون دموع . وله تمثال آخر شهير ، هو تمثال موسى الموجود فى أحد كنائس روما . وهو تمثال يبهر البصر، رائع الجمال فى تفاصيله وفى مجموعه وتناسقه ، فى وضوح العضلات وقبضة اليد ، وفى جمال اللحية وطولها ، وفى لفتة رأسه ؛ وملامح وجهه ملامح القوة والانفعال ، والغضب والألم ، لما حاق بشعبه من العذاب . وهو من أروع آيات الفن فى العالم ، إذ أنه تمثال كأنه حى ناطق معبر. ويقال أن ميشيل أنجيلو ، بعد أن أتمه ، صاح به أن ينطق ، ثم سقط مغشياً عليه .

وأما عن **فن العمارة** فإنه كان الفن الجميل الوحيد الذى لم يندثر خلال العصور الوسطى ، وظل قائماً ومزدهراً ، معتمداً على نماذج من الفن القديم ، وبخاصة الفن الرومانى فى إيطاليا ، والفن البيزنطى فى شرق البحر المتوسط ، كما أضاف العرب إليه الكثير ، وأبدعوا وتفننوا فيه . أما بلاد الشمال وشمال غرب أوربا ، فإنها شهدت الفن القوطى ، الذى تطور كذلك وعلى مراحل ، حتى وصل إلى القوطى الجديد أثناء القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، والذى إشتهر بدقته ورقته إلى حد بعيد ، كما يظهر ذلك فى كثير من المنشآت والكنائس الكبيرة . ولما جاءت النهضة ، إنعكس ذلك على فن العمارة ، فأدخلت الخصائص والرسومات التى كان الاغريق القدماء يتبعونها . وظهر هذا التطور الكلاسيكى فى أثناء القرن الخامس عشر ؛ ولازالت الكثير من مبانى وعمائر فلورنسا والبندقية وروما فى ذلك الوقت تشهد لهذا الفن ، حتى الآن .

* * *

وأخيراً فعلينا ألا ننسى أن النهضة الإيطالية ، بما بنيت عليه من حياة حرة ، وشخصيات متحررة ، تقدر الحياة ، وتبعد عن الجمود . تحب الجمال وتنشده وتعبر عنه ، وتسعى إلى التمتع بالحياة الدينوية ، كانت تمثل نمطاً جديداً يختلف عن انماط الحياة فى العصور الوسطى . أنه عصر جديد ، برجال جدد ، جاء نتيجة لتغيرات عميقة فى جذور المجتمع ، وإمكانيات إنتاجه ومعاملاته ، وتغيرات بالتالى فى طريقة الحياة فى المجتمع ، وطريقة التفكير ، والتعبير . وفى الوقت الذى ساد فيه الاهتمام باحياء التراث القديم ، وبالمخطوطات ، والكتب ، والمجامع العلمية والجامعات ، كان هناك النفى السياسى ، والاضطرابات الاجتماعية ، ونمو الثروات ، والتمتع . وزاد إقبال الناس على السخرية والتهكم ، والتنكيت ، والضحك والمرح . لقد كانت النهضة خروجاً على عادات وتقاليد وأخلاق العصور الوسطى ، من أساسها إلى أفرعها وفصولها ، لقد كانت حياة جديدة ، لعصر جديد .

الفصل الحادى عشر

بعض كبار شخصيات النهضة فى إيطاليا

لقد أعطت النهضة لإيطاليا ، مجموعة من الشخصيات العملاقة ، فى شتى ميادين الحياة العلمية والأدبية ، والانسانية ورجال السياسة ؛ وبرزت هذه الشخصيات كأعلام كبيرة ، لا بالنسبة لإيطاليا وحدها ، بل بالنسبة للانسانية جميعها ، وعلى مدار العصور . ونختار عدداً منها فى هذا الفصل ، ومن تخصصات مختلفة ، وإن جاز هذا التعبير ، أو تحت عنوان أكثر الميادين التى تركوا آثارهم عليها وضوحاً : فنختار فى الآداب دانتى أليجييرى (١٢٦٥ — ١٣٢١) ؛ ومن الأمراء لورنزو العظيم (١٤٦٩ — ١٤٩٢) ؛ ومن بين الرهبان والحركات الدينية سافونا رولا (١٤٥٢ — ١٤٩٨) ؛ وفى ميدان السياسة مكيافيللى (١٤٦٩ — ١٥٢٧) .

١ ـ الآداب : دانتى اليجييرى :

كان دانتى أليجييرى (١٢٦٥ — ١٣٢١) شاهداً كبيراً على نهاية عصر من العصور ، وعلى ميلاد عصر جديد .

وولد فى فلورنسا فى شهر مايو سنة ١٢٦٥ ، من أسرة نبيلة ، وماتت أمه وهو طفل صغير ، ثم توفى والده وهو فى سن الثامنة عشر . وكانت أسرته قد قاست من إحتكار كبار الملاك العقاريين ، وإستغلالهم للبورجوازيين الجدد . الذين كانوا قد حضروا من الريف ، وأثروا بسرعة من الصناعات ومن التجارة . ودرس دانتى منذ حداثته التراث اللاتينى القديم ، وتردد على جامعتى بدوا وبولونيا ، ودرس بهما الفلك والرياضة والفلسفة والمنطق وعلوم الدين ؛ وكذلك قرأ الشعر الذى وجد فى إيطاليا فى ذلك الوقت ؛ والذى كتب بالعامية الايطالية . وكان دانتى معتزاً بنفسه ، يميل إلى العزلة والسكون والبعد عن الناس . وسرعان ما ظهرت كفاءته كشاعر شاب ، من بين تلك المجموعة التى حاولت إدخال المزيد

من العواطف والحرية فى فن التروبادور. وألهمه حبه لبياتريس الكثير من الأغانى التى تميزت برشاقتها، والتى نشرها فى سنة ١٢٩٥ فى كتاب باسم «الحياة الجديدة»؛ فظهر كعلم شاهق، يظهر فجأة وعلى غير إنتظار. وستكون كتابات دانتى، باللغة الايطالية، من العوامل المهمة التى جعلت هذه اللغة تستقل بذاتها، خاصة وأن دانتى قد عبر بها عن مختلف الآراء والعواطف الانسانية.

وإشترك دانتى فى الحوادث السياسية التى وقعت فى فلورنسا فى ذلك الوقت، فإشترك فى الحرب بين فلورنسا وبيزا؛ ثم دخل سلك الوظائف؛ ثم أصبح عضواً فى مجلس الشعب فى فلورنسا، ثم أصبح بعد ذلك، وفى سنة ١٣٠٠، عضواً فى السنيوريا، أو مجلس السادة، الذى يتكون من تسعة أشخاص، ويحكم فلورنسا. وكانت فلورنسا تعانى فى ذلك الوقت من الصراع والمنافسة الحزبية؛ ووجد بها حزب «الجلف» البابوى الذى كان يميل إلى أن يسيطر البابا فى إيطاليا وخارجها، وحزب «الجبلين» الامبراطورى الذى كان يناصر الامبراطور على إيطاليا. ثم إنقسم حزب الجلف إلى فرعين متعاديين: البيض، وهم وإن كانوا من الحزب البابوى، إلا أنهم كانوا يؤثرون الدفاع عن فلورنسا ضد التدخل البابوى؛ والسود وكانوا من أنصار الخضوع، مع مدينتهم، لسلطة البابا. وكان دانتى من فرع البيض، وآثر مصلحة فلورنسا؛ ولكن البابا وحزبه لم يغفروا له ذلك، خاصة وأنه أصر على ضرورة عدم إرسال مائة فارس من فلورنسا إلى البابا، للاشتراك فى قواته. وأرسلت فلورنسا وفداً إلى البابا، وكان من بين أعضائه دانتى، وتمت القطيعة بين الرجلين: دانتى يدافع عن كيان فلورنسا، رغم تدينه، والبابا يسعى إلى السيطرة الدنيوية على فلورنسا، وإلى ضمها لممتلكاته. وتمكن أنصار البابا من إحداث إنقلاب فى فلورنسا، سيطر فيه السود على الحكم، ونكلوا بالبيض. وأصدروا حكماً ضد دانتى سنة ١٣٠٢ إتهموه فيه بالفسق والسرقة، وإستغلال السلطه، وإبتزاز الأموال، وإستخدامها ضد البابوية؛ ثم حكموا

عليه بالنفى من فلورنسا . فبدأت حياة النفى والتشرد والغربة والفقر والحرمان ، وكان ذلك سبباً فى إنصهار روحه أكثر وأكثر ، وفى ظهور نبوغه .

وتنقل دانتى فى أنحاء إيطاليا ، وحين زار الامبراطور هنرى السابع إيطاليا سنة ١٣١٠ قابله دانتى وطلب إليه تحرير فلورنسا من نير حكم البابا ، وكتب رسالة باللاتينية إلى أمراء إيطاليا وشعوبها ، ويدعوهم فيها إلى الإنضمام إلى الامبراطور ، ليخلصوا البلاد من طغيان البابا . ولكن أنصار البابا كانوا أقوياء، وتوفى الامبراطور سنة ١٣١٣ ، دون أن يتمكن من عمل شىء . ورفض دانتى أن يعود إلى فلورنسا على أنه مخطء يطلب العفو والغفران ؛ وإستقر فى رافينا من سنة ١٣١٣ إلى أن توفى بالملاريا سنة ١٣٢١ .

ولم يفتقد دانتى ، فى أى وقت من الأوقات ، الأمل فى نشأة نظام مسيحى فى المستقبل . وكتب دانتى جحيمه قبل سنة ١٣١٢ ، والمطهر قبل سنة ١٣١٤ ؛ وكان حينئذ قد أصبح من رجال العقيدة ؛ أما الفردوس ، وكتابه عن « الملكية » فإنها ترجع إلى الفترة الأخيرة من حياته .

ولقد عبر دانتى فى كتابه عن « الملكية » ، وهو الذى كتبه باللاتينية ، عن آرائه السياسية ؛ ونادى فيه بضرورة وجود سلطة زمنية دنيوية ، وسلطة روحية دينية . فيجب أن يحكم شعوب العالم إمبراطور ، ينظم العلاقات بين الحكومات والمحكومين ، وبين الحكومات وبعضها ، دون إلغاء شخصية الشعوب ؛ وذلك فى نطاق إمبراطورية موحدة وكان دانتى لايمانع فى أن تكون روما هى عاصمة هذه الامبراطورية ، ويحبذ أن يكون إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة هو رأسها . وإشترط دانتى عدم تدخل السلطة الدينية ، أى سلطة الكنيسة ، فى الشئون الدنيوية والسياسية لهذه الامبراطورية ، حتى لاتفسدها ؛ وكان دانتى متديناً ، ورأى أن تتفرغ الكنيسة والبابوية للمسائل الدينية ، من توضيح التعاليم المسيحية ، والدعوة إلى الخلق القويم .أى أنه كان ينادى بالفصل التام بين السلطتين

الديفية والدينوية . وتفرغ الكنيسة لأساس رسالتها المسيحية . . وكانت فكرة دانتى التى ترمى إلى توحيد العالم تحت زعامة إمبراطور واحد ، هى فكرة العصور الوسطى ؛ فكأنه كان يعبر عن العصور الوسطى ، رغم أنه عاش فيما بين العصر الوسيط والعصر الحديث .

ويرجع إلى مؤرخى الأدب الإيطالى أن يتبعوا ذلك التكوين البطىء لعبقرية دانتى ، منذ الأشعار الأولى والأغانى ، إلى نثر الحياة الجديدة ، وحتى تلك الرؤية الواضحة والقاهرة ، والتى يختتم بها الكوميديا الآلهية . ويرجع إليهم كذلك أن يحاولوا شخصيته ، وماعاناه ، وهى شخصية يصعب ترويضها ؛ تأثرت بالحب وبصراع الأحزاب ، وبالنفى ، وتأثرت بقراءات واسعة ، ضمت العصور القديمة ، والمسيحية ، وكذلك الإسلام ، بدون أدنى شك . ولقد ظل دانتى مخلصا لتقاليد القرن الثالث عشر ، باعتقاده فى السلطة المزدوجة ، التى أعطاها الله لكى يسير المؤمنون فى طريقى السلام ، والعبادة ؛ أما فكرته عن الله ، وعن العالم ، والرجال ، فقد ظلت هى فكرة مدارس العصور الوسطى ، التى قام بتلخيص فكرها . ولكنه أكمل ذلك باتجاه عقلانى عربى ، أخذه عن إبن رشد ، وأثر فيه ، وبشكل يضعه فى مصاف كبار رجال العقيدة .

وتنقسم الكوميديا الالهية إلى ثلاثة أجزاء : الجحيم ، والمطهر ، والفردوس ؛ وهى تضم مائة أنشودة . أربعاً وثلاثين للجحيم ، وثلاثا وثلاثين لكل من المطهر والفردوس . ولقد أمضى دانتى مايقرب من ثمانية عشر عاماً فى وضع الكوميديا الإلهية ، التى تعتبر موسوعة ، صب فيها شتى أنواع المعارف والسياسة بأسلوب شيق ، وإستعرض فيها المجتمع عبر العصور ؛ حتى يمكننا أن نقول بأنها «الوصية الديفية » للقرن الثالث عشر . ومع ذلك ، ومن الناحية اللغوية والأدبية ، فإن دانتى ، بكتابته الكوميديا الإلهية ، قد ساعد على خلق لغة جديدة ، هى اللغة الايطالية الحديثة ، إذ أنه جعلها قادرة على التعبير عن كل الأمور والأحداث

الأحاسيس ، فأثرى هذه اللغة العامية ، عن طريق تطويعها ، وجعلها لغة غنية ، رقيقة سخية . وساعد إنتشار وتداول الكوميديا الإلهية على أن يحذو غيره حذوه فى الكتابة بهذه اللغة العامية ، التى أحسن إستخدامها ، فكانت نشأة اللغة الإيطالية الحديثة .

٢ - الأمراء لورنزو العظيم :

هو أمير من أشهر أمراء إيطاليا فى عصر النهضة ، وهو من أسرة مديتشى ، وحكم فلورنسا فى النصف الثانى من القرن الخامس (١٤٦٩ - ١٤٩٢) .

وفلورنسا ، حسب إسمها ، هى مدينة الزهور ، ولها مكانة واضحة فى تاريخ إيطاليا ، وتاريخ أوربا ؛ فإعتبروا أنها أثينا عصر النهضة ؛ أو أثينا العصر الحديث . وهى مدينة جميلة ومليئة بالمتاحف والآثار . ويمكننا أن نقول أن فلورنسا كانت أول « دولة » فى التاريخ الحديث ، وإمتازت عقلية أهلها بعمق التفكير ، والبراعة فى النقد ، والقدرة على الإبداع الفنى ، والدهاء فى السياسة . وشهدت فلورنسا تجارب سياسية عنيفة ، مع صراعات وإنقلابات ، بشكل تميز عن بقية المدن الإيطالية ، كما شهدت نشأة نظم حكومية بها « أرقى من غيرها من المدن » . وشهدت فلورنسا صراعاً بين الأحزاب الديمقراطية ، وبين الأوليجاركية ، وكانت بها مجموعات من رجال الطبقة الوسطى ، ونقابات الصناع وأصحاب الحرف . وكانت حكومتها فى بعض الأوقات ديمقراطية ، وفى أوقات أخرى إستبدادية ، وفى غيرها دينية . ووصفها مكيافيللى ، بأنها تشبه الكائن الحى ، الذى ينمو نمواً طبيعياً . ولقد سيطرت العناصر الشعبية على الحكم فى فلورنسا فى أوائل القرن الثالث عشر ، ولكن الحكم الشعبى لم يستمر . وظهرت منافسة بين أسرتين من أسر النبلاء ، فازت فيها أسرة مديتشى . وعمل كوزيمو ، من أسرة مديتشى ، فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ، على إرضاء الشعب ، وحقق فترة من الأمن والرخاء ، وإعتنى بتنشيط التجارة ، وتشجيع

العلوم والفنون والآداب . ثم ظهر الأمير لورنزو العظيم ، من نفس الأسرة ، فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر .

وكان البابا قد حاول إضعاف فلورنسا ، وأعلن حرمان آل مديتشى من الغفران ؛ وإنقسمت إيطاليا نتيجة لذلك إلى قسمين : الشمال وفيه البندقية وميلانو وفلورنسا ، والجنوب ويشتمل على البابوية ونابلى ؛ ونشبت الحرب ، ولكنها كانت فاترة، نتيجة للانقسامات الموجودة داخل كل معسكر ؛ كما أن تهديد الأتراك العثمانيين لإيطاليا وأوربا جاء عاملا هاماً فى إيقاف هذه الحرب. فإستتبت الأمور للورنزو العظيم ، وأخذ يعمل من أجل الاستقرار ؛ وشجع رجال الآداب والفنون ؛ وشيد الكثير من المبانى ؛ وإمتاز بمهارته وحنكته السياسية ، فجعل من فلورنسا مركزاً لحركة النهضة فى إيطاليا وأوربا على السواء .

ومن الناحية الشخصية إمتاز لورنزو العظيم بالذكاء وإتساع الأفق ، وكانت له جوانب متعددة ، وميول مختلفة ومتكاملة . وكان بسيطا متواضعا ، يختلط بالشعب ، ويتصل بالأهالى من كل الطبقات ، ودون أن يفرق بينهم ؛ وكان يجلس على مائدته الغنى والفقير على السواء . وجمع لورنزو الكثير من هذه الصفات التى تجعله محبوبا من الناس ، ومتفاعلا بهم ومعهم ، وفى إحساساتهم وإنطباعاتهم . وكان على سجيته وطبيعته ، حين يشرف على إعداد بعض الحفلات ، وحين يدرس أحد المخطوطات التى ترد إليه من الشرق ، وحين يحادث أميراً أو سفيراً أو أحد رجال الفن ، أو رجلا من عامة الشعب ، وحين يخرج للصيد ، أو لقضاء بعض الوقت فى الريف ، أو عندما يجلس بين أولاده ، أو يكتب لهم قصة أو قطعة موسيقية يتسلون بعزفها . وكان فى كل ذلك رجلا طبيعيا ، يقوم بهذه الأعمال بشكل مألوف . وكان يوزع نشاطه بين هذه النواحى المتعددة . سواء الفن أو التمثيل أو الموسيقى أو قول الشعر ، أو دراسة المخطوطات القديمة ، أو عندما يكون أولاده وأصدقائه .

ولاشك فى أن هذه الحياة البسيطة ، والصريحة ، والحرة ، كانت لاتعجب العناصر التقليدية . وأنصار الجمود والتزمت ، أنصار أخلاقيات العصور الوسطى، بما تحمل من شكل سليم ، وتخفى تحت أستارها الكثير من المفاسد ، المختبئة ؛ فإتهموه بانه قد شجع وحرض أهل فورنسا على الخروج على الشرف والتقاليد وقواعد الأخلاق والدين . ولم يكن لورنزو مسئولا عن سلوك أهل عصره ، ولاعن حريتهم وتحررهم ، ذلك أن عوامل عميقة كانت هى الدافع المحرك فى تطور الانسانية من عصر إلى عصر ؛ ومن مرحلة إلى مرحلة أخرى .وكانت « روح العصر » ، إن جاز هذا التعبير ، هى التى دعت الناس إلى الخروج ، على تقاليد العصور الوسطى ، وإلى طريقة حياة العصر الحديث . ولم يعمل لورنزو العظيم على تحريض أحد ، بل كان هو نفسه ، نتاج عصره بمافيه من تطور . وكانت حيـاة لورنزو الخاصة أفضل بكثير من حياة الأمراء والملوك ، وحتى الاساقفة والبابوات ، المعاصرين ؛ فلم تنسب له أولاد غير شرعيين ، على الأقل ؛ وكان محباً لأسرته ، ولأولاده ، ويسعد بهم ، ويسعدهم ، ولكن بطريقة جديدة ، حرة ، ومفتوحة ، وبدون نقاب .

وكان لورنزو شاعراً ، بفطرته ، يحب الطبيعة ، وذواقاً للجمال ؛ وإستوحى الطبيعة والجمال، كمادة لشعره الرقيق ، الذى وصف فيه الحياة فى توسكانيا ، وجمال طبيعتها وزهورها وطيورها ومراعيها ومزارعها ، وعبر عن كل ذلك باحساس قوى وشعور دقيق . وكان يقيم فى إحدى ضواحى فورنسا ، لأنه كان يفضل حياة الريف ؛ وكان يجمع حوله ، أو تتجمع حوله ، مجموعة من رجال الشعروالفن والأدب ، يقرؤن أشعار القدماء ، من يونان ولاتين ، وكان لورونزو يقرأ الأشعار القديمة ، كما كان يكتب شعره باللاتينية وبالايطالية . وكان لورنزو مليئاً بالتحدث عن ضرورة التمتع بحياة اليوم ، وتذوق الجمال ، فى كل مظاهره . ولقد أنفقت أسرة مديتشى أموالا طائلة على تشجيع حركة العلوم والفنون

والآداب ، وأنفقت فى ثلث قرن من سنة ١٤٢٤ إلى سنة ١٤٦٩ مايعادل ثلاثة ملايين جنيه إسترليني على أرضاء نزعتهم فى تشجيع حركة أحياء العلوم والفنون؛ وكان لورنزو ينفق مايقرب من سبعين ألف إسترليني سنوياً على نفس الغرض . وإعتاد أن يرسل بعثات خاصة للبحث عن الكتب والمخطوطات القديمة، والآثار، وبخاصة فى الشرق ؛ وكون جيشاً من النساخ ، عكفوا على نسخ صور من المخطوطات والكتب النادرة ، حتى يعم إستخدامها والإفادة منها . وأنشأ معاهد متنوعه ومختلفة للدراسات ؛ منها جامعة بيزا فى سنة ١٤٧٢ ، وهى التى أصبحت من أشهر جامعات أوربا . وتخصصت فى الدراسات اللاتينية ، التى عنيت بها . وإهتم لورنزو العظيم كذلك بدراسة التراث اليونانى القديم ، بجامعة فلورنسا ، وأنشأ فى هذه المدينة أكاديمية لدراسة النميات ، أى النقود والأنواط والتراث اليونانى القديم . وإنتشرت هذه الدراسات من فلورنسا إلى بقية أنحاء إيطاليا ، ومنها إلى أوربا ، التى أصبح طلابها وعلماؤها يفدون من فرنسا وإنجلترا وألمانيا إلى فلورنسا للدراسة والبحث والتزود. ومع إهتمامه بالدراسات اللاتينية واليونانية القديمة ، لم يغفل لورنزو الاهتمام باللغة الإيطالية؛ وكانت اشعاره باللغه الإيطالية صدي لأشعار بترارك . ودافع لونزو عن لغة توسكانيا ، وأدرك قيمة العبقرية الإيطالية مسجلة فيما كتبه دانتى ، وبترارك ، وبوكاشيو .

وكان لورنزو العظيم ، مثله فى ذلك مثل عدد كبير من أسرة مديتشى ، يشجع الفنون ، وكان نفسه مصوراً ، وكان يرسم بعض الصور التى تناسب بعض الحفلات التمثيلية ،كما كان يضع التصميات التى يكملها الرسامون . وضاعف لورنزو من محتويات قصر آل مديتشى الفنية ، من روائع فن التصوير والنحت ، وجعله فريداً فى نوعه فى أوربا . ونال معظم الفنانين ، الذين عاشوا عصر لورنزو العظيم ، قدراً من تشجيعه لهم ؛ ومنهم ليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci ؛ أما فنانوا الجيل التالى فكانوا لايزالون صغاراً فى ذلك الوقت ؛ وإختلف كثير منهم

إلى مدرسة النحت التى أنشأها لورنزو فى حديقة قصره ؛ وكانت للورنزو حاسة إكتشاف العباقرة من رجال الفن . فاكتشفت نبوغ ميشيل آنجيلو من حداثته ، وكان يعامله كأحد أفراد أسرته .

ومع إعطاء لورنزو العظيم كمثل ، لا يمكننا ألا أن نقول بأن أمراء إيطالياء وأصحاب السلطة والثروة فيها ، كانوا عنصراً هاماً فى حركة النهضة ، فى ميادين بعث التراث القديم ، وتشجيع الأدب الحديث،وكذلك العلوم والفنون ؛ وأدى ذلك إلى تقديم خدمة كبيرة تمخضت عن خصوبة فى إعطاء تراث خالد للحضارة فى الأدب والفن .

٣ ـ الراهب الثائر : سافونا رولا : ـ

قام سافونا رولا (١٤٥٢ — ١٤٩٨) بحركه تعتبر حركة مضادة لما ساد فى بدء العصر الحديث ، وهى كرد فعل للنهضة ذاتها ، وتحتوى علىعنصرالرجوع للقديم ، ومحاولة فرض قواعد الدين والأخلاق ؛ فهى حركة دينية ، تعمل على أساس أخلاق ، للوصول إلى السلطة السياسية ، وتطبيق قواعد الدين والأخلاق على المجتمع .

ولقد ولد سافونا رولا فى فرارا ، وكان أبوه طبيبا، ولقد شعر منذ طفولته بالوحدة والعزلة ، وكان ساخطاً على المجتمع . وترك اسرته فجأة ودخل الدير فى بولونيا ، نتيجة لفساد المجتمع فى نظره ؛ ثم ترك الدير ، بعد أن وجد فيه بعض المفاسد كذلك ، ودرس فى الجامعة وكان يعتقد أن الناس قد إبتعدوا عن الفضائل وعن الخير ، وأخذ يتنقل بين المدن الايطالية ، إلى أن دعاه لورنزو العظيم إلى الاقامة فى فلورنسا ، وهو لا يعلم ماسيقوم به فى المستقبل فى هذه المدينة .

ولم تعجب أحوال فلورنسا ، فى عهد لورنزو العظيم ، سافونا رولا ، فرأى أنها مدينة تعيش فى الترف والبذخ والثروة ، وأن النبلاء يتمتعون بحياة مادية مترفة ، وأن الشعب يميل للهو والمرح . ورأى سافونا رولا أن أبناء فلورنسا

لا يراعون قواعد الأخلاق والدين ، وأن حفلاتهم قد تأثرت بالروح « الوثنية » .
وأساء كل ذلك إلى سافونا رولا ، كراهب متدين ومتعصب لآرائه ومبادئه .
وكانت روما كذلك تعيش فى بذخ ، وخرجت على قواعد الدين والأخلاق
الصحيحة . أما من الناحية السياسية ، فان سافونا رولا قد رأى أن لورنزو
العظيم قد ركز السلطة فى يده ، وأنه كان يحكم فلورنسا حكماً جمهورياً ، من الناحية
الاسمية فقط ، وأنه قد ركز السلطة فى يديه على حساب الشعب . فأحس لورنزو
العظيم بخطر آراء سافونا رولا ، وبدأ يخشاه ويراقبه .

وأعلن سافونا رولا آراءه عن خطورة تجميع السلطة فى يد الحاكم ، وإنتقد
حياة المجتمع المترفة ، بقوة وصراحة وحماسة ، وأخذ على عاتقه معارضة سلطة
آل مديتشى ، وكذلك إصلاح المجتمع الفلورنسى طبقاً لقواعد الدين والأخلاق.
وأخذ يخطب فى الناس ، داعيا إلى هذه المبادىء ، وكانت كلماته تتدفق ، وأنصت
الناس إليه وإنبهر بعضهم بفصاحته.وكان من بين سامعيه فى ذلك الوقت ميكافيللى ،
إلا أنه لم يوافق على ما كان يقوله.وإعتقد سافونا رولا أنه مرسل من الله، فى مهمة
مقدسة ، وأنه نبى يصرخ فى الفيافى لتنوير عقول الناس ، وتطهير نفوسهم ،
وإرجاعهم إلى أصول الدين .

وتولى بيرو السلطة بعد وفاة والده ، لورنزو العظيم ، وكان ضعيفاً،فزادت
المعارضة ضد حكم آل مديتشى فى فلورنسا ، وأسهم فيها سافونا رولا بقسط
كبير . وزادت دعوة سافونا رولا قوة لاصلاح الكنيسة ، ليس فقط باعتبار
أنها نظام دينى فحسب ، بل باعتبار أنها أساس حياة كل المسيحين ، وكان يقصد
تغيير حياة رجال الدين وسلوكهم ، دون أى مساس بالعقيدة الكاثوليكية ، فكان
بذلك من بين المنادين بضرورة الاصلاح الدينى . ومن ناحية ثانية تعرض
سافونا رولا لقضايا إجتماعيه : فهاجم الربا ، وتحدث عن عدم العدالة فى جمع
الضرائب ، وظلم الفقراء ومحاباة الأغنياء ، وإنتقد فساد الادارة ، والشدة التى

يمارسها الحكام فى المحافظة على سلطتهم ؛ ودافع عن حرية الأهالى ضد إستبداد آل مديتشى . وقام من ناحية ثالثة بالتنبؤ بوقوع « الويل والثبور ، وعظائم الأمور » ، كعقاب وتأديب لإيطاليا وفلورنسا . ولتطهيرها ، وإجبارها على التكفير عن خطاياها .

وقد وقع هـــذا الحادث العظيم بعد ذلك ، فى شكل الغزو الفرنسى لشبه الجزيرة الإيطالية ، عند نهاية القرن الخامس عشر . وكانت إيطاليا منقسمة سياسياً على نفسها إلى وحدات سياسية كثيرة ، وكل وحدة منها ضعيفة عسكرياً ، رغم الثروات المالية الموجودة فيها وإنبثاق نور النهضة فى أرجائها ، الأمر الذى كان يسهل السيطرة عليها فكانت هناك البندقية وميلان فى الشمال ، وفلورنسا وأملاك البابا فى الوسط . ونابلى فى الجنوب . ووضح ضعف الأمير بييرو ، أمير فلورنسا فى ذلك الوقت ، فى أنه ترك التحالف مع ميلانو فى الشمال ، للتعاون معها فى صد الهجوم الفرنسى ، وأخذ يتآمر مع نابلى فى الجنوب ضد ميلانو فى الشمال ، وقت تقدم القوات الفرنسية فى إيطاليا ، فسهل على فرنسا أمر الاستيلاء على ميلانو ، وأصبحت فلورنسا معرضة للغزو الفرنسى .

وقام سافونا رولا ، وخطب الأهالى ، ودعاهم إلى التخلص من العيوب ، وطالبهم بالوحدة والتعاون والتآزر ، لدفع الخطر الأجنبى . وسار شعب فلورنسا ، حين شعر بإقتراب خطر الغزو الفرنسى ، وفر بييرو وآل مديتشى من المدينة . وكتب سافونا رولا إلى شارل الثامن ، ملك فرنسا ، وذكر له أنه مرسل من الله لإنصاف المظلوم ، والإنتقام من الظالم ، وللقضاء على الخطايا والآثام ؛ ونعته بأنه محرر إيطاليا ورئيس الكنيسة !! ثم دخل شارل الثامن فلورنسا ؛ بعد أن إنفصلت عنها بيزا ، ودخلت فى حماية الفرنسيين .

ثم قامت فلورنسا بعد ذلك بحركة إصلاح، وكان سافونا رولا هو الموجه لها. وكان يرى أن الإصلاح ينبغى أن يبدأ من الناحية الروحية ؛ إذ أن طهارة

النفوس ضرورية لإصلاح المجتمع والحكومة.وطبق سافونارولا قواعد الأخلاق والدين ، فمنع تسكع السكارى فى الشوارع ، ومنع المقامرة ، وأحرق أدوات الزينة وأوراق اللعب والصور الخليعة علناً فى ميدان السينيوريا ، وألغى حفلات الكرنفال ، ولم تعد تسمع فى فلورنسا أغانى لورنزو التى كانت تتغنى بأغانى الشباب، وتدعو إلى التمتع بالحياة قبل فوات الوقت ، وإستبدلت بأغانى وأناشيد لتمجيد المسيح . وازدحمت الكنائس بالأهالى ، وتدفقت الأموال على أعمال البر والإحسان . ثم قام بعد ذلك بإعلان المسيح ملكاً على فلورنسا .

أما من الناحية السياسية ، فنجد أن فلورنسا وضعت فى ذلك الوقت ، وبتوجيه من سافونارولا ، دستوراً جديداً . وكان الدستور فى عهد أسرة مديتشى ينص على أن فلورنسا جمهورية ؛ تحكمها بعض المجالس القائمة على أساس نقابات الصناع والحرفيين ؛ أما السلطة التنفيذية فكانت فى أيدى السينيوريا ، وهو مجلس يختار وعلى أساس عضوين عن كل حى من أحياء المدينة . وأراد سافونارولا أن يضع لفلورنسا دستوراً مسيحياً ، مقتبساً فى نظامه من دستور البندقية ، وعلى أساس وجود مجلس يتكون من الأعضاء الصالحين للانتخاب ، والذين كانت أسرهم ، خلال أجيال ثلاثة ، لم تصدر ضدها أى أحكام مخلة بالشرف ، وهذا المجلس ، هو الذى يشرف على اختيار أعضاء السينيوريا .

ولم يكن فى وسع مثل هذه الحركة ، ومثل هذه « الاصلاحات » ، أن تستمر لفترة طويلة . فكان من الصعب إستمرار سيطرة سافونارولا الدينية ، وجعله مدينة فلورنسا مدينة مقدسة ، بالقوة ، خاصة وأن الروح الدينية كانت قد ضعفت فى ذلك العصر ، الأمر الذى لم يكن ليسمح بسيطرة قواعد الدين والأخلاق بنفس الطريقة التى كانت موجودة بها فى العصور الوسطى . كما أن روح النهضة وتحررها ، كانت أقوى من أن تخضع لحماس سافونارولا الدينى ؛ وكانت أغانى لورنزو العظيم لا يزال صداها يتردد فى آذان الناس . وسرعان ما مل شعب

فلورنسا ، الذى جارى تيار سافونا رولا مؤقتاً ، مع أغانيه وأناشيده الدينية ، هذا التيار الدينى ، وتطلع من جديد إلى أغانى لورنزو العظيم ، التى كانت تعبر عن أحاسيسه . كما أن تطرف سافونا رولا وتعصبه لمبادئه الدينية كانت من الأسس التى أدت إلى إنصراف الناس عنه . وأخيراً ، وليس آخراً ، فهناك فشل سافونا رولا فى الميدان السياسى ، الأمر الذى سهل القضاء على نفوذه الدينى ، وفشل الحركة كلها ؛ ذلك أنه كان قد إرتمى فى أحضان السياسة الفرنسية ، وأظهر عداء للبابا . وإعتقد أن ملك فرنسا سيصلح الكنيسة ، ويقر السلام فى إيطاليا . ولكن ملك فرنسا تفاهم مع البابا ، وصفى مشاكله معه . وهكذا ظلت الكنيسة بدون إصلاح ؛ كما أن شارل الثامن لم يرجع بيزا لفلورنسا . وكان هذا فشلا ذريعاً لعملية الإختيار السياسى التى قام بها سافونا رولا .

وعلينا ألا ننسى أن جماعات دينية أخرى ، مثل الفرنسيسكان ، ساهم إستفحال نفوذ سافونارولا ، فناهضوه . وكان هناك كذلك أنصار آل مديتشى ، الذين كان يهمهم عودة الأحوال إلى ما كانت عليه من قبل ، رغم اللون الدينى الموجود مع حركة سافونا رولا ، أو بسببه . وكان كبار التجار ورجال الأموال قد ساءهم إستفحال نفوذ سافونارولا ؛ الذى زاد عليهم الضرائب . وقلل من نشاطهم المالى والتجارى ، فاستاؤا من هذا التعصب ، وقلة الخبرة فى الحياة العملية . وتجمعت كل هذه العوامل ، وإنتهت بإسقاطه ، والقضاء على حركته .

وإستدعى البابا سافونارولا إلى روما ، وأمره بالكف عن الوعظ والخطابة فى الناس ؛ ولكنه لم يستمع لهذا الأمر ، وتحداه ؛ فأصدر البابا قراراً بحرمانه سنة ١٤٩٧ ، وتحداه سافونارولا كذلك . فزاد حنق البابا عليه . وفى ذلك الوقت توفى شـــارل الثامن ، ملك فرنسا ، وخلفه لوى الثانى عشر ، الذى هدد بغزو إيطاليا . وضعف موقف السيفيوريا ، وخشيت من متابعة محافظتها على سافونارولا ، والأخطار تتهددها من كل جانب . ووجدت حكومة فلورنسا

ضرورة إيقاف خطبه ومنعها ؛ ثم أمرت بالقبض عليه بتهمة النبوءة الكاذبة ، والخيانة السياسية ، والعمل على إلغاء الدستور . وتغلبت عليه العناصر المعادية ، وعذبوه . وقرروا شنقه فى ميدان السينيوريا سنة ١٤٩٨ ؛ ثم أحرقت جثته ، فى نفس المكان الذى كان قد أحرق فيه أوراق اللعب والصور الخليعة ، وألقى رماد جثته فى نهر الآرنو .

٤ ــ السياسة : مكيافيللى :

يعتبر مكيافيللى هو المعبر عن الفكر السياسى ، وبالمفهوم الحديث ، عند مطلع التاريخ الحديث ؛ وتمكن نتيجة لتجاربه التى مر بها ، من أن يكون آراءه ، ونظراته السياسية ، عن الدولة ، ونظم الحكم ، وعن الحاكم فى العصر الحديث .

ولقد ولد ميكافيللى فى فلورنسا ، فى شهر مايو سنة ١٤٦٩ ، من عائلة نبيلة ، وتلقى التعليم السائد فى ذلك العصر : فتعلم اللغة اللاتينية ودرس الآثار الرومانية واليونانية ، وكذلك التاريخ . وكان منذ شبابه يحب العيش السهل والتمتع بالحياة . وكان حاضر الذهن ، قوى الملاحظة ، مقدراً لظروف الحياة الواقعية التى عاش خلالها .

وحصل مكيافيللى فى سنة ١٤٩٨ على وظيفة سكرتارية حكومة فلورنسا ؛ وأصبح أحد مستشارى مجلس العشرة ، وكان من إختصاصه بحث المسائل المتعلقة بالحرب ؛ وكان يبدى رأيه فى هذه المسائل ، وقام بعمله بحماس وإخلاص . وسمح له عمله بالقيام بعدة سفارات خارجية ؛ فسافر إلى فرنسا عدة مرات ، وذهب إلى لوى الثانى عشر مرة لكى يطلب إليه مصادقة فلورنسا ، ثم عاد إليه من جديد لكى يطلب إليه مساعدة حربية أمام تهديد البندقية لفلورنسا ، ثم مرة ثالثة لمحاولة إصـــلاح العلاقات بين ملك فرنسا وبين البابا . وذهب إلى روما لمقابلة البابا عندما طلب بعض الجنود من فلورنسا ؛ وسافر مرتين إلى قيصر بورجيا (إبن البابا) لكى يتعرف على نواياه ومشروعاته السياسية فى إيطاليا ، وتجاه فلورنسا ،

وسافر كذلك وقابل الإمبراطور مكسمليان فى منطقة التيرول ، لكى يتعرف على نواياه ضد إيطاليا . وفى كل هذه السفارات ، لم يكن مكيا فيللى مفوضاً لإجراء مفاوضات ، أو حتى محادثات رسمية ، تترتب عليها علاقات محدودة ، بل كان مجرد رسول أو مبعوث للتعرف على نوايا هؤلاء الملوك من الناحية السياسية . ولقد أفاد مكيا فيللى بهذه السفريات ، فإتسع أفقه ، وزادت خبرته . وأدرك مواطن القوة والتقــدم ؛ وخصوصاً التماسك السياسى ؛ ورأى ذلك بنوع خاص فى فرنسا ، وقارن حال هذه البلاد بحالة إيطاليا ، التى كانت مفككة سياسياً ، وضعيفة حربياً .

ولقد حاول مكيا فيللى إدخال بعض التحسينات فى فلورنسا ، خاصة وأنه أدرك خطورة الإعتماد على الجنود المرتزقة ، وعرف أهمية الجنود الوطنيين ، فأنشأ فرقاً مختــارة من الجنود الوطنيين ، وأعدها للحرب . وكانت فلورنسا تفـكر فى إسترجاع مدينة بيزا بالقوة من الفرنسيين ، وفكرت فى تحويل مجرى نهر الأرنو عن بيزا ، لإرغامها على الخضوع ؛ وأشرف مكيا فيللى على هذا العمل ، وبدأ المهندسون والعمال أشغال الحفر ، ولـكن المشروع لم ينجز . ثم هبت عاصفة على فلورنسا ، غيرت من توازن القوى الموجود فيها والموجود حولها .

وكان البابا يرغب فى إجلاء الفرنسيين عن إيطاليا ، وكان على فلورنسا أن تختار بين صداقتها للبابا ، وصداقتها لفرنسا ، حليفتها . ولقد إختارت فلورنسا التمسك بصداقتها لفرنسا ، وأوفدت مكيافيللى لإبلاغ لوى الثانى عشر بتمسك دولته بهذا التحالف من فرنسا . ثم إشتعلت الحرب بين البابا وفرنسا ؛ وتمكن الفرنسيون فى أول الأمر من الانتصــار على جنود البابا ، وحلفائه الإسبان سنة ١٥١٢ ، ولـكن الفرنسيين إضطروا بعد ذلك إلى التقهقر بسرعة حين زحفت قوات البابوية ، وأخذت تستولى على المدن الإيطالية الواحدة بعد الأخرى . وتمكن البابا من إجلاء الفرنسيين عن إيطاليا ، وإن كان قد أحل النفوذ الإسبانى

محل نفوذهم فى شبه الجزيرة . وصمم البابا على تحطيم جمهورية فلورنسا ، فإضطرت فلورنسا إلى ترك محالفة فرنسا ، والأنضمام إلى البابوية وإلى إسبانيا . وطردت أسرة مديتشى مرة جديدة من فلورنسا ، وقررت السيفيوريا عزل مكيا فيللى من وظيفته ثم أمرت بنفيه . وفى منفاه ، أخذ مكيافيللى فى الكتابة والتأليف ، فوضع كتاب « الأمير » ، ثم « مقالات » ، وكتاباً عن « فن الحرب » ، وآخر عن تاريخ فلورنسا .

ولقد عرض مكيا فيللى خدماته على البابا ، كليمنت السابع ، الذى كلفه بإعداد خطة للدفاع عن فلورنسا . ولكن سرعان ما تطورت الأمور ، وهزمت فرنسا فى معركة بافيا (١٥٢٥) التى أسر فيها ملكها فرانسوا الأول . وإضطر البابا إلى مهادنة الامبراطور المنتصر شارل الخامس ؛ أو شرلكان ، ووافق على دفع تعويض كبير . ولكن الجيش الامبراطورى هاجم روما ، وأجبر البابا على الهرب منها . وشهد مكيافيللى عودة أسرة مديتشى إلى فلورنسا ، بعد أن شاهد نهب روما ، وحاول من جديد أن يلتحق بخدمة حكومة فلورنسا ، ولكن وقته كان قد ولى ، ولم تقبل عروضه ، ومات سنة ١٥٢٧ .

ولقد ضمن مكيافيللى آراءه فى السياسة والحكم وفى الدين والحرب فى كتابيه: الأول « المقالات » ، والثانى هو كتاب « الأمير » . وذكر أنه من الضرورى أن يكون منشىء الدولة ، وواضع نظمها وقوانينها ، حاكماً مستبداً بالسلطة ، إذ أن السلطة المطلقة ضرورية فى وقت إنشاء الدولة ، فهذه السلطة المطلقة هى التى يمكنها أن تتغلب على المصاعب التى قد تواجه الأمير أو الحاكم ، فى دور نشأة الدولة ، ووضع نظمها الأساسية . وبحث فى كتاب الأمير أنواع الامارات أو الدول ، وكيفية نشأة الدول ، وإستقرارها ، ثم زوالها ، وأسباب كل ذلك ، وذكر أمثلة من التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى . وبحث فى هذين الكتابين الوسائل اللازمة لإنشاء الدولة ، والوسائل التى يجب على الحاكم

إتباعها لضمان إستقرار الدولة ونموها .

ويرى مكيافيللي أن تكون الدولة مسيطرة ، وتوضع مصلحتها فوق كل الاعتبارات ، ومصلحة الدولة مرتبطة كل الارتباط بمصلحة الشعب ، ومصلحة الشعب مرتبطة كل الارتباط بمصلحة الدولة . ولذلك ، فإنه من حق الدولة ، أن تفعل ما لا يستطيع أن يقوم به الأفراد ، حتى تحتفظ بقوتها . فمن حق الدولة ، لكي تحقق مصلحتها ، أي مصلحة الشعب كله ، أن تقوم بما لا يتاح للفرد الواحد بمفرده أن يقوم به . فلابد إذن من سلطة قوية تسير مصلحة الدولة ، ومن أن يكون لها حرية العمل والتصرف حسبما تقتضي الضرورة والظروف . وهكذا يبيح للحاكم أن يلجأ للقسوة ، والغدر ، والخيانة ، وعدم التمسك بالعهود والقوانين ، وبمخالفة قواعد الأخلاق والدين ، لأن الغاية في نظره مبرر الواسطة ، وذلك لكي يصل إلى الغاية التي يهدف إليها .

ولقد حاول البعض أن ينظر إلى مكيافيللي على أنه يهدم كل القيم والموازين ، ونظر إليه آخرون على أساس أنه لا أخلاقي . ولكن علينا ألا نفصل النصوص التي رآها ونصح بها ، عن موضوع حديثه ، ما دام يتحدث عن ظروف الحاكم ، وعن مصلحة « الدولة » التي تمثل مجموع مصالح الأهالي . وهكذا لم ينصح مكيافيللي باتخاذ أي فرد ، لأي وسائل ، والوصول منها إلى أية أهداف . فليس القتل وسيلة ، الوصول إلى القتل ، ولا للإنتقام ، أو إشباع رغبة الحاكم . وما دام الهدف هو مصلحة الدولة ، وبالتالي الشعب ، فلا ينظر أحد إلى الوسائل التي يتخذها الحاكم مهما إشتملت على قسوة ، ومخالفة للأخلاق والتقاليد ، والعرف ، وحتى إذا ما وصلت إلى الغدر .

وكانت ظروف إيطاليا في ذلك الوقت مليئة بالفوضى السياسية ، والغدر والدسائس ، ومخالفة قواعد الأخلاق ، وكانت محاربة الشر بالشر ، من أجل الوصول إلى حياة هادئة مستقرة فكرة لها قيمتها . فإذا كان هناك زعيم ثائر ، يهدد

بقيام حرب أهلية يروح فيها الكثير من الضحايا ، يسمح للحاكم بقتل هذا الزعيم؛ وبهذا القتل يخلص شعبه من أهوال حرب أهلية . إذا ما بقى هذا الزعيم .

ويتحدث مكيا فيللى عن حفظ العهود ،ويقول أنه إذا كان إحترام العهد ينزل أضراراً بمصلحة الدولة ، فيمكن للحاكم ألا يتقيد به ، ويشرح كيف أن الكثيرين من الناس منافقين وجشعين وناكرين للجميل ، يظهرون الولاء للشخص صاحب السلطة ، ولكنهم سرعان ما ينفضوا من حوله إذا مازالت سلطته . وإذا كانت هذه هى أخلاق الكثير من الناس ، فما الداعى لتمسك الحاكم بوعوده ، ويلحق بحكومته الأضرار ؟

ولم ينكر مكيا فيللى الفضائل ومبادىء الرحمة ، وذكر الكلمة الطيبة والفضائل قد تؤدى إلى النفع أكثر من الشدة . ونصح الأمير بأن يكون مثالا للرحمة والتدين، وأن يكون مثالا للقوة والحزم ، إذ أن الناس يحكمون غالباً بالمظاهر ؛ والأمير الذى يكون حازماً متديناً رحيماً يكون أبعد من التعرض للمؤاخذة ، وللفتن الداخلية ؛ فيجنب بذلك الدولة والشعب أخطاراً كثيرة .

ولقد إعتقد البعض أن مكيافيللى من أنصار الاستبداد والحكم المطلق . ولكن مكيافيللى كان يفضل الاستبداد والسلطة المطلقة وقت نشأة الدولة ، وفى وقت الفوضى السياسية ، فقط . وكان يعتقد أن السلطة المطلقة هى الوحيدة التى تستطيع أن تقضى على الفوضى الداخلية ، وتخرج من حالة الفوضى والإضطراب إلى حالة السلم والإستقرار . ولكن على الحكومة ، بعد أن تنتهى حالة الفوضى، أن تتخذ نظام الحكم الديمقراطى الجمهورى . لأن الحكومة الديمقراطية ، التى تشترك عناصر مختلفة فى إدارتها ، تكون أقوى على البقاء ، وعلى الإستقرار ؛ كما أن تقارب الآراء المختلفة ، وإشتراك العقليات المتنوعة فى دولة ما ، كفيل بإعطاء هذه الدولة الحياة المستقرة الناجحة ؛ وهذا النوع من الحكم يعطى الفرصة للتغيير والتطور ، وملاءمة سير الزمن ، إذ أن المجموعة الديمقراطية تكون أقدر على

فهم حاجات المجتمع الذى تحكمه ، وتستطيع بتنوعها أن تحدث التغير الملائم ، وهذا على العكس من الحاكم الفردى المستبد ، الذى مها قيل فى صلاحيته وعدالته ، يعجز فى الغالب عن إدراك ما تتطلبه حياة المجتمع المتغيرة ، فالنظام الجمهورى الديمقراطى هو إذن المثل الأعلى عند مكيافللى ؛ أما النظام الفردى الاستبدادى المطلق ، فإنه لم يفضله إلا فى وقت نشأة الدولة ، وفى وقت الفوضى السياسية .

ولقد تكلم مكيافيللى فى كتاب الأمير كثيراً عن قيصر بورجيا ، وهو ابن غير شرعى للبابا إسكندر السادس ، وإعتبره الأمير المثالى . وقال عنه أنه أمير بارع ، مهاب ومحترم ، وغير مكروه من الرعية ، ومطاع من الجند ؛ وكان بارداً ، كفئاً ، صامتاً ، لا أصدقاء له ، ولا حب له . وكثيراً ما كان يجوب شوارع روما متنكراً ، لتفقد أحوال الرعية . وكان قيصر بورجيا قد سيطر على إقليم رومانا ، وإستطاع بالقوة والعزم والحزم والشدة أن يعيد إليه النظام والأمن . وكان بقسوته وشدته رجلا رحيماً ، إذ أنه وضع الاقليم قوانين صالحة ، وعنى بالصناعات ، وخفض الضرائب على التجارة ، مع فلورنسا والبندقية ، وشغل العاطلين ، ومنع نهب القضاة للمتخاصمين ، وخصص أموالا من الضرائب لإصلاح الكثير من الأماكن التى خربتها وهدمتها الحروب . وكان فى أوقات المجاعات يوزع القمح على الأهالى ، ويعطى المحتاجين ؛ فأحبه الشعب وقدر أعماله ، ونظر إلى شدته على أنها رحمة .

ونظر مكيافيللى إلى الدين المسيحى ، على أنه يحض ، على الشجاعة والصبر ، ولكنها ليست شجاعة الفعل الايجابى ، بل الشجاعة التى تجعل صاحبها قادر على تحمل الآلام والتعذيب ؛ وتمجد المسيحية الضعفاء وترفع من شأنهم ضد ظلم الاقوياء ؛ وتصرف البشر عن الحياة الدنيا ، وتقودهم إلى الحياة الأخرى . وكان من الضرورى ، من أجل وجود المواطن ، أن يقبل الناس على العمل ، والنشاط

على الأرض ، وأن تكون الشجاعة هى المثابرة على العمل ، وإحترم القوة ، وفى هذه الحياة ، لا فى الحياة الآخرة. هكذا إمتد فكر مكيافيللى من تعاليم الكنيسة فى العصور الوسطى ، إلى تعاليم ما قبل المسيحية ، تعاليم روما وأثينا القديمة ، حتى وإن كانت وثنية .وقال إن على الفرد ألا يستسلم ويتراجع أمام العقبات ، بل عليه أن يكافح ويناضل لكى يتغلب عليها . ونظر إلى الدين على أنه أداة هامة فى أيدى الحكومة ، يمكنها من أن تجعل الرعية تقدر سلطة الحاكم ، وتشد فى نفس الوقت عن عزيمة أفراد الشعب .

ولقد أدرك مكيافيللى تماماً أهمية القوة الحربية للدولة ، وضرر إستخدام الجنود المرتزقة ، لأنهم لايقاتلون بحماس ، ولا يدافعون عن المصلحة ؛ فرأى ضرورة إنشاء قوة من الوطنيين المدربين ؛ وأنشأ ، حين كان من المسئولين فى فلورنسا ، مجموعة من الجنود الوطنيين ، وعنى بإختيار الجنود والقواد كما عنى بتدريبهم ، وزود المشاة برماح طويلة ، للدفاع عن أنفسهم ضد الفرسان . وعنى بالمشاة أكثر من عنايته بالفرسان ، ولم يقدر أهمية الأسلحة النارية التى كانت قد ظهرت فى ذلك الوقت . ولقد كتب آراءه الخاصة بهذا الميدان فى كتابه عن « فن الحرب » ، وشرح فيه فنون الحرب ، وتنظيم المعسكرات ، وإختيار أماكنها ، وطرق تدريب الجند ، ومنعهم من شرب الخمر . وكان يرى أن الجندية يجب ألا تكون مهنة أو حرفة ، بل تكون واجباً يفرض على كل قادر على حمل السلاح . ويتم جمع الجيش حين تتعرض الدولة لخطر ، أو عند الضرورة الحربية . وإذا زالت هذه الضرورة أوذلك الخطر،ينصرف المحاربون إلى مهنهم واعمالهم المعتادة.

ورأى مكيافيللى أن الدولة تحتاج إلى المال ، حتى تكون قوية ، ويجب ان تكون الدوله غنية حتى تقدر على تحقيق مصالح الشعب . ولكنه رأى افضلية أن يكون الشعب فقيراً ، إذا أن الفقر يحفزه إلى العمل ، وإلى الانتاج . واعتبر أن

أكبر أعداء الدولة هم من يعيشون على أرباح ثرواتهم ، دون أن يؤدوا عملا ، كالتجارة والصناعة . وكان يرى ، بالتالى ، ضرورة إلغاء طبقة النبلاء لأنها طبقة كسوله ، غير منتجة . ودعا مكيافيللى إلى الاعتدال فى المصروفات العامة ، حتى تستطيع الدولة أن تحقق أكبر نفع للشعب ؛ كما دعا إلى ضرورة تنمية وجوه الإيراد والثروة ، بالعمل ، وعارض الضرائب المرتفعة التى ترهق الشعب . وكان المال مهماً لتجهيز الجنود ، والدفاع عن الدول .

ولقد عبر مكيافيللى أصدق تعبير عن الظروف والفترة الزمنية والمجانية التى عاشها ، واستمد آراءه من البيئة التى وجد فيها ، وبحث فى السياسة كعالم واقعى ، لا كرجل أخلاق .

الفصل الثاني عشر

النهضة فى بقية أنحاء أوربا

لقد إنبثق نور النهضة ، تاريخياً ، أول ما إنبثق فى شبه الجزيرة الإيطالية ؛ ورجع ذلك إلى ظروف وأسباب ، جغرافية ، وإقتصادية ، وإجتماعية، ومعنوية ، كما شرحنا فى الفصول السابقة . وكان لهذه الحركة مظاهرها وخصائصها.وعملت أو دلت ، على تغيير طريقة الحياة ، وطريقة التفكير ، وتذوق الفنون ، وحتى طريقة خلقها له .وكانت حركة نهضة مظهراً هاماً لتحول حياة البشر، والانسان، عبر العصور التاريخية . وكان من الطبيعى أن يستمر ظهور هذه الظاهرة ، فى بقية أنحاء أوربا ، وفى توافق مع العوامل الإقليمية ، إن جاز هذا التعبير ، وقت ظهور وتبلور الملكيات الحديثة ، كظاهرة نهضة ، توائم بين نفسها وبين الظروف المادية والمعنوية الموجودة ، وتظهر فى المجالات التى يمكنها أن تظهر فيها ؛ وبالتالى أن تأخذ أشكالا مختلفة ، ومظاهر معينة ، فى كل إقليم من الأقاليم . ولكن علينا أن نقرر أنه رغم هذه الأشكال المختلفة من إقليم لآخر ، لحركة النهضة فى أوربا ، أو هذه الظواهر المتباينة ، فانها كانت جميعاً ترجع إلى نفس الأسباب ، ونفس الأصول ، المادية والمعنوية المتاحة ، لكى تسترفى حركة إنسانية متكاملة .

١ - روح النهضة الايطالية :

لقدكان من الطبيعى أن تبدأ النهضة الأوربية من إيطاليا ، بآثارها ،وموقعها الجغرافى ،وإتصالها ببيزنطة،ونتيجة لإتصالات تجارها ،وعملهم فى البحر المتوسط والبحر الأسود والشرق الأدنى . وكان من الطبيعى أن يصل هذا التأثير إلى بقية أنحاء أوربا ، نتيجة لإتصال تجارها بكل هذه المناطق ، والتعامل معها ، ثم نتيجة لجذب هذه الحركة لعدد من المريدين والمعجبين ، الذين وجدوا لديهم الوقت

للتزود من مناهل هـذه الحركة الانسانية ، والثقافية والحضارية ، وكنتيجة لسماح ظروفهم لهم بالسير فى هذا الاتجاه . كما أن عدداً من الفنانين الايطاليين ، والانسانيين ، والمتعمقين فى الدراسات الانسانية ، إنتشروا فى أرجاء أوروبا ، وخاصة الوسطى والغربية وتركوا لهم آثاراً هناك .

ويمكننا أن نستشهد فى نطاق الفنون الجميلة والنحت ، بالفنان توريجيانو Torregiano الفلورنسى، الذى أنفق الجزء الأخيرة من حياته فى إنجلترا وإسبانيا، وصمم فى إنجلترا مقبرة وستمنستر ، وصمم فى إشبيلية تمثال العذراء . وإذا كان من الانجليز من لم تسنح لهم فرصة القيام برحلة إلى إيطاليا ، يشاهدون أثناءها تمثالا من نحت دوناتللو أو ميشيل آنجيلو ، فانهم يستطيعون تذوق نفس الشيء من زيارتهم لكنيسة وستمنستر ، حيث يستحوذ على إعجابهم قبر هنرى الثامن ، الذى صممه . وسيسود فن العمارة الايطالى ، بأسسه الكلاسيكية ، جميع ربوع أوروبا ، وبخاصة معظم كنائسها ، أثناء القرن السابع عشر . وقبل ذلك ، وأثناء القرن السادس عشر ، كان الايطاليون يبنون كنيسة القديس بطرس الجديدة فى روما ، وإمتد طراز عمارة النهضة من روما وغيرها إلى بقية أنحاء أوروبا ، وشجع الملوك والأمراء على تطبيقه ، قبل رجال الكنيسة . فتغيرت حصونهم السابقة ، أثناء القرن السادس عشر ، إلى قصور خلوية ، وخارج المدن ، تتمشى مع المتعة والتمتع بالحياة وبالطبيعة ، أكثر من مسايرتها لضرورات الدفاع والتحصن . وهكذا بنيت قصور فونتينلو ، وإيزاى ، وهاتفيلد ونول ، لتدل على بداية حياة جديدة ، لها أسلوبها وطعمها المختلف عن الماضى . وهكذا حلت القصور محل قلاع الأمراء والنبلاء الاقطاعيين ، وحل حب المتعة والرفاهية محل الخوف من المهاجمين ، وإستخدام وسائل التحصن والدفاع ، أمام المهاجمين .

أما فى مجال الأدب والدراسات الانسانية ، فمها ذكر النقاد عن الانسانيين الايطاليين ، وأنهم أقد إستندوا إلى السطحية والضحالة ، فلاشك فى أنهم هم الذين

مهدوا الطريق لإكتشاف المعنى الحقيقي لجمال العالم القديم ، في إيطاليا ، وفي بقية أنحاء أوربا ، التي عرفت أفلاطون ، من جديد ، بفضل الحركة الإنسانية التي ظهرت في إيطاليا . وكان هذا يمهد الطريق للمستقبل ، وللفكر ، وللمعرفة ، بالنسبة للانسانية .

ورغم أن أمراء أوربا كانوا يرغبون في أن يصلوا إلى ما قام به أمراء إيطاليا ، من جمع المخطوطات ، وبناء وإنشاء المجامع العلمية ، وتشجيع حركات البحث والنقاش ، والأدب والشعر والفن ، إلا أنهم ، في غالبيتهم ، لم يوافقوا على الطريقة التي تحول بها البابوات إلى حكام علمانيين ، يوسعون ممتلكاتهم على حساب جيرانهم . وزاد ظهور ذلك لدى « المثقفين » وكانوا أصلا من رجال الدراسات الدينية ، الذي أكدوا ثقافتهم بدراسات إنسانية . وكان الخطر العثماني واضحاً على البلقان ، وعلى شبه الجزيرة الايطالية ، وبخاصة على ممتلكات البندقية ، وحتى على أقصى جنوب شبه الجزيرة . وكان إنصراف عدد من البابوات ، إلى مسايرة ومنافسة أمراء إيطاليا في طرق وأساليب حياة النهضة ، مع إنصرافهم ، وقلة فاعليتهم في ميدان الحياة المسيحية ، مثيراً للسخط عليهم ، وبدرجة تفوق خارج إيطاليا ، ما كانت عليه في شبه الجزيرة الايطالية .

كما أن تطور الأمور في إيطاليا ، أدى إلى تغيرات سياسية لها قيمتها ، بين الأمراء ، فبعد إستيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وافق أبناء البندقية على عقد صلح معها العام التالي ، إستمر حتى سنة ١٤٦٣ ، حين وقع صراع بينها ، خرجت منه البندقية وقد فقدت سواحل دلماشيا والمورة ، وأجبرت على دفع جزية سنوية للسلطان . ولقد حاول نبلاء البندقية وأبناء أرستقراطيتها تعويض ذلك على حساب ميلانو وفرارا ونابلي ؛ وأدى ذلك إلى إثارة أطماع فرنسا ، بالتالي ، ضد البندقية . ومع ذلك فلا يمكننا أن نتناسى أن البندقية أتمت بناء كنيسة القديس مرقس في سنة ١٤٨٤ ، وأنها جاءت مثالا حياً للفن .

البيزنطى ، بعد وقوع بيزنطة فى أيدى العثمانيين ؛ وجاءت نصباً أصيلا شاهداً للفن البيزنطى ، وذكرى لأمجاد بيزنطة . وكانت البندقية هى المدينة التى تبنت الطباعة الحديثة قبل غيرها ، وعملت بذلك على نشر التراث الانسانى القديم ، فى إيطاليا وغيرها ، وبشكل دفع بالطباعة إلى الأمام ؛ وكانت الطباعة من أهم وسائل إنتشار النهضة فى أوربا .

وكانت إيطاليا هى التى بدأ منها إنتشار رقة المشاعر ، الذى بلغ حتى حد إقفال الحوانيت فى المدن لسماع أحد الشعراء يروى أشعاره . ولقد إنتشر ذلك من إيطاليا إلى غيرها من الأقاليم والدول الأوربية ، والتى كان النبلاء فيها لايزالون يتمتعون بالغلظة والشدة ، كما كان عليه الحال فى فرنسا ، التى لم يتغير نبلاؤها إلا نتيجة تأثرهم بالنهضة ، وفى عهد فرانسوا الأول . وهكذا تأثرت الارستقراطيات المحاربة ، فيما وراء الألب ، بهذه المواهب الايطالية ، وهذه الطريقة الجديد للحياة .

وتأثرت أوربا بكتاب مكيا فيللى ، « الأمير » ، كما تأثرت بكتاب كاستيليونى ، « رجل البلاط » ، ولقد نصح المؤلف الثانى بأن يكون رجل البلاط ، علاوة على كونه سياسياً ، رجلا مثقفاً ، ومدرباً عسكرياً ورياضياً ، مع إلمامه بالرسم والفن والموسيقى . ولقد ترجم هذا الكتاب الأخير إلى لغات عديدة ، وأصبح دستوراً لرجل الدولة ، والدبلوماسى ، عبر عصور طويلة .

وعلينا أن نذكر أن النهضة لم تؤثر فى البلقان ، ولا فى الدولة العثمانية التى سيطرت عليه فى ذلك الوقت ؛ كما أنها لم تؤثر فى روسيا ؛ وذلك رغم رسم أحد البنادقة لصورة للسلطان محمد الفاتح ، وضعت فى قصر السلطان ، ورغم بناء الروس للكرملين فى موسكو ، وأخذهم خطوطه من ميلانو . فكانت هذه المناطق لاتستجيب ، ولأسباب عميقة ، لحركة النهضة الأوربية .

ومنذ ذلك الوقت ، ونتيجة لإنتشار روح النهضة من إيطاليا إلى بقية أنحاء أوربا ، أصبح العالم أكثر إهتماماً بنثر فرنسا ، وشعر إنجلترا ومسرحياتها الدرامية ،

وموسيقى ألمانيا ، منه بكل ما إشتملت عليه البندقية وفلورنسا من آثار وفنون .

٢ ـ النهضة فى فرنسا :

مرت فرنسا ، فى الوقت الذى ظهرت فيه النهضة فى إيطاليا ، وبفترة صعبة فى تاريخها ، بعد الحروب الطويلة ضد إنجلترا ، وما خلفته من خراب ودمار فى كل مكان . وكانت الدولة ضعيفة ، والأمراء يتصارعون على السلطة ؛ فلم يكن فى وسعهم الإلتفات إلى الفنون « الإيطالية » ، ولامسايرتها ، أوأن يشجعوا رجالهم على تقديم فنون واضحة خاصة بهم . ولكن الفرنسيين أصبحوا أكثر تقبلا للفن الايطالى ، حين غزت جيوشهم إيطاليا سنة ١٤٩٤ .

وبعد وفاة شارل السابع فى سنة ١٤٦١ ، وهو الذى خلص فرنسا من نكسات الحروب الطويلة مع إنجلترا ، واصل إبنه لوى الحادى عشر (١٤٦١ — ١٤٨٣) سياسته الخاصة بإنشاء دولة وجيش قوى لفرنسا من بعده . وكان لا يهتم بملابسه ، ولا بمظهره ؛ ولكنه كان من أصحاب المواهب ، ولم يتردد فى قطع رؤوس معارضيه . وكان سياسياً ، يصغى لم يتحدث اليه ، ويجمع المعلومات عن بلاده ، وعن جيرانه ، أصدقائه وأعدائه ومنافسيه . ولقد واجهته أزمات صعبة ، مثل تجمع شارل وريث دوقية برجنديا ، مع دوق برى ، أخوى الملك ، ودوق بريتانى ؛ ولكنه واجههم بحزم وشجاعة ، وإعتمد على باريس لمحاربتهم ، وأرهقهم فى مناوشات طويلة ، وفرق بينهم .

ولقد خدم الحظ ملوك فرنسا ، إذ توفى دوق برجنديا سنة ١٤٧٧ دون أن يعقب ذكراً ، فآلت برجنديا وبيكار دى وآرتوا للعرش الفرنسى . ثم توفى آخر ملوك إكس ، فى نفس الظروف ، فإنضمت مقاطعات مين وأنجو وبروفانس إلى مملكة فرنسا سنة ١٤٨٠ . وأخيراً إنضمت بريتانى إلى فرنسا ، بعد أن توفى دوقها ، دون أن يترك ولداً .

وبعد غزو الفرنسيين إيطاليا ، شجع ملوك فرنسا عدداً من العلماء الايطاليين

وبعض البيزنطيين على المجيء إلى باريس ، لتدريس اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية فيها . ثم زاد ظهور إعجاب ملوك فرنسا بالنهضة ، وأدخلوا إلى بلاطهم الكثير من مراسم وتقاليد الأمراء الايطاليين . ولقد شجع فرانسوا الأول هذه الحركة فى بلاده ،وأنشأ كلية فرنسا Collége de France سنة ١٥٣٠ ، خارج نطاق جامعة باريس ، وعين فيها أساتذة فى الدراسات القديمة . ووصل من حد تشجيعه لرجال الأدب أن لقب بباعث الفنون ، وراعيها .

أما أدواق برجنديا ، فإنهم كانوا قد صنعوا بلجيكا المستقبل ، وعلموا أبناء الفلاندر ، التى هى نواة بلجيكا الحالية ، معنى الاستقلال والوحدة ؛ وجعلوا من بروكسل ، التى كانت مركز بلاطهم ، عاصمة أوربية شهيرة ؛ وساعدوا على نشأة مدرسة من الكتاب والمؤرخين لديهم ؛ وشجعوا الفنون الجميلة نفس تشجيعهم للتجارة . ورغم أن هؤلاء الأدواق كانوا فرنسيين ، فى أصلهم ولغتهم وذوقهم ، إلا أنهم تعلموا اللغة الفلمنكية .

ولقد إنتشر فن النحت والرسم الفلمنكى غرباً ، عبر برجنديا ، إلى فرنسا ، حيث كان له أثر كبير ، وكما أثرت فرنسا فى الفلاندر عن طريق أدواق برجنديا ، أثرت الفلاندر فى فرنسا . ويرجع بقاء بلجيكا حتى الآن فرنسية الطابع ، إلى تلك الفترة التى خضعت فيها لأسرة فرنسية ، هى أسرة برجنديا .

وكان الفن الفلمنكى ، مثله فى ذلك مثل الفن البرجندى ، يستمد أصوله من تراث العصور الوسطى ، ثم تطوروا منه إلى حياة العالم الحديث ؛ واعتمد الرسم عندهم على دقة الملاحظة ؛ وتميز فى القرن الخامس عشر برقة الشعور ، ومراعاة الحقيقة . وكان الفلمنكيون هم الذين اخترعوا الأصباغ ، وأخذ الإيطاليون استخدامها منهم .وجاء الفن الفلمنكى نابعاً من حياة مدن زاخرة بالنشاط والرخاء والازدهار ، مثل فن المدن الايطالية . واستمدوا رسومهم من الحياة ، وفى ألوان مشرقة ، رغم تبلد سماء بلادهم بالغيوم ؛ وآثروا الموضوعات المنزلية ،

وزادوا من اظهار كل تفصيل مألوف . وانتشر تأثيرهم ، كما انتشر تأثير المدرسة الايطالية ، حتى أصبح شمال ألمانيا تابعاً لهم من الناحية الفنية ، عند نهاية القرن الخامس عشر .

٢ - النهضة فى ألمانيا :

واشتهرت المانيا ، فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، بتقدم فى الثقافة والدراسة ؛ وهى الفترة التى زاد فيها سلطان الامراء الالمان بشكل واضح . وقد نشأ فى ألمانيا ، فى ذلك الوقت ، كثير من الاكاديميات ؛ كما ظهرت فيها الطباعة على أيدى حنا جوتنبرج ، ثم انتشرت منها بسرعة فى جميع أنحاء أوربا ، وعرفت بأنها الفن الالمانى .

وكان الجانب الاكبر مما أخرجته المطابع يتصل بالدين ، فى الفترة الأولى ، وذلك نتيجة لكون رجال الدين هم أساس وغالبية الطبقة المتعلمة . وعمل ذلك على على زيادة أهتمام الاهالى بالدين وزيادة أهتمامهم بقراءة الكتب الدينية ومناقشتها ، وذلك قبل أن يتضح ظهور الحركة الفكرية والنقدية فى القرن السادس عشر .

وكانت الكنيسة فى ألمانيا تمتلك ثلث الأراضى الزراعية ، وأصبح رجالها على درجة كبيرة من الثروة ، وظهرت عليهم دلائل الترف والإسراف ، وبشكل لا يعصمهم من الفساد . أما الأمراء فكانوا يحاربون بعضهم بعضاً ؛ وحرمت ألمانيا ، نتيجة للاتجاهات الفردية عند النبلاء ، وعدم وجود سلطة قوية للإمبراطور ، من أن تسير صوب الوحدة ، أو حتى الاتحاد . وفشل الديايت فى الوصول إلى إصلاح دستورى ، ولم يتمكن من إنشاء جيش إمبراطورى دائم ، ولا من وضع نظام ثابت لجمع الضرائب الإمبراطورية ، بعد أن رفض الأمراء والنبلاء العمل مع القوات الامبراطورية . فظلت الإمبراطورية مسلوبة القوة ، وواصل المنتخبون والأمراء الاحتفاظ بالقوة السياسية .

ولكن علينا ألا ننسى هؤلاء الآلاف من عمال المدن الالمان ، الذين بذوا

الكنائس والكاتدرائيات على الطراز القوطى ، وغيرهم ممن أدخلوا تحسينات على الأرغن ، والذين نبغوا فى النقش والحفر على الحجر والخشب والبرونز ، وخلفوا بذلك شهرة عالمية فائقة ، شهدت بمهارة الألمان .

وفى القرن السادس عشر حدث تغير فى ألمانيا ، فازدادت الفقر نتيجة للكشف عن الطرق البحرية الجديدة ، وسادت البلاد فوضى دينية وإجتماعية نتيجة لتحول أذهان الأهالى إلى ضرورة الإصلاح الدينى ، وأصبح الدين لا الفن هو العامل الفعال . وزاد إهتمامهم بكتابات لوثر ، كما زاد إهتمامهم بالموسيقى ، التى سينبغون فيها .

٤ ــ النهضة فى انجلترا :

كانت إنجلترا قد قاست الكثير من حربها الطويلة مع فرنسا ، حرب المائة عام ، وهى التى إنتهت بطرد الانجليز من فرنسا سنة ١٤٥٣ . ولم يمض عامان على نهاية هذه الحرب الطويلة ، حتى بدأت حرب جديدة ، معروفة باسم « حروب الوردتين » . وبعد أن تركت إنجلترا محاولتها إحتلال فرنسا ، عملت على بسط نفوذها على الجزر البريطانية ، وعلى ضرب الاقطاع الموجود داخل الدولة والتوسع فى التجارة ، وإنشاء المستعمرات فيما وراء البحار ، ويرجع الفضل فى كل ذلك إلى حروب الوردتين (١٤٦١ — ١٤٨٥) .

وكان إستمرار الحروب فى إنجلترا من أهم أسباب تأخر ظهور النهضة فيها . وبعد نهايتها ، أخذت الدراسات الانسانية طريقها إلى إنجلترا . وكان هناك بعض الانجليز الذين تزودوا من الدراسات الانسانية فى عدد من المدن الايطالية ، مثل فلورنسا وروما والبندقية ، وبعد أن عادوا إلى إنجلترا ، أخذوا يحاضرون ويدرسون ويشرحون فى اكسفورد ، حتى سموا بإسم « مصلحو اكسفورد » . وساعدت زيارات إرزم لاكسفورد فى سنة ١٤٩٩ ، ثم إقامته فى كمبردج (١٥١٠ — ١٥١٣) ، على إزدهار الدراسات الإنسانية والقديمة فيها .

ولقد حاضر فى اللغة اليونانية القديمة، ونشأت حوله مجموعة إهتمت بهذه الدراسة. وكان من أعلام إنجلترا فى هذا العصر توماس كوليت، والسير توماس مور، اللذان كانا من أصدقاء إرزم؛ وتعاون ثلاثتهم على نشر الإنجيل، حتى يصل إلى يد كل فلاح، وغزال ومسافر. ولقد نادوا بضروة تحرر الفكر الانسانى من تلك القيود التى كانت تفرضها الكنيسة عليه؛ وكانوا متأثرين فى ذلك بروح النقد الجديدة، وطالبوا بضررة إصلاحها.

وأخذت النهضة فى إنجلترا طابعاً دينيا، لخدمة المسيحية، وإختلفت بذلك عن النهضة فى إيطاليا وفرنسا. التى أتجهت اتجاهاً وثنياً؛ وحاولت النهضة فى إنجلترا أن توفق بين الفن والعقيدة، وبين الجمال والدين. ولقد أعطت النهضة فى إنجلترا تراجم لأعلام الفكر القديم؛ كما ترجمت الكثير من الانتاج الأدبى لرجال النهضة الايطاليين، قبل أن تشهد قمة انتاجها الأدبى ما كتبه شكسبيير وجون ميلتون.

وقبل أن ينتهى القرن الخامس عشر؛ كان أحد البحارة من جنوا، وإسمه جون كابوت Cabot قد أقلع، بتصريح من ملك انجلترا سنة ١٤٩٦، على ظهر سفينة من بريستول فى غرب انجلترا، ثم عاد يحمل أنباء هامة عن وصوله إلى أراض فى الجانب الآخر من المحيط الأطلسى. وترجع نيوفوندلاند، أقدم ممتلكات التاج البريطانى، إلى حكم هنرى السابع، الذى رأى أهمية الدور الذى يجب على انجلترا أن تلعبه فى الجزر البريطانية، وفى ارتباطات بلاده الوثيقة بالقارة الأوربية، وفى الآفاق الواسعة فيما وراء البحار، نتيجة لروح المخاطرة التجارية والبحرية الموجودة عند أبنائها.

٥ ـ النهضة فى أسبانيا والبرتغال :

لقد تمثلت روح النهضة فى إسبانيا فى توحيد أراجونة وقشتالة، والتخلص من آخر حكم للمسلمين فى شبه الجزيرة الأيبيرية، متمثلا فى غرناطة. وكان هذا

تمهيداً لروح المخاطرة الأكبر ، والبحث عن المجهول ، المتمثلة فى حركة الكشوف الجغرافية ، والذى وقع عبؤها الكامل على كل من إسبانيا والبرتغال .

وإذا كان كريستوف كولومب قد وصل إلى أمريكا ، فإن مجهودات طويلة كان البرتغاليون قد قاموا بها ، من قبله ، للوصول إلى الهند بالاقلاع جنوباً تجاه السواحل الغربية للقارة الإفريقية ، تمهيداً للالتفاف حول أقصى جنوب القارة ، والوصول إلى المحيط الهندى ، وإلى الهند . وهكذا توصل بحارة شبه الجزيرة الايبيرية ، وبتعضيد ملوكها ، إلى عالم جديد له ثرواته ، وإلى ثروات الشرق الأقصى ، التى أخذوا ينقلونها عبر طريق الرأس إلى بلادهم ، فى غرب أوربا . وهكذا أدت هذه الحركة ، التى نبعت أساساً من النهضة وروحها ، إلى تحول المكاسب المادية الناتجة عن التجارة الدولية من أيدى دول الشرق الأوسط والمدن والموانى الإيطالية ، التى كانت مهد ظهور النهضة ، إلى دول غرب أوربا ، المطلة على المحيط الأطلسى. وكانت هذه نقطة تحول خطيرة بالنسبة لتاريخ البحرالمتوسط والمحيط الأطلسى ، وبالنسبة لتاريخ العالم كله .

ومن ناحية أخرى سنجد أن ظروفاً كثيرة قد أجبرت إسبانيا ، وقت النهضة، على أن تكون من أقوى الواقفين مع الكنيسة الكاثوليكية ،مستخدمة فى ذلك محاكم التفتيش ، رغم أن حركة النهضة كانت قد واجهت ، فكرياً على الأقل ، هذه الكنيسة وتصرفاتها ، وفى كل مكان . وإزدادت صلابة وقفة إسبانيا مع الكنيسة والبابوية ، فى الوقت الذى ظهرت فيه حركة الإصلاح الدينى .

الباب الخامس

الكشوف الجغرافية
وبداية الاستعمار

الفصل الثالث عشر

كولومب والعالم الجديد

بدأت فكرة الوصول إلى الهند عن طريق الغرب فى الإختمار فى رأس كريستوف كولومب بعد أن وقعت فى أيديه « صورة العالم » . وهكذا يمكننا أن نقول أن الأتراك العثمانيين كانوا مسئولين ، بطريق غير مباشر ، عن اكتشاف العالم الجديد ، خاصة وأنهم كانوا قد ساهموا فى اقفال طريق آسيا والشرق الأقصى ، المار فى الشرق الأدنى ، كما أن استيلاءهم على بيزنطة قد تسبب فى خروج عدد كبير من العلماء والأدباء من هذه المدينة وذهابهم إلى إيطاليا ، مما سمح للغرب بمعرفة التراث اليونانى القديم . وترجمت كتب بطليموس فى بولونيا إلى اللاتينية ، وكان يصر فيها على أن العالم مستدير . وطبعت « صورة العالم » وأخذ بعض العلماء الأوربيين يعتقدون فى كروية الأرض . وكان الأوربيون يقرؤن فى ذلك الوقت كتابات ماركوبولو ، ويحلمون ببلاد شيبانجو (اليابان) وكاثاى (الصين) وبلاد الخان الأكبر أو الخاقان ، كما كانوا يقرؤن كتب الجغرافية وقصص الملك يوحنا الراعى . وكانوا يؤكدون وجود أراض وجزر غريبة وعجيبة فى المحيط الأطلسى ، مثل الأتلانتيد ، التى تحدث عنها أفلاطون ، وجزر الأنتيل ، التى التجأ إليها سبعة أساقفة فروا حسب الرواية من « وحشية » المغاربة المسلمين . وكان الأوربيون يروون هذه القصص ، ويشيرون إلى أماكنها على خرائط العالم ، وكأنها موجودة بالفعل . وفى هذا الوقت وفى هذا الجو ظهر كريستوف كولومب البحار وظهر فى جنوا .

(١) كريستوف كولومب

كان كريستوف كولومب شاعراً ومسيحياً وواقعياً فى نفس الوقت . كان

شاعراً لأنه تأثر بالكتابات والروايات المنتشرة فى عصره ، ومسيحياً لأنه كان مستعداً للقيام بحملة صليبية جديدة ، وواقعيا لأنه إعتقد فى أن الأرض كروية ، وأنه يمكنه أن يجد فى الغرب ، ما قام أجداده بالبحث عنه فى الشرق .

ولكن خرائط ذلك الوقت كانت غير دقيقة ، وكانت تقرب المسافات ، كما أن أخطاء أخرى كانت موجودة وراء دوافع كولومب ، فلم يعد هناك خان أكبر ، أو خاقان فى الصين ، ولم يكن هناك يوحنا الراعى فى الهند ، ولا فى غيرها من البلاد ، ولم تكن هناك قارة تسمى الأتلانتيد . ولذلك فان إكتشاف العالم الجديد كان وليداً للصدفة ، ولكنه كان فى نفس الوقت وليداً للرغبة فى الحصول على الذهب والفضة ، التى كان الاقتصاد الأوربى فى أشد الحاجة إليها ، وكذلك الرغبة فى الحصول على التوابل اللازمة للأوربيين . وكان المستكشفون يتميزون بحب المغامرة ، وإذا بعضهم يحلم بأن يعيش معيشة الفرسان فى أوربا ، فانه كان يحاول الوصول إلى ميادين معارك جديدة، وفى آفاق جديدة . وكانت هناك دوافع دينية ، إذ أن الغزاة قد اعتبروا أنفسهم من الصليبيين، وكان كولومب وأنصاره يعتقدون أنهم ينشرون المسيحية ويرفعون الصليب فى بلاد « الكفار » . ورغم تكالبهم على الذهب والفضة والتوابل والملذات الجسدية ، فانهم قد كافحوا كمسيحيين وماتوا كمسيحيين وفى مشروع مسيحى، فى أعينهم وفى أعين العالم كله فى ذلك الوقت . وكان كولومب من جنوا ، تلك المدينة التى تسير فيها الأعمال الرأسمالية ، والمسيحية ، جنباً إلى جنب . وبعد أن فشل فى الحصول على مساعدة ملك البرتغال وملوك آخرين فى أوربا، تقدم إلى ملك أسبانيا وملكتها ، فرديناند وايزابلا ، وذكر لهم أن هدفه الأخير هو تخليص الأراضى المقدسة ، واستخدام الكنوز التى سيعود بها من رحلاته فى هذه العملية . ولقد عينته اسبانيا أميراً للبحر ، ونائباً للملك ، فى كل البلاد التى يكتشفها ، ومنحته الحق فى عشر اللآلىء والأحجار الكريمة والذهب والفضة والتوابل ، وأى سلع يجدها فى هذه البلاد .

وجهز كولومب ثلاث سفن عليها تسعون بحارا ، وثلاثون مسافرا بينهم طبيب وجراح ومترجم وموثق ، وأقلع بها من بالوس صوب جزائر كناريا ، ثم إلى عرض المحيط ، دون أن يعلم أنه بدأ أكبر حركة للاستعمار فى تاريخ العالم . وكانت الرحلة هادئة ،ولكن البحارة كانوا قلقين ، وكانوا يعتقدون دائماً أن هناك أرضاً تلوح على خط الأفق ، ولكن آمالهم كانت تخيب . وطلب مساعد كولومب منه أن يحول اتجاه السير قليلا إلى الجنوب ، بدلا من مواصلة السير صوب الغرب . ولولا هذا التغيير لوصل كولومب إلى فلوريدا ، ولأصبحت الولايات المتحدة الامريكية مستعمرة اسبانية.ولكن كولومب وافق على نصيحة مساعديه ، ووصل إلى أمريكا الوسطى ، التى ستصبح مع أمريكا الجنوبية من مستعمرات الملوك الكاثوليك .

وتأكدت دلائل الاقتراب من الأرض فى اليوم السبعين للرحلة ، وذلك بعد أن شاهد البحارة بعض الحشائش وأحد فروع الاشجار تعوم على وجه الماء، كما شاهدوا بعض الطيور . ثم ظهر الساحل، فاقتربت السفن وأنزلت القوارب ، وقفز منها كولومب على الشاطىء ، وركع وقبل الأرض ، وحمد الله ، ثم أشهر سيفه ورفع علم قشتالة، وأمر الموثق بتحرير وثيقة الاستيلاء على هذه الأراضى باسم فرديناند وايزابلا فى سنة ١٤٩٢ .

ولم يكن هذا الساحل ساحل الصين ، ولا بلاد الذهب ، إذ أن كولومب كان قد وصل إلى إحدى جزر البهاما فى شمال كوبا . أما الأهالى فقد خافوا من رؤية السفن والأشرعة والرجال الإسبانيين ، ثم أخذوا فى الاقتراب منهم لمحاولة التعرف عليهم ، فمنحهم كولومب بعض الخرز والأجراس الصغيرة التى كان قد أحضرها معه . وكان لون الأهالى داكنا ، وأطلق الاسبانيون عليهم اسم الهنود ، وبقى هذا الاسم مستعملا حتى الآن .

وواصل الاميرال حملته من جزيرة إلى جزيرة ، باحثا عن الذهب والتوابل،

والخان الأعظم الذى كان يحمل له خطاب توصية من ملك أسبانيا . وكان الأهالى يدلونه على أن الذهب يوجد عند القبائل المجاورة لهم ، وبدلا من التوابل لم يجد سوى القطن . إلا أنه لاحظ نباتات وشجيرات كثيرة ، يمكن استخدامها فى الصباغة وفى الصيدلة والطب فى أوربا . ثم وصل إلى كوبا ، وسماها جوانا نسبة إلى ولى عهد قشتالة، ثم وصل إلى هاياتى وسماها هسبانيولا ، وبنى فيها قلعة،وترك فيها تسعة وثلاثين بحارا ، كانوا أول المعمرين من أوربا فى العالم الجديد .

وعاد كولومب بعد ذلك إلى اسبانيا التى استقبلته استقبال الأبطال الغزاة ، وهتفت الجماهير باسمه ، وأنعم عليه الملك والملكة . وإذا كان كولومب قد عاد بكمية قليلة من الذهب والجواهر وبعض الببغاوات والهنود الحمر من كوبا ، إلا أنه كان يحمل الأمل فى الاستيلاء على مستعمرة كبيرة ، وليس لها حدود.وسافر كولومب من جديد ، كأمير للبحر المحيط، ونائبا للملك فى الهند. وبلغت رحلاته أربعة ، اكتشف فيها جزر الأنتيل والبحر الكاريبى ، وبحث فيها عن مصب الكنج ، ولكن بدون فائدة .

وظهرت المصاعب أمام كولومب ، ثم ازدادت فى كل يوم . ولقد بدأت هذه المصاعب مع الأهالى ، الذى صعب على الاسبانيين التفاهم معهم ، وصعب عليهم اجبارهم على احترامهم . وكان كولومب يعتقد أنه أتى بالسعادة الأزلية لهم ، وذلك بمنحهم الحضارة الاسبانية، وبتعريفهم على إله المسيحيين . ولم يطلب منهم فى نظير ذلك سوى الذهب ، ولم يعطه الأهالى منه الكثير .

ولقد وجد الهنود أن الاسبانيين قساة القلوب ، وشهوانيين ، فقتلوا كل المعمرين الذين أقاموا فى هسبانيولا ، وكانوا مستعدين لقتل غيرهم ، وبدأت مصاعب كولومب مع الاسبانيين أنفسهم ، وعملت الغيرة والوشاية عملها فى هذا الميدان ، وتمرد عليه بعض الاسبانيين ، ونظر إليه آخرون على انه ايطالى . وخابت آمال كولومب فى البلاط نفسه ، الذى ظهر تردده تجاه

كولومب بعد هذه الوشايات . ونقد الوشاة مشروعات كولومب ، وذكروا أنها تكلف اسبانيا أكثر مما تدر عليها ، وأنه فشل فى العثور على تلال الذهب وشحنات التوابل ؛ فأرسل البلاط حاكماً جديداً للمستعمرات ، وزوده بسلطات مطلقة ، وكان وصوله يعنى بالنسبة لكولومب نهاية رضاء القصر . وسرعان ما كبل الحاكم كولومب بالسلاسل وأرسله إلى اسبانيا . وإن كان الملوك الكاثوليك قد أطلقوا سراحه فيما بعد ، واعترفوا بأنه كان أول غزاة العالم الجديد .

وأخذت المستعمرة فى الازدهار رغم كل ذلك ، ووصل آلاف المغامرين إلى هسبانيولا وكوبا وانتقلوا من مركز لآخر،وأقاموا فى الانتيل فى بورتوريكو، وفى جمايكا ، وفى جزر البحر الكاريبى ، ولم يكن هذا هو العالم الجديد ، وإن كان عالماً جديداً .

ولقد أثار هذا الاستكشاف مشكلة سياسية ، خاصة وأن رو قد أعطت للبرتغال كل الأراضى الواقعة على طريق الهند. فارسل الملوك الكاثوليك السفارات من اسبانيا إلى الفاتيكان ، لكى يشرحوا أن ممالكهم الجديدة هى إنتصار كبير للمسيحية ، ولكى يطلبوا من البابا منحهم هذه الأقاليم.ووافق البابا اسكندر السادس ، وكان اسبانيا ، وأصدر مرسوما منح به ملك وملكة اسبانيا الامتيازات المماثلة لتلك التى أعطاها الملك البرتغال فى اكتشافاتهم الإفريقية . ثم أصدر مرسوما ثانيا لمنع أى طعن من هذا الجانب أو ذلك،وقسم الامبراطوريتين بخط يمر من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى ، على بعد مائة فرسخ إلى الغرب من جزر الخالدات ، وجزر الرأس الأخضر : فأصبح كل ما يقع إلى غرب هذا الخط من نصيب اسبانيا ، وكل ما يقع إلى شرقه من نصيب البرتغال . ولكن برشلونة طعنت فى هذا التقسيم ، ثم تفاوضت وحصلت من اسبانيا ومن البابا على مرسوم آخر ، نقل خط التقسيم إلى ثلاثمائة وستين فرسخا إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر سنة ١٤٩٤ . وحدد هذا المرسوم البابوى لتقسيم العالم ، طرق

الكشوف والاستعمار الموصلة إلى الهند ، وترك الطريق الغربي للاسبانيين ، والطريق الشرقي للبرتغاليين . ولكن أحدا فى روما أو اشبيلية أو لشبونة لم يفكر فى ذلك الوقت فى أن هذا الخط سيقسم القارة الامريكية ، وأنه سيجعل من البرازيل مستعمرة وواجهة برتغالية ، لقارة ستصبح إسبانية . ولم يفكر الاسبان والبرتغال إلا فى الإسراع فى مشروعاتهم ، التى كانت تهدف الهند ، سواء من الغرب أو من الشرق .

أما كرستوف كولومب فانه قد قضى ما بقى له من أيام فى الخيالات ، وأصر على أنه قد وصل إلى آسيا واكتشف سواحلها ، ونزل إلى قارة « الهند » . كما أصر على حقوقه وحقوق ورثته ونصيبهم فى الأرباح ، وعلى ضرورة العمل على تخليص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين . لقد كان يهذى وكان لا يعرف المجد الذى سيسجله له التاريخ . ونقلت جثته بعد وفاته إلى الجزر التى اكتشفها ، والتى كانت وطنه الثالث ، بعد جنوا وبعد اسبانيا .

٣ ـ الامبراطوريات السابقة لكولومب : ـ

ولقد اشتمل العالم الجديد على امبراطوريتين هما امبراطورية الأزاتكة فى المكسيك ، وامبراطورية الإنكا فى بيرو ، فى الوقت السابق لوصول الاسبانيين ، وكانوا قد استعمروا غيرهم قبل أن يقوم الاسبانيون باستعمارهم .

أما امبراطورية الأزاتكة فكانت تمتد من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى ، ومن هضبة المكسيك حتى نيكاراجوا . وكان الأزاتكة قد جاءوا من الشمال فى القرن الثالث عشر ، وانشئوا مدينة فى وسط المستنقعات ، وفى المكان الذى شاهدوا فيه نسراً كبيرا يأكل حية ضخمة ، فاعتقدوا أنها اشارة من ربهم « مكسيتلى » لوقف سيرهم ، وبناء عاصمتهم ، التى ستحمل إسم مكسيكو . وسرعان ما إتحدت القبائل المجاورة أو خضعت ودفعت الجزية . وسادت قوانين الأزاتكة ، وانتشرت آلهتهم فى كل المنطقة . وتحدث الفلاسفة وعلماء الآثار

عن عادات الأزاتكة وما تركوه من قصور ومعابد واهرامات ، وعلينا ألا ننسى وحشية الأهالى فى هذا الأقليم ، وهذا العصر : ذلك أن الأزاتكة كانوا يحبون الدماء ، وكانوا يتركون للفرد حرية اختيار مستقبله، ولكن على أساس إحتفاظ الدولة بحق التضحية به ، وكما ترى ، بمجرد أن تطلب الآلهة تقديم القرابين والضحيات لها . وقام الأزاتكة بذبح عشرين ألف رجل ، وباحراق قلوبهم بعد إنتزاعها من أجسادهم ، كضحية لافتتاح معبد مكسيتيلى. وكان الأزاتكة يسلخون بعض البنات ، وهن أحياء ، فى إحتفالات عودة فصول معينة فى كل عام . أما المجتمع فكان أوليجاركياً فى أول الأمر ، وله مجلس شورى ، وينتخب رئيسين مدى الحياة : الأول لإدارة الأمن وجمع الضرائب ، والثانى لقيادة الجيش وللاشراف على الكهنة . ثم تفوق الثانى ، وكان ينتخب من أفراد أسرة معينة ، وأصبح امبراطوراً وراثياً . وكانت السلطة تمر بعد وفاته إلى أخيه،أو إلى أقرب أقربائه ، من ناحية الأم .

وكان الأزاتكة يعرفون الذهب والرصاص والبرونز ، ولكنهم كانوا يجهلون الحديد . وكانت تجارتهم بدائية وتعتمد على المبادلة والمقايضة ، أو تستخدم بعض قطع القصدير أو النحاس ، أو كمية التبر فى أنابيب من ريش الطيور ، كعملة بدائية . وكانوا لا يعرفون العجلات أو الخيول أو أى دابة من دواب الحمل ، فكان الحمالون يحملون كل ما يرغبون فى نقله ، ويسيرون فى ممرات صغيرة وضيقة ، شقها المساجين وسط الجبال أو الغابات، وكانت نفس الممرات هى الطرق الوحيدة الموجودة فى ذلك العصر ، والتى كان كل من الحجاج والحملات العسكرية تستخدمها . وكان الحج إجباريا ، كما كان يسمح بالإشراف على إستعباد القبائل المهزومة . وأما الحملات العسكرية فكانت تسهل تموين المعابد بالضحايا البشرية اللازمة لارضاء الآلهة.وكانت الإمبراطورية تنقسم إلى عدد من الأقاليم، يتمتع كل منها بالاستقلال الذاتى ، سواء فى الشئون الإدارية أو السياسية .

ولكنه كان يرسل كمية معينة من الضرائب العينية ، من ملابس وحبوب وفواكه ونسور حية وعقود من الذهب ، كما كان يرسل عدداً معينا من الرجال للخدمة فى جيوش الحكومة الامبراطورية . ولقد عاشت امبراطورية الأزاتكة منطوية على نفسها ، ولم تتصل بامبراطورية الانكا ، التى نمت إلى الجنوب منها ، خاصة وأن الجبال والبحار والمستنقعات والغابات والحميات كانت تفصل بينهما .

أما امبراطورية الانكا فكانت قد نشأت فى الأقاليم الإستوائية من أمريكا اللاتينية فى بداية القرن الحادى عشر ، وأصبحت تمثل تجربة تاريخية هامة لإقامة حكومة تعتمد على التوجيه ، وعلى التخطيط ، ولخلق مجتمع منظم فى وسط الفوضى . ولفرض نظام جماعى لشعوب متباينة تضم المزارعين والرعاة .

ولقد تمكن أحد رؤساء قبيلة الانكا ، من السيطرة على الإقطاعيين ، ومن توحيد الهنود الحمر ، ثم واصل خلفاؤه عملية مركزية الحكم من بعده ، وضموا أراضى السادة ، وعملوا على مد الامبراطورية على طول سواحل المحيط الهادى ، بشكل جعل من الهنود رعايا للانكا .

وكان الانكا الأعظم هو رأس التشكيل السياسى لهذه الدولة ، ويعتقد أنه من سلالة الشمس ، ويمثلها على الأرض ؛ وكان يسيطر على رؤساء القبائل ، أو الكاباك ، الذين يشرفون بدورهم على رؤساء الجماعات والموظفين المسئولين . وكانت مجموعات الانكا ، وجماعاتهم تشتمل على عشرة ، أو خمسين ، أو مائة ، أو خمسمائة ، أو ألف رجل . ثم على وحدات أخرى أكبر من عشرة آلاف ومائة ألف . وكان كل شىء يبدأ من الانكا ، وكان كل شىء ينتهى اليه . وكانت الادارة متدرجة متسلسلة ، ومتخصصة ؛ وكان إختيار الضباط والمديرين وكبار الموظفين يقع من بين الكاباك ، ثم يتبع ذلك إختيار القضاة وأصحاب الحوانيت ، ويقوم رئيس العشرة بأعمال الامن العادية . اما الأراضى فكانت ملكا للانكا ، كما

كانت فى مصر القديمة ملكا لفرعون ؛ وكان على الأهالى زراعتها، على أن يقسموا المحصول إلى ثلاثة أقسام : الأول للشمس ، أى للكهنة ، والثانى للدولة ، أى للعجزة والأرامل والأيتام ، والثالث « للمجتمع » ويقسم بين الأسر الموجودة .

وكان العمل إجباريا ، كما كان تنظيم أوقات الفراغ إجباريا كذلك ، وبشكل لا يترك للفردية أى مجال . وكان الإنتاج يركز فى مخازن عامة كما كان الاستهلاك محدداً ومخططاً . وكانت المساكن متشابهة ، وكذلك الوجبات ، من الذرة والبطاطس . وكان التماثل تاما ، والنظام دقيقاً والعقوبات صارمة . وكان هناك تحديد لعدد الملابس ، وللأوقات تناول الطعام،وتحديد لأماكن الإقامة ، ولساعات اللهو والفراغ . وأدى هذا التخطيط إلى تقليل الشخصية والفردية ، وإلى زيادة الطاعة والسلبية .

وكان الأهالى يعرفون صهر النحاس وتشكيل البرونز ونسج الصوف وبناء القصور والمعابد والحصون ، ولكنهم كانوا يجهلون الحديد والعجلات والكتابة . ونجح النظام الشيوعى عند الانكا،وضمن للأهالى حاجياتهم الضرورية ، ومنع عنهم أخطار المجاعات . ورأى بعض المؤرخين أن هذه الإداره العامة الجماعية كانت هى كل شىء ، وقضت على كل شىء فيما عداها . وحتى على الإنسان ، الذى أصبح يمتاز بالكسل والخمول العقلى ، ويرفض التغير والتعديل .

والواقع أن إمبراطورية الانكا قد أخضعت غيرها فى الوقت الذى زادت فيها سلطات رأس دولتها ، عن السلطات التى يتمتع بها رئيس أى دولة شيوعية . وكانت الإمبراطورية تهضم كل إقليم تستولى عليه وتخضعه لها ، ولكنها كانت تترك له آلهته ، فى نفس الوقت الذى تحاول فيه إدخال دياناتها وعبادة الشمس فيه. وكان الموظفون يعملون على تطبيق قوانين الإمبراطورية فى هذه الأقاليم ، كما كانوا يعملون على نقل الأسر والقبائل غير الخاضعة من منطقة لأخرى،حتى يصلوا إلى كسر شوكتها وإذابتها فى النطاق الجماعى .

وقدر العلماء سكان إمبراطورية الانكا بأثنى عشر مليوناً ، وهو عدد يقارب عدد سكان إمبراطورية الازاتكة . أما بقية القارة فكان يعيش فيها بضعة ملايين آخرين ، موزعين بدون حكومات وبدون حضارات هامة . وإزدهرت الحياة المستقرة فى المنطقة المدارية حيث كانت الأمطار تساعد على نمو النباتات ، وحيث كانت الذرة تنبت بالأمطار وبدون زراعة . وكانت معظم القبائل الأخرى شبه مرتحلة ، أو تعمل بالرعى أو الصيد . وكانت هناك بعض مجالس الشيوخ أو الحكماء لإدارة قبائل سكان إليمبا وغابات الأمازون ومراعى الشمال ، وكانت هذه القبائل تعبد أصناما معينة أو أنواعا من الحيوانات ، وكانت تأكل لحم الجاموس البرى ، وتدخن الطباق ، وتعبر الأنهار فى قوارب تنحتها من جذوع الاشجار ، كما كانت تستخدم القوس والسهام . وكان الهنود الحمر بصفة عامة لا يتورعون عن قطع رؤوس أعدائهم بعد الإنتصار عليهم ، ويجمعون هذه الرؤوس أو يعلقونها . وروى كولومب نفسه أنه رأى بعض بقايا حجم بشرى تطهى فى قدر على النار ، وإستند فى ذلك إلى أن الهنود الحمر كانوا يأكلون لحم البشر . فى نفس الوقت الذى يأكلون فيه لحوم الببغاوات .

إذا كان فى وسع الأسبانيين أن يصلوا إلى العالم الجديد ، ومهما إتصفوا به من القسوة والتحكم فإنهم كانوا يحملون الأمانى فى العالم الجديد وسائل حياة ونظم تسمح لهم بتحسين حالهم . فقد كانت الحضارات السابقة لكولومب ، و... المتفرعة منها ، متأخرة عن حضارة أوربا فى ذلك الوقت بألفى سنة . وإذا كان الازاتكة يسلخون القرابين البشرية ، والانكا تنخفض بمستواهم إلى الكسل والسلبية ، وتقوم قبائل البرارى بأكلهم ، فلا يمكننا إلا نرى تقدما واضحاً مع مجىء الاسبانيين ، الذين نزلوا بمستوى كل الهنود الحمر إلى مستوى العبودية . ولكن هل كانت روايات الاسبانيين عن الحضارات السابقة لهم روايات حقيقية علمية ؟ وهل كان من حقهم أن يفرضوا حضاراتهم وطريقة معيشتهم على غيرهم

وبالقوة ؟ وهل كان من حقهم نهب موارد الأقاليم وذهبها وإرساله إلى أوربا ؟

وإذا رضى الأهالى أو ثاروا ، فقد كان عليهم أن يخضعوا لحكم الغزاة ، إذ لم تكن لديهم الوسائل الكافية للصمود أمامهم ، أو للدفاع عن أنفسهم . فقد كان الاسبانيون مزودون بالخيول ، ومهروا فى ركوبها حتى أصبح الفارس وكأنه مرتبط بفرسه، وكانوا مزودين بالبارود الذى يقتل عن بعد ويرعد مثل البراكين ويجعل الأهالى ينظرون اليهم كآلهة . ولقد تفتحت أمريكا للغزو الاسبانى بكل سهولة ، وكان ساحلها الشرقى مملوءاً بآلاف الخلجان وآلاف المصبات والأنهار الصغيرة . وإذا كانت أوربا قد نظرت إلى العالم الجديد كعقبة فى سبيل الوصول إلى الهند ، فان هذه النظرة لا تمنع من كون أمريكا عقبة سهلة، بل ومحطة متوسطة يمكن عبورها والوصول منها ، وبها إلى الهند .

ولقد أطلق إسم أمريكا على هذا العالم الجديد نسبة إلى امريجو فسبوتشى الفلورنسى والذى كان قد إصطحب كولومب فى إحدى رحلاته سنة ١٤٩٩ ، والذى كان من أوائل من وصل إلى القارة الأمريكية . وكان أول من نادى بأن هذه الأراضى الجديدة لم تكن آسيا ، فأصر لوران دى مدسيس على إطلاق إسمه على العالم الجديد . وقام أحد رجال الطباعة بوضع هذا الأسم على الخريطة الذى نشرها على العالم ، رغم أن الأوربيين ظلوا لمدة طويلة يسمون العالم الجديد بإسم الهند .

٣ ـ غزو الهند الغربية :

ولقد إنتهت عملية الغزو كلها فى مدة خمسين سنة ، قام خلالها الغزاة الأوربيون بالإستيلاء على إمبراطوريتى الازاتكة والانكا ، وبإخضاع القبائل ، وبإحتلال ثلثى سواحل القارة . ومهما كان الوصول إلى أمريكا سهلا ومهماً ، وكانت وسائل البيض متفرقة ، إلا أن نجاحهم كان عجيباً ، ذلك لأن بضعة آلاف من الرجال قد تمكنوا من الإنتصار على ثلاثين مليوناً من الهنود الحمر ، كما

إنتصروا على البعوض والزواحف والحميات وثلوج الجبال وشمس المناطق الاستوائية ووحوش الغابات . ولا شك فى أنهم كانوا قد تمرنوا على المتاعب الجسدية، وشحذوا هممهم وعزائمهم فى حروبهم المتصلة ضد المغاربة فى الأندلس، كما شحذوها بشعورهم بالتفوق الحضارى والجنسى على غيرهم ، ولذلك فإنهم كانوا يسمحون لأنفسهم بكل شىء وبدون تردد .

وكان مشروعهم للاستعمار مشروعا عاما وخاصاً فى نفس الوقت : ذلك أنهم كانوا مزودين بمرسوم ملكى وكانوا يحاربون وينتصرون بإسم ملك إسبانيا ولحسابه ، ولكنهم كانوا ينظمون حملاتهم على نفقتهم الخاصة أو لحساب أصحاب رؤوس الأموال المستعدين لتمويل مثل هذه المغامرات . وفى هذه الحالة الأخيرة كانت هناك عقود موثقة تحدد نصيب وحقوق كل من الأطراف المساهمة . وكان هدفهم هو إكتشاف أراض جديدة ، والإقامة فيها بأحقية وأولوية الوصول اليها وحكمها ، وإستغلال الأراضى والمعادن النفيسة ، والمعيشة بألقاب طنانة وبمجد يثير الغيرة والحسد الأكبر سادة قشتالة فى هذا الوقت . ويمكننا أن نذكر هنا بعض الاسماء لقادة الغزو الذين سجلوا أسماءهم فى العالم الجديد ، مثل بالبو وكورتيز وبيزارو. وربما كان الحظ قد ساعدهم أكثر من غيرهم، ولكنهم إستحقوا تسجيل أسماءهم فى التاريخ ، حتى ولو كان ذلك بناء على المآسى التى إرتكبوها فى أمريكا .

أما بالبو فقد بدأ حياته مزارعا فى الجزر ، ولكنه هرب بعد مطاردة الدائنين له ، وإختفى فى أحد البراميل على ظهر إحدى السفن ، ولم يتركه إلا عند رسو السفينة عند برزخ بنما. وعرف هناك أنه يوجد إلى الجنوب مناجم الذهب وبحر آخر . ووانته الفكرة بأن هذا البحر قد يكون بحر الهند ، فسار لمدة عشرين يوما داخل الغابات حتى رأى من أعلى أحد التلال محيطاً كبيراً ليست له من نهاية، فنزل فى الأمواج شاهرا سيفه ، وأعلن ملكية ملك أسبانيا لبحر

الجنوب ، الذى أصبح فيما بعد المحيط الهادى . ولقد عينت إسبانيا بالبو حاكما على هذا البحر ، فنقل أربع سفن ، بعد تفكيكها ، عبر البرزخ ، ثم جمعها ، وكان أول من يبحر على هذه المياه الجديدة .

أما فرديناند كورتيز فكان من طبقة متوسطة، وفشل فى دراسته وذهب إلى كوبا للبحث عن الثروة.وإختاره فاليسكين حاكم الجزيرة لقيادة حملة ضد القارة، وكانت تتألف من إحدى عشر سفينة،وعليها مائة وتسعين من البحارة،وخمسمائة وثمانين من الرجال ، وستة عشر فرساً ، وعشرة مدافع. ونزلت الحملة على ساحل المكسيك حيث أقاموا الصلاة وبدأوا فى الإتصال برؤساء الأزاتكة وأعطوهم بعض الخرز . وعاد الأزاتكة يحملون هديتهم بدون حذر ، وكانت عبارة عن صناديق ملىء بالذهب ، هدية من إمبراطورهم مونتزوما ، وكانت الطامة الكبرى: إذ أن كورتيز قد طلب من الرسل أن يطلبوا من سيدهم الإستمرار فى إرسال الذهب ، وكثير من الذهب ، بدعوى أنهم مرضى بالقلب ، وأن علاجهم لم يكن سوى الذهب . وأسرع كورتيز بجمع عدد من الحمالين من قبيلة كانت قد ثارت على حكم الأزاتكة ، وسار على رأسهم إلى مكسيكو . وتمكنت خيوله ومدفعيته من القضاء على جيش من الهنود بلغ أربعين ألفاً ، وقبل مونتزوما إستقبال الاسبانيين وهو لا يعرف أن كانوا من الرجال أو الآلهة ، بعد أن سمع قصف مدافعهم ، وإلتقت حضارتان عند مدخل مكسيكو ، وكانت كل منهما تتحدى الأخرى . وعسكر أربعمائة اسبانى فى النقط الإستراتيجية من مكسيكو ، وفى قلب إمبراطورية بلغ عدد سكانها إثنا عشر مليونا . ولم يتردد كورتيز فى تحطيم تماثيل آلهة الأزاتكة وفى نصب تمثال السيدة العذراء على المذبح . وطلب من مونتزوما أن يقسم بولائه ، ثم إستولى على أطنان من الذهب من القصر الملكى . وخضعت إمبراطورية الأزاتكة تماما فى مدة سنتين ، رغم أن الأهالى قد قاموا بمحاولات عديدة للدفاع عن أنفسهم،وتمكنوا من إجبار الاسبانيين،فى ظروف

معينة ، على الفرار من العاصمة ، مشيعينهم بصيحاتهم و بالأحجار والسهام . ولكن الاسبانيون عادوا ، وقتل مونتزوما ، وأصبحت إمبراطوريته تسمى إسبانيا الجديدة فى سنة ١٥٢١ .

وجاء دور الانكا بعد الأزاتكة وتم إخضاعهم فى سنتين، وكان قائد العمليات ضدها هو فرانسوا بيزارو ، الذى كان من رجال بالبو فى عملياته الأولى . وكان بيزارو قد بدأ حياته فى أحد المزارع ثم تطوع كجندى ثم كبحار . ولم يكن يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه كان يمتاز بالقسوة وغلظة القلب . وعبر خط الاستواء وعرف أن أحد الملوك الأقوياء والأغنياء يحكم فى بيرو فعاد وشرح القضية لبلاط طليطلة ، وذكر أن بيرو لم تكن إلا ذهباً يستولى عليه ، ونفوساً تطلب الهداية والدخول فى المسيحية . فمنحه البلاط مرسوما بتعيينه قائداً أعلى وحاكما عاما لما سيصبح قشتالة الجديدة فيما بعد وإستند بيزارو الى هذا المرسوم ، وأخذ فى جمع رجاله وتنظيم جيشه الذى وصل إلى سبعة وعشرين فرس ، ومائة وثمانين رجل زادوا فيما بعد نتيجة لوعدهم بالحصول على الأسلاب والغنائم . وعبر الصحراء القاحلة ، ثم القمم المغطاة بالثلوج ، ووصل إلى الانكا وشرح له أن مرسوم البابا قد قسم العالم ، وأن البابا يمثل السيد المسيح فى الأرض، وأنه هو ، فرانسوا بيزارو ، يمثل ملك اسبانيا . ولكن الانكا لم يكن يعرف غير الإله الشمس الذى كان فى نفس الوقت جده الأكبر ، ولم يكن قد سمع بالسيد المسيح ولا بملك إسبانيا ، فالقى بالكتاب المقدس الذى أعطاه له بيزارو على الأرض . فلم يكن من بيزارو إلا أن لوح بمنديله الأبيض، وكانت علامة متفق عليها للهجوم والالتحام . وتصايح الاسبانيون وأطلقوا بنادقهم ومدافعهم ثم هجم الفرسان ، وتبعثر حفل الاستقبال وقبض الاسبانيون على الامبراطور ، وأخذوا يتمرغون على الذهب ويضعون الأسرى فى السلاسل . وقد قبل الانكا أن يفدى نفسه بملء الحجرة التى سجن فيها بالذهب، وحتى إرتفاع تسعة أقدام،

ونفذ وعده . ولكن بيزارو لم يترك الأسير ، وحكم عليه بالتعميد ثم بالقتل ، لا الواحدة أو الأخرى . وأصبح آخر أباطرة الانكا مسيحياً ، ثم خنقه المسيحيون الاسبانيون .

ولم يتحرك شعب الانكا ، خاصة وأنه قد تمرن منذ قرون ، على الطاعة السلبية ، فقبل الموقف الجديد واعتقد أنه غير امبراطوراً بامبرطور آخر . ومد أثنا عشر مليونا ، من العبيد ، أيديهم إلى الأسبانيين . لكى يضعوا فيها السلاسل، كما يقول المؤرخ جان ديكولا .

ولم يكن بالبوو كورتيز وبيزارو إلا أشهر الغزاة . فلقد كان هناك الكثيرين غيرهم ممن تعرضوا للعواطف وللسهام المسمومة وساروا فى الادغال . ولكن هؤلاء كانوا يمثلون الطبقة الأولى من الغزاة ، التى تميزت بحبها للغزو ، وبأملها فى الحصول على كل شيء .

وبعد أن انتهت خرافات الخان الأعظم ، أو الخاقان ، وخرافات يوحنا الراعى ، ظهرت خرافات جديدة ، إتصلت بالعالم الجديد . فنجد أن أحد رجال بيزارو ، ويسمى أوربيانو ، قد سمع بعض الهنود يتحدثون عن مملكة مملوءة بالذهب ، وعن أن ملكها كان يغطى نفسه بالتبر : أنه الملك الذهبى «الدورادو»، وكان قد ورث الانكا وأسس امبراطورية جديدة فى داخل القارة . وانتقلت هذه الخرافة من فم لأذن ، حتى أصبحت وكأنها حقيقة . وأضاف كل فرد اليها قليلا حتى روت وجود أسدين مقيدين بسلاسل من ذهب لحراسة القصر الامبراطورى ، وأن الأنابيب التى توصل الماء إلى النافورات كانت من الذهب، وأن جبلامن الذهب الخالص كان يشرف على الأقليم . وقام المستكشفون بالبحث عن هذا « الالدورادو » العجيب لمدة قرنين ، وبحثوا عنه فى كل مكان دون أن يعثروا عليه . ولكن ذلك البحث سمح لهم بالتوغل داخل القارة ، وبالسيطرة على مناطق أوسع ، وبنهب ما تصل اليه أيديهم .

ولقد قام المستكشفون بارتياد منطقة فلوريدا ، وساروا من المكسيك حتى كاليفورنيا ، وقام غيرهم بالنزول حتى شيلى ، ووصل آخرون إلى غرناطة الجديدة ، التى أصبحت تسمى فيما بعد بكولومبيا ، وبدأ مندوزا من نهر ريودى لابلاتا غزو الأقاليم التى ستصبح الأرجنتين فيما بعد .

الوقع أن هؤلاء الغزاة لم يكافئو على المجهودات التى قاموا بها إلا من الناحية المعنويه ، وذلك بتسجيل اسمهم فى تاريخ الاستعمار ، خاصة وأنهم قد تحاربوا فيما بينهم ، وشابهوا فى ذلك الأطفال الذين يتنازعون لعبة معينة ؛ كما شابهوا رجال العصابات الذين يقتتلون عند تقسيم الأسلاب . ولقد غضب البلاط عليهم ، فكان يتهمهم بالخطورة ، إذا كانت لهم صفات رجال الدولة مثل كورتيز ، وكان البلاط يقضى عليهم ويبعدهم ، إذا لم يتميزوا بصفات القيادة . وكثيراً ما قضى عليهم فى أثناء قيامهم بعملياتهم إما من الاسبانيين وأما من الهنود الحمر ، مثل بالبو ، الذى قطعت رأسه ، وبيزارو الذى طعن بالسيف وغيرهم ممن غرق أو توفى بالحمى ، أو أصابه الجنون أو وقع فى أيدى الهنود الحمر . ولكنهم قاموا بعمل استعمارى واضح ، وإمتدت الامبراطورية الاسبانية التى أنشأوها واشتملت على كل جزر الأنتيل ، والبرزخ الذى يصل بين الأمريكتين ، والمكسيك مع سواحلها ، وجزء هام من الشريط الساحلى للقادة الجنوبية ، واشتملت على امبراطورية الأزاتكة وامبراطورية الانكا .

إمتدت هذه الامبراطورية من كاليفورنيا حتى شيلى ، ولمسافة عشرة آلاف كيلو متراً ، ولم يحكم الاسكندر الأكبر ولا روما ولاجنكيز خان على مثل هذه الامبراطورية .

ولكن هناك نقطة ضعف أخذت فى الظهور بالنسبة لهذه الامبراطورية ، وكان ذلك بسبب المرسوم البابوى الذى احتفظ للبرتغاليين بالأراضى الواقعة إلى شرق خط التقسيم . لكن كابرال تمكن من استكشاف أحد السواحل فى هذه

المنطقة ، فى قارة أمريكا الجنوبية ، لحساب بلاط لشبونة ، وأسماه ساحل الصليب المقدس «سانتاكروز» . وكانت هذه المنطقة هى التى تزود العالم بخشب الموجونو. وتحولت سانتاكروز فيما بعد إلى البرازيل واكتشف فيها أحد الغزاة فى شهر يناير سنة ١٥٣١ خليجاً جميلا، أنشأ عليه مدينة سميت ريودى جانيرو. وبدأت الامبراطورية البرتغاليه فى الإتساع فى العالم الجديد . ولكن اليوم الذى ضمت فيه اسبانيا البرتغال سنة ١٥٨٠ عمل على توحيد هاتين الامبراطوريتين اللتين إمتدتا من الميسيسبى حتى أقصى الجنوب ، وأصبحت كلها اسبانية ، وأفادت قشتالة من كل هذه العملية.

٤ — ادارة الهند الغربية :

أعلن تاج قشتالة للملوك والدول امتلاكه للعالم الجديد فى سنة ١٥١٩ إستناداً إلى منحه الكرسى البابورى وإلى الحقوق الأخرى ، وبشكل يجعل من هذا التاج صاحباً للهند الغربية ، وللجزر والقارات الموجودة فى البحر المحيط ، سواء التى إكتشفت أو التى ستكتشف فيما بعد وجاء الاستعمار بعد عصر الغزو . أى عصر الاستغلال لإتمام عملية الفتح ، والوصول بالوسيلة إلى الهدف. ولم يكن الاسبانيون مستعدين فى هذا الوقت لإدارة امبراطورية شاسعة ، وبهذه الطريقة ، ولكنهم تمكنوا رغم ذلك من حكمها وإدارتها ، بالسيف وبالنهب وبالقتل ، وبغيرها من الوسائل التى كانت سهلة ، وأسهل بكثير من ادارة وحكم شعوب غلبت على أمرها .

ولم يتورع الاسبانيون عن اتخاذ أى وسيلة للوصول إلى أهدافهم البدائية ، والتى كانت تتلخص فى الحصول على الذهب وشحنة فى السفن . ولم يتردد الحكام الاسبانيون الأوائل ، قانوناً أو فعلا ، أمام وخز ضمائرهم ؛ بل كانوا يعملون ، ويعملون لأنفسهم أن لم يكونوا يعملون من أجل الملك . فكانوا يقسمون الكنوز بين الجنود ، ويقسمون الأرض بين الضباط . وإذا قاموا بأى مجهود للادارة ، فان هذا المجهود لم يزد عن كونه نقل نظم إسبانيا إلى أمريكا كما هى ، فكانوا يعينون القضاة والقواد ، كما لو كانوا فى الجزيرة الخضراء أو فى قادس . وحلت السلطة الملكية مع الزمن محل أهواء الاقطاعيين والغزاة ، وإن كانت العملية قد

تمت على مراحل . وأنشأت هذه السلطه الملكية حكومة مباشرة ؛ كانت تباشرها من اسبانيا ، وتنفذ تعليماتها فى العالم الجديد .

وكانت الهيئة المركزية فى اسبانيا تتمثل فى مجلس الهند ، الذى كان يعاون الملك ، مثلما كان يعاونه مجلس قشتاله أو مجلس أراجونه أو مجلس الحرب أو غيرهم . وحل هذا المجلس محل المراقبة العامه لشئون الهند ، والتى كانت قد أنشئت بسرعة ، بعد رحلة كولومبو الأولى للعالم الجديد .وكان هذا المجلس يخضع لمستشار أعلى لشئون الهند ؛ وكان يعد القوانين ، ويعتبر محكمة للاستئناف ، ويتدخل فى كل قرارات الكنيسة المتعلقة بالعالم الجديد . فكانت له فى واقع الأمر جميع السلطات التشريعية والقضائية وحتى الدينية .

أما السلطة التنفيذية فكانت فى العالم الجديد ، وقد نظمت على أساس حكم « الآنتيامنتو » أو حكم البلديات فى قشتالة . وكان هذا النظام يتلخص فى إنشاء مجلس خاص فى كل إقليم ، بتشكيل من ثلاثة أو أربعة مسئولين ، ويجتمع فى أول الأمر كمحكمة ، ثم أصبح يجتمع بعد ذلك كمجلس . وكان الحاكم هو الذى يرأسه ويستشيره . وفى أعلى القمة نصل إلى نائب الملك ، أو بمعنى أدق . نائبى الملك ؛ الأول فى المكسيك . والثانى فى ليما ، وكان كل منهما يسيطر على نصف العالم الجديد ، بخلاف الانتيل ، وهافانا ، التى كانت لها قيادة عامه خاصة بها .

وكانت هناك شخصية واحدة ، هى نائب الملك ، يعينها الملك ، وتمثله وتهيمن على شئون الحرب والسلم والأرواح . وكان نائب الملك يعين كبار الموظفين ، ويشرف على الاقتصاد والمالية ، ويلاحظ الكنيسه ، أو يراقبها . ولكن سلطانه واختصاصاته كانت محدودة . خاصه وأن البلاط كان يخشاه ، فقد تعينه بمدة ثلاث سنوات ، وأجبره بعدها على البقاء فى المستعمرة لمدة ستة أشهر ، حتى يسمح لكل من يعارضه أو يطالبه بشىء ، أن يتقدم ضده بما يرغب . وفى نفس الوقت أعطى الملك لأعضاء المجالس حق مخاطبة البلاط رأساً ، كما كان يسمح لنفسه بارسال

بعض كبار الموظفين ، كزائرين أو مفتشين من وقت لآخر . ولقد سار هذا النظام بدقة عجيبة ، خاصة إذا نظرنا إلى السرعة اللازمة لتقرير الأمور ، وإلى إتساع الامبراطورية ، ولكنه كان يتسبب فى بعض التضارب بين السلطات ، كما تسبب فى بعض الأخطاء الواضحة ، وكان أكبر خطأ فيه أنه قد وضع عن طريق الاسبانيين ، وللاسبانيين ، كما لو كانت أمريكا إحدى المقاطعات الإيبيرية ، وكما لو كانت لاتسكنها ملايين من الهنود الحمر . لقد كان وجود الهنود حقيقة واقعة ، وكان واجب الاسبانيين أن يحسبوا حساب هؤلاء الملايين ،الذين كانت لهم آلهتهم وتقاليدهم وطرق معيشتهم . ولكن أغلب المعمرين الأسبانيين كانوا لاينظرون إلى الهنود الحمر إلا نظرتهم إلى المتوحشين آكلى لحوم البشر ، نظرتهم إلى شعوب تفضل العيش عرايا ، شعوب بأكملها من المخادعين الكذابين الخائنين، من السكارى القساة الكسولين ، شعوب لاتستحق أن تدخل فى المسيحية يوما من الأيام . ولكن هناك من الاسبانيين من رآهم شعوباً خاضعة صبورة محبة للسلم ، ووجد فى نفسه الرغبة فى الدفاع عنها ، فأين الحقيقة . ؟

وكان المعمرون متسلطين ومتعجرفين ولا يعرفون التسامح . ويعتقدون أنهم جاءوا إلى أمريكا للاثراء ، ويترددون فى إعلان ذلك . وحينما طلبوا من بيزارو القيام بواجبه لنشر المسيحية بين الهنود الحمر ، أجاب أنه لم يأت إلى العالم الجديد من أجل ذلك ، وإنما أتى للاستيلاء على ذهبهم . وكانت الأقلية هى التى تنادى بضرورة الاحتفاظ بالهنود الحمر وتهذيبهم وكسبهم إلى إسبانيا المسيحية .

حقيقه أن البابا قد وضع مهمة التبشير بالمسيحية بين الهنود قبل أى عمليه أخرى فى العالم الجديد ، وأصر بولس الثالث على أنهم فى وضع يسمح لهم بفهم الديانة الكاثوليكية ، بل وأنهم شغوفين باعتناقها ، على حد مايفهم ، ولذلك فانه من الواجب عدم الإضرار بهم فى حريتهم أو فى ممتلكاتهم ، والإبتعاد عن إستبعادهم بأي طريقة من الطرق . ولقد تردد الملوك الكاثوليك في قشتالة

بين هذين الاتجاهين . وأوصت الملكة ايزابيلا فى وصيتها بعدم الإضرار بالهنود، وبضرورة معاملة هذه الشعوب بالطيبة والعدالة . كما أن شارل الخامس، وريثها الثانى ، قد ذكر حكامه بأن الله قد خلق الهنود أحرارا لاتابعين .

ورغم ذلك فقد استمرت الأخطاء ، من تعذيب وإنتهاك يسمح بفضح طغيان الإسبانيين ذلك انهم قد منعوا الهنود الحمر من حمل الأسلحة ومن ركوب الخيل ، وقضوا على الأهالى قضاء تاما فى مناطق بأكملها ، بسوء المعاملة أو بالقتل ، كما حدث فى هاياتى . وأخذ الكتاب منذ عهد لاس كازاس فى فضح هذه الجرائم ، وطالبوا الحكومة الإسبانية بضرورة المحافظة على أرواح الهنود ، دون أن يذكروا إن كان هدفهم هو السياسة ، أو ضرورة الإحتفاظ بالأيدى العاملة اللازمة للمستعمرات ، أو زيادة عدد السكان المسيحين فى العالم . حقيقة أن فظائع الإسبانيين تجاه الأهالى كانت أشد فظائع الإبادة الاستعمارية منذ بداية تاريخ الاستعمار ، ولكن صيحات الاعتراض على هذه الفظائع كانت كذلك أشد الصيحات حتى ذلك الوقت .

ولقد حاول بعض رجال الغزو والإستعمار الأوائل أن يدافعوا عن الهنود الحمر ، مثل كورتيز الذى ما أن نزل على سواحل المكسيك سنة ١٥١٩ حتى أمر جنوده بعدم تعذيب الأهالى ، وبمصاحبتهم إلى قراهم دون الاعتداء عليهم أو جرحهم أو التعرض لأملاكهم . وكانت هذه هى المبادىء الأولى لمحاولة هضم الهنود الحمر ، وضمهم نهائيا إلى النظام الإسبانى . ولكن عمليات أخرى قامت فى جهات متعددة ، وأوجبت صيحات الإنسانية . وثارت «المشكلة الهندية» طوال القرن الأول للاستعمار الإسبانى ، وبمناسبات ، متعددة . وكانت إسبانيا تتساءل بقلق عن مهمتها فى العالم الجديد ، وعما يجب عليها أن تقوم به كدولة مستعمرة فى أمريكا .

الفصل الرابع عشر

الاسبانيون

لقد تزعم بعض رجال الدين والمفكرين من الاسبانيين حركة الدفاع عن الوطنيين ، أو الهنود الحمر ، ضد معاملة المعمرين والحكام الاسبانيين فى العالم الجديد . وكانوا مخلصين فى عملية دفاعهم ، ومخلصين فى أهدافهم التى كانوا يرغبون فى الوصول إليها ، سواء أكان ذلك للإحتفاظ بالهنود الحمر كشعوب وأيدى عاملة يمكنها أن تنتج ، أو كان ذلك الإحتفاظ بهم كرعايا للكنيسة الكاثوليكية ، وزيادة عدد المسيحيين فى العالم ، أو كان ذلك لتطوير حركة الإستعمار الإسبانى بشكل يجعلها تخدم الإنسانية والمدنية، بدلا من أن تقوم بإستغلالها ، أو بالقضاء على كثير من أبنائها .

١ - بين الانسانية الوحشية :

ولقد ترأس إثنان من الرهبان الدومينيكان عملية الدفاع عن الهنود ، بل الهجوم على الإستعمار فى العالم الجديد،وهما أنطوان دى مونتسينوس، وبرتلوم دى لاس كازاس ، ولقد هاجم مونتسينوس المعمرين ومبدأ الإستعمار نفسه فى خطبته الطنانة التى ألقاها فى إسبانيولا : « لقد صعدت على هذا المنبر لكى أشرح لكم أخطاءكم تجاه الهنود ، إن خطأكم جسيم ، وخاصة نتيجة لقسوتكم تجاه هذا الجنس البرى . . . فبأى حق قمتم بإعلان حرب دينية ضد هؤلاء الناس الذين يعيشون فى بلادهم وفى سلام ؟ وما هو السبب لترككم أياهم فى مثل هذه الحالة من الإنهاك دون إطعامهم والإهتمام بصحتهم ؟ . . . » كان معنى ذلك هو عدم شرعية الغزو الاسباني ، وهدد مونتسينوس برفض مباركة الإسبانيين المتطرفين .

وضع لاس كازاس صوته لهذه الحركة . وكان قد بدأ حياته مزارعا قبل أن يتفرغ لخدمة الدين ، وواصل كفاحه حتى آخر أيامه للدفاع عن الهنود ، بشكل جعل منه أكبر مدافع عنهم ، وترك مادة غزيرة ، وصف فيها ما خضعوا له من وحشية . ولقد وصف الحروب ضد الهنود بأنها غير عادلة وأنها طغيانية ، ووصف الذهب والفضة والجوهرات والأراضى التى أخذت منهم بأنها منهوبة ، ومن الواجب إعادتها إلى أصحابها . وفضح لاس كازاس مساوىء الإستعمار بشدة ، جعلت من مادته أسلحة قوية ، أفاد منها أعداء أسبانيا نفسها .

ولقد إضطرت سلطات قشتالة إلى محاولة إيجاد سياسة معقولة يمكنها أن توفق بين مطالب الإستغلال الاقتصادى ، وإتجاه رجال الكنيسة . وسمحت بالقيام بتجارب هامة فى العالم الجديد . وكانت التجربة الأولى تتعلق بتحرير الهنود ، وأسس أحد القضاة ثلاث قوى للهنود المحررين في إسبانيولا ؛ ولكن الفشل كان تاماً ، إذ أن الهنود قد إمتنعوا بعد تحريرهم عن القيام بأى عمل . أما التجارب المماثلة والتى وقعت فى كوبا ، فإنها لم تكن أكثر إيجابية . ثم قامت تجربة ثانية للإستعمار السلمى ، ذلك أن لاس كازاس قد حصل فى فنزويلا على ٣٦٠ فرسخاً مربعاً ، وإختار مزارعين من إسبانيا ، ووعد بمنحهم لقب «فرسان المهماز الذهبى» . ولكن الفشل كان تاما ، إذ أن هؤلاء الفرسان المزارعين كانوا يرغبون فى الحصول على الذهب ، أكثر من رغبتهم فى الحصول على الأراضى ، وتحولوا بمجرد وصولهم إلى العالم الجديد ، إلى عصابات لصيد الهنود ، ولإستخدامهم كعبيد فى زراعة الأرض . أما التجربة الثالثة فكانت تهدف إلى تحويل الهنود إلى المسيحية ، وبطريقة سلمية . وحاول لاس كازاس أن يحولهم بكل هدوء ، وإختار منطقة يمتاز أهلها بحب الحرب للقيام بتجربته ، وهى منطقة جواتيمالا . والواقع أن بعض الهنود قد تمسحوا ، بعد سماعهم لصلوات الدومينيكان أو بعد إعجابهم باللعب والأدوات الصغيرة التي كان الاسبانيون

يوزعونها عليهم. وقبل رئيسهم بناء كنيسة ، وتحولت المنطقة إلى بلاد سلم، وإن كان هذا التحول سطحياً ، ولم يتمكن الهنود من معرفة المسيحية . وبعد فترة من الزمن قام الهنود بقتل راهبين، وسلخوا ثالثا أمام أحد الأصنام ، وشيعوا أنصار لاس كازاس بالسهام ، وأحرقوا المستعمرة . وكانت نتيجة هذه العملية خطيرة بالنسبة للهنود ، وبالنسبة للإسبانيين ؛ ذلك أن الهنود قد تأكدوا لأول مرة من أن الاسبانيين ليسوا آلهة ، بل مثلهم من البشر ، معرضون للموت ، ويمكن قتلهم. فقلت درجة سلبية الهنود وتواضعهم،وأخذوا يرفضون العمل،ويفضلون معيشتهم السابقة قبل وصول الإسبانيين .

وكان كل من الملك ومجلس الهند فى إسبانيا يحاولون وضع سياسة المستعمرات الجديدة . ولكن ، هل كان فى وسعهم إعلان الحرب على الهنود؟ لقد قرروا عدم القيام بأى عمليات عدائية ضدهم ، إلا بعد أن يقرأ عليهم إنذار بذلك ، وهذا الانذار كان يطالبهم بالاعتراف بالكنيسة والبابا والملك كأصحاب للسيادة ، وسادة عليهم ، وإلا فإن الاسبانيين سيأخذونهم ، ونساءهم وأطفالهم ، ويجعلوهم عبيداً ، يبيعونهم ويوزعونهم كما يرغبون . وسيأخذون أملاكهم ، ويعاقبونهم ويؤدبونهم ، كما يفعلون مع أى تابع ثائر . ولكن هذه الطريقة لم تكن عملية ، ولم يكن من السهل على الهنود إحترامها . وإستخدم الإسبانيون وسائل أخرى للمحافظة على السلم فى المستعمرات،وصدرت الأوامر بعدم خروج أى حملة دون موافقة رجال الكنيسة الملحقين بالجيش كتابياً على ذلك . ومنع لاس كازاس أى عمليات حربية لم تكن مزودة بأمر صريح من الملك ومجلس الهند . ثم منع شارل الخامس قيام أى حملات إستكشافية فى العالم الجديد إلى أن تتم محكمة بلد الوليد قراراتها الخاصة بشرعية الغزو. ولم يشهد العالم حتى الآن غزاة منتصرين يشكون فى أنفسهم وفى عملياتهم بهذا الشكل الذى يؤثر عليهم وعليها . وكم من إسبانى أعلن فى ذلك الوقت فى العالم الجديد أن الأراضى التى

يطأونها هى ملك للهنود . ولم يتمكن المستشارون وفقهاء بلد الوليد من إتخاذ موقف حاسم واضح بين النظريات المتعارضة التى كان لاس كازاس يمثل طرفا منها، وغلاة الغزو يمثلون الطرف الآخر . فاستمرت الحروب ، ولكن على أساس أن تكون حرباً عادلة ، وأن يسمى كل غزو بعد ذلك بأنه مجرد عملية تهدئة Pacification .

وقامت مجادلات أخرى حول طرق التبشير والتعميد . وإذا كانت الوسائل السلمية قد فشلت ، فهل كان من سلطة الاسبانيين إستخدام القوة لتحويلهم إلى المسيحية ؟ لقد ردت بلاد محاكم التفتيش بالإيجاب ، وأصبح تحويل الأهالى إلى المسيحية يعتبر جزءاً من مهمة الغزاة فى العالم الجديد . وقام الاسبانيون بهدم الأصنام ومنع الأعياد الدينية ، وفرضوا التعميد والزواج على الطريقة الرومانية، والصلاة فى يوم الأحد . وإندهش معظم الهنود ، ولكنهم لم يعارضوا، وقبلوا أن يجتمعوا مع شروق الشمس حول الصليب ، ويقوموا بالإشارات التى يعلمها لهم المسيحيون، وكانوا فى بعض الأحيان يخلطون بين العقائد ، ويتصورون مسيحاً أسود فى جواتيمالا ، وكان غيرهم محافظاً على آرائه . وكان بعضهم يتساءل عما إذا كان هناك إسبانيين فى الجنة ، فإذا كان الأمر كذلك ، فهم يفضلون الموت على غير المسيحية، حتى لا يلتقون بالاسبانيين فى العالم الآخر . وكان الغزاة لا يفهمون هذه المقاومة ، وفكر بعضهم فى إستخدام القوة لانهائها، ولكن لاس كازاس أعلن أن القوة لا تتمشى مع الروح المسيحية ، رغم أن معارضيه أصروا على أن التبشير يحتاج إلى جنود ، وعلى أن عملية تحويل الهنود إلى مسيحيين لا يمكنها أن تتم إلا فى ظل طلقات البنادق .

وأخيراً فهناك مشكلة العمل الاجبارى ، أو السخرة ، التى كانت تقسم المعمرين إلى قسمين . وكان الغزاة يرغبون فى تعبئة الأيدى العاملة الهندية ، لاستغلال الأرض التى منها يعيشون، وما تحت الأرض التى منها يثرون ويغتنون.

فكانوا يرون السخرة أمراً طبيعيا ، ولكن الأهالى أجابوا بالفرار إلى الأدغال والغابات . فاضطر الأسبانيون إلى تقييد نظام العمل الاجبارى . وكانت القرى الموجودة فى كل قطعة أرض أعطيت لأحد الغزاة ، تتجمع تحت رئاسة شيوخها الوطنيين ، وكان الهنود يعملون تحت الرئاسة الوطنية من أجل السيد الاسبانى . وكان هذا النظام لا يختلف كثيراً ، إلا من حيث الشكل ، عن نظام العبودية . ثم عمد الاسبانيون بعد ذلك إلى إبدال الرئيس الوطنى ، برئيس إسبانى ، بدعوى العمل على تحسين مصير الهنود ، والسماح بالحصول منهم على إنتاج أوفر . وكان الرئيس الاسبانى يكلف بإطعام وإلباس وحسن معاملة رجاله من الأهالى ، وذلك فى نظير الحصول منهم على عمل ، بقى إجباريا : ولكن الهنود لم يفضلوا هذا النظام على النظام السابق، وكانوا لا يهتمون بالعبودية، ويفضلون عدم العمل. وصدرت قوانين إسبانية ، بعد إستشارة لجنة دينية ، وأكدت تطبيق هذا النظام فى سنة ١٥١٢ مع أمرها بهدم أكواخ الأهالى القديمة، حتى تمنعهم من الرغبة فى العودة اليها ، رغم انها امرت بمعاملاتهم معاملة إنسانية ووضعت شروطاً للاعتناء بهم وحماية نسائهم واطفالهم . فاصبح على الهنود أن يعملوا من اجل الاسبانيين لمدة تسعة أشهر فى كل سنة ، ويقضوا الثلاثة أشهر الباقية فى خدمة أرضهم . ولكن لاس كازاس وجد أن هذا النظام كان شديداً ، ووصلت صيحاته إلى برشلونة ، وأثرت على شارل الخامس ، الذى اصدر اوامر ثورية فى سنة ١٥٤٢ تنص على عدم إستعباد أى هندى ، وعدم استخدام أى هندى ضد رغبته ، وبمنع كل نواب الملك وجميع الضباط من اعطاء أى أوامر لتكوين « جماعات العمل الاجبارية » من الهنود ، وأصدر أوامر بتحرير الأهالى وبمنع استخدامهم فى الحمل ، وبتكفل الحكومة بهم فى حالة وفاة سيدهم .

ولكن مطالب الاستغلال وصيحات المستعمرين كانت أقوى من وعظ رجال الكنيسة ، وأقوى من المراسيم الملكية ، فانهالت الآراء والتقارير على شارل

الخامس بشكل جعله يعيد السماح بتكوين جماعات العمل الإجبارية ، ولكن مع المحافظة على النصوص التى تمنع من سوء التنفيذ ، وسوء المعاملة. فهل تغير الوضع، عملياً ، بالنسبة للهندى ؟

ودافع الملوك الاسبانيون عن الهنود، وظهرت قوانين جديدة تحدد واجبات الإسبانيين وحقوق الأهالى ، فلا يمكن طرد أحد الهنود من مكان يقيم فيه منذ أكثر من ٤ سنوات ، ولا يجوز فرض أى عمل على النساء وعلى الأطفال الذين يقل عمرهم عن ١٨ سنة ، ولا يمكن إستخدام الشيوخ بعد سن السبعين ، ومن الواجب إنهاء العمل اليومى مع غروب الشمس، وأن يتمتع العامل بساعة للراحة فى وسط النهار ،ومن حقه التمتع بيوم الأحد وبيومين آخرين كل أسبوع للاعتناء بحقله ، وبعشرة أيام أخرى كل سنة . فلم يبق من أيام العمل الفعلية فى العام، وبعد حساب الأعياد الكثيرة ، إلا ما يتراوح بين ١٣٠ ، ١٤٠ يوما ، وكان ذلك كثيراً بالنسبة للهنود ، وقليلا جداً بالنسبة للإسبانيين. الذين لم يحترموا هذه القوانين الجديدة .

وانتهى الأمر بترك الحرية للهنود فى الإختيار بين العمل فى جماعات العمل الإجبارية ، وحرية الحياة ، أى حرية البؤس فى الجبال، بعد أن إستولى الاسبانيون على أراضيهم . ولقد فضل الهنود حريتهم ، وإختاروا البؤس مع الحرية ، على الطعام مع العمل فى ظل العبودية ، فإضطر الاسبانيون إلى تغيير هذه التشريعات وأبقوا الهنود فى ظل الاستعباد الفعلى ، رغم أن قوانينهم كانت تدل على غير ذلك

ونشأت نفس المشكلات فى البرازيل . وكان للشبونة أيضاً مجلساً للهند . وكانت مستعمراتها مقسمة إلى قيادات عامة، ومزودة بالموظفين.ولكن الغزاة البرتغاليين كانوا أكثر تساهلا من الاسبانيين ، وأقل تحكما منهم فى الأهالى . فكثير من تزوج منهم بنساء من الهنود ، وتمكن رجال التبشير البرتغاليون من التوغل فى الغابات، ومن هداية بعض الأهالى .

وعلى أى حال ، فرغم توتر العلاقة بين الغزاة والأهالى حول العمل ، فإن العالم الجديد كانت تنقصه كثيرا من الأيدى العاملة . وكان إنتاج الهنود منخفضا ، وكثيراً ما كانوا يقومون بعمل ردىء وكانوا لا يصلحون للعمل فى المناجم ، وتزايدت نسبة الوفيات فيما بينهم فاتجهت الأنظار إلى إفريقية لإحضار المدد من الزنوج والعبيد . ولإستمرار عملية الإستغلال .

٢ – تجارة العبيد والتخطيط .

إذا ما عبرنا المحيط الأطلسى لمشاهدة ما كان يحدث فى إفريقية فى الوقت الذى كانت فيه إسبانيا تستعمر قارتها الأمريكية. لوجدنا أن السلطان العثمانى قد إستولى على مصر وإنضم إليه ساحل شمال إفريقية،أما فى المغرب الأقصى فإن دولةالسعديين، التى كانت قد جاءت من وادى درعا ، كانت تقاوم الاسبانيين والبرتغاليين ، الذين قاموا بالهجوم على هذا الاقليم ، وإحتلوا مواقع مختلفة من سواحله . وكان البرتغاليون قد ساروا على طريق فاسكو داجاما ، وعلى طول السواحل الأفريقية ، وأنشأوا عددا من المراكز المحصنة،التى كانوا يستخدمونها كمحطات لتزويد سفنهم بما يلزمها ، من الرأس الأخضر إلى زنزبار،فأقاموا فى سان توما ، وفى أنجولا فى سان بول دى لواندا ، وفى موزمبيق، ووجدوا معادن النحاس والفضة فى حوض الكنغو ، أما بقية قلب القارة ، من النوبة والسودان حتى رأس الرجاء الصالح ، فكان بعيدا عنهم ، وكانت تسكنه قبائل بدائية يجهلونها . ولم تكن هناك علاقات إقتصادية منتظمة فى هذه الفوضى الكبيرة التى ضربت أطنابها فى إفريقية ، إلا للتجارة فى الملح وفى الرقيق الذى كان يرسل إلى العالم الإسلامى والاقاليم العثمانية، ولكن ذلك لم يمنع من وجود إمبراطوريات كبيرة فى إفريقية عرفها التاريخ ، مثل إمبراطورية غانا ، أو جهلها ، وظل يجهلها حتى الآن . وجاءت إمبراطورية سنغاى بعد إمبراطورية غانا وإمتدت على مسافة ٥٠٠ كم بين الشرق والغرب ، وإشتملت على تمبكتو وعلى غيرها من الاقاليم التى كان الاسلام قد دخلها من شمال

إفريقية مع طرق القوافل . وكانت تمبكتوا مركز إلتقاء القوافل وتجارة العبيد مع فاس والقيروان والقاهرة وحتى مع جنوا والبندقية. وكان تنقل الملح والذهب والنحاس والعبيد، التى كانت إمبراطورية جاو تحتكر تجارتهم مع البلاد السودانية ولقد تفككت هذه الإمبراطورية حينما شعر أحمد المنصور الذهبي سلطان المغرب بشدة ضغط الاسبانيين والبرتغاليين والأتراك عليه ، وصمم على الإستيلاء على مناجم الملح والذهب الموجودة فيها ، وأرسل حملة إلى النيجر ، إشتملت على عدد من الأسرى المسيحيين والاسبانيين والأرمن والفرنسيين واليونانيين ، ولكنها كانت منظمة على الطريقة التركية ، وكانت فى خدمة الاسلام . وأخضعت هذه الحملة تمبكتوا ، رغم أن نفوذ المغرب الفعلي قد تقلص بعد ذلك من المنطقة .

وكان تجار العبيد يربحون ربحا كبيرا من عملياتهم ، وكثيراً ما كانوا يتفقون عليها مع رؤساء القبائل ، وكانوا يجمعون « العاج الأسود » ويسلمونه للتجار البرتغاليين والإسبانيين والانجليز الفرنسيين . وكان العبيد يركبون السفن ، بعد أن يتجمعوا فى الموانى ، وكانت عملية عبور المحيط فظيعة ، إذا كانت الاجساد ترص الواحد إلى جوار الآخر ، ودون أن تتمكن من الحركة . وكانت نسبة الوفيات تصل فى المتوسط إلى ٣٠ أو ٢٥ ٪ فى خلال هذه الرحلة .

أما السبب فى إنتشار هذه الهجرة الجديدة الاجبارية من إفريقية إلى العالم الجديد فكان هو المعمرين الاسبانيين ، ورجال الدين المسيحى ، ولقد أوصى لاس كازاس ، صديق الهنود الكبير ، بإستيراد العمال السود ، دون أن يفكر فى أن تمسهم فوائد قوانين الثابة ، التى كانت قد صدرت فى صالح الهنود وعامل الأسبانيون القادمين الجدد على أنهم فى مرتبة الحيوان ، وذكروا أن أرواحهم كانت سوداء مثل جلودهم . وليس معنى ذلك أنهم كانوا يعذبونهم ، بعد أن يستخدمونهم فى المناجم أو فى مزارع قصب السكر ، ولكنهم كانوا يحتفظون لهم بوضعية العبيد ، تلك الوضعية التى كانت تجعل منهم مجرد أدوات ومنقولات .

وكان التاج هو الذى يمنح تراخيص إستيرادهم ، ويربح من هذه العملية . نتيجة للضرائب التى يفرضها على النقل ، وكان يبيع فى الحالات إمتيازات تجارة الرقيق إلى شركات خاصة ، أو إلى دول أخرى · عدداً معيناً من الرؤوس فى السنة، نظير مبلغ معين من الدوقات أو القروش . وحصل البرتغاليون والاسبانيون والهولنديون ثم فرنسا وانجلترا على عقود بهذا المعنى . أما تجار العبيد فكانوا يربحون الكثير ، وكانت نفس السفينة التى تنقل البضائع من أوربا إلى إفريقية ، تنقل بعد ذلك العبيد من إفريقية إلى أمريكا ، وتعود بعد ذلك إلى أوربا مشحونة بالسكر والروم. وكانت هذه الرحلة الثلثة طبيعية ومنتظمة وتستخدم فيها الحمولة الكاملة للسفينة .وكان أول تصريح بالاستيراد صالح لأربعة آلاف عبد ، ثم جاءت الآلاف بعد الآلاف الأخرى . وإستمرت هذه العملية لمدة ثلاثة قرون ، وقامت بأكبر عملية للتهجير الاجبارى فى العالم ، ونقلت ملايين الرجال من قارة إلى قارة ، وجدت شباب إفريقية، وعمرت به أمريكا. وبلغ مجموع ما قام تجار العبيد باقتناصه من افريقية ، ما يقرب من أثنى عشر مليوناً ، وقام القناصة بصيدهم من أنجولا وغينيا والسودان والسنغال وجامبيا ، وفى كل مكان يمكنهم أن يعثروا فيه عليهم . ويفسر هذا كيف تحولت مدن مزدهرة ، مثل جاو وتمبكتو ، والتى بلغ سكانها ٦٠ أو ١٠٠ ألف إلى مجرد قرى صغيرة . ولم تصل من هذه الملايين الإثنا عشر سوى ثمانية أو تسعة فقط إلى أمريكا . وكان يصل منهم ثلاثون ألفاً فى السنة يوزعون بين الأنتيل ، وخصوصاً هاياتى ، وبين الأمريكتين . ولكننا لانجد فى كل أمريكا ، وبعد ثلاثة قرون من عملية التهجير هذه ، إلا أربعة أو خمسة ملايين زنجى. ويرجع ذلك إلى أن القناصة كانوا يفضلون الرجال على النساء فى تجارتهم، فكانت نسبة الزواج بين الزنوج فى العالم الجديد منخفضة،وحالات المواليد نادرة. وإحتاج الأمر إلى أجيال عديدة لموازنة أعداد الجنسين ، والسماح بقيام عملية توطين طبيعية . وكان الهنود من جانبهم غير مهيئين لقبول الحضارة اللاتينية ،

وبلغ عددهم ثلاثين مليوناً قبل وصول كولومب ، ثم إنخفض عددهم إلى ثلاثة عشر بعد قرن ، ولم يبق منهم إلا عشرة ملايين بعد ثلاثة قرون من الاستعمار ، ومعظم دمائهم أصبحت مختلطة . ونشأ عن هذا التخليط جنس جديد فى أمريكا الاسبانية البرتغالية . وكان الغزاة والمعمرون يحضرون شباناً ، غير متزوجين ، ثم يتصلون بالهنديات ، ويدخلون ذلك فى نطاق عملية الغزو . وعلى أى حال ، فان الاسبانيين غير المخالطين يعتبرون قلة . وكان كولومب قد توصل إلى تبديل عقوبة الإعدام بالنفى إلى المستعمرات ، عملا على تعميرها ، فوصل مجرموا شبه الجزيرة الأيبيرية إلى أمريكا ، وكانوا أول معمريها . وكانت إسبانيا تفضلهم على غيرهم من أبناء الدول الأوروبية الأخرى ، و تقفل أبواب أمريكا فى وجه أى شخص لم يكن من رعايا التاج ، فأقفلتها فى وجه اليهود ، ووجه المغاربة والمسلمين والكفرة . ولقد قدر بعض الجغرافيين عدد المهاجرين من شبه الجزيرة الأيبيرية بعشرة آلاف شخص فى المتوسط فى السنة ، ووصل من ذلك إلى مليونين من المهاجرين فى القرنين الأولين للاستعمار ، ومليونين ونصف إلى ثلاثة ملايين ونصف لفترة ثلاثة قرون ، ومنهم مليون من البرتغاليين . ولكن الأهالى غير المخلطين لم يرتفع عددهم إلا إلى ١٥ أو ٢٠٠ ألف من الإسبانيين البرتغاليين بعد قرن ، ومليونين بعد ثلاثة قرون . ونلاحظ هنا أن نسبة الوفيات فى الحروب ، والحمى والإرهاق قد فعلت فعلها ، وأن الخصوبة قد أعطت من المخلطين أكثر مما أعطت من أبناء قشتـــالة .

وهكذا تغير الوجه الانسانى لأمريكا اللاتينية الحديثة ، وعاش فيها البيض والحمر والسود . ولم يكن فى وسع البيض أن يحافظوا على حكمهم وتحكمهم إلا إذا إعتقدوا فى أنهم سادة ، وأنهم متفوقين على غيرهم ، وإلا إذا ما نجحوا فى فرض أنفسهم ـ بهذه الصفات ـ على غيرهم .

٣ـ استغلال أمريكا اللاتينية :

كان المعمر الاسبانى ، أو الغازى ، يعتقد أن من حقه أن يربح كل شىء ، حتى ولو أدى ذلك إلى تحطيم الأهالى ، ما دام قد أحضر لهم المسيح ، وهو أكثر من أن يقارن بأى شىء يأخذه منهم . ولذلك فانه كان يستغل ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، وكان هدف المعمرين الأول هو البحث عن مناجم الذهب والفضة،ورغم خيبة أملهم فانهم لم يفقدوا الأمل مادام الأهالى يتزينون بالجواهر، ومادام حكام الازاتكة ، والانكا قد تمكنوا من جمع كنوز كبيرة . وأخذ الاسبانيون يغسلون رمال الأنهار ليحصلوا على التبر ، ويبحثون فى الأرض بعناد حتى يصلوا إلى نتيجة . ووجدوا بعض الذهب وكثيرا من الفضة فى المكسيك أولا ، ثم فى بيرو بعد ذلك . وإكتشف أحد الهنود الذى يرعى اللاما مع أحد ضباط بيزارو جبلا من الفضة ،على الهضبة: إنها مناجم بوتوسى التى سيزيد إنتاجها بشكل يسمح للأوربيين باستخدام كلمة « بيرو » للدلالة على الثروات الكبيرة .

وإضطر الاسبانيون إلى الحفر فى الأرض لإستخراج المعدن النفيس ، ولم يكن هذا المعدن نقيا فى أغلب الأحوال ، بل كانوا يضطرون إلى تحطيمه وغسله وتنقيته . وتمكن رجال الكيمياء من تحسين طرق فصل الذهب عن الفضة بمعالجتها بالزئبق . ووجد الاسبانيون ـ لحسن حظهم ـ مناجم للزئبق فى بيرو نفسها ، فتزايدت كميات الانتاج الأمريكية بشكل مذهل . وكانت المناجم ملكا للتاج الذى يمنحها للمستغلين ، والذين يتعهدون بتسليم الملك جزءاً من الانتاج ، يصل إلى النصف أو الثلث فى أول الأمر ، ثم إلى الخمس فيما بعد ذلك ... وكان هذا المعدن ينقل بحريا من بيرو إلى بنما ، ثم على ظهر البغال لعبور البرزخ ، واشحنه من جديد على سفن إسبانية متسعة وبطيئة . وحقق الانتاج الامريكى من المعادن النفيسة آمال إسبانيا والمستعمرة فى وقت بسيط ، وكان يمثل خمسة أو ستة أطنان من الذهب ، وثلاثمائة طن من الفضة فى كل عام .

ولكن الأنتيل لم تلعب أى دور فى هذه المغامرة للحصول على المعادن .

وإتجه المعمرون فيها إلى إستغلال الزراعة ، خاصة وأن أرضهم كانت تنبت الأناناس والموز ، فصمموا على استغلالها فى زراعة قصب السكر ، الذى يعطى السكر والروم ، والذى قد يصل قيمة إنتاجه إلى ما يقرب من الذهب ، أن لم يكن هذا الانتاج يقيم بالذهب . فأصبحوا مزارعين بدلا من اشتغالهم بالمناجم ، وكرروا السكر بدلا من تنقيبهم للمعادن . وزرعوا الذرة وربوا الخنازير . وبدأ المعمرون على القارة نفسها ، وفى المناطق التى لم يعثروا فيها على معادن ، يفكرون فى مثل الانتيل ، فزرعوا التوت فى المكسيك ، والكروم والزيتون فى بيرو ، والموالح والحوامض وأشجار التين والخوخ فى كاليفورنيا ، وأصبح الاسبانيون من جديد مستعمرين بكل معنى الكلمة .

وزاد هذا الازدهار الاقتصادى التجارة بين اسبانيا ومستعمراتها الامريكية. وكانت التجارة بسيطة فى السنوات الأولى قبل العثور على مناجم المعادن النفيسة، ولكن التصدير إزداد مع الزمن فى نفس الوقت الذى ازدادت فيه حاجة المعمرين إلى مواد التموين والملابس والأدوات والخيول والعجول من أوربا . وكانت إسبانيا تنظر إلى عملية التصدير هذه إلى العالم الجديد على أنها خراب لها . ولكن الميزان إنقلب مع الزمن ، وزادت عملية التصدير من أمريكا بارسال الفضة والذهب واللآلىء والأحجار الكريمة ، والسكر والقطن والكاكاو والطباق ، وكانت كلها ترسل إلى اسبانيا وتقوم إسبانيا وحدها بتموين مستعمراتها ، وإحتفظت باحتكار التصدير والاستيراد والنقل مع المستعمرات ، إلا فيما يخص تجارة الرقيق ، وحرمت على السفن الأجنبية الرسو فى أمريكا ، حتى ولو كان ذلك لإصلاح ما يصيبها من عطب ، وبنفس الطريقة التى منعت بها قرطاجة سفن الرومانيين من الرسو فى سرديفيا أو فى ليبيا . وفتحت إسبانيا عددا معينا من الموانى للتجارة حتى تمنع التهريب ، وكانت هى أشبيلية ، التى أخذت مكان قادس ، وبعد ذلك قرطاجة فى داخل البلاد ، وديوس وبورتوبالو

التى كانت تهيمن على التجارة فى الداخل . ونظمت إسبانيا الملاحة فى قوافل كبيرة ، وبطريقة البندقية ، حتى تتخلص من أخطار القراصنة . وكانت السفن تسافر فى شهر أبريل عن طريق جزر كناريا إلى الأنتيل والمكسيك ، وفى شهر أغسطس لبرزخ بنما وأمريكا الجنوبية . أما فى العودة فكانت القافلتان تجتمعان فى كوبا ، وتمر على جزر الخالدات . قبل أن تصل إلى إشبيلية فى شهر مارس .

وكانت هيئة التجارة هى التى تشرف على هذه العملية التجارية ،ولها فى إشبيلية اختصاصات إدارة الهجرة ، وتشرف على مدرسة بحرية ، وعلى محكمة تجارية وغرفة للقناصل . وكانت هذه الهيئة آلة إدارية ثقيلة تخزن البضائع ، وتشرف على عمليات الشحن والتفريغ ، وتحصل الخمس الخاص بالتاج . وكانت عبارة عن وزارة لتجارة الهند . ويشرف رئيسها على أمن القوافل فى المحيط الأطلسى ، وتستلم خزانته الرسوم الجمركية على البضائع ، ويستلم أنصبة أصحاب الشركات وأصحاب السفن الخاصة ، نظير حمايته لتجارتهم . وكان هناك موظفاً عاماً يعينه القصر ، ويشرف على قوافل وأساطيل الهند ، ويرسل إلى الادارات العامة فى العالم الجديد كل ما يلزمها ، من الزئبق اللازم لتنقية المعادن ، إلى الأسلحة اللازمة لأبناء الغزاة .

وكانت هيئة التجارة مؤسسة خاضعة للدولة ، وتشرف على العمليات الفردية الخاصة . فكانت تشرف على العملية دون أن تقوم بتنظيمها ، بل تترك للموردين والمصدرين فى قادس وإشبيلية إتخاذ القرارات اللازمة لهم ؛ ولكن إشرافها كان عبئاً ثقيلا على التجار ، الذين كانوا يحاولون التهرب من دفع الرسوم والضرائب : فلم يقتصروا على خفض قيمة التجارة المفرغة أو المشحونة فى تصريحاتهم الرسمية ، بل بدؤا فى عمليات التهريب ، ووجدوا فى داخل هيئة التجارة نفسها من يشاركهم فى هذه العمليات . وبدأت السفن تفرغ حمولاتها فى البحر قبل دخولها إلى إشبيلية ، وتشحن بضائع أخرى بعد خروجها من الميناء .

كما اتصلوا بمهربين أجانب ، كانوا يقومون بنشاط عجيب فى خلجان العالم الجديد ، وخروج ثلث تجارة العالم الجديد من أيدى هيئة التجارة نتيجة لهذه العمليات .

وإدعت إسبانيا كذلك الاشراف على الصناعات الناشئة فى الهند ، دون أن تتمكن من القيام بذلك بطريقة عملية . وكانت المكسيك تنسج الحرير ، وبيرو تنسج الأصواف ، وكانت هذه السلع منخفضة السعر ، وهددت بمنافسة الصناعة الاسبانية . فمنعت مدريد هذه الصناعة ، ولكن نواب الملك لم ينفذوا هذه القرارات .

وإزدهرت أمريكا الاسبانية بطرق مشروعة ، وطرق غير مشروعة ، وظهر ذلك فى نمو مدنها الصغيرة ، التى كانت تبنى على خطوط منتظمة ، حول ميدان مربع ، كما هو الحال فى مدن اسبانيا ، وتشتمل مثلها على كنيسة ومدرسة وأحد الفنادق ، مبنية على الطريقة القشتالية . وكانت الشوارع تتقاطع مع بعضها ، وتشتمل المساكن على حوش داخلى وعلى أعمدة . وبنيت الكنائس والكاتدرائيات فى مكسيكو وفى ليما ، وأصبحت كل من هاتين المدينتين مركزاً لرئيس أساقفة ، ولها جامعة ، وفتحت الكليات أبوابها للهنود مع الاسبانيين ، وأصبحت لغة قشتالة هى اللغة الرئيسية ، وخاصة فى المدن . ولم تختلف فيرا كروز ولا كراكاس عن بورجوس أوغيرها من مدن إسبانيا . وكان فيها نفس التاجر ونفس الموظف ونفس الضابط ، إلا بوجود رجال لوحت وجوههم الشمس ، وبعض الهنود والزنوج ، للدلالة على أنها ليست إسبانيا ، ولكنها مستعمرة اسبانية .

وهكذا أصبح العالم الجديد إنعكاساً للعالم القديم ، بعد أن أخذ منه لغته وأسماءه وديانته ، فى نفس الوقت الذى إستخدم فيه الخيل والعجلة وصناعة الحديد . وقيل أن تغير أمريكا أوربا قامت أوربا بتشكيل أمريكا .

٤ ـ أوربا الاسبانية :

وكانت إسبانيا هى أهم شىء فى أوربا فى ذلك الوقت ، وكانت قشتالة هى

أهم إقليم في إسبانيا . وقد عملت سلسلة طويلة من الميراث والزواج ، على تجميع الأقاليم والدول على رأس ملوك إسبانيا . ولم يكن ذلك لمجرد الحظ ، إذ أن ملوك إسبانيا قد عرفوا كيف يديرون دفة سياستهم في هذا العصر ، وساعدتهم امبراطوريتهم الامريكية في السيطرة على أوربا ، كما ساعدتهم قوتهم في أوربا ، وسهلت عملهم في إستعمار أمريكا .

ووقعت مهمة إنشاء إسبانيا على الملوك الكاثوليكيين ، فرديناند وإيزابلا ، وكان زواجهم قد وحد بين قشتالة وأراجونة ، مع ملحقات أراجونة في صقلية وإيطاليا . ونجحت جيوشهم في إتمام «إعادة الغزو» والقضاء على الحكم الاسلامي في الاندلس . وجاء إكتشاف أمريكا بعد ٢٨٠ يوما من سقوط غرناطة في أيديهم . ظهرت إسبانيا فجأة في شكل دولة كبرى ، وإن كانت إيزابلا قد ماتت قبل أن تعلم بخطورة العالم الجديد الذى وقع في أيديها ، ولم يعرف فرديناند عن الهند الغربية أكثر من أنها تكلفه الأموال والرجال .

وتجمع مجد إتحاد هذه الاقاليم الموروثة والمفتوحة ، والتي إنتخب عليها ، مع شارل الخامس ، حفيد الملوك الكاثوليكيين ، والذى سيطر على اسبانيا ونابلى وصقلية والمستعمرات الواقعة فيما وراء المحيط ، وأضاف اليها بقية إيطاليا والأراضي المنخفضة والفلاندر وبعض مقاطعات فرنسا ، والنمسا والامبراطورية المقدسة . لقد أصبح سيداً على عالم لا تغرب عنه الشمس ، ولكنه كان يرى في أمريكا وسيلة أكثر من كونها غاية ، وسيلة للحصول على الذهب ، وبالذهب كان يمكنه أن يسيطر على أوربا ويحكمها .

ووصلت إسبانيا إلى أوجها في عصر ابنه فيليب الثاني . ورغم أن شارل الخامس كان قد حاول ترك الامبراطورية لأخيه ، إلا أن فيليب ضم البرتغال مع ممتلكاتها الخارجية ، فأصبح ملكا على لشبونة وعلى ميلانو ، وجنوا ، وبروكسل ، وبالرمو ، ومكسيكو . وجعلت مناجم بوتوسي منه أغنى ملك في أوربا ، وشهدت

الإسكوريال بعظمته . ورغم أنه لم يهمل أمريكا ، إلا أنه انشغل بالأعداء القريبين منه فى أوربا ، أو فى إسبانيا نفسها، بشكل منعه من التفرغ لها. والواقع أن أمريكا كانت تحتاج إلى إهتمام أكثر من ذلك ؛ فلقد كانت ايزابلا تفضل عليها غزو الاندلس ، وفرديناند يفضل عليها ايطاليا ، وشارل الخامس يفضل عليها الفلاندر، وفيليب مشغولا عنها بقشتالة. ولقد كانت مكسيكو وليما تهمهم بدرجة أقل من غرناطة ، ونابلى وأنفرس والإسكوريال . والواقع أن مستعمراتهم الحقيقية لم تكن فيما وراء المحيط ، بل كانت تقع على سواحل البحر المتوسط أو سواحل بحر الشمال . فالواقع أنه لم تكن هناك مستعمرات ، أو كانت كل أقاليم أوربا الاسبانية عبارة عن مستعمرات ، بما فى ذلك أقاليم شبه الجزيرة الايبيرية . فاننا نجد نفس النظام ، مع نائب للملك فى سردينيا ، وفى صقلية ، وفى نابلى ، وفى الفلاندر ، وفى أراجونة ، وفى بلنسية ، مع حكام محليين ، وموكب بيروقراطى ، لملكية مركزية . وكان الملك هو سيد كل ذلك ، بنفس الطريقة التى يسود بها كبار الملاك أراضيهم ، وبدون أن يفرقوا بين الكروم وأراضى الحراثة ، وبين الأراضى المزروعة والمراعى . لقد كان الملك يحكم وكان هذا هو كل شىء . وكانت السلطة الملكية تسيطر على كل السلطات الأخرى ، فكان الاقطاعيون خداما للملك ، وكون الفرسان حاشيته ، أما المجالس التشريعية « الكورتيز » فكانت تغط فى سبات عميق ، والعامة غرقى فى مشكلاتهم اليومية . وسادت سياسة التحكم الدينى فى جميع أنحاء الامبراطورية : إذ أن أسبانيا كانت كاثوليكية ، ولا تقبل أى مذهب آخر ، فإستندت إلى ذلك العامل كأساس من أسس الوحدة ، ولكى تتخلص من المغاربة واليهود فى الاندلس، ومن غير المسيحيين فى الهند الغربية ، ومن رجال الاصلاح الدينى فى الأراضى المنخفضة . وكانت النيران تحرق الكتب ، ومحاكم التفتيش تأمر بأحراق الرجال ، وكل ذلك باسم « النظام الوطنى » .

وتسبب مبدأ الاصلاح الديني في إثارة مشكلة « الوحدة » في الأراضي المنخفضة . ذلك أن الهجنوت ، بعد أن طالبوا بحرية العقيدة ، طالبوا بالحرية المدنية ، والتحرر في نظم الضرائب ، وبضمانات عسكرية. كانوا يطالبون بمعابد روتستانتية ، ثم أخذوا يطالبون بقلاع، ولم يكن هناك مجال للتوفيق بين النظام الاسباني ، بما فيه من سيادة ملكية ، واتحاد امبراطوري ، وبين « الفوضى » البروتستانتية ، فكان من الأفضل نفض الأيدي من ألمانيا ، على الاحتفاظ في عالم قشتالة بمركز إنفصالي ، وكان من الأفضل كبت ثورة الفلاندر أو قطع العلاقة مع الأراضي المنخفضة على الاتفاق مع الهراطقة . ولم تعترف إسبانيا بوجود إله للوثر أو لكلفن فيها أكثر من إعترافها بوجود إله للمسلمين أو لليهود أو للهنود الحمر ، داخل امبراطوريتها .

ورغم ذلك ، فقد كانت الفلاندر أجمل جوهرة في التاج الامبراطوري ، نتيجة لأهميتها الصناعية والتجارية ، ونتيجة لأنها وطن شارل الخامس الأصلي ، إذ أنه كان قد ولد في جاند وأمضى شبابه في بروكسل . وكان شارل أميراً فلمنكيا يتحدث اللغة الفلمنكية واللغة الفرنسية ، ولا يعرف الإسبانية ولا الألمانية ، إنه أرشيدوق الفلاندر الذي ورث عرش إسبانيا . وحينما وصل إلى إسبانيا محاطا بالفلمنكيين إعتقد الأهالي أنها كانت عملية غزو. والواقع أن إسبانيا لم تستعمر الفلاندر ، بل كان الفلاندر هو الذي يستعمر إسبانيا ، باعطائه شارل الخامس إمبراطورا لها . ولقد منح الامبراطور الألقاب والوظائف للفلمنكيين وللبورجنديين وللفالونيين ، مما أثار إسبانيا . واضطر شارل إلى إعادة غزو مملكته . ولم تقبله إسبانيا وتعتز به إلا بعد إنتخابه امبراطوراً. فوافق بعدذلك على تعلم الإسبانية ، ولكنه ملأ مجلس الهند باصدقائه الفلمنكيين ، وعين فلمنكيا آخر قاضيا اعظم لقشتالة ، وثالثا حاكما على كوبا. وكان هذا يدل على أن الفلاندر لم تكن مكبوته، بل كان شارل يجمع مجلس الطبقات ويستشيره ، وإذا كان يحد

من حرية البلديات ، فانه كان يحترم حريات الأقاليم ، ومنح الحكم الداخلي للاتحاد الفلنكي .

ولقد جمع هذا الاتحاد سبعة عشر مقاطعة، وكان مركزه فى بروكسل ،مركز الحاكم العام ، الذى كان عبارة عن خالة الامبراطور ثم أخته ، ومركز مجلس الدولة والمجلس المخصوص ومجلس الميزانية ، والذى كان اعضاءهم يعينون مدى الحياة ، وكان أغلبهم من الفلمنكيين . وظلت الإدارة محلية دون أى تدخل من إسبانيا ، إلا فى السياسة العامة ، التى كانت تسير وفقا لسياسة مدريد . ولقد إزدهرت هذه الأقاليم السبعة عشر فى ظل هذا النظام التحررى،وإزدهرت صناعة الصوف والسجاجيد، كما إزدهرت أنفرس ، وإزدهرت أمستردام نتيجة لاشتغالها بصيد الرنجة .

ولقد إختلف الديكور مع فيليب الثانى ، فبعد أن كان شارل فلمنكيا ، جاء فيليب أميراً إسبانيا ، ورغب فى صبغ الفلاندر بالصبغة الاسبانية . وذلك للتنفيس عن تطرف القشتاليين من جهة، وللقضاء على « الهرطقة » التى سادت هذا الاقليم من جهة أخرى . وكانت هذه العملية الاستعمارية أكثر مرارة من العمليات الاستعمارية فى الهند الغربية ، إذ أن الفلمنكيين لم يكونوا فى كسل الهنود الحمر، كما كانت عواطفهم مشتعلة ، وصمموا على الثورة لإنقاذ حرياتهم الوطنية ، وعقيدتهم الدينية . وحاول فيليب أن يحتفظ بالوحدة السياسية،ووحدةالعقيدة، فأرسل دوق إلب نائبا للملك من ميلان ، وعلى رأس عشرين الف رجل . وكان صارما ، ونشر الارهاب الإسبانى ، وأسرف فى إلقاء القبض والقتل ، وفى فرض نفسه ، وعين الاسبانيين فى المجالس الفلمنكية . ولكن المجازر والنهب لم تتمكن من القضاء على المقاومة المحلية . اما انصار كالفن بعد إنتصارهم،فانهم لم يكونوا أكثر تسامحا من الكاثوليك ، وتحولت الحرب الاسبانية إلى حرب أهلية . وحينما إستلم فيرنيز سلطته كحاكم عام . وكان إيطاليا ، قام بمناورات ،

وصل بها إلى الفصل بين السبعة أقاليم الشمالية ، التى حصلت على إستقلالها لكى تصبح الأراضى المنخفضة الحرة ، والتى ازدهرت بسرعة ، وبين العشرة أقاليم الجنوبية التى حافظت على ولائها لروما ولمدريد،والتى إحتفظت بحكامها العسكريين وبحامياتها الاسبانية ، التى ظلت راسخة تحت الحكم الأجنبى .

أما إيطاليا فانها لم تكن أسعد حظا . حقيقة أن حركة الإصلاح الدينى لم تزعجها ، ولكنها كانت ميدان حرب لطموح كل من الإسبانيين والفرنسيين . وكانت إسبانيا ترغب فى أن تصل أقاليمها فى صقلية ونابلى بالنمسا والفلاندر ، أما فرنسا فكانت تحاول كسر هذه العملية التى تهدد بتطويقها وخنقها . ولقد كسبت مدريد معركة إيطاليا ، وخضعت لها كل شبه الجزيرة ما عدا البندقية ، ووضعت حامياتها فى تسكانيا وسافوا ، كما خضعت لها جنوه وبارما . وإعتمد الحاكم فى ميلانو على إدارة ثابتة وجيش إحتلال . أما نائب الملك فى نابلى فكان يعاونه مجلس يتشكل من أحد الايطاليين وإثنين من الاسبانيين ، وأما الجيش فكان إسبانيا ، خاصة وأن الإدارة كانت تجند الايطاليين للخدمة العسكرية فى مناطق أخرى ، وكذلك إحتفظت الادارة بالوظائف الكبيرة للاسبانيين ، فى نفس الوقت التى كانت فيه الضرائب مرتفعة ولم يستسلم كل الايطاليين لهذا التحكم ، فتمرد دوق سافوا ، وثارت صقلية أكثر من مرة ، وعارضت أسر نابلى القديمة المحتلين الاسبانيين . ولكن إيطاليين آخرين قبلوا سيادة قشتالة ، وتمكن سادتهم الجدد من إدخالهم فى مجلس الهند ،وعينوا أحد أفراد أسرة فيرنيز ممثلا للملك فى الأراضى المنخفضة . وكان الايطاليون فى مجموعهم يعزفون عن شئونهم السياسية ، ويتفرغون للفنون والآداب والعلوم ، وتمكنوا من رسم الجوكوندا وبناء كنيسة القديس بطرس فى روما ، كما تمكنوا من إثبات أن الأرض تدور ، وإكتشفوا عوالم جديدة للاخرين ، وقبلوا فى نفس الوقت أن يقوم غيرهم بإستعمارهم ، كما قبل مرطن أغسطس وكريستوف كولومب أن

يصبح مجرد أقاليم متفرقة ، تخضع لحكم الامبراطورية الاسبانية .

ولقد كاد الحوض الغربي للبحر المتوسط أن يصبح بحيرة إسبانية. ولكن فرنسا إضطرت إلى التحالف مع الاتراك العثمانيين حتى تحطم العملية التى هدفت تطويقها . وقامت إسبانيا ، من ناحيتها ، بارسال حملات إلى مليلة ووهران وبجاية ، وطرابلس ، وتونس، وإحتفظت بالمكانين الأولين منها تحت سيطرتها ، وإذا كانت قد فشلت أمام الجزائر ، فانها قد تمكنت من هزيمة الأسطول العثمانى فى ليبانتو سنة ١٥٧١ . وانقسمت القوى بشكل أظهر البحر المتوسط خاضعا لقوتين ومنقسما بينهما : قوة الإمبراطورية العثمانية فى الشرق ، وقوة إمبراطورية قشتالة فى الغرب .

وكانت البرتغال هى آخر الغزوات فى أوربا . وإنتهت الأسرة الحاكمة فيها دون ترك وريث مباشر ، فأفاد فيليب الثانى من هذه الفرصة، وإستولى على العرش الخالى ، وكلف دوق الب ، من جديد ، بترويض المعارضين . ووعد فيليب باحترام القوانين البرتغالية ، إلا أن النبلاء إشتكوا من إبعادهم عن الحكم ، كما اشتكى البرجوازيون من شدة وطأة الضرائب. ولم يقبل البرتغاليون المقيمون فيما وراء البحار هذا الإتحاد مع إسبانيا بسهولة ، ودافعوا عن حقوقهم حينما وجدوا أن إسبانيا لا يمكنها معاونتهم ، كما حدث فى منطقة الامازون . وعلى أى حال فان وحدة شبه الجزيرة الأيبيرية قد تمت ، وبقيت لمدة ستين عاما .

فكانت إسبانيا إذاً موجودة فى أوربا من لشبونة إلى بروكسل ؛ وكانت لها أقاليم فى هذه القارة لا تقل أو تزيد، فى نظام الحكم الإستعمارى ، عن ممتلكاتها الأميريكية ، وكان لها فى كل منها ، كما كان لها فى كل العالم ، ميليشيا كاثوليكية ناشئة . ذلك أن أحد أبناء نافار الذى ولد فى ليولا كان قد ترك الخدمة العسكرية ووهب نفسه لخدمة السيد المسيح ، وأنشأ جماعة اليسوعيين « الجزويت » . وعمل على محاولة تمسيح غير المسيحيين ، والكفاح ضد « الهراطقة » أى غير الكاثوليك ؛

وظلت إسبانيا وأقاليمها الخاضعة تعطى قيادات هذه الجماعة لمدة طويلة ،وإنتشرت بعثاتهم فى جميع أنحاء العالم ، وساعدوا على صبغه بالصبغة الاسبانية . وسيصلون بعد ذلك ، مثل جماعة الإخوان الإسبانالية والاخوان الثيوتونيين ، إلى دور المستعمرين ، بعد أن كان هدفهم هو كسب الأهالى للانجيل .

هذه هى الامبراطورية الاسبانية ، ويمكنها أن تظهر كامبراطورية تمت بطريقة غير طبيعية ، ونتيجة لعمليات زواج أو لعمليات ملاحة بحرية ، ولعب الحظ دورا كبيرا فى وصول كولومب إلى الانتيل ، وفى دخول بورجونيا فى ميراث قشتالة . ورغم ذلك أن هذه العمليات تتكامل . وكانت أراجونة محتاجة لقمح صقلية ، والأندلس محتاج للسيطرة على وهران لأمنه، ومدريد محتاجة لفضة بيرو لميزانيتها ، وللجنود المبشرين، الذين أنشأهم إيجناس دى ليولا ، فى دبلوماسيتها. ولكن « القطع » الأوربية من هذا البناء الضخم كانت رقيقة ، ولا يمكنها أن تقاوم الأطماع الخارجية، ونمو الحركات القومية . لفترة طويلة. أما إمبراطورية ما وراء البحار ، فانها كانت بعيدة ، وبشكل يحميها ويحافظ عليها ، ولعدة قرون أخرى .

الفصل الخامس عشر

البرتغاليون ومنافسوهم

لم تكن الهند التى وصل اليها الغزاة عبر المحيط الأطلسى صدفه هى بلاد الهند الأصلية ، بل كانت جزر الهند الغربية . أما الهند التى كانت أوربا تحلم بالوصول اليها فكانت فى الشرق ، وفى نهاية الطريق الذى إحتفظ به البابا للبرتغاليين ، بعد أن سارت سفنهم فيه . ولكن ، ألا يؤدى استمرار السفر غربا ، بعد الهند والأمريكتين ، إلى الوصول إلى الهند الحقيقية ؟ وهل هناك حدود يمكن للبابا أن يضعها بين ممتلكات الاسبانيين والبرتغاليين فى أقصى الشرق الأقصى ؟ أو فى آخر أقصى الغرب ؟ وعلى أى حال فلنتتبع وصول البرتغاليين للهند ، لكى نصل إلى تطور الأحداث الاستعمارية فى العالم بعد ذلك .

١ ــ البرتغاليون فى الهند الشرقية :

كانت الهند تعيش فى ذلك الوقت منقسمة وكان كل من السلاطين الأتراك والأفغان يتنافسون فيها ، وفى جو من الكسل ، ويحتفظون للهندوس بالوظائف الصغيرة . ولقد تمكن بابر ، الحفيد الخامس لتيمور لنك ، والحفيد الرابع عشر لجنكيز خان ، من مد حكمه من سمرقند إلى كابل ، ثم إلى دلهى وأجرا . وإنتصرت مدفعيته على أفيال الاقطاعيين . وسيطر على شمال الهند ، بعد أن نشر الارهاب على طريقة أجداده ، وأحرق النساء والأطفال .

ولقد تمكن حفيده أكبر ، الذى عاصر فيليب الثانى ، من اتمام عمل جده ، ومن تجميع كل الهند تحت حكمه ، ما عدا أقصى الجنوب . فأصبح الخان الأعظم ، وتمكن بذلك أحفاد المغول من حكم الهند ، وسمى الغربيون امبراطوريتهم باسم امبراطورية المغول الكبيرة . وكانت هذه الامبراطورية تشتمل على مائة مليون

لسمة ، وتتسع لمليون ، ونصف مليون من الكيلومترات المربعة . ولقد أدهشت هذه الامبراطورية البرتغاليين الذين وصلوا اليها . وكان البرتغاليين يحملون معهم المرسوم البابوى الذى يمنحهم شرق العالم،وكان برنامجهم يتلخص فى الوصول إلى ثروات الهند ، والمتاجرة على حساب البنادقة والعرب . ولم يكن فى وسع البندقية أن تصل إلى سلع الشرق الأقصى فى ذلك الوقت إلا بعد صعوبات كبيرة ، وعبر العراقيل التى وضعها الأتراك ، وبعد دفع مبالغ طائلة لنقل البضاعة بين البحر الأحمر والبحر المتوسط . وكان العرب يحتفظون باحتكار التجارة فى المحيط الهندى. ولم يكن هدف البرتغاليين إلا أن يحطموا هذه المنافسة المزدوجة، ويضمنوا لأنفسهم احتكار تجارة الهند ، وينتهزوا الفرصة لنشر المسيحيه هناك .

ولقد رأينا البرتغاليين ينشئون المراكز على سواحل إفريقية وعلى طول الطريق المؤدى إلى التوابل . كما قام دياز بالإلتفاف حول رأس الرجاء الصالح . وجاء بعده فاسكو دا جاما مع أربع سفن خفيفة ، وتعرف على مونوموتابا . وجزيرة موزمبيق ثم ممبسة قبل أن يتجه صوب الشرق ، ويصل إلى كلكتا ويشم رائحة التوابل .ولكنه عاد فى رحلة ثانية مع إحدى وعشرين سفينة حربية مسلحة وهاجم المنشآت العربية فى المحيط الهندى ، وأسس مركزاً فى كوشين على ساحل المالابار ، وبدأت بذلك الامبراطورية البرتغالية فى آسيا .

وواصل كل من ألميدا ، والبوكيرك هذه العملية ، وحاولوا من جهة ، أن يبعدوا العرب تماما من تجارة الهند ، وأن يصلوا فى نفس الوقت إلى التخلص من البنادقة . وقام البرتغاليون بتنفيذ ذلك بحماس ووحشية ، فأخذوا فى إحراق سفن العرب ، وفى هدم المدن والمراكز الاسلامية . وفى طرد التجار ، وإدعوا أنها كانت حرباً صليبية ضد المسلمين ، وتحول المحيط الهندى إلى بحر برتغالى ، إحتفظت لشبونة باحتكار التجارة فيه ، ومنعت كل سفينة من الملاحة فيه ، إلا

بعد تزويدها بتصريح رسمى من ملك البرتغال ، حتى وإن كانت هذه السفينة تابعة للسلطان الأكبر . وعمل البرتغاليون ، من ناحية أخرى على إنشاء مراكز لهم على طول الطريق ، وفى بلاد التوابل ، وإختاروا أحسن المراكز، على الجزر الصغيرة أو فى الخلجان المحمية ، وفى أحسن المواقع للتجارة وللرسو، ثم أعدوا فى كل منها مخزناً وقلعة ، وتركوا فيها بعض التجار وبعض العمال وبعض الجنود . وتمكنت الجيوش الأوربية من فرض نفسها على الشرقيين الذين لم يقدروا معنى مجىء البرتغاليين ، وإقامتهم فى نقط صغيرة ، ولم يفكروا فى معنى عملياتهم ، وتأثيرها على التجارة العالمية .

وأقام البرتغاليون بهذه الطريقة فى إفريقية الشرقية، فى دالا جوا وفى سوفالا وموزمبيق وفى جنوب مدغشقر، كما أقاموا فى سوقوطرة عند مدخل البحر الأحمر، وفى هرمز ، عند الخليج الفارسى ، وفى مسقط. أما فى الهند ، فان البرتغاليين قد أقاموا فى ديو ، وفى دمان التى تسيطر على تجارة شمال الهند ، وفى جاو التى كانت مركزاً لتجارة ساحل المالابار والهند الوسطى ، وفى كانانور وكوشين ، وهما مخارج الهند الجنوبية ، فى سيلان المواجهة لخليج البنغال .

ولقد وجد البرتغاليون فى الهند كثيراً من التوابل والأنسجة ، ولكن معظم التوابل كانت تأتى من أبعد من ذلك ، ومن بلاد « وبنزر » موجودة قرب الشمس المشرقة . فذهب البرتغاليون للبحث عنها على طول سواحل سيام ، وعند مصبات الميكنج، حيث وجدوا الطبيعة تشبه طبيعة مركزهم فى كوشين، فسموها الكوشين صين ، وهى ما أصبحت الهند الصينية فيما بعد. ووصل البرتغاليون إلى سومطرة وإلى جاوة ، وهم يبحثون عن القرنفل والمسك . وكانت ملقة هى مفتاح المضايق، فقاموا بإحراقها ونهبها ، وأنشئوا قاعدة لهم هناك ، فأصبحوا يقيمون بين مزارع الفلفل والقرنفل والقرفة .

وكانت الصين تغريهم على المجىء اليها . فوصلوا إلى كانتون ، وتفاوضوا ،

ثم طردوا ، ولكنهم عادوا مرات كثيرة ، وإنتهوا بإقناع الصينيين بقبولهم وبتركهم يقيمون فى شبه جزيرة ماكاو ، عند مصب نهر كانتون ، وعلى أساس دفع إيجار لهذه القاعدة الجديدة التى بقوا فيها لمدة ثلاثة قرون متتالية ، وجعلوها مركزاً لتجارتهم مع الصين .

وكانت اليابان تستحق بعد ذلك زيارة خاصة من البرتغاليين ، ووصل إليها ثلاثة منهم فى سنة ١٥٤٢ ، ثم جاء آخرون بعد ثلاث سنوات ، وكانوا من التجار وبدأوا فى المفاوضة . ثم جاء أحد أتباع ليولا ، وهو فرانسوا إجزافييه ، الذى أخذ فى الوعظ فى ملقة وفى سيليبيس . وأعتقد الأهالى أنه كان مجدداً فى الديانة البوذية ، ولكن التجار البرتغاليين إنتهزوا نجاح هذا القديس ووضعوا أرجلهم فى هيرادو ثم فى نجازاكى .

وهكذا إمتدت منطقة عمليات البرتغاليين على طول آلاف من الكيلومترات ، وعلى طول سواحل افريقية ، إلى موزمبيق وزنزبار ، ثم على طول سواحل آسيا ، من بلاد العرب حتى اليابان .

وكانت هناك سياستان متعارضتان فى ذلك الوقت فى البرتغال ، وتردد البرتغاليون بينهما فترة من الزمن ؛ أما الميدا فكان يعتقد فى ضرورة الاحتفاظ بالتفوق البحرى ، وبأسطول قوى ، دون أن يزيد النفقات بإنشاء مراكز إحتلال برية ؛ أما البوكيرك ، الذى إنتصر على الميدا ، فكان من أنصار سياسة برية ، ولم يكتف بإحتلال مفاتيح خطوط الملاحة البحرية ، مثل هرمز وملقة ، بل زاد من عدد المراكز ، ووسع مناطقها ، وحاول أن يأتى إليها بالمعمرين . وكانت سياسته بسيطة : ففى جاوا مثلا ، لم يكن على البرتغاليين إلا أن يقتلوا الرجال ، ويتزوجوا النساء ويعدوا الأطفال . فنشأ شعب مخلط ، وكاثوليكى ، وخاضع للبرتغال . وأفادت هذه السياسة من التنافس الموجود بين مسلمى الهند ، أو المغول أو الأتراك العرب ، وبين الأهالى . وقام البرتغاليون بإحراق المساجد ، وبنقل مافيها إلى الكنائس ،

وحولوا جاو إلى لشبونة صغيرة ، ووضعوا لها نظماً نقلوها عن نظم عاصمة نهر التاج، بمجلس أعلى ، وأسقفية ودير وحامية وتجار . أما فى غيرها من المراكز التى كان الهندوس يمثلون فيها أغلبية ، فإن البرتغاليين قد إكتفوا بإخضاع الراجا ، دون أن يمسوا النظم المحلية،ولكنهم عقدوا فى نفس الوقت إتفاقات تجارية تضمن لهم بيع تجارة البرتغال بأسعار محدودة ، وتمنع أى منافسة ممكنة ، وخاصة من الأقاليم الإسلامية .

ولكن العجيب هو أن مليونا ونصف مليون من البرتغاليين قد تمكنوا من القيام بكل ذلك . ولكن هذه السياسة كانت تكلفهم الكثير ، وفى كل ميدان : الأموال الباهظة للإستمرار فى حرب مستمرة ، والكثير من الرجال لتوطنيهم فى المستعمرات . وكان البرتغاليون يمنعون هجرة النساء،ولذلك فإن البرتغاليين كانوا ينتقلون بمفردهم إلى آسيا ، وينقلون معهم قوانينهم وديانتهم . وعاشوا فى ماكاو ولم يزد عددهم على الألف،وراء ذلك الحائط الذى بنته الصين لتحديد مستعمراتهم ، ولإستلام رسوم الجمارك منهم ، ولكن تحت حكامهم ، وبإدارة مجلس شيوخ خاص بهم .

وكانت هناك سبع حكومات تقتسم فيما بينها حكم المراكز البرتغالية ، من رأس الرجاء الصالح إلى ماكاو . وكان حاكم جاو يتمتع بلقب نائب الملك . ويعين لمدة ثلاث سنوات،على الطريقة الاسبانية . ولكن الإغراء والفساد إنتشرا فى الإدارة الإستعمارية، رغم إرسال المفتشين من لشبونة ؛ وكان هدف الجميع،بطبيعة الحال، هو الإثراء وجمع الثروة بكل طريقة ممكنة .

وكانت هناك حكومة لدول الهند ، والهيئات المكلفة بالإدارة الاقتصادية فى لشبونة ، وتسمى بيت المينا ، وتتحكم فى ذهب غينيا ، مع بيت الهند ، الذى كان يشرف على الأساطيل وعلى المراكز ، ويحدد أسعار السلع المصدرة وأسعار التوابل المستوردة . وإحتكرت البرتغال العمليات التجارية فى المحيط الهندى ،

واحتكرت الدولة البرتغالية تجارة الفلفل، وأصبح ملك البرتغال هو ملك الفلفل؛ وكان يدفع نفقات بلاطه وقصره، وحتى مهر إبنته عينا من الفلفل . وكانت كل التوابل الأخرى تستورد إلى لشبونة فى صناديق مقفلة ، ويقوم مفتشو البيت ببيعها بعد أن يحصلوا على نسبة ثلاثين أو ستين فى المائة من أثمانها ضريبة للخزانة، وكانت تجارة البرتغاليين مع الشرق ، مثلها فى ذلك مثل تجارة الاسبانيين مع العالم الجديد ، تخضع للفصول السنوية ، فكانت السفن تقلع من لشبونة فى أوائل الربيع ، وتفيد من الرياح الموسمية الشتوية ، لكى تصل إلى لشبونة على مصب التاج فى شهر يونيو أو يوليو ، وبعد رحلة تدوم خمسة عشر شهرا . وكانت هناك أخطار البحر ، وتقلبات السوق ، ولكن إمكانيات الربح كانت تغطى كل ذلك . وحقق البرتغاليون أحلام الغرب القديمة ، وأصبحوا سادة التوابل ؛ ولم يكن الصليبيون أو أبناء جنوة أو البندقية قد وصلوا من قبل إلى مناطق انتاجها ، ولم يصلوا الا إلى رأس القوافل ، أما غزاة لشبونة فقد نجحوا ، لأول مرة فى التاريخ ، فى الوصل بين مزارع القرفة وبين المطارين فى أوروبا الغربية .

٣ ـ حدود الشرق الأقصى مع أقصى الغرب :ـ

لم يكن البرتغاليون بمفردهم فى هذا الميدان كما يرغبون . وكانوا يحتفظون بحقهم على الشرق ، تجاه الدول الأوربية الأخرى استناداً إلى مرسوم البابا اسكندر السادس ، الذى كان قد قسم العالم بنصف دائرة . ولكن أحداً لم يفكر ، مع هذا التقسيم ، فى أن المنافسين يمكنهم أن يصطدموا مع بعضهم من الناحية الأخرى من الأرض ، ودون أن يكون هناك خط حدود بين مناطق نشاطهم .

وكان الاسبانيون غير قنوعين بالعالم الجديد ، الذى لاتوجد فيه أى توابل ، وصمموا على الوصول إلى الهند ، بنفس الطرق التى أعطاها البابا لهم ، أى بمواصلة

السفر صوب الغرب ، حتى ولو كان ذلك بعد الالتفاف حول أمريكا ؛ وإذا كان الجو غير مساعد من الشمال ، فإن ماجلان قد نجح ، وبأول محاوله ، فى السفر من الجنوب .

وكان ماجلان برتغاليا ، ولكنه عمل لحساب شارل الخامس . وأقلع بخمس سفن ومائتين وثلاثين رجلا الالتفاف حول العالم . ورسا فى ربو ، ثم هجرته إحدى سفنه، وفقد سفينة ثانية فى البحر. وإستمر مع السفن الثلاث الباقية وعبر المضيق الذى حمل إسمه ، وخرج إلى المحيط الهادى . وسارت السفن لمدة مائة يوم وعشرة . ونزل الاسبانيون على إحدى الجزر التى سموها سان لازار ، والتى أنشأ ماجلان فيها أحد المراكز ، قبل أن يقتل فى معركة مع الأهالى . وإحترقت إحدى سفنه ، وأسر البرتغاليون السفينة الثانية ، ولكن السفينة الثالثة وصلت إلى بورنيو ، ثم سارت وسط الأرخبيل وخرجت إلى المحيط الهندى ، والتف، حول رأس الرجاء الصالح ، ووصلت إلى اسبانيا وعليها ثمانية عشر رجل ، بعد رحلة دامت ثلاث سنوات ولقد ثبتت هذه المرة أن الأرض كروية تماما ، وتأكد الرجال من ذلك . ولكن التنافس الاسبانى البرتغالى بدأ بعد ذلك ، وفى المنطقة المضادة للمحيط الأطلسى على الكرة الأرضية .

ولقد اشتبكت قوات هاتين الدولتين فى ملقة ، كما اشتبكت جنوه مع البندقية فى قبرص وفى بيزنطة من قبل . أنها حروب استعمارية ، وبين المستعمرين . وكان البرتغاليون هم أول من وصل إلى هناك ، وكانوا أقوى من الاسبانيين . وكان شارل الخامس فى حاجة إلى النقود ، فاضطر إلى ترك مطالبه نظير ٣٥٠ ألف دوق من الذهب ، ولكنه لم يتخل عن جزر سان لازار ، التى سميت الفيليبين ، نسبة إلى ولى العهد الذى سيصبح فيليب الثانى فيما بعد . وأقام فيها بعض مئات من الاسبانيين ، ونشأت مانيلا العاصمة سنة ١٥٧١ . وتحاشى الاسبانيون اساءة معاملة الأهالى ، ولم يدخلوا نظام الرق أو جماعات العمل الاجبارى فى الجزيرة .

واكتشف الاسبانيون جزر هاواى وسالمون عن طريق المحيط الهادى ، ووصلت تجارة الفيلبين إلى اسبانيا عن نفس الطريق . وقامت السفن الاسبانية برحلات منتظمه بين مانيلا والموانى الغربية للمكسيك ، ونقلت منتجات الصين ، من الصينى والحرير ، إلى إشبيلية ، عن طريق المحيط الأطلسى وحاول الاسبانيون أن يتاجروا مع الصين نفسها ، ووصلوا إلى كانتون وحاولوا عقد معاهدة تجارية ، ولكن البرتغاليين تدخلوا للاحتفاظ باحتكارهم فظلت التجارة بين الصين والفيلبين فى أيدى الصينيين أنفسهم ، وهم الذين كانوا قد وصلوا إلى الجزيرة قبل الاسبانيين . وحاول الاسبانيون أن يتخلصوا منهم ، فقتلوا عشرين ألفا ؛ ولكنهم عادوا ، وبأعداد أكبر . ورغم أن الاسبانيين استخدموا نفس الطريقة من جديد ، إلا أنهم فشلوا فى وقف هذه الهجرة ، وفى انتزاع التجارة بين الصين والفيلبين من أيدى الصينيين . وحاول الاسبانيون أن يصلوا إلى اليابان ، ووصلت سفنهم إلى هيرادو ، ولم يكن فى وسع البرتغاليين أن يمنعوهم ، ولكن علاقات الاسبانيين مع اليابان لم تتقدم أكثر من ذلك .

وظلت لشبونة متفوقة فى هذه المياه ، وحتى الوقت الذى قامت فيه اسبانيا بضم البرتغال نفسها . وكان على اشبيلية أن تنعى حظها فى المحيط الهادى ، ولكنها كانت تسيطر على الذهب والفضة الأمريكية . أما لشبونة فكانت تستلم ثروات افريقية وآسيا من تبر الذهب ، والعاج ، وكاكاو غينيا ، وسكر ماديرا ، وعبيد لواندا ، وقرنفل زنجبار وقهوة موخا ، والصمغ العربى ، والماس ، واللآلىء ، وأحجار الهند ، والقطن ، والشاى من سيلان ، وفلفل ملقة والمسك والقرفة والصينى والحرير من الصين ، مع كل الأعشاب والعطارة ومواد الصباغة والعطور والمخدرات التى تنتجها جزر التوابل . وكانت هذه السلع النفيسة تصل بآلاف الأطنان ، وتخزن على أرصفة نهر التاج ، وبكميات لم تشهدها البندقية من قبل . وقامت لشبونة ببناء السفن وصناعه الأسلحة ، وتكرير السكر ،

ولكن دولة البرتغال الصغيرة لم يكن فى وسعها أن تعمل كل شيء . فلقد قام غزاتها بإنشاء امبراطورية ، وإنتشر بحارتها فى المحيطات،وجاء تجارها إلى لشبونة بثروات قارتين ، ومئات من الجزر ، فكانت مضطرة بعد ذلك إلى أن تترك لغيرها مهمة توزيع هذه السلع وقامت أنفرس ، وهى على بعد خمسة عشر يوما من السفر بحراً من لشبونة ، بهذه العملية .

وكانت أنفراس هى عاصمة رؤوس الأموال، وأكبر مركز للتجارة الأوربية، وكانت لها سفنها ورصيدها ، وكان فى وسعها أن تشترى وتنقل وتبيع . لقد كانت لشبونة هى المخازن ، وكانت أنفرس هى السوق . كانت لشبونة تخزن كميات كبيرة ، وتترك لأنفرس إعادة بيعها بالتجزئة . وقام البحارة الفلمنكيون بشحن التوابل من مصب نهر التاج لكى يوزعونها بعد ذلك على كل موانى الغرب ، وطبقاً العقود التى عقدها رجال المال فى أنفرس نفسها . ولكن أنفرس كانت مستعمرة اسبانية ، وبذلك تكون اسبانيا هى المنتصره ، مادامت التوابل تنتهى فى مطافها إلى مراكز خاضعة لها ، وبين أيدى رجال هم من رعاياها .

ولقد حاول دوى البا ، نائب الملك فى الأراضى المنخفضة ، أن يكسب من هذه العملية ، وذلك بفرض ضريبة تبلغ ١٠ ٪ على كل عملية تجارية ولصالح الخزانة الاسبانية . ولكنه ساعد بطمعه ، ودون أن يدرى ، على إنتشار مذهب كالفن . وإنتهزت أمستردام ، عاصمة الزنجة ، هذه الفرصه لكى ترث أنفرس . وحينما انفصلت الاراضى المنخفة الشماليه عن الأراضى المنخفضه الجنوبية سنة ١٥٨٣ ، قضوا على تجارة أنفرس . ولكن لشبونة كانت قد أصبحت إسبانية منذ سنة ١٥٨٠ ، ومنع فيليب الثانى دخول تجارة الأراضى المنخفضه الثائرة إلى موانيها . فكانت النتيجة هى أن الهولنديين قد صمموا على ترك التعامل مع البرتغاليين ، خاصة وأن مرسوم البابا اسكندر السادس لم يكن ذا قيمه فى نظر الهجنوت ؛ وقرروا الذهب بأنفسهم إلى بلاد التوابل . وكان البابا قد نسى أن

أنصار الاصلاح الديني لن يعترفوا بتقسيمه العالم ، ولثروات العالم .

٣ ـ المنافسة الانجليزية :

كانت هناك شعوباً أخرى فى العالم تطالب بنصيبها من هذه الثروات ، ومنهم الانجليز والفرنسيين الذين شعروا بأنهم مظلومين ويتساءلون عن السبب فى احتكار الاسبانيين والبرتغاليين لثروات العالم. وأعلن فرنسوا الأول أن الشمس تشرق للجميع ، وطالب بعرض وصية آدم التى تحرمه من تقسيم العالم. وكانت الطريقة العملية لإعادة التوازن تتلخص فى إنتزاع الثروات إنتزاعاً من المستعمرين ومن مستعمراتهم فهل هذه هى القرصنة ؟ لقد حاول بعض الفقهاء والمشرعين التمييز بين القرصنة والقناصة البحرية ، وذكروا أن القراصنة هم مجرد قطاع للطرق البحرية ، وأما القناصة فتعترف دولهم رسمياً بهم ، وتعطيهم الحق الرسمى ، فى وقت الحرب ، لأسر سفن الأمة المعادية ، والاستيلاء عليها .

ولقد قام القناصة البحريون بسفنهم السريعة بعمليات السلب بالقرب من الأنتيل ، وتعاونوا مع المهربين الذين كانوا يحاولون الوصول إلى العالم الجديد ، وكثيراً ماقاموا بالنزول إلى الأماكن والمراكز التى تخزن فيها البضائع وهاجموها ، كما هاجموا ونهبوا السفن الإسبانية التى كانت تخاطر من وقت إلى وقت بالسفر بمفردها على المحيط الأطلسى أو المحيط الهادى .

ولقد قام القناصة الفرنسيون بمهاجمة مخازن هافانا وحولوا الأماكن القريبة من جزر كناريا والخالدات إلى مناطق عمليات وصيد بحرى . وكانت أهم مغامراتهم فى سنة ١٥٢٣ حين تمكنوا من أسر سفينتين من ثلاث سفن اسبانية كانت تحمل إلى شارل الخامس ، من كورتيز ، كنوز مونتزوما ، وعثروا فيها على أوانى ذهبية وفضية وأحجار كريمة كبيرة . وظهر قناصة آخرون أمام ديو وهاجموا سومطرة . وكان البرتغاليون يعذبون القراصنة الذين يقعون فى أيديهم حتى يحتفظوا باحتكارهم .

أما الانجليز فكانوا يراقبون السفن الاسبانية أمام خليج قادس . وقام هوكنز باستيلاء على حمولات كاملة من العبيد ، وكان يبيعها بعد ذلك فى أمريكا . وقام ابن عمه فرنسيس دريك بالنزول فى أمريكا الوسطى وبمهاجمة قوافل البغال التى تحمل الذهب والفضه من بيرو ، واستولى عليها وعاد إلى بليموث بالسبائك . وشجعت الملكة اليزابيث مشروع السفر حول العالم حتى تتمكن من تطويق أمريكا الاسبانية ، وساهمت فى مشروع الحملة .وقام دريك بعبور مضيق ماجلان، ودمر منشآت الاسبانيين من شيلى إلى كاليفورنيا ، وإستولى على سفينة اسبانية محملة بالذهب ، وعبر المحيط الهادى وفرض غرامه كبيرة على مانيلا ، وتزود من جاوة ثم عاد إلى انجلترا عن طريق رأس الرجاء الصالح يحمل غنائم كبيرة . ولقد قام دريك برحلته حول العالم هذه فى وقت السلم ، ومع ثمانين هجمة وغزوة . وإذا كانت اليزابيث قد تبرأت منه ، إلا أنها كافأته فى نفس الوقت . وحينما نشبت الحرب بدأ دريك من جديد فى هايتى وفلوريدا وهاجم وأغرق مائة سفينة اسبانية فيها ، وقام دريك بدوره فى هزيمة الارمادا أمام بليموث سنة ١٥٨٨ ، وعرف الانجليز أنهم بحارة مهرة .

ولكن القرصنة وأعمال القناصة البحريين ليست من الاستعمار ، رغم أن دريك كان قد استولى على موقع فى شمال كاليفورنيا ، ووضع أحد سلاطين جزر التوابل الثائرين ضد البرتغال تحت حماية الملكة اليزابيث . ولكن فكرة الاستعمار بدأت رويداً فى النضوج فى رأس البريطانيين . وكانت انجلترا تفضل بعض المراكز فى أوربا أو جويانا أو كاليه على أقاليم استعمارية واسعة فيما وراء البحار . وكانت حروبها الطويلة مع فرنسا والخلافات الداخلية قد أبعدتها عن الاستعمار فيما وراء المحيط ،كما كانت فى صعاب جمة مع اقليم ويلز التى حاولت أن تدخل فيه إدارتها ، ومع إيرلندا التي حاولت أن توطن فيها بعض المزارعين الانجليز .

وعهدت بريطانيا لأولى حملاتها البعيدة إلى جان وسباستيان كابوت الايطاليين اللذان أبحرا من بريستول ، لكي يبحثا عن طريق شمال يوصل إلى الهند . فوصلا إلى نيوفوندلاند وعثرا على مناطق غنية بالأسماك ، وإن كانت الأسماك لايمكنهما أن تحل محل الذهب والتوابل . وقام بحارة آخرون مثل فروبشير وجلبيرت وادفيس بمحاولات أخرى ، واستكشفوا سواحل لبرادور وجرينلاند واتصلوا بالاسكيمو ، وتعلموا صيد الحوت ، ولكنهم لم يجدوا الطريق المؤدى إلى الهند .

وفكر الانجليز فى الالتفاف من الناحية الأخرى صوب الشمال الشرقى للالتفاف حول آسيا بدلا من الالتفاف حول أمريكا ؛ وقام تشانسليور باعداد حملة مولها تجار لندن وسار على طول سواحل لابونيا ، ووصل إلى بحر لايرى الليل ، إنه البحر الابيض.ووصل بعد ذلك إلى نقطة ستصبح أركانجل ، وسمع هناك الاهالى يتحدثون عن مدينة كبيرة يمكن الوصول اليها عن طريق الزحافات . فهل هى بكين ؟ إنها لم تكن إلا موسكو . وتأسست الشركة الموسكوفية فى لندن للتجارة مع روسيا . وكانت هذه الشركة تحلم باستخدام الطريق الجديد عبر روسيا والشرق للوصول إلى الهند . وحاول جنكنسون سنة ١٥٦١ أن يسافر عن طريق الفولجا وبحر قزوين حتى فارس . ووصل ثلاث تجار إنجليز إلى نهاية الرحلة سنة ١٥٨٣ ؛ ولكن الاخطار كانت جسيمة والمصاريف باهظة بشكل يجعل العملية غير مربحة .

ولم تكن هذه الحملات ، مهما ساعدت فتح ميادين تجارية ، تشتمل على إنشاء مستعمرات ثابتة . وإذا كانت الهند بعيدة عن أيدى الإنجليز ، فلم لايقوم البريطانيون بالبحث عن الثروة على القارة الامريكية ؟ وكان الانجليز من البروتستانت فلم يهتموا بمرسوم البابا . كما أن الاسبانيين كانوا قد تركوا السواحل بدون إستكشاف وخاوية ، وبخاصة فى الشمال الذى لايعجبهم مناخه ، والذى يتلاءم مناخه مع الإنجليز ؛ فقام جيلبرت بضم مربع يبلغ طول جانبه مائتى ميل

فى نيوفوندلاند. وقام أخوه ، السيروولتر رالى ، الذى كان من أصدقاء اليزابيث، بمحاولة إنشاء مستعمرة على السواحل الأمريكية ، تعطيها الملكة أسمها ، وهى مستعمرة فرجينيا . وبعد رحلته ، ترك مائة من الرجال وبعض النساء على احدى الجزر . ولكنهم إختفوا دون أن يتركوا أى أثر ورائهم . ورغم كل ذلك فان رالى لم يفقد آماله . وشجعت إنجلترا على التوسع فى تربية الاغنام وقامت بتحويل أراضيها الزراعية إلى مراعى لتشجيع صناعة الأصواف فيها . وكانت تشتمل على كثير من المزارعين ، الذين لايملكون أرضا زراعية ، وكان فيها كثيرا من المشردين والفقراء يمكن تهجيرهم إلى ماوراء المحيط . وفكر جلبرت فى إنشاء مستعمرات للتوطين للتخلص من زيادة السكان فى بريطانيا ، حتى وإن كانت هذه المستعمرات لايوجد فيها الذهب والتوابل . أما رالى فانه قد أحضر الطباق من فرجينيا ، وأخذت عادة تدخين الطباق فى الانتشار ، وظهر معها ما يمكن لأراضى العالم الجديد أن تنتجه . وكان رالى هو أول من وضع نظرية التسلطية البريطانية المقبلة ، والتى تتلخص فى أن من يتحكم فى البحر يتحكم فى التجارة ؛ وأن من يتحكم فى تجارة العالم يتحكم فى ثروة العالم ، وبالتالى فى العالم نفسه . وبدأ بذلك تاريخ إنجلترا الاستعمارى .

٤ — المنافسة الفرنسية : —

لم يفكر الفرنسيون كثيرا فى البحر نتيجة لإنشغالهم مع إنجلترا ثم مع إسبانيا والنمسا.وكانت الحروب الدينية قد قسمت فرنسا فى عصر الغزو الاسبانى، وكان كل من الاسبانيين والبرتغاليين يمكنهم العمل لأنهم كانوا قد قرروا نهائيا أن يكونوا من الكاثوليك . وكذلك كان فى وسع الانجليز أن يعملوا ماداموا قد إستقروا فى البروتستانتية ، أما الفرنسيين فكان عليهم أن ينتظروا قليلا حتى يقرروا إتجاهاتهم فى بلدهم .

وكانت أطماعهم الاستعمارية متجهة صوب إيطاليا ، وصوب البحر المتوسط

الذى أعطاهم نظام الامتيازات فيه بعض المزايا فى الحوض الشرقى منه . وكان ينقص الفرنسيين بعض الخصال والصفات اللازمة للمستكشفين وللتجار ، فكانت تنقصهم تلك العزيمة التى دفعت غزاة إيبيريا على طرق التجارة العالمية ، وكان ينقصهم حب المكاسب الذى كان يحرك الانجليز . كانوا يفضلون بلادهم على أى بلد آخر ، وإقليمهم على الأقاليم الأخرى ، وقريتهم على القرى المجاورة . وإذا كانت لديهم الأموال فانهم يشترون بها أحد المناصب أو أحد الألقاب الفخرية أو قطعة أرض قريبة من قريتهم . ولكن بعض العناصر المغامرة ظهرت على سواحل نورماندى وبريتانى ، وبدأت فى الصيد إلى جوار نيوفوندلاند ، وقام جان أنجو بإعداد حرب القناصة البحريين ضد البرتغاليين ، وجعلهم يخسرون ثلثمائة سفينة ، وأرسل الاخوان بارمنتييه إلى سومطره وإلى الصين ، وكان بيير أوبير بإنشاء مركز لصيد الاسماك وتجارة الفراء فى نيوفوندلاند ، ونصح فرنسوا الأول بارسال فيرازانو إلى أمريكا ، وتمويله برؤوس أموال من ليون وفلورنسا .

ولقد أعلن فرنسوا الأول سنة ١٥١٥ حق رعاياه فى الملاحة على كل البحار المعروفة . وأمر بإنشاء ميناء فى الغرب وعلى مصب السين ، يكون مرسى وموقعاً حصيناً . فكان ذلك بداية لنشأة الهافر . وعين فرنسوا الأول فيرازانو فى خدمته ، وقام هذا الأخير بالاستيلاء لفرنسا على نيوفوندلاند ، واكتشف إلى الجنوب منها أرضا سماها أنجوليم ، نسبة لمسقط رأس الملك ، وهى التى ستصبح نيويورك فيما بعد .

ولقد منح فرنسوا الأول معونة تبلغ ستة آلاف جنيه إلى أحد المرجعين البرتغاليين من ميناء سان مالو ، وذلك للقيام بعمليات استكشاف فى الغرب . وللعثور على بعض الجزر والبلاد التى يقال بأنه يوجد فيها كميات كبيرة من الذهب . وقام جاك كارتييه بإعداد سفينتين والإبحار صوب لبرادور ، ودخل فى مصب أحد الأنهار الكبيرة الذى سماه سان لوران ، ثم نزل إلى الساحل ورفع العلم الأبيض

الملكى ، ونصب صليبا نقش عليه إسم ملك فرنسا . وجاء الأهالى يكررون أمام الفرنسيين كلمة كندا وهم يشيرون إلى قراهم وأكواخهم ، فأصبحت هذه الكلمة هى إسم الإقليم . ولقد رحب هؤلاء الوطنيون بالفرنسيين وقدموا لهم الأسماك الكبيرة. وعاد كارتييه إلى فرنسا مصطحبا معه بعض الوطنيين ، فمنحه الملك ثلاث سفن لرحلة ثانية ، قام فى خلالها بصعود نهر سان لوران إلى مكان معسكر للصيادين وتجار الفراء ، الذى أطلق عليه اسم مونتريال . ولقد أكد الهنود أن نهر سان لوران ينتهى إلى بحر كبير ، فهل كان هو بحر الصين ؟ وعلى أى حال فقد كان الشتاء قاسيا ولم يجد الفرنسيون ذهبا فى مستعمرتهم الجديدة . ورفع كارتييه صليبا جديداً فى المكان الذى نشأت كويبك فيما بعد فيه ، ثم عاد إلى سان مالو . أما رحلته الثالثة سنة ١٥٤١ فقد كان يحمل فيها لقب القائد العام وكان مكلفا بمهمة محددة لإنشاء مركز دائم وبمعونة المعمرين ورجال المهن والصناعة . وبدلا من أن يجد الذهب ، وجد النحاس ، ولكن بكميات كبيرة .وكانت السفن تعود محملة بالصيد وبالفراء . ولكن الجو كان قارس البرودة وخاصة فى الشتاء ، فأدى ذلك إلى إخلاء المستعمرة ، وإن كانت فرنسا قد إحتفظت بها ، ودون أن تحصل على تصريح بذلك من روما . وكان فى فرنسا كثير من أنصار كلفن الذين حاولوا الهرب من الاضطهاد الدينى وإقامة فى أقاليم جديدة . وكان بعضهم يذهب من فرنسا للاقامة فى فلوريدا أو فى البرازيل . وقام كوليفيه بتشجيع هذه الهجرة ، وأرسل جان ريبو لاستكشاف سواحل فلوريدا . ولقد أنشأ ريبو قلعة على إحدى الجزر عند مصب أحد الأنهار الصغيرة وسماها قلعة شارل وترك فيها بعض الرجال كمعمرين ، ثم عاد إليها فى رحلة ثانية مع أربعمائة آخرين ، وأصبح الأقليم يسمى كاليفورنيا . ولكن الاسبانيين حاولوا التخلص من الفرنسيين نظرا لكونهم من الفرنسيين ، ومن الهجنوت ، ولأنهم لم يحترموا قرارات البابا بتقسيم العالم : فقاموا بقتلهم بما فيهم من نساء ومرضى ، وسمروا

البحارة من أعينهم على ساريات السفن،وشنقوا الجنود بعد أن كتبوا على صدرهم « لا كفرنسيين ، ولكن كهراطقة » . وقاموا بسلخ ريبو حياً ، وأرسلوا لحيته إلى إشبيليه . وبعد ثلاث سنوات قام أحد أبناء بوردو باعداد ثلاث سفن سريعة وأقلع من روان ومعه ثمانين بحاراً ومائة جندى وأعاد إحتلال قلعة شارل التى أصبحت سان ماتيو ، وشنق بدوره كل الاسبانيين الذين وجدهم ، وكتب على صدورهم : « لاكاسبانيين ولكن كخونة ، وقتلة » وكانت عملية الاستعمار تحتاج لمجهودات متواصلة ، لا لمجرد مجهودات متفرقة ، ولذلك فان كارولينا لن ترى بعد ذلك الفرنسيين .

ولقد حاول الهجنوت أن يجدوا ملجأ لهم فىالبرازيل حسب توجيهات كولينى ، وقام أحد البحارة بتوصيل ٦٠٠ فلاح وعامل إلى خليج ريو ، وأنشأ قلعة كولينى على جزيرة صغيرة ، وهنرى فيل على الساحل المجاور . ولكن هذه المستعمرة إنتهت بمنازعات دينية رغم الامدادات التى وصلتها من الهاغر،ثم قضى البرتغاليون عليها وذلك سنة ١٥٦٠ بعد أن هاجموها بألفى رجل ، رغم أن الفرنسيين الذين كانوا يدافعون عنها لم يزد عددهم عن ٧٤ . وتفرق المعمرون . ولم يبق من هذه المغامرة إلا إسم جزيرة الفرنسيين ، الواقعة فى الخليج أمام ريو دى جانيرو .

ولا يمكننا أن نتجاهل الألمان ، خاصة وأن شارل الخامس كان فى حاجة إلى الرأسماليين من بينهم ، فاستثنى الألمان من القاعدة التى كانت تحتفظ بتجارة العالم الجديد حكراً على الإسبانيين . فأفاد من ذلك بعض الألمانيين الذين أنشأوا مركزا تجاريا لهم فى هايتى ، وإشتروا إحدى المقاطعات إلى جنوب برزخ بنما ، وحاولوا إستعمار فنزويلا ، وبدأوا فى غزو منطقة ماركايبو . ولكن الأهالى عادوهم. ولما كانت العملية بالنسبة إلى الألمان هى مجرد عملية مالية،وأكثر من كونها عملية استعمارية ، فانهم انسحبوا منها نظير دفع الدولة لهم مبلغ ١٠ آلاف بيزيتا ذهبية .

وهكذا فشل الفرنسيون والألمان، أما الانجليز فكانوا قد بدأوا مغامرتهم، وكان كل من هؤلاء المنافسون لا يمنى الكثير أمام العمالقة الأسبانيين والبرتغاليين والذين أصبحوا سادة الهند الغربية والهند الشرقية . وكان خطأهم الأكبر هو قلة رغبتهم فى المغامرة ، ومجيئهم متأخرين . كما أنهم لم يجدوا الذهب والتوابل التى كان الملوك والشعوب فى إنتظارها ؛ وإن كان الوقت سيعمل فى صالحهم ويسمح لهم بالتفوق .

* * *

ويتضح مما سبق أن هذا القرن الذى مر منذ أن وضع كريستوف أرجله على جزيرة سان سلفادور ، قد غير تاريخ العالم . ولم يكن الاستعمار قد أحدث مثل هذا التغيير من قبل ، والذى عمل بدوره على تغيير كل شيء فى التوازن السياسى ، وفى الظروف الاجتماعية ، وفى التقاليد ، وفى المعتقدات. ويمكننا أن نقول بدون كبير خطأ أن الغزاة قد أنشأوا عالماً جديداً .

ويمكننا أن نتصور بعض الرجال الذين عاشوا فى هذا العصر فانه قد ولد مع أمريكا ولاحظ التغييرات العالمية . فاذا كان من الهنود الحمر ، فانه قد رأى انهيار الامبراطوريات القديمة ، وانهيار الآلهة القديمة . ورأى حضور الرجال الذين ينهبون وينقلون الكنوز المادية ، ويوردون غيرهم ، ويدخلون على الأرض الأمريكية عاداتهم ولغتهم ، ويوطنوا فيها زنوج افريقيه . ولقد أحضر الغزاة معهم مرض الحصبة ولكنهم كانوا أول من بذر حبوب القمح ، والذى أصبحت أمريكا أكبر منتج له فى العالم فيما بعد ، وقاموا بزرع أشجار الزيتون والكروم والموالح، وأدخلوا الخيول، والخنازير التى زادت سرعة تناسلها بمجرد مجيئها إلى جوها الطبيعى ، وملأت الجزر والسهول . ولقد قام الرجل الأبيض بإدخال الأدوات الحديدية فى تلك القارة التى ستصبح فيما بعد أكبر منتج للحديد فى العالم . وقام البيض باستخدام العجلات بدلا من استخدام دواب الحمل. وإذا كان الأهالى

قد إندهشوا لرؤية المسيحيين يأكلون من لحم السيد المسيح فى الكنائس ، فانهم قد تمرنوا بعد ذلك عن أن يكفوا عن أكل لحوم البشر و تقديم التضحيات البشرية . أما إذا كان من الأوربيين فانه قد شاهد دخول مأكولات وأدوات وأمراض فى منزله ، لم يكن قد تعودها من قبل . فكانت هناك التوابل التى تأتيه عن طريق لشبونة وأنفرس ، وكان هناك الطماطم والأناناس والكاكاو والديكة الرومية ؛ وحضر بعد ذلك البطاطس والقهوة وسكر القصب ، التى كانت تنتج فى آسيا ، ثم زاد إنتاجها فى أمريكا . وكانت الهند تورد له مواد الصباغة ، أما أمريكا فكانت تورد له الزهور والأخشاب والطباق الذى بدأوا فى إستخدامه فى الطب ثم أخذوا فى تدخينه . ولقد أثر ذلك على تاريخ العالم تأثيراً كبيراً ، وأفاد السكر فى التقوية ، كما عمل البطاطس على إنقاذ أوربا من أخطار المجاعات ، وساعدت الضرائب على الطباق على إنهاء مشكلات مالية كثيرة .

وكانت من نتائج إكتشاف أمريكا زيادة ورود المعادن النفيسة ، ولم تكن هذه المعادن تلقى فى خزائن ملك إسبانيا بل كانت تنشر فى كل أوربا فى شكل قطع ذهبية إسبانية أو فلورنسية أو فرنسية أو إنجليزية . وساهم القناصة البحريون فى زيادة توزيع ذهبها وفضتها ، بشرائها المنتجات التى تحتاجها من الخارج ، مادامت بلادها كانت غير قادرة على صنعها ، وبدفع ديونها إلى رجال البنوك الفلمنكيين والألمان ، وبدفع رواتب جنودها المرتزقة من السويسريين والبلجيكيين ، وبإدخالها الأيدى العاملة الأجنبية ، وخصوصا الفرنسية ، فى شبه جزيرة أيبريا ، وفى الوقت الذى كانت ترسل فيه الاسبانيين للعمل فى أمريكا ، وإرتفعت الرواتب ، وزادت القوة الشرائية وزادت وسائل الدفع ، فإرتفعت الأسعار . وبدأت هذه الحركة لارتفاع الأسعار من البرتغال وإسبانيا ثم وصلت إلى فرنسا وإيطاليا ثم الى أوربا حتى بولندا وروسيا . وزاد إستخدام الفضة ، وانتشرت عادة الاقراض بالفوائد . وأخذ رجال الاقتصاد فى ذلك العصر فى

البحث عن سبب غلاء كل شيء ، فتوصلوا إلى إنخفاض سعر العملة ، وحاولوا أن يتغلبوا عليه . ولكن الرجل العادى لم يكن يهتم بالنظريات ، بل يهتم بدورة رأس المال ونمو الرأسمالية . وكان آباؤه وأجداده يعيشون عيشة متواضعة ويلبسون ملابس متواضعة ويأكلون الجذور الدرنية والرنجة . ولكنه أصبح الآن يهدم المساكن القديمة ويرتدى ملابس من أنسجة متقنة ، ويعتبر ما كان كماليا بالأمس ضرورياً فى يومه . وليس من حقنا بعد أن نسأل إن كان هذا الرجل قد أصبح أكثر سعادة من أجداده . لقد إرتفعت الأثمان وتضاعفت ثلاث مرات وأربع مرات ، ولكن الإيرادات تضاعفت بنفس النسبة أو بنسبة أكبر ، وإن كان توزيعها قد إختلف . وكان هناك من كسب من هذه التغيرات ومن خسر ، مثلهم فى ذلك مثل كل فترة تتغير فيها الأسعار . وكسب الفلاح وأصحاب الدخول المتغيرة مثل التجار وأصحاب البنوك ، وخسر أصحاب الدخول المحددة ، ومن أول صغار الموظفين حتى النبلاء ، وفى إسبانيا وإنجلترا وفرنسا . وتغير السلم الاجتماعى،وإزدادت درجةالصراع الطبقى ، وإن كان قد أخذ شكل صراع دينى .

ولقد ساعدت الثروة على تقدم الطباعة والنشر ، وأخذ الناس يقرءون أكثر من قبل . أما العناصر غير الراضية، وكل من خسر من عملية إنخفاض قيمة العملة فقد أخذوا فى التفكير فى آراء الإصلاح . وأما العناصر الراضية ، والتى تحت من العمليات الاستعمارية فقد أخذت فى الدفاع عن العادات والتقاليد الكاثوليكية الرومانية . وأخذ الملوك يميلون إلى معارضة البابا ، ما داموا قد شعروا بأنه ابعدهم عن تقسيم الأسلاب،فى تقسيمه للعالم. وإذا تركنا لإسبانيين والبرتغاليين جانبا ، لرأينا أن الايطاليين يكونون شعبا كاثوليكيا تحت السيادة الاسبانية ،اما الانجليز والهولنديون ، فانهم يعلنون الثورة ، قد نسى البابا اسكندر السادس حين تقسيمه لممتلكات ماوراء البحار أنه يعمل فى نفس الوقت على تقسيم المذاهب داخل العالم المسيحى نفسه . واثرت الكشوف الجغرافية على الفنون والآداب،

فظهر أسلوب جديد فى البرتغال إختلطت فيه النباتات البرية والبحرية مع الحيوانات ، كما اختلط فيه الهند مع الكنغو . أما النهضة الاسبانية والإيطالية فقد امتاز أسلوبها بتذهب السقوف والأدوات الخشبية . وإنتشرت عادة القلائد الذهبية ، وجمع ريش الطيور النادرة ، وإنعكس كل ذلك على الأدب ، زيادة على القصص والروايات التى بدأت فى إستخدام أسماء أقاليم ومناطق جديدة من العالم .

أما التغيرات السياسية التى تمت فى هذا القرن فكانت كبيرة وبعيدة المدى ذلك أن الامبراطورية العثمانية كانت قد تمكنت فى خلاله من توحيد شمال إفريقية ، فى الوقت الذى سيطرت فيه أوربا على كل العالم ، والذى تحول فيه مركز الثقل العالمى لأول مرة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى . وكان الجيل السابق قد رأى المسلمين فى غرناطة ، ولكن نفس الجيل رأى قشتالة تخضع جزءاً كبيراً من العالم . أما الجيل التالى فقد رأى بداية إنهيار إسبانيا مع تركها لأراضيها كمراع للأغنام ، ومع هجرة فلاحيها وقلة عدد سكانها . وإذا كان الاستعمار قد رفع الأسعار فان هذه العملية كانت تبعد رعاياها ، بشكل يحزم شبه الجزيرة الإيبيرية ، كوطن ام ، من القوة العاملة فيه .

ولقد كانت أوربا كلها وكل الغرب ، آخذة فى الصعود . أما آسيا فكانت لم تستيقظ بعد . سواء امبراطورية الصين الخاضعة لأسرة المنج ، أو الهند التى خضعت لبابر وأكبر . أما إفريقية فلم يكن هناك من يقيم لها أى وزن . وكان على أوربا وحدها أن تأخذ القرارات ، بعد أن أخذت الأراضى ، وأصبحت تمتلك أمريكا وتوابل آسيا ، وعبيد إفريقية . وكانت أوربا تضع الكل فى مرحلة العبيد ولإرضاء حاجاتها ، سواء أكان ذلك هو ثروات العالم الجديد أو توابل الهند أو عبيد السودان .

وأصبح للعالم فى هذا القرن بمفرده تاريخا أكثر مما كان له منذ ٤ آلاف سنة .

ولكن ذلك لا يمكننا من أن نتحدث عن ثورة إستعمارية . فلقد رأينا غزاة من قبل يسمون الاسكندر الأكبر وجنكيز خان ، ولقد كانت فارس أمريكا جديدة بالنسبة لأبناء مقدونيا ، وكذلك المشرق بالنسبة للصليبيين . أما عن الذهب فقد كان النتيجة الطبيعية للغزوات ، وكانت قرطاجة قد عرفت طريقة ، وقام تراجان بالاستيلاء عليه ، كما قام كورتيز بالعثور عليه فى المكسيك . ولقد وجد ماركو بولو باكتشافه أوراق العملة فى الصين شيئا جديدا لم يصل إليه الغرب إلا بعد عصر الذهب ، ولتسهيل العمليات فيه .

وكان الغزاة هم طلائع حركات استعمارية سيطرت مع الزمن على كل العالم . ولكنهم كانوا قد نجحوا فى الوقت الذى فشلوا فيه تمام الفشل . لقد اعتقدوا أنهم وصلوا إلى الهند ، رغم أنهم وصلوا إلى أمريكا ، واعتقدوا فى إمكانية الوصول إلى يوحنا الراعى وإلى الخان الأعظم ، وإلى الالدو رادو ، ولكنهم لم يجدوا إلا شعوبا بدائية كان عليهم أن يقوموا بتعليمها . وكانوا يبحثون عن الفلفل والقرنفل فعادوا بالبطاطس والأمراض . وإعتقدوا فى عملهم على نشر المذهب الكاثوليكى فأسرعوا بتدعيم حركة الاصلاح الدينى والمذهب البروتستانتى . وإعتقدوا أنهم يزيدون ثروة إسبانيا فلم يعملوا إلا على إفقارها وتدهور أحوالها . وإعتقدوا الرجال أنهم يتحكمون فى مصير العالم ،ولكنهم إستمروا دون أن يعرفوا ودون أن يرغبوا فى إتمام عمليتهم بهذا الشكل . والمهم هو أن أوربا كانت تحاول الوصول إلى موارد إقتصاديه جديدة ،وإلى السيطرة على التجارة العالمية ، فتمكنت فى هذا الميدان من الوصول إلى أهدافها ، كما تمكنت بحصولها على المعادن الثمينة فى العالم الجديد ـ وهى أساس كل العمليات التجارية والاقتصادية ـ من السيطرة على إقتصاد العالم .

الباب السادس

الصراع فى حوض البحر المتوسط

الفصل السادس عشر

المرحلة الأولى من الحروب الايطالية

(حتى سنة ١٥١٥)

فى الوقت الذى كانت تتم فيه عملية الكشوف الجغرافية البرتغالية والاسبانية ، وقبل أن تظهر نتائجها ، شهد البحر المتوسط صراعا بين القوى ، تمثل أولا فى محاولة فرنسا زيادة نفوذها وسيطرتها على شبه القارة الايطالية ، الأمر الذى أدى إلى نشوب الحروب الايطالية ، التى تحولت مع الزمن على صراع بين فرنسا وإسبانيا للتفوق فى أوربا ، وفى حوض البحر المتوسط . وأخذت هذه الحروب مراحل متتالية ، إنتهت المرحلة الأولى منها بتوازن بين نفوذ كل من فرنسا وإسبانيا فى إيطاليا . وفى خلال ذلك الوقت كان هناك صراع بين سلطة المماليك والبرتغاليين ، إنتهى إلى تمكن البرتغاليين من أسر طرق تجارة التوابل ، وإضعاف قوة المماليك ، الأمر الذى أدى إلى تدخل العثمانيين فى المنطقة ، وسيطرتهم على الشام ومصر والحجاز ، وإتحاد أمراء البحر فى شمال إفريقية معهم ضد المعتدين الاسبان ، الذين تزايد نفوذهم فى الحوض الغربى للبحر المتوسط . وإذا كان الصراع الفرنسى الاسبانى سوف يستمر بعد ذلك على شبه الجزيرة الايطالية ، حتى سنة ١٥٥٩ ، إلا أن القوة العثمانية سوف يحسب لها حساباً فى هذا الصراع الموجود فى حوض البحر المتوسط ، خاصة وأنها كانت قد بلغت أوجها فى عهد السلطان سليمان القانونى ، كما سيحسب حسابها بالنسبة للموقف فى وسط أوربا نفسها ، وقلبها ، وحتى معركة ليبانتو . فلنبدأ من البداية ، ومن المرحلة الأولى للحروب الايطالية .

١ ـ التدخل الفرنسي في إيطاليا :

كانت شبه الجزيرة الايطالية ، فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر، تنقسم إلى عدد من الدول أو الامارات: أهمها جمهوريات البندقية ، وميلانو ، وفلورنسا ، ثم الممتلكات البابوية ، ونابولى ، فى أقصى الجنوب . كما كانت تشتمل على دوقية سافوا ، الواقعة على حدود فرنسا ، وعلى جمهورية جنوا . وكان هذا الانقسام يعود تاريخيا إلى فترة العصور الوسطى ، ويرجع سياسيا وإقتصادياً إلى المصالح التى نمت وتطورت فى أواخر العصور الوسطى،وبداية التاريخ الحديث .

وكان هذا الانقسام يدل على ضعف الوحدات السياسية الايطالية،من الناحية الحربية ، ورغم تفوقها فى ميادين التجارة ورأس المال ، وتفوقها الفنى والأدبى وقت ظهور النهضة الأوربية ، أمام الدول الأوربية الأخرى ، التى تمكنت من إقامة وحدتها الوطنية والقومية،والتى كانت مجاورة لها مثل فرنسا وإسبانيا.وكان هذا الانقسام أكبر مشجع لهاتين الدولتين على التوسع فى شبه الجزيرة الايطالية، فى ذلك الوقت ، خاصة وأن الدول والامارات الايطالية كانت تنافس بعضها ، وتحاول كل منها التوسع على حساب جيرانها . وسيتطور الأمر ، مع محاولة الاحتفاظ بالتوازن بين الدول ، إلى تدخل كل من الامبراطورية ، وإنجلترا ، فى هذا الصراع ، الذى سينشب بين فرنسا وإسبانيا حول إيطاليا.وكانت ممتلكات الامبراطورية فى التيرول تقع بالقرب من أراضى البندقية ، أما إنجلترا فكانت لا تزال تحتفظ بثغر كاليه ، فى شمال فرنسا .

ولقد بدأ التدخل الفرنسى فى إيطاليا ، عسكرياً ، فى عهد الملك شارل الثامن (١٤٨٣ — ١٤٩١) ، والذى تولى العرش بعد لوى الحادى عشر ، وإستند فى ذلك إلى جيش قوى مدرب ، ويعتمد على سلاح مدفعية له قيمته . وكان خيالياً ، ويرى ضرورة السيطرة على إيطاليا ، كمرحلة أولى لتجهيز حرب صليبية كبيرة ، يوجهها ضد القسطنطينية ، ويستخلصها من أيدى العثمانيين . ولم يتمكن من تقييم

القوى الموجودة،وضرورات توازن القوى ، وخاصة بالنسبة لأراجون وقشتالة، التي كانت لها ، بعد إتحادها، أطماعاً ومصالحاً فى شبه الجزيرة الايطالية . وبخاصة فى نابولى وصقلية .

وإستند شارل الثامن إلى إدعاءات أسروية لوراثة عرش نابولى وعرش ميلانو ، وإلى نزاع نشب فى ميلانو حول الحكم ؛ وعقد إتفاقيات مع إنجلترا وإسبانيا والدولة الرومانية المقدسة ، كتمهيد لتدخله العسكرى فى إيطاليا . وعمل على حشد قواته وسط هالة من الدعاية حول الزحف اللاحق إلى القسطنطينية ، ولتخليصها من أيدى العثمانيين . وزحف الجيش الفرنسى ، الذى ضم عناصر من الألمان والسويسريين ، على بيدمونت سنة ١٤٩٤ ، وإحتلها ، ثم واصل زحفه وإحتل كل من فلورنسا وبيزا،ودخل فى آخر يوم من هذه السنة إلى روما. وإذا كان شارل الثامن قد فشل فى أن يحصل من البابا على مرسوم بحكم نابولى ، إلا أنه واصل زحفه السريع صوبها ، وأخذ معه سيزار بورجيا ، ابن البابا إسكندر السادس ، وكذلك الأمير جم ، أخ السلطان العثمانى ، بايزيد الثانى.وكانت المدن الايطالية تعلن تسليمها له قبل وصوله اليها . وعجزت نابولى عن المقاومة،ودخلتها قوات شارل الثامن فى ٢٢ فبراير سنة ١٤٩٥ . وكان سيزار بورجيا قد هرب منه فى أثناء الطريق ؛ ثم نسى ، وسط إحتفالات الانتصار فى نابولى،أمر مواصلة الزحف ضد العثمانيين ، خاصة وأن الأمير جم كان قد توفى .

وكان هذا الزحف الفرنسى السريع ، وبدون كبير مقاومة . قد جعل فرنسا تسيطر على شبه الجزيرة الايطالية . ولكن هذه السيطرة كانت تتعارض مع التوازن الدولى ، وتثير أحقاد الدول الأخرى ذات المصالح . ووجدت الدول الايطالية نفسها تحت نفوذ السيطرة الفرنسية ، فكونت « حلف البندقية » ، فى نفس السنة ، ١٤٩٥ ، وهو الحلف الذى ضم كل من البندقية ، وميلانو ، والبابا إسكندر السادس ، ومكسمليان الأول إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ،

وفرديناند وايزابلا، حكام أراجونا وقشتالة . وكان كل من الإمبراطور، وملوك أراجونة وقشتالة يطمعون فى السيطرة على إيطاليا ، أو على الأقل فى التوسع فيها؛ الأول من الشمال ، والثانى من الجنوب ، ومن نابولى .

وكانت صياغة شروط « حلف البندقية » غير محددة ؛ إذ أنها نصت على « الدفاع عن العالم المسيحى ضد الأتراك ، والدفاع عن إيطاليا ، وتحرير الدول الايطالية » ؛ ولكنها كانت موجهة ضد فرنسا. وكان فى وسع إسبانيا مهاجمة فرنسا من جبال البرانس ، وكذلك مهاجمة قواتها الموجودة فى إيطاليا من جزيرة صقلية؛ كما كان فى وسع الامبراطور مهاجمة القوات الفرنسية من الشمال، ومنعها من العودة إلى فرنسا ، وذلك فى الوقت الذى ساد فيه شعور الأهالى المعادى فى إيطاليا ضد القوات الفرنسيه. وفى كل مكان. ولذلك فإن شارل الثامن قرر الانسحاب بقواته من إيطاليا ، بادئا بالانسحاب من نابولى ، ثم من روما ، وبيزا . ولقد إضطر إلى الدخول فى معركة عند فورنوفو ، شمال بيزا ، مع قوات حلف البندقية ؛ ولكنه تمكن من الاستمرار فى الانسحاب شمالا ، وأنقذ بذلك بقية جيشه من الدمار . ولم تحصل فرنسا على أى نتيجة إيجابية من هذه المخامرة الايطالية ، سوى إنهيار سمعتها وكرامتها .

وعند وفاة شارل الثامن سنة ١٤٩٨ ، تولى العرش بعده إبن عمه لوى الثانى عشر (١٤٩٨ — ١٥١٥) ، الذى عرف من قبل بإسم دوق أورليان . ولقد إنتهج سياسة سلفه التوسعية فى إيطاليا . وإتفق مع كل من إسبانيا وإنجلترا على الوقوف على الحياد ، كما إتفق على البابا مع إعطاء إبنه سيزار بورجيا أحد الأقاليم . وعبرت القوات الفرنسية جبال الألب سنة ١٤٩٩ ، وتمكنت من إحتلال ميلانو ؛ ورغم مقاومة أميرها لها ، إلا أنها تمكنت من الاستمرار فى السيطرة على الاقليم . وحتى هذه المرحلة ، لم تحدث أية مضاعفات . ولكن سرعان ما إتجهت أنظار لوى الثانى عشر صوب نابولى ، فى جنوب ايطاليا ،

وكان لفرديناند الكاثوليكى أطماعاً فى نفس الإقليم ، مستندة كذلك إلى إدعاءات أسروية . فإضطر ملك فرنسا إلى عقد معاهدة غرناطة سنة ١٥٠٠ مع فرديناند الكاثوليكى ، وتحت رعاية البابا ، وهى التى نصت على اقتسام نابولى بين الملكين .

وعجزت مملكة نابولى عن الوقوف فى وجه الجيوش الفرنسية والاسبانية . ولكن سرعان ما ظهرت الخلافات بين المنتصرين ، الاسبانيين والفرنسيين ، بعد إنتهاء المعركة ؛ وتتالت الهزائم على القوات الفرنسية ، وانتهى الأمر بطردها من نابولى ، التى إنفرد الإسبان بالسيطرة عليها ، ولم يتركوا لفرنسا سوى إقليم ميلانو فى الشمال .

وجاءت وفاة البابا اسكندر السادس سنه ١٥٠٣ ، وتولى البابا جيل الثانى عرش البابوية من بعده ، لكى تمثل نقطة تحول فى الحروب الايطالية .

٢ — الخلاف بين فرنسا والبابا :

وكان البابا اسكندر السادس يساير فرنسا فى سياستها التوسعية فى إيطاليا حتى يضمن ، عن طريق ذلك الحصول على إحدى الإمارات لإبنه ، سيزار بورجيا . أما البابا جيل الثانى فكان يرغب فى التدخل فى الحروب ، علاوة على تدخله فى السياسة ؛ وكان من أصل جنوى ، ويرغب فى توسيع ممتلكاته فى إيطاليا ، رغم أنف البندقية ، التى كان سلفه قد تحالف معها . ولقد تدهورت العلاقة بسرعة بين هذا البابا وبين البندقية ، وأسهم مكيافيللى ، اسهاما كبيراً ، فى الوصول إلى هذا الحد .

ووجد هذا الاتجاه ، من جانب البابا جيل الثانى ، تجاوباً من معظم الدول الاوربية ؛ خاصة وأنه كانت أحقاد حيال البندقية أو أطماع فيها : فكان لوى الثانى عشر ينظر إلى البندقية على أنها ثمرة لها قيمتها ، ويمكنها أن تعوض عليه خسائره فى نابولى ؛ أما مكسميليان الأول ، امبراطور الدولة الرومانية ، فقد رأى أن البندقية قد توسعت أكثر من اللازم ، وأنها احتلت بعض الأقاليم التى

كانت تابعة للامبراطورية ؛ وحتى نابولى ،فى محنتها ، رأت أن البندقية قد انتهزت فرصة ضعفها ، واحتلت بعض الموانى الواقعة على شرق شبه الجزيرة ، والتى كانت تابعة لها ؛ وأما فلورنسا ، فكانت تنظر إلى أبناء البندقية على أنهم منافسون خطرين ضدها ، ، وفى كل مكان . وساعدت المصالح والأطماع على تجمع كل من فرنسا واسبانيا . والدولة الرومانية المقدسة ، وفلورنسا ، حول البابا ؛ وفى التوقيع فى سنة ١٥٠٨ على شروط « حلف كامبراى » ، التى نصت على الهجوم على أراضى جمهورية البندقية ، وإقتسام أملاكها بين الدول الأعضاء فى الحلف .

وسرعان ما أرسلت فرنسا قواتها للنزول إلى المعركة ، وأرسلت عشرين ألف مقاتل ، كانوا أول قوات تصل من حلف كامبراى ؛ وتمكن هذا الجيش من أن ينزل هزيمة بجيش البندقية فى معركة أجناديل فى سهر مايو سنة ١٥٠٩ . وكانت خسائر البندقية جسيمة ، وتقدمت قوات البابوية لإحتلال المناطق التى كانت تطمع فيها ، وتدعى ملكية البابا لها .

وسحبت البندقية قواتها من الموانى الشرقية ، والتى كانت نابولى تطالب بها ؛ وكذلك من الأقاليم التى كانت البابوية ترغب فى الحصول عليها . ورغم ذلك فان دول الحلف لم توافق على عقد الصلح معها ؛ الأمر الذى دفعها إلى أن تقرر ضرورة الإستمرار فى المقاومة فى بلادها ، والإستعانة بالأتراك العثمانيين إذا ما تطلب الأمر ذلك .

ووجد البابا أن الموقف يحتاج إلى تفكير ، وإلى إعادة تقييم ؛ خاصة وأنه كان قد حصل على مطالبه ؛ كما أن استمرار التشدد مع البندقية كان يهدد بزيادة نفوذ فرنسا ، أو الدولة الرومانية المقدسة ، أونفوذ كليهما ، فى شبه الجزيرة الايطالية ، إن لم يكن يهدد بتدخل الدولة العثمانية فى شئون هذه المنطقة . ولذلك فانه قرر الاكتفاء بما وصل اليه ،ومنع أية إمكانية لمضاعفات مقبلة . وكان وجود البندقية مهما بالنسبة لوقف أطماع كل من الإمبراطورية وفرنسا فى أقليم ميلانو ، وفى

منع أى توغل للنفوذ العثمانى كذلك فى شبه الجزيرة الإيطالية ، فسحب البابا قرار الحرمان الذى كان قد أصدره ضد البندقية ، وعقد صلحاً منفرداً معها ، سنة ١٥١٠ .

ونظر كل من الإمبراطور ، وملك فرنسا ، إلى موقف البابا ، على أنه تراجع ؛ وصمما على إستمرار الحرب ضد البندقية . ولكن البابا أعلن أنه سيخلص إيطاليا من قواتها المتبربرة ، وظهر بمظهر الزعيم أو القائد الايطالى ، الذى يحاول تخليص إيطاليا من القوات الأجنبية . وإستند فى هذه المرحلة إلى البندقية ، وإلى إسبانيا التى كان قد وضع مملكة نابولى تحت سيادتها . ثم عمد البابا ، بعد ذلك ، إلى إثارة العداء بين هنرى الثامن ملك إنجلترا ، ولوى الثانى عشر ملك فرنسا ، من ناحية ؛ وإلى فصل إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة عن ملك فرنسا ، من جانب آخر .

ولقد أدى ذلك إلى نشأة خلاف حاد بين فرنسا وبين البابا ؛ وجمع ملك فرنسا كرادلة وأساقفة فرنسا فى مجمع دينى عقده فى تور ، واتهم البابا بإرتكاب جرائم قبل أن يصل لكرسى البابوية ، وبأنه زج بإيطاليا فى حروب أوربية ؛ وإتهمه بالخيانة . وأجاز محاربته ؛ وأعلن بطلان القرارات التى يصدرها بالحرمان . وإستدعى لوى الثانى عشر الكرادلة الفرنسيين المقيمين فى روما ، وبدت ظواهر إنقسام كبير وخطير تهدد كيان الكنيسة الكاثوليكية . وسرعان ما قامت القوات الفرنسية فى إيطاليا بمحاصرة مدينة بولونا سنة ١٥١١ ، والتى كان البابا فيها فى ذلك الوقت ، وإستمرت المناوشات ، بعد فراره منها ، بين قواته والقوات الفرنسية .

وزاد الأمر خطورة أن طلب خمسة من الكرادلة إلى البابا الذهاب إلى بيزا ، لحضور مجمع كنسى يعقد هناك ، لإصلاح شئون الكنيسة . فخشى البابا من أن ينتهز الكرادلة الموقف للوصول إلى كرسى البابوية ؛ كما كان يخشى من إنشقاق

فرنسا على الكنيسة الكاثوليكية،ومن إمكانية ميل الإمبراطور مكسميليان إلى أن يرشح نفسه لكرسى البابوية . فعاد إلى روما بسرعة ،ودعا إلى عقد المجمع الكنسى فى قصر اللاتران فى روما ، يوم ١٩ أبريل سنة ١٥١٢ ، وهدد بعزل كل كردينال ، أو رئيس أساقفة ، أو أسقف ، تحدثه نفسه بعدم الحضور . وكان هذا القرار يهدف مواجهة أمر عقد مجمع تور ، أو بيزا ، وحتى يكون هذا المجمع تحت سيطرته .

وعمل البابا من ناحية أخرى ، على عزل فرنسا سياسياً ؛ فأذاع فى شهر أكتوبر سنة ١٥١١ نبأ تكوين ما أسماه « بالحلف المقدس » ضد فرنسا ، وهو الحلف الذى كان يضم كل من فرديناند الكاثوليكى ملك إسبانيا ، وهنرى الثامن ملك إنجلترا ،وجمهورية البندقية ،والقوات السويسرية المرتزقة،وترك الباب مفتوحاً أمام مكسميليان الأول ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . للانضمام إلى هذا الحلف . وكانت هذه نقطة تحول خطيرة فى العلاقات بين الدول فى ذلك الوقت ؛ إذ أنها ستكون بداية وضع إسبانيا فى مواجهة فرنسا ، ومحاولة إغراء إنجلترا بالحصول على مكاسب على حساب فرنسا ، مع التمهيد لإدخال الإمبراطورية فى هذه المجموعة ضد فرنسا . وسيزيد الأمر خطورة حين يصبح ملك إسبانيا ، هو فى نفس الوقت امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، فيما بعد ، فى عصر شارل الخامس . وعلى أى حال فإن إعتماد البابا على إسبانيا ، فى ذلك الوقت ،كان قد بنى على وقائع لها قيمتها ، ومعطيات وإيجابيات واضحة ، خاصة وأن إسبانيا كانت قد سيطرت ، بالفعل ، على الحوض الغربى للبحر المتوسط .

٣ - سيطرة إسبانيا على الحوض الغربى للبحر المتوسط :

وكانت إسبانيا ، أو مملكة قشتالة وأراجونه ، قد أفادت ، ومنذ إستيلائها على غرناطة ، آخر معاقل المسلمين فى الأندلس ، سنة ١٤٩٢ ، من نمو قوتها ، لكى تطرد المغاربة والمسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وذلك كتمهيد لنمو

دولة حديثة ؛ تؤمن على نفسها ، وتزيد من مصالحها فى الحوض الغربى للبحر المتوسط . وزادت قوتها بعد أن تمكنت بعشاتها من الوصول إلى العالم الجديد ؛ وأفادت من انقسام المغرب وضعفه لكى تحقق سيطرتها على الحوض الغربى للبحر المتوسط .

وكانت بلاد المغرب الاسلامى ، التى إتحدت مع بعضها فى القرن الثالث عشر الميلادى ، قد أدى بها الوقت إلى الضعف والتقهقر ، خاصة وأن النظام كان فردياً ، وإستبدادياً ، وإحتكارياً ، رغم كونه إسلامى . فنشأت المنازعات والخصومات والمشاحنات ، بين القيادات الثانوية ، التى عملت على تقسيم البلاد فيما بينها ، وحاولت كل منها أن تنشىء لنفسها إمارة أو سلطنة أو ملك ، وعلى حساب عباد الله الصالحين . وهكذا إنقسم مغرب الموحدين إلى ثلاث إمارات رئيسية ، حاولت كل منها أن تسيطر على إقليم ، وعلى المناطق المجاورة لها : فظهرت سلطنة بنى مرين فى المغرب الأقصى ؛ وإمارة بنى حفص فى تونس ، وإمارة بنى عبد الواد فى تلمسان ، فى المغرب الأوسط . وإنتشرت الخلافات والخصومات والأطماع ، بين كل إقليم وجاره ، وفى شكل تناحر على الملك ، ومناطق النفوذ والمكاسب ؛ مما أدى إلى ضعف كل منها ، فى الوقت الذى تطورت فيه الأوضاع فى أوربا ، وزادت فيه إمكانياتها على العمل ، وعلى النمو والقوة (١) .

وكان موقع إسبانيا والبرتغال ، قرب بلاد المغرب العربى ، سبباً فى توجية أنظارهم إليه ، فى وقت نموهم ، ونزوطهم إلى ميدان الكشوف الجغرافية ، عند نهاية القرن الخامس عشر ، ومطلع القرن السادس عشر . وإذا كان البرتغاليون قد إحتلوا موانى المغرب المطلة على المحيط الأطلسى ، أثناء قيامهم بحركة الكشوف الجغرافية للوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، فإن الإسبان ، مع

---

(١) أنظر : د . جلال يحيى . المغرب الكبير . الجزء الثالث الاسكندرية ١٩٦٦ ، ص ٥ — ٧ ، وص ٨ — ١١ .

إستيلائهم على غرناطة ، وقرب سواحلهم من سواحل المغرب العربى ، وقيامهم بطرد أو محاولة هضم الموريسكيين فى الأندلس ، وإستخدام « محاكم التفتيش » فى هذه العملية ،وسيادة روح مسيحية صليبية لديهم لتغطية عملية توسعية و إستغلالية ضد جيرانهم ، قد إندفعوا إلى القيام بعملية للإستيلاء على موانى وثغور المغرب المطلة على البحر المتوسط ، لقتل تجارة المغاربة ،وضمان عدم منافسة المغاربة لهم ، ومحاصرتهم المغاربة ، وتجارتهم ، داخل القارة الإفريقية .

ولقد قام الإسبانيون باحتلال المرسى الكبير ، غرب وهران ، سنة ١٥٠٥ ؛ ثم إحتلوا إحدى الجزر المواجهة الشاطىء ، وإتخذوها قاعدة حربية للهجوم منها على ذلك الشاطىء ، ولضربه منها بالقنابل ، وهى التى ستصبح فيما بعد نواة لنشأة مدينة الجزاير . ثم واصل الإسبانيون هجماتهم ، بعد سنة ١٥٠٨ ، ونتيجة لتولى الأميرال بيدرو ناغارو قيادة أساطيلهم ؛ فاستولوا على حجر باديس ، فى هذه السنة ، واستولوا على وهران وبجاية فى العام التالى ؛ وقاموا فى سنة ١٥١٠ بتدمير ميناء طرابلس ؛ واضطرت موانى دلس والجزائر إلى دفع الجزية لهم . وكانوا قد أقاموا لنفسهم حصناً على جزيرة صغيرة مواجهة للساحل ، وهى التى سيودى ربطها بالقرية الساحلية المواجهة إلى نشأة مدينة الجزائر فيما بعد .

وكانت صدمة أصابت المعسكر الوطنى ، الذى ظهر عجزه عن قيادة المعركة ، نتيجة للانقسام والضعف المادى ؛ فظهرت الحاجة إلى قوى جديد لقيادة النضال فيما بعد .ولكن القوة الإسبانية سيطرت على الموانى والسواحل المغربية ، وبشكل متصل ، من مضيق جبل طارق ، حتى طرابلس ، ومنذ سنة ١٥١٠ . ولذلك ، فإن نزول القوات الإسبانية إلى شبه الجزيرة الايطالية فى ذلك الوقت ، وفى نابولى ،كان استداداً ، ونتيجة طبيعية ، لسيطرة إسبانيا على الحوض الغربى للبحر المتوسط . كما أن اعتماد البابا جيال الثانى على إسبانيا ، فى شبه الجزيرة الايطالية ، كان مبنياً على معطيات وإيجابيات واضحة .

٤ ـ إستمرار الحرب حتى موقعة ماربنيان سنة ١٥١٥ :

وكان البابا قد أعتمد على « الحلف المقدس » عامة ، وعلى القوات الاسبانية والسويسرية بشكل خاص ، لكى يتخلص من الوجود الفرنسى فى شبه الجزيرة الايطالية . وتقدمت القوات الاسبانية والبابوية ، فى شهر ديسمبر سنة ١٥١١ ، صوب بولونا وفرارا ، وزحف السويسريون والبنادقة على سهل لومبارديى . ولكن القوات الفرنسية أظهرت صلابتها ،واحتفظت بمدينة بولونا . ثم واصلت القوات الفرنسية تقدمها صوب رافينا ، حيث لاقت جيشاً إسبانيا ، وخاضت معركة ضده ، فى ١١ أبريل سنة ١٥١٢ ، وهزمته هزيمة ساحقة ، وإن كان قائدها قد قتل فى هذه المعركة . وكانت رافينا من أهم مواقع أقليم رومانا ، الذى كان من ممتلكات البابوية ؛ وسمح ذلك للفرنسيين بالسيطرة على كل الاقليم .

ووجد البابا نفسه مهدداً ، فعمل على توسيع « الحلف المقدس » ، ونجح فى ضم الإمبراطور مكسميليان اليه ، ضد فرنسا ، فى ١٧ مايو سنة ١٥١٢ ، وبشكل جعله يضم كل من البابا ، والامبراطور وملك انجلترا وملك إسبانيا ودوج البندقية ضد فرنسا وتزايد عدد قوات السويسريين فى إيطاليا ،ونشبت الثورات ضد الفرنسيين فى كل مكان ؛ الأمر الذى دفع القوات الفرنسية إلى الانسحاب ، وإلى عبور الألب عائدة إلى بلادها . ولقد أدعى البابا أنه ظهر إيطاليا من الفرنسيين ، ولكنه كان قد أدخل اليها قوات إسبانية ، وسويسرية وألمانية ، وجعلها تسيطر عليها . وعلى أى حال فإن البابا قد وسع حدود ممتلكاته ، واستولى على بارما وريجيو ومودينا ، كما إستولى كل من الامبراطور ، وملك إسبانيا ، عن مناطق كان يطمح فيها .

وحين توفى البابا جيل الثانى سنة ١٥١٣ ، وتولى الكرسى الباقوى البابا ليو العاشر ، كان العداء على أشده . بين كل من فرنسا وإسبانيا ، على إيطاليا . وكانت أقدام إسبانيا ثابتة فى نابلى ؛ فى جنوب إيطاليا ، وكانت تقسم مع السويسريين

أمر السيطرة على ميلانو فى الشمال . أما فرنسا ، فان أنظارها كانت لاتزال تتجه إلى سهل لومباردى ، وإلى دوقية ميلانو، التى كانت ترغب فى إستعادتها . وبدأت فرنسا باتخاذ موقف ، فى شهر مارس سنة ١٥١٣ ، يتمثل فى عقد « حلف بلوا » ، مع البندقية ، وبشكل يسمح لفرنسا بإسترداد سهل لومباردى ، ويسمح للبندقية باستعادة ممتلكاتها السابقة . ورد البابا على ذلك ، وفى نفس السنة ، بعقد حلف مضاد ، هو « حلف مالين » ، الذى ضم الممتلكات البابوية ، مع مكسميليان الأول ، امبراطور الدوله الرومانية المقدسة ، وفرديناند الكاثوليكى ملك اسبانيا، وهنرى الثامن ملك انجلترا . وكان هذا الحلف موجهاً ضد فرنسا . وسرعان ما اشتعلت الحرب بين قوات الحلفين .

ولقد زحف قوات فرنسا والبندقية على شمال إيطاليا ، متجهة إلى ميلانو واستولت القوات الفرنسية على جنوا ، واستمرت فى انتصاراتها ، إلى أن جاءت القوات السويسرية لكى تحسم الموقف فى صالح حلف مالين ؛ فهزمت القوات الفرنسية فى شهر يونيو سنة ١٥١٣ فى نوفارا على أيدى السويسرين ، الأمر الذى أجبر الجيش الفرنسى إلى الأسراع بعبور الألب عائداً إلى فرنسا ، بعد أن تكبد الكثير من الخسائر ؛ واضطر جيش البندقية كذلك إلى التقهقر ؛ ووصلت القوات الاسبانية والألمانية إلى البندقية ، وضربتها بالمدافع .

وأصبحت فرنسا فى موقف لا تحسد عليه ، بعد أن هاجم الانجليز إقليم نورماندى ، واستولى الاسبانيون على إقليم نافار قرب جبال البرانس ، وتمكن البرجنديون من حصار ديجون . فاضطر لوى الثانى عشر إلى التراجع ، وإلى مصالحة البابا ؛ ثم عقد مع فرديناند ملك إسبانيا هدنة تنسحب على الحروب الايطالية ، كما عقد الصلح مع هنرى الثامن ملك انجلترا سنة ١٥١٤ .

وهكذا فشلت فرنسا، حتى ذلك الوقت ، فى تنفيذ سياستها الخاصة بالتوسع فى إيطاليا ؛ أما إسبانيا فانها حصلت على نابولى، واقتسمت ميلانو مع السويسريين،

واستولت على نافار . أما البابوية فإنها ضمنت الحصول على إقليم روماثا .

وحين توفى لوى الثانى عشر ، فى شهر يناير سنة ١٥١٥، تولى العرش فرنسوا الأول (١٤٩ — ١٥٤٧) ؛ وكان من أسرة فالوا ، ويتميز بالهمة والاقدام ، وله من العمر عشرين عاماً . ولن يتراجع عن المطالبة بحقوقه فى إقليم ميلانو ؛ وعمل على التحالف مع البندقية كذلك.ووجد فى مواجهته محالفات من الامبراطور وملك اسبانيا والبابا ؛ ولكن الموت خلصه منهم ، الواحد بعد الآخر ، خاصة وأنهم كانوا مسنين .

ولقد حشد فرنسوا الأول جيشاً قوياً ، يبلغ أربعين ألف مقاتل ، مدعم بسلاح مدفعية رهيب ، وعبر به جبال الألب بسرعة ، وأوقع هزيمة منكرة بقوات الحلف فى موقعة « مارينيان » ، بالقرب من ميلانو ، فى ١٣ سبتمبر سنة ١٥١٥ . وكانت قوات كل من الامبراطور مكسميليان ، والملك فرديناند ، لم تصل بعد إلى أرض المعركة وتمكنت القوات الفرنسية من الاستيلاء على ميلانو.

ولقد أردف فرنسوا الأول ذلك بعقد اتفاقيات بولونا (كونكوردات) مع البابا ليو العاشر ، فى شهر أغسطس سنة ١٥١٦ ؛ ووافق على دفع أموال الكنيسة للبابا ، بعد أن كانت فرنسا قد توقفت على دفعها له منذ سنة ١٤٣٨ ؛ وعادت هذه الاتفاقية بالنفع على الجانبين ، وظلت أساساً للعلاقات بين فرنسا والبابوية حتى عهد الثورة الفرنسية .

كما أنه قام بعقد صلح فريبورج الدائم فى نوفمبر سنة١٥١٦ مع السويسريين، ودفع لهم نفقات حربهم نظير تعهدهم بعدم محاربة ملك فرنسا فى بلاده أو فى ميلانو أو أى إقليم آخر تابع له . وظلت هذه الاتفاقية أساساً للعلاقات بين فرنسا وسويسرا حتى عهد الثورة الفرنسية كذلك .

وعقد اتفاقيات ، فى نفس السنة ، مع الامبراطور مكسميليان الأول، ومع البندقية ، ضمنت له الاحتفاظ بميلانو وجنوا ، والسيطرة على إقليم لومباردى فى

شمال إيطاليا. كما عقد فى نفس السنة إتفاقية نيون مع شارل ، أمير النمسا، ووارث عرش إسبانيا ، بعد وفاة فرديناند الكاثوليكى .

وإذا كانت المنافسة سوف تشتد بين فرنسوا الأول ، وشارل ملك إسبانيا حول عرش الامبراطورية ، فإن أطماع كل منهما ستظل قائمة من أجل السيطرة على إيطاليا ، وإستمرار الحروب الإيطالية لفترة جديدة .

وفى أثناء ذلك اوقت ، ومع هذا الهدوء النسبى ، عمد العثمانيون إلى تغيير الأوضاع الموجودة فى الشرق الأدنى ، وبشكل يغير خريطة القوى فى حوض البحر المتوسط ، ويزيد من تعقيد الصراعات الموجودة فيه .

الفصل السابع عشر

التوسع العثمانى فى الشرق الأدنى فى عهد سليم الأول حتى سنة ١٥١٨

كانت سلطنة المماليك ، وهى المسيطرة على مصر والشام ، قد ضعفت ، اقتصادياً وعسكرياً ، نتيجة لوصول البرتغاليون إلى مياه العرب والهند،ودخولها فى صراع معهم ، أثر على قواتها المحاربة ، وبعد أن كانت التجارة العالمية قد إنحسرت من منطقة الشرق الأدنى إلى طريق رأس الرجاء الصالح . وسمح ذلك للدولة العثمانية ، التى كانت علاقاتها قد ساءت مع مصر ، بالزحف بجيوشها ، والاستيلاء على الشام ومصر ، وبشكل غير خريطة الشرق الأدنى، وقلب موازين القوى الموجودة فيها ، وسمح للدولة العثمانية بإمكانيات عمل جديدة فى العالم . وتم كل ذلك فى عدد بسيط من السنوات ، وفى وقت كانت فيه الدول الاوربية ، وأهمها فرنسا وإسبانيا . مشغولة فى الحروب الإيطالية .

١ ـ الصراع المملوكى البرتغالى وضعف سلطنة المماليك :

كان وصول البرتغاليين ، بعد إلتفافهم حول رأس الرجاء الصالح ، إلى المياه الهندية والعربية نقطة تحول كبيرة فى تاريخ العالم بشكل عام ، وفى تاريخ المنطقة بشكل خاص .

وكانت التجارة العالمية ، بين الشرق والغرب ، سواء تلك التى تأخذ « طريق الحرير » الذى يمر من الصين إلى أواسط آسيا ثم آسيا الصغرى والبلقان إلى أوربا، أو تلك التى تسير فى « طريق التوابل » البحرى الذى يصل من مياه الشرق الأقصى والهند إلى الخليج الفارسى والبحر الأحمر ، تصل فى غالبيتها إلى موانى

الشام ومصر ، والتى كانت تابعة لسلطنة المماليك ؛ خاصة وأن إستيلاء العثمانيين على القسطنطينية ، فى سنة ١٤٥٣ ، جعل التجارة العالمية تبتعد عن المرور فيها ، وتنحرف بمسيرتها صوب الموانى المملوكية فى الشام . وكانت دولة المماليك تعيش من الأرباح التى تجنيها من الرسوم والضرائب على هذه التجارة ؛ كما كان كثير من أهالى البلاد يعيشون منها وعليها ، ولذلك فإن وصول البرتغاليون إلى مياه الهند كان تهديداً واضحاً لدولة المماليك فى إيراداتها ومكاسب تجارها وأبنائها ، من الناحية الإقتصادية .

كما أن البرتغاليين إستخدموا الشدة والقسوة فى الموانى العربية ، على سواحل شرق إفريقية ، فقاموا بإحراقها وضربها بالقنابل ؛ كما عملوا على إغراق سفن التجار والبحارة العرب فى كل مكان . ووصلت أساطيلهم إلى مدخل الخليج العربى ، تمهيداً لإقامه قاعدة لهم فى هرمز ؛ كما وصلت سفنهم إلى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، وحاولوا الاستيلاء على عدن . وكانوا يهددون أكثر من ذلك بالدخول فى البحر الأحمر ، وبتدمير جدة والسويس ، وأعلنوا ، تحت دعاية دينية ، أنهم سيحتلون الحجاز ، ويدمرون مكة والمدينة ، وأنهم سيتحالفون مع الحبشة لتحويل مجرى النيل ،وأماتة مصر عطشاً . وكان هذا تهديداً واضحاً لدولة المماليك ، من الناحية الاستراتيجية ، ومن الناحية السياسية .

ولذلك فقد كان من الطبيعى أن تدخل مصر فى صراع مع البرتغاليين ، ذلك الصراع الذى فرض عليها فى ذلك الوقت ؛ خاصة وأن بعض مندوبى مسلمى الاندلس ، وأمر شمال إفريقية ، كانوا قد وصلوا إلى السلطان الغورى فى القاهرة ، يستنجدون به أمام النكبات التى كان الكاثوليك فى أيبيريا ينزلونها بهم ، وبيلادهم ؛ وكان اليهود الذين فروا بعد سقوط غرناطة وجاؤا للاقامة بمصر ، يؤيدونهم فى الضغط على السلطان المملوكى .

وكانت الضربة الاقتصادية التى أصابت سلطنة المماليك ، قد أثرت كذلك

على جمهورية البندقية ، التى كانت تشترى السلع من الموانى المملوكية . وكان كبر سفن البرتغاليين يسمح بوصول شحنات أكبر إلى لشبونة ؛ وكانت هذه السلع تباع فى لشبونة بأسعار تقل عن أسعارها فى موانى مصر والشام ، وإذا كانت حكومة البندقية قد رفضت ، لعدة سنوات ، أن تتاجر مع لشبونة بدلا من إتجارها مع المماليك ، إلا أن عدداً متزايداً من تجار انجلترا وغرب وشمال أوربا بدأ فى التعامل مع البرتغاليين ؛ الأمر الذى هدد الحياة الاقتصادية لجمهورية البندقية تهديداً واضحاً ، وجعلها تتشبث بضرورة خفض المماليك للرسوم التى يفرضونها فى موانيهم على سلع الشرق الأقصى ؛ وجعلها تساند دولة المماليك فى صراعها ضد البرتغال ، ولكن فى حدود مصلحة التجارة .

ولقد طلب الغورى من البندقية إمداده بالأسلحة ، وبالأخشاب ، اللازمة لبناء وتسليح أسطوله ؛ وهو الأسطول الذى أنزله إلى مياه السويس سنة ١٥٠٥ . ولكنه رفع فى نفس الوقت الرسوم على التوابل ، الأمر الذى أغضب البنادقة ، إذ أنه كان يتعارض مع إتفاقياتهم ، ويزيد الصعوبات أمامهم فى التعامل فى التوابل بهذه الأسعار الجديدة . ولذلك فإن أنظار السلطان الغورى قد إتجهت صوب السلطان العثمانى ، بايزيد الثانى ، لكى يمده بالسفن وبالأسلحه .

وأنزل السلطان الغورى أسطولا حربياً فى خليج السويس ، زوده بالأسلحة، وعين عليه الأمير حسين الكردى ؛ وكان يتألف من خمسين سفينة ، إجتمعت فى ميناء جدة؛ثم وصل إلى سورات فى بلاد جوجيرات سنة ١٥٠٧، وحيث إنضمت إليه بعض السفن الهندية ؛ وفاجأ أسول المبدأ البرتغالى ، وأنزل به هزيمة قرب شول سنة ١٥٠٨ ، وقتل المبدأ الصغير ، القائد البرتغالى فى هذه المعركة . ولكن فرانسيسكو المبدأ الكبير،إنتهز فرصة إتجاه الأسطول المملوكى إلى ديو،وفاجأه ، وأنزل به الهزيمة بعد معركة ساخنة ، يوم ٣ فبراير سنة ١٥٠٩ ، دمرت فيها السفن المملوكية .

ولقد عاد حسين بك الكردى إلى جدة بعد ذلك ، وطلب السلطان الغورى المدد من السلطان العثمانى ، بايزيد الثانى ، الذى كان يخشى كذلك من توغل النفوذ البرتغالى داخل البحر الأحمر ، وصوب الحجاز . ولكن سفن فرسان رودس احاطت بالسفن المرسلة من السلطان العثمانى،فى ١٠ أغسطس سنة ١٥١٠، وأغرقت معظ ها ، وأسرت بعضها ، ولم يصل إلى الاسكندرية إلا ست سفن منها ، وكانت خاوية .

وكان على سلطنة المماليك أن تحافظ،رغم هزائمها ، على مداخل البحر الأحمر، من اليمن ؛ الذى استولى عليه الأمير برسباى الجركسى من بنى ظاهر ؛ وأن تحافظ كذلك على البحر الأحمر نفسه ، وعلى سواحل الحجاز ، التى قام الأمير حسين الكردى بتحصينها . هذا من ناحية الجنوب . أما فى الشمال، فكانت سواحلها مفتوحة . أما هجمات فرسان رودس ، وحتى أمام إمكانية قدوم الإسبان،وهكذا أدى الصراع المملوكى البرتغالى إلى تحطيم الموارد الاقتصادية لسلطنة المماليك ، وإلى إجبارها فى نفس الوقت على القيام باستعدادات تكلفها الكثير من الرجال والأموال . وسيجىء تطور العلاقات المملوكية العثمانية ، لكى يحسم الموقف فى الشرق الأدنى ، ولعدة قرون .

٣ - حتمية الصدام العثمانى المملوكى :

كانت منطقة الشرق الأدنى تشتمل فى ذلك الوقت على ثلاث قوى رئيسية : الأولى هى قوة الأتراك العثمانيين فى البلقان وآسيا الصغرى ، والثانية هى قوة الصفويين فى فارس ، والثالثة هى قوة المماليك فى مصر والشام والحجاز ، وكان التنافس واضحاً بين كل من هذه القوى ، وخاصة بين العثمانيون السنيين ، وبين الصفويين الشيعة ، وكانت كل من هاتين القوتين آخذة فى النمو ، وتسير على سياسة التوسع الاقليمى على حساب جيرانها ، وإتجهت أنظارهما من هضاب فارس وآسيا الصغرى إلى منطقة السهول الجنوبية، تلك الأرض المنبسطة التى كان يسكنها

العرب ؛ ولما كانت كل قوة من هاتين القوتين ، الفارسية والتركية ، غير عربية ، فإنها إتخذت الإسلام شعاراً لحركتها التوسعية .

ولقد قام الشيعة بدعاية كبيرة لمذهبهم ، إمتدت غرباً ، مع طرقهم الصوفية ، حتى وصلت إلى آسيا الصغرى ، وبشكل أقلق العثمانيين فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر . وقامت الأسرة الحاكمة فى فارس ، وهى الأسرة الصفوية ، بالإستيلاء على العراق سنة ١٥٠٨ ، وذلك فى عصر الشاه إسماعيل ، الذى أقام دولته على إنقاض الإمارات المغولية ، وإتخذ المذهب الشيعى مذهباً رسمياً لدولته . ولاشك فى أن هذا التذرع بالمنافسة المذهبية ، بين الشيعة والسنة ، كان يختفى وراءه عملية التوسع الإقليمى ، بالنزول من الهضاب المرتفعة ، للسيطرة على منطقة السهول ، فى العراق والشام ، منطقة الإستقرار والزراعة ، والمنطقة التى كانت تمر منها التجارة العالمية ، والتى كانت توجد بها حواضر العالم العربى والإسلامى . ولذلك فإن الاتراك العثمانيين قد جاءوا بدورهم ، بقيادة السلطان سليم الأول ، زاحفين نحو الشرق ؛ وهزموا القوات الفارسية فى موقعة جالديران سنة ١٥١٤ ، ودخلوا عاصمتهم تبريز . ولكن السلطان سليم إرتد عن هذه العاصمة ، وترك بذلك الفرصة للفرس للانتعاش من جديد ، فلم تكن موقعة جالديران حاسمة إلا فى أنها وجهت أنظار العثمانيين صوب ضرورة السيطرة على بقية الاقاليم العربية الموجودة فى منطقة الشرق الأدنى ، وبخاصة أقاليم الشام ومصر ، والتى كانت تسيطر عليها الدولة المملوكية ، حتى يمنعوا الفرس من إمكانية التوسع فيها .

ولقد كان الصراع المملوكى البرتغالى قد أظهر فى ذلك الوقت ضعف دولة المماليك ، إقتصاديا وعسكرياً ، وتهديد البرتغاليين لها بشكل واضح . ولقد إعتبر العثمانيون أن واجبهم الأول يتلخص فى الدفاع عن الأقاليم الاسلامية ضد الاخطار والهجمات الخارجية ؛ وإعتقدوا أنهم أقدر من السلطان الغورى ومن دولة

المماليك على الدفاع عن المنطقة . فكانت معركة من أجل قيادة المنطقة ووحدتها، وتحاول فى حقيقة الأمر توسيع الرقعة التى كانوا يحكمونها ، وزيادة امكانيات استغلالهم لها . فكانت هناك حتمية لوقوع صدام بين الدولة العثمانية الناشئة ، وبين دولة المماليك الهرمة ؛ واستندت هذه الإمكانية إلى أسباب وذرائع مختلفة، تؤدى بها إلى تحقيق أهدافها .

وكانت أهمية المنطقة الخاضعة لدولة المماليك من النواحى الإقتصادية، سواء فى الإنتاج الزراعى ، أو طرق التجارة العالمية ؛ وكذلك السياسية ، من حيث إشتمالها على عواصم العالم العربى والاسلامى ، مع شعور العثمانيين بقوتهم المتزايدة، مع إزدياد ضعف دولة المماليك ، أسبابا واضحة تدفع العثمانيين إلى الاستمرار فى توسعهم الاقليمى ، وهذه المرة ، على حساب سلطنة المماليك .

وجاءت الاحتكاكات التى حدثت فى منطقة الحدود المشتركة بين الدولتين ، عند أعالى الشام ، وإلتجاء الأمير جم إلى دولة المماليك ؛ ومجىء بعض الأمراء العثمانيين فارين من سلطة سليم ، واجارة السلطان الغورى لهم ؛ وكذلك اصدار السلطان سليم أمره باغلاق اسواق الرقيق فى وجه سلطنة المماليك ؛ وبعد ذلك منع السلطان الغورى لبعض الهدايا التى كانت مرسلة من الهند إلى السلطان سليم ؛ أسباباً لتوتر العلاقات بين الدولتين ، وقت قيام سليم الأول بالهجوم على الصفويين . وأخيراً فان موقف الأمير علاء الدين ، صاحب امارة « دولة ذو الغادر » من القوات العثمانية ، ومنع تزويدها بما يلزمها أثناء تقدمها صوب فارس ، تسبب فى هجوم العثمانيين عليها ، وضمها لهم ؛ وكانت تحت سيطرة المماليك وحين خرج السلطان الغورى ، فى صيف سنة ١٥١٦ ، إلى الشام ، للدفاع عن حلب ، أولى معاقلة الشمالية أمام العثمانيين ، كان وجود هذه القوات المركبة هناك يدفع العثمانيين إلى الاصطدام بها مادامت جبهتهم مع فارس كانت لا تزال مفتوحة .

٣ — الاستيلاء على الشام وعلى مصر :

كان هناك اختلاف واضح بين قوة المماليك وقوة العثمانيين ، وذلك فى القيادة ، وفى القوات المسلحة،وقوة تدريبها ، وتسليحها ، ودرجة المرونة ، أو حرية الحركة لدى كل من الطرفين . فكان السلطان سليم شاباً فى مقتبل العمر ، مربوع القامة واسع الصدر ، وكان السلطان الغورى يبلغ الثامنة والسبعين من عمره ، « غليظ الجسد ، ذو كرش كبير ، وكان يلبس فى أصابعه الخواتم ، وكان مترفاً فى ملبسه ، ومترفاً فى حياته ، يحب الأكل والشرب إلى درجة النهم » . وفى الوقت الذى بلغت فيه قوات المماليك الزاحفة شمالا مايقرب من خمسة آلاف رجل ، كانت قوات العثمانيين يصعب تقدير عددها . وكان المماليك قد فقدوا الكثيرين فى حملاتهم إلى الحجازوإلى اليمن ، فى صراعهم ضد البرتغاليين ؛ وسيكون رجالهم الذاهبون إلى شمال سوريا أقل كفاءة من غيرهم ، وذلك فى اوقت الذى زاد فيه تمرن العثمانيين على الحرب بمنازلتهم لقوات الشاه اسماعيل الصفوى ، علاوة على تميزهم باستنادهم إلى سلاح مدفعية قوى . وكان الغورى ، فى زحفه شمالا ، يخشى على مصر نفسها من وقوع هجوم عثمانى بحرى على سواحلها،ويخشى من إمكانية قيام البرتغاليين بهجوم من البحر الأحمر ؛ وذلك على العكس من العثمانيين الذين جمعوا قواتهم فى شرق آسيا الصغرى : فاما أن يهاجموا بها قوات المماليك فى شمال سوريا ، و يستخدمونها فى توجيه ضربة جديدة ، ومن نفس الموقع ،ضد فارس . وكان الانضباط موجوداً بين صفوف العثمانيين بدرجة تفوق ، وبكثير ، وجوده لدى المماليك ؛ وكان خلو الخزانة المملوكية يهدد كل شىء ، ويقيد أيدى القيادة المملوكية . وأخيراً ، وليس آخراً ، فلقد خرج السلطان الغورى إلى الشام ، فيما يشبه المظاهرة العسكرية ، فى الوقت الذى كان فيه الجيش العثمانى يعتمد على كفاءة التدريب ، قبل أى شىء آخر (١) .

---

(١) أنظر . دكتور جلال يحى . مصر الحديثة ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٦٩ . ج ١ ص ٦٩-٧٩ .

وخرج السلطان الغورى من القاهرة ، على رأس قواته ، فى عرض عسكرى كبير ، إلى دمشق ، ثم إلى حمص وحماة وإلى حلب . وكان مشغولا بسوء الأحوال فى مصر وفى الحجاز ، مع اقتراب موسم الحج . واعتقد فى صدق نية العثمانيين لعقد الصلح معه ، وعلى أساس عدم تدخلة فى النزاع العثمانى مع الصفويين ؛ ولكن سرعان ماوجد أنها خدعة ، وأن طلائع العثمانيين قدزحفت ضده ووصلت إلى عينتاب . فأصدر أمره إلى النواب والأمراء بالخروج ، وذكرلهم أنه سيخرج كذلك عن قريب إلى القتال « والذى يريده الله هو الذى سيكون » .

وتقابلت قوات المماليك مع قوات العثمانيين فى مرج دابق ، عند حلب . ومرت الجولة الأولى من المعركة بإنتصار جزئى لقوات المماليك ، ولكن سرعان ما إنقلب الموقف ، وإنهزمت ميمنة المماليك ، ثم الميسرة التى كان فيها خاير بك ، نائب الشام ؛ وبقى القلب ، ومعه السلطان الغورى ، الذى انتهى به الأمر إلى الإنهزام كذلك ؛ وقتل السلطان الغورى فى المعركه . وهكذا فقد المماليك جيشهم ، وفقدوا سلطانهم فى هذه المعركة ، وإستولى العثمانيون على معسكرهم ، مع كل ماكان فيه ، وأسروا الكثير من المماليك . وكانت هذه المعركة نقطة تحول خطيرة فى تاريخ المماليك ، وتاريخ الشرق الأدنى ؛ إذ أن الطريق أصبح مفتوحاً بعدها إلى دمشق ، وبيت المقدس ، وحتى إلى مصر . وفى الوقت الذى إزدانت فيه حلب لدخول العثمانيين اليها ، وإستعدت فيه دمشق لإستقبالهم ، وإمتلأت القاهرة بالصراخ والبكاء والعزاء . ولقد ظلت الأقاليم السورية منذ موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ ، عثمانية ، ولمدة أربعة قرون .

أما فى مصر ، فان الفوضى قد إنتشرت بسرعة ، وأصبح على طومان باى ، نائب الغيبة ، أن يواجه الموقف ؛ سواء فى الداخل ، أو حتى بالنسبة لإمكانية إستمرار الزحف العثمانى صوب مصر . وكانت الصعوبات تواجهه من أجل تنظيم البقية الباقية من المماليك فى مصر ؛ ومن أجل تسليحهم ، بعد فقد المهمات العسكرية

والمدفعية فى الشام.وكان ضعف بقية المماليك فى مصرواضحاً، ووضحت كذلك قلة إمكانياتهم الاقتصادية ، وضعف روحهم المعنوية : فكانت معركة خاسرة بالنسبة للنظام المملوكى (١) .

وجاءت أنباء دخول العثمانيين غزة ، وما قاموا فيها من ضروب القسوة ، لكى يزيد الخوف فى القاهرة ، رغم بذل طومان باى كل ماكان فى وسعه من أجل ملاقاة العثمانيين . وجمع طومان باى قواته فى صحراء الريدانية ، وعمل بعض التحصينات هناك ، للدفاع عن القاهرة .

ولكن طلائع العثمانيين وصلت إلى الجبل الأحمر ، وأقبلوا كالجراد المنتشر ، « فتلاقى الجيشان فى أوائل الريدانية ، فكان بين الفريقين وقعة مهولة ، يطول شرحها ، أعظم من الوقعة التى كانت فى مرج دابق » ، كما يقول إبن إياس . وإنهزم المماليك ، ودخل العثمانيون القاهرة . وإنتهت بذلك سلطنة المماليك ، رغم إستمرار طومان باى فى المقاومة لبعض الوقت . وسلمت القاهرة رسمياً ، وأصبحت منذ معركة الريدانية سنة ١٥١٧ ، أكبر درة تزين عمامة السلطان العثمانى .

٤ — امكانيات العثمانيين الجديدة :

كان إستيلاء العثمانيين على كل من الشام ومصر يمثل نمواً هاماً للدولة العثمانية ، بسطرتها على إقليمين لهما مقوماتها الاقتصادية والاستراتيجية والمعنوية بالنسبة للعالم العربى والاسلامى ؛ وبالنسبة للشرق الأوسط ، والحوض الشرقى للبحر المتوسط . وإذا كانت الدولة العثمانية غير قادرة فى ذلك الوقت على حكم هذه الأقاليم الجديدة بطريقة مباشرة ، وإضطرت إلى وضع نظام حكم إستعانت فيه بالبكوات المماليك فى الادارة الداخلية وجمع الضرائب ، إلا أن ذلك لايقلل من أهمية مكاسبها ، وإزدياد قوتها بشكل واضح .

---

(١) أنظر . دكتور جلال يحى . مصر الحديثة . الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٦٩ . ج ١ ص ٨٦ — ١٠٣ .

وباستتباب الأمر للعثمانيين فى مصر، أصبح عليهم كذلك أن يتولوا أمر الأقاليم التى كانت ملحقة بها ، وبخاصة فى شبه الجزيرة العربية ؛ وهى أقاليم الحجاز واليمن. وكما كانت سوريا الجنوبية ضرورية من الناحية الاستراتيجية للدفاع عن مصر ضد أى هجمة تأتى لها من الشمال أو من الشرق ، كان الحجاز واليمن مهمين كذلك لها من الناحية الاستراتيجية ، كخط دفاع أول عن مصر ، أمام أية هجمة قد تفاجئها من المحيط الهندى وخليج عدن ؛ وبخاصة وقت وجود البرتغاليين هناك .

ولم يكن من الصعب أن ينضم أشراف الحجاز إلى الدولة سيطرت على مقدرات مصر ؛ ووافق الشريف بركات على قبول السيادة العثمانية ، التى كانت تضمن تأييد دولة إسلامية كبرى،وقوية لبلاده ؛ وأرسل إبنه إلى القاهرة، يحمل إلى السلطان سليم تهنئة بفتح الشام وفتح مصر ، ويحمل إليه كذلك مفاتيح الحرمين الشريفين ، إقراراً باعترافه بالسيادة العثمانية . وسيتخذ العثمانيون الحجاز قاعدة لهم أساسية بالنسبة للبحر الأحمر ، واليمن ، وبلاد الصومال ، وبخاصة فى المراحل التاريخية التالية ، فى عهد سليمان القانونى .

ولاشك فى أن سيطرة العثمانيين على الشام وعلى مصر ، وعلى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، دفع بأمراء البحر المجاهدين فى شمال إفريقية ، إلى مد يدهم إلى هذه الدولة ، طالبين الاتحاد معها ، لتكتيل القوى الاسلامية فى البحر المتوسط ضد أخطار الغزو الاسبانى ، التى كانت تهدد أقاليمهم ، من الغرب صوب الشرق.

وكان ضعف القيادات المحلية فى ذلك الوقت ، وتناحرها فيما بينها ، سببا فى وضوح الحاجة إلى قيادات جديدة ، تعمل على توحيد القوى الوطنية ، ويمكنها أن تنازل الأعداء ، وتدافع عن السواحل . وأدى ذلك إلى نشوء قيادة بحرية ، واصلت الجهاد البحرى ضد القوى المعتدية . ولقد إشتهر من بين هؤلاء القادة بابا عروج ، الذى عمل مع أخيه خير الدين على إنشاء أسطول حربى ، وجمع

المتطوعين ، وأخذ يرد غارات الاسبانيين (١) . ولقد نجح فى سنة ١٥١٦ فى أن يصد هجوم إسبانى على مدينة الجزائر ، بعد أن إستدعاه الأهالى للدفاع عنهم .

وإذا كانت إسبانيا قد أرسلت ضده حملة قوية . من وهران ، وقطعت عليه طريق عودته من تلمسان ، وقتلته ، سنة ١٥١٨ ، فأنه يعتبر واضع سياسة الجهاد الاسلامى ضد الغزو المسيحى لبلاد المغرب الكبير ، وهى العملية التى ستقع على كاهل أخيه ، خير الدين ، ورجاله من بعده .

ولقد تحرج موقف خير الدين ، بعد مقتل أخيه ، فأتصل بالدولة العثمانية ، التى كانت قواتها قد سيطرت فى ذلك الوقت على الشام وعلى مصر ؛ وطلب منها معاونته فى جهاده ضد الاسبانيين . فأرسل له السلطان سليم سنة ١٥١٨ ألفين من جنود الانكشارية ، وسمح له بتجنيد الأهالى فى الأناضول نفسها . ويعتبر هذا التاريخ بداية إنضمام إقليم المغرب الأوسط إلى الدولة العثمانية ، أو إتحاده معها .

وإذا كان العثمانيون قد دخلوا الشام ومصر ، بالسيف ، فإن الوضع يختلف عن ذلك بالنسبة للغرب الأوسط ، الذى انضم بنفسه إلى الدولة العثمانية ، وأصبح رجاله وامراء بحريته طليعة القوات العثمانيه الموجودة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط .

وهكذا امتدت امكانيات العثمانيين إلى كل سواحل المغرب الكبير . وفى الوقت الذى كانت فيه اسبانيا تسيطر فيه على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، وتواصل الصراع فيه ، ضد فرنسا ، من أجل السيطرة على شبه الجزيرة الايطالية ؛ فأدى ذلك إلى تغيير موازين القوى فى البحر المتوسط .

---

(١) أنظر . دكتور جلال يحيى : المغرب الكبير . الاسكندرية ، الدار القومية ؛ ١٩٦٦ . ج ٣ ص ١٧ — ٢٢ .

الفصل الثامن عشر

إستمرار الصراع بين فرنسا واسبانيا

حتى نهاية الحروب الايطالية (سنة ١٥٥٩)

إستمر الصراع بين فرنسا وإسبانيا من أجل التفوق في أوربا ، متمثلا في ذلك الصراع الساخن ، المسمى بالحروب الايطالية . بعد موقعة مازيغيان سنة ١٥١٥ ، والاتفاقات التي تمت في العام التالي ؛ وإستمر هذا الصراع لسنوات طويلة ، وحتى سنة ١٥٥٩ . ومر هذا الصراع في مراحل متتالية ، بدأت بمنافسة بين فرنسوا الأول ملك فرنسا وشارل الأول ملك إسبانيـا على عرش الإمبراطورية ، وفوز شارل الأول به سنة ١٥١٩ ، الأمر الذي ساعد على تجدد الحرب ووقوع موقعه بافيا سنة ١٥٢٥ ، وإنهاء هذه المرحلة بصلح كامبراي سنة ١٥٢٩ . أما المرحلة الثالثة فقد إمتدت حتى نهاية حكم فرنسوا الأول ، وإشتملت على معركة سيريزول ومعاهدة كريسبي . وبعد تولى هنري الثاني عرش فرنسا ، وتنازل شارل الخامس عن عرش الامبراطورية ، تجدد الصراع بين الدولتين ، في شكل مرحلة أخيرة ، بين هنري الثاني وفيليب الثاني ؛ وإستمرت هذه المرحلة حتى عقد معاهدة كاتو كامبريسيس سنة ١٥٥٩ ، وهي المعاهدة التي أنهت الحروب الإيطالية . ولقد إستمرت أدوار هذه الصراع في الوقت الذي إستمر فيه نمو الدولة العثمانية ، حتى وصلت إلى أوج قوتها في عهد السلطان سليمان القانوني ؛ وإستمرت في نفس الوقت الذي زادت فيه قوة حركة الاصلاح الديني في شمال أوربا وغربها .

٤ ـ معركة بافيا (١٥٢٥) وصلح كامبراى (١٥٢٩) :

لم يستمر الهدوء بعد موقعة ماريفيان سنة ١٥١٥ ، والاتفاقات التى تمت فى العام التالى ، لفترة طويلة . وسرعان ما خلا منصب إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وتقدم لترشيح نفسه له كل من شارل الأول ملك إسبانيا ، الذى كان قد تولى الحكم فيها منذ سنة ١٥١٦ ، وفرنسوا الأول ملك فرنسا ، وهنرى الثامن ملك انجلترا . ثم إنسحب هذا الأخير ، فظلت المنافسة قائمة بين ملكى فرنسا وإسبانيا ، للوصول إلى كرسى الامبراطورية . وكان لكل من المتنافسين مزاياه فكان شارل هو حفيد مكسميليان ، الامبراطور السابق ، ويسيطر على إسبانيا ، والأراضى المنخفضة ومملكة نابولى ؛ وكانت إسبانيا قد أصبحت دولة قوية بعد الكشوف الجغرافية ، وسيطرتها على أقاليم لها قيمتها فيما وراء البحار، كما كانت تعتمد على جيش قوى ، وأسطول ضخم يجوب المحيطات. أما فرنسوا الأول فكان يدعى أن فى وسعه تنظيم حملة صليبية كبرى ، لمواجهة خطر العثمانيين المتزايد ضد المجر والنمسا فى وسط أوربا ، يقوم فيها بتكتيل الدول الأوربية ، وتعقب العثمانيين حتى القسطنطينية ، ويقوم بطردهم منها . وكانت انتصاراته فى موقعة ماريفيان قد أظهرته على أنه صاحب أقوى جيش فى أوربا فى ذلك الوقت . وهكذا قام كل منهما بالدعاية لنفسه ؛ ولكن عملية الانتخاب إنتهت بفوز شارل الأول ملك إسبانيا ، فى شهر يونيو سنة ١٥١٩ أمام الدايت الامبراطورى فى فرانكفورت ، إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ، بإسم الامبراطور شارل الخامس . وسيكون هذا بداية لصراع طويل بين أسرة هابسبورج الألمانية ، وأسرة فالوا الفرنسية ، لعدة سنوات .

وهكذا زادت أملاك شارل الخامس فى أوربا إتساعاً ، وأصبحت أقاليم الامبراطورية الرومانية تحيط بفرنسا كذلك من الغرب ، بعد أن كانت إسبانيا تطوقها من الشمال والجنوب فقط ، فيما مضى . وكان هناك تنافس بين فرنسا

وإسبانيا على برجنديا ؛ ورأى شارل الخامس ضرورة بقاء ميلانو وجنوا داخل نطاق الامبراطورية ، حتى لاتقوم فرنسا بالسيطرة على سهل لومباردى من جنوا وميلانو إلى البندقية ، وبشكل يعرقل المواصلات البحرية بين إسبانيا وألمانيا . ولذلك فان أمر الصدام بينهما كان حتمياً ، خاصة وأن فرنسوا الأول كان يشعر بحصار أملاك شارل الخامس لفرنسا من كل إتجاه ، وكان يستند إلى حقوقه الموجودة فى شمال إيطاليا ، حتى يتخذها ذريعة لتحطيم هذا الحصار المفروض عليه.

ولقد عمل كل من شارل الخامس ، وفرنسوا الأول ، على استمالة هنرى الثامن إليه،وضمه إلى صفوفه .ووعد شارل الخامس ، هنرى الثامن ، بترك نورمانديا، وإقليم بيكاردى فى شمال فرنسا له فى حالة إنضمامه إليه ؛ أما ملك فرنسا فانه فشل فى الحصول على وعد من ملك انجلترا ، بعد أن كان هذا الأخير قد ربط مصالحه بمصالح شارل الخامس . وجاء بعد ذلك أمر وصول أدريان السادس إلى كرسى البابوية ، كان من الأراضى المنخفضة ، وعلى صلة وثيقة بامبراطور منذ صباه ؛ فجاء ذلك تدعيما لجانب شارل الخامس .

ولقد بدأت المناوشات بين القوات الفرنسية والقوات الامبراطورية على الحدود الفرنسية الألمانية ، ثم إمتدت بعد ذلك إلى قوات الدولتين الموجودة فى شبه الجزيرة الايطالية . وفى ٢٧ أبريل سنة ١٥٢٢ هجمت القوات الاسبانية على القوات الفرنسية الموجودة فى بيكوك قرب ميلانو ، وهزمتها هزيمة ساحقة . ثم أعلنت انجلترا ، فى الشهر التالى ، انضمامها إلى جانب الامبراطور ضد فرنسا . وأصبح على فرنسا أن تواجه قوات متزايدة ، وتحيط بها من كل جانب ، بعد أن أصيبت بهزيمة قوية فى شمال إيطاليا . وحين بدأت فرنسا فى إعادة تجميع قواتها، واجهتها مسألة خيانة دوق بربون الملك فرنسا ، الأمر الذى هدد فرنسا بعملية تفكك داخلى ، وقت حربها مع الخارج .

وقامت انجلترا بالزحف بقواتها من كاليه صوب باريس ، فى الوقت الذى

زحف فيه جيش إسبانى من الجنوب عبر جبال البرانس ، وزحف فيه جيش ألمانى على فرنسا من حدودها الشرقية. ووقعت المعارك بين القوات الفرنسية والاسبانية قرب ميلانو ، كما حاول حلفاء إسبانيا الإستيلاء على ثغر مرسيليا فى الجنوب . ولكن القوات الانجليزية تباطأت فى زحفها صوب باريس ، كما أن الجيش الاسبانى الزاحف من الجنوب أوقف عند نافار ، وإستمرت القوات الفرنسية فى شمال إيطاليا فى القيام بعملياتها ، كما أن أهالى مرسيليا صدوا الهجوم الموجه ضد مدينتهم سنة ١٥٢٤ ، وفى شكل حركة مقاومة باسلة شارك فيها الأهالى ، وحتى النساء ، فى المعركة ، وبشكل رفع الروح المعنوية لدى الفرنسيين .

وفى أثناء ذلك الوقت ، كان العثمانيون قد إستولوا على جزيرة رودس من جماعة الفرسان الاسبتارية ؛ وتوفى البابا أدريان السادس ، وجاء إلى الكرسى البابوى كليمنت السابع ، الذى تميز بالتردد والضعف .

وقرر فرنسوا الأول أن يستمر فى عملياته الهجومية فى شمال إيطاليا ، حتى يفصل إسبانيا عن الأقاليم الألمانية ؛ فزحف على رأس جيش قوى على ميلانو ، وإستولى عليها بسهولة ، وحاصر مدينة بافيا ؛ التى كانت بها قوات إسبانية . ولكن سرعان ما قدمت قوات ألمانية ، تابعة للامبراطورية ، وقرر فرنسوا الأول ضرورة الاسراع بالإشتباك معها . ووقعت الموقعة قرب بافيا ، فى ٢٤ فبراير سنة ١٥٢٥ ؛ وبعد إنتصار مبدئى للفرنسيين ، دارت الدائرة عليهم ؛ وهزموا هزيمة نكراء ، بعد أن جرح فرنسوا الأول ، وأخذ أسيراً .

وتعتبر معركة بافيا من أهم المعارك فى تاريخ أوربا فى القرن السادس عشر ؛ وكانت كارثة لفرنسا ، نتيجة لفقدها جيشها القوى . ووقوع ملكها أسيراً فى أيدى قوات الامبراطور شارل الخامس . وأصبحت لويزا ، دوقه سافوا ، والدة فرنسوا الأول ، وصية على العرش . وعملت على إعادة بناء القوات المسلحة ، حتى لاتتعرض فرنسا لعملية غزو أجنبى ؛ وساعدها الفرنسيون وقدموا لها ما كان

الموقف يتطلبه من تضحيات .

أما فرنسوا فقد عاش أسيراً ثم نقل إلى السجن فى نابولى ، ومنها إلى السجن فى مدريد . عمل شارل الخامس على أن يفرض شروطه على فرنسوا ، الذى قاوم، ثم إضطر بعد ذلك إلى التوقع فى ١٤ يناير سنة ١٥٢٦ على معاهدة مدريد ، والتى نصت على ضرورة التعاون ضد حركة الإصلاح الدينى ، وتنازل فرنسوا عن إدعاءاته فى برجنديا ،وفى ميلانو وجنوا ونابولى ، وكذلك فى الفلاندر وآرتوا، وتقديم ولديه رهينة لشارل الخامس ، ضماناً لتنفيذ المعاهدة ، وأدى ذلك إلى إطلاق سراح فرنسوا الأول ، فى الشهر التالى ؛ بعد أن عاش ذل الهزيمة والأسر والسجن ، وأجبر على التنازل عن الوجود الفرنسى فى إيطاليا .

ولكن فرنسوا الأول أعلن ، بعد عودته إلى باريس ، أنه لن ينفذ معاهدة مدريد ، التى فرضت عليه وهو أسير . صمم على الإستمرار فى الحرب ؛ وعمل بذلك على تغيير الموقف .

وكانت فرنسا لاتزال تحتفظ بقواها، فى بلدها ؛ وتمكنت والده الملك ، فى غيابه ، من إعادة تكوين قوات المملكة ، ورفع الروح المعنوية فيها . ومن جانب آخر نجد أن حلفاء الإمبراطور ، وبخاصة الأمراء الألمان ، كانوا قد شعروا بخطورة إزدياد سيطرة الأمبراطور على إمتيازاتهم الشخصية والاسروية ، وزيادة الأعباء على كواهلهم ،فبدأو فى إظهار التململ من سيطرته. أما إنجلترا ، فإنها إتفقت مع فرنسا على التحالف ، نظير تقديم فرنسا عدداً من الضمانات . ومبلغاً مالياً كبيراً . وظهرت فى إيطاليا حركة ضد الوجود الإسبانى ، خاصة وأن الأوضاع تدهورت فيها ، وسادها الإضطراب والأزمات . وتصدر البابا كل من البندقية وميلانو وفلورنسا ، وعقد « حلف كونياك » معها ، سنة ١٥٢٦ ، موجهاً ضد الإسبان ، ووضع هذا الحلف تحت حماية فرنسوا الأول . وكان شارل الخامس يواجه تفاقم حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا ، وعجز عن السيطرة عليها . وكان

الموقف قد تدهور فى وسط أوربا ، نتيجة لهجوم العثمانيين على المجر ، وهزيمتهم لجيش المجر فى معركة موهاكز ، التى أخذت شكل مذبحة . قضى فيها على جيش المجر وملكها ، ثم استمرار زحفهم على بودا ، وسيطرتهم على معظم أقاليم المجر . وأظهر كل ذلك الامبراطور شارل الخامس فى موقف ضعف ، رغم إنتصار قواته على القوات الفرنسية قبل ذلك فى معركة بافيا ولقد قامت القوات الألمانية الموجودة فى إيطاليا بالهجوم على روما ، وخربت المدينة ونهبتها ، ثم حاصرت البابا ، وأخذته أسيراً ، وأجبرته على دفع فديه كبيرة ، وبشكل زاد من سيطرة شارل الخامس على إيطاليا .

ولكن سرعان ماتم تكوين حلف جديد موجهاً ضد شارل الخامس ، ضم كل من فرنسا وانجلترا والبندقية . وإستعد فرنسوا الأول عسكرياً ، وبدأت « حملة سنة ١٥٢٨ » موجهة ضد سيطرة إسبانيا على إيطاليا ، ولتخليص البابوية من السيطرة الامبراطورية . وتتالت إنتصارات القوات الفرنسية . حتى وصلت إلى مشارف أملاك نابولى . ولكن سرعان ماقام الأميرال أندريا دوريا ، الذى كان يحاصر سواحل نابولى ، بالخروج على ملك فرنسا ، وإنضم إلى شارل الخامس ، وبشكل فتح الاتصال مع نابولى ، من ناحية البحر ، مع اسبانيا ، من جديد . وإنتشرت الأمراض بين الجنود الفرنسيين المحاصرين لنابولى من البر ؛ كما هزم جيش فرنسى فى شمال إيطاليا ، وإضطر إلى التسليم .

وكان ملك فرنسا يخشى من الدخول مع الألمان فى معركة حاسمة ؛ وكان يخشى على ولديه ، الموجودين فى إسبانيا كرهينة فى أيدى شارل الخامس ؛ وكان هناك هجوم العثمانيين الجديد ، مع مايقرب من ربع مليون مقاتل ، بقيادة السلطان سليمان القانونى ، على فينا ، ومحاصرتهم لها . ومهد كل ذلك إلى عقد الصلح ، بعد مفاوضات تمت فى كمبراى ، فى ٣ أغسطس سنة ١٥٢٩ بين الملكة الوالدة لويزا وبين مارجريت النمسوية ، عمة الامبراطور شارل الخامس ، وحاكمة الاراضى المنخفضة .

وكان صلح كمبراى ، صلحاً دائماً ، تخلى فيه الإمبراطور عن مطالبه فى برجنديا ؛ كما تخلى فرانسوا عن مطالبه فى إيطاليا والفلاندر ؛ وتم إطلاق سراح الأميرين الفرنسيين الموجودين كرهينة فى إسبانيا ؛ ووافق فرنسوا على التزوج من اليانور ، أرملة ملك البرتغال ، وشقيقة الامبراطور .

وكان صلح كمبراى كسباً كبيراً لشارل الخامس ، الذى حقق أهدافه فى غرب الراين ، وجنوب الألب ، وسيطر على إيطاليا . وقام كليمنت السابع بتتويج شارل الخامس فى بولونا ، فى حفل كبير،فى شهرفبراير سنة ١٥٣٠ . وبدت الحروب الإيطالية على أنها قد إنتهت ؛ ولكنها أنهت مرحلة من مراحلها ، لكى تبدأ بعدها مرحلة أخرى .

٣ — استمرار الصراع حتى نهاية حكم فرنسوا الاول :

إنتهز شارل الخامس فرصة الهدوء مع فرنسا ، الناتج عن صلح كمبراى ، لكى يتفرغ لمواجهة المشكلات العويصة التى أطلت برأسها ، وهددته ، فى أكثر من مكان : فكانت حركة الاصلاح الدينى قد زاد خطرها فى ألمانيا ، وكان هناك خوف من أن يقوم فرنسوا الاول ، رغم كونه كاثوليكيا، بدعمها ، لإضعاف الامبراطور ؛ وكان هناك خطر زحف الأتراك العثمانيين ، ووصولهم إلى قرب فينا ؛ كما أن رجال البحر من شمال إفريقية كانوا يوجهون هجماتهم ضد سفن إسبانيا وموانيها ، وموانى نابولى . وفى الوقت الذى خشى فيه شارل الخامس من إزدياد نفوذ أمراء البحر المسلمين فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، ووجه حملة بحرية ضد تونس سنة ١٥٣٥ ؛ قام فرنسوا الأول بالتحالف مع السلطان العثمانى سليمان القانونى ، وأنهى مشاكله مع ملك إنجلترا وملك إسكتلندا. وكان فرنسوا الأول لايزال يأمل فى الحصول على نفوذ فى شمال ايطاليا ، عن طريق زواج إبنه الثانى ، هنرى بكاترين دى مديتشى سنة ١٥٢٣ ؛ وحين توفى ابنه الكبير ، أصبح هنرى الثانى ، زوج كاترين ، هو ولى العهد . وحين توفى دوق سفورزا ،

طالب فرنسوا الأول بدوقية ميلانو ، لزوجة إبنه كاترين دى مديتشى ، فتأزم الأمر مع شارل الخامس ، الذى كان مصمماً على إبعاد النفوذ الفرنسى عن شبه الجزيرة الايطالية .

وبدأت العمليات الحربية بهجوم الجيوش الإسبانية على فرنسا ، من الجنوب الشرق ، ووقعت معارك عنيفة ؛ ولكن سرعان ماتقدمت الملكة إليانور ، زوجة فرنسوا الأول ، وأخت شارل الخامس ، لعقد هدنة بينهما ؛ وتم ذلك فى نيس فى ١٨ يونيو سنة ١٥٣٨ ؛ ونصت هذه الهدنة على أن يحتفظ كل طرف بما يسيطر علية من أراضى ، ولمدة عشر سنوات .

ولكن سرعان ما انقلب الموقف ، حين قرر شارل الخامس ، فى سنة ١٥٤٠ ، إعطاء دوقية ميلانو لإبنه فيليب ؛ فإشتعلت الحرب من جديد .

ولقد تمكنت القوات الفرنسية من الحصول على انتصار واضح على قوات الامبراطور فى موقعة سيريزول فى شمال ايطاليا سنة ١٥٤٤ ، وجددت بذلك ذكرى إنتصار ماريفيان ، وأصبح الطريق أمامها مفتوحاً للسيطرة على شبه الجزيرة الايطالية . ولكن القوات الاسبانية قامت بهجوم خاطف على فرنسا ، كما قامت القوات الانجليزية الموجودة فى كاليه بالهجوم صوب باريس فى نفس الوقت ؛ فإضطر فرنسوا الأول إلى عقد الصلح ، والتوقيع على معاهدة كريسبى ، فى نفس السنة ؛ وهى المعاهدة التى نصت على ترك فرنسا لبيد مونت وسافوا ، وعلى تنازل شارل الخامس عن مطالبة فى برجنديا ؛ وتزويج أبن فرنسوا الأول ، وهو دوق أورليان بابنة الامبراطور أو ابنه أخته ، حتى يحصل على دوقية ميلان ، فى الحالة الأولى ، أو على الاراضى المنخفضة . فى الحالة الثانية ، كبائنة لعروسه ، ودون أن يحصل عليها أخوه الأكبر ، هنرى ، ولى العهد ، كبائنة لزواجه من كاترين دى ميدتشى . ولكن سرعان ماتوفى دوق أورليان ، الأمر الذى ألغى هذ الشروط ، وفتح الباب لمرحلة جديدة من مراحل النضال .

وكان فرنسوا الأول قد إعتلت صحته ، وزادت همومه ، بعد فقد إبنه الأكبر ، وبعد الأحداث الجسام التى عاشها ، من إنتصار ، وهزيمة ، وأسر وسجن ؛ وعجز عن الحصول على مكسب دائم فى إيطاليا ، وتعرضت بلاده لخطر الغزو أكثر من مرة . وكان يحارب فى ذلك الوقت صهره ، شارل الخامس ، أخو الملك إليانور ؛ وبشكل جعل بعض المؤرخين يسمون الحروب الايطاليـة بالحروب العـائلية . وتوفى فى نهاية شهر مارس سنة ١٥٤٧ وترك الملك لإبنه هنرى الثانى .

٣ ـ هنرى الثانى وتنازل شارل الخامس عن العرش :ـ

واجه هنرى الثانى ، عند وصوله إلى عرش فرنسا ، تغيرات فى ميزان القوى ، نتيجة لإزدياد سيطرة شارل الخامس على كل من ألمانيا وإيطاليا . وذلك أن شارل الخامس كان قد سجل إنتصاراً عسكرياً ضخماً فى معركة ميلبرج فى ٢٤ أبريـل سنة ١٥٤٧ على أمراء الألمان البروتستانت ، وأسر عدداً كبيراً منهم ، وبشكل زاد من سيطرته على ألمانيا ، وأظهر خطورة إمكانية توحيده لبلادهم ، التى يمكنها أن تصبح وحدة سياسية قوية تقف فى وجه فرنسا . أما فى ايطاليا فان سيطرة شارل الخامس قد تدعمت فى المنطقة الواقعة حول ميلانو ، وبشكل يهدد توازن القوى هناك . ولم يكن فى وسع هنرى الثانى أن يعمل ضد شارل الخامس ، فى ألمانيا أو فى ايطاليا ، مادامت انجلترا تهدده ، خاصة وأنها كانت قد احتلت ميناء بولونى ، فى شمال بلاده ، وأتخذتها قاعدة جديدة لها ، علاوة على كاليه . ولذلك فان هنرى الثانى قرر أن يبدأ بتسوية مشاكله مع انجلترا ، حتى يؤمن ظهره ، قبل أن يعمل ضد الامبراطور فى ألمانيا أو فى إيطاليا .

وكان خروج انجلترا على الكنيسة الكاثوليكية يفصل بينها وبين فرنسا ؛ وزادت الأمـور تعقيداً حين عارضت إسكتلنـدا أمر زواج يربـط بين أمراء الأسرتين الانجليزية والاسكتلندية ، خاصة وأن اسكتلندا كانت قد حافظت على المذهب الكاثوليكي . وقام أحد جيوش انجلترا بهزيمة الاسكتلنديين فى سنة ١٥٤٧ ،

فعملت الملكة الوالدة فى إسكتلندا على تزويج إبنتها بولى عهد فرنسا سنة ١٥٤٨، فقامت الحرب بين انجلترا وفرنسا ، نتيجة لخوف انجلترا من إمكانية الاتحاد بين هاتين الدولتين فى المستقبل. وبشكل يجعلها محاصرة بفكيها من الجنوب ومن الشمال فى نفس الوقت . ولقد فشل الجيش الفرنسى فى تخليص ثغر بولونى من الإنجليز، ولكن إنتصار الأسطول الفرنسى على الأسطول الانجليزى ساعد على عقد الصلح بين الدولتين ، سنة ١٥٥٠ ؛ وتمكنت فرنسا من أن تستعيد ثغر بولونى نظير دفعها فدية بلغت ٤٠٠,٠٠٠ جنيه . وهكذا أمن هنرى الثانى على بلاده من هذه الناحية ، كتمهيد يسمح له بالعمل وباستمرار الصراع ضد الامبراطور شارل الخامس .

وكان هنرى الثانى يعرف خطورة إخضاع شارل الخامس تماما لألمانيا ، وبشكل قد يؤدى إلى توحيدها ؛ وكان يعرف أن أمراء الألمان كانوا غيورين على إمتيازاتهم ،وأصبحوا يعتزون بتميزهم بالمذهب البرتستانتى ،كعامل يفصل بينهم وبين سيطرة الامبراطور شارل الخامس الكاثوليكى عليهم ؛ فعمل هنرى الثانى على استمالتهم اليه.رغم كونه كاثوليكيا أيضا،حتى يناوىء بهم الامبراطور، وينقل بذلك صراعه معه من الأراضى الايطالية إلى الأراضى الألمانية . وكان هذا الأمر سيكلفه نفقات دعم الألمان ، ولكنه كان يسمح له فى نفس الوقت بتوسع فرنسا صوب الشرق ، ونحو الوصول إلى حدودها الطبيعية .

ولقد رفض هنرى الثانى أن يتعاون مع الامبراطور فى مجمع ترنت الكنسى، لتسوية الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت ؛ ثم عمل على تشجيع الأمراء الألمان على معارضة الامبراطور . ولقد طلب الأمراء الألمان من هنرى الثانى معونات مالية للتمكن من الاستمرار فى المعارضة ، وتحويلها إلى مقاومة ؛ كانوا مستعدين لمنحه لقب « حامى الامبراطورية الرومانية » المقدسه ، وبتسليمه مدن تول ومتز وفردان ، على أن يقوم بالهجوم عليها ، ويقوم بتقديم الدعم المالي

والعسكرى لهم . وهكذا وجد هنرى الثانى حلفاء له يساعدونه عسكريا وإقليميا ، فى الوقت الذى يقتصرفيه مجهوده على الناحيه المالية ،وبعض القطاعات العسكرية . وتم صياغة كل ذلك فى معاهدة شامبور سنة ١٥٥٢ ، التى تعتبر معاهدة هامة فى تاريخ فرنسا،أوصلت حدودها إلى الحدود الطبيعية،وباتفاق مع الألمان أنفسهم، وعلى أساس أن سكان الأقاليم المحيطة بهذه المدن لا يتكلمون الألمانية . وهذه المنطقة هى التى تشتمل على مقاطعتى الالزاس واللورين الشهيرتين فى شرق فرنسا .

وإستند هنرى الثانى إلى هذه الاتفاقية ، وأعلن الحرب على شارل الخامس ، ودخلت قواته فردان وتول وميتز . وفى نفس الوقت قام منتخب سكسونيا بالهجوم على قوات الامبراطور فى التيرول ، الذى إضطر إلى الانسحاب ، وخشى من الوقوع فى الأسر ، وحملة رجاله عبر ممر برنر إلى إيطاليا .

ولقد حاول شارل الخامس الاعتماد على بعض الأمراء الألمان المخلصين له ، والذين يخشون من تفوق النفوذ الفرنسى إلى الشرق ، والذين كان أخاه فرديناند قد جمعهم مع الإمبراطورية . ثم جهز شارل جيشا هجم به على مدينة ميتز ، ولكنه فشل فى ذلك ، أمام قوات الدوق دى جيز ، سنة ١٥٥٢ ، وهو الذى تمكن من الاحتفاظ بهذه الأقاليم لفرنسا .

ثم قام هنرى الثانى بتوجيه الحملات فى عامى ١٥٥٣ و ١٥٥٤ للاستيلاء على بلجيكا ، ولكنه لم ينجح فى ذلك . وتطور أمر تبادل الأسرى عند كامبراى ، إلى التوقيع على « هدنة فوسيل » ، بين فرنسا ، وشارل الخامس ، فى ٥ فبراير سنة ١٥٥٦ ، وهى هدنة لمدة خمس سنوات ، سمحت لهنرى الثانى بالاحتفاظ بالأقاليم الخاضعة لاحتلال قواته ، ومن ميتز إلى أقصى الجنوب .

وأما شارل الخامس ، فإن صحته كانت قد ضعفت ، وزاد زهده فى الحياة، فتنازل عن الامبراطورية لأخيه فرديناند ، وتنازل عن حكم إسبانيا وإيطاليا

والأراضى المنخفضة لإبنه فيليب ، وكان نصيبه يضم كذلك الامبراطوريات الإستعمارية الإسبانية الواقعة فيما وراء المحيط . وقضى شارل الخامس الأيام الباقية من حياته فى أحد الأديرة ، إلى أن توفى سنة ١٥٥٨ . ودخل بذلك الصراع بين فرنسا وإسبانيا طوراً جديداً ، مع فيليب الثانى ؛ وكان هو الطور الأخير .

٤ـ فيليب الثاني ومعاهدة كاتو كامبريسيس ونهاية الحروب الايطالية :

تولى فيليب الثانى العرش سنة ١٥٥٦ ،وكان والده قد زوجه، منذ سنة ١٥٥٣ بمارى تيودور ملكة إنجلترا ، أملا فى إنضمام الدولتين سويا ، مع ميلاد وريث لهما.ولقد خدمت الظروف شارل الثانى فى صراعه مع فرنسا،فى الحروب الايطالية.

ولقد نجح البابا بول الرابع ، الذى إنتخب سنة ١٥٥٥ ، فى إقناع هنرى الثانى ، ملك فرنسا ، بمساعدته ضد الوجود الإسبانى فى نابولى . وكانت « هدنة فوسيل » (١٥٥٦) لاتزال قائمة ، فكانت إستجابة ملك فرنسا لسياسة البابا تعتبر نقضاً لهذه الهدنة من جانبها . وتحرك الجيش الفرنسى بقيادة الدوق دى جيز ، فى شهر سبتمبر سنة ١٥٥٦ ، ولكنه فشل أمام أسوار نابولى ، وإضطر إلى العودة إلى فرنسا . أما البابا فقد إضطر إلى التخلى عن تحالفه مع فرنسا ، وعلى الاعتراف بحماية إسبانيا لايطاليا .

ولما كانت فرنسا هى البادئة باعلان الحرب على إسبانيا ، فإن فيليب الثانى جعل زوجته ، مارى تيودور ، ملكة انجلترا تعلن الحرب عليها ؛ وتوغلت القوات الاسبانية والايطالية والانجليزية فى فرنسا ، وزحفت من شمال فرنسا ، بقيادة دوق سافوا ، وأنزلت هزيمة ساحقة بالقوات الفرنسية قرب سان كانتان فى شهر أغسطس سنة ١٥٥٧ . ولكن إستمرار مقاومة هذه المدينة للقوات الغازية لأيام عديدة تسبب فى إرهاقها ، وقلل من إمكانية إستمرارها فى الزحف صوب باريس . كما تمكن الفرنسيون من القيام بهجوم على ثغر كاليه ، وتمكن

دوق دى جيز من تحريره ، بعد أن ظل فى أيدى الانجليز مدة قرنين ، وذلك فى ٨ يناير سنة ١٥٥٨ .

ومع إستمرار المعارك ، وخسائرها المادية والبشرية ، وخوف كل من الطرفين للتعرض لهزيمة ساحقة ، ومع وفاة مارى تيودور سنة ١٥٥٨ ؛ وجلوس الملكة اليزابيث الأولى على عرش إنجلترا ، ساعد الموقف على بدء المفاوضات ، حتى تم التوقيع على معاهدة كاتو كامبريسيس فى ٣أبريل سنة ١٥٥٩ ، هى التى أنهت الحروب الايطالية ، وتعتبر نقطة تحول واضحة فى تاريخ أوربا .

ولقد نصت هذه المعاهدة على تنازل فرنسا عن مطالبها فى إيطاليا ، وبشكل جعل إسبانيا تستمر فى سيطرتها على إقليم ميلانو فى الشمال وإقليم نابولى فى الجنوب، واحتفظ لها بنفوذ واضح فى كل شبه الجزيرة الايطالية . وتنازلت فرنسا عن سافوا وبيدموت ، كصداق للاميرة مرجريت ، أخت هنرى الثانى ، فى زواجها مع دوق سافوا ؛ الأمر الذى أدى إلى إنشاء « دولة تخوم » تفصل بين فرنسا وإيطاليا ، وعلى حساب فرنسا ، وفى مصاهرة مع دوقها ، القائد الاسبانى . وكان كل ذلك نصراً لاسبانيا على فرنسا فى شبه الجزيرة الايطالية .

ونصت المعاهدة على إبقاء فرنسا لثغر كاليه ، كما أنها لم تذكر ضم فرنسا لمدن تول وميتز وفردان ، التى حصلت عليهم من الأمراء الألمان ، وأعترفت إذن بالأمر الواقع ،خاصة وأن فيليب الثانى ، ملك إسبانيا ، كان منفصلا عن شئون الامبراطورية ، التى أصبحت من مسئولية عمه .وكان هذا مكسباً لفرنسا، فى أقاليم متاخمة لها ، ويوصل حدودها إلى الحدود الطبيعية .وأخيراً فان المعاهدة نصت على زواج فيليب الثانى ، من اليزابيث ، إبنة هنرى الثانى ملك فرنسا ، وكاترين دى ميدسيس ؛ لتدعيم الروابط بين باريس ومدريد .

ولكن هنرى الثاني جرح فى نزال وقع أثناء الإحتفالات بالزيجات الملكية ،

و ثوفى ؛ كما اختطف الموت الاميرة اليزابيث ، زوجة فيليب الثانى الذى أصبح أرملا من جديد .

وعلى أى حال فإن معاهدة كاتو-كامبريسيس قد أنهت فى سنة ١٥٥٩ الحروب الايطالية ؛ وإن كانت أوربا تعيش حروباً أخرى فى ذلك الوقت ، نتيجة لإستمرار زحف العثمانيين عليها من الشرق ، أو الجنوب الشرقى ؛ ونتيجةللحروب الدينية التى كانت مستمرة ، وفى أقاليم كثيرة .

الفصل التاسع عشر

أوج القوة العثمانية فى عهد سليمان القانونى

وخطرها على أوربا

فى الوقت الذى انشغلت فيه القوى الأوربية فى عملية توسعها فيما وراء البحار، أو فى عملها على السيطرة على شبه الجزيرة الايطالية ، فى شكل الحروب الايطالية ، إستمرت الدولة العثمانية فى نموها وتوسعها إقليميا فى المناطق المجاورة لها . وكانت القوات البحرية البرتغالية قد وصلت إلى الهند ، وسيطرت إسبانيا على الحوض الغربى المتوسط ، أما على القارة فإن كل من فرنسا وإسبانيا قد انشغلت ، ومعها البندقية وجنوا والممتلكات البابوية ، فى الحروب الايطالية . وأفادت الدولة العثمانية ، مع قيادتها الجديدة المتمثلة فى شخص السلطان سليمان القانونى ، من الأوضاع والمتغيرات ، من أجل إستمرار التوسع ، وإستمرار تدعيم القوة العثمانية ، وإبعاد الاعداء عن مناطقها . وقامت بمجهودات واضحة فى ميادين عديدة : قرب سواحلها ، مع جزيرة رودس ، وضد البرتغاليين ، عند الخليج العربى والبحر الأحمر ، ومع فرنسا ، وفى البلقان ووسط أوربا ، وكذلك فى الحوض الغربى للبحر المتوسط . لقد أصبحت الدولة العثمانية فى أوج عظمتها ، وأصبحت خطراً يهدد أوربا كما فى ذلك الوقت .

١ - جزيرة رودس :

تولى السلطان سليمان عرش السلطنة سنة ١٥٢٠ ، وخلف بذلك والده سليم الأول ، وكان له من العمر ٢٦ سنة ، وكان قد بقى فى إستانبول ، وتمرس على شئون الحكم ، وقت غياب والده فى الحملات الخارجية . ولقد إشتهر بطيب الخلق ، والرغبة فى التنظيم ، وبنشر العدالة ، وبعزوفه عن الحروب

والغزوات ، ولكن الظروف هى التى اضطرته للحرب . ولقد اشتهر باسم القانونى ، وحكم لفترة ٤٦ سنة أوصل بها الدولة إلى أوج قوتها وعظمتها .

ولقد بدأ سليمان القانونى عهده بتدعيم حكمه فى الشام ومصر . وكان جان بردى الغزالى قد حاول الانفصال بحكم الشام ، ولكن السلطان سليمان استعان عليه سنة ١٥٢١ بخاير بك ، المسئول عن حكومة مصر ، وزحف أحد الجيوش العثمانية على الشام ، وانتهت هذه الحركة بقتل جان بردى الغزالى ، بعد أن سحق العثمانيون قواته قرب دمشق . وحين توفى خاير بك سنة ١٥٢٢ ، اضطربت أحوال مصر ، وقام المماليك بتلقيب أحد المماليك ، وهو قانصوه الدوادار ، بلقبه السلطانة ، وقطعوا الطرق ، وسيطروا على المواصلات ، واتفقوا مع مشايخ العرب ، ووعدوا الأهالى باعفائهم من دفع الميرى لمدة عام . فأسرع السلطان سليمان القانونى بارسال صهره الصدر الأعظم ، مصطفى باشا ، إلى مصر ، على رأس حملة قوية تبلغ ٢٥٠٠ جندى ، وتمكن مصطفى باشا من القضاء على الثورة . وبقى مصطفى باشا فى مصر لمدة ثلاثة أشهر ، أتم خلالها دراسة الأحوال العامة لنظام الحكم ، والمماليك ، والاحوال المالية . وستكون هذه الدراسة أساسا للتنظيم المسمى « قانوننامه » الذى أصدره السلطان بشأن نظام حكم مصر (١) .

وفى أثناء ذلك الوقت أخذت فكرة سيطرة الدولة العثمانية على جزيرة رودس تراود السلطان . وكانت هذه الفكرة قد راودت السلاطين من قبله . وكانت رودس فى أيدى فرسان القديس يوحنا ؛ وكان وجودهم قرب آسيا الصغرى ، وفى بحر ايجة ، يمثل خطراً على البحرية العثمانية ، وعلى التجارة ؛ خاصة وأن هذه الجزيرة أصبحت ملجأ للقراصنة المسيحيين من كل جنسية ، وكانوا يخرجون منها لشن الحملات عن السفن العثمانية فى كل مكان . وكانت رودس

---

(١) أنظر . د. جلال يحيى . مصر الحديثة (١٥١٧ — ١٨٠٥) . الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٦٩ . ص ١٢٣ — ١٣٠ .

المسيحية تمثل عقبة أمام إنتقال الحجاج إلى الأراضى المقدسة ، وأصبحت ، بعد فتح العثمانيين لمصر ، تمثل عقبة أمام مواصلات الدولة مع هذا الاقليم الهام .

وكان السلطان سليم قد إهتم بالاسطول ، وبنى له قطعاً جديدة ، وزودها بالمدافع وبالرجال المدربين ؛ ووصل سليمان هذا المجهود من بعده . وأصبحت الظروف العامة مواتية للعثمانيين ، بعد أن جددت الدولة العثمانية صلحا مع جمهورية البندقية ، وإنشغلت كل من إسبانيا وفرنسا فى الحروب الايطالية ، وبشكل يمنع تدخل أوربا فى مشكلة رودس . وأقلع أسطول عثمانى ، من ٣٠٠ سفينة ، تحمل عشرة آلاف مقاتل ، بقيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا ، صوب الجزيرة ، فى الوقت الذى سار فيه السلطان على رأس جيش قوى ، بلغ مائة ألف مقاتل ، على الساحل المواجه للجزيرة . وكان ذلك فى شهر يونيو سنة ١٥٢٢ ، وكان الجيش العثمانى ، وكذلك الأسطول ، يعتمدان على مدفعية قوية . وبدأت عمليه نزول العثمانيين على السواحل ، وانزالهم لمدفعيتهم ونصب بطارياتها والإستعداد للمعركة ، التى بدأت فى أول أغسطس ، بعملية حصار ، ثم هجمات متتالية على الأسوار ، إستمرت حتى ١٨ ديسمبر . ولقد أدى ذلك إلى خسائر جسيمة من الطرفين ، وإلى تحطيم أجزاء من الأسوار ، وإلى نقص البارود عند المحاصرين . وفى ٢١ ديسمبر ، طلب رئيس جماعة فرسان القديس يوحنا التسليم ، ووافق السلطان سليمان عن ذلك ، وتعهد بإحترام الكنائس وعقائد الأهالى ، وبتقديم السفن لنقل جماعة فرسان القديس يوحنا من الجزيرة ، خلال إثنتى عشر يوما . وتمت العملية ، وخرج الفرسان من الجزيرة ، وإتجهوا إلى جزيرة مالطة ، التى منحها لهم شارل الخامس ، للاقامة فيها . وهكذا أمن السلطان سليمان القانونى على سواحل شبة جزيرة البلقان ، وعلى الملاحة فى بحر ايجة ، وانتزع ذلك الموقع الحصين الذى كان يهدد المواصلات العثمانية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

٢ - البلقان ووسط أوربا :

وكانت أحوال شمال البلقان مضطربة فى ذلك الوقت ، نتيجة لإزدياد قوة الدولة العثمانية من ناحية الجنوب ، وعملها على التوسع صوب الشمال والشمال الغربى من ناحية ، ونتيجة لمحاولة الأمراء المحليين الاستناد إلى قوة الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وملاك وأمراء أوربا ، ضد السيطرة العثمانية ، من ناحية أخرى .

ففى سنة ١٥٢١ قام الملك لوى ، ملك المجر ، بقتل المندوب العثمانى الذى جاء إليه يطلب الجزية المتفق عليها . وكانت المجر قد ضعفت ماليا وعسكرياً ، وسادتها الخصومات والانقسامات الداخلية . فقام الأتراك بغزو المناطق الواقعة بين الساف والدانوب وبين بلجراد ، والتى كانت تابعة لحكم المجر ، واستولوا على بلجراد ، بعد مقاومة عنيفة فى ٢٩ أغسطس سنة ١٥٢١ . وأفاد العثمانيون من الموقف خلال السنوات التالية ، من سنة ١٥٢٢ إلى سنة ١٥٢٥ ، وغزوا اقليم الأفلاق ، واعترفوا بأحد الأمراء المحليين أميراً عليها ؛ كما استمروا فى القيام بهجماتهم فى كرواتيا ودلماشيا .

وبدأ الهجوم العثمانى الرئيسى على المجر، فى سنة ١٥٢٦ ، بقيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا ، والسلطان سليمان القانونى نفسه . ولم يكن فى وسع قوات الملك لوى ، الضعيفة ، أن تواجه الزحف العثمانى الضخم والقوى فى نفس الوقت . وبعد أن جمع ملك المجر قوات من بولندا وبوهيميا والممتلكات البابوية ، واجه الزحف العثمانى فى ٣٠ أغسطس سنة ١٥٢٦ ، فى سهل موهاكز ، حيث وقعت موقعة ، تقهقر بعدها المجريون ، وتبعهم العثمانيون ، حيث دارت مجزرة فى المستنقعات ، قتل فيها ملك المجر ، وقضى فيها على جيشه .

وأنهت موقعة موهاكز إستقلال المجر ، لمدة قرن ونصف قرن من الزمان . وتمكن العثمانيون من إستمرار التقدم ، ودخل السلطان سليمان مدينة بواد فى

١١ سبتمبر . ووقع إنقسام فى صفوف المجريين ، على حكم المناطق الباقية ؛ فإختار أحد المجالس الامير زابوليا ، أمير ترانسفانيا . بينما اختار مجلس آخر فرديناند صاحب النمسا ، أخو شارل الخامس ، ملكا على المجر . وسادت الخصومة بينها . وطلب زابوليا معونة العثمانيين ، وعقد تحالفاً معهم سنة ١٥٢٨ ، موجها ضد فرديناند . وفى ١٠ مايو سنة ١٥٢٩ ترك السلطان سليمان إستانبول ، ومعه جيشه ، بقيادة مصطفى باشا ، الصدر الأعظم . وقابله زابوليا ، وهاجموا بست ، وتم ترسيم زابوليا ، ملكاً على المجر . ثم واصل سليمان زحفه على فينا نفسها ، واستمر فى محاصرتها حتى منتصف شهر اكتوبر ، حين اضطر إلى رفع الحصار ، والعودة إلى الجنوب .

ولقد استمرت المنافسة بين زابوليا وفرديناند على عرش المجر حتى سنة ١٥٣٨ ، حين تم الاتفاق بينهما ، وبين شارل الخامس ، الامبراطور ، على الاعتراف بالعرش لزابوليا ، على أن يعود بعد وفاته لفرديناند . وعند وفاة زابوليا سنة ١٥٤٠ ، اعترف السلطان العثمانى بابن زابوليا الصغير ملكاً على المجر ، نظير دفع جزية سنوية تبلغ ٥٠٠٠٠ فلورنس ؛ ورفض سليمان القانونى الاعتراف بأى حقوق لفرديناند فى المجر ، التى كان السلطان العثمانى قد « فتحها بسيفه » . وحين هجمت قوات لفرديناند على بودا ، صدت عنها ؛ وإقترب جيش عثمانى من ميدان العمليات ، وكان على رأسه السلطان سليمان ، الذى وصل أمام بست فى ٢٦ أغسطس سنة ١٥٤١ ، وثبت ابن زابوليا فى الحكم ، وترك حامية عثمانية قوية فى بودا ، ومعها أحد الباشوات ، كحاكم عام للمنطقة . وحاول فرديناند ، بمساعدة أمراء وملوك أوربا ، التخلص من الاحتلال العثمانى الدائم لبودا ؛ وجمع جيشاً كبيراً ، وحاصر بست ؛ ولكنه اضطر بعد عدة أسابيع إلى الانسحاب . ولقد قام السلطان سليمان القانونى بحملة جديدة على المجر سنة ١٥٤٣ ، وبحملة أخرى سنة ١٥٤٤ ، واحتلت فيها القوات العثمانية مواقع عديدة ، وانتهت فى

سنة ١٥٤٥ ، ثم فى سنة ١٥٤٦ بعقد صلح لمدة خمس سنوات ، سمح لفرديناند بالإحتفاظ بممتلكاته فى المجر ، على أن يدفع للسلطان العثمانى ، جزية سنوية تبلغ ٣٠٫٠٠٠ دوق .

ولم تستقر الأمور فى هذه القطاع ، وإضطرت الدوله العثمانية إلى إرسال حملة جديدة إلى المجر سنة ١٥٥٢ . وكان السلطان العثمانى فى حرب شبة مستمرة مع الفرس ، فأخذت شئون المجر صيغة المفاوضات الطويلة الأمد بين الطرفين ، العثمانيين والنمساويين ،حتى تم عقد الصلح بين فرديناند وسليمان القانونى فى سنة ١٥٦٤ ; وأكد فيه فرديناند تعوده بدفع ٣٠٫٠٠٠ دوق سنوياً للسلطان العثمانى. ولكن فرديناند توفى بعد عقد هذا الصلح بثلاثة أشهر ، ورفض إبنه مكسيمليان دفع الجزية . فزحف القوات العثمانية على المجر من جديد ; وإنتصرت ; وإن كان سليمان القانونى قد توفى يوم ٦ سبتمبر ١٥٦٦ ، وقبل ثلاثة أيام من إنتصار العثمانيين على قوات مكسميليان وكان له من العمر ٧٢ سنة ، وحكم لمدة ٤٦ سنة. وسيتم عقد الاتفاق التالى بين مكسميليان والعثمانيين ، فى القسطنطينية سنة ١٥٦٨ ، ولمدة ثمان سنوات ، وعلى أساس دفع الجزية السنوية للسلطان العثمانى .

وكانت هناك مجالات أخرى عمل فيها سليمان القانونى ضد "البرتغاليين فى البحر الأحمر وخليج عدن ، ومع فرنسا ، وفى الحوض الغربى للبحر المتوسط .

٣ — البحر الاحمر وخليج عدن :

كان استيلاء العثمانيين على مصر سنة ١٥١٧ ، واستيلائهم على العراق سنة ١٥٣٤ ، قد أوصلهم الى مياه الهند عن طريق البحر الأحمر وخليج عدن من ناحية ، وعن طريق الخليج الفارسى من ناحية أخرى ، الأمر الذى جعلهم يقومون بدور إيجابى فى هذه المناطق ضد سيطرة البرتغاليين ، ومحاولتهم الإرتكاز إلى قواعد بحرية فى البلاد العربية المطلة على مياه الهند .

وكان البرتغاليون قد إحتلوا جزيرة سقوطرة سنة ١٥٠٧ ، ولكن عدن

قاومت هجماتهم العنيفة عليها سنة ١٥١٣ . ورغم ذلك فإن البرتغاليين قد توغلوا في البحر الأحمر ، ووصلوا حتى السويس سنة ١٥٤١، كما ساعدوا الحبشة المسيحية التي كانت مشتبكة في حرب في ذلك الوقت مع مسلمي عدل وهرر والصومال . ووصلوا بسفنهم من خليج عمان إلى مياه الخليج الفارسي ، ووصلوا إلى هرمز ، التي تركوا فيها حامية منذ سنة ١٥١٥ ، وإلى البحرين ، مستندين في ذلك إلى قواعدهم الموجودة في مسقط . ولقد أدى ذلك الهجوم البرتغالي إلى عرقلة وصول سلع الشرق الأقصى إلى بلاد الشرق الأدنى .

وبعد فتح العثمانيين لمصر ، وقع عليهم عبء الاستمرار في الكفاح ضد البرتغاليين ، والذي كان السلطان الغوري قد قام بمجهودات ضخمة فيه. وفي أثناء وجود الصدر الأعظم مصطفى باشا في مصر سنة ١٥٢٥ عمل على إعادة تنظيم الادارة البحرية في السويس ، وأرسل أسطولا صغيراً إلى اليمن . وحين قام البرتغاليون في سنة ١٥٣٥ ببناء قلعة في ديو ، في مملكة جوجيرات الاسلامية ، وزاد التوتر بين المسلمين والبرتغاليين هناك ، تحركت الدولة العثمانية، وأرسلت تعليماتها إلى سليمان باشا ، والي مصر ، لبناء أسطول جديد في السويس، وأرسلت إليه الأخشاب ومواد البناء من الدولة العثمانية ، وكانت تصل إلى الاسكندرية، ثم تنقل منها إلى السويس . وأقلع سليمان باشا سنة ١٥٢٨ إلى ديو . وحاصرها، ولكنه فشل في الاستيلاء عليها ، وإن كان قد تمكن من الاستيلاء على عدن .

وفي أثناء ذلك الوقت كان هناك خطر إمتداد البرتغاليين في البحر الأحمر ، إلى قوة الحبشة المسيحية ، واتحادهم سوياً . وكان الإمام أحمد بن ابراهيم، الملقب بالأشول ، أو « أحمد جرين » يقود نضال المسلمين في شرق افريقية ، ومن هرر وبلاد العدل ، ضد الحبشة . ولقد تتالت إنتصاراته إبتداء من سنة ١٥٢٩ في في جميع أنحاء الحبشة ، وأصبح ملكها يفر من مكان لآخر، وأرسل في طلب العون

من ملك البرتغال (١) . ولقد وصلت الامدادات البرتغالية للحبشة فى سنة ١٥٤١ إلى ميناء مصوع ، وكانت تتكون من ٤٥٠ من المحاربين المسلحين بالأسلحة والمدفعية الحديثة (٢) . وإنضم إليها الأحباش ؛ وكان تسليحها الحديث سبباً فى هزيمة قوات الإمام أحمد جرين ، وإستشهاده فى ميدان المعركة سنة ١٥٤٣ . ولقد قام العثمانيون ، إبتداء من ١٥٥٥ ، بمد إدارتهم إلى سواحل البحر الأحمر، وقاموا بتنظيم ولاية جديدة هناك تسمى « ولاية الحبش » فى سواكن ومصوع ، لتدعيم الكيان والسلطة الاسلامية ، أمام هذا التحالف الحبشى - البرتغالى .

وواجهت الدولة العثمانية كذلك صراعا مع البرتغاليين فى الخليج الفارسى وخليج عمان . وكانت بغداد قد سقطت فى أيدى السلطان سليمان القانونى سنة ١٥٣٤ ؛ ثم إمتدت الادارة العثمانية إلى البصرة سنة ١٥٤٦ ، وكذلك إلى مناطق الاحساء ، المواجهة للبحرين . وقام بيرى ريس على رأس أسطول كبير من السويس فى سنة ١٥٥١ ، وهاجم البرتغالين فى مسقط وهرمز ، ثم إتجه إلى البصرة . وقام أمير بحر آخر ، وهو مراد بك فى العام التالى بمحاولة لفك حصار البرتغاليين للخليج الفارسى . وقام على ريس ، الذى تمرن على الحرب فى البحر المتوسط ، بعمليات عديدة ضد البرتغاليين سنة ١٥٥٤ ؛ وحين حطمت إحدى العواصف أسطوله أمام سواحل مقران ، إضطر إلى الالتجاء إلى سورات. كما أرسل العثمانيون كذلك حملة من إقليم الاحساء ضد البحرين فى ١٥٥٩ . ثم قام على ريس بعد ذلك بهجمات من اليمن ضد البرتغاليين فى مسقط . ثم تدهم كذلك فى ماليندى وممبسة ، التى كانوا يحتلونها على سواحل افريقية الشرقية .

---

(١) أنظر : شهاب الدين أحمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان الجيزانى الشهير بعرب فقيه ، تحفة الزمان ، أو فتوح الحبشة . القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .

(٢) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ القاهرة ، النهضة المصرية ، ص ١٥٥-١٥٦ .

ولقد أصبح واضحاً قبل وفاة السلطان سليمان القانونى فى سنة ١٥٦٦ ، أن البرتغاليين قد فشلوا فى إحتكار كل تجارة الشرق الأقصى مع أوربا عن طريق الرأس . فكان عدد البرتغاليين صغيراً ، وإمكانياتهم أضعف من أن تحقق كل آمالهم ، فى القضاء على التجار المسلمين المقيمين فى المناطق الغربية من الهند ، وإبعاد المسلمين عن هذه البحار . ولا يمكننا تجاهل المجهودات التى بذلتها الدولة العثمانية ضدهم ، إذ أنها جاءت عقبات جديدة تضاف إلى قلة إمكانيات عمل البرتغاليين . وشهدت السنوات الأخيرة من حكم السلطان سليمان القانونى عودة تجارة مزدهرة من الشرق الأقصى إلى الاسكندرية ، كما أصبحت حلب رأس الطريق التجارى القادم من الفرس ومن العراق . وظهر نوع من التوازن بين هذه الطرق القديمة، والطريق الجديد حول الرأس ؛ وظل الأمر كذلك حتى ظهور قوة الانجليز والهولنديين ، وبشكل جعل التوازن يتغير بشكل واضح ، وفى طريق الرأس .

٤ — فرنسا :

تطورت العلاقات بين الدولة العثمانية ، فى عهد السلطان سليمان القانون ، وفرنسا فى عهد فرنسوا الأول ، وبشكل يعتبر تحولا فى العلاقات الدولية ، والعرف الموجود ، وبخاصة مع اختلاف الدين .

وكان فرنسوا قد أعلن فى بداية حكمه ، وفى الوقت الذى كان يأمل فيه فى الوصول إلى عرش الإمبراطورية المقدسة ، عن نيته فى الزحف على القسطنطينية ، واستخلاصها من أيدى العثمانيين . ولكن صراعه مع إسبانيا ، التى فاز ملكها شارل الأول بعرش الإمبراطورية ، وأصبح شارل الخامس ، غير الموازين الموجودة . ولقد هزم فرنسوا الأول فى معركة بافيا ، ووقع أسيراً فى أيدى الإسبانيين ، وأصبح تحت رحمة ملكهم إمبراطور الدولة الرومانيه المقدسة . وفى ذلك الوقت اتصلت والدة فرنسوا الأول بالسلطان سليمان القانونى ، وطلبت إليه القيام بمهاجمة الممتلكات النمسوية ، وممتلكات الامبراطورية الرومانية المقدسة

فى وسط أوربا ، من البلقان . وكانت هذه الامبراطورية هى التى تهاجم رجال البحار المغاربة ، فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، وهى الموجودة فى النمسا أمام الممتلكات العثمانية فى البلقان . ولقد تحرك السلطان سليمان القانونى صوب وسط أوربا ؛ وإن كان لم يحارب النمسا ، إلا أنه حارب المجر ، ووصل بعد ذلك إلى أسوار فينا .

ولقد إستمرت المفاتحات بعد ذلك بين فرنسوا الأول ، وبين سليمان القانونى ؛ وكان عدوهما مشتركاً ، يتمثل فى الإمبراطور شارل الخامس ، بما له من ثقل ضد العثمانيين فى الحوض الغربى للبحر المتوسط وفى النمسا ، وبما له من ثقل على فرنسا فى الحروب الإيطالية . وفى سنة ١٥٢٥ تم التوقيع على أولى المعاهدات بين فرنسا والدولة العثمانية ؛ فى شكل معاهدة تجارة ، وفى شكل تحالف دفاعى هجومى بين الدولتين ؛ الأمر الذى أعطى كل منهما ميزات كبيرة ، إقتصادية وعسكرية ، وظهرت نتائجها فى العمليات البحرية التى وقعت فى ذلك الوقت . وكان أمير البحر خير الدين باشا قد شارك فى التمهيد للوصول إلى هذه النتيجة ، وأرسل فى سنة ١٥٣٢ أحد مندوبيه ومعه بعض الأسرى الذين أطلق سراحهم ، إلى فرنسوا الأول ؛ ثم أرسل فرنسوا الأول مندوباً عنه إلى خير الدين باشا فى الجزائر ، قبل أن يذهب لمقابلة الصدر الأعظم فى حلب ، الأمر الذى أدى إلى التوقيع على المعاهدة . ولقد ظهرت النتائج الفعلية للتحالف الفرنسى العثمانى منذ سنة ١٥٣٥ حين هاجم رجال البحر الجزائريين سواحل مملكة نابولى ، التى كانت من ممتلكات شارل الخامس ؛ وفى سنة ١٥٤٣ حضر خير الدين باشا إلى ميناء مرسيليا ، وإنضم إلى الأسطول الفرنسى ؛ وقام الأسطولان ، سوياً ، بمهاجمة نيس ، التى كانت من ممتلكات دوق سافوا ، حليف شارل الخامس؛ ثم عادا إلى طولان حيث أمضيا فصل الشتاء . وفى عهد هنرى الثانى ، تعاون الأسطول العثمانى أكثر من مرة مع الأسطول الفرنسى ، ضد سواحل إيطاليا

الجنوبية ، وضد كورسيكا التى كانت تابعة لجنوا ، وقام رجالها باحتلال باستيا .

ولاشك فى أن عمليات سليمان القانونى فى المجر ، وضد النمسا ، كانت تفسر ، إلى حد بعيد ، روح التحالف مع فرنسا ، وضد شارل الخامس ، وضد أخيه ، الامبراطور فرديناند من بعده .

أما معاهدة التجارة فتسمى معاهدة الـ Capitulation نسبة إلى أنها قد صيغت فى شكل فقرات ومواد ، ثم عرفت بعد ذلك بأنها معاهدة الإمتيازات الأجنبية ؛ وظلت آثارها لفترة طويلة ، كما ظلت ، حتى مطلع القرن العشرين ، أساساً لأى إتفاق بين الدولة العثمانية ، وأى من الدول الأوربية التى حاولت أن تحصل على ماحصلت عليه فرنسا من ميزات ، ومنذ عهد سليمان القانونى وفرنسوا الأول . ولقد إختلفت هذه المعاهدة عن المعاهدات المعقودة بين الدول الأوربية وبعضها فى أنها نصت على عدم خضوع الأجانب للقضاء العثمانى ، ومحاكمتهم أمام قضاة خاصين بهم . وكانت تنص على معاملة المثل ، فيما يتعلق بالضرائب .

وكما كانت إتفاقيات فرنسا مع الدولة العثمانية تدعمها فى صراعها ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وفى الحروب الايطالية ، فانها كانت تدعم قوات كل منهما فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، ضد السيطرة الاسبانية .

٦ ـ غرب البحر المتوسط :

كان ثقل عبء الجهاد قد وقع على كاهل خير الدين ، المعروف باسم بربروسا ، أمير البحر الجزائرى ، فى كل الحوض الغربى للبحر المتوسط ، بعد وفاة أخيه عروج ، وإتحاد مع الدولة العثمانية ؛ كما وقع على رجال البحر من أعوانه ، الذين عملوا على صد هجمات وغارات شارل الخامس على السواحل الإسلامية ، وعملوا على الهجوم على الموانى والسواحل الخاضعة لشارل الخامس ؛ ثم عملوا بعد ذلك على التخلص من القيادات القديمة التى كانت موجودة فى بعض المناطق الاسلامية ، والتى لم توافق على عملية الإنضمام إلى الدولة العثمانية ، أو

بمعنى أصح ، على عملية الاستمرار فى الجهاد ضد القوى المسيحية المعتدية .

ولقد عمل خير الدين باشا على تزويد أسطوله بوحدات بحرية خفيفة وسريعة الحركة ؛ وأصبح له أسطول موهوب الجانب فى الحوض الغربى للبحر المتوسط .

ولقد قام شارل الخامس بقيادة حملة بحرية وبرية ضخمة على تونس فى سنة ١٥٣٥ ، تضم ٤٠٠٠٠ سفينة و ٢٨٠٠٠ جندى ، وتعتمد على تجاوب الأمراء الحفصيين معه ، وإستولى على تونس ، وكانت صدمة للمجاهدين. ولكن خيرالدين شن هجوماً على جزر البليار ، وإستولى منها على ستة آلاف أسير ، وعاد بهم إلى مدينه الجزائر . وإذا كان شارل الخامس قد حكم مدينة تونس فى ذلك الوقت ، فإن مدينة جديدة ظهرت إلى الوجود ، وهى مدينة الجزائر ، التى كان خير الدين، منذ سنة ١٥٢٩ ، قد قام بوصل الجزيرة الصغيرة القريبة من الساحل ، بالساحل نفسه ، وإتخذها عاصمة له .

ومنح السلطان العثمانى خير الدين لقب بيكلر بك إفريقية ، أى بك بكوات المغرب ، ثم منحه لقب قبودان باشا ، وأعطاه القيادة العامة للأساطيل العثمانية . ولقد قام خير الدين بعملية توحيد أقطار شمال إفريقية ، وتمكن من إحتلال تونس ، وطرد منها المولى الحسن حليف الإسبانيين . وحين كان خير الدين مشغولا بعملياته البحرية ، ترك قيادة الجزائر لإبنه حسن باشا . ولقد إنتهز الامبراطور شارل الخامس هذه الفرصة فى سنة ١٥٤١ ، وجمع أسطولا قوياً وشحنه بستة وثلاثين ألف مقاتل ، مع أشهر قواده ، مثل أندريا دوريا ، وكورتيز ، وهجم بهم على الجزائر.وتمكنت الحملة من النزول بسهولة إلى الساحل، ولكن سرعان ما هبت عاصفة هوجاء ، إستمرت أياماً عديدة ؛ فأفسدت الأمطار البارود ، وإقتلعت الرياح الخيام ، وهددت السفن ، وحطمت الكثير منها.وفشل

الهجوم الإسبانى ، وإضطر الإسبانيون إلى الإنسحاب (١) .

وكان خير الدين قد أصبح فى ذلك الوقت أكبر من مجرد أمير للبحر ؛ فلقد أصبح رئيساً لدولة ، وإن كانت غير تامة السيادة ، دولة متحدة مع الإمبراطورية العثمانية ؛ وأصبح الحارس الأمامى لهذه الإمبراطورية فى غرب البحر المتوسط ، وكانت تسنده جميع قوات هذه الإمبراطورية .

ولقد عمل بعد ذلك مراد أغا على تخليص طرابلس من أيدى الإسبانيين سنة ١٥٥١ ؛ وإتخذها دارغوت قاعدة لعملياته ضد الاسبانيين فى تونس سنة ١٥٥٦ ، والتى توغل منها صوب القيروان ، بعد عامين . وكانت مالطة ، مع فرسان القديس يوحنا ، متحالفة مع إسبانيا ضد أمراء البحر المغاربة ، فهاجمها دارغوت . ولكنه قتل أثناء عملية حصارها .

ولقد إشتهر من بين أمراء البحر ، فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، أسماء صالح ريس ، وحسن باشا ابن خير الدين ، والعلج على . ولقد قام هذا الأخير بالهجوم على الإسبانيين فى تونس سنة ١٥٦٩ ، وإستمرت عمليات الجهاد البحرى ، بين الجبهتين ، الإسلامية والمسيحية ، حتى موقعة ليبانتو البحرية ، سنة ١٥٧١ ، والتى تعتبر من المعارك الفاصلة فى التاريخ ؛ وإنتصر فيها المسيحيون . فتوقف إمتداد السلطة الإسلامية ، وعجز المسلمون بعدها عن تحرير الجيوب والقواعد التى كانت إسبانيا قد إحتلتها على سواحل المغرب ، وظلت وهران فى أيديهم حتى قرب نهاية القرن الثامن عشر .

ولقد شجع هذا الإنتصار إسبانيا على أن تقوم بمحاولة ، بعد عامين ، لإحتلال تونس من جديد ، ولكن العلج على تمكن فى العام التالى من إخراج الاسبانيين وحلفائهم نهائياً من تونس . وكانت إسبانيا قد تبجحت بذكر أنها قد قطعت

---

(١) أنظر : د. جلال يحيى : المغرب الكبير ، ج ٣ الاسكندرية ، ١٩٦٦ ، ص ٢٥ — ٢٧ .

لحية الدولة العثمانية فى ليبانتو ، ولكن العلج على تمكن من قطع يد الأجانب فى تونس . وإن اللحية لتنمو ، أما اليد المقطوعة فتظل دائماً بتراء ، كما قال الصدر الأعظم ، معلقاً عن هذا الموقف ، لسفير البندقية فى الآستانة ، فى ذلك الوقت .

وكان السلطان سليمان القانونى قد توفى ، منذ سنة ١٥٦٦ ، وبلغت الدولة العثمانية أوج قوتها فى عصره ؛ وكانت تمثل خطراً كبيراً على أوربا نفسها ، بطريقة بنائها وحكمها ، وبتأثيرها فى أوربا من ناحية البلقان ، والحوض الغربى للبحر المتوسط ؛ علاوة على تحالفها مع فرنسا ، ووصول قواتها البحرية إلى مياه الهند ، أمام البرتغاليين .

الباب السابع

الاصلاح الديني

الفصل العشرون

ظهور المذاهب البروتستانتية

يعتبر الاصلاح الدينى فى أوربا، وما نتج عنه من ظهور المذاهب البروتستانتية، ثم إنتشارها فى شمال وغرب القارة ؛ وما تبع ذلك من ردود فعل، وظهور الإصلاح الدينى الكاثوليكى، من أهم الحركات التى كانت لها جذور منذ فجر التاريخ الحديث، ثم إستمرت فى تفاعلها وتطورها. وظل الاصلاح الدينى من أهم الموضوعات التى تؤثر فى تفكير وحياة الأوربيين خلال القرنين: السادس عشر، والسابع عشر؛ وأدى ذلك إلى تأثيرات سياسية. وتسبب فى حروب طاحنة، نشبت على القارة الأوربية. وهناك من ينظر إلى الإصلاح الدينى نظرة مجردة، ويفصلها عن أصولها وأسبابها المتباينة، وعلى أساس أنها حركة دينية بحتة، ولكن ذلك لا يطمس بقية العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية، التى كانت موجودة، وشاركت كلها، وفى نسب مختلفه، فى إستمرار هذه الحركة، ونموها، وانتشارها، وفى تفاعلها مع القوى المضادة لها.

١ ـ ضرورة الاصلاح:

كانت الكنيسة الرومانية، أو الكاثوليكية، قد سيطرت على حياة الناس وعلى عقائدهم طوال العصور الوسطى. ولقد أصاب هذه الكنيسة الضعف، نتيجة لصراعها مع الإمبراطورية. وخلال الأسر البابلى، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وجاءت البوادر الأولى للنهضة الأوربية، لكى تنمى شخصية الفرد، وتحرره وتحرر فكره؛ والكنيسة تحاول فى نفس الوقت المحافظة على تقاليدها وسيطرتها المعنوية. ونشطت حركة إحياء الدراسات القديمة، والرجوع بالتالى إلى الفكر اليونانى القديم؛ وفى نفس الوقت عملت الكنيسة على المحافظة الفكر

الديني الذي ساد طوال العصور الوسطى ، ولم تقبل إدخال أي تفسير جديد .

وكان من نتيجة إزدياد التعامل بالنقود ، وإزدياد أهمية التجارة ، وقوع تغيرات أدت إلى زيادة تبلور المصالح المالية ، وتأثيرها بدرجة أعمق على العلاقات بين الأفراد والمجتمعات ؛ وفي نفس الوقت ظلت العلاقات يسودها طابع العصور الوسطى داخل الممتلكات البابوية .

حقيقة أن عدداً من البابوات أظهر روحاً متحررة ، وشارك في حركة إحياء الدراسات القديمة ، ولكن ذلك ساعد على التطور صوب فكر جديد ، داخل الممتلكات البابوية ، وأعطى مثلا مشجعاً على البحث والتحرر ، خارج حدود هذه الممتلكات .

وفي نفس الوقت ظهرت الدول القومية الحديثة في أوربا ، وبشكل ربط بين الرعايا ، أو المواطنين ، وبين الأرض التي يستوطنونها ، والسلطة الملكية التي تحكمهم ؛ ولم يترك ذلك للكنيسة سوى رعاية الشئون الدينية . ولكن البابوية نزلت إلى نفس الميدان ، وأصبح للبابا بلاطاً لايقل عن بلاط أي من ملوك أوربا روعة وفخامة ؛ وعمل البابوات على زيادة نفوذهم من ممتلكاتهم البابوية ، وعلى التوسع في الأقاليم المجاورة لهم ، كدولة تحكم زمنياً ؛ ودخلوا بذلك في صراعات، في نطاق سياسي وحربي ، مع الدول الأوربية ، وكان من الصعب عليهم الكسب في هذا الميدان ؛ وأظهرهم ذلك، بأنهم لايتفرغون لرسالتهم الأصلية . وهي رعاية النفوس والحافظ على العقيدة .

وكانت أراضي الكنيسة ، في جميع أنحاء أوربا ، معفاة من دفع الضرائب ، وكانت إيراداتها ترسل إلى البابوية ؛ ومع وقوع صراعات بين الملوك والأمراء الأوربيين ، ودخول البابوية طرفا فيها ، إلى هذا الجانب أو ذلك ، عمل الملوك والأمراء ، خاصة من دخلت البابوية في محالفات سياسية ضدهم ، إلى محاولة السيطرة على هذه الأراضي ، والسيطرة على إيراداتها ؛ خاصة وأن اتساع هذه

الممتلكات العقارية التابعة للبابوية ، وجودتها ، وثرائها ، كان يسيل لعاب الملوك والأمراء الأوربيين .

وكانت حياة البابوات قد تحولت إلى حياة أمراء ،وأصبح للبعض منهم أبناء غير شرعيين ،وأصبح لآخرين محظيات ،وبشكل يضعف من هيبة الكرسي البابوي.

وكانت العقيدة قد أصابها الكثير من الجمود ، ولم يحاول البابوات تنقيتها من الشوائب، ورفع المستوى الفكري والديني لرجال الكنيسة . واحتاج البابوات إلى مزيد من الثروات ، للمحافظة على بلاطهم ، وفخامته ، وكذلك لبناء الكنائس الجديدة ، ومنها كنيسة القديس بولس فى روما ، فأخذوا فى إصدار صكوك الغفران . وكان توزيع هذه الصكوك عن طريق المصارف فى جميع أنحاء أوربا أمراً مثيراً للنقد ؛ كما كان توزيعها على الأهالى باسم غفران الذنوب ، وكل الذنوب ، وحتى أكبر الكبائر ، يثير النفوس المؤمنة ، ويحتم ضرورة الاصلاح .

ونشأت فى أوربا حركتان للاصلاح : إصلاح داخلى، داخل نطاق الكنيسة، لتنقية العقيدة مما شابها ، وهذه الحركة لم يكتب لها النجاح ؛ وإصلاح خارجى وجد أن المجال الوحيد للابقاء على العقيدة المسيحية هو الخروج التام عن سيطرة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ؛ وعمل فى هذا الاتجاه كل من مارتن لوثر فى ألمانيا، وزونجلى فى سويسرا ، وكلفن فى جنيف ، فى القرن السادس عشر .

٢ - مارتن لوثر فى ألمانيا :

ولد مارتن لوثر سنة ١٤٨٣ فى إحدى قرى إمارة سكسونيا ، فى ألمانيا ، من أبوين فقيرين . ولكنه أتم تعليمه الجامعى ، ثم دخل ديراً تابعاً لطائفة القديس أوغسطين سنة ١٥٠٥ . وأتيحت له فى سنة ١٥١١ فرصة زيارة روما ، ولكنه صدم لما رآه فيها من حياة التبذل وانهيار القيم الأخلاقية ، وإبتعاد حياة

رجال الدين عن تعاليم المسيحية .وشغل بعد عودته لبلاده منصب أستاذ اللاهوت في جامعة وتنبرج سنة ١٥١٢ ، ونجح في التدريس والوعظ .

ولقد صدم مارتن لوثر سنة ١٥١٧ حين جاء أحد الرهبان إلى مدينته ، ليبيع صكوك الغفران ، وكان جاهلا ، وإدعى أنها كافية لتخليص من يشتريها من كل ما إرتكب من آثام وخطايا ، وحتى أكبر الكبائر . وكان من المعروف أن الغفران لا يتم إلا بناء عن توبة ، وإعتراف وتكفير بالصلاة والصوم والزكاة . وكان البابوات ، أثناء الحروب الصليبية ، قد عوضوا التفكير بالاشتراك في الحروب الصليبية ، والحج إلى روما وزيارة قبور القديسين . ثم نسى بعض رجال الكنيسة التوبة ، والاعتراف ، وأصبح التفكير يعني شراء صكوك الغفران ، التي كان البابا يستخدمها لجمع الأموال اللازمة له ، وأصبح يعهد إلى بعض المصارف أمر بيعها ، ويستخدم صغار رجال الدين في هذه العملية . وكان الغفران منحة إلهية ، ونسى البابوات ذلك ، وأصبحوا يضمنونه لمن يشتري الصكوك .

وثارت نفس مارتن لوثر ، وتحرك . وإنتهز فرصة إجتماع أهالي وتنبرج بمناسبة عيد الشهداء ، وبمناسبة تدشين الكنيسة ، وعلق على بابها إحتجاجاً على بيع صكوك الغفران ، يشتمل على خمسة وتسعين فقرة ، هاجم فيه الكنيسة الكاثوليكية ، ونظرتها إلى الغفران ، وهاجم فيه سلطات الكنيسة ، وتعاليمها ، وأصر على ضرورة إتخاذ الكتاب المقدس وحده دستوراً لتفسير أي موضوع يختلف عليه في العقيدة .

ثم قام بعد ذلك ،في سنة ١٥١٩ ، ومع تزايد أعداد المعجبين به ،وبطريقة تفكيره ، بتوجيه دعوة إلى أمراء الولايات الألمانية للانضمام إلى حركة الاصلاح الدينية ، وإصلاح الكنيسة من خارجها ، مادامت عاجزة عن إصلاح نفسها من الداخل . وكان الكثير من الأمراء مستعدين لإجابة دعوته ، إذا أنها كانت ستعطيهم مكاسب مادية ومعنوية كبيرة . وحدد مارتن لوثر مبادىء حركة

الإصلاح فى ضرورة اخضاع رجال الدين للسلطة السياسية فى الدول ، وإنهاء إحتكار البابا لتفسير الكتاب المقدس ، وإباحة زواج القس ، وإباحة الطلاق للمسيحين ، وإلغاء الحج إلى روما ، وتصفية الأديرة .

وقام البابا من جانبه باصدار قرار حرمان ضد مارتن لوثر . فرد عليه بكتابة رسالة عن « الأسر البابلى » ، أظهر فيها ضعف الكنيسة ومفاسد نظمها ، وأحرق قرار الحرمان . كما كتب إلى البابا رسالة عن « الحرية المسيحية » ، أظهر فيها مفاسد رجال الدين ، وخدعهم المسيحيين ، وضرورة مقاومتهم . فتمت القطيعة بين مارتن لوثر ، والكنيسه الرومانية ، وبلارجعة .

ولقد طلب البابا إلى شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أن ينفذ قرار الحرمان الصادر ضد مارتن لوثر فدعا الامبراطور مارتن لوثر للمثول أمام محكم ورمز سنة ١٥٢١ . ولكن مارتن لوثر أصر على آرائه ، وبشكل جعل أتباعه وأعوانه يتزايدون ، رغم صدور قرار الحرمان ضده . ذلك أن فردريك منتخب ، أو أمير سكونيا ، عمل على حمايته وتشجيعه ، وأعطاه قلعة وارتبرج للاقامة فيها . وإستغل مارتن لوثر إقامته هناك لترجمة الانجيل إلى اللغة الألمانية، مما عمل على إثراء هذه اللغة والمساعدة على نمو الأدب الألمانى ، وسهل أمر إطلاع عامة الأهالى على الكتاب المقدس ، وبلغتهم . كما أن فيليب مانكتون وضع كتاباً فى اللاهوت معتمداً فى ذلك على الإنجيل وحده ، مما سهل أمر إنتشار الاتجاه والفكر اللوثرى . وأخيراً فان جامعة وتنبرج منحت مارتن لوثر منبراً يشرح فيه فكره وعقيدته ، وبشكل ساعد على انتشار هذا الاتجاه الجديد .

ولقد إرتبط بحركه مارتن لوثر ظهور ثلاث حركات أخرى ، مرتبطة بالفكر والعقيدة ، ومرتبطة بالسلطة ، وبالمصلحة ، حتى المادية . وكانت أولى هذه الحركات هى حركة « المطالبون بإعادة التعميد » ، وعلى أساس أن تعميد الأطفال ليس له قيمة ، والقيمة للتعميد هى بعد البلوغ ، وبعد إقتناع الفرد وإيمانه بأنه سيكون

مسيحى ، ولقد عمل كل من مارتن لوثر ، وفيليب ملانكتون ، على تهدئة هذه الحركة المتطرفة دينياً . أما الحركة الثانية فكانت «حركة الفرسان». وكان الفرسان قد فقدوا الكثير من إمتيازاتهم ؛ فوجدوا فى الحركة التى قام بها مارتن لوثر فرصة لإسترداد نفوذهم ،وتوسيع ممتلكاتهم ؛ فهاجموا الكنائس وحطموا مافيها من تماثيل ، وقاموا فى نفس الوقت بالإستيلاء على أملاكها وأراضيها . ولكن الأمراء قاموا بضربهم ، والقضاء على حركتهم ، حتى يبقوا هذه الممتلكات فى إيدى الكنيسة ، إن كان الأمراء من الكاثوليك ، أو للاستيلاء هم بأنفسهم ولانفسهم عليها ، إن كانوا من أنصار لوثر ، وأدى ذلك إلى ضعف الفرسان ، وتزايد قوة الأمراء . وأما الحركة الثالثة فكانت هى «ثورة الفلاحين» ، وكانت أعنف الحركات ، وإنتشرت هذه الثورة فى جميع أنحاء ألمانيا ، وبسرعة . ولم تكن أول ثورة يقوم بها الفلاحون فى أوربا ، ولقد ربط الفلاحون بين الإتجاه الفكرى والعقائدى لحركة مارتن لوثر ، وبين ظروفهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ومع حركة إعادة التعميد ، قاموا بثورات مواجهة ضد السلطة ، للتحرر،وللمعيشة فى إخاء يقوم على أساس المساواة ، التى واصلت فى بعض الجهات إلى المساواة فى الملكية ، أو الملكية فى الشيوع . وكان الفلاحون يعيشون فى ضنك ، وكان النبلاء والأمراء يحافظون على إمتيازاتهم ، ويستغلون الفلاحين . وأصدر الفلاحون بياناً سنة ١٥٢٥ لإلغاء رقيق الأرض،وتحديد إيجار الأراضى ، وتحديد الاعباء التى يؤدونها للسيد الاقطاعى ، وحق كل جماعة فى إختيار وتعيين القسس فى الكنائس ، والإشراف على التعليم ؛ وكل ذلك على أساس ما جاء فى الكتاب المقدس .

ولقد وقف مارتن لوثر ضد هذه الحركات الثلاث ، ووصف الفلاحون بأنهم مخربون ، وسافكى الدماء ، وطلب إلى الأمراء ضرب حركتهم بكل عنف . وكان مارتن لوثر يرغب بذلك فى أن تكون حركة الإصلاح دينية مجردة ، دون أى

إرتباط ، أو تعرض ، للظروف الإجتماعية والإقتصادية . ولكنه أسلم زمام الأمر ، بهذه الطريقة فى المانيا ، للأمراء ، وبشكل يدعم سلطتهم فى إماراتهم ، ويزيد مكاسبهم على حساب السلطة والممتلكات العقارية للكنيسة : فظلت قاعدة الأهالى العريضة ، التى أعتقت مذهبه ، دون حل لمشاكلها الاجتماعية والإقتصادية ؛ وظلت المانيا منقسمة على نفسها إلى دول وإمارات ، بعضها مع البابا ، وبخاصة فى الجنوب ، وبعضها مع المذهب الجديد ، مذهب لوثر ، وخاصة فى الشمال .

وكان الإمبراطور شارل الخامس مشغولا فى ذلك الوقت بحروبه ضد فرنسا فى إيطاليا ، ومشغولا بعملية زحف العثمانيين من الشرق على المجر ، ووصولهم إلى فينا ؛ فإضطر إلى البقاء دون إتخاذ موقف صريح ضد حركة لوثر فى ألمانيا ؛ الأمر الذى ساعدها على النمو والانتشار . وكان الدايت الامبراطورى الذى عقد فى سبير سنة ١٥٢٦ قد سمح لكل أمير بأن يسلك بالنسبة لقرار ورمز ، مايرضى الله ، وماسيكون مسئولا عنه أمام الامبراطور ؛ أى يختار المذهب الدينى الذى يفضله ، ولكن قرارات دايت سبير الثانى سنة ١٥٢٩ ألغت ذلك فإعترض اللوثريون على قرارات دايت سبير الثانى ، وإحتجوا ضده ، فأصبحوا منذ ذلك الوقت يسمون بالمحتجين Protestants ، ولم يكن فى وسع شارل الخامس أن يفصل فى هذه المسألة بالقوة ، فى ذلك الوقت . فدعا إلى عقد مجمع أوجزبرج ، سنة ١٥٣٠ للمناقشة بين الكاثوليك والبروتستانت. وإذ كان لوثر لم يحضر هذا المجمع، فان ملانكتون قد حضره ، وقدم « إعتراف أوجزبرج » ، الذى أوضح أسس المذهب البروتستنتى . وأمام تشدد الامبراطور ، الكاثوليكى ، كون البروتستانت حلف شمالكلد سنة ١٥٣١ للدفاع عن مصالحهم . وأصبح الأمر أكثر خطورة حين إتحدت القوى الكاثوليكية فى ألمانيا ، وكونت حلف نورنبرج سنة ١٥٢٩ ، لكى يقف فى وجه حلف شمالكلد . وأصبحت ألمانيا منقسمة على نفسها ، وستظل كذلك حتى وفاة مارتن لوثر سنة ١٥٤٦ ، وحتى تدخل قوات شارل الخامس ، عسكريا ، فى هذه المشكلة .

٣ — زونجلى فى سويسرا .

وظهرت فى سويسرا حركة عدم رضاه من الأوضاع الموجودة فى الكنيسة ، كذلك الأوضاع الاجتماعية ، خاصة وأن الكثيرين من أبناء سويسرا كانوا يضطرون للعمل كجنود مرتزقة فى قوات فرنسا ، أو قوات الإمبراطورية ، أو البابوية ، وكانوا يدفعون من حياتهم ثمناً لبحثهم عن العيش .

وظهرت فى ذلك الوقت ألريك زونجلى (١٤٨٤ — ١٥٢١) فى زيوريخ ، وهاجم فى سنة ١٥١٩ عملية بيع صكوك الغفران ، كما هاجم كذلك « المطالبون باعادة التعميد » . وكان يسير فى ذلك على خطى مارتن لوثر . ولكن موقف مارتن لوثر من ثورة الفلاحين وإعتباره ، أن أمير البلاد هو رئيس الكنيسة والمسئول عنها ، الأمر الذى أسلم الحركة اللوثريه فى ألمانيا لعدد من الأمراء ، أظهر أن هناك إختلافاً واضحاً ، إجتماعى ، وإقتصادى وسياسى ، وبين الاتجاه اللوثرى الاصلاحى فى الدين ، وبتجرد ، وبين إتجاه زونجلى .

وكان زونجلى إنسانيا ، وأخلاقيا ، ووطنياً ، وجمهوريا فى نفس الوقت . وهاجم تحريم الزواج على رجال الدين ، وعهود الرهبنة ، وإستعمال اللاتينية فى الصلوات فى الكنيسة ، وغيرها من مسائل العقيدة . ولكنه كان أكثر تطرفاً من لوثر ، وأكثر منه تنوراً ، وأقل منه تأثراً بآراء العصور الوسطى . فلقد إعتبر الكنيسة مؤسسة لكل المسيحيين ، يشتركون فى إدارتها ، وتعيين رجالها ، حتى تتمكن من القيام بواجباتها . وعمل بذلك على الانفصال التام عن روما .

وإنتشر الاصلاح الزونجلى حتى بلغ سنة ١٥٢٩ بعض المدن فى جنوب ألمانيا ، علاوة على إنتشاره فى ست مقاطعات سويسرية . ولقد حاول فيليب ، منتخب إقليم هيس ، أن يجمع بين لوثر وزونجلى ، وبشكل يوحد بين حركة الاصلاح فى ألمانيا ، وحركة الاصلاح فى سويسرا . ولكن الاتفاق لم يتم بين الزعيمين ، وأثر ذلك على الحركة اللوثرية ، التى لم تنتشر فى سويسرا .

ونشبت الحرب ، بعد التكتل ، داخل سويسرا ، بين الكاثوليك من جانب، وأتباع زونجلي من جانب آخر . وقتل زونجلي في معركة كابل التي وقعت في شهر أكتوبر سنة ١٥٣١ بين المعسكرين . ولكن الصلح عقد بينهما في نفس السنة ، على أساس تعهد المقاطعات البروتستانتية بترك المقاطعات الكاثوليكية تعيش في سلام ، وحق المقاطعات البروتستانتية في الاحتفاظ بمذهبها الجديد . وكان البنيان الاتحادي لسويسرا يسمح لهم بذلك .

٤ ـ كلفن في جنيف :

بعد مصرع زونجلي ، إنتقل دور زيوريخ القيادي في حركة الاصلاح في سويسرا ، مع وليام فاريل ، الفرنسي ، الذي ، أقام في برن ، وعمل بها ؛ فأدى ذلك إلى إبقاء نور هذه الحركة مشعاً . ولكن فاريل إنتقل بعد ذلك إلى جنيف سنة ١٥٣٣ ، حيث وجد تجاوباً كبيراً من الأهالي الذين عملوا على تحطيم التماثيل والصور الموجودة في الكنائس ، وقضوا على الكثير من مظاهر الخلاعة والتبذل التي سادت هذه المدينة المتاجرة . وفي سنة ١٥٣٦ أصبح المذهب البروتستانتي هو المذهب الرسمي في جنيف ؛ وشهد نفس العام مجيء جون كلفن إليها .

وكان جون كلفن قد ولد في نيون سنة ١٥٠٩ ، ودرس اللاهوت في جامعة باريس ، ثم القانون في أورليان ، وظهر من مقالاته الاولى أنه قد إعتنق مذهب الاصلاح ؛ وإضطر إلى ترك فرنسا إلى جنيف ، خاصة وأن ملوك فرنسا كانوا يضطهدون انصار الاصلاح الديني داخل بلادهم ، في الوقت الذي كانوا يتعاونون ويتحالفون معهم ، ضد الامبراطورية والبابوية ، في الخارج . وعمل كلفن على أن يجعل جنيف جمورية إنجيلية ، يقود منها حزب الاصلاح — الهيجونوت — داخل فرنسا نفسها .

ولقد إتفق مذهب كلفن مع اللوثريين في ضرورة الاعتماد على الكتاب المقدس وحده ؛ ولكنه إختلف مع اللوثريين في ضرورة إجبار الآخرين على

إعتناق مذهبه . كما أن كلفن إختلف مع زونجلى فى مسألة إتحاد الدولة والكنيسة، ورأى أن الكنيسة محتاجة إلى إدارة خاصة بها، تختلف عن الادارة العلمانية للدولة، ولها ميدان روحى ، ولايجوز لأحد الطرفين أن يتدخل فى ميدان لآخر .

وكان كلفن يفضل الحكومة الأرستقراطية ، ويرى ضرورة طاعة المسيحيين لها ، مادامت تحافظ على تعاليم الله . وهكذا رأى كلفن ضرورة الفصل ، مع المواءمة والتكامل ، بين السلطتين . وفى حالة عدم المحافظة على تعاليم الله ، فمن واجب المسيحى مقاومتها ، كما حدث أثناء الحروب الدينية فى فرنسا ، وكما حدث فى الأراضى المنخفضة سلطة الحكومة الزمنية .

ولقد نجح كلفن فى أن يجعل من جنيف مركزاً لمذهب الاصلاح ؛ وزاد إشعاع جنيف بإنشاء جامعتها سنة ١٥٥٩ ؛ وأصبحت هذه المدينة مركز تعليم وتكوين الرعاة البروتستانت ، أو الهجونوت ، مما أثر فى تاريخ الاصلاح الدينى، وتاريخ أوربا فى العصر الحديث .

الفصل الحادى والعشرون

إنتشار المذاهب البروتستانتية

لقد أدى ظهور المذاهب البروتستانتية ، سواء فى ألمانيا مع مارتن لوثر ، أو فى سويسرا ، مع زونجلى ، وجون كلفن ، إلى حدوث قلقلة كبيرة فى فكر الأوربيين ، وفى نظرتهم إلى عقائدهم ، وذلك فى ظل مجتمعات متطورة . وبسرعة ، من عهود إقطاع إلى عصور حديثة ، يتغير فيها المجتمع من نشاطه الزراعى إلى الإهتمام بالتجارة وتفوقها ، وفى إستنادها إلى الصناعة النامية ، ومن حياته المقفلة إلى حياة حرة ومتحررة ، وبخاصة فى المدن . وكانت هناك مصالح إقتصادية وسياسية ، نتجت عن إنتشار مذاهب الإصلاح ، ستساعد مع غيرها على وقوع تغيرات مادية ومعنوية . فى كثير من أنحاء أوربا ، وبخاصة فى غرب القارة وشمالها .

١ ـ خروج إنجلترا على كنيسة روما :

بدأ هنرى الثامن حكمه لانجلترا سنة ١٥٠٩ ، وكان له من العمر ثمانية عشر سنة . وتزوج كاترين الاراجونية ، إبنة فرديناند وإيزابلا ، وعمل على بناء أسطول قوى ، فبنى أحواض السفن ومدرسة لتخريج رجال البحر . ووضع أسس القوة البحرية لانجلترا . وكان مسيحيا كاثوليكيا ، أعطاه البابا سنة ١٥٢١ لقب حامى العقيدة ، نتيجة لكتابته بحثاً رد به على لوثر . وحتى فى حروبه كان مع معسكر البابا ضد أعدائه . ولم تكن الأمور الدينية التى شغلت سكان القارة ، تلقى فى إنجلترا صدى إلا لدى نخبة صغيرة من المتعلمين . وكان الانجليزى العادى لا يحب كثيرا رجال الدين ، وكان بعضهم يحقد على ما يتمتع به رجال الدين من أملاك وإمتيازات . وكان الانجليزى محافظاً بطبعه ، فكان لا يشعر بتلك المرارة

الاجتماعية التى أشعلت ثورة الفلاحين فى ألمانيا ، ولكنه كان لا يوافق على تحمل أعباء ضرائبية باهظة ، وغير راض عن الحرب مع الأراضى المنخفضة ، التى كانت تهدد بالقضاء على تجارة الصوف . ورغم التطور الاقتصادى الكبير الذى مرت فيه إنجلترا فى ذلك الوقت ، من إعتبار الأرض الزراعية سلعة ، ومن تقدم تجارة الأنسجة التى كانت أهم صناعات إنجلترا ، ومن إعتبار تربية الأغنام أكثر ربحا من الحبوب ، وتحويل كثير من الأراضى إلى مراعى بدلا من زراعتها قمحا ، ونشوب أزمة إقتصادية إجتماعية بدأت فى الريف ، نتيجة لضياع أراضى صغار الفلاحين ، وإستمرت فى هجرة الكثيرين منهم إلى المدن - رغم كل ذلك ، فإن أوضاع إنجلترا لم تكن تسمح بقيام قلاقل فيها ، تأخذ شكل الثورات العامة ؛ وكان كبار الملاك بعيدين عن الشعب ، وكان الجميع يحترمون الملك ؛ ويرضون ببقاء أسرة تيودور تحكمهم .

وترك هنرى الثامن الحكم الفعلى فى البلاد مدة أربعة عشر عاما (١٥١٥ — ١٥٢٩) فى يد توماس ولزى ، الكاردينال الكاثوليكى ، الذى كان مخلصا للبابوية ، وكان يطمع حتى فى الوصول اليها ؛ وعمل على ألا تخضع لملك فرنسا . ولا حتى للامبراطور شارل الخامس . ومع ذلك فقد علم الملك هنرى الثامن كيف يكون سيداً فى بلاده ، وألا يخضع للتشريعات التى تصدرها البابوية . وتمكن من حل بعض الأديرة الصغيرة ، واستغل أملاكها فى إنشاء بعض الكليات . وكان موقفه صعبا ، إذ أن تجار الصوف كانوا لا يسمحون له بتحدى الإمبراطور ، المسيطر على الأراضى المنخفضة ؛ ولذلك فانه سقط حين انتصر شارل الخامس فى إيطاليا . وأصبح على هنرى الثامن أن يواجه الموقف ، ويركز مجهوده داخل انجلترا نفسها .

وكانت كاترين الأراجونية قد أنجبت الأميرة مارى تيودور لهنرى الثامن ، ولم تنجب له ولداً ، ولذلك فانه كان يرغب ، منذ سنة ١٥٢٧ ، فى التزوج من

آن بولين ، التي كان قد أغرم بها . وكان البابا ضعيفا ، وتسيطر عليه إسبانيا ، رغم أن ولزى قد شرح له أن مسألة ولاء انجلترا له قد أصبحت كلها فى الميزان . وبعد أن وافق على أن تقوم محكمة خاصة فى لندن بنظر طلب هنرى الثامن ، خضع للضغط الإسبانى ، وطلب إحالة قضية الطلاق لروما .

وهنا بدأ هنرى الثامن فى العمل ، ودعا البرلمان فى سنة ١٥٢٩ إلى مساندته فى نضاله ضد الكرسى البابوى ، ، واستبقى دورة انعقادهم سبع سنوات ، وجعلهم يصدرون القوانين الخاصة باستقلال الكنيسة الانجليزية عن روما ، واخضاعها للتاج . ووجد أعضاء البرلمان ، وهم فى غالبيتهم من كبار ملاك الأراضى ومندوبى المدن فى ذلك فرصة لفصل الروابط المالية التى كانت تربط بلادهم بسلطة روحية أجنبية . وتم الاصلاح البرتستانتى فى انجلترا ، على مراحل ، مبتدئًا من الوضعية العامة ، وبشكل عملى وواقعى .

ثم استند هنرى الثامن إلى توماس كرمويل لكى يجرد رجال الدين من ممتلكاتهم، وينزع جذور الرهبنة من البلاد . وهدفت هذه الحركة إلى كسب طوائف الملاك الذين ستوزع عليهم أراضى الكنيسة إلى جانب الملك ، والقضاء فى نفس الوقت على تلك المجموعات من رجال الدين التى كانت تأتمر ، مع وجودها فى انجلترا ، بأوامر البابوية . وبعد أن استولت الدولة على ممتلكات الأديرة ، قامت بتوزيعها على الملاك والنبلاء ، الذين أصبحوا أكثر الطبقات استفادة من الاصلاح البروتستانتى فى انجلترا . وتمت هذه الاصلاحات بسرعة كبيرة ، حتى عجز الجميع عن ابداء المعارضة .

وفى سنة ١٥٣٤ صدر قانون السيادة ، وهو الذى جعل الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة . وظلت مسألة العقيدة والطقوس الدينية فى حاجة إلى حل . ولكن هنري الثامن وضع بنفسه في سنة ١٥٣٦ أول مجموعة للطقوس الدينية

لكنيسة انجلترا . وكان يرغب فى أن يكون الفقه الدينى للكنيسة انجليزياً ، لا ألمانيا ؛ ورفض التعاون مع البروتستانت فى ألمانيا . أما فى سنة ١٥٤٥ فانه أمر بمراجعة عامة لكتب الصلوات ، وأقر تراتيل الصلوات العامة . ووضع « الانجيل العظيم » ، وهو الانجيل المعتمد إلى حد كبير على الترجمة التى قام بها وليم تاندل ، وجعله فى متناول الجميع . وظل هنرى الثامن حتى آخر أيامه يتبع طريق الوسط ، طريق إنجلترا ؛ فكان يحرق الوثريين لهرطقتهم ، ويشنق الكاثوليك لخيانتهم . ولقد وقف توماس كرانمر ، إلى جانب هنرى الثامن فى كل ذلك ؛ وكان هو الذى ساعده فى طلاقه من كاترين الأراجونية ؛ كما كان هو مؤلف كتاب الصلوات الانجليكانى ، بما يشتمل عليه من تراتيل وصلوات يومية.

وبعد وفاة هنرى الثامن ، سار الاصلاح إلى مداه . ولكن مارى تيودور وصلت إلى الملك سنة ١٥٥٣ ، وكانت شديدة الاخلاص للمذهب الكاثوليكى ؛ فألغت الطقوس الانجليزية ، وفصلت الأساقفة البروتستانت ، وأعادت العلاقات مع روما . وكانت مارى زوجة لفيليب الثانى ، ملك إسبانيا ؛ وأمرت بقتل كل من كرانمر ، وردلى وغيرهم ؛ ولذلك فإن هذه الأعمال جعلت الانجليز ينظرون إليها على أنها بداية لإنفصالهم عن كنيسة روما ، بعد أن نسوا ذكريات طلاق هنرى الثامن . وتطلعت الأنظار إلى اليزابيث ، إبنه هنرى الثامن وآن بولين ، وهى التى كان زواج والدها من والدتها قد تسبب فى فصم الرابطة بين إنجلترا وروما .

ورغم أن إنجلترا قد إنفصلت عن روما ، إلا أنها واجهت موقفاً صعباً لعدة سنوات ؛ ذلك أن كل من أيرلندا ، وفرنسا ، وإسبانيا كانت كاثوليكية ، كما أن إسكتلندا كانت ، رغم هزيمتها أمام إنجلترا فى موقعة بينكى ، كاثوليكية كذلك . وفى سنة ١٥٤٨ نجحت فرنسا فى تزويج الأميرة مارى الاسكتلندية الصغيرة ، من

فرنسوا ، ولى عهد فرنسا . ولذلك فإن إنجلترا ، فى أول عهد الملكة اليزابيث ، قررت ضرورة العمل على نشر أفكار الاصلاح الدينى فى إسكتلندا .

٣ - شارل الخامس وألمانيا :

ظلت ألمانيا منقسمة على نفسها بين البروتستانت والكاثوليك ، وبخاصة بعد تكوين الأمراء البروتستانت حلف شمالكلد فى سنة ١٥٣١ ، وتكتل الأمراء الكاثوليك فى حلف نورنبرج ضدهم سنة ١٥٣٩ . وفشل المجلس الذى إنعقد فى راتزبون سنة ١٥٤١فى إنهاء هذا الخلاف . ولقد دعا البابا بولس الثالث إلى عقد مجمع دينى لبحث هذا الانقسام ، ولكن البروتستانت رفضوا الاشتراك فيه ، إذ أنه كان تحت سيطرة الكاثوليك . وعندئذ قرر الامبراطور شارل الخامس أن يستخدم القوة لانهاء هذا الانقسام الدينى الذى كان يهدد أملاكه .

وكانت الامارات التى إنتشر فيها المذهب البروتستانتى ، وهى سكسونيا ، وهس وبرنزويك ، وبراندنبرج ، وبروسيا ، وبعض المدن الألمانية فى الشمال والجنوب ، قوية ؛ ولكن لم يكن فى وسعها أن تقف فى ذلك الوقت فى مواجهة قوات الكاثوليك ، الذين كانوا يسيطرون علىإسبانيا وفرنسا وإيطاليا والأراضى المنخفضة وإسكتلندا ؛ بل لم يكن فى وسعها أن تقف حتى فى مواجهة الألمان الكاثوليك وحدهم . ولكن علينا أن نذكر أن الإمارات الألمانية الكاثوليكية لم تكن مستعدة للتعاون مع الإمبراطور ، شارل الخامس ، المتعصب للكاثوليكية ، ضد إخوانهم الألمان البروتستانت ، إذا كان مثل هذا التعاون سيؤدى إلى تدخل الإمبراطور فى الشئون الداخلية لإماراتهم؛ولذلك فانهم كانوا يحضرون المجامع، لكى يقروا بوجود إنقسام فى ألمانيا بين البروتستانت والكاثوليك ،ولكن دون أن يأخذوا أى مبادرة لإنهاء مثل هذا الانقسام ، إذ أن ذلك قد يؤدى إلى تغيير وضعيتهم ، أو إنقاص سلطاتهم وإمتيازاتهم . وكان الكاثوليك فى ألمانيا يخشون

من حركة « إعادة التعميد » ، ومن « ثورات الفلاحين » ، أكثر من خوفهم من حركة مارتن لوثر ؛ وكان مارتن لوثر قد وقف ضدهما .

وأخيراً قرر شارل الخامس ، بعد أن عقد الصلح مع فرنسا سنة ١٥٤٤ أن يستخدم القوة ضد اللوثريين ، الذين إنتشر أتباعهم فى البلاتينات وفى كولونيا . وكان شارل يعتمد على بعض الخارجين على الكنيسة فى ألمانيا ، ولذلك فإنه لم يعط لحملته شكل الحرب الدينية الموجهة ضد الهراطقة ، بل أعطاها شكل حملة تأديبية ضد كل من الأمير فردريك حاكم سكسونيا ، والأمير فيليب حاكم هيس ؛ وكانا من أقوى مؤيدى البروتستانت فى ألمانيا .

وبدأت الحرب ، وإنتصرت قوات الإمبراطور فى ميلبرج . على نهر الالب، فى ٢٤ أبريل سنة ١٥٤٧ ، وبشكل حاسم . ولكن المشكلة الدينية ظلت موجودة، وبدون حل حتى بعد أسر الأمير فردريك ، وتسليم الأمير فيليب نفسه . وكان الأمراء الألمان يرفضون تغيير الأوضاع الموجودة لديهم ، من إنقسام بين بروتستانت وكاثوليك ، وإنقسام سياسى ؛ حتى لاتقل إمتيازاتهم : فرفضوا مقترحات الامبراطور شارل بإنشاء جامعة يرأسها قواد دائمون ، وتكون لها موارد دائمة ، وجيش نظامى ؛ كما أن الأمراء المنتخبون رفضوا فكرة جعل الإمبراطورية وراثية فى أسرة هابسبورج .

وإتجه بعض الأمراء الألمان البروتستانت صوب هنرى الثانى ، ملك فرنسا، وتنازلوا له عن تول ومتز وفردان وكامبراى ، نظير معونتهم ضد الإمبراطور . ووجد هنرى الثانى فى ذلك فرصة رائعة لنقل حربه مع شارل الخامس من إيطاليا إلى منطقة الراين ،والوصول بالحدود الفرنسية إلى الحدود الطبيعية؛ فقبل الاتفاق معهم . وبينما كان الفرنسيون يستولون على مدن الألزاس واللورين ، زحف جيش موريس ، صاحب سكسونيا ، على إنزبروك ، وإضطر الامبراطور شارل

الخامس إلى الحرب ، محمولا على محفة ، عبر ممر برنو .

وتمت المصالحة الدينية فى ألمانيا ، بين الكاثوليك والبروتستانت ، على أيدى الامبراطور الجديد ، فرديناند ، الذى كان من أشد ملوك أسرة الهابسبورج حكمة . وتمت المصالحة على أساس التوفيق ، والاعتراف بأن الانقسام موجود بالفعل . وكان المبدأ الأساسى الذى قام عليه صلح أوجزبرج ، فى ١٥ سبتمبر سنة ١٥٥٥ هو حق كل إمارة فى إختيار عقيدتها ؛ وأصبح لكل أمير الحق فى أن يحدد فى إمارته شكل الكنيسة ونوعها ، دون تدخل من جانب الإمبراطور أو الدايت . وتقرر كذلك حرمان كبار الأساقفة والقسس الذين إعتنقوا المذهب البروتستانتى من مناصبهم وممتلكاتهم،على ألا يقوم أى مسئول دينى بفرض العقيدة الكاثوليكية قسراً على رعاياه . وفصل هذا الصلح فى مسألة ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية ، وأبقى ما كان قد إنتزع منها قبل سنة ١٥٥٢ فى أيدى من حصلوا أو إستولوا عليه ، أما ما أخذ بعد هذه السنه فكان من الضرورى رده للكنيسة .

ولاشك فى أن صلح أوجزبرج كان من صنع الأمراء ، وفى صالحهم ، ودعم إستقلالهم تجاه الامبراطور من الناحية العملية ، وأعطاهم حق تقرير الانتماء المذهبى ، وأجبر رعاياهم على ضرورة الخضوع لهم فى هذا المجال . وكان هذا الصلح خاصاً باللوثريين وحدهم ، ولم يذكر أى مذاهب إصلاحية أخرى . ولكن هذا الصلح ظل على كل حال هو الأساس للحياة السياسية والدينية فى ألمانيا لمدة تزيد على خمسين سنة . ولم تظهر نقط ضعفة إلا فى مطلع القرن السابع عشر ؛ الأمر الذى أدى إلى نشوب حرب الثلاثين عاما .

٣ ـ انتشار البروتستانتية :

وهكذا إستقر مذهب مارتن لوثر فى شمال ألمانيا بشكل خاص ، كما إستقر فى بعض المدن الألمانية ، هنا وهناك .

ولقد انتشر مذهب مارتن لوثر البروتستانتى كذلك ، ووصل إلى انجلترا ، حيث تدعمت أسس الاصلاح الدينى هناك على هذا المذهب ، وفى نظام انجليزى.

وانتشرت البروتستانتية على مذهب لوثر فى الممالك الشمالية . أو الاسكندنافية ، وهى الدانمرك والسويد ، والنرويج . ولم يخرج فى هذه البلاد مصلح دينى ، كما حدث فى ألمانيا وسويسرا . وكانت هذه الدول الثلاث داخلة ، سنة ١٣٩٧ ، فى حلف كرلمار ؛ وحين استقلت السويد منه نهائيا فى سنة ١٥٢٤ برئاسة جوستاف فازا ، إعتنق هذا الرئيس المذهب البروتستانتى اللوثرى ، حتى يستولى على أموال وأملاك الكنيسة الكاثوليكية ، ويدعم بها دولته . ومن ناحية أخرى ، قام فردريك ملك الدانمرك والنرويج (١٥٢٤ — ١٥٣٣) باعتناق مذهب الاصلاح الدينى كذلك ، تبعا لمارتن لوثر .

ولكن علينا ألا ننسى أن هناك بعض الأسباب عاقت سرعة انتشار المذهب اللوثرى البروتستانتى ؛ منها صعوبة فهم هذا المذهب فى بعض المسائل المتعلقة بالتبرير ، وبالايمان ؛ ومنها اعتماد لوثر على تأييد الأمراء والملوك لهذا المذهب ، دون أعطاء أهمية كبيرة لجماهير المؤمنين ؛ ومنها احجام لوثر نفسه عن نشر هذه العقيدة خارج حدود ألمانيا . وعلينا ألا ننسى بعد ذلك امتناع لوثر عن الالتجاء إلى القوة والعنف فى نشر مذهبه . وستظهر نتائج ذلك حين تأخذ الكنيسة الكاثوليكية فى اصلاح نفسها ، تمهيداً للحرب من أجل الابقاء على المذهب الكاثوليكى .

وعلى أى حال ، فان مذهب مارتن لوثر لم يكن هو المذهب البرتستانتى الوحيد ، بل ظهر إلى جواره مذهب زونجلى ، ومذهب جون كلفن ، الذى إنتشر كذلك .

وكان مذهب جون كلفن هو أكثر المذاهب البروتستانتية إنتشاراً ، وأعمقها تأثيراً . فلقد خلق الكنيسة البروتستانتية فى فرنسا ، وشارك فى أنشاء جمهورية هولندا المستقلة ، وأصبح الدين الرسمى فى اسكتلند . وانتشر هذا المذهب ، قبل

وفاة كلفن ، فى سويسرا الشرقية ، كما انتشر بعد ذلك فى المجر ، وبوهيميا وفى المناطق التى خرجت على روما . وأثر المذهب الكلفنى حتى في انجلترا نفسها .

وكان مذهب جون كلفن صريحا فى تعاليمه ، وينادى بالكفاح ضد مخالفيه . ووضع كلفن نظاما دقيقا لكنيسته . مما عمل على تدعيمها و تقويتها ، وتمكنها من أن تصمد فى نضال طويل ضد الكاثوليكية ، وبخاصة بعد الاصلاح الكاثوليكى .

الفصل الثاني والعشرون

الاصلاح الديني الكاثوليكي

كان لإنتشار مذاهب الاصلاح البروتستانتية ، من ألمانيا ، وسويسرا ، مع مجهودات لوثر ، وزونجلي ، وكالفن ، إلى الدول الإسكندنافية ، والأراضي المنخفضة وإنجلترا وفرنسا،وفى داخل النمسا وبوهيميا،أثره على العالم الكاثوليكي، وشعور بعض البابوات ، وبعض الكاثوليكيين المخلصين أنفسهم ، بضرورة القيام بمجهود إيجابي ، من أجل إجراء إصلاحات ، داخل الكنيسة الكاثوليكية ، تسمح لها بإستمرار الحياة ، ومواجهة التحديات المستمرة ، التى أخذت شكل إنشقاقات كبيرة، لها آثارها على وحدة الكنيسة،ونفوذها وسيطرتها ، وكذلك على أملاكها المبعثرة فى جميع أنحاء أوربا ، وسيسير الاصلاح الديني الكاثوليكي تحت رعاية عدد من البابوات ، وسيتخذ لنفسه وسائل مختلفة الوصول إلى أهدافه ، تتمثل فى عقد المجامع الدينية ، وفى إنشاء جماعة اليسوعيين ، وفى فرض الرقابة على النشر والتداول والقراءة ، وفى إستخدام محاكم التفتيش .

١ - مجمع ترنت :

بعد بابوات النهضة الذين عاشوا معيشة البذخ والرفاهية ، إضطر البابوات إلى أن يحسبوا حساباً لإنتشار المذاهب البروتستانتية فى كل مكان . فاستقر الرأى على ضرورة تطهير الكنيسة مما لحقها ، سواء فى نظمها أو فى سلوك رجالها ؛ ولكن هذا الإتجاه كان حريصاً على ألا يؤدى إلى إضعاف سلطة الكنيسة ، أو المساس بشخص البابا ، فهو نائب المسيح ، وخليفة القديس بطرس الرسول .وهكذا ستكون هذه الحركة حركة إصلاحية،وفى الشكل والسلوك والترتيب ، دون المساس بما هو هام، ودون التعرض للجوهر .

ونتيجة لذلك إستقر رأى البابا بول الثالث على توجيه الدعوة لعقد مجمع دينى فى ترنت ، فى ألمانيا ، للنظر فى سبيل الإصلاح الكاثوليكى . ولقد إنعقد هذا المجلس فى شهر نوفمبر سنة ١٥٤٢ ؛ ولكن كثيراً من الكرادلة الإيطاليين لم يتمكنوا من حضوره ، نتيجة للحرب التى كانت قائمة فى ذلك الوقت بين فرنسوا الأول ملك فرنسا ، وبين الإمبراطور شارل الخامس ؛ فأجله البابا ؛ ثم عاد ودعاه إلى الإنعقاد من جديد فى شهر مارس سنة ١٥٤٤. وسيظل هذا المجمع فى دورة إنعقاد مستمرة ، وعلى عهود الباباوات جيل الثالث وبول الرابع وبيو الرابع ، حتى بلغت جلساته خمسة وعشرين ، كان آخرها فى شهر ديسمبر سنة ١٥٦٣ .

ولقد أصدر مجمع ترنت قرارات خاصة بنظام الكنيسة ، وهى ضرورة إستخدام اللغة اللاتينية فى الصلاة ، وتحريم زواج القساوسة ، ومنع تجميع أكثر من أسقفية تحت سلطة أسقف واحد وتحديد سن الأسقف بما لا يقل عن ثلاثين سنة ، وسن القساوسة بما لا يقل عن ٢٥ ؛ وكذلك إنشاء المدارس اللازمة لتعليم رجال الدين . أما عن البابا ، فقد قرر المجمع أنه خليفة السيد المسيح والرسل ، وله السلطة العليا على الكنيسة .

كما أصدر المجمع قرارات أخرى تتعلق بالعقيدة الكاثوليكية ؛ فرفض عقيدة التبرير بالإيمان اللوثرية ، وفكرة القدرية عند كلفن. كما رفض ما دعا إليه أنصار لوثر وكلفن من ضرورة الإعتماد على الكتاب المقدس ، وحده ، وقرر أن عقائد الكنيسة تستند إلى الكتاب المقدس وكذلك إلى التقاليد القديمة . وأصر على أن نسخة الكتاب المقدس اللاتينية هى وحدها المعتمدة .

وهكذا حدد مجمع ترنت التعاليم الكاثوليكية ومصادرها ، كما وضع نظاما للكنيسة يقلل من أخطائها. ولكنه لم ينقص إختصاصات البابا وسلطاته ؛ ولم يحسم النزاع القائم بين البروتستانت والكاثوليك ، وقضى على كل محاولة للتقريب أو المصالحة بين هذين المذهبين .

وكان مجمع ترنت أول خطوة على طريق ما يسمى بالإصلاح الدينى الكاثوليكى، وكان فى حقيقة الأمر محاولة لإصلاح بعض مفاسد الكنيسة . أما الوسيلة الثانية فكانت هى إنشاء جماعة اليسوعيين .

٢ ـ اليسوعيون :

يعتبر إنيجو لوبيز دى ريكالدى ، المعروف باسم إجنات ليولا ، هو مؤسس جماعة اليسوعيين الذى سيكون لها دور كبير فى المحافظة على الكاثوليكية،وتدعيمها، حتى تتمكن من مواجهة « الحياة المتطورة » . وكان من أصل إسبانى ، ومن النبلاء،وعاشر فى بلاط فرديناند وإيزابلا،ثم إلتحق بجيش شارل الخامس ، وحارب ضد قوات فرنسوا الأول وأصابه جرح لازمه طوال حياته ، وأجبره على أن يترك حياة الجندية ؛ فاتجه إلى الدين . ولقد درس حياة القديسيين ، كما درس فى مدارس برشلونة ، ثم فى باريس حيث قضى سبع سنوات فى دراسة اللاهوت،حتى حصل على درجة الدكتوراه فيها سنة ١٥٣٤. وكان يفيض بالحماس الدينى ، وجمع حوله عدداً من الزملاء ، وقرروا جميعاً أن « يحاربوا من أجل المسيح » . وكونوا رابطة بينهم ، وعزموا على السفر والمعيشة فى بيت المقدس ، والعمل على نشر الدين المسيحى فى بلاد الشرق الاسلامى ، وكانوا قد تعاهدوا على خدمة الكنيسة الكاثوليكية ، وإطاعة البابا طاعة عمياء . ولكن الحرب بين الدولة العثمانية والبندقية منعتهم من مواصلة السفر ، وبعد وصولهم إلى البندقية ، عادوا إلى روما . وعرضوا على البابا إنشاء جماعة تناضل من أجل المذهب الكاثوليكى ، ووافق البابا على ذلك ، وسمح لهم بالوعظ فى روما . ثم أصدر البابا بول الثالث مرسوما فى سنة ١٥٤٠ بإنشاء «الفرق الكنسية المناضلة» ؛ التى عرفت فيما بعد باسم اليسوعيين ، أو الجزويت ،وبعد أن كان عددها محدداً بستين عضواً، رفع هذا القيد نتيجة لنجاحها .

وكان اليسوعيون يتميزون بالطاعة التامة للبابا ، وبتكريس حياتهم لخدمة الكنيسة ، وفى أى موقع يطلب منهم أن يعملوا فيه . وكان نظامهم عسكرياً صارماً وإنتخب اجنات لبولا فى سنة ١٥٤١ رئيساً للجماعة ، وظل رئيساً لها حتى وفاته سنة ١٥٥٦ .

ورأى اليسوعيون أن البروتستانت قد كسبوا على حساب الكاثوليكية نتيجة لجهل عدد كبير من القسس الكاثوليك . ولذلك فإنهم عملوا على نشر التعليم السليم بين اليسوعيين أولا ، حتى يتمكنوا من الحصول على عدد من الأعضاء ، لهم مستوى رفيع ، يمكنهم أن يقوموا بنشر التعليم بين الأهالى فى كل مكان ، بعد ذلك . ولقد إشتهرت مدارس اليسوعيين بدقتها وحزم إدارتها وسيرها على نظم تعليمية سليمة ، الأمر الذى أدى إلى زيادة الاقبال عليها . وما أن إنتهى القرن السادس عشر حتى كان اليسوعيون يسيطرون على التعليم الكاثوليكى، فى جميع أنحاء أوربا ؛ ومن المدارس الصغيرة حتى الجامعات .

ويرجع الفضل إلى اليسوعيين فى إصابة المذاهب البروتستانتية بنكسة فى فرنسا وألمانيا ، وفى هز مركز البروتستانت لفترة من الزمن فى إنجلترا وإسكتلندا ، وكذلك فى إستئصال البروتستانتية من إيطاليا ومن إسبانيا . أما بولندا ؛ فانهم نجحوا فيها نجاحا فائقاً ، وعلى حساب المذهب الأرثوذكسى ، ودعموا هناك المذهب الكاثوليكى ، حتى أصبحت بولندا إقليما كاثوليكيا بين ألمانيا البروتستانتية فى الغرب ، وروسيا الأرثوذكسية فى الشرق .

٣ ـ الرقابة :

وضع مجمع ترنت فى قراراته سنة ١٥٦٣ أن يترك للبابا أمر إختيار الكتب التى ترغب الكنيسة فى تحريم قراءتها على الكاثوليك .

وكانت هذه سلطة قوية فى أيدي البابا ، تطورت إلى رقابة كاملة على القراءة،

والتداول ، الطبع والنشر . وكان البابوات ، منذ أواخر القرن الخامس عشر ، يفرضون العقوبات على المؤلفين ، ودور النشر والطباعة ، وعلى القراء الذين يتداولون كتب الهراطقة ، أى التى تضم أى كفر ؛ وكان يدخل تحت هذا العنوان كل الكتب التى قد تتعارض مع المذهب الكاثوليكى أو ترمى الى تغيير قوانين الكنيسة ، أو حتى الى التشكيك فيها . ومنذ سنة ١٥١٥ فرضت رقابة كاملة على جميع المطبوعات المتداولة فى روما والولايات البابوية ؛ ثم تكلفت محاكم التفتيش بهذه الرقابة منذ سنة ١٥٤٢ . وكانت رقابة صارمة ؛ وكان وجود إسم الكتاب فى الفهرس أو الكتالوج الخاص بذلك يعنى ضرورة أعدامه حرقاً .

ولقد وضع البابا بول الرابع ، فى سنة ١٥٥٩ ، أول فهرس للكتب المحرمة ، وكان يشتمل على كتب ورسائل زعماء الاصلاح ، مثل لوثر وزونجلى وكلفن . ولكن هذا الفهرس كان قاصراً ؛ فتم وضع فهرس جديد سنة ١٥٦٤ ؛ وتكررت مراجعته بعد ذلك حتى سنة ١٥٩٦ ، وهو الفهرس الذى ظل معمولا به حتى منتصف القرن الثامن عشر .

ولقد أثر نشر الفهارس بشكل خاص على الدول الواقعة فى جنوب أوربا ؛ وكان حجراً على الفكر وعلى القراءة وظهرت آثاره فى إيطاليا واسبانيا والبرتغال، التى حرمت من كل ما كتبه البروتستانت. وكان الفهرس من بين الوسائل التى اعتمدت عليها محاكم التفتيش،فى تعقب الخارجين على الكاثوليكية ،والتنكيل بهم.

٤ ـ محاكم التفتيش :

اعتمدت الكنيسة الكاثوليكية على محاكم التفتيش ، كوسيلة فعالة ، وخولتها سلطات واسعة ، وذلك من أجل تعقب الخارجين على المذهب الكاثوليكى ، والتنكيل بهم ، وتعريضهم لكل أنواع التعذيب الممكنة ، ارهاباً لهم ولغيرهم ، ولاجبار الجميع ، بالخوف ، على البقاء داخل حظيرة الكاثوليكية .

وكان هذا النوع من المحاكم الدينية موجوداً منذ العصور الوسطى، وإستخدمتها الكنيسة ضد حركات الهرطقة ، وأى فكر حر قد يظهر . ولكنها ظهرت فى شكل جديد ، وبسلطات واسعة ، حين طلبت إسبانيا إلى البابا فى سنة ١٤٧٧ إنشائها فى بلادها لمحاكمة المسلمين واليهود هناك . وفى سنة ١٤٩٧ خرجت محكمة التفتيش الإسبانية من سيطرة روما المباشرة ، وأصبحت تحت سيطرة ملوك إسبانيا الكاثوليك . ولقد نالت هذه المحكمة سلطة وسمعة ، وأثبتت فعاليتها فى الإرهاب، حتى أن كنيسة روما فكرت فى إنشاء محكمة مماثلة فى مدينة روما ، وتكون داخل نطاق هذه الكنيسة . وهكذا أصدر البابا بول الثالث مرسوما فى سنة ١٥٤٢ بإنشاء محكمة مقدسة للكنيسة العالمية ، من ستة كرادلة، وكانت لها سلطات واسعة، وبصفة أعضائها من المفتشين فى كل أنحاء العالم الكاثوليكى . ثم زيد عدد أعضائها إلى أثنى عشر ، وأشرفت على ارسال المفتشين الكاثوليك الى كل مكان .

وكانت محاكم التفتيش تستخدم وسائل التعذيب ، لإجبار المتهمين على الإعتراف ؛ ولم تكن تواجه المتهم بشهود الإثبات ضده ؛ وكانت لا تخضع للحكومات التى تعمل فى أقاليمها . وبعد أن يلقى المتهم ألوانا من التعذيب ، وغالباً ما ينهار ، ويعترف بالجريمة خلاصاً لنفسه من العذاب ، تصدر محكمة التفتيش حكماً بأدانته ، دون أن تحكم عليه بالاعدام . ويسلم المتهم إلى السلطات الحكومية، ومعه حكم بإثبات تهمة الهرطقة عليه ، فتقوم السلطات الحكومية بحرقه حياً. وكان من الطبيعى أن تتم بعد ذلك عملية مصادرة أموال وأملاك المتهم ، لصالح الكنيسة وكانت محاكم التفتيش تختص كذلك بمراقبة المطبوعات ، ومراجعة الكتب التى يسمح بتداولها ؛ وكان من الضرورى الحصول على اذن مسبق منها قبل طبع أى كتاب ؛ أما ما عدا ذلك فكان يحرق .

ونجحت محاكم التفتيش فى القضاء على المذاهب البروتستانتية فى كل من ايطاليا

واسبانيا ؛ ولكنها ساعدت على زيادة روح التعصب الدينى ، واستخدمت العنف والتعسف للمحافظة على المسيحيين داخل نطاق الكنيسة الكاثوليكية . ولم تكن الحركة البروتستانتيه قد انتشرت فى إيطاليا ولا فى إسبانيا ، ولذلك فان نجاح محاكم التفتيش هناك كان نسبياً . أما فى شمال وغرب أوربا ، فان عمليات محاكم التفتيش ووسائلها قد دفعت بالبروتستانت إلى زيادة التمسك بموقفهم . ولذلك فان هذه المحاكم قد فشلت فى هذه المناطق ؛ ولم ينجح فى المحافظه على الكاثوليكية هناك سوى تطبيق قرارات مجمع ترنت ، وجهود اليسوعيين .

الباب الثامن

التغيرات في غرب أوربا
ووقف النمو الاسبانى

الفصل الثالث والعشرون

الحروب الدينية فى فرنسا

كانت سيطرة إسبانيا واضحة على القارة الاوربية . فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وبعد نهاية الحروب الإيطالية ورغم أن شارل الخامس قد ترك الإمبراطورية لأخيه ، إلا أن نصيب إبنه فيليب الثانى كان كبيراً : فكانت له السيطرة على إسبانيا والأراضى المنخفضه ونابولى فى جنوب إيطاليا ، علاوة على الإمبراطورية الاستعمارية فيما وراء البحار . وحين آل إليه عرش البرتغال سنة ١٥٨٠ ، أصبح فيليب الثانى يسيطر عليها ، وعلى إمبراطوريتها الاستعمارية المترامية الأطراف فى الشرق الأقصى ، وكذلك فى البرازيل . وكان فيليب الثانى متعصبا فى كاثوليكية ، ويعتمد على اليسوعيين ومحاكم التفتيش ، ولذلك فانه وضع نفسه ، وفى الأقاليم التى يحكمها ، فى مواجهة واضحة مع مذاهب الاصلاح الدينى . وكان نظام الامبراطورية الاسبانية نظاما إحتكاريا ، وفى عصر نمو الرأسمالية وظهور الشركات المتاجرة ، ولذلك فانه وجد أعداء كثيرين لنظامه الجامد . ومع تجمده ، حاول أن يدعم سلطته على الأراضى المنخفضة ، ويتدخل فى إنجلترا ، وكانت أنظاره تتجه صوب فرنسا التى كان يرغب فى إخضاعها لنفوذه ، ولسيطرته الكاثوليكية .وستكون هذه هى الميادين الثلاث التى ستتوقف فيها عملية نمو السيطرة الاسبانية، وفى أشكال متباينة : فرنسا، وهولندا، وإنجلترا ، وبشكل يمهد إسبانيا نفسها .

١ ـ الانقسام الدينى فى فرنسا :

ما أن إنتهت الحروب الايطالية فى سنة ١٥٥٩ ، حتى دخلت فرنسا فى عملية صراعات داخلية ، بين الكاثوليك والهيجونوت ، أى أنصار الاصلاح الدينى

داخل فرنسا . وإستمرت هذه الحروب الدينية طوال النصف الثانى من القرن السادس عشر تقريبا ؛ وهى وإن كانت قد وقعت على فترات ، إلا أنها إستنزفت، بعد الحروب الايطالية ، موارد فرنسا فى الرجال والأموال . ولاشك فى أن إستمرار الحروب ، فى الخارج والداخل ، قد أوقف التنمية ، وخرب كثير من المدن والمناطق ، وصرف فرنسا عن الاستمرار فى عملية الكشوف الجغرافية ؛ وهدد الوحدة الفرنسيه ذاتها ، بعد أن كانت قد بذلت الكثير من أجل الوصول إليها .

ولقد إنتشر مذهب الاصلاح الدينى فى فرنسا ، بعد نهاية الحروب الايطالية، ووفاة هنرى الثانى سنة ١٥٥٩ بشكل واضح . وعمل الهيجونوت ، الذين تعلموا فى جنيف . بكل همة ونشاط ، وأخذوا فى توزيع الأناجيل وكتب المزامير سراً ، وفى إجتماعات منزلية ، خاصة وأن عقوبة الهرطقة فى فرنسا كانت هى الموت حرقا . وهكذا تمكن الهيجونوت من أن يضموا إلى صفوفهم أنصاراً فى الجيش وفى برلمان باريس وكانت الكوارث التى تنزل بأنصار الاصلاح الدينى فى الأراضى المنخفضه ، أو فى إنجلترا على أيدى الملكة مارى ، تعطيهم شعوراً بالتضامن مع هؤلاء المضطهدين من أجل عقيدتهم ، وتزيد من حماسهم ، وتدفعهم إلى ضرورة الاصرار على موقفهم .

وفى مواجهة ذلك ؛ كانت الدولة نفسها كاثوليكية ، وكان يدعمها فى ذلك قوة إسبانيا ، المتفوقة بحراً ، وذات الكلمة العليا فى كل من الأراضى المنخفضة وإيطاليا ، وكانت سلطة العرش قد ضعفت فى فرنسا بعد هنرى الثانى . وتوالى على العرش ملوك ضعاف ثلاث هم : فرنسوا الثانى ، إبن هنرى الثانى وكاترين دى مدسيس ، وكان مريضا ؛ ثم شارل التاسع ، وكان ضعيف الأعصاب ؛ ثم هنرى الثالث ، وكان منحلا . ولذلك فان السلطة الحقيقية ظلت فى أيدى والدتهم . كاترين دي مدسيس ؛ وكانت إمرأة ، كما كانت أجنبية . وكانت

خطة هذه الملكة الوالدة هى التوصل إلى سلام دينى بين الكاثوليك والهيجونوت، يقوم على التوفيق بين أنصار المذهبين ، حتى تضمن إستمرار الحكم لأبنائها .

أما الأستقراطية العليا ، فكانت منقسمة على نفسها إلى ثلاثة مجموعات .
وكانت المجموعة الأولى هى مجموعة دوق دى جيز ، الذى كان قد أصبح معبود فرنسا ، بعد أن دافع عن ميتز ، وإستولى على كاليه من الانجليز . وكان معه أخوه رجل الدين ، صاحب اللورين ، وكردينال ريمز ، والذى كان أشد دعاة النظرية البابوية فى مجمع ترنت الدينى . وكانت هذه المجموعة تضم جندى فرنسا الأول ، وواحد من أكبر كراداتها . وكانت أخت دوق دى جيز قد تزوجت ملك إسبانيا ، وكانت الملكة الوالده كاترين دى مدسيس إبنة عمه ؛ وكان يسيطر على خمسة عشر أسقفية . ومرتبط بالأسر الحاكمة فى اسكتلندا واسبانيا ؛ ولذلك فانه كان أكبر سند للكاثوليكية فى فرنسا ، وتدعمه فى هذا الاتجاه كل من روما واسبانيا .

أما المجموعة الثانية فكانت هى مجموعة الهيجونوت ؛ وكان على رأسها كل من أنطوان ملك نافار ، وأخوه لوى دوق كونديه ، وحاكم بيكاردى ؛ وكان قد حصل من قبل على لقب حامى كنيسة فرنسا . وكان نفوذهما عظيما فى غرب فرنسا وجنوبها الغربى ، وإنضم اليها الكثير من نبلاء وأعيان هذه المناطق .

وأما المجموعة الثالثة فكانت فى وسط فرنسا ، وكانت بقيادة دوق ميمورنسى . وكانت مخلصة للكاثوليكية ، ولكنها كانت لاتحب الملكة ، ولا دوق دى جيز . وحدث انشقاق فى هذه المجموعة ، وأصبح جاسبار دى كولينى ، أميرال فرنسا ، وابن عم دوق ميمورنسى ، من أكبر قادة البروتستانت فى فرنسا .

ومع هذا الانقسام ، سيكون من السهل وقوع احداث ، بين هذه المجموعات وبعضها ، بناء على الانقسام المذهبى ، وعلى المنافسة السياسية ؛ أى طبقا للسلطة والمصلحة ، وتحت ستار دينى .

١ - الحروب :

ونتيجة لاعدام أحد المحامين من مذهب كالفن فى باريس ، وضع البروتستانت خطة لخطف الملك ودوق دى جيز فى أمبواز ، ولكن المؤامرة كشفت ؛ وقام دوق دى جيز بالقبض على دوق كونديه ، وحكم عليه باعدام . وفى أثناء ذلك الوقت توفى الملك ، وأصبحت كاترين دى مدسيس ؛ وصية على إبنها الثانى، شارل التاسع ؛ ففقد دوق دى جيز حظوته فى البلاط ، خاصة وأن كاترين ترغب فى إنتهاج سياسة العفو والتوفيق ؛ سراح كونديه ، وأصدرت عفواً عن الكلفنيين ، وعينت ملك نافار ياوراً للملك . ثم صدر مرسوم فى شهر يناير سنة ١٥٦٢ إعتراف للهيجونوت بممارسة شعائرهم الدينية ، بشروط خاصة .

ولكن النفوس كانت مضطرمة ، فهاجم الهيجونت بعض الكنائس ، وخربوا الصور ، وهدموا التماثيل الموجودة فيها ، وهاجموا رجال الدين ؛ فقامت قوات دوق دى جيز بقتل عدد من الهيجونوت ، أثناء تعبدهم ؛ فنشبت الحرب بين الفريقين ، وفى طول فرنسا وعرضها .

وكانت هذه الحروب مبعثرة ، هنا وهناك ؛ وكانت منقطعة ، نتيجة لاحتياج المتحاربين إلى الأموال والأسلحة ؛ كما أنها سمحت باشتراك عناصر غير فرنسية فيها ، ولقد ألتجأ الكاثوليك إلى إسبانيا ؛ فى الوقت الذى إتجه فيه الهيجونوت إلى انجلترا ، ووصل بهم الحد إلى وضع الهافر فى أيدى الانجليز ، ووعدوهم بثغر كاليه . أما بالنسبة للوثريين الألمان ، فانهم كانوا على اختلاف مع الكلفنيين ، أى الهيجونوت ؛ واذا كان هناك لوثريون شاركوا فى الحروب الدينية فى فرنسا ، فانهم شاركو إلى جانب الكاثوليك . وضد الهيجونوت .

وكان كل شيء يشير إلى انتصار الكاثوليك فى الحرب الأولى ، خاصة وأنهم قد استندوا إلى باريس ، وسيطروا على الملك والملكة ، واستعانوا بمجموعة من المرتزقة من ألمانيا واسبانيا ؛ الأمر الذى سمح لهم بالاستيلاء على روان ،

والانتصار على قوات كونديه وكولينى فى نورمانديا . ولكن دوق دى جيز قُتل أمام أسوار أورليان ؛ وتحول الأمر إلى مسألة « ثأر » بين المجموعتين .

وهدأت الحروب لعدة سنوات ولم يعرف البروتستانت كيف يفيدون منها . وفى سنة ١٥٦٥ ، تمت مقابلة بين كاترين دى مدسيس ، وإختها إيزبلا ، ملكة اسبانيا ، فى بايون ، والتى كان يصحبها دوق ألفا . وكان من المعروف أن كاترين كانت ترغب فى تزويج إبنتها مارجريت بدون كارلوس ، ابن فيليب الثانى ، ملك اسبانيا . ولكن هذه المقابلة تم فيها وضع خطوط التعاون الفرنسى الاسبانى ضد الثورة المعلنة فى الأراضى المنخفضة ؛ وسرعان مازحف جيش أسبانى بقيادة دوق ألفا على طول حدود فرنسا الشرقية إلى هولندا . وكانت تصحبه فرقة إستطلاع فرنسية . فثارت مخاوف كولينى ؛ أنشط محركى الهيجونوت ، وصمم على العمل ، وعلى تخليص البلاط الفرنسى من المؤامرات الاسبانية ، فعادت الحرب من جديد .

ونشبت الحرب الثانية ، ولم يفصلها عن الحرب الثالثة سوى صلح لونجيمو القصير الأمد سنه ١٥٦٨ . وفى هاتين الحربين ظهرت أهمية لاروشيل لأول مرة على أنها حصن بحرى بروتستانتى له قيمته ، يمكنه أن يصمد للحصار ؛ كما ظهرت قيمة هنرى نافار ، إبن أنطوان ملك نافار ، وهو الذى سيصبح هنرى الرابع فيما بعد ، باعتباره قائداً بروتستانتياً . ورغم سلسلة متلاحقة من الانتصارات الكاثوليكية ، وأسر كونديه ، ومذبحة جرناك ، وتغطية ساحة مونكنتور بجثث ستة آلاف من الهيجونوت ، إلا أن النصر النهائى فى هذه الفترة كان فى جانب كولينى . ولقد قام هذا القائد بالإنسحاب من اللوار صوب الجنوب ، وكون جيشاً جديداً زحف به على باريس ، حيث وجد البلاط منزوع السلطة ، وشارل التاسع مستعد للتفاهم ؛ فانتزع لنفسه السيطرة على سياسة فرنسا ، ووقع معه على صلح سان جرمان .

٢ - صلح سان جرمان .

إعترف صلح سان جرمان ، المعقود فى شهر أغسطس سنة ١٥٧٠ ، بأهمية مجموعة الهيجونوت كهيئة ذات مصالح خاصة لها كيانها فى فرنسا . وسمح للنبلاء منهم بأن يقيموا الصلوات ، طبقاً لمذهبهم ، فى قلاعهم ، ولكل من يرغب فى حضورها ؛ ونص على بقاء شعائر العبادة البروتستانتية فى كل المدن التى تمارس فيها ؛ وفى مدينتين من مدن كل مقاطعة . ووضعت فى أيديهم ، ولمدة سنتين ، أربع مدن ، هى لاروشيل ، ومنتوبان وكونياك ولاشاريتيه .

وهكذا تمكن الهيجونوت من إستعادة نفوذهم؛ وعمل كولينى على أن يضمن حماية البروتستانت فى فرنسا ، عن طريق إشعال الحرب ضد اسبانيا فى الأراضى المنخفضة. فحاول إقامة حلف من فرنسا وانجلترا وهولندا وتوسكانيا والبندقية، لإقرار السلام فى البلاد ، ومحاولة ضم الفلاندر وآرتوا إلى أملاك فرنسا . ووقع كولينى على معاهدة بلوا الدفاعية مع انجلترا ، من أجل ذلك ، فى ١٩ أبريل سنة ١٥٧٢ . وقام الهيجونوت ، فى نفس الوقت ، بترتيب أمر زواج الأميرة مرجريت فالوا ، أخت الملك ، هنرى نافار .

وأثار كل ذلك الملكة الوالدة ، كاترين دى ميدسيس ، وكانت تعلم أن غالبية البلاد لاتزال كاثوليكية ، رغم أن ثلثى النبلاء كانوا قد تحولوا إلى البروتستانتية . وكان من الصعب أن توافق انجلترا ، لفترة طويلة ، على ضم الفلاندر لفرنسا . وقررت الملكة الوالدة ضرورة التدخل ، عن طريق إغتيال كولينى ؛ ولكن هذه العملية فشلت،فقررت ضرورة اغتيال أكبرعدد من زعماء ورؤساء الهيجونوت. وتم ذلك فى يوم ٢٤ أغسطس، يوم القديس بارثلميو ، فى سنة ١٥٧٢ ؛ وكانت مذبحة فى باريس ، قتل فيها مايتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف من الهيجونوت . وأرسلت رأس كولينى إلى البابا ، الذى فرح بها ، وأرسل وردة ذهبية إلى

الملك ، وأمر بنقش ميدالية ذهبية لهذه المناسبة . أما فيليب الثانى، ملك أسبانيا، فانه رأس صلاة شكر لهذا النصر الكاثوليكى العظيم .

ولكن تزايد أهمية أسرة جيز ، كان يمثل خطراً تجاه الملك ، خاصة وأنه كان قد سايرهم لفترة من الوقت ؛ فربما يتدخلوا ، مستندين إلى أهالى باريس ، لعزله وإنتزع الملك منه . ولقد حدثت محاولة لذلك سنة ١٥٧٤ . وهكذا كانت مذبحة سان بارثلميو سبباً فى حرب جديدة بين الكاثوليك والبروتستانت فى فرنسا . وتحدى الهيجونوت القوات الملكية ، وإتخذوا لاروشيل فى الغرب مركزاً لهم ، واتصلوا بانجلترا ، وتعاون معهم لفترة من الوقت الأخ الأصغر للملك .

ومن ناحية أخرى ، كان الملك والملكة الوالدة مستمران فى عرض السلام والهدنة على الهيجونوت ، فى كل مناسبة ؛ ولكنهما قاما ، فى سنة ١٥٧٦ ، بالتشدد فى موقفهما ؛ وتكون إتحاد كاثوليكى ، يسمى « العصبة » تحت رعايا البابا ، ملك اسبانيا ، من أجل تدعيم ركائز العقيدة الكاثوليكية فى فرنسا .

ولكن الأخ الأصغر للملك ، والإبن الأصغر لكاترين دى ميديسيس ، توفى فى سنة ١٥٨٤ ؛ ولم يكن للملك إبناً ، الأمر الذى جعل هنرى نافار هو الوارث للعرش ؛ وكان بروتستانتيا . وأعطى ذلك قوة لرجال دوق دى جيز، واليسوعيين، الذين سيطروا على شئون الدوله ، حتى لاتقع السلطة فى أيدى البروتستانت ؛ ووصل بهم الحد إلى تحدى سلطة الملك نفسه ، حتى فى عاصمته باريس . فاضطر الملك إلى استخدام سلاح المؤامرات ضدهم ، ورتب أمر إغتيال كل من دوق دى جيز ، وأخيه كاردينال اللورين فى نهاية سنة ١٥٨٨ . ثم قامت « العصبة » بعد ذلك بعزل الملك هنرى الثالث ؛ فى الوقت الذى كانت لاترضى فيه بتولى هنرى أمير نافار ، وهو بروتستانتى الحكم . ثم إغتيل هنرى الثالث فى أول أغسطس سنة ١٥٨٩ ، فدخلت الحروب الدينية فى دور صراع بين العصبة ، وبين هنرى نافار .

٤ ـ هنرى الرابع :

شكلت العصبة لجنة من ستة عشر عضواً لحكم باريس برئاسة دوق مايين ، الأخ الأصغر لدوق دى جيز ، وأجبرت باريس على ان تعيش فى ظل جو من الإرهاب . وكان النبلاء لايقبلون أن تحكم فرنسا أميرة إسبانية ، ولا حكم نبيل فرنسى ينتخبه مجلس طبقات الأمة ، ولذلك فإنهم إلتقوا حول هنرى نافار . وكان إصرار اللجنة التى تحكم باريس على أن يظل مذهب الملك كاثوليكيا يجبر هنرى نافار على أن يعلن رجوعه إلى الكاثوليكية ، حفاظاً على المملكة ، أكثر من كونه جريا وراء العرش . ولذلك فإنه أعلن تخليه عن البروتستانتية ، وأجبره تعصب الأهالى بعد ذلك على أن يبقى ثمانية شهور خارج باريس ، قبل أن يدخلها . وسيرسم بإسم هنرى الرابع ، وكان أول أسرة البوربون ، بعد أن إنتهى حكم أسرة فالوا .

وأظهر هنرى الرابع أنه يهتم بسعادة ورخاء شعبه ، وإستخدم وزيراً بروتستانتيا ، وهو سوللى ، وعمل على قمع الفوضى وتحسين الزراعة ، وترويج التجارة ، وإعادة السلام والإطمئنان إلى بلد لم يعرف السلم منذ قرن من الزمان .

ومنذ أول حكمه ، واجهت هنرى الرابع مشكلتان عويصتان : الأولى هى الوجود الاسبانى ، والثانيه هى مشكلة الهيجونوت . ولقد تمكن من أن يطرد ، بمساعدة الملكة اليزابيث ، جيشاً إسبانيا من إميان ؛ وأجبر إسبانيا ، بمعاهدة فرفان سنة ١٥٩٨ عن التخلى عن كاليه وبلافيه فى بريتانى ، واللتين كانت إسبانيا قد إستولت عليها بصفتها حليفة للعصبة الكاثوليكية .

أما مع الهيجونوت ، فإن الضرورة كانت تحتم الاتفاق ؛ وكانوا قد تحدوا المملكة لمدة ثلاثين عاما ، ولهم جيوش بلغت قوتها ٢٥,٠٠٠ مقاتل . وتمكن هنرى الرابع أن يحل هذه المشكلة بمرسوم نانت ، الذى جاء أعلانا عن التسامح . ومنحت هذه التسوية الهيجونوت حرية العبادة فى قلاع النبلاء ، وفى أماكن

نصت عليها ، ومنحتهم المساواة فى الحقوق المدنية والحماية القانونية ؛ ومنحتهم حق وضع حاميات فى أكثر من مائة مدينة محصنة ، بما فى ذلك لاروشيل وسومير ومونبلييه . والواقع أن هذه التسوية سمحت بوجود دولة هيجونوتية صغيرة ، بجيشها وقلاعها وحكومتها ، تعيش داخل فرنسا ؛ وجاءت شاهدا على التسامح الدينى ، فى الحياة الدستورية لفرنسا ، قبل أن يتم الاعتراف بنفس الوضعية فى إنجلترا ، أو ألمانيا ، وبوقت طويل .

ولقد دخلت فرنسا ، فى عهد هنرى الرابع، فترة إزدهار واضح فى تاريخها ، سواء أكان ذلك فى الزراعة ، أو التجارة ، أو الصناعة . ولكن هنرى الرابع أخطأ فى أنه لم يستند فى حكمه إلى مجلس طبقات الأمة ؛ كما أنه أخطأ من جديد بموافقته على عودة اليسوعيين ، الذين كانوا قد طردوا من فرنسا سنة ١٥٩٤ . ونتج عن تسامحه فى إعادة اليسوعيين أن زاد نفوذهم فى البلاط ، وتأثيرهم على التعليم ، وكانوا متعصبين ؛ الأمر الذى أدى إلى طرد الهيجونوت، ونقض مرسوم نانت ، الذى كان أعظم عمل قام به هنرى الرابع فى فرنسا .

الفصل الرابع والعشرون

نشأة جمهورية هولندا

كانت هولندا ، مع بقية الأراضى المنخفضة ، خاصة لحكم إسبانيا ، التى تميزت بقوتها طوال القرن السادس عشر . ومع ظهور مذاهب الاصلاح الدينى ، وإنتشارها فى الأراضى المنخفضة ، زادت إسبانيا من وسائل تحكمها هناك ، وإستخدمت محاكم التفتيش ، كما إستخدمت سياسة القمع العسكرى ، بحملات منظمة وقوية . وكانت هناك عوامل أخرى ، سياسية وإقتصادية ، أدت إلى أن تقوم الثورة فى الأراضى المنخفضة ، وتقف فى وجه التحكم الإسبانى ، وإلى أن تصل فى نهاية الأمر إلى الاستقلال ، وإنشاء جمهورية هولندا . وكانت هذه ضربة قوية أصابت إسبانيا ، وعملت على وقف نموها .

١ - إسبانيا وقوتها :

كانت إسبانيا ، وقت الاصلاح الدينى البروتستانتى ، هى أكبر نصير للكاثوليكية فى أوربا . وكانت سلطة الكنيسة والرهبان ومحاكم التفتيش مسيطرة عليها . وكان فيليب الثانى كاثوليكيا متعصبا ، وتجمد تفكيره داخل نطاق الكاثوليكية ، ومحاربته لمذاهب الاصلاح الدينى ، وبشكل جمله يقف ضد تيار فكرى وعقائدى قوى زاخر ، ساير التحرر ، وساير التطور المادى والاجتماعى الذى أصاب المجتمع. ولقد إعتمد فيليب الثانى على جيش قوى،هو أقوى جيوش أوربا فى ذلك الوقت ، وكان هذا الجيش قد تمرن على العمليات فى الحروب الإيطالية ، وأصبح يضم أشهر وأكفأ قادة أوربا العسكريين فى ذلك اوقت . كما إعتمد على أسطول قوى كان يعمل فى كل من البحر المتوسط والمحيط الأطلسى.

وكان الأسطول الاسبانى ، فى البحر المتوسط قد أثبت جدارته أمام رؤساء البحر المغاربة ، وفى هجماته على مدن شمال إفريقية ، ووجه ضربة قوية للأسطول العثمانى فى موقعة ليبانتو سنة ١٥٧١ ؛ وكان هذا الأسطول يعتمد على وحدات واطئة ، تعمل بالمجاديف ، وتعتمد على الالتحام مع سفن وبحارة العدو ، بالأيدى والخناجر والسواطير . أما أسطول المحيط الأطلسى ، فكان يضم « الغلايين » ، وهى سفن كبيرة ومرتفعة ؛ وسيكون من الصعب عليها منازلة القطع الصغيرة الواطئة ؛ وكذلك مواجهة السفن المماثلة التى تفوقها فى تسليح جوانبها بالمدفعية .

ورغم إتساع ممتلكات إسبانيا ، فإن ميزانيتها كانت ضعيفة: فكانت الحروب تكلفها الكثير ؛ وكانت أملاك الكنيسة لا تدفع الضرائب ؛ أما الثروات التى كانت تجمع فى بيرو والمكسيك ، فكان الكثير منها ينهب ، ولا يصل إلا القليل منها لخزانة الملك . وكان النظام الاسبانى الاستعمارى مليئاً بالمتناقضات : ذلك أن إسبانيا حرمت ممتلكاتها ، فى ظل نظام إحتكارى — التعامل مع غير الاسبانيين ، فى الوقت الذى عجزت فيه إسبانيا عن مد المستعمرات بما يلزمها ، فأدى ذلك إلى إنتشار التهريب من ناحية ؛ وانتهاج الدولة لسياسة الاستمرار فى فرض ضرائب جديدة ، وهى مكروهة ، من ناحية أخرى ولذلك فإن إسبانيا اعتمدت على ممتلكاتها فى أوربا ، لتزويدها بالإيرادات . وكانت أملاك إسبانيا فى جنوب إيطاليا ، فى نابولى ، فقيرة ، فوقع العبء بأكمله على الأراضى المنخفضة .

وكانت أنتورب من أغنى المدن المتاجرة فى العالم فى ذلك الوقت، وأصبحت من أهم مراكز المعاملات الدولية . وتفوقت على بروج وجاند ، كما تفوقت على الفلاندر فى العمليات المصرفية . وكانت أمستردام ، وهى من مدن الجامعة الهنسية ، قد تقدمت وعاشت فى رخاء . ولذلك فان الأراضى المنخفضة كانت هى المركز المالى للامبراطورية الاسبانية ، خاصة وأنها كانت توزع السلع

التى تأتى من المستعمرات الإسبانية فى العالم الجديد على كل أنحاء أوربا الشمالية .

وكانت الملكة مارى ، ملكة انجلترا ، زوجة لفيليب الثانى ، ملك إسبانيا . وكان فيليب يقدر أهمية التعامل التجارى بين انجلترا وممتلكاته فى الأراضى المنخفضة ، ويقدر أهمية إنجلترا بالنسبة لإسبانيا . كدولة حليفة ؛ وكان يعلم خطورة معاداة إنجلترا لإسبانيا ، إذ كان فى وسعها عرقلة مواصلاته البحرية مع الأراضى المنخفضة . وستزيد هذه الخطورة وضوحاً حين تتولى الملكة اليزابيث عرش إنجلترا ، خاصة وأنها إختارت المذهب البروتستانتى ، فى الوقت الذى كان فيه فيليب الثانى كاثوليكيا متعصبا ، وعلى أى حال فإن فيليب الثانى كان يوافق على أن تتحول إنجلترا فى عهد اليزابيث إلى المذهب البروتستانتى ، وتنشر هذا المذهب فى اسكتلندا ، على أن يتمكن ملوك اسكتلندا وفرنسا ، وأمراء الأراضى المنخفضة من التكتل جميعهم ، وهم كاثوليك ، ضد إسبانيا الكاثوليكية .

٢ ـ التحكم الاسبانى فى الاراضى المنخفضة :

وكانت إسبانيا تتحكم فى الأراضى المنخفضة ، وكانت دوقة بارما ، وهى ابنه غير شرعية لشارل الخامس ، هى نائبة فيليب الثانى فى حكم الأقاليم السبعة عشر هناك . وكان تدخل إسبانيا المستمر ، بتعليمات سرية ، للعمل ضد الهرطقة فى الأراضى المنخفضه ، يعمل على إثارة المشاكل أمام الحكم الإسبانى هناك ، ويظهره أمام الأهالى فى شكل كريه . وكانت المقاطعات قد حصلت على بعض الحقوق والامتيازات ، وأصبح أهلها يمقتون وجود قوات اسبانية لديهم ، ويخشون من فظائع الاضطهاد الدينى الكاثوليكى . وجاء مشروع إنشاء أربعةعشر أبروشية هناك لكى يزيد خوفهم من إمكانية إدخال محاكم التفتيش كذلك .

ووقع صراع بين الكردينال جرنفل ، رئيس مستشارى نائبة الملك ، وبين

عدد من النبلاء ؛ وبخاصة اجمونت ، الذى كان قد انتصر فى سان كانتان ، ووليم ناساو ، أمير أورانج ؛ وانتهى بفوزهما عليه ، ولكن فيليب الثانى قرر أن يكون سحبه لجرنفل من هناك سنة ١٥٦٣ ، مرتبطاً بالقضاء على « حركة الهرطقة » . واصدر إلى سكان الأراضى المنخفضة ، فى ١٨ أغسطس سنة ١٥٦٤ ، أمراً بضرورة الالتزام بقرارات مجمع ترنت ؛ هذا بالاضافة إلى الرعب الذى أشاعته محاكم التفتيش ، والتطبيق الصارم للقرارات الصادرة ضد الهرطقة . وأمام ذلك ، أصدر مجلس نائبة الملك ، وبتوجيه من الأمير أورانج ، احتجاجاً رسمياً على هذه المظالم وغيرها ، وحمله اجمونت بنفسه إلى فيليب الثانى ، فى شهر يناير سنة ١٥٦٥ . ولم تؤد بعثة اجمونت إلى نتيجة إيجابية ، فتحتم الصدام .

٣ ـ الثورة والحرب :

وثارت النفوس نتيجة لإصرار حكومة إسبانيا على استخدام الشدة ، وتصميمها على عدم التراجع، ولا حتى مقابلة أبناء الأراضى المنخفضة فى منتصف الطريق . وتعاهد كثير من النبلاء الشبان ، من كالفنيون وحتى كاثوليك ، على ضرورة مقاومة محاكم التفتيش ؛ وكانوا قد وضعوا « حلا وسطاً » ، وصمموا على عدم التراجع عنه . أما فيليب الثانى فإنه أخذ يدبر الأمر فى كل برود ، من إسبانيا .

ولكن فيليب الثانى أخطأ ؛ إذ أن كل من اجمونت وأورانج كان قد ساعده على توطيد الأمن فى هذه الأقاليم وقت الاضطرابات الأخيرة ؛ ولكنه استند إلى تقارير نائبته التى وشت بهم ، وأن الجماهير تهتف لهم ، وقرر أن يتخلص منهم . وبدلا من أن يحاول إيجاد حل طبيعى للمشكلة القائمة ، أرسل دوق ألفا ، أشهر وأحسن وأعنف قواده، على رأس جيش من المرتزقة الاسبان والإيطاليين، لسحق المراطقة فى الأراضى المنخفضة ، وللتخلص من هؤلاء القادة . وإذا كان

أورانج قد تمكن من الانسحاب إلى ألمانيا ، إلا أن اجمونت وهورن وقعا فى أيدى الاسبان ، وقطعت رأسها فى ميدان عام فى بروكسل ، فى شهر يونيو سنة ١٥٦٨ . فرفعهم فيليب الثانى إلى مستوى الشهداء .

ولقد استمر دوق ألفا ، لمدة ست سنوات ، يعمل جاهداً على كبت الثورة . وأعلن أن الأمير أورانج خارج على القانون ، ولكن ذلك دفع بالأمير إلى مواصلة عملياته ضد الإسبانيين ، وإذا لم يتمكن فى منازلتهم فى معركة مصفقة ، فإنه كبدهم خسائر جسيمة . ولقد إضطر دوق ألفا ، لكى يواجه النفقات العسكرية ، إلى فرض ضرائب باهظة على الأهالى ؛ الأمر الذى ساعد على زيادة التذمر فى ذلك المجتمع الذى يتكون من تجار ، ودفع الكاثوليك إلى ترك جانب الإسبانيين حين فرضت عليهم ضريبة جديدة تبلغ ١٠٪ ؛ الأمر الذى أدى إلى إتحاد أبناء الأراضى المنخفضة جميعاً ضد « المحتلين الأجانب » . وكان الكثير من أبناء الأراضى المنخفضة يعملون فى البحر ، فاتخذوا البحر ميداناً أكثر نجاحاً لهم من البر فى عملياتهم ضد الاسبانيين . وكانوا يعلمون أنهم فقراء ، وسموا أنفسهم بالشحاذين ؛ وكانوا قراصنة ؛ وتمكنوا بتشجيع من الانجليز ، البروتستانت مثلهم ، وبتشجيع من جانب الملكة اليزابيث ، من مهاجمة السفن الاسبانية فى كل مكان . ثم تمكنوا بعد ذلك من الإستيلاء على مدينة بريل سنة ١٥٧٢ ، ثم على بعض المدن الأخرى ، ودعوا وليم أورانج لكى يقود ثورتهم . وكانوا يدافعون عن مدنهم ببسالة أمام هجمات قوات دوق ألفا .

وزادت الأهوال التى إرتكبها رجال دوق ألفا . فاستدعته إسبانيا . ثم توفى القائد الثانى بعده ، مما أفسح المجال أمام الأمير أورانج ، ولكن خزانته كانت خاوية ، وكانت دولته الكلفنية الصغيرة ، ضعيفة ، وصدته الملكة اليزابيث بعد أن عرض عليها السيادة على مقاطعاته الشمالية . ولكن سرعان ما تطور الموقف

فى صالحه ، ذلك أن القوات الاسبانية الموجودة فى مقاطعات الجنوب أعلنت عصيانها ، نتيجة لتأخر دفع رواتبها ، ثم تحولت إلى عصابات أخذت فى السلب والنهب حتى مشارف بروكسل . فاستولى الفزع على الأهالى وإنتهز أمير أورانج هذه الفرصة ، ودخل فى مفاوضات مع ولايات الفلاندر وبرابانت ، باسم هولندا وزيلندا ، ومن أجل إخراج الأجانب ، وتسوية المسألة الدينية . ثم قام الإسبان بما يسمى « بالانتقام الاسبانى » حين أعملوا السلب والنهب فى مدينة أنتويرب . فزال تردد أهل الجنوب ، وتم وضع تسوية جاند سنة ١٥٧٦ . وتكاتفت المقاطعات الشمالية البروتستانتية ، والمقاطعات الجنوبية الكاثوليكية ، فى اتحاد سياسى لمواجهة الخطر المشترك . وحين وصل الحاكم الاسبانى الجديد ، دون جوان النمسوى ، وكان من المنتصرين فى معركة ليبانتو ، وجد أن البلاد مجمعة على ضرورة خروج القوات الأجنبية ، واحتفاظ المقاطعات بالمواثيق والحريات التى حصلت عليها ، فاضطر دون جوان إلى أن يوافق على ذلك .

وفى مواجهتهم لخطر الوجود الاسبانى ، كان الأهالى ، فى الشمال والجنوب ، قد نسوا مشكلة أساسية تفرق بينهم ، وهى مشكلة المذهب الدينى ، وسرعان طرحت المسألة : فثار الكلفنيون فى جاند على حكومتهم ، وسجنوا أحد الأدواق الذى كان من قادة الكاثوليك فى الجنوب ، فثارت الحرب المذهبية . وفى ذلك الوقت نزلت قوات دوق بارما ، وكانت تتكون من عشرين ألف مقاتل ، إلى الأراضى المنخفضة ، وتمكنت من هزيمة الثوار فى موقعة جمبلو سنة ١٥٧٨ ، وضمنت بذلك عودة المقاطعات الجنوبية ، الكاثوليكية ، إلى إسبانيا .

وهكذا تم الفصل بين هولندا وبلجيكا ، وبعد أن كان دوق ألفا قد سحق برتستانت الجنوب ، عمل دوق بارما على عدم عودتهم إلى هناك ، وأقام الكاثوليك فى الجنوب ، إتحاد آراس ، فقام أورانج فى سنة ١٥٧٩ بعمل إتحاد أوترخت بين البروتستانت فى الشمال .

ولقد أعلنت الامبراطورية أن أمير أورانج خارج على القانون ؛ ولكنه تمكن فى ٢٦ يوليو سنة ١٦٨١ من أن يجمع ممثلوا برابانت والفلاندر وأوترخت وجلدر لاند وهولندا وزيلندا فى لاهاى ، ووقعوا وثيقة أقسموا فيها على خلع ولائهم للتاج الاسبانى . وأغتيل الأمير أورانج سنة ١٥٨٤ وهو فى سن الحادية والخمسين من العمر ؛ ولكنه كان قد أتم صنع دولة ، ستتفوق على البحار ، وتنشىء امبراطورية غنية فى الشرق ، وتقف فى وجه أساطيل انجلترا ، وجيوش فرنسا .

٤ ـ الجمهورية :

وكانت هذه الدولة الجديدة عبارة عن اتحاد من سبع جمهوريات صغيرة ذات سيادة ، لكل منها برلمانها المحلى ، وحاكمها التنفيذى المنتخب ، وحقها فى المشاركة فى الاشراف على مالية الاتحاد وسياسته الخارجية . وكان للاتحاد مجلس نواب ، ينظر الشئون التى تهم الاتحاد كله ، ويعين القائد العام للجيش ، والقائد العام للاسطول .

وفى الوقت الذى إغتيل فيه الأمير وليام أورانج ، كان دوق بارما فى أوج إنتصاره ، فسقطت مدن الفلاندر وبرابانت فى يديه ، وإحتل بروكسل وأنتورب ، وهدد بتحطيم معاقل البروتستانتية فى الشمال ، فى هولندا وزيلندا . ولكن جيشاً إنجليزياً صغيراً أرسلته الملكة اليزابيث إلى هناك ، بقيادة ليستر ، بث الحماس بين الأهالى . وأخطأ دوق بارما ، وأخذ فى جمع جيش لغزو انجلترا ، ولكن تحطيم الأرمادا بدد آماله . ثم أخطأ من جديد ، حين ذهب إلى فرنسا لتأييد الكاثوليك ضد الهيجونوت ، ولينقذ باريس ، وكان عليه أن يسيطر على أمستردام . وبدلا من احتلال هولندا ، احتل روان . وتوفى سنة ١٥٩٢ دون أن يحقق شيئاً .

ولقد قام كل من موريس ناساو ، بن وليم أورانج ، وابن عمه وليم ناساو ،

بإنشاء جيش يمكنه أن يهزم الإنسان فى معركة مكشوفة ؛ وتمكن موريس فى أربع معارك رائعة حتى سنة ١٥٩٧ من أن يحرر أرض المقاطعات المتحدة . كما تمكنت البحرية الهولندية من أن تثبت تفوقها على الأسطول الاسبانى، بانتصارها عليه فى جبل طارق سنة ١٦٠٧ ، مما أجبر الاسبانيين على التفكير فى طلب الصلح .

وكانت هناك عقبات فى سبيل ذلك ، وهى الاستقلال ، والدين ، والتجارة ؛ فظهر استحالة عقد الصلح بين الطرفين ، إلا أنه عقدت بينهما هدنة فى أنتوير ب فى ٩ أبريل سنة ١٦٠٩ ؛ ولمدة اثنا عشر عاماً . وإذا كان موضوع الدين لم يذكر، إلا أن الهولنديين حصلوا من الاسبانيين على اعتراف باستقلالهم ، وبحقهم فى المتاجرة فى المياه الاسبانية .

وهكذا اعترفت إسبانيا بعجزها عن قهر الهولنديين ، وأوقف النمو الاسبانى ، ولأول مرة . وكانت إسبانيا قد وجهت مجهودها ضد الملكة اليزابيث ملكة انجلترا ، وضد هنرى الرابع ، ملك فرنسا .

الفصل الخامس والعشرون

الحرب بين إنجلترا وإسبانيا

كان الإختلاف فى التكوين والإختلاف فى الأهداف ، بين إنجلترا وإسبانيا ، سبباً فى وقوفها الواحدة فى مواجهة الأخرى. وبعد أن تدعم المذهب البروتستانتى فى إنجلترا فى عهد اليزابيث ، إزدادت المنافسة بين الدولتين وتراكمت المشكلات المادية والمعنوية ، لكى تصل إلى مرحلة الحرب بينها ، وفى صالح إنجلترا ، وضد مصلحة إسبانيا ، التى تحطم أسطولها الكبير ، الأرمادا ، على أيدى بحارة إنجلترا. وكانت ضربة قوية لإسبانيا،أكدت وقف سيطرتها،ومهدت لإنهاء هذه السيطرة ، وهزيمة إسبانيا نفسها قبيل منتصف القرن السابع عشر ، مع صلح وستفاليا ، عند نهاية حرب الثلاثين عاماً .

١ - الملكة اليزابيث وتدعيم البروتستانتية :

كان فيليب الثانى ، ملك إسبانيا ، قد إرتبط بإنجلترا ، مع زواجه من الملكة مارى . وحين دخل فى صراع من أجل فرض حكمه، وفرض المذهب الكاثوليكى على الأراضى المنخفضة ، كان يعرف جيداً قيمة إنجلترا بالنسبة له ، كحليف وصديق. وذكرنا أنه كان يعرف قيمة التجارة الإنجليزية بالنسبة لرعاياه للفلمنك، والنتائج السيئة التى قد تترتب على وقف هذه التجارة . وكان يعلم كذلك أنه إذا ما ناصبته إنجلترا العداء ، فى وسعها أن تعرقل مواصلاته البحرية مع الأراضى المنخفضة ؛ وعلى العكس من ذلك يمكنها أن تحمى هذه المواصلات إذا ما كانت بينهما علاقات ودية . ومع ذلك فإن النزعة التى سيطرت على فيليب الثانى كانت هى تعصبه للمذهب الكاثوليكى ، وسيكون لذلك تأثير كبير عليه ، حين تعتنق انجلترا المذهب البروتستانتى .

وحين وصلت اليزابيث إلى عرش إنجلترا ، كانت البلاد قد عانت الكثير على أيدى أختها ، مارى الكاثوليكية ، حين عملت على إعادة البلاد إلى حظيرة الكنيسة الرومانية. ووجدت اليزابيث أن جزءاً كبيراً من شمال إنجلترا لا يزال كاثوليكياً، وكان هناك جيشاً فرنسياً كاثوليكياً يعسكر فى جنوب إسكتلندا ، وكانت إيرلندا كاثوليكية . ورغم ذلك فان اليزابيث صممت على أن تكون هى ، وإنجلترا ، بروتستانتية .

ولقد أظهرت حكومة إنجلترا تعقلا سياسياً واضحاً فى السنوات الأولى من حكم اليزابيث . بحيث أنها تمكنت من إجراء التغييرات اللازمة ، دون أن تتورط فى حرب أوربية . وهكذا أقيمت كنيسة إنجلترا على أساس قومى ، دون أن يؤدى ذلك إلى إضطرابات داخلية . وأرسلت جيشاً إلى اسكتلندا ، هزم الجيش الفرنسى الكاثوليكى الذى كان موجوداً هناك ، ومهد السبيل لمجىء دعاة الديانة البروتستانتية ، وكان أول جيش إنجليزى يدخل إسكتلندا ؛ وأعطت معاهدة أدنبرة نتائج هامة فى تاريخ الجزر البريطانية، بوضعها أسس الإتحاد بين الإقليمين ، وفى نطاق الإصلاح البروتستانتى فى جنوب إسكتلندا . وتم ذلك فى وقت كانت فيه فرنسا مشغولة بالحروب الدينية فيها، وقامت إنجلترا علاوة على ذلك بمحاولة لتقديم العون للثوار فى فرنسا ، لكى تموه على عمليتها الجريئة ضد إسكتلندا .

وكانت الملكة اليزابيث تعلم إنصراف جزء من الأهالى عن حب إختها ، نتيجة لزواجها من أجنبى ، هو فيليب الثانى ملك إسبانيا ، ولذلك فإنها صممت على أن تكون إنجليزية قبل أى شىء آخر ؛ وضحت بمشروعات زواجها من أى أمير أو ملك أجنبى ، حتى تكرس نفسها لخدمة إنجلترا . وحتى إذا كانت بعض الإشاعات قد حاولت النيل من سمعتها ، إلا أن ذلك لا ينفى كونها ملكة عظيمة لإنجلترا .

وعملت اليزابيث على تدعيم الكنيسة الانجليزية الجديدة بمنتهى البراعة. وسلمياً، فلم يحرق أحد من خصومها ، وعاملوا الأساقفة الذين جردوا من ممتلكاتهم بكل إحترام . ورغم أن البرلمان أقر قانون اوحدة الدينية ، إلا أن هذا القانون لم يطبق بشكل يجعل إعتناق المذاهب الدينية المخالفة أمراً خطيراً . وأدخلت بعض التعديلات الطفيفة على كتب الطقوس الكنسية،التى وضعت على نماذج كاثوليكية ، وإن كانت حكومة الكنيسة أسقفية ، و نصوص عقيدها كلفنية إلى حد بعيد.وكان هذا « التوفيق » يلقى قبولا من جماهير الانجليز.وحين قام لوردات الشمال بحركة عصيان كاثوليكية سنة ١٥٦٩ ، وبعد إحدى عشر عاما من جلوس اليزابيث على العرش ، كانت البروتستانتية قد إنتشرت فى جنوب إسكتلندا . وحتى فى سنة ١٥٧٠،وحين أعلن البابا حرمان اليزابيث وأعلن عزلها ، كان الكاثوليك الانجليز لا يعرفون غيرها يعطونه ولائهم .

وحتى فيليب الثانى الكاثوليكى المتعصب ، فانه نظر إلى إنجلترا وقت وصول اليزابيث إلى العرش ، وإعتناقها المذهب البروتستانتى ، على أنها بلد يمكن كسبه ومصالحته.ولم يكن فيليب يفكر فى مهاجمة إنجلترا البروتستانتية،ورحب بتحطيمها للجيش الفرنسى الموجود فى جنوب إسكتلندا ، وفضل ذلك على إمكانية إتحاد إنجلترا واسكتلندا وفرنسا تحت حكم مارى ، ملكة الاسكتلنديين ، التى ستكون منافسة خطيرة له بهذا الشكل.وهكذا ثبت أن المصلحة ، وفكرة التوازن الدولى ، كانت أقوى من التعصب المذهبى فى هذا العصر . ولم يقف فيليب الثانى فى مواجهة أخت زوجته ، اليزابيث الهرطيقة ، حين سيطرت بمذهبها الدينى على إسكتلندا . هذا علاوة على مواجهة فيليب الثانى لصعوبات نشأت ضد حكمه فى ذلك الوقت للأراضى المنخفضة ، كما سبق شرحه .

٣ ـ المنافسة التجارية بين إنجلترا وإسبانيا :

وإذا لم يكن الاختلاف المذهبى بين إنجلترا وإسبانيا هو سبب الخلاف الذى

وقع بينهما ، فإن سبباً آخراً ، اقتصادياً ، كانت له فعالية كبيرة . وكان ذلك هو حب المال والمغامرة والتجارة ، الذى دفع الانجليز ، الذين إعتادوا ركوب البحر ، إلى تحدى ومحاولة تحطيم النظام الاحتكارى الذى حاولت إسبانيا أن تحتفظ به فى العالم الجديد وجزر الهند الغربية . حقيقة أن هذا العامل المذهبى قد عمل على تقوية « تلوين » هذه المنافسة فى أول أمرها بلون العداء الدينى ، ولكنه كان تنافس إقتصادى واضح . وسيؤدى ذلك الاتجاه إلى أن يعمل بحارة إنجليز بدافع من أنفسهم ، وتعطف عليهم الملكة ، وتغض الطرف عن نشاطهم من أجل المشاركة فى تجارة العالم الجديد .

وإذا كانت حكومة إنجلترا قد حافظت على حذرها ، فإن رجال البحر الانجليز قد إستمروا فى مغامراتهم وجرأتهم ، ولفترة سنوات طويلة . وكانت حكومة إنجلترا قد قررت تجنب الدخول فى حروب خارجية ، حتى يتم تأكدها من ولاء كل رعاياها ؛ فحاولت التنصل من كل ما من شأنه أن يؤدى إلى وقوع صدام مع الدول الأجنبية .

وكانت العناصر البيوريتانية المتطرفة فى إنجلترا تعارض هذه السياسة ، وترى ضرورة محاربة العدو فى كل مكان ، وتدعيم الاتجاه البروتستانتى فى الأراضى المنخفضة وفى فرنسا ، وفى أعالى البحار . وكانوا يعرفون قوة إنجلترا البحرية التى نمت وقويت فى هذا الوقت . وقوة تسليح سفنها ، وقدرتها على الحركة،رغم كبر حجم السفن الاسبانية. وكانوا يرون أن فى وسع سفن القراصنة والأسطول التجارى أن تنضم إلى هذه القوة البحرية ، وتأخذ مكانتها اللائقة بها فى العالم . وأخذوا على الحكومة ، وعلى الملكة اليزابيث ، هدوءها ، ووصل بهم الأمر إلى إتهامها بأن سياستها خالية من البطولة التى تنشدها الأمة. ولكن حكومة اليزابيث لم تلتفت اليهم ، أو لم تتأثر بهم ، وإن كانت قد تركت لهم حرية العمل ، بعيداً

عن مسئوليتها ، كحكومة وكدولة ، لكي ينفذوا ما يرغبون فيه .

وإذا كانت السفن الاسبانية أكثر عدداً ، وأكبر حجما من سفن الانجليز ، إلا أن سفن الإنجليز كانت أسرع حركة ، وأكثر تسليحاً بالمدافع على الجوانب ، وكانت لها حرية الحركة، وعطف الحكومة ، فتعود إنتصاراتها بالفائدة على الحكومة الإنجليزية ، ودون أن تكلفها النفقات ، أو تحملها النتائج المترتبة على ما تقوم به من عمليات .

وكان البحارة الإنجليز يحقدون على الإسبان وعلى البرتغال حصولهم على الهند الغربية والهند الشرقية ، ويحقدون على البابا ، الذى وزع العالم بينهما . ونظروا إلى أعالى البحار على أنها مناطق لا تخضع لسيادة أحد Res Nillius ، يمكن لأى أحد أن يعمل فيها . وكانت أنباء الكشوف الجغرافية ، والتوطن والحصول على ثروات العالم تصل إلى آذانهم ، ويرونها ، وهم فى البحر ، كفقراء ، وشحاذين ، ولكن قادرين ، ودون أن يكون لهم حق شرعى فيها . وشعروا بأنهم أقدر من غيرهم ، ولكن البابا كان قد قسم العالم بين الإسبانيين والبرتغاليين ، فصمموا على ألا يصبحوا كاثوليك ، وصمموا على إنتزاع حقهم بقدرتهم على العمل ، فى هذا العالم المتطور سريعاً ، عالم النهب والإستغلال ، حتى وإن كانت حكومتهم لا تقدر على إعلان موافقتها على عملياتهم .

ولقد عمل كل من وولى وتشانسلور فى سنة ١٠٥٣ على أن يصلا إلى بلاد التوابل بالسفر عن طريق الشمال الشرقى، ففتحا بذلك طريق التجارة مع موسكو ، أما فروبشر وجيلبرت فإنهما حاولا الوصول إليها عن طريق الملاحة بطريق الشمال الغربى . فإكتشفوا مضيق هدسون ، ولكن هذه الملاحة كانت تحاول الحصول على « خط جديد » ، وداخل نطاق تقسيم العالم ، الذى كان البابا قد أقره . وكان هناك إتجاه آخر يرسم ضرورة تغيير هذه الوضعية ، إذ أن العالم لا يقسم بجرة

قلم على الكرة الأرضية ، حتى إذا كان من قام برسمها هو البابا نفسه ؛ وكان هذا الإتجاه هو الذى ساد ، وعلى أساس المنافسة ، والصراع . وسكتت حكومة اليزابيث عن ذلك ؛ وكانت تعطف عليه .

ولقد رأى مجموعة من رجال البحر الانجليز ، ومنهم جون هوكنز ، الذى كان قد شارك فى عملية نقل الزنوج من غرب إفريقية إلى جزر الهند الغربية ، ضرورة إستخدام القوة ؛ فسلحوا سفنهم ، وإستعدوا لمنازلة الاسبانيين ، وذلك من أجل تحطيم النظام الإستعمارى الإحتكارى الأسبانى ، وتقرير موضوع هام ، هو تجاره العالم .

وفى سنة ١٥٦٧ وقعت معركة فى ميناء سان جوان دى أولوا بين الإسبانيين والانجليز ، وكان جون هوكنز ، وأبن عمه فرنسيس دريك قد التجأ إلى هذا الميناء لهبوب عاصفة ، بعد أن قاما بتجارة وأعمال قرصنة فى أعالى البحار ، التى كانت تابعة ، قانوناً ، لإسبانيا . وحضر أسطول إسبانى يحمل الحاكم العام للمكسيك وفجأة ، وفى الوقت الذى كان فيه بحارة الدولتين يتحدثان ودياً على الشاطىء . فتحت السفن الإسبانية النار على سفن التجار ، أو القراصنة الانجليز . وكان للاسبان ثلاثة عشر سفينة ، وللانجليز خمسة ، تحطمت ثلاثة منها ولم ينج هوكنز ودريك إلا بعد قتال عنيف ، إنه الغدر من جانب الاسبان ، والشجاعة من جانب الانجليز ؛ وهناك ضرورة للثأر ، حتى وإن كانت الملكة اليزابيث لا توافق على ذلك .

وقام دريك . لمدة ثمان وعشرين سنة بالسيطرة على البحار ؛ وكان قرصاناً ، لا تعترف دولته به رسمياً وقام بأعمال السطو على الموانى والأساطيل الإسبانية فى كل مكان . فكان يهاجم الموانى الإسبانية . ويهاجم السفن الإسبانية التى تحمل كنوز بيرو ، عند برزخ بنما ، وعلى شاطىء المحيط الهادى ، وعند جزر التوابل .

وهاجم السفن الاسبانية فى ميناء قادس ، وأحرقها ؛ واضطرت اليزابيث الملكة ، بعد أن حصلت على نصيبها من الغنائم ، إلى أن تحضر لمقابلته فى ميناء تفورد ، وتنصبه فارساً ؛ وإن كانت الاشاعات قد إنتشرت ، على أنه عشيق الملكة . أن هذه المنافسة ، مع غض عيون الدولة عنها ، تعنى حرباً غير معلنة بطريق رسمى ؛ ولكنها سياسة الانجليز ، سياسة الأمر الواقع ، وهى السياسة الواقعية. وستتسبب مشاكل أقل من ذلك خطورة فى نشوب الحرب بين إنجلترا وإسبانيا .

٣ ـ مارى ستيوارت ، ملكة إسكتلندا :

وإذا كانت كل من اليزابيث ، وفيليب الثانى ، يرغب فى تجنب الصدام ، إلا أن هناك عواملا ساعدت على الوصول إليه . ورأى فيليب الثانى أن هناك حزباً كاثوليكياً يمكنه أن يستند إليه ، وبخاصة فى شمال إنجلترا ؛ وكان هذا الحزب يأمل فى حصوله على دعم خارجى ، فقام بالثورة فى سنة ١٥٦٩ ، ولكنه لم يحصل عليها ، وسحقت حركته .

وتجمع المتآمرون . حول مارى ، ملكة إسكتلندا . وكانت إبنة مارى دى جيز ، من جيمس الخامس ، ومات زوجها ، فرنسوا ، ولى عهد فرنسا ، فى باريس ، ثم ماتت أمها مارى دى جيز ، التى كانت مع جيش الكاثوليك فى جنوب إسكتلندا . وحكمت إسكتلندا ، وتزوجت دارنلى ، الذى كان يطمع فى عرش إنجلترا عن طريق أمه . وأعطى هذا الزواج ولداً أصبح جيمس السادس ، ملك إسكتلندا ، ثم أصبح جيمس الأول ملك إنجلترا . وقتل أحد النبلاء زوجها ، وتزوج منها . وتقزز النبلاء الاسكتلنديون من ذلك ، وسجنوا ملكتهم ، التى هربت من السجن ، والتجأت إلى اليزابيث ملكة إنجلترا .

وكان فى وسع اليزابيث أن تعيد الملكة مارى لكى تحاكم فى بلادها ، ولكنها إحتفظت بها سجينة ، وحاولت أن تحصل منها على تصريح بالتنازل عن عرشها

لإبنها جيمس السادس ، على أن يتلقى تعليمه فى إنجلترا . ولكن الملكة مارى رفضت ذلك ، وسايرت مشروع آخر ، للتزوج من فيليب الثانى ، ملك إسبانيا ، الأمر الذى كان يقلب الأوضاع رأساً على عقب .

وبعد تسعة عشر عاماً من السجن ، (١٥٦٨ — ١٥٨٧) ، أصبحت مارى ، ملكة إسكتلندا مركزاً للتآمر . وساعدها على ذلك موقف فيليب الثانى ، وموقف البابا ، وأدى ذلك إلى مؤامرات ، فطلب أعضاء مجلس العموم واللوردات أعدامها . ووافقت اليزابيث على ذلك ، بعد أن كانت الملكة مارى قد تركت شبابها ، ولم تعد أكثر من أسطورة لمؤامرات الكاثوليك ضد البروتستانت ، أكثر من كونها عروس تزف إلى عريسها . ووقع ذلك القرار موقع الصدمة على إسبانيا ، وعلى ملكها .

٤ ـ الحرب وتحطيم الأرمادا :

ولقد نظرت إسبانيا إلى هذا القرار نظرة التحدى ، خاصة وأن الظروف العامة كانت قد أوصلت أنباء موت الملك سباستيان ، ملك البرتغال فى حربه ضد المغرب دون أن يترك وريثاً سنة ١٥٨٠ ، الأمر الذى أدى إلى ضم ملك البرتغال ، وإمبراطوريتها الاستعمارية فيما وراء البحار ، إلى الامبراطورية الاسبانية . وإنتقلت البرازيل وجزر آزور ، وإمبراطورية البرتغال فى الشرق الأقصى إلى ملك إسبانيا . وكان فيليب الثانى لا يزال متردداً فى محاربة إنجلترا ، وكان مشغولا بالحرب فى الأراضى المنخفضة . وكانت إنجلترا تؤيد أعداء البرتغاليين ، وثورة الهولنديين ، وكانت فرنسا مشغولة بحروبها الدينية . ولكن مارى إستيوارت كانت قد إعترفت بفيليب خليفة لها على عرش إنجلترا ، فسار فى هذا الطريق ، وإلى النتيجة المحتومة .

ولقد بذلت إسبانيا مجهوداً كبيراً فى إعداد أسطولها العظيم ، الأرمادا ،

وأقلعت سفنه فى ٣٠ مايو سنة ١٥٨٨ بقيادة دوق دى ميدينا سيدونيا ، للتقدم فى بحر المانش إلى دنكرنك ونيو بورت ، ولنقل جيش بارما إلى إنجلترا ، ولكى يقوم بعزل اليزابيث ، وتعيين أبنه فيليب الثانى مكانها ، ملكة على إنجلترا . وكان فيليب الثانى قد إستند إلى خياله ، وخيال المنفيين ، وعجز عن قياس قوة إنجلترا ، وقوة الرأى العام فيها ، وإتخاذهم المذهب البروتستانتى طريقاً لهم ، وغيرتهم على مصلحتهم . مصلحة إنجلترا ، والانجليز ، قبل أى إعتبار آخر . وحتى فى حالة تمكن جيش بارما من النزول إلى إنجلترا ، فإنه كان سيلقى مقاومة عنيفة ، ومن كل الانجليز .

وإنهارت الخطة الاسبانية ، وعجزت سفنها الكبيرة عن مواجهة السفن الأصغر منها ، والأسرع منها حركة ، والاكثر منها قدرة على الحركة والأقوى منها فى كمية نيران المدفعية فهزمت الأرمادا الشهيرة فى معركة بحرية فى جرافيلينز ، وجاءت العواصف من بحر الشمال والمحيط الأطلسى لكى تقضى على بقية الأرمادا ، الأسطول الاسبانى الكبير . وبينما كان أسطول هولندى يراقب دنكرك ، وأجبر دوق بارما على البقاء على الساحل ، قام دريك وهوكنز وفروبشر بتحطيم الغلايين الاسبانية .

وكانت معركة ، ولكنهم رفضوا الاعتراف بها على أنها فاصلة ، ونقطة تحول فى التاريخ ، فإستمرت الحرب البحرية حتى سنة ١٦٠٤ ، وتمكن الانجليز من نهب قادس سنة ١٥٩٧ ، وإتصلوا بالموريسكيين فى بلنسية ، وبأعوان دون أنطونيو ، المطالب بعرش البرتغال . وفى نفس الوقت ، إعتمدت إسبانيا على اليسوعيين الانجليز ، وكاثوليك أيرلندا ، وأنزلت بعض قواتها هناك .

وعلى أى حال فإن هزيمة الأرمادا الاسبانية أثبتت أن قوات فيليب الثانى ، وإسبانيا ، يمكن هزيمتها . ورغم أن الأسبان قد واصلوا عملياتهم فى فرنسا ،

والأراضى المنخفضة ، وفى أعالى البحار ، إلا أنهم كانوا قد هزموا بالفعل . وتحطمت آمال إسبانيا الكاثوليكية فى فرنسا فى عهد هنرى الرابع ثم فى أيرلندا ، وإعترفت فى سنة ١٦٩٩ بإستقلال الهولنديين . وفى هذا الوقت ثبت أن المصلحة هى أساس العلاقات ، فتخلى الفرنسيون عن الانجليز ، وتخلى الانجليز عن البولنديين . وحين عقد الصلح بين إنجلترا وإسبانيا ، سنة ١٦٠٤ ، فى عهد جيمس الأول ، نص هذا الصلح على حق الاسبانيين فى منع الانجليز من الدخول إلى جزر الهند الغربية ، وعلى محاكمتهم أمام محاكم التفتيش . ولكن الأمر كان يتوقف على تمكن الاسبان من القاء القبض على الانجليز ، وكان هذا شيئاً هاماً. كما أن هذا الصراع ، مع حرب الأرمادا ، أتم عملية تحويل انجلترا الى بلاد بروتستانتية .

ولقد قام الاسبانيون ، بعد ذلك ، بالاستمرار فى عملية كراهية المغاربة والمسلمين الموجودين لديهم ، وقاموا بطردهم ، رغم كونهم من العناصر النشطة فى الميادين المنتجة ، الزراعية والحرفية ، فأدى ذلك الى زيادة فقر اسبانيا ، التى أقفلت على نفسها الباب فى تعصبها ، وفى احتكارها ، وانغلاقها .

أما الانجليز ، فإنهم عملوا على أثراء بلادهم ، بما يحصلون عليه من غنائم من الاسبانيين والبرتغاليين على البحار ، وبعملياتهم للنزول الى ميدان الاستعمار .

وكانت عملية نمو اسبانيا وسيطرتها على أوربا ، وعلى العالم ، قد أوقفت ، فى هولندا ، التى استقلت عنها ، وفى فرنسا ، التى وصل هنرى الرابع الى عرشها ، ومع انجلترا ، التى هزمت الأرمادا .

* * *

وساد عصر جديد ، بعد نمو الرأسمالية ، وظهور عصر النهضة ، والكشوف

الجغرافية، والحروب الايطالية ، ووصول الدولة العثمانية الى أوج عظمتها وقوتها في عصر سليمان القانونى ، والتى تمكنت الدولة الاسبانية ، بعد وصول العثمانيين الى أسوار فينا ، من هزيمة أسطولهم فى معركة ليبانتو . وهذا العصر الجديد هو التاريخ الحديث، بما فيه من توازن القوى الأوربية ، واذا كان التفوق الاسبانى قد أصابته ضربة أوقفت نموه ، فإن ذلك سيؤدى بنا من فجر التاريخ الحديث ، الى الدخول التاريخ الحديث نفسه ، ومنذ بداية القرن السابع عشر .

محتويات الكتاب

الباب الثانى

الباب الثالث

الباب الرابع

النهضة الاوربية ٢٥٧

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

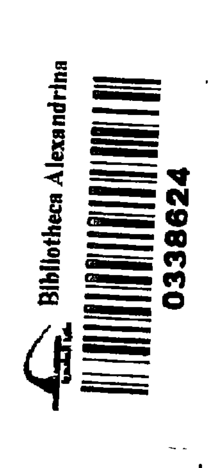
الباب الثامن

رقم الإيداع ٤٧٧١ / ٨٠

الترقيم الدولى ٣ — ٩٣٥ — ٢٠١ — ٩٧٧



٥ شارع كافور الحضرة القبلية — اسكندرية


Bibliotheca Alexandrina
0338624